فايز بن سيّاف السّريع

التناسب بين الآيات

الجزء الأول

من أول الكتاب
إلى سورة النساء

تقديم
جماعة من أهل التفسير

دار الحضارة

التناسب بين الآيات

ح شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العتيبي، فايز بن سياف بن فايز السريح
التناسب بين الآيات: الجزء الأول. /
فايز بن سياف بن فايز السريح العتيبي - ط١ - الرياض ١٤٤٣هـ
٧٧٦ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٥-٠٤-٨٣٨١-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن - تفسير　　أ- العنوان
ديوي ٢٢٧　　٩٨٧٣/ ١٤٤٣

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٩٨٧٣

ردمك: ٥-٠٤-٨٣٨١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع
ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥
هاتف: ٢٤١٦١٣٩ ـ ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٠٧٢٧١٩
فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣
الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨
البريد الإلكتروني: daralhadarah@hotmail.com

فايز بن سيّاف السّريح

التناسب بين الآيات

الجزء الأول

من أول الكتاب إلى سورة النساء

تقديم

جماعة من أهل التفسير

دار الحضارة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الدكتور فهد بن عبد الرحمن الرُّومي

إن الحمدَ لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يَهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد كان الناس في جاهليةٍ جهلاءَ، وضلالة عمياء؛ فبعث الله نبيه محمدًا ﷺ بالهدىٰ ودِين الحق ليُظهِره علىٰ الدين كله، وليُخرِج الناس من الظلمات إلىٰ النور، ولقد امتن الله علىٰ المؤمنين ببعثته، فقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وأنزل عليه الكتابَ ليُخرِج به الناسَ من الظلمات إلىٰ النور، ولم يَزَلْ ينزل منذ أشرق الوحيُ في ليلة القدر في غار حراء حتىٰ وفاته ﷺ، ينزل متتبعًا مسيرة الدعوة؛ يدفع مشكلًا، ويجلو غامضًا، ويحُلُّ قضية، ويحكُمُ في كل شأن من شؤون الحياة، وظل ينزل في ثلاث وعشرين سنة، جلا فيه كل ما تحتاجه البشرية، ووجدوا فيه نبأ ما قبلهم، وخبر ما بعدهم، وحُكْمَ ما بينهم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصَمه الله، ومن ابتغىٰ الهدىٰ في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخلَقُ علىٰ كثرة الرد؛ فأقبل عليه المسلمون -عامتهم

وخاصتهم- يتلونه ويتدبرونه، ويتعبدون به ويتبعونه، وسلكوا منهجه، وعملوا بمُحكَمِه، وآمنوا بمتشابهه، حتىٰ غدا الناس علىٰ المحجة البيضاء.

ومع أن القرآن نزل -كما أسلفت- في ثلاث وعشرين سنةً إلا أن ترابُطَ آياته، واتساق معانيه، وتناسق جُمَله، واتحاد سُوَره حتىٰ غدا كالسبيكةِ الواحدة؛ كأنه نزل جملة واحدة؛ ولذا كان هذا الترابطُ مع نزوله المتفرق معجزةً وأي معجزة! ذهب العلماء يتنافسون في كشف أسرار هذا الترابط بين جُمَله، والتلاحم بين آياته، والتمازج بين سُوَره، مظهرين وجوهًا مشرقة، ومعانيَ بديعة، وظهرت في الناس حاجة إلىٰ مَن يجلو لهم هذه المعاني، ويبرز لهم هذه الدرر، ويكشف لهم هذه الحِكَم؛ فالناظر إلىٰ كتبِ التفسير وعلوم القرآن علىٰ كثرتها وما قرروه من وجوه التناسب يدرك مدىٰ الحاجة إلىٰ كتابٍ جامع للمناسبات بين الآيات، تستفيد منه العامة -بل والعلماء- في هذا العصر، خاصة مع عزوف كثير من الناس عن كتاب الله تبارك وتعالىٰ.

لذا؛ فقد قام الباحث الشيخ: فايز بن سياف السريح في العمل علىٰ هذا المشروع وإعداده؛ خدمة لكتاب الله، جمع فيه ما بدا له من وجوه التناسب بين الآيات والسور؛ للتسهيل علىٰ القارئ فَهْمَ كتاب الله تعالىٰ، وتدبر آياته، ولإعانة الحفاظ علىٰ الربط بين آياته؛ لتيسير الحفظ، والوقوف علىٰ أسرار الترابط، وبيان وجوه من أوجه إعجاز القرآن البلاغية، ولتيسير الاستفادة من الوقوف علىٰ أسرار ترتيب آياته، والحِكَم السامية والأسرار الدقيقة للمناسبات بين الآيات والسور.

وامتاز كتابه بشيء من الشمول، مع حسن الترتيب والعرض، والاعتماد علىٰ المصادر الأصيلة، مع العناية بتخريج الأحاديث، وتوثيق المادة العلمية، وخرج كتابه في

مجلدات عدة، ومع أنها ضخمة مقارنة بما كتبه العلماء إلا أنها قليلة أمام عطاء الآيات القرآنية ومعانيها التي لا تنضب مهما كثرت الدلاء.

أسأل الله أن يبارك في هذا الكتاب ومؤلفه، وأن يعم بنفعه، وأن يجعله خالصًا لوجهه، وفي ميزان أعمال المؤلف، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

أ.د. فهد بن عبد الرحمن الرومي

أستاذ الدراسات العليا- جامعة الملك سعود سابقًا

الرياض

مقدمة الدكتور عبد المحسن بن زبن المطيري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن علمَ المناسبات من العلوم المهمة الغزيرة الفائدة، ولكن لصعوبة فهمِه ووعورة طريقه قل سالكوه، والشيخ فايز السريح -حفظه الله- من الذين وُفِّقوا في التأليف في علوم القرآن عمومًا، وفي علم المناسبات خصوصًا، وقد قام بتأليف كتاب «التناسب بين الآيات»، وهي موسوعة شاملة لجُلِّ ما كُتِب في هذا الباب.

وهو كنز ثمين، قضى فيه المؤلف سنوات من عمره يجمع فيها؛ فدونك أيها القارئُ هذه الثمارَ اليانعة، والفوائد الماتعة، لك غُنْمُها، وعلى المؤلف جمعها وغُرْمُها، و«إذا مررتم برياض الجنة، فارتَعوا...».

وأسأل الله أن يبارك في جهد المؤلف، ويزيده عطاءً، وينفع به الإسلام والمسلمين.

كتبه

أ.د. عبد المحسن بن زبن المطيري

رئيس قسم التفسير والحديث بكلية الشريعة

جامعة الكويت

مقدمة الدكتور عبد الله بن عبد العزيز العواجي

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

فإن مِن توفيق الله تعالىٰ لعبده أن يجعله مباركًا؛ ومن ذلك أن يوفقه ويُعِينَه علىٰ بذل العلم النافع، وأحسب أن ما كتبه الأخ الشيخ الفاضل فايز بن سياف السريح -جزاه الله خيرًا وبارك فيه ووفقه- من كتاباتٍ خادمة للقرآن العظيم من أنواع هذا التوفيق، وقد شرفني بالتقديم لكتابه «موسوعة التناسب بين الآيات»، وقد تميز هذا الكتاب بمزايا؛ من أهمها:

١- أهمية مجاله، وهو علم المناسبات.

٢- استيعابه لأغلبِ ما نص عليه المفسرون من مناسبات، وقد أربت علىٰ خمسةَ عشر ألفَ مناسبة.

٣- اعتماده علىٰ المصادر الأصليَّة المعتمَدة في علمِ التفسير، لا سيما الكتب التي اهتمت بهذا المجال.

٤- توثيقُ نقولاته.

٥- وضوح عباراته.

٦- التزامه منهج أهل السُّنة والجماعة في التفسير.

٧- بعده عن الحَشْوِ والتكرار.

وفق الله مؤلفه وجميع طلاب العلم لخدمة دِينه وكتابه، ونفعِ عباده، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

كتبه

د. عبد الله بن عبد العزيز العواجي

عضو هيئة التدريس في قسم التفسير وعلوم القرآن

الكريم في كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية سابقًا

مقدمة الدكتور محمد بن عبد الله القحطاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا مقدِّم لما أخَّر، ولا مؤخِّر لما قدَّم، والصلاة والسلام علىٰ النبي الأكرم، والرضوان والرحمة علىٰ الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان، أما بعد:

فإن التقديم للكتب أمانة وشهادة، والأمانة ثقيلة، والشهادة خطيرة، ورحم الله الشيخ الجليل بكر أبو زيد إذ قال: «إن مسألةَ التقديم والكتابة لأي كتاب - عندي - ليست بالأمر الهيِّنِ؛ فإن من يريد أن يقدِّمَ لكتاب ما لا بد أن يأتي بشيءٍ جديد يفيد القارئ، وإلا فلا يُتعب نفسه».

وقد طلب مني أخي الحبيب الشيخ فايز السريح - وفقه الله - أن أكتب مقدمةً لكتابه هذا، الموسوم بـ «التناسب بين الآيات»، وهو عندي بمنزلةٍ رفيعة تمنعني من أن أرد له طلبًا؛ وذلك لما رأيت من حرصه علىٰ نشرِ العلم وتقريبه للناس من خلال التأليف، مع رغبةٍ صادقة في الإتقان، خاصة في الموضوعات المتنوعة التي تعين علىٰ فهمِ القرآن، وتيسير علومه.

وموضوع هذا الكتاب يتعلق بعلمٍ جليل القدر من علوم القرآن الكريم، وهو علم المناسبات، الذي تهيَّب من التأليف فيه العلماءُ؛ وذلك لأنه يستند إلىٰ الرأي، والقولُ بالرأي في القرآن شديدٌ، إضافة إلىٰ أنه يحتاج إلىٰ إعمالِ الفكر، وطولِ التأمل، وليس ذلك مما يتيسر لكل مشتغِل بالتأليف والتصنيف.

ولمّا كان القول في المناسبات دقيق المأخذ، صعبَ المنال؛ ذهب بعض العلماء إلىٰ أن الاشتغال به من التكلُّف المذموم، والقولِ بالرأي المنهي عنه؛ قال الإمام الشوكاني ﵀ في تفسيره: «اعلَمْ أن كثيرًا من المفسرين جاؤوا بعلمٍ متكلَّف، وخاضوا في بحرٍ لم يُكلَّفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدةٍ، بل أوقعوا أنفسهم في التكلمِ بمحضِ الرأي المنهيِّ عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه؛ وذلك أنهم أرادوا أن يذكُروا المناسبةَ بين الآيات القرآنية المسرودةِ علىٰ هذا الترتيبِ الموجود في المصاحف، فجاؤوا بتكلُّفات وتعسُّفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء، فضلًا عن كلامِ الرب سبحانه، حتىٰ أفردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصدَ الأهم من التأليف؛ كما فعله البقاعي في «تفسيره»، ومن تقدَّمه، حسبما ذكر في خطبته...»[(١)] إلىٰ آخر كلامه.

ومع التسليم بوقوعِ التكلف في بعض ما ذكره أهل التفسير من المناسبات، إلا أن ما قرره الشوكاني هنا قد جانَب الصوابَ، بل إنه مناقض لصنيعِه هو في «تفسيره»؛ إذ ملأه بالمناسباتِ بين الآيات.

ومن العجب أنَّ الشوكاني نفسَه قد أثنىٰ ثناءً بالغًا علىٰ كتابِ الإمام البقاعي الذي لمزه في كلامه السابق؛ فقد قال في كتابه «البدر الطالع» في ترجمة البقاعي في سياق حديثه عن كتابه في المناسبات: «وَمن أمعن النظر في كتاب المترجَمِ له في التفسير الذي جعله في المناسبة بين الآي والسور، عَلِم أنه من أوعية العلم المفرِطين في الذكاء، الجامعين بين علمي المعقول والمنقول، وكثيرًا ما يُشكِل عليَّ شيء في الكتاب العزيز، فأرجع إلىٰ مطوَّلات التفاسير ومختصَراتها، فلا أجد ما يشفي، وأرجع إلىٰ هذا الكتابِ فأجد ما يفيد في الغالب»[(٢)].

---

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ٨٥-٨٦).

(٢) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني (١/ ٢٠). وينظر لمعرفة موقفه من المناسبات والرد عليه: بحث "موقف الشوكاني في تفسيره من المناسبات" للدكتور أحمد بن محمد الشرقاوي.

والحق أنَّ لاستخراجِ المناسبات بين الآيات واستنباط وجوه الارتباط بينها فوائدَ كثيرة، وثمراتٍ جليلة، مذكورة في مظانها من كتب علوم القرآن، وكتب التفسير الموضوعي، غيرَ أن الفائدة التي أراها جديرةً بالتنبيه هنا هي: أن هذا العلم مجال رحب لإعمال الفكر في كتاب الله، وتدبُّر آياته؛ فإن الله ﷻ قد حثَّ في كتابه على التفكر والتدبر؛ بل جعل التفكر قسيمًا للبيانِ النبوي في قوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، وفي ذلك من رياضة العقل وتنشيط الفكر ما لا يخفى على مَن مارَس النظر في هذا النوع من أنواع الاستنباط.

ومما يحسُنُ ذكرُه من التنبيهات في هذا الباب:

أولًا: القول في المناسبات يدخل غالبُه في باب المُلَحِ واللطائف.

ثانيًا: لا ينبغي لمن اشتغل به أن يجزم بما استخرَجه من المناسبات، وحسبُه أن يجتهد ويبذل الوسع، ثم يقول بعد استخراج كل مناسبة بكل تواضع: «الله أعلم بأسرار كلامه»(١).

ثالثًا: لما كان استخراج المناسبات يعتمد على الرأي والاجتهاد، فإن وجوهَ الربط بين الآيات تتعدد في الغالب؛ فلا وجهَ لإنكار تعدُّد المناسبات في الموضع الواحد، كما أن الموازنة بينها مبنيَّةٌ على الذوق وغلبة الظن، ولا يكاد يوجد أدلة قاطعة لمعرفة المقبول منها والمردود إذا لم تشتمل على خطأ بَيِّنٍ.

رابعًا: المناسبات التي تُذكَر للربط بين الآيات تتفاوت في حلاوتها، وتأثيرها، وحسن مأخذها؛ فمنها ما يُفرَح به أشد الفرح، ومنها ما يظهر فيه التكلف، ومنها بين ذلك. وبعضُ المناسبات مشرقة بأنوار الوحي، وبعضها محاطة بأسداف التكلُّف.

---

(١) ذكر بعض أهل العلم أن قول: "والله أعلم" يكون بعد الكلام غير المجزوم به، وأما ما تقرر وثبت، فيقال بعده: "والله الموفق للصواب".

خامسًا: قال الإمام الزركشي - وما أحسَنَ قِيلَه هذا -: «واعلم أن المناسبة علمٌ شريف، تُحزَرُ به العقول، ويُعرَف به قدرُ القائل فيما يقول»(١)؛ فمن اشتغل بهذا العلم استنباطًا وتأمُّلًا، ظهر مقدار عقله، وانكشف للناس قدر علمه.

وأخيرًا، فمِن بين يديك أيها القارئ هذا الكتاب، الذي بذل جامعه فيه جهدًا كبيرًا لتقريب ما استنبطه العلماء من مناسبات بين الآيات، وجمعِ ما تفرَّق في كتب التفسير من وجوه الربط بينها؛ حتىٰ يسهل علىٰ الراغب معرفة وجوه التناسب، والاطلاع علىٰ ما كتبه المفسرون في كتاب واحد.

أسأل الله تعالىٰ أن يكتب لهذا العمل القَبول، وأن يجعله من العلم النافع الذي لا ينقطع أجره، وأن يجعلنا جميعًا من أهل القرآن الذين يتدبرون آياته، ويتلونه حق تلاوته؛ إنه خير مسؤول، وأكرم مأمول.

والحمد لله أولًا وآخرًا.

د. محمد بن عبد الله بن جابر القحطاني
الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه بجامعة الملك خالد
٢٩/ ٣/ ١٤٤٣هـ

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٣٥).

مشروعُ التَّناسُبِ بينَ الآياتِ في سطورٍ

اسمُ المشروعِ:

التَّناسُبُ بين الآياتِ.

أهدافُ المشروعِ:

١- جمعُ وترتيبُ التَّناسُبِ بين الآياتِ.

٢- الإعانةُ علىٰ فَهْمِ كتابِ الله، وتدبُّرِ آياتِه.

٣- تسهيلُ الربطِ بين الآياتِ لحفَّاظِ كتابِ الله تعالىٰ.

٤- الوقوفُ علىٰ أسرارِ الترابطِ بين الآياتِ القرآنيَّة.

٥- بيانُ إعجازِ القرآنِ العظيم.

جمهورُ المشروعِ:

- المتخصِّصون في مجالِ الدراساتِ القرآنيَّة؛ مِن أساتذةِ الجامعاتِ والكلياتِ والمعاهد العلميَّة، وطلَّابِ الدراساتِ العليا، والباحثين في المراكزِ البحثية.

- المهتمُّون بالقرآن وتفسيره؛ مِن حفَّاظِ كتابِ الله ﷻ، والدعاةِ إلىٰ الله، وعامةِ الناس.

مميِّزاتُ المشروعِ:

١- الشمولُ والاستيعاب مع حُسْنِ الترتيبِ والعَرْض.

٢- الحرصُ علىٰ تسهيلِ المعلومة، وتقريبِها.

٣- الاعتمادُ علىٰ المصادرِ الأصليَّة المعتمَدة في علمِ التفسير.

٤- التوثيقُ للمعلوماتِ والنُّقولات.

٥- تخريجُ الأحاديثِ والآثار الواردةِ في هذا المشروعِ.

أسبابُ تأليفِ المشروعِ:

إنَّ الناظرَ إلىٰ كتبِ التَّفسيرِ وعلومِ القرآن -علىٰ كثرتِها- يمكنُه إدراكُ مدىٰ الحاجةِ إلىٰ كتابٍ جامعٍ للمناسَباتِ بين الآياتِ، تستفيدُ منه جميعُ الفئاتِ والمستويات في هذا العصرِ، خاصَّةً مع عزوفِ كثيرٍ مِن الناسِ عن كتابِ الله ﷻ؛ لذا فقد قُمْتُ بالعملِ علىٰ هذا المشروعِ وإعدادِه؛ خدمةً لكتابِ الله، ولتيسيرِ الاستفادةِ منه، والوقوفِ علىٰ أسرارِ ترتيبِ آياته.

تاريخُ بدايةِ المشروعِ:

جُمادىٰ الأُولىٰ/ ١٤٣٨هـ.

تاريخُ نهايةِ المشروعِ:

محرَّم/ ١٤٤٣هـ.

مَراجِعُ المشروعِ:

١- التهذيبُ في التفسيرِ: للحاكمِ الجشمي.

٢- معالمُ التنزيل: للبَغَوي.

٣- المحرَّرُ الوجيز: لابنِ عطيَّةَ الأندلسي.

٤- التفسير الكبير: لفخرِ الدِّينِ الرازي.

٥- الجامعُ لأحكامِ القرآن: للقُرْطُبي.

٦- أنوارُ التنزيل: للبَيْضاوي.

٧- مدارِكُ التنزيل: للنَّسَفي.

٨- البحرُ المحيط: لأبي حيَّانَ الأندلسي.

٩- تفسيرُ القرآنِ العظيم: لابنِ كثيرٍ الدِّمَشقي.

١٠- اللُّباب في علومِ الكتاب: لابنِ عادلٍ الحلَبي.

١١- نَظْمُ الدُّرَر: للبِقاعي.

١٢- إرشادُ العقلِ السليم: لأبي السعود.

١٣- فتحُ القدير: لمحمَّدٍ الشَّوْكاني.

١٤- رُوحُ المعاني: للآلُوسي.

١٥- فتحُ البيانِ: لصِدِّيق خان.

١٦- محاسنُ التأويل: للقاسمي.

١٧- التحريرُ والتنوير: لابنِ عاشور.

١٨- أضواءُ البيان: للشِّنْقيطي.

١٩- تيسيرُ الكريمِ الرحمن: للسعدي.

٢٠- تفسيرُ القرآنِ الكريم: للعثيمين.

٢١- أيسَرُ التفاسير: لأبي بكرٍ الجزائري.

مقدِّمة الكتاب

الحمدُ للهِ الملكِ المعبود، ذي العطاء والمَنِّ والجُود، واهبِ الحياةِ وخالقِ الوجود، الذي اتصَف بالصَّمَديَّة وتفرَّد بالوَحْدانيةِ والملائكةُ وأولو العلمِ على ذلك شُهود، نَحمَدُه ﷻ ونستعينُه فهو الرحيمُ الودود.

وأشهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ العزيزُ الحميد، ذو العرشِ المَجيد، الفعَّالُ لِما يريد، والمُبدِئ المُعيد، خلَق الخَلْقَ فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيد، حكَمٌ عَدْلٌ ليس بظلَّامٍ للعبيد، لا يَشغَله شأنٌ عن شأن؛ كلَّ يومٍ هو في شأنٍ جديد.

وأشهَدُ أنَّ سيدَنا محمَّدًا عبدُه ورسوله ذو الرأيِ الرشيد، والقولِ السديد، بلَّغ الرسالةَ، وأدى الأمانة، وأرشَدَنا إلى طريقِ الهداية، وحذَّرنا من التردِّي في الغَواية، فاختصَّه ربُّه بالوسيلةِ والفضيلة وبشَّره بالمَقامِ المحمود، وجعَله يومَ القيامة شهيدًا على الشُّهود، اللهم صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه، وعلى كلِّ مَن سار على نهجِه، واقتفَى أثَرَه، وعَمِل بسُنَّتِه إلى يوم الدِّين، أما بعد:

فإنَّ القرآنَ الكريم أعظَمُ نِبْراس، وأجلُّ نعمةٍ أنعَم اللهُ بها على الناس، تتجلى عظَمتُه بوضوحٍ في إعجازِه وإحكامه؛ فهو كتابٌ مُعجِزٌ مُحكَمٌ، قد بلَغ الغايةَ في الإعجازِ والإحكام، ألا وإنَّ مِن صُوَرِ الإعجازِ التي تناولها العلماءُ، والتمَسها البلغاءُ: ما كان مِن تناسُبِ القرآنِ في مواضيعِه وغاياته، وتناسُقِ سُوَرِه وآياتِه، على الرغمِ من نزوله مفرَّقًا في ثلاثٍ وعشرين سنةً.

فالقرآنُ الكريم وَحْدةٌ موضوعيَّة متكاملة، وكلُّ سورةٍ منه وَحْدة موضوعية، وكلُّ مَقطَعٍ مِن مقاطعِ السورة وَحْدةٌ موضوعيةٌ، والقارئُ لِمَا كُتِبَ في هذا العلمِ يلاحظ هذا

الاتساقَ الموضوعيَّ بين الآياتِ والمقاطعِ والسُّوَر، وهناك العديدُ من فروعِ علم المناسَباتِ التي يتضحُ من خلالها هذا الأمرُ، وما أجمَلَ ما قاله الدكتورُ محمد عبد الله دراز في سياقِ حديثِه عن التَّناسُب في القرآنِ: "إن كانت - أي: الآياتُ- بعد تنزيلها جُمعتْ عن تفريق، فلقد كانت في تنزيلِها مفرَّقةً عن جمعٍ؛ كمثَلِ بنيانٍ كان قائمًا علىٰ قواعدِه، فلمَّا أُريدَ نقلُه بصورته إلىٰ غيرِ مكانه، قُدِّرتْ أبعادُه، ورُقِمتْ لَبِناتُه، ثم فُرِّقَ أنقاضًا، فلم تَلبَثْ كلُّ لَبِنةٍ مِن أن عرَفتْ مكانها المرقومَ، وإذا البنيانُ قد عاد مرصوصًا يشُدُّ بعضُه بعضًا كهيئتِه أولَ مرة".

وقد كنتُ عزَمتُ مِن قبلُ علىٰ جمعِ شتاتِ هذا العلم؛ إذ تبيَّن لي أنَّ هذا العلمَ مطروقٌ بكثرةٍ في كلامِ المفسِّرين، لكنَّه لم يُفرَدْ بالتصنيفِ؛ فعزَمتُ علىٰ جمعِه في تصانيفَ مستقلَّة، وكان أوَّلُ ذلك كتابَ "البيِّنات في علمِ المناسَبات"؛ حيثُ اشتمَل علىٰ الحديثِ عن المناسَباتِ بين السُّوَر، ومناسَباتِ أولِ السُّورة لآخرِها، ثم نظَرتُ بعده إلىٰ كتاب "نَظْمُ الدُّرَر في تناسُبِ الآياتِ والسُّوَر"، فأُعجِبتُ به أيَّما إعجابٍ، ورأيتُه قد حوىٰ الكثيرَ من الدُّرَرِ والفوائدِ واللطائف، وخاصَّةً في التَّناسُبِ بين الآياتِ؛ فعزَمتُ علىٰ اختصارِ المناسَباتِ بين الآياتِ منه، وكان ذلك أولَ خُطْوةٍ في بناءِ هذا الكتاب، ثم تلاه البحثُ عن المناسَباتِ في كتبِ التفاسير الأخرىٰ، وقد تحدَّثتُ عنها بالتفصيلِ في الجزء الخاصِّ بمصادرِ الكتاب، وقد بلَغ عددُ المناسَبات التي جمَعتُها في هذا الكتابِ (١٥٥٢٧) مناسبة؛ فهو -فيما أعلَمُ- أوسَعُ مجموعٍ في بابه؛ فالحمدُ لله علىٰ حُسْنِ توفيقِه، وعظيمِ معونته، واللهَ أسأل أن يَجعَلَ سعيي في هذا الكتابِ مسعودًا، وفِعْلي في الدارينِ محمودًا؛ فمِن اللهِ وحده يُستجلب التوفيقُ، مُبتدَاه ومنتهاه، وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله.

التعريفُ بالتَّناسُبِ بين الآياتِ

علمُ المناسَبةِ علمٌ شريفٌ حسَنٌ، ينبثق شرفُه من شرفِ متعلَّقه؛ وهو القرآنُ الكريم، وقد كثُر التأليفُ والكتابة في علمِ المناسَباتِ قديمًا وحديثًا، وخُصِّصت مؤلَّفاتٌ مستقلة لهذا الموضوعِ المهم، وقد ذكَرتُ طرَفًا من ذلك، وفصَّلتُ ما يتعلق بعلمِ المناسَباتِ والتأليف فيه وما يتعلق به في كتابي "البيِّنات في علمِ المناسَبات"، وهو مطبوعٌ ومنشور -ولله الحمدُ والمنَّة-، لكن لمناسَبةِ المقام سأذكر تعريفَ المناسَبةِ تعريفًا مختصرًا، وما يتعلقُ منه بموضوعِنا.

المناسَبةُ لغةً:

النونُ والسين والباء: أصلٌ واحدٌ، قياسُه اتصال شيءٍ بشيءٍ، ومنه النَّسب، سُمِّي كذلك؛ لاتصالِه والاتصال به، وتقول: ليس بينهما مناسَبةٌ؛ أي: مشاكَلة[(١)].

المناسَبةُ اصطلاحًا:

كثُرت التعريفاتُ حول المناسبةِ وتعدَّدتْ، ولعلَّ أنسبها لهذا المقامِ ما ذكَره ابنُ العربيِّ بقوله: "ارتباطُ آيِ القرآن بعضِها ببعضٍ حتىٰ تكونَ كالكلمةِ الواحدة؛ متَّسِقةَ المعاني، منتظِمةَ المباني"[(٢)]، وهذا التعريفُ هو أقرَبُ التعريفاتِ لموضوعِ هذا الكتابِ؛ لتعلُّقه بالمناسَباتِ بين الآياتِ القرآنيَّة.

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور (١/ ٧٥٦)، ومقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٤٢٣).

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣/ ٣٦٩).

فوائدُ علمِ المناسَباتِ

للمناسَباتِ القرآنيَّة أقسامٌ كثيرة؛ منها المناسَباتُ بين السُّوَرِ، ومنها المناسَباتُ بين الآياتِ، ومنها مناسَبةُ الآية لِما قبلها، أو مناسَبتُها لِما بعدها، ومنها أيضًا مناسَبةُ أولِ السورة لآخِرِ ما قبلها، أو آخِرِ السُّورةِ لأولِ ما بعدها، وهكذا، لكنَّ هذا الكتابَ يختصُّ بذكرِ "مناسَبةِ الآيةِ لِما قبلها"، وفيما يلي عددٌ من الفوائدِ المتعلِّقة بذكرِ مناسَبةِ الآيةِ لِما قبلها؛ وهي:

١- فهمُ المقصودِ مِن كلامِ الله تعالىٰ علىٰ وجهِ الدقة.

٢- تنزيهُ كلامِ الله تعالىٰ عن التأويلاتِ الخاطئة المترتِّبة علىٰ بَتْرِ الكلامِ مِن سياقه.

٣- معرفةُ لطائفِ القرآن، وأسرارِه، وفرائدِه، وحِكَمِه، ودُرَرِه.

٤- بيانُ إعجازِ القرآن الكريم مِن خلالِ تركيبِ الآيات، وترتيبِها، وحُسْنِ سَبْكِها.

٥- تأكيدُ أهميةِ الموضوعِ مِن خلالِ ذِكْرِ مقدِّماتٍ له، أو ما يترتبُ عليه بعده.

٦- دفعُ الإيهامِ عن وقوعِ التَّكرار في القرآنِ بلا معنًىٰ يستدعيه.

٧- معرفةُ أسبابِ الأمور ونتائجِها مِن خلالِ التأمُّل في التَّناسُبِ بين الآياتِ.

٨- إبرازُ الوَحْدةِ الموضوعيَّة في القرآنِ الكريم في جُلِّ مواضعِه.

٩- ترسيخُ الإيمانِ في القلوب.

١٠- الإعانةُ علىٰ حفظِ القرآن الكريم، وخاصَّةً في معرفةِ المناسَباتِ بين الآياتِ.

منهجُ العملِ في الكتابِ

قام منهجُ العملِ في هذا الكتابِ على ركنٍ أساسي، وهدَفٍ رئيسي؛ وهو جمعُ المناسَباتِ بين الآياتِ القرآنيَّة، وبالأخص "المناسبة بين الآيةِ والتي قبلها"، وقد اتبَعتُ ما يلي في منهجِ العمل:

١- الأصلُ في هذا الكتابِ التركيزُ على المناسبةِ فقط قَدْرَ الإمكانِ؛ لذلك قد أحذِفُ بعضَ الكلامِ الذي لا يتعلق بالمناسبة، سواءٌ قبل الكلام أو بعده.

٢- جميعُ الآياتِ الواردة في الكتابِ بالرَّسم العثماني، منقولةٌ عن مصحفِ المدينةِ النبوية (النسخة القديمة).

٣- كتَبتُ الآياتِ الواردةَ داخل المناسَباتِ بالرَّسم العثماني؛ لتمييزِها عن كلامِ المؤلِّف، وحتى تتضحَ المناسبةُ وتتبيَّن.

٤- عزَوتُ كلَّ مناسبةٍ إلى التفسيرِ المنقولة عنه، وذكَرتُ اسمَ المصدر مختصرًا، مع رقمِ الجزء والصفحة، وفي الجزءِ الخاص بمصادرِ الكتاب بيَّنتُ أسماءَ المصادرِ كاملةً، ونُبْذة عنها، ومعلومات الطبعات؛ فمثلًا: كتاب "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، أشير إليه في العزوِ بـ"نظم الدرر" فقط؛ مراعاةً للاختصار، وأنَّ المقصودَ مِن الكتابِ هو بيانُ المناسبة تحديدًا.

٥- ربما كان هناك تصرُّفٌ في بعضِ المناسَبات، لكنَّه على كلِّ حالٍ تصرُّفٌ يسيرٌ لا يخلُّ بالمعنى إطلاقًا، ولا يحصُلُ إلا عند الضرورة؛ لأنَّ جميعَ المناسَباتِ المنقولةَ تم اقتباسُها مِن سياقاتِ التفسير، ولم يضَعْ أكثرُ المفسرين لها عنوانًا خاصًّا باسمِ "المناسبة بين الآية والتي قبلها"، أو ما شابَهَ.

٦- المناسَباتُ التي ليس لها عزوٌ إلىٰ مصدرٍ هي مِن بناتِ أفكارِ مؤلِّفِ الكتابِ، وليست منقولةً عن أيِّ تفسيرٍ.

٧- قد يكون هناك بعضُ المناسَباتِ المتعلِّقةِ باللغةِ، أو البلاغة، أو النحوِ، دُونَ التفسيرِ، وقد نقَلتُها أيضًا، ولا أقتصر علىٰ التفسيرِ فقط؛ قصدًا للحصرِ، ومراعاةً لشمولية الكتاب.

٨- عندما يكونُ هناك تَكْرارٌ في المناسبةِ، أو نقلُ تفسيرٍ من آخَرَ، فإنني أكتفي بذِكْرِ إحداهما؛ مراعاةً لعدمِ التَّكرار غيرِ المفيد.

٩- ربما كانت هناك مناسَباتٌ متعلِّقةٌ بسياقٍ وآياتٍ بعيدة عن الآيةِ السابقة تحديدًا، فأنقُلُها أيضًا؛ لأنها داخلةٌ إجمالًا في مناسبةِ الآية لِما قبلها.

ولعلِّي أشيرُ هنا إلىٰ بعضِ الفوائدِ والنتائج التي لاحظتُها خلالَ عملي في جمعي مادةَ الكتابِ؛ وهي:

١- تبيَّنَ لي أنَّ فخرَ الدِّين الرازيَّ استفاد مِن المناسَباتِ التي ذكَرها في تفسيرِه الكبير مِن الحاكمِ الجُشَمي.

٢- تبيَّنَ لي أنَّ فخرَ الدِّين الرازيَّ أكثَرَ مِن ذِكْرِ المناسَباتِ بين الآياتِ؛ فقد تصل مناسَباتُه أحيانًا إلىٰ أربعِ مناسَباتٍ بين الآية والتي قبلها.

٣- تبيَّنَ لي أنَّ صاحبَ "النَّظْمِ" برهانَ الدِّين البِقاعيَّ قد فاتته مناسَباتٌ ليست يسيرةً لم يذكُرْها في تفسيره.

٤- تبيَّنَ لي أنَّ محمد الطاهر ابن عاشور هو المفسِّرُ الوحيد الذي ناقَش المناسَباتِ بين الآياتِ في تفسيره "التحرير والتنوير"، واستعرَض بعضَها،

ورَدَّ بعضَها؛ بل قد يصل به الحالُ أحيانًا إلىٰ أن يقولَ: "أنَّ هذه الآيةَ ليست فيها مناسبةٌ".

٥- تبيَّنَ لي أنَّ "رُوحَ المعاني" للآلوسي هو في الأصلِ "إرشاد العقل السليم" لأبي السعودِ، ثم بنىٰ عليه تفسيرَه "روح المعاني".

٦- تبيَّنَ لي أنَّ صاحبَ "البحر المحيط" يذكُرُ المناسبةَ بعد ذِكْرِه لسببِ نزولِ الآية عادةً.

٧- تبيَّنَ لي أنَّ غالبَ مناسَباتِ "البحر المحيط" منقولةٌ عن "التفسير الكبير" للرازي، وهو الأكثر، أو مِن "المحرَّر الوجيز" لابنِ عطيَّة بتصرُّف.

٨- تبيَّنَ لي اهتمامُ الشَّوْكانيِّ بالتَّناسُبِ بين الآياتِ، وفي الغالبِ أنَّ مناسَباتِه تكون مستفادةً مِن "تفسير الرازي"، أو "تفسير أبي السعود".

٩- تبيَّنَ لي أنَّ المناسَباتِ المذكورةَ في "تفسير السعدي" هي غالبًا مستفادةٌ مِن "تفسيرِ ابن كثير".

١٠- تبيَّنَ لي أن البَغَويَّ فسَّر القرآنَ أكثرَ مِن ابنِ كثيرٍ.

مصادرُ الكتابِ

بلَغتْ مصادرُ الكتابِ أكثر من عشرين مصدرًا مِن كتبِ التفسير، وفيما يلي تَعْدادٌ وعَرْضٌ موجَز لمصادرِ المناسَباتِ المذكورة في الكتاب، وقد رتبتُها حسَبَ تاريخِ وفاة مؤلِّفيها.

تَعْدادُ مصادرِ الكتابِ:

المصدر الأول: "التهذيب في التفسير".

المصدر الثاني: "معالم التنزيل".

المصدر الثالث: "المحرَّر الوجيز".

المصدر الرابع: "التفسير الكبير" أو "مفاتيح الغيب".

المصدر الخامس: "الجامع لأحكام القرآن".

المصدر السادس: "أنوار التنزيل".

المصدر السابع: "تفسير النَّسَفي".

المصدر الثامن: "البحر المحيط".

المصدر التاسع: "تفسير ابن كثير".

المصدر العاشر: "اللُّباب في علوم الكتاب".

المصدر الحادي عشر: "نَظْمُ الدُّرَر".

المصدر الثاني عشر: "إرشاد العقل السليم".

المصدر الثالث عشر: "فتح القدير".

المصدر الرابع عشر: "رُوحُ المعاني".

المصدر الخامس عشر: "فتح البيان".

المصدر السادس عشر: "محاسن التأويل".

المصدر السابع عشر: "تفسير السعدي".

المصدر الثامن عشر: "التحرير والتنوير".

المصدر التاسع عشر: "أضواء البيان".

المصدر العشرون: "تفسير ابن عثيمين".

المصدر الحادي والعشرون: "أيسر التفاسير".

عرضٌ موجَزٌ لمصادرِ الكتابِ

سأبيِّنُ -بحَوْلِ اللهِ تعالىٰ وقوَّتِه- في هذا العرضِ الموجَز أهَمَّ ما يتعلقُ بكلِّ مصدرٍ مِن مصادرِ الكتاب؛ مِن خلالِ ذِكْرِ اسمِ الكتاب، واسمِ المؤلف، ونُبْذةٍ مختصَرة عن كليهما، مع ذِكْرِ عددِ المناسَباتِ لكلِّ مصدر، بالإضافةِ إلىٰ ذِكْرِ الطبعةِ التي اعتمَدتُ في الإحالةِ عليها.

المصدر الأول: "التهذيب في التفسير":

هو كتابُ "التهذيب في التفسير"، للحاكمِ أبي سعدٍ المحسنِ بن محمد الجُشَمي البَيْهَقي (المتوفىٰ: ٤٩٤هـ)، وهو أحدُ أبرزِ كتبِ التفسير بالرأي؛ كون مؤلِّفه معتزليًّا، ويقع الكتابُ في عشر مجلدات، وعن مذهبِ الحاكم الفِقْهي فلا يختلف المترجِمون له في أنَّه كان حنفيًّا، ثم انتقَل إلىٰ مذهبِ الزَّيْدية، وإن لم يحدِّدْ أحدٌ منهم تاريخَ هذا الانتقالِ، أمَّا في أصولِ الاعتقاد فهو معتزليٌّ لم يزل، وقد كان شيوخُه ممَّن أخَذ عن القاضي عبدِ الجبَّار، أو مَن هو في طبقته، وكان القاضي مِن أتباعِ المدرسة الجُبَّائية، ومِن أشياعِ أبي هاشمٍ بخاصة، ومِن هنا جاء انتسابُ الحاكمِ إلىٰ معتزلةِ البصرة[(١)].

أمَّا عن شهرةِ الكتاب، فقد اقتصرت شهرتُه داخل حدودِ اليمن مدةً مِن الزمان، حتىٰ برَز "الكشافُ" وغيرُه مِن كتب الزَّمَخْشَري، ولانعدامِ هذه الشهرةِ لم يكُنْ لتفسيرِ الحاكم الجُشَمي تأثيرٌ في غيرِه مِن المفسرين ممَّن جاؤوا بعده، وحتىٰ لا يكاد القارئُ يجد مؤاخذاتٍ علميةً أو دراسةً نقدية لتفسيره.

---

(١) الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير، عدنان محمد زرزور، (ص: ٨١ - ٨٢)، مؤسسة الرسالة، بيروت.

أمَّـا المناسَـباتُ المقتبَسـة مِـن كتـاب "التهـذيب في التفسـير"، فقـد نقَلـتُ مناسـبةً واحدةً منه.

الطبعةُ المعتمدة: دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٨/ ٢٠١٩م-١٤٣٩/ ١٤٤٠هـ، المحقق: عبد الرحمن بن سليمان السالمي.

المصدر الثاني: "معالم التنزيل":

وهو "معالم التنزيل"، لأبي محمَّدٍ الحُسَين بن مسعود بن محمـدٍ المعـروفِ بـالفرَّاءِ البَغَوي (المتوفى سنة: ٥١٠هـ)، وهو مِن أجلِّ كتبِ التفسير المتقدِّمة وأنبَلِها، حاوٍ للصحيحِ مِن الأقـوال، عـارٍ عـن الغمـوضِ والتكلُّف في توضـيحِ الـنصِّ القـرآني، مُحلًّى بالأحاديـثِ النبوية والآثارِ الغالـبِ عليهـا الصـحةُ، مختصَـر مِـن تفسيرِ الثَّعـالبي، لكنَّـه صـانه رحمه الله عـن الأقوالِ المبتدَعة، والأحاديثِ الضعيفة، ينقُلُ ما جـاء عـن السـلفِ في تفسـيرِ الآيـات دُونَ ذِكْـرِ الإسـنادِ غالبًـا، ويتعـرضُ للمسـائلِ الفقهيَّـة، ويـذكُرُ القـراءاتِ دُونَ إسـهابٍ فيهـا، والإسرائيلياتِ دُونَ تعقيبٍ عليها، ويتحاشى التوسعَ في مباحثِ الإعراب ونُكَتِ البلاغةِ، وقـد وصَـفه الخـازنُ في مقدمـةِ "تفسـيره" بقولـه: "مِـن أجلِّ المصـنَّفاتِ في علـمِ التفسـير وأعلاهـا، جـامعٌ للصـحيحِ مِـن الأقاويـل، عـارٍ مِـن الشُّـبَه والتصـحيفِ والتبـديل، مُحلًّى بالأحاديثِ النبوية، مطرَّزٌ بالأحكامِ الشرعية، موشًّى بالقِصَص الغريبة، وأخبارِ الماضـين العجيبة، مرصَّعٌ بأحسَنِ الإشارات، مخرَّجٌ بأوضـحِ العبـارات، مفـرَّغٌ في قالـبِ الجمـال، بأفصَحِ مقال".

وقد نقَلتُ منه في هذا الكتابِ مناسبةً واحدة.

الطبعة المعتمدة: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

المصدر الثالث: "المحرَّر الوجيز":

وهو "المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، لأبي محمدٍ عبدِ الحقِّ بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطيَّةَ الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، وهو "الإمام العلَّامة شيخ المفسِّرين، كان إمامًا في الفقه، وفي التفسير، وفي العربية، قويَّ المشاركة، ذكيًّا، فَطِنًا، مُدرِكًا، مِن أوعيةِ العلم"[١].

وهذا التفسيرُ يُعَد مِن أشهرِ كتبِ التفسير بالمأثور؛ فهو جليلُ الفائدة، عظيمُ النفع، وقال أبو حيَّانَ رحمه الله في مقدمةِ "تفسيره" في صددِ المقارنة بين ابنِ عطيَّةَ والزَّمَخْشَري: "وكتابُ ابنِ عطيَّةَ أنقَلُ وأجمَعُ وأخلَصُ، وكتابُ الزَّمَخْشَري ألخَصُ وأغوَصُ"[٢].

وأمَّا الكتبُ التي استفاد منها في "تفسيره"، فمنها: "جامع البيان في تفسير القرآن" للإمام الطَّبَري، و"شفاء الصدور" لأبي بكرٍ محمَّدِ بن الحسن بن زياد المَوْصليِّ المعروفِ بالنقَّاش، و"التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل" لأبي العباس أحمد بن عمار المَهْدوي التَّمِيمي، و"الهداية إلى بلوغ النهاية" لمَكِّيِّ بن أبي طالبٍ حموش بن محمد بن مختار، أبي محمَّدٍ القَيْسي.

أمَّا المناسَباتُ المقتبَسة مِن كتابِ "المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، فقد بلَغتْ (٢٣) مناسبةً.

---

(١) سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، (١٤/ ٤٠١)، دار الحديث - القاهرة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

(٢) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، (١/ ٢١)، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، ١٤٢٠هـ.

الطبعة المعتمدة: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد.

المصدر الرابع: "التفسير الكبير" أو "مفاتيح الغيب":

وهو لأبي عبدِ الله محمَّدِ بن عمرَ بن الحسن بن الحسين التَّيْمي الرازي، الملقَّب بفخرِ الدِّين الرازي خطيبِ الرَّي (المتوفىٰ سنة: ٦٠٦هـ)، وقد شَبَّ علىٰ طلبِ العلم، ورحَل في سبيلِ تحصيله إلىٰ أشهَرِ مواطنِه في عمرِه، وقد كان مِن نتيجةِ السعيِ لطلبِ العلم والجِدِّ في تحصيلِه أن أصبَحَ الرازيُّ- كما قيل عنه- إمامَ وقتِه في العلومِ العقلية؛ فكان متكلِّمَ زمانِه، وأحدَ الأئمةِ في العلومِ الشرعية والتفسيرِ واللُّغة، كما كان فقيهًا علىٰ المذهبِ الشافعيِّ، وقد ترَك الرازيُّ في هذه العلومِ الكنوزَ العلمية الكبيرة، والآثارَ الخالدة؛ مِن المؤلَّفاتِ التي حَظِيتْ في حياتِه وبعد وفاته بإقبالِ الناس عليها، يتدارَسونها، وينتفعون بما ترَكتْهُ قريحةُ هذا العالِمِ الكبير، وهي تربو -في مجموعِها- علىٰ مائتي مصنَّفٍ؛ ومِن أشهَرِ مؤلَّفات الرازيِّ: كتابُه المشهور في التفسيرِ، المعروفُ بـ"التفسير الكبير"، والناظرُ في هذا التفسيرِ الكبير يجد أمورًا هامَّة تَلفِتُ النظرَ، وتشُدُّ الانتباهَ؛ مِن أهمها: الاهتمامُ بذِكْرِ المناسَباتِ بين سُوَرِ القرآنِ وآياتِه، وبعضِها مع بعض، حتىٰ يوضِّحَ ما عليه القرآنُ مِن ترتيبٍ علىٰ الحِكْمةِ ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾[(١)].

وقد بلَغ عددُ المناسَباتِ التي جمعتُها منه (٢٠٠٠) مناسبة.

الطبعة المعتمدة: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

---

(١) انظر: مناهج المفسرين، منيع بن عبد الحليم محمود (المتوفىٰ: ١٤٣٠هـ)، (ص: ١٤٥ - ١٥٠)، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

المصدر الخامس: "الجامع لأحكام القرآن":

ويُسمَّىٰ أيضًا "تفسير القُرْطُبي"، لأبي عبدِ الله محمَّدِ بن أحمدَ بن أبي بكرٍ بن فرحٍ الأنصاريِّ الخَزْرَجي، شمس الدِّين القُرْطُبي (المتوفىٰ: ٦٧١هـ)، قال عنه الذهَبيُّ: "إمامٌ، متفنِّنٌ، متبحِّرٌ في العلم"(١)، وقال ابن فرحونَ: "كان مِن عبادِ الله الصالحين، والعلماءِ العارفين الوَرِعين، الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يَعنِيهم مِن أمورِ الآخرة، أوقاتُه معمورةٌ ما بين توجُّهٍ وعبادةٍ وتصنيف، وكان قد اطَّرَحَ التكلُّفَ؛ يمشي بثوبٍ واحد، وعلىٰ رأسِه طاقية"(٢).

وكان رَحِمَهُ اللهُ علىٰ عقيدةِ أهلِ السُّنة والجماعة، مالكيَّ المذهب، ورغم ذلك لم يكُنْ متعصِّبًا لمذهبِه رَحِمَهُ اللهُ؛ بل يرجِّحُ بين الأقوال ويختار، ويؤيِّدُ ما تؤيده الأدلةُ والقرائن، وأمَّا "تفسيره"، فقد قارَن شيخُ الإسلام ابن تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ بين "تفسيره" و"تفسير الزَّمَخْشَري" رَحِمَ اللهُ الجميع، فقال: "وتفسيرُ القُرْطُبي خيرٌ منه بكثيرٍ، وأقرَبُ إلىٰ طريقةِ أهلِ الكتاب والسُّنة، وأبعَدُ عن البدع، وإن كان كلٌّ مِن هذه الكتبِ لا بد أن يشتمِلَ علىٰ ما يُنقَد، لكن يجب العدلُ بينها، وإعطاءُ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه"(٣).

وقد بلَغ عددُ المناسَباتِ التي جمَعتُها منه في هذا الكتابِ (٢٩) مناسبة.

الطبعة المعتمدة: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش.

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام (٥٠/ ٧٥).

(٢) انظر: الديباج المذهب (١/ ٣١٧).

(٣) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام، أحمد ابن تيمية (١٣/ ٣٨٧ - ٣٨٨).

المصدر السادس: "أنوار التنزيل":

وهو "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، ويسمىٰ أيضًا "تفسير البَيْضاوي"، لناصر الدِّينِ أبي سعيدٍ عبدِ الله بن عمرَ بن محمد الشِّيرازي البَيْضاوي (المتوفىٰ: ٦٨٥هـ)، وكان ﷺ متكلِّمًا أشعريًّا متصوِّفًا، شافعيَّ المذهب، وقد ظهَر ذلك كلُّه في كتبِه ومؤلَّفاته، ويُعَد "تفسيره" مِن أهَمِّ كتبِ التفسير بالرأيِ؛ فهو كتابٌ جليل دقيق، جمَع بين التفسيرِ والتأويل علىٰ قانونِ اللُّغة العربية، وقرَّر الأدلةَ علىٰ أصول السُّنة، وقد اختصَره مؤلِّفُه مِن "كشَّاف" الزَّمَخْشَري، مع تركِ ما فيه مِن اعتزالاتٍ، كما استمَدَّه مِن "التفسير الكبير" للفخرِ الرازي، ومِن تفسيرِ الراغب الأصبهانيِّ المسمىٰ "تحقيق البيان في تأويل القرآن"؛ فأصبَح مِن أمَّهاتِ كتبِ التفسير التي لا يستغني عنها الطالبُ لفهمِ كلام الله ﷻ[1].

وقد بلَغ عددُ المناسَباتِ التي جمَعتُها منه في هذا الكتابِ (١١) مناسبة.

الطبعة المعتمدة: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ.

المصدر السابع: "تفسير النَّسَفي":

وهو "مدارك التنزيل وحقائق التأويل"، لأبي البركاتِ عبدِ الله بن أحمدَ بن محمود حافظِ الدِّينِ النَّسَفي (المتوفىٰ: ٧١٠هـ)، وهو مِن علماءِ المذهبِ الحنَفيِّ المشهورين، وممَّن لهم قَدَمٌ راسخٌ في كثيرٍ مِن العلوم، كان عالِمًا بالفقهِ، وأصولِ الدِّين، وأصولِ الفقه، والتفسيرِ، وهو غيرُ الإمامِ النَّسَفيِّ نجمِ الدِّين أبي حفصٍ عُمَرَ بن محمد (المتوفىٰ سنة: ٥٣٧هـ)، وله كتابٌ أيضًا في التفسيرِ، اسمه: "التيسير في التفسير".

---

(١) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفىٰ: ٦٨٥هـ)، (ص: ٥)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ.

أمَّا "مدارك التنزيل وحقائق التأويل"، فالناظرُ في هذا التفسيرِ يجد فيه فهمًا واعيًا، وخبرةً دقيقةً، واطلاعًا واسعًا، وحُسْنَ استفادةٍ مِن هذا الاطلاعِ، وقد استفاد مِن "تفسيرَيِ البَيْضاوي والكشَّاف" أيَّما استفادةٍ[(١)].

وقد بلَغ عددُ المناسَباتِ التي جمَعتُها منه في هذا الكتابِ (٤) مناسَباتٍ.

الطبعة المعتمدة: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو.

المصدر الثامن: "البحر المحيط":

وهو "البحر المحيط في التفسير"، لأبي حيَّانَ محمدِ بن يوسفَ بن عليٍّ بن يوسف بن حيَّانَ أثيرِ الدِّينِ الأندلسي (المتوفىٰ: ٧٤٥هـ)، برَع ﵀ في اللُّغةِ، والأدب، والنحوِ، والبيان، والبديع، وسَمِع وروىٰ الكتبَ الأمَّهاتِ في الحديثِ والسُّنن، وسَمِع مِن علمِ الكلام مسائلَ علىٰ الشيخِ شمسِ الدِّينِ الأصفهاني، وأمَّا القراءاتُ فهو إمامٌ فيها؛ فقد تلاها -إفرادًا وجمعًا- علىٰ مشايخِ الأندلس، وعن كتابِه "البحر المحيط في التفسير"، فقد كانت أغلَبُ مسائلِه في اللغةِ والنحوِ، ثم التفسيرِ؛ كما بيَّن ذلك في مقدمتِه بقوله: "أنِّي أبتدئُ أولًا بالكلامِ عن مفرَداتِ الآيةِ التي أفسِّرُ لفظةً لفظةً فيما يُحتاجُ فيه إلىٰ اللُّغةِ والأحكامِ النَّحْويةِ التي لتلك اللفظةِ قبل التركيب (...)، فإذا كان للكلمةِ معنيانِ أو مَعانٍ، ذكَر ذلك في أولِ موضعٍ مِن تلك الكلمةِ؛ ليُنظَرَ ما يناسِبُ لها من تلك المعاني في كلِّ موضعٍ تقع فيه، فتُحمَل عليه، ويُحِيل ما يذكُرُه مِن القواعدِ النَّحْوية علىٰ كتبِ النحو"، ثم

---

(١) انظر: مناهج المفسرين، منيع محمود، (ص: ٢١٥).

يَشـرَع في تفسـيرِ الآيـةِ ذاكـرًا سـبَبَ نزولِهـا إذا كـان لهـا سـببٌ، ونَسْـخَها، ومناسَـباتِها، وارتباطَها بما قبلها(١).

وقد بلَغ عددُ المناسَباتِ التي جمَعتُها منه في هذا الكتابِ (١٠٩٠) مناسبة.

الطبعة المعتمدة: دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ، المحقق: صدقي محمد جميل.

المصدر التاسع: "تفسير ابن كثير":

وهـو "تفسير القرآن العظيم"، لأبـي الفـداءِ إسـماعيلَ بـن عُمَـرَ بـن كثيرٍ القُرَشـي البَصْـري، ثـم الدِّمَشـقي (المتـوفى: ٧٧٤هـ)، وهـو الإمـامُ الحـافظ، المحـدِّث المـؤرِّخ، مِن أجلِّ شيوخه: شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رحمه الله، ومِن أشهَرِ تلاميذه: الإمـامُ الجـزَري رحمه الله، شيخُ علـمِ القـراءات، وكـان رحمه الله شـافعيَّ المـذهب، علىٰ معتقَـدِ أهـلِ السُّـنةِ والجماعـة، و"تفسيره" رحمه الله مِن أعظَمِ وأجَلِّ كُتُبِ التفسير، أمضـىٰ فيـه مؤلِّفُـه رحمه الله عُمُـرًا طـويلًا وهـو يقلِّبُ فيه بين الفَيْنةِ والأخرىٰ، مُحلِّيًا إيَّاه بفائدةٍ تخطُرُ لـه، أو حكايـةِ قـولٍ أزمَـعَ تحقيقَـه، وقد احتوىٰ "تفسيره" علىٰ الكثيرِ مِن الأحاديثِ والآثارِ مِن مصادرَ شتَّىٰ، حتىٰ أتـىٰ علـىٰ "مسـنَدِ الإمـام أحمـدَ" فكـاد يسـتوعبه، كمـا نقَـل عـن مصـادرَ لا ذِكْـرَ لهـا في عـالَمِ المخطوطات؛ كـ "تفسير الإمام أبي بَكْرِ بن مَرْدويه"، و"تفسير الإمـام عبدِ بـنِ حُمَيدٍ"، و"تفسـير الإمـام ابـن المنـذِر"، وغيرُهـا كثيـرٌ، كمـا تضـمَّنَ تفسـيرُ ابـن كثيـرٍ رحمه الله بعـضَ المباحثِ الفِقْهيَّةِ، والمسائل اللُّغويَّة(٢).

---

(١) انظر: مقدمة البحر المحيط، (١/ ٣ – ٦)، ومناهج المفسرين، منيع محمود، (ص: ١٨٧).

(٢) انظر: مقدمة تفسيره، (ص: ٧ – ١٥)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

وقد بلَغ عددُ المناسَباتِ التي جمَعتُها منه في هذا الكتابِ (٩٠) مناسبة.

الطبعة المعتمدة: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، المحقق: سامي بن محمد سلامة.

المصدر العاشر: "اللُّباب في علوم الكتاب":

وهو "اللُّباب في علوم الكتاب"، لأبي حفصٍ سراجِ الدِّين عُمَرَ بن عليٍّ بن عادلٍ الحَنْبليِّ الدِّمَشقي النُّعْماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)، وهو عالمٌ وفقيه، ومفسِّرٌ حَنْبلي، وله كتابٌ في الفقهِ الحنبليِّ اسمُه "حاشية على المحرر في الفقه الحنبلي"، أما عقيدتُه فالمتتبِّعُ لكلامِه رحمه الله وتفسيرِه لآياتِ الصفات يرى أنَّه كان مؤوِّلًا للصفاتِ على طريقةِ الأشاعرة، ولقد أوَّلَ مجموعةً مِن الصفاتِ جمَعها في تفسيرِ سورةِ الفاتحة، وهو كثيرًا ما ينقُلُ كلامَ أئمَّةِ التأويل؛ كالإمامِ فخرِ الدِّين الرازي، والقُرْطُبي، والزَّمَخْشَري، وغيرِهم، ويناقشُ الآيةَ على طريقةِ المتكلِّمين، ويسرُدُ الأقوالَ والمذاهب وآراءَ المعتزِلة ويردُّ عليها[1].

أما "تفسيره"، فقد جمَع فيه أقوالَ العلماءِ في علومِ القرآن الكريم، ويهتمُّ فيه ببيانِ معاني المفرَدات، وما يتعلقُ بالنحوِ، ووجوهِ الإعراب، والشواهدِ الشِّعرية، ويَعرِضُ لأوجُهِ القراءاتِ وأقوالِ المفسِّرين في تفسيرِ الآياتِ ودَلالاتها، ويورِدُ فصولًا كثيرةً فيما يتعلقُ بالناحيةِ العقَدية، والفِقْهيَّة، والوَعْظيَّة، وغيرِ ذلك.

وقد نقَلتُ منه في هذا الكتابِ مناسَبةً واحدة.

---

(١) المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (ص: ١١١٣ - ١١١٤)، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ٢٠٠٠م.

الطبعة المعتمدة: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض.

المصدر الحادي عشر: نظم الدرر:

وهو "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، لإبراهيمَ بن عُمَرَ بن حسن الرباط بن عليٍّ بن أبي بكرٍ البِقَاعي (المتوفىٰ: ٨٨٥هـ)، وقد استوحيتُ فكرةَ العملِ مِن خلالِ هذا الكتابِ، وأردتُ في البدايةِ أن يكونَ مختصَرًا للمناسَباتِ من "نظم الدرر"، لكنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ شاء أن يتوسَّعَ العملُ ليَشمَلَ كلَّ ما ذُكِر مِن التفاسيرِ؛ فالحمدُ للهِ علىٰ ما مَنَّ به وأعطىٰ، والبِقَاعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ كان في بابِ العقيدةِ علىٰ منهجِ الأشاعرة، وفي فقهِ الشريعةِ علىٰ منهاجِ الإمامِ الشافعيِّ، ولم يكتفِ بذلك، بل درَس المذهبَ المالكيَّ علىٰ شيخِه "المِشْداليِّ" بالأزهرِ الشريف، ودرَس "الموطَّأ" علىٰ شيخِه محمَّد بن عليٍّ الصَّفَوي بالقاهرة، وقد أثار رَحِمَهُ اللَّهُ بتفسيرِه كثيرًا مِن العلماءِ والقضاة في عصرِه، فتعرَّض للمِحْنةِ، إلا أنَّ اللهَ تعالىٰ أزال المحنةَ إلىٰ مِنْحةٍ، ورفَع شأنَه، وسارت بتفسيرِه الرُّكبانُ، وصار كتابُه عَلَمًا ومدرسةً في بابِ التَّناسُبِ، وقد مدَحه كثيرٌ مِن العلماء، وأثنَوْا عليه، ونكتفي بما قاله شرَفُ الدِّينِ المناويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "وبعدُ، فقد وقَفتُ مِن هذا التأليفِ الحسَنِ المستجادِ علىٰ ما أعرَبَ عن أنَّ مؤلِّفَه إمامٌ علَّامة في فنونِ العلم؛ فإنَّه قد أحسَن وأجاد وأظهَر مِن مجموعٍ حسَنٍ مجموعًا حسنًا في غايةِ الصواب (...) فحُقَّ لهذا التأليفِ أن يُتلقَّىٰ بالقَبول، ولا يُصغَىٰ لقولِ حاسدٍ فيه ولا عَذُول، واللهُ تعالىٰ يُبقِي مؤلِّفَه منهلًا للوُرَّاد، ويُدِيم النفعَ به وبعلومِه للمسلمين"(١).

---

(١) انظر للاستزادة: مقدمة كتاب "الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن"، لمحمود توفيق محمد سعد.

وقد بلَغ عددُ المناسَباتِ التي جمَعتُها منه في هذا الكتابِ (٥٤٩٤) مناسبة.

الطبعة المعتمدة: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

المصدر الثاني عشر: "إرشاد العقل السليم":

وهو "تفسير أبي السعود"، الموسوم بـ "إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم"، لأبي السُّعودِ العماديِّ محمَّدِ بن محمَّدِ بن مصطفىٰ (المتوفىٰ: ٩٨٢هـ)، "كان مِن الذين قعَدوا مِن الفضائلِ والمعارف علىٰ سَنامِها وغاربها، وضرَبتْ له نوبةُ الامتيازِ في مشارقِ الأرض ومغاربها، تفرَّد في ميدانِ فضلِه ولم يجارِه أحد، وانقطَع عن القرينِ والمماثل في كلِّ بلد، وحصَل له مِن المجدِ والإقبال والشرفِ والأفضال، ما لا يمكِنُ شرحُه بالمقال"[(١)].

كان رَحِمَهُ اللهُ حنَفيَّ المذهبِ، علىٰ عقيدةِ أهل السُّنة والجماعة، أما تفسيرُه "إرشاد العقل السليم"، فقد صرَّح بأنَّه اعتمَد فيه علىٰ "كشَّاف" الزَّمَخْشَري، و"أنوار التنزيل" للبَيْضاوي، رحمهم الله جميعًا، وقد اعتنىٰ فيه رَحِمَهُ اللهُ بالكشفِ عن بلاغةِ القرآن وأسرارِ إعجازه، ولم يَستطردْ في الأمورِ الفِقْهية، وأقَلَّ فيه مِن الإسرائيلياتِ[(٢)].

أمَّا المناسَباتُ، ففي "تفسيره" منها الكثيرُ، وقد بلَغ عددُ المناسَباتِ التي جمَعتُها منه في هذا الكتابِ (٧٦٨) مناسبة.

الطبعة المعتمدة: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفىٰ: ١٠٨٩هـ)، (١٠/ ٥٨٤)، حققه: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) انظر: مناهج المفسرين، منيع محمود، (ص: ٢٥٣ - ٢٥٨).

المصدر الثالث عشر: "فتح القدير":

وهو "فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية مِن علم التفسير"، لمحمَّدِ بن عليِّ بن محمَّد بن عبد الله الشَّوْكانيِّ اليَمَني (المتوفىٰ: ١٢٥٠هـ)، امتازت حياتُه العِلْمية رَحِمَهُ اللهُ بالجِدِّ والمثابرة، والحيويةِ والنشاط، والذكاء الفِطْري، وقد ظهَر هذا في اتساعِ ثقافته، وعمقِ تفكيره، وتصدِّيه للإصلاحِ والاجتهاد، كان مذهبُ الشَّوْكانيِّ في مطلعِ حياتِه العلميةِ المذهبَ الزَّيْدي، وقد حَفِظ أشهرَ كتبِ المذهب، وألَّف فيه كُتبًا، وبرَع في مسائلِه وأحكامه حتىٰ أصبَح قُدْوةً، ثم طلَب الحديثَ، وفاقَ فيه أهلَ زمانه مِن الزَّيْديةِ وغيرهم؛ مما جعَله يَخلَعُ رِبْقةَ التقليد، ويدعو إلىٰ الاجتهادِ، ومعرفةِ الأدلة مِن الكتابِ والسُّنة، أمَّا عقيدتُه رَحِمَهُ اللهُ فكانت عقيدةَ السلفِ؛ مِن حَمْلِ صفاتِ الله تعالىٰ الواردةِ في القرآنِ والسُّنة الصحيحة علىٰ ظاهرِها، مِن غيرِ تأويلٍ ولا تحريف، وله رسالةٌ في بيانِ ذلك، اسمها: "التُّحف بمذهب السلف".

أما تفسيرُه "فتح القدير"، فقد تميَّز بالجمعِ بين التفسيرِ بالمأثور والتفسيرِ بالرأي والاجتهاد، وكان ذلك هدفًا له في هذا الكتابِ، ظهَر ذلك مِن عنوانِه، وقد ذكَر السيد محمَّد صديق حسن خان في كتابه "أبجد العلوم" أنَّ هذا الجَمْعَ بين الروايةِ والدراية سبَقه إليه العلَّامةُ محمَّدُ بن يحيىٰ بن بهران، وقال: "لكنَّ تفسيرَ الشَّوْكاني أبسَطُ، وأجمَعُ، وأحسَنُ ترتيبًا وترصيفًا"(١).

أمَّا المناسَباتُ، فقد كان "تفسيره" حافلًا بها، وقد بلَغ عددُ المناسَباتِ التي جمَعتُها منه في هذا الكتابِ (٧١٤) مناسبة.

---

(١) انظر للاستزادة: مقدمة التحقيق لكتابه "فتح القدير"، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت - الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٤هـ.

الطبعة المعتمدة: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤هـ.

المصدر الرابع عشر: "رُوحُ المعاني":

وهـو "رُوحُ المعـاني في تفسـير القـرآن العظـيم والسَّـبْعِ المثـاني"، لشـهابِ الـدِّين محمودِ بن عبد الله الحُسَيني الآلوسي (المتوفىٰ: ١٢٧٠هـ)، تميَّز الآلوسيُّ ﷺ بسرعةِ الفهم، واتساعِ الحافظة، وثباتِ الحفظ، وخلَّف الكثيرَ مِن المؤلَّفات المفيدة، بجانبِ تفسيرِه المشهور، حتىٰ لقد عبَّر عن ذلك شاكرًا، فقال: "ما استودَعتُ ذهني شيئًا فخانني، ولا دعَوتُ فكري لمعضلةٍ إلا وأجابني"، وكان ﷺ سلفيَّ العقيدة، شافعيَّ المذهب.

أمَّا "تفسيره"، فقد جمَع فيه ﷺ خلاصةَ ما تقدَّمه مِن التفاسير، فتراه ينقُلُ لك عن "تفسير ابن عطيَّة"، و"تفسير أبي حيَّان"، و"تفسير الزَّمَخْشَري"، و"تفسير أبي السعود"، و"تفسير البَيْضاوي"، و"تفسير الفخر الرازي"، وغيرِها مِن كتبِ التفاسير المعتبَرة، وهو إذا نقَل عن "تفسير أبي السعود" يقول غالبًا: "قال شيخُ الإسلام"، وإذا نقَل عن "تفسير البَيْضاوي يقول: "قال القاضي"، وإذا نقَل عن "تفسير الفخر الرازي" يقول: "قال الإمام"، وهو إذ ينقُلُ عن هذه التفاسيرِ ينصبُ نفسَه حكَمًا عدلًا بينها، ويجعلُ مِن نفسه نقَّادًا مدقِّقًا، ثم يُبدِي رأيه حرًّا فيما ينقُلُ؛ فهو ليس مجردَ ناقلٍ، بل له شخصيتُه العلمية البارزة، وأفكارُه المميزة، فتراه كثيرًا يعترِضُ علىٰ ما ينقُلُه عن أبي السعود، أو عن البَيْضاوي، أو عن أبي حيَّان، أو عن غيرهم، كما تراه يتعقبُ الفخرَ الرازيَّ في كثيرٍ مِن المسائل، ويردُّ عليه علىٰ الخصوصِ في بعضِ المسائل الفقهية؛ انتصارًا منه لمذهبِ أبي حنيفة، ثم إنَّه إذا استصوَب أمرًا لبعضِ مَن ينقُلُ عنهم، انتصَر له، ورجَّحه علىٰ

ما عدَاه، لكن ممَّا يؤخَذُ علىٰ الآلوسيِّ أنَّه كان متردِّدًا في مسائلِ الأسماء والصفات بين مذهبَي السلَفِ والخلَف(١).

أمَّا المناسَباتُ، فقد بلَغ عددُ المناسَباتِ التي جمَعتُها منه في هذا الكتابِ (١٨١) مناسبة.

الطبعة المعتمدة: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٥هـ، المحقق: علي عبد الباري عطية.

المصدر الخامس عشر: "فتح البيان":

وهو "فتحُ البيان في مقاصد القرآن"، لأبي الطيِّبِ محمد صِديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحُسَيني البخاري القِنَّوْجي (المتوفىٰ: ١٣٠٧هـ)، مِن رجالِ التجديد، قال في ترجمةِ نفسه: "ألقىٰ عصا التَّرْحالِ في محروسةِ بهوپال، فأقام بها وتوطَّنَ وتموَّل، واستوزَر وناب، وألَّف وصنَّف"، له نيِّفٌ وستون مصنَّفًا بالعربية، والفارسية، والهندية(٢).

أمَّا "تفسيره"، فيقول محقِّقه: "تفسيرٌ سلَفيٌّ أثَريٌّ، خالي مِن الإسرائيليَّاتِ والجدَليَّات المذهبيَّة والكلاميَّة"، ويقول أيضًا عنه: "فاختار صفوةَ الصفوة ممَّا ثبَت مِن التفسيرِ النَّبوي؛ لأنَّه الحُجَّةُ المتَّبَعة التي لا يسُوغُ مخالَفتُها، ثم تفاسيرِ عظماءِ الصحابة المختصِّين برسولِ الله ﷺ، ثم تفاسيرِ التابعين ومَن بعدهم مِن سلَفِ الأمَّةِ وأئمَّتها المعتبَرين، ثم أهلِ اللُّغةِ العربية الذين يفسِّرون كتابَ الله ﷻ باللغةِ العربية حقيقةً ومجازًا

---

(١) للاستزادة انظر: مناهج المفسرين، منيع محمود، (ص: ٢٨١ - ٢٨٨)، ومقالًا منشورًا علىٰ موقع: الشبكة الإسلامية، بعنوان: "الآلوسي وتفسيره (روح المعاني)"، بتاريخ: ١٢/ ١٠/ ٢٠١٦م.

(٢) انظر للاستزادة: الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي (المتوفىٰ: ١٣٩٦هـ)، (٦/ ١٦٧ - ١٦٨)، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٢ م.

إن لم تثبُتْ في ذلك حقيقةٌ شرعية تراعي النقلَ عن السلف، أو رعايةَ الأصولِ المعتبَرة، أو قواعدِ اللُّغة العربية، وكان في "تفسيره" يتحرىٰ الدقةَ والصحة فيما ينقُلُ، إن ذكَر حديثًا عزَاه إلىٰ راويه مِن غيرِ بيانِ حالِ الإسناد؛ لأنَّه أخَذه مِن الأصولِ المعتبَرة، وقد سلَك في أمورِ العقائد وَفْقَ منهجِ السلَف، وخاصَّةً في آياتِ الصفات، وبالجملة فإنَّ "تفسيره" تنزاح عنه شُبَهُ المبطِلين، وتحريفُ الغالِين، وتأويلُ الجاهلين، خَلِيٌّ مِن كثرةِ الحشوِ والدخيل، والخرافاتِ التي لا يقوم عليها دليل؛ فكان درَّةً بين كتبِ التفسير"[1].

وأمَّا المناسَباتُ، فكانت في كتابِنا منه قليلةً جدًّا؛ حيث جمَعتُ منه (٥) مناسَبات.

الطبعة المعتمدة: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، عُني بطبعه وقدم له وراجعه: خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري.

المصدر السادس عشر: "محاسن التأويل":

وهو "محاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم"، لمحمد جمالِ الدِّين بن محمد سعيد بن قاسم الحلَّاق القاسمي (المتوفىٰ: ١٣٣٢هـ)، مِن علماءِ الشام الكبار، المحقِّق المدقِّق، العالِم الجليل، مدَحه أميرُ البيان شكيب أرسلان، فكان ممَّا قال عنه: "كان في هذه الحِقْبةِ الأخيرة جمالُ دِمَشْق، وجمالُ القُطْرِ الشامي بأَسْره؛ في غزارةِ فضله، وسَعة علمِه، وشُفوفِ حِسِّه، وذكاء نفسه، وكرَمِ أخلاقه، وشرَفِ مَنازِعِه، وجمعِه بين الشمائلِ الباهية، والمعارفِ المتناهية"، ازدهَرتْ تآليفُه، وكثُرتْ مصنَّفاته، ووصَل عددُها إلىٰ ما يقرُبُ مِن الثمانين ما بين مخطوطٍ ومطبوع.

---

(١) انظر: مقدمة التحقيق لكتابه "فتح البيان في مقاصد القرآن"، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

أمَّا "تفسيره"، فقد قال عنه صاحب "مناهج المفسرين": "إذا أحبَبتَ أن تقرأ تفسيرًا كاملًا للقرآنِ لا تجدُ فيه خرافةً ولا أسطورة ولا شيئًا مِن الإسرائيليَّاتِ المذمومة التي حُشِيتْ بها التفاسيرُ، فعليك بكتابِ الإمامِ القاسميِّ "محاسن التأويل"، الذي فسَّر به القرآنَ الكريم تفسيرًا يُعتبر نموذجًا إلىٰ حدٍّ كبير"(١).

وأمَّا المناسَباتُ، فقد كان حافلًا منها؛ حيث جمَعتُ منه في كتابنا هذا (٤٤٧) مناسبة.

الطبعة المعتمدة: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ، المحقق: محمد باسل عيون السود.

المصدر السابع عشر: "تفسير السعدي":

وهو "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، لعبدِ الرحمن بن ناصر بن عبدِ الله السعدي (المتوفىٰ: ١٣٧٦هـ)، الإمامِ، الفقيه، والمفسِّر المعروف، سلَفي العقيدة، مِن علماءِ الحنابلة، مِن أهلِ نَجْدٍ، مولدُه ووفاته في عُنَيزة "بالقَصيم"، وهو أولُ مَن أنشأ مكتبةً فيها (سنة ١٣٥٨ هـ)، له نحوُ ٣٠ كتابًا(٢)، قد كتَب اللهُ عز وجل لـ"تفسيره" القَبول، فانتشَر بين طلابِ العلم والعامَّةِ في هذه الأزمنةِ انتشارًا كبيرًا جدًّا، وهو مِن أشهَرِ مشايخِ العلَّامة الشيخِ محمَّدِ بن صالحٍ العُثَيمين عليهم جميعًا رحمة الله تعالىٰ.

أمَّا "تفسيره"، فهو تفسيرٌ مختصَر لكلامِ الله تعالىٰ، يبيِّنُ فيه معانيَ الآياتِ مِن غيرِ تطويلٍ ولا إخلال بالمعنىٰ، مع التعريجِ علىٰ ما يتعلقُ بالأمورِ العقَدية، وذِكْرِ مذهبِ أهل

---

(١) للاستزادة انظر: مقدمة التحقيق لكتاب "محاسن التأويل"، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ، ومناهج المفسرين، لمنيع محمود، (ص: ٢٩٧).

(٢) انظر: الأعلام للزركلي، (٣/ ٣٤٠).

السُّنة والجماعة فيها مختصَرًا، كما كان له اهتمامٌ واسعٌ بالجانبِ الإيمانيِّ والتربوي، واستخراجِ الفوائدِ في التزكيةِ، والأخلاق، والآداب.

أما المناسَباتُ، فقد كان حافلًا بالمناسَباتِ، وقد جمَعتُ منه في كتابِنا هذا (٥٠٢) مناسبة.

الطبعة المعتمدة: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق.

المصدر الثامن عشر: "التحرير والتنوير":

وهو "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد مِن تفسير الكتاب المجيد"، لمحمَّد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التُّونُسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، وهو أحدُ أعلامِ "جامع الزيتونة" المشهورِ بتُونُسَ، حياتُه المديدة التي زادت على تسعين عامًا كانت جهادًا في طلبِ العلم، وجهادًا في كسرِ وتحطيمِ أطواق الجمودِ والتقليد التي قيَّدتِ العقلَ المسلم عن التفاعلِ مع القرآنِ الكريم والحياةِ المعاصرة، أحدثت آراؤه نهضةً في علومِ الشريعة والتفسير، والتربيةِ والتعليم والإصلاح، وكان لها أثرُها البالغ في استمرارِ "الزيتونة" في العطاءِ والريادة.

وأمَّا "تفسيره"، فهو تفسيرٌ قيِّمٌ، أمضى في تأليفه قرابةَ الأربعين عامًا، وقد اشتمَل على كثيرٍ مِن الفوائدِ واللطائف والتحريرات، مع الحرصِ على تلمُّسِ الحِكَمِ مِن الأحكامِ والتشريعات، والإكثارِ مِن النُّقولِ عن الأئمَّةِ والعلماء في شتى العلومِ، سواءٌ كانت شرعيةً، أو لُغَوية، أو بلاغية، أو غيرَها مِن فروعِ العلم، وقد بيَّن منهجَه فيه في مقدمتِه، فقال:

"وقد اهتمَمتُ في تفسيري هذا ببيانِ وجوهِ الإعجاز، ونُكَتِ البلاغة العربية، وأساليبِ الاستعمال.

واهتممتُ أيضًا ببيانِ تناسُبِ اتصالِ الآيِ بعضِها ببعضٍ ... ولم أغادِرْ سورةً إلا بيَّنتُ ما أُحِيطُ به مِن أغراضِها؛ لئلا يكونَ الناظرُ في تفسيرِ القرآن مقصورًا علىٰ بيانِ مفرَداتِه ومعاني جُمَلِه كأنَّها فِقَرٌ متفرِّقة تَصرِفه عن روعةِ انسجامه، وتحجُبُ عنه روائعَ جماله.

واهتممتُ بتبيينِ معاني المفرَداتِ في اللغة العربية بضبطٍ وتحقيق ممَّا خلَتْ عن ضبطِ كثيرٍ منه قواميسُ اللغة.

وعسىٰ أن يجدَ فيه المطالِعُ تحقيقَ مرادِه، ويتناولَ منه فوائدَ ونُكَتًا علىٰ قدرِ استعدادِه؛ فإنِّي بذَلتُ الجهدَ في الكشفِ عن نُكَتٍ مِن معاني القرآن وإعجازِه خلَتْ عنها التفاسير، ومِن أساليبِ الاستعمالِ الفصيح ما تصبو إليه هِمَمُ النَّحارير، بحيث ساوىٰ هذا التفسيرُ علىٰ اختصارِه مُطوَّلات القماطير؛ ففيه أحسَنُ ما في التفاسير، وفيه أحسَنُ ممَّا في التفاسير، وسمَّيتُه: تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، واختصرتُ هذا الاسمَ باسم: التحرير والتنوير من التفسير"(١).

وأمَّا المناسَباتُ، فقد كان حافلًا بالمناسَباتِ إلىٰ حدٍّ كبير، ويُعَد أحدَ الأعمدةِ الأربع لكتابِنا هذا بجانبِ "نظم الدرر"، و"التفسير الكبير"، و"البحر المحيط".

وقد بلَغ عددُ المناسَباتِ التي جمَعتُها منه (٤٠٧٢) مناسبة.

الطبعة المعتمدة: الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.

---

(١) للاستزادة انظر: مقدمة "التحرير والتنوير"، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.

المصدر التاسع عشر: "أضواء البيان":

وهو كتاب "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن"، للعلَّامةِ محمَّد المختار بن محمَّد الأمين الشِّنْقِيطي (المتوفى سنة: ١٣٩٤هـ)، وهو كتابٌ قيِّمٌ، اعتمَد مؤلِّفُه على التفسيرِ بالمأثور؛ فهو يحاولُ أن يفسِّرَ الآيةَ مِن خلالِ الآيات الأخرى في ذاتِ الموضوع، ومِن خلالِ الأحاديثِ الصحيحة، وقد اعتمَد رَحِمَهُ اللَّهُ على كتبِ تفسيرِ السلف، وكتبِ الحديث الصحيح، وقد أوضَح المقصودَ مِن كتابه في مقدِّمتِه بقوله: "واعلَمْ أنَّ مِن أهمِّ المقصودِ بتأليفِه أمران:

أحدهما: بيانُ القرآنِ بالقرآن؛ لإجماعِ العلماء على أنَّ أشرَفَ أنواع التفسير وأجَلَّها تفسيرُ كتابِ الله بكتاب الله؛ إذ لا أحدَ أعلَمُ بمعنى كلامِ الله جَلَّ وَعَلَا مِن اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وقد التزَمْنا ألا نبيِّنَ القرآنَ إلا بالقراءة السَّبْعية، سواءٌ كانت قراءةً أخرى في الآيةِ المبيَّنة نفسِها، أو آيةً أخرى غيرَها، ولا نعتمدَ على البيانِ بالقراءات الشاذة، وربما ذكَرْنا القراءةَ الشاذة استشهادًا للبيانِ بقراءة سَبْعية، وقراءةُ أبي جعفرٍ ويعقوبَ وخلَفٍ ليست مِن الشاذِّ عندنا، ولا عند المحقِّقين مِن أهلِ العلم بالقراءات.

والثاني: بيانُ الأحكامِ الفِقْهية في جميعِ الآياتِ المبيَّنة في هذا الكتابِ؛ فإنَّنا نبيِّنُ ما فيها مِن الأحكامِ، وأدلتَها مِن السُّنة، وأقوالَ العلماء في ذلك، ونرجِّحُ ما ظهَر لنا أنَّه الراجحُ بالدليل، مِن غيرِ تعصُّبٍ لمذهب معيَّن، ولا لقولِ قائلٍ معين؛ لأنَّنا ننظُرُ إلى ذاتِ القول، لا إلى قائلِه؛ لأنَّ كلَّ كلامٍ فيه مقبولٌ ومردود، إلا كلامَه ﷺ، ومعلومٌ أنَّ الحقَّ حقٌّ ولو كان قائله حقيرًا.

وقد تضمَّن هذا الكتابُ أمورًا زائدة على ذلك؛ كتحقيقِ بعضِ المسائل اللُّغوية، وما يُحتاج إليه مِن صرفٍ وإعراب، والاستشهادِ بشِعْرِ العرب، وتحقيقِ ما يُحتاج إليه فيه مِن المسائلِ الأصولية، والكلامِ على أسانيدِ الأحاديث".

أمَّا عن المناسَباتِ التي نقلتُها عنه، فلم أنقُلْ عنه إلا مناسبةً واحدة.

الطبعة المعتمدة: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

المصدر العشرون: "تفسير ابن عثيمين":

وهو "تفسير القرآن الكريم"، للعلَّامةِ محمَّدِ بن صالح العُثَيمين (المتوفىٰ سنة: ١٤٢١هـ)، وهو تفسيرٌ قيِّمٌ لبعضِ سُوَر القرآن الكريم، حرَص فيه الشيخُ علىٰ تفسيرِ القرآن بالقرآن، وتفسيرِ القرآن بالسُّنة، وبيانِ عقيدةِ السلف الصالح في بابِ الأسماء والصفات، واستخدَم فيه أسلوبَ السؤال والجواب، واهتَمَّ فيه بجانبِ التأمُّل والنظر، والتدقيقِ والتحقيق، وهو حافلٌ بالاستنباطاتِ والفوائد والنُّكَت؛ فقد أوتي الشيخُ نظرًا ثاقبًا، وذهنًا وقَّادًا، وفهمًا واسعًا، متمسِّكًا بمنهجِ طلبِ الدليل في اختياراتِه وترجيحاته.

وقد بلَغ عددُ المناسَباتِ منه في كتابِنا هذا (٣) مناسَبات فقط.

الطبعة المعتمدة: دار ابن الجوزي، بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية.

المصدر الحادي والعشرون: "أيسر التفاسير":

وهو "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير"، لجابرِ بن موسىٰ بن عبد القادر بن جابر، أبي بكرٍ الجزائري (المتوفىٰ: ١٤٣٩هـ)، وهو أحدُ العلماء المعاصرين، الشيخُ الجليل، مفسِّرُ المسجدِ النبوي، ارتحَل مع أسرته إلىٰ المدينةِ المنورة، وفي المسجدِ النبوي الشريف استأنَف طريقَه العلمي بالجلوسِ إلىٰ حلقاتِ العلماء والمشايخ، حيث حصَل

بعدها علىٰ إجازةٍ مِن رئاسةِ القضاء بمكَّةَ المكرَّمة للتدريسِ في المسجد النبوي، فأصبحت له حلقةٌ يدرِّسُ فيها تفسيرَ القرآن الكريم، والحديثَ الشريف، وغيرَ ذلك، له مؤلَّفات عديدة جمَّة؛ مِن أشهرها: "منهاج المسلم"، و"أيسر التفاسير"، وهو كتابُ تفسيرٍ سهل مبسَّط موجَز، يأتي فيه مؤلِّفُه علىٰ الآية، فيشرح كلماتِها، ثم يبيِّنُ معنىٰ الآيةِ أو الآيات، ويذكُرُ هداياتِها بعد ذلك، بأسلوبٍ سهل يسير يَفهَمُه العاميُّ وطالب العلم.

وأمَّا المناسَباتُ، فقد ذكَر في كتابِه العديدَ مِن المناسَباتِ، وقد بلَغ عددُ المناسَباتِ التي جمَعتُها منه (٩٠) مناسبة.

الطبعة المعتمدة: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

لمَّا كانت البَسْملةُ نوعًا مِن الحمدِ، ناسَب كلَّ المناسبةِ تعقيبُها باسمِ الحمد الكليِّ الجامع لجميعِ أفراده، فكأنَّه قيل: احمَدوه؛ لأنَّه المستحِقُّ لجميعِ المحامد، وخُصُّوا هذا النوعَ مِن الحمدِ في افتتاحِ أمورِكم؛ لِما ذكرَ مِن استشعارِ الرغبةِ إليه والرهبةِ منه، المؤدي إلىٰ لزومِ طريقِ الهدىٰ، واللهُ الموفِّق[(١)].

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾

ولمَّا كانت مرتبةُ الرُّبوبيَّة لا تستجمِعُ الصلاحَ إلا بالرحمةِ، أتبَع ذلك بصفتَي: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[(٢)].

لمَّا جاء وصفُ اللهِ سبحانه نفسَه بالرُّبوبيَّةِ، التي تعني أنَّه السيِّدُ المالك، المعبودُ الذي له مطلَقُ التصرُّفِ في عبادِه، والتي قد يُفهَمُ منها معنىٰ الجبروتِ والقهر؛ جاء وصفُه بالرحمةِ بعدها؛ لينبسِطَ أملُ العبدِ في العفوِ إن زَلَّ، ويَقوَىٰ رجاؤه إن هَفَا[(٣)].

(١) نظم الدرر (١/ ٢٧).

(٢) نظم الدرر (١/ ٢٨).

(٣) البحر المحيط (١/ ٣٥).

إجراءُ هـذين الوصفَينِ العَلِيَّينِ علىٰ اسمِ الجلالـة بعـد وصـفِه بأنَّـه ربُّ العـالَمين؛ لمناسبةٍ ظاهرة للبليغِ؛ لأنَّه بعد أن وُصِف بما هو مقتضىٰ استحقاقِه الحمدَ مِن كونِه ربَّ العالَمين -أي: مـدبِّرَ شؤونِهم، ومبلِّغَهم إلىٰ كمـالِهم في الوجـودَينِ الجُثْمـانيِّ والرُّوحاني-؛ ناسَب أن يُتبَعَ ذلك بوصفِه بـالرحمنِ؛ أي: الـذي الرحمـةُ لـه وصـفٌ ذاتيٌّ، تصدُرُ عنه آثارُه بعمومٍ واطِّراد علىٰ مـا تقـدَّم، فلمَّـا كـان ربًّـا للعـالَمين، وكـان المربوبـون ضـعفاءَ؛ كـان احتيـاجُهم للرحمـة واضـحًا، وكـان تـرقُّبُهم إيَّاهـا مِـن الموصوفِ بها بالذاتِ ناجحًا، فإن قلـتَ: إنَّ الرُّبوبيَّـةَ تقتضـي الرحمـةَ؛ لأنَّهـا إبـلاغُ الشيء إلىٰ كمالِه شيئًا فشيئًا، وذلك يَجمَعُ النِّعَمَ كلَّها؛ فلماذا احتِيجَ إلىٰ ذِكْرِ كونِـه رحمانًا؟ قلتُ: لأنَّ الرحمةَ تتضمَّنُ أنَّ ذلك الإبلاغَ إلىٰ الكمال لم يكُـنْ علىٰ وجـهِ الإعنات، بل كان برعايةِ ما يناسِبُ كلَّ نوعٍ وفرد، ويلائمُ طَوْقَه واستعدادَه؛ فكانـت الرُّبوبيَّةُ نعمةً، والنِّعْمةُ قـد تحصُـلُ بضـربٍ مِـن الشِّـدَّةِ والأذىٰ، فـأُتبِع ذلـك بوصـفِه بالرحمنِ؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ تلـك الـنِّعَمَ الجليلـة وصَـلتْ إلينـا بطريـقِ الرفـقِ، واليُسْـرِ، ونفيِ الحرجِ؛ حتىٰ في أحكامِ التكـاليفِ والمَنـاهي والزواجـر؛ فإنَّهـا مرفوقـةٌ باليُسْـرِ بقـدرِ مـا لا يُبطِـلُ المقصـودَ منهـا، فمعظَـمُ تـدبيرِه تعـالىٰ بنـا هـو رحمـاتٌ ظـاهرة؛ كالتمكينِ مِن الأرض، وتيسيرِ منافعها، ومنه ما رَحْمتُه بمراعاةِ اليُسْرِ بقدرِ الإمكان؛ مثـلُ: التكـاليفِ الراجعـة إلـىٰ منافعِنـا؛ كالطهـارةِ، وبـثِّ مكـارمِ الأخـلاق، ومنهـا ما منفعتُه للجمهور، فتَتبَعُها رحماتُ الجميعِ؛ لأنَّ في رحمةِ الجمهورِ رحمةً بالبقيَّـةِ في انتظامِ الأحوال؛ كالزكاةِ[1].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٧٣).

لمَّا كـان في اتصـافِه بـربِّ العـالَمين ترهيـبٌ، قرَنـه بـالرحمنِ الـرحيم؛ لِمـا تضـمَّن مِـن الترغيـبِ؛ ليَجمَـع في صـفاتِه بَـيْنَ الرَّهْبـةِ منـه، والرَّغْبـةِ إليـه، فيكـونَ أعـوَنَ علىٰ طاعتِه وأمنَعَ[١].

﴿ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾

ولمَّا كان الـربُّ المنعوت بالرحمةِ قد لا يكـون مالكًـا، وكانـت الرُّبوبيَّـةُ لا تـتمُّ إلا بالمُلْكِ المفيد لتمامِ التصرف، وكان المالكُ لا يكون مَلِكًا ولا يتمُّ مُلْكُه إلا بالمُلْكِ المفيدِ للعزة، المقرونِ بالهيبةِ المثمِرة للبطش، والقهرِ المنتجِ لنفوذ الأمر؛ أتبَع ذلك بقولِه: ﴿ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾[٢].

إتباعُ الأوصافِ الثلاثة المتقدِّمة بهذا ليس لمجردِ سردِ صفاتٍ مِن صفاته تعالىٰ، بل هو ممَّا أثارته الأوصافُ المتقدِّمة؛ فإنَّه لمَّا وُصِف تعالىٰ بأنَّه ربُّ العالَمين الـرحمنُ الرحيم، وكان ذلك مفيدًا لِما قدَّمناه مِن التنبيهِ علىٰ كمالِ رفقِهِ تعالىٰ بـالمربوبين في سائرِ أكوانهم، ثم التنبيهِ بأنَّ تصرُّفَه تعالىٰ في الأكـوانِ والأطـوار تصـرُّفُ رحمـةٍ عنـد المعتبَـر، وكـان مِـن جملـةِ تلـك التصـرفاتِ تصـرفاتُ الأمـرِ والنهـيِ المعبَّـرُ عنهـا بالتشـريعِ الراجـع إلـىٰ حفـظِ مصـالحِ النـاس عامَّـةً وخاصـة، وكـان معظـمُ تلـك التشريعاتِ مشتمِلًا علىٰ إخراجِ المكلَّف عن داعيةِ الهوىٰ الذي يلائمُـه اتِّباعُـه، وفي نزعِهِ عنه إرغامٌ له ومشقة؛ خِيفَ أن تكونَ تلك الأوصافُ المتقدِّمة في فاتحةِ الكتاب مخفِّفًا عن المكلَّفين عبءَ العصيانِ لِمـا أُمِروا بـه، ومثيـرًا لأطمـاعِهم في العفـوِ عـن استخفافِهم بـذلك، وأن يمـتلِكَهم الطمـعُ فيعتمـدوا علـىٰ مـا عَلِمـوا مِـن الرُّبوبيَّـةِ

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٣٩).

(٢) نظم الدرر (١/ ٢٩).

والرحمة المؤكَّدة، فلا يَخشَوْا غائلةَ الإعراضِ عن التكاليف؛ لذلك كان مِن مقتضى المقامِ تعقيبُه بذِكرِ أنَّه صاحبُ الحُكْمِ في يومِ الجزاء(١).

لمَّا وصَف اللهُ تعالىٰ نفسَه بالرحمة، وكان قد يؤدِّي بالعبدِ إلىٰ غلبةِ الرجاء عليه؛ نبَّه بصفةِ المُلْكِ ليومِ الدِّين؛ ليكونَ العبدُ مِن عمَلِه علىٰ وجَلٍ، وليَعلَمَ أنَّ لعملِه يومًا تظهرُ له فيه ثمرتُه مِن خيرٍ وشر(٢).

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

فلمَّا استجمع الأمر استحقاقًا وتحبيبًا وترغيبًا وترهيبًا، كان مِن شأنِ كلِّ ذي لبٍّ الإقبالُ إليه، وقصرُ الهِمَمِ عليه، فقال عادلًا عن أسلوبِ الغَيْبةِ إلىٰ الخطاب لهذا مقدِّمًا للوسيلةِ علىٰ طلبِ الحاجة؛ لأنَّه أجدَرُ بالإجابةِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٣).

تحوَّل الكلامُ مِن الغَيْبةِ إلىٰ المواجهةِ بكافِ الخطاب، وهو مناسبٌ؛ لأنَّه لمَّا أثنىٰ علىٰ اللهِ، فكأنَّه اقترَب وحضَر بَيْنَ يدَيِ اللهِ تعالىٰ؛ فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٤).

إذا أتَمَّ الحامدُ حمدَ ربِّه، يأخذُ في التوجهِ إليه بإظهارِ الإخلاص له؛ انتقالًا مِن الإفصاحِ عن حقِّ الربِّ إلىٰ إظهارِ مراعاةِ ما يقتضيه حقُّه تعالىٰ علىٰ عبدِه مِن إفرادِه بالعبادةِ والاستعانة؛ فهذا الكلامُ استئنافٌ ابتدائي(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٧٣، ١٧٤).

(٢) البحر المحيط (١/ ٤٠).

(٣) نظم الدرر (١/ ٣٢).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ١٣٥).

(٥) التحرير والتنوير (١/ ١٧٧).

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾

لمَّا كان في الآيةِ السابقة نَدْبٌ إلىٰ اعتقادِ العَجْزِ، واستشعارِ الافتقار والاعتصامِ بحَوْلِه وقُوَّتِه؛ اقتضىٰ ذلك توجيهَ الرغباتِ إليه بالسؤال، فقال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[(١)].

لمَّا ذُكِرت العبادةُ والاستعانة باللهِ تعالىٰ وحده، جاء سؤالُ الهدايةِ إلىٰ الطريقِ الواضح؛ فبالهدايةِ إليه تصحُّ العبادةُ، فمَن لم يهتدِ إلىٰ السبيلِ الموصلة لمقصوده، لا يصحُّ له بلوغُ مقصودِه[(٢)].

تهيَّأَ لأصحابِ هذه المناجاةِ أن يَسعَوْا إلىٰ طلبِ حظوظِهم الشريفة مِن الهدايةِ بعد أن حَمِدوا اللهَ ووصَفوه بصفاتِ الجلالة، ثم أتبَعوا ذلك بقولِهم: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، الذي هو واسطةٌ جامعٌ بَيْنَ تمجيدِ الله تعالىٰ وبين إظهارِ العبودية، وهي حظُّ العبدِ بأنَّه عابدٌ ومستعين، وأنَّه قاصرٌ ذلك علىٰ اللهِ تعالىٰ، فكان ذلك واسطةً بَيْنَ الثناءِ وبين الطلب، حتىٰ إذا ظنُّوا بربِّهم الإقبالَ عليهم، ورجَوْا مِن فضلِه؛ أفضَوْا إلىٰ سُؤْلِ حظِّهم، فقالوا: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾؛ فهو حظُّ الطالبين خاصَّةً لِما ينفعُهم في عاجلِهم وآجلِهم؛ فهذا هو التوجيهُ المناسب لكونِ الفاتحة بمنزلةِ الديباجةِ للكتاب الذي أُنزِلَ هُدًىٰ للناس ورحمةً، فتتنزَّلُ هاتِه الجملةُ ممَّا قبلها منزلةَ المقصدِ مِن الديباجة، أو الموضوعِ مِن الخُطْبة، أو التخلُّصِ مِن القصيدةِ، ولاختلافِ الجُمَلِ المتقدِّمةِ معها بالخبَريَّةِ والإنشائية فُصِلتْ هذه عنهنَّ، وهذا أَوْلىٰ في التوجيهِ مِن جعلِها جوابًا لسؤالٍ مقدَّر علىٰ ما ذهب إليه صاحبُ «الكشَّاف»[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١/ ٣٧).

(٢) البحر المحيط (١/ ٤٨).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٨٧).

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾

ثم أكَّد ﷻ الإخبارَ بأنَّ ذلك لن يكونَ إلا بإنعامِه؛ منبِّهًا بهذا التأكيدِ الذي أفاده الإبدالُ علىٰ عظمةِ هذا الطريقِ، فقال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾[1].

لمَّا كان في الآيةِ السابقة طلبُ الهدايةِ إلىٰ أشرَفِ طريقٍ، ناسَب ذلك سؤالَ أحسَنِ رفيقٍ، فقال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾[2].

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ بدلٌ أو عطفُ بيانٍ مِن ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾؛ وإنَّما جاء نظمُ الآيةِ بأسلوبِ الإبدالِ أو البيان دُونَ أن يقالَ: اهدِنا صراطَ الذين أنعمتَ عليهم المستقيمَ، لفائدتينِ: الأُولىٰ: أنَّ المقصودَ مِن الطلب ابتداءً هو كونُ المهديِّ إليه وسيلةً للنجاةِ واضحةً سَمْحة سهلة، وأمَّا كونُها سبيلَ الذين أنعَم اللهُ عليهم فأمرٌ زائد لبيانِ فضله. الفائدة الثانية: ما في أسلوبِ الإبدال مِن الإجمالِ المعقَّب بالتفصيلِ؛ ليتمكَّنَ معنىٰ الصراطِ للمطلوب فضلَ تمكُّنٍ في نفوسِ المؤمنين الذين لُقِّنوا هذا الدعاءَ، فيكونَ له مِن الفائدةِ مثلُ ما للتوكيدِ المعنوي، وأيضًا لِما في هذا الأسلوبِ مِن تقريرِ حقيقةِ هذا الصراط، وتحقيقِ مفهومه في نفوسِهم، فيحصل مفهومُه مرتين، فيحصل به مِن الفائدةِ ما يحصل بالتوكيدِ اللفظيِّ، واعتبارُ البدليَّةِ مساوٍ لاعتبارِه عطفَ بيانٍ، لا مزيَّةَ لأحدهما علىٰ الآخرِ، خلافًا لِمَن حاوَل التفاضلَ بينهما؛ إذ التحقيقُ عندي أنَّ عطفَ البيانِ اسمٌ لنوعٍ مِن البدل، وهو البدلُ المطابِق، وهو الذي لم يُفصِحْ أحدٌ مِن النحاةِ بتفرقةٍ معنوية بينهما، ولا ذكَر شاهدًا يعيِّنُ المصيرَ إلىٰ أحدِهما دُونَ الآخر[3].

ثم بيَّن الصراطَ المستقيم بقولِه: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١/ ٣٩).

(٢) نظم الدرر (١/ ٤٥).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٩٢).

سُورَةُ البَقَرَةِ

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ﴾

لمَّا كان معنىٰ ﴿ الٓمٓ ﴾: هذا كتابٌ مِن جنسِ حروفِكم التي قد فُقْتُم في التكلمِ بها سائرَ الخلق، فما عجَزْتم عن الإتيانِ بسورةٍ مِن مثلِه إلا لأنَّه كلامُ الله؛ أنتج ذلك كمالَه، فأشيرَ إليه بأداةِ البُعْدِ ولامِ الكمال في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾؛ لعلوِّ قدرِه، وجلالةِ آثاره، وبُعْدِ رتبتِه عن الإيتانِ بمثله[(١)].

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ ﴾

لمَّا ختَم الآيةَ السابقة بقولِه: ﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾، ناسَب أن يعقِّبَ بأوصافِ المتَّقين الجامعةِ؛ تعريفًا لهم، وبيانًا لأفعالِهم الظاهرة والباطنة[(٢)].

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ إمَّا موصولٌ بالمتَّقين، ومحَلُّه الجرُّ؛ علىٰ أنَّه صفةٌ مقيِّدة له إن فُسِّر التقوىٰ بتركِ المعاصي فقط، مترتِّبةٌ عليه ترتُّبَ التحليةِ علىٰ التخلية، وموضِّحةٌ إن فُسِّر بما هو المتعارَفُ شرعًا، والمتبادِرُ عُرْفًا مِن فعلِ الطاعات، وتركِ السيئات معًا؛ لأنَّها حينئذ تكون تفصيلًا لِما انطوىٰ عليه اسمُ الموصوفِ إجمالًا؛ وذلك لأنَّها

---

(١) نظم الدرر (١/ ٧٩).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٢٨).

مشتمِلةٌ على ما هو عمادُ الأعمال، وأساسُ الحسنات؛ مِن الإيمانِ، والصلاة، والصدقة؛ فإنَّها أمَّهاتُ الأعمالِ النفسانية، والعبادات البدَنية والمالية، المستتبِعة لسائرِ القُرَب، الداعيةِ إلىٰ التجنُّبِ عن المعاصي غالبًا[١].

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾

لمَّا وصَفهم في الآيةِ السابقة بالإيمانِ جملةً، ناسَب أن يشيرَ هنا إلىٰ بعضِ تفصيلِه علىٰ وجهٍ يدخُلُ فيه مَن آمَن مِن أهلِ الكتاب دخولًا أوليًّا؛ كعبدِ الله بن سلَام رضي الله عنه، وأمثالِه؛ تشريفًا لهم، وترغيبًا لأمثالهم للدخولِ في دِينِ الإسلام[٢].

عطَف علىٰ ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ طائفةً ثانية علىٰ الطائفةِ الأولىٰ المعنيَّةِ بقولِه: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾، وهما معًا قسمانِ للمتقين؛ فإنَّه بعد أن أخبَر أنَّ القرآنَ هدًىٰ للمتقين الذين آمنوا بعد الشركِ، وهم العربُ مِن أهلِ مكَّةَ وغيرِهم، ووصَفهم بـ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ لأنَّهم لم يكونوا يؤمنون به حين كانوا مشركين؛ ذكَر فريقًا آخرَ مِن المتَّقين، وهم الذين آمنوا بما أُنزِلَ مِن الكتبِ الإلهيَّةِ قبل بعثةِ محمَّدٍ ﷺ، ثم آمنوا بمحمَّدٍ ﷺ[٣].

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

لمَّا أخبَر في الآيةِ السابقة عن أفعالِ المتَّقين، ناسَب هنا أن يذكُرَ ثمراتِ التقوىٰ؛ بالهدايةِ في الدنيا، والفلاحِ في الآخرة[٤].

---

(١) إرشاد العقل السليم (١/ ٢٩).
(٢) نظم الدرر (١/ ٨٦-٨٧).
(٣) التحرير والتنوير (١/ ٢٣٧).
(٤) نظم الدرر (١/ ٨٩).

في كيفيَّةِ تعلُّق هذه الآيةِ بما قبلها وجوهٌ ثلاثة: أحدها: أن ينويَ الابتداءَ بـ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ وذلك لأنَّه لمَّا قيل: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ فخَصَّ المتَّقين بأنَّ الكتابَ هدًىٰ لهم، كأنَّ لسائلٍ أن يسألَ فيقول: ما السببُ في اختصاصِ المتَّقين بذلك؟ فوقَع قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ جوابًا عن هذا السؤالِ، كأنَّه قيل: الذي يكون مشتغِلًا بالإيمانِ وإقامةِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة والفوزِ بالفلاح والنجاة لا بد وأن يكونَ علىٰ هدًىٰ مِن ربِّه. وثانيها: ألا ينويَ الابتداءَ به، بل يجعلُه تابعًا للمتقين، ثم يقع الابتداءُ مِن قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾، كأنَّه قيل: أيُّ سببٍ في أن صار الموصوفون بهذه الصفاتِ مختصين بالهدىٰ؟ فأجيب بأنَّ أولئك الموصوفين غيرُ مستبعَدٍ أن يفوزوا دُونَ الناسِ بالهدىٰ عاجلًا، وبالفلاح آجلًا. وثالثها: أن يجعلَ الموصول الأول صفةَ المتَّقين، ويرفعَ الثاني علىٰ الابتداء، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ خبرُه، ويكون المرادُ جَعْلَ اختصاصِهم بالفلاحِ والهدىٰ تعريضًا بأهلِ الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوَّةِ رسولِ الله ﷺ وهم ظانُّون أنَّهم علىٰ الهدىٰ، وطامعون أنَّهم ينالون الفلاحَ عند اللهِ تعالىٰ(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾

لمَّا ذكَر أوصافَ المؤمنين في الآياتِ السابقة، ناسَب التعريفُ بأحوالِ الكافرين، وكانوا قد انقسَموا بعد غزوةِ بدرٍ إلىٰ مصارِحين ومنافِقين؛ فناسَب البَدْءُ بالكفارِ المصارِحين أولًا؛ لأنَّ أمرَهم أهوَنُ، وشأنهم أيسر، وأحوالهم أظهر(٢).

هذا انتقالٌ مِن الثناءِ علىٰ الكتابِ ومتقلِّديه ووصفِ هَدْيه وأثرِ ذلك الهَدْيِ في الذين اهتدَوْا به والثناءِ عليهم الراجعِ إلىٰ الثناءِ علىٰ الكتاب لمَّا كان الثناءُ إنَّما يظهرُ

(١) مفاتيح الغيب (٢/ ٢٧٨).
(٢) نظم الدرر (١/ ٩١).

إذا تحقَّقتْ آثارُ الصفةِ التي استُحِق بها الثناءُ، ولمَّا كان الشيءُ قد يُقدَرُ بضدِّه، انتقَل إلىٰ الكلامِ علىٰ الذين لا يحصُلُ لهم الاهتداءُ بهذا الكتابِ، وسجَّل أنَّ حرمانَهم مِن الاهتداء بهَدْيِه إنَّما كان مِن خُبْثِ أنفسِهم؛ إذ نبَوْا[1] بها عن ذلك[2].

مناسبةُ اتصالِ هذه الآيةِ بما قبلها ظاهرٌ؛ وهو أنَّه لمَّا ذكَر صفةَ مَنِ الكتابُ له هدًىٰ، وهم المتَّقون الجامعون للأوصافِ المؤدِّية إلىٰ الفوزِ؛ ذكَر صفةَ ضدِّهم، وهم الكفارُ المحتومُ لهم بالوفاةِ علىٰ الكفر، وافتتَح قصتَهم بحرف التأكيد؛ ليدلَّ علىٰ استئنافِ الكلام فيهم؛ ولذلك لم يدخُلْ في قصَّةِ المتَّقين؛ لأنَّ الحديثَ إنَّما جاء فيهم بحُكْمِ الانجرارِ؛ إذ الحديثُ إنَّما هو عن الكتابِ، ثم انجَرَّ ذِكْرُهم في الإخبارِ عن الكتاب[3].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: كلامٌ مستأنَف، سِيقَ لشرحِ أحوال الكفرة الغُواة المَرَدة العُتاة، إثرَ بيانِ أحوالِ أضدادهم المتَّصِفين بنعوتِ الكمال، الفائزين بمَبَاغِيهم[4] في الحالِ والمآل، وإنَّما تُرِك العاطفُ بينهما؛ لِما بَيْنهما مِن التنافي في الأسلوب، والتباينِ في الغرض؛ فإنَّ الأُولىٰ مسُوقةٌ لبيانِ رفعةِ شأنِ الكتابِ في بابِ الهداية والإرشاد، وأمَّا التعرُّضُ لأحوالِ المهتدين به فإنَّما هو بطريقِ الاستطراد؛ سواءٌ جُعِل الموصولُ موصولًا بما قبله، أو مفصولًا عنه؛ فإنَّ الاستئنافَ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ نشأ مِن الكلامِ المتقدِّم؛ فهو مِن مستتبعاتِه لا محالةَ، وأمَّا الثانيةُ فمسُوقةٌ لبيانِ أحوال الكفرة أصالةً، وتَرامي أمرِهم في الغَوايةِ والضلال إلىٰ حيث لا يُجدِيهم الإنذارُ والتبشير، ولا يؤثِّرُ

---

(١) أي: ارتفعوا.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٤٧).

(٣) البحر المحيط (١/ ٧٧).

(٤) أي: ما يبتغونه.

فيهم العِظَةُ والتذكير؛ فهم ناكبون في تِيهِ الغَيِّ والفساد عن منهاجِ العقول، وراكبون في مسلكِ المكابرةِ والعناد متنَ كلِّ صعبٍ وذَلول، وإنَّما أُوثِرت هذه الطريقةُ، ولم يؤسَّسِ الكلامُ علىٰ بيانِ أنَّ الكتابَ هادٍ للأوَّلين، وغيرُ مُجْدٍ للآخِرين؛ لأنَّ العنوانَ الأخير ليس ممَّا يورثه كمالًا حتىٰ يُتعرَّضَ له في أثناءِ تَعْدادِ كمالاته[١].

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧ ﴾

لمَّا بيَّن سبحانه في الآيةِ السابقة أنَّهم لا يؤمنون، ناسَب أن يُخبِرَ في هذه الآيةِ بالسببِ الذي لأجلِه لم يؤمنوا[٢].

هذه الجملةُ جاريةٌ مجرىٰ التعليلِ للحُكْمِ السابق في قولِه تعالىٰ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وبيانٌ لسببِه في الواقعِ؛ ليدفعَ بذلك تعجُّبَ المتعجِّبين مِن استواءِ الإنذار وعدمِه عندهم، ومِن عدمِ نفوذِ الإيمان إلىٰ نفوسِهم مع وضوحِ دلائله، فإذا عُلِم أنَّ علىٰ قلوبِهم ختمًا وعلىٰ أسماعِهم، وأنَّ علىٰ أبصارِهم غشاوةً؛ عُلِم سببُ ذلك كلِّه، وبطَل العجبُ؛ فالجملةُ استئنافٌ بياني يفيدُ جوابَ سائلٍ يسأل عن سببِ كونِهم لا يؤمنون[٣].

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾: استئنافٌ تعليليٌّ لِما سبَق مِن الحُكْمِ، وبيانٌ لِما يقتضيه، أو بيانٌ وتأكيد له[٤].

---

(١) إرشاد العقل السليم (١/ ٣٥).

(٢) نظم الدرر (١/ ٩٥).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٢٥٩).

(٤) إرشاد العقل السليم (١/ ٣٧).

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾

لمَّا افتتَح سبحانه بالذين واطأت قلوبُهم ألسنتَهم في الإيمانِ، وثنَّىٰ بالمجاهِرين مِن الكافرين الذين طابَق إعلانُهم إسرارَهم في الكفرانِ؛ ناسَب أن يُتبِعَه ذِكْرَ المساتِرين الذين خالَفتْ ألسنتُهم قلوبَهم في الإذعان، وهم المنافقون، وأمرُهم أشَدُّ؛ لإشكالِ أحوالهم، والتباسِ أقوالِهم وأفعالهم[1].

هذا فريقٌ آخَرُ، وهو فريقٌ له ظاهرُ الإيمان، وباطنُه الكفرُ، وهو لا يعدو أن يكونَ مبطِنًا الشركَ، أو مبطِنًا التمسُّكَ باليهوديةِ، ويَجمَعه كلَّه إظهارُ الإيمان كذبًا؛ فالواوُ لعطفِ طائفةٍ مِن الجُمَلِ علىٰ طائفةٍ مسُوقٍ كلٌّ منهما لغرضٍ جمَعتْهما في الذِّكْرِ المناسبةُ بَيْنَ الغرضينِ، فلا يُتطلَّب في مثلِه إلا المناسبةُ بَيْنَ الغرضين، لا المناسبةُ بَيْنَ كلِّ جملةٍ وأخرىٰ مِن كِلا الغرضين[2].

اعلَمْ أنَّ المفسِّرين أجمَعوا علىٰ أنَّ ذلك في وصفِ المنافِقين، قالوا: وصَف اللهُ الأصنافَ الثلاثة مِن المؤمنين والكافرين والمنافِقين، فبدأ بالمؤمنين المخلِصين الذين صحَّتْ سرائرُهم، وسَلِمتْ ضمائرُهم، ثم أتبَعهم بالكافرين الذين مِن صفتِهم الإقامةُ علىٰ الجحودِ والعناد، ثم وصَف حالَ مَن يقولُ بلسانه: إنَّه مؤمنٌ، وضميرُه يخالفُ ذلك[3].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾: شروعٌ في بيانِ أنَّ بعضَ مَن حُكِيتْ أحوالُهم السالفة ليسوا بمقتصِرين علىٰ ما ذُكِر مِن محضِ الإصرارِ علىٰ الكفر والعناد؛ بل يضُمُّون إليه فنونًا أُخَرَ مِن الشرِّ والفساد، وتعديد لجناياتِهم الشنيعةِ المستتبِعة لأحوالٍ هائلة؛ عاجلةٍ وآجلة[4].

---

(١) نظم الدرر (١/ ٩٩).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٥٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢/ ٢٩٠).

(٤) إرشاد العقل السليم (١/ ٣٩).

﴿ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

لمَّا ذكَر في الآيةِ السابقة أحوالَ المنافِقين في إظهارِ الإيمان، والإخبارِ عن أنفسهم بغيرِ ما هي متصفةٌ به، مع معرفتِهم بقبحِ الكذبِ وشناعته وفظاعته؛ فكأنَّ سائلًا قال: فما مقصدُهم بذلك؟ فجاءت الإجابةُ في هذه الآيةِ[١].

﴿ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: بيانٌ لـ﴿يَقُولُ﴾، وتوضيحٌ لِما هو غرضُهم ممَّا يقولون، أو استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ ينساق إليه الذهنُ؛ كأنَّه قيل: ما لهم يقولون ذلك وهم غيرُ مؤمنين؟ فقيل: ﴿ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[٢].

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

لمَّا بيَّن سبحانه في الآيةِ السابقة خداعَ المنافِقين، ناسَب أن يبيِّنَ هنا سببَ خداعِهم، فقال -جوابًا لِمَن كأنَّه قال: ما سبَبُ فعلِهم هذا مِن الخداعِ وعدمِ الشُّعورِ؟-: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾[٣].

استئنافٌ محضٌ لعَدِّ مَساويهم، ويجوز أن يكونَ بيانيًّا لجوابِ سؤالٍ متعجِّبٍ ناشئٍ عن سماع الأحوالِ التي وُصِفوا بها قبلُ في قوله تعالى: ﴿ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾؛ فإنَّ مَن يسمعُ أنَّ طائفةً تخادعُ اللهَ تعالى،

---

(١) نظم الدرر (١/ ١٠٥-١٠٦).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ٤٠).

(٣) نظم الدرر (١/ ١٠٨).

وتخادع قومًا عديدين، وتَطمَعُ أنَّ خداعَها يتمشَّىٰ عليهم، ثم لا تشعُرُ بأنَّ ضررَ الخداع لاحقٌ بها؛ لطائفةٌ جديرة بأن يُتعجَّبَ مِن أمرِها المتعجِّب، ويُتساءلَ: كيف خطَر هذا بخواطرِها؟ فكان قولُه: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ بيانًا؛ وهو أنَّ في قلوبِهم خلَلًا تزايَدَ إلىٰ أن بلَغ حدَّ الأفنِ[1][2].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾

لمَّا أخبَر تعالىٰ عن بواطنِ المنافِقين، ناسَب أن يُتبِعَه بالحديثِ عن ظاهرِهم؛ فبيَّن أنَّهم إذا نُهُوا عن الفسادِ العام، ادَّعَوُا الصلاحَ العام[3].

يظهرُ لي أنَّ جملةَ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ إخبارٌ عن بعضِ عجيبِ أحوالهم؛ ومِن تلك الأحوالِ: أنَّهم قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ في حينِ أنَّهم مفسدون، فيكونُ معطوفًا علىٰ أقربِ الجُمَلِ المُلظَّةِ[4] لأحوالِهم، وإن كان ذلك آيلًا في المعنىٰ إلىٰ كونِه معطوفًا علىٰ الصلةِ في قوله: ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾[5].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: شروعٌ في تعديدِ بعضٍ مِن قبائحِهم المتفرِّعةِ علىٰ ما حُكِي عنهم مِن الكفرِ والنفاق[6].

---

(١) أي: نقص العقل.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٧٨).

(٣) نظم الدرر (١/ ١١٠).

(٤) أي: الملازمة.

(٥) التحرير والتنوير (١/ ٢٨٣).

(٦) إرشاد العقل السليم (١/ ٤٣).

﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢ ﴾

لمَّا بيَّن حالَ المنافِقين المبنيَّ علىٰ الخداعِ بإظهارِ الخير وإبطانِ الشر، وكانوا يرون إفسادَهم إصلاحًا؛ ناسَب أن يحذِّرَ هنا مِن حالِهم، مثبِتًا لهم ما نفَوْه عن أنفسِهم مِن الفسادِ، وقاصرًا له عليهم[(١)].

ردٌّ مِن جهتِه تعالىٰ لدَعْواهم المحكيَّةِ، أبلَغُ ردٍّ وأدلُّه علىٰ سُخْطٍ عظيمٍ؛ حيث سُلِك فيه مسلكُ الاستئنافِ المؤدي إلىٰ زيادةِ تمكُّنِ الحُكْمِ في ذهنِ السامع[(٢)].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣ ﴾

لمَّا نهاهم سبحانه في الآيةِ المتقدِّمة عن الفسادِ، وحصَر الفسادَ فيهم؛ ناسَب أن يأمرَهم هنا بالإيمانِ الحقيقي، ويدعوَهم إليه؛ وهو الإيمانُ الذي كان عليه رسولُ الله ﷺ، وأصحابُه الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم[(٣)].

هو مِن تمامِ المقُولِ قبله؛ فحُكْمُه حُكْمُه بالعطفِ والقائل، ويجوز هنا أن يكونَ القائلُ أيضًا طائفةً مِن المنافِقين يُشِيرون عليهم بالإقلاعِ عن النفاق؛ لأنَّهم ضَجِروه وسَئِموا كُلَفَهُ ومتَّقَيَاتِه[(٤)]، وكلَّت أذهانُهم مِن ابتكارِ الحِيَل، واختلاقِ الخَطَل[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١/ ١١٠-١١١).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ٤٤).

(٣) نظم الدرر (١/ ١١٢).

(٤) أي: ما يتقونه من أجله.

(٥) التحرير والتنوير (١/ ٢٨٦).

ثم ذكَر أمرَهم بالمعروفِ إثرَ نهيِهم عن المنكَرِ إتمامًا للنُّصحِ، فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

لمَّا بيَّن نفاقَهم في الآيةِ السابقة، وسِيرتَهم عند دعاءِ الداعي إلىٰ الحقِّ؛ ناسَب أن يبيِّنَ هنا لونًا مِن ألوانِ الخداع الذي يمارِسُه هؤلاء المنافقون، الدالِّ علىٰ إفسادِهم[1].

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾: بيانٌ لتبايُنِ أحوالهم وتناقُضِ أقوالهم في أثناءِ المعاملة والمخاطَبة حسَبَ تبايُنِ المخاطَبين، ومساقِ ما صُدِّرتْ به قصتُهم؛ لتحريرِ مذهبِهم، والترجمةِ عن نفاقِهم؛ ولذلك لم يتعرَّضْ ههنا لمتعلقِ الإيمان[2].

﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

فأجيبَ مَن كأنَّه قال: بماذا جُوزُوا؟ بقولِه: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[3].

لمَّا بيَّن سبحانه في الآيةِ السابقة خداعَ المنافِقين، وسُخْريَّتَهم بالمؤمنين؛ ناسَب أن يبيِّنَ هنا جزاءَ هذه السُّخريَّةِ والخداع.

---

(١) نظم الدرر (١/ ١١٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ٤٦).

(٣) نظم الدرر (١/ ١١٥).

لم تُعطَفْ هاتِهِ الجملةُ علىٰ ما قبلها؛ لأنَّها جملةٌ مستأنَفة استئنافًا بيانيًّا جوابًا لسؤالٍ مقدَّر؛ وذلك أنَّ السامعَ لحكايةِ قولهم للمؤمنين: ﴿ءَامَنَّا﴾، وقولِهم لشياطينِهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ إلخ.. يقولُ: لقد راجت حِيلتُهم علىٰ المسلمين الغافلين عن كيدِهم، وهل يَتفطَّنُ متفطِّنٌ في المسلمين لأحوالِهم فيجازيَهم علىٰ استهزائهم، أو هل يرُدُّ لهم ما رامُوا مِن المسلمين؟ ومَن الذي يتولىٰ مقابلةَ صُنْعِهم؟ فكان للاستئنافِ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ غايةُ الفخامةِ والجزالة، وهو أيضًا واقعٌ موقعَ الاعتراضِ، والأكثرُ في الاعتراضِ تركُ العاطفِ[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

فلمَّا تقرَّر ذلك كلُّه، كانت فَذْلكتُه مِن غيرِ توقُّفٍ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[2].

لمَّا ختَم ﷻ الآيةَ السابقة بقولِه: ﴿يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: يَخبِطون خَبْطَ الذي لا بصيرةَ له أصلًا؛ ناسَب أن يبيِّنَ هنا محصِّلةَ هذا العَمَهِ[3] الذي وقَعوا فيه.

الإشارةُ إلىٰ ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾، وما عُطِف علىٰ صلتِه مِن صفاتِهم، وجيءَ باسمِ إشارةِ الجمع؛ لأنَّ ما صدق ﴿مَن﴾ هو فريقٌ مِن الناس، وفُصِلتِ الجملةُ عن التي قبلها؛ لتفيدَ تقريرَ معنىٰ ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ فمضمونُها بمنزلةِ التوكيد؛ وذلك ممَّا يقتضي الفصلَ، ولتفيدَ تعليلَ مضمونِ جملةِ

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٩٣).

(٢) نظم الدرر (١/ ١١٧).

(٣) أي: الحيرة.

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾، فتكونَ استئنافًا بيانيًّا لسائلٍ عن العلةِ، وهي أيضًا فَذْلكةٌ للجُمَلِ السابقةِ الشارحة لأحوالهم، وشأنُ الفَذْلكةِ عدمُ العطفِ(١).

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾

لمَّا كانت الأمثالُ ألصقَ بالبال، وأكشفَ للأحوال؛ مثَّل حالَ المنافِقين في هداهم الذي باعوه بالضلالةِ في الآيةِ السابقة بالأمورِ المحسوسة؛ لأنَّ للتمثيلِ بها شأنًا عظيمًا في إيصالِ المعاني إلىٰ الأذهانِ(٢).

لمَّا بيَّن حقيقةَ صفاتِ المنافِقين، عقَّبها بضربِ مثَلَينِ؛ زيادةً في الكشفِ والبيان(٣).

زيادةُ كشفٍ لحالهم، وتصوير لها غِبَّ(٤) تصويرِها بصورةِ ما يؤدي إلىٰ الخَسَارِ بحسَبِ المآلِ بصورةِ ما يفضي إلىٰ الخسارِ مِن حيث النفسُ؛ تهويلًا لها، وإبانةً لفظاعتِها؛ فإنَّ التمثيلَ ألطَفُ ذريعةٍ إلىٰ تسخيرِ الوَهْمِ للعقلِ، واستنزالِه مِن مقامِ الاستعصاء عليه، وأقوىٰ وسيلةٍ إلىٰ تفهيمِ الجاهلِ الغبي، وقمعِ سَوْرةِ(٥) الجامحِ الأَبِي، كيف لا وهو رفعُ الحجابِ عن وجوهِ المعقولات الخفيَّة، وإبرازٌ لها في مَعرِضِ المحسوساتِ الجليَّة، وإبداءٌ للمنكَرِ في صورةِ المعروف، وإظهارٌ للوَحْشيِّ(٦) في هيئةِ المألوف؟!(٧).

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٩٧).

(٢) نظم الدرر (١/ ١١٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢/ ٣١٢).

(٤) أي: بعده.

(٥) أي: شدة.

(٦) أي: الغريب.

(٧) إرشاد العقل السليم (١/ ٥٠).

﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨ ﴾

ولمَّا فرَغ مِن المثَلِ، كشَف المرادَ بظلماتِهم بأنَّها ما في آذانهم مِن الثِّقَلِ المانع مِن الانتفاعِ بالسماع، وما في ألسنتِهم مِن الخرَسِ عن كلامِ الخيرِ الناشئ عن عدمِ الإدراك الناشئ عن عَمَىٰ البصائر، وفسادِ الضمائرِ والسرائر، وما علىٰ أبصارِهم مِن الغِشاوةِ المانعة مِن الاعتبار، وعلىٰ بصائرِهم مِن الأغطيةِ المنافية للادِّكار، فقال: ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾(1).

اعلَمْ أنَّه لمَّا كان المعلومُ مِن حالهم أنَّهم كانوا يَسمَعون ويَنطِقون ويُبصِرون، امتنَع حملُ ذلك علىٰ الحقيقةِ، فلم يَبقَ إلا تشبيهُ حالِهم -لشدةِ تمسُّكِهم بالعنادِ، وإعراضِهم عمَّا يطرُقُ سَمْعَهم مِن القرآنِ، وما يُظهِره الرسولُ مِن الأدلةِ والآياتِ- بمَن هو أصَمُّ في الحقيقةِ فلا يَسمَع، وإذا لم يَسمَعْ لم يتمكَّنْ مِن الجوابِ؛ فلذلك جعَله بمنزلةِ الأبكم، وإذا لم ينتفِعْ بالأدلةِ، ولم يُبصِرْ طريقَ الرُّشدِ؛ فهو بمنزلةِ الأعمىٰ(2).

﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ ﴾

لمَّا بيَّن سبحانه في الآيةِ السابقة في المثَلِ الناريِّ حالَ طائفةٍ مِن المنافِقين، ناسَب أن يُتبِعَه هنا بحالِ طائفةٍ أخرىٰ منهم، في مثَلٍ آخرَ يشابِهُ حالَهم؛ وهم الذي يَظهَرُ لهم الحقُّ تارةً، ويشُكُّون تارةً أخرىٰ.

عطفٌ علىٰ التمثيلِ السابق؛ وهو قولُه: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا ﴾، أُعيدَ تشبيهُ حالهم بتمثيلٍ آخَر، وبمراعاةِ أوصافٍ أخرىٰ؛ فهو تمثيلٌ لحالِ المنافِقين المختلِطة بَيْنَ

---

(١) نظم الدرر (١/ ١٢٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢/ ٣١٥).

جـواذبَ ودوافـعَ حـينَ يجـاذِبُ نفوسَـهم جـاذبُ الخيـرِ عنـد سـماع مـواعظِ القـرآن وإرشادِه، وجاذبُ الشرِّ مِن أعراقِ النفوس، والسُّخريَّةِ بالمسلمين؛ بحالِ صيِّبٍ مِن السماءِ اختلَطتْ فيه غيوثٌ وأنوار، ومزعِجاتٌ وأكدار(١).

تمثيلٌ لحالِهم إثرَ تمثيلٍ؛ ليعُمَّ البيانُ منها كلَّ دقيقٍ وجليل، ويوفَّىٰ حقُّها مِن التفظيعِ والتهويل؛ فإنَّ تفنُّنَهم في فنونِ الكفر والضـلال، وتـنقُّلَهم فيهـا مِـن حـالٍ إلىٰ حـال؛ حقيقٌ بـأن يُضـرَبَ في شـأنِه الأمثـالُ، ويُرخَىٰ في حلبتِه أعنَّةُ المقـالِ، ويُمَـدَّ لشـرحِه أطنابُ الإطناب، ويُعقَدَ لأجلِه فصولٌ وأبواب؛ لِما أنَّ كلَّ كلامٍ له حظٌّ مِن البلاغـة، وقِسْـطٌ مِـن الجزالـةِ والبراعـة، لا بـد أن يـوفَّىٰ فيـه حـقُّ كـلٍّ مِـن مقـامَيِ الإطنـابِ والإيجاز، فما ظنُّك بما في ذِرْوةِ الإعجازِ مِن التنزيلِ الجليـل؟ ولقـد نُعِـي علـيهم في هذا التمثيلِ تفاصيلُ جناياتِهم، وهـو عطـفٌ علـىٰ الأولِ علـىٰ حـذفِ المضـاف؛ لِمـا سيأتي مِن الضمائرِ المستدعِيَة لذلك(٢).

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٠ ﴾

ثم استأنَف الحديثَ عن بقيةِ حالِهم، فقال: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٣).

لمَّا ذكَر في الآيةِ السابقة الرعدَ والبرقَ علىٰ ما يـؤذِنُ بالشِّـدةِ والهَـوْلِ والفـزع؛ فكـأنَّ قائلًا قال: فكيف حالُهم مع مثلِ ذلك الرعدِ؟ فقيل: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾، ثـم

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣١٤-٣١٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ٥٢).

(٣) نظم الدرر (١/ ١٢٣).

قال: فكيف حالُهم مع مثلِ ذلك البرقِ؟ فقال: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾؛ فكانت هذه الآيةُ مستأنِفةً لِما سبَق.

استئنافٌ آخَرُ وقع جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ؛ كأنَّه قيل: فكيف حالُهم مع ذلك البرقِ؟ فقيل: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾(١).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

ولمَّا ثبَت بهذا البيانِ -عمَّا للكافرين بقِسْمَيْهم مِن الشقاوةِ مع تمامِ القدرة- شمولُ العلم المستلزمان للوَحْدانيَّة، أنتج قطعًا إفرادَه بالعبادةِ الموجِبة للسعادة، المضمَّنةِ لـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، فوصَل بذلك قولَه مقبِلًا عليهم بعد الإعراضِ عنهم عند التقسيمِ؛ إيذانًا بأنَّهم صاروا بما تقدَّم مِن ضربِ الأمثالِ وغيرِها مِن حيِّزِ المتأهِّلِ للخطابِ مِن غيرِ واسطةٍ؛ تنشيطًا لهم في عبادتِه وترغيبًا وتحريكًا إلى رفعِ أنفسِهم بإقبالِ الملكِ الأعظَمِ عن الخضوع لِمَن هو دُونَه، بل دُونَهم، وبشارةً لِمَن أقبَلَ عليه -بعد أن كان مُعرِضًا عنه- بدوامِ الترقية، فيُزالُ ما أشار إليه حرفُ النداء، والتعبير عن المنادى مِن بقيَّةِ البُعْدِ بالسهوِ والغفلة والإعراض بالتقصيرِ في العبادةِ والاضطراب والذبذبة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٢).

لمَّا استوفى أحوالًا للمؤمنين وأضدادِهم مِن المشركين والمنافِقين، لا جرَمَ تهيَّأ المقامُ لخطابِ عمومهم بما ينفعُهم؛ إرشادًا لهم، ورحمةً بهم؛ لأنَّه لا يَرضى لهم الضَّلالَ، ولم يكُنْ ما ذُكِر آنفًا مِن سُوءِ صُنْعِهم حائلًا دُونَ إعادةِ إرشادهم، والإقبالِ

---

(١) إرشاد العقل السليم (١/ ٥٤).

(٢) نظم الدرر (١/ ١٣٦).

عليهم بالخطاب؛ ففيه تأنيسٌ لأنفسِهم بعد أن هدَّدهم ولامَهم، وذَمَّ صُنْعَهم؛ ليَعلموا أنَّ الإغلاظَ عليهم ليس إلا حرصًا علىٰ صلاحهم[(١)].

إثرَ ما ذكَر اللهُ تعالىٰ علوَّ طبقةِ كتابه الكريم، وتحزُّبَ الناسِ في شأنه إلىٰ ثلاثِ فِرَقٍ: مؤمنةٍ به، محافِظةٍ علىٰ ما فيه مِن الشرائعِ والأحكام، وكافرةٍ قد نبذته وراء ظهرِها بالمجاهرةِ والشِّقاق، وأخرىٰ مذبذبةٍ بينهما بالمخادَعةِ والنفاق، ونعَتَ كلَّ فرقةٍ منها بما لها مِن النعوتِ والأحوال، وبيَّن ما لهم مِن المصيرِ والمآل؛ أقبَلَ عليهم بالخطابِ علىٰ نهجِ الالتفات؛ هزًّا لهم إلىٰ الإصغاءِ، وتوجيهًا لقلوبهم نحوَ التلقِّي، وجبرًا لِما في العبادةِ مِن الكُلْفةِ بلذَّةِ الخطاب؛ فأمَرهم كافَّةً بعبادتِه، ونهاهم عن الإشراكِ به[(٢)].

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

وما أحسَنَ الأمرَ بالعبادة حالَ الاستدلال علىٰ استحقاقِها بخَلْقِ الأوَّلين والآخِرين وما بعده عَقِبَ إثباتِ قدرةِ الداعي المشيرةِ إلىٰ الترهيب مِن سطواته! ولقد بدَع هذا الاستدلال علىٰ التفرُّدِ بالاستحقاقِ عَقِبَ أحوالِ مَن قرَّر أنَّهم في غايةِ الجمود بأمورٍ مشاهَدة يصلُ إليها كلُّ عاقلٍ بأولِ وهلةٍ مِن دَحْوِ الأرض وما بعده ممَّا به قِوَامُ بقائِهم مِن السَّكَنِ والرزقِ في سياقٍ منبِّه علىٰ النِّعْمةِ، محذِّرٍ مِن سلبِها، دالٍّ علىٰ الإلهِ بعد الدلالةِ بالأنفس مِن حيث إنَّ كلَّ أحدٍ يَعرِف ضرورةَ أنَّه وُجِد بعد أن لم يكُنْ؛ فلا بد له مِن موجِدٍ غيرِ الناس، لِما يشاهِدُ مِن أنَّ حالَ الكلِّ كحالِه بالدلالةِ بالآفاق مِن

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٢٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ٥٨).

حيث إنَّها متغيِّرةٌ؛ فهي مفتقرةٌ إلىٰ مغيِّرٍ هو الذي أحدَثها ليس بمتغيِّرٍ؛ لأنَّه ليس بجسمٍ ولا جسمانيٍّ، في سياقِ مذكِّرٍ بالنِّعَمِ الجِسام الموجِبة لمحبَّةِ المنعِم، وتركِ المنازَعة، وحصولِ الانقياد، فقال: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

لمَّا أمَر سبحانه بالعبادةِ في الآيةِ السابقة، ناسَب هنا أن يستدِلَّ علىٰ استحقاقِه للعبادة[2].

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا ثبَتتْ هذه الأدلةُ، فوجَب امتثالُ ما دعَتْ إليه، ولم يَبقَ لمتعنِّتٍ شُبْهةٌ إلا أن يقولَ: لا أفعلُ حتىٰ أعلَمَ أنَّ هذا الكتابَ الذي تقدَّم أنَّه الهدىٰ كلامُ الله؛ قال مبيِّنًا أنَّه مِن عندِه نَظْمًا كما كان مِن عنده معنًىٰ، محقِّقًا ما ختَم به التي قبلها مِن أنَّ مَن توقَّف عمَّا دعا إليه مِن التوحيدِ وغيرِه لا علمَ له بوجهٍ، وأتىٰ بأداةِ الشكِّ سبحانه مع علمِه بحالهم تنبيهًا علىٰ أنَّه مِن البعيدِ جدًّا أن يَجزِمَ بشكِّهم بعد هذا البيانِ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3].

انتقالٌ لإثباتِ الجزءِ الثاني مِن جزئَيِ الإيمانِ بعد أن تمَّ إثباتُ الجزءِ الأول مِن ذلك بما قدَّمه مِن قولِه تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ

---

(١) نظم الدرر (١/ ١٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٣١).

(٣) نظم الدرر (١/ ١٥٩).

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ فتلك هي المناسبةُ التي اقتضت عَطْفَ هذه الجملةِ على جملةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، ولأنَّ النَّهْيَ عن أن يجعلوا للهِ أندادًا جاء مِن عندِ الله؛ فهم بمظنَّةِ أن يُنكِروا أنَّ اللهَ نهىٰ عن عبادةِ شفعائه ومقرَّبيه؛ لأنَّهم مِن ضَلالِهم كانوا يدَّعون أنَّ اللهَ أمَرهم بذلك[(١)].

لمَّا أقام سبحانه في الآيةِ السابقة الدلائلَ على إثباتِ أنَّه الخالقُ المعبود بحقٍّ، وأبطَل القولَ بالشريكِ؛ ناسَب هنا تعقيبُه بما يدلُّ على نبوَّةِ رسولِه محمَّدٍ ﷺ؛ فالعبادةُ لا تقوم بعد إخلاصِها لله إلا بمتابعةِ رسولِ الله ﷺ[(٢)].

ومناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها: أنَّه لمَّا احتَجَّ تعالىٰ عليهم بما يُثبِتُ الوَحْدانيَّةَ، ويُبطِل الإشراكَ، وعرَّفهم أنَّ مَن جعَل للهِ شريكًا فهو بمَعزِلٍ مِن العلمِ والتمييز؛ أخذ يحتجُّ علىٰ مَن شكَّ في النبوَّةِ بما يزيلُ شُبْهتَه؛ وهو كونُ القرآنِ معجزةً، وبيَّن لهم كيف يَعلَمون أنَّه مِن عندِ اللهِ أم مِن عنده؛ بأن يأتوا هم ومَن يستعينون به بسورةٍ؛ هذا وهُمُ الفصحاءُ البلغاء المُجيدون حَوْكَ[(٣)] الكلامِ؛ مِن النِّثارِ والنِّظام، والمتقلِّبون في أفانينِ البيان، والمشهودُ لهم في ذلك بالإحسان[(٤)].

شروعٌ في تحقيقِ أنَّ الكتابَ الكريم الذي مِن جملتِه ما تُلِيَ مِن الآيتينِ الكريمتين الناطقتين بوجوبِ العبادةِ والتوحيد؛ منزَّلٌ مِن عندِ اللهِ ﷻ على رسوله ﷺ؛ كما أنَّ ما ذُكِر فيهما مِن الآياتِ التكوينية الدالة على ذلك صادرةٌ عنه تعالىٰ؛ لتوضيحِ

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٢/ ٣٤٧).

(٣) أي: نظمه.

(٤) البحر المحيط (١/ ١٦٦).

اتصافِه بما ذُكِر في مطلعِ السورةِ الشريفة مِن النُّعوتِ الجليلة، التي مِن جملتِها نزاهتُه عن أن يعتريَهُ ريبٌ ما(١).

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا كان سبحانه عالِمًا بأنَّ الأنفُسَ الأبيَّةَ والأنوفَ الشامخة الحميَّةَ التي قد لَزِمتْ شيئًا فمرَنتْ عليه حتىٰ صار لها خُلُقًا يصعُبُ عليها انفكاكُها عنه ويعسُرُ خلاصُها منه؛ عبَّر عن هذا الإخبارِ بالعَجْزِ مهدِّدًا في سياقٍ ملجِئٍ إلىٰ الإنصافِ بالاعترافِ، أو تفطُّرِ القلوبِ بالعجزِ عن المطلوبِ بقولِه تعالىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾(٢).

لمَّا طلَب منهم في الآيةِ السابقة بأن يأتوا بسورةٍ مِن مثلِ هذا الكتابِ، ناسَب أن يبيِّنَ هنا عَجْزَهم عن ذلك؛ لأنَّه كتابٌ مُعجِز منزل مِن عندِ الله؛ فهي مقرِّرةٌ لقولِه: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ في كونِ هذا الكتابِ منزلًا مِن عندِ الله تعالىٰ حقًّا.

تفريعٌ علىٰ الشرطِ وجوابه؛ أي: فإن لم تأتوا بسورةٍ، أو أتيتم بما زعمتم أنَّه سورةٌ، ولم يستطِعْ ذلك شهداؤُكم علىٰ التفسيرَينِ؛ فاعلَموا أنَّكم اجترأتم علىٰ اللهِ بتكذيبِ رسولِه المؤيَّد بمعجزةِ القرآن؛ فاتَّقُوا عقابَه المُعَدَّ لأمثالكم(٣).

---

(١) إرشاد العقل السليم (١/ ٦٣).

(٢) نظم الدرر (١/ ١٦٩).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٤٢).

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾

لمَّا ذكَر سبحانه ما أعَدَّه لهؤلاء الكفارِ ترهيبًا، ناسَب أن يُتبِعَه هنا بما أعَدَّه لأهلِ الإيمان ترغيبًا(١).

جملةُ ﴿وَبَشِّرِ﴾ معطوفةٌ على مجموعِ الجُمَلِ المسُوقة لبيانِ وصفِ عقاب الكافرين في الآياتِ السابقة، فعطَف مجموعَ أخبارٍ عن ثوابِ المؤمنين على مجموعِ أخبارٍ عن عقابِ الكافرين، والمناسبةُ واضحةٌ مسوِّغة لعطفِ المجموعِ على المجموع(٢).

لمَّا تكلَّم في التوحيدِ والنبوَّة، تكلَّم بعدهما في المَعادِ، وبيَّن عقابَ الكافرِ، وثوابَ المطيع، ومِن عادةِ الله تعالى أنَّه إذا ذكَر آيةً في الوعيدِ أن يُعقِّبها بآيةٍ في الوعدِ(٣).

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾

ولمَّا ثبَت بعَجْزِهم عن المعارَضةِ أنَّ هذا الكلامَ كلامُه سبحانه، ثبَت أنَّ ما فيه مِن الأمثالِ أقوالُه، فهدَّدهم في هذه السورةِ المدنيَّة على العنادِ، وتلاه بالآيةِ التي أخبَر

---

(١) نظم الدرر (١/ ١٨٩).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٥٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٢/ ٣٥٣).

فيها بأنَّ ثمارَ الدنيا وأزواجَها وإن شابَهتْ ما في الجنَّةِ بالاسمِ وبعضِ الشَّكل، فقد بايَنَتْهُ بالطُّعوم والطهارة، وما لا يَعلَمُه حقَّ علمِه إلا اللهُ تعالىٰ، فاضمحَلَّتْ نِسبتُها إليها، وكان في ختمِ الآية بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾ إشارةٌ إلىٰ أنَّ الأمثالَ التي هي أحسَنُ كلامِ الناس وإن شابهت أمثالَه سبحانه في الاسمِ ودوامِ الذِّكْرِ، فلا نسبةَ لها إليها؛ لجهاتٍ لا تَخفَىٰ علىٰ المنصِفِ، فلم يَبقَ إلا طعنُهم بأنَّها لكونِها بالأشياءِ الحقيرة لا تَلِيقُ بكبريائِه، فبيَّن حُسْنَها، ووجوبَ الاعتداد بها، وإنعامَ النظرِ فيها بالإشارةِ بعدمِ الاستحياء مِن ضربِها -لكونِها حقًّا- إلىٰ أنَّ الأشياءَ كلَّها -وإن عظُمتْ- حقيرةٌ بالنسبةِ إلىٰ جلالِه وعظَمتِه وكماله، فلو ترَكَ التمثيلَ بها لذلك، لانسَدَّ ذلك البابُ الذي هو مِن أعجَبِ العُجابِ، فقال تعالىٰ علىٰ طريقِ الاستنتاج مِن المقدِّمات المسلَّمات، وأكَّد سبحانه دفعًا لظنِّ أنَّه يتركُ لِما لبَّسوا به الأمثال، التي هي أكشَفُ شيءٍ للأشكال[(١)]، وأجلىٰ في جميعِ الأحوال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[(٢)].

لمَّا بيَّن سبحانه في السابقِ بالدليلِ القاطع كونَ القرآن مُعجِزًا، ومِن جملةِ ذلك ما اشتمَل عليه مِن نعيمٍ لأهلِ الجنَّة؛ ناسَب أن يورِدَ هاهنا شُبْهةً أورَدها الكفارُ قَدْحًا في ذلك الكتابِ، وأجاب عنها[(٣)].

---

(١) جمع شكل، وهو المِثْل.

(٢) نظم الدرر (١/ ١٩٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢/ ٣٦١).

فبينما كانت الآيةُ السابقة ثناءً على هذا الكتابِ المبين، ووَصْفَ حالَي المهتدين بهَدْيِه والناكبين عن صراطِه، وبيانَ إعجازِه، والتحديَ به، مع ما تخلَّل وأعقَب ذلك مِن المواعظِ والزواجر النافعة، والبياناتِ البالغة والتمثيلاتِ الرائعة؛ إذا بالكلامِ قد جاء يُخبِرُ بأنَّ اللهَ تعالى لا يعبأُ أن يَضرِبَ مثلًا بشيءٍ حقيرٍ أو غيرِ حقير؛ فحقيقٌ بالناظرِ عند التأمُّل أن تَظهَرَ له المناسبةُ لهذا الانتقالِ[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ﴾: شروعٌ في تنزيهِ ساحةِ التنزيل عن تعلُّقِ ريبٍ خاصٍّ اعتراهم مِن جهةِ ما وقَع فيه مِن ضربِ الأمثال، وبيان لحِكْمتِه، وتحقيق للحقِّ؛ إثرَ تنزيهِها عمَّا اعتراهم مِن مطلقِ الرَّيب بالتحدي، وإلقامِ الحَجَرِ، وإفحامِ كافَّةِ البلغاءِ مِن أهلِ المَدَرِ والوَبَرِ[2][3].

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ثم بيَّنهم بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[4].

لمَّا ختَم سبحانه الآيةَ السابقة بقولِه: ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، ناسَب هنا أن يذكُرَ أوصافَهم تحذيرًا منها.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٥٧).

(٢) أي: البدو والحضر.

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ٧١).

(٤) نظم الدرر (١/ ٢٠٨).

جملةُ ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ ﴾ صفةٌ للفاسقين؛ لتقريرِ اتصافهم بالفسق؛ لأنَّ هاتِه الخِلالَ مِن أكبَرِ أنواعِ الفسوق؛ بمعنى الخروجِ عن أمرِ الله تعالى[1].

﴿ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨ ﴾

ولمَّا دعا سبحانه إلى التوحيدِ ودلَّ عليه، وأنذَر مَن أعرَض، وبشَّر مَن أقبَلَ، وذكَر حالَ الفريقينِ في قَبولِ الأدلة التي زُبْدتُها الأمثالُ، وإبائِها؛ التفَتَ إلى تبكيتِ المُدبِر لعلَّه يستبصرُ، واستمَرَّ سبحانه في دلائلِ التوحيد حتى قامت قيامَ الأعلام[2]، ونفَذتْ نفوذَ السِّهام، حتى تخلَّلتْ صميمَ العظام، لقد ظهَرتْ فلا تَخفَى على أحدٍ، إلا على أكمَهَ لا يُبصِرُ القمرَ، في أسلوب مشيرٍ إلى البعثِ، منبِّهٍ على التخلص مِن الخَسارة، وما أبدَعَ افتتاحَ ذلك عَقِبَ ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ بقولِه على طريقِ التفاتِ المُغضَبِ المستعطِفِ المعجِّبِ: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[3].

ثنَى عِنانَ الخطابِ إلى الناس الذين خوطِبوا بقولِه آنفًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾، بعد أن عقَّب بأفانينَ مِن الجُمَلِ المعترضة مِن قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، وليس في قوله: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ تناسُبٌ مع قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا﴾، وما بعده ممَّا حكى عن الذين كفَروا في قولهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾ حتى يكونَ الانتقالُ إلى الخطابِ

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٦٧).

(٢) أي: الجبال.

(٣) نظم الدرر (١/ ٢١٢-٢١٣).

في قوله: ﴿تَكْفُرُونَ﴾ التفاتًا؛ فالمناسبةُ بَيْنَ موقعِ هاته الآيةِ بعد ما قبلها هي مناسبةُ اتحادِ الغرَض، بعد استيفاءِ ما تخلَّل واعترَض، ومِن بديعِ المناسبة وفائقِ التفنُّنِ في ضروبِ الانتقالاتِ في المخاطَبات أن كانت العِلَلُ التي قُرِنَ بها الأمرُ بعبادةِ الله تعالىٰ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ إلخ هي العِلَلَ التي قُرِنَ بها إنكارُ ضدِّ العبادةِ؛ وهو الكفرُ به تعالىٰ في قوله هنا: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾، فقال فيما تقدَّم: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ الآية، وقال هنا: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، وكان ذلك مبدأَ التخلُّص إلىٰ ما سيرِدُ مِن بيانِ ابتداءِ إنشاءِ نوعِ الإنسان، وتكوينِه وأطوارِه(١).

اعلَمْ أنَّه ﷻ لمَّا تكلَّم في دلائلِ التوحيدِ والنبوَّة والمَعاد إلىٰ هذا الموضعِ، فمِن هذا الموضعِ إلىٰ قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠﴾ في شرحِ النِّعَمِ التي عمَّتْ جميعَ المكلَّفين؛ وهي أربعةٌ: أولها: نعمةُ الإحياء؛ وهي المذكورةُ في هذه الآيةِ(٢).

﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾: التفاتٌ إلىٰ خطابِ المذكورين، مبنيٌّ علىٰ إيرادِ ما عُدِّد مِن قبائحِهم السابقةِ؛ لتزايُدِ السَّخَطِ الموجِبِ للمشافهةِ بالتوبيخِ والتقريع، والاستفهامُ إنكاريٌّ؛ لا بمعنىٰ إنكارِ الوقوع، بل بمعنىٰ إنكارِ الواقع، واستبعادِه، والتعجيبِ منه، وفيه مِن المبالغة ما ليس في توجيهِ الإنكارِ إلىٰ نفسِ الكفر(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٧٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢/ ٣٧٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ٧٦).

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

ولمَّا أجمَلَ سبحانه في أولِ هذه الآيةِ أولَ أمرِهم وأوسَطَه وآخِرَه على الوجهِ الذي تقدَّم أنَّه منبِّهٌ على أنَّ الكفرَ ينبغي أن يكونَ مِن قبيلِ الممتنِعِ لِما عليه مِن باهرِ الأدلة؛ شرَع يفصِّلُه على وجهٍ داعٍ لهم إلى جَنابِه بالامتنانِ بأنواعِ الإحسانِ بأمرٍ أعلى في إفادةِ المقصود ممَّا قَبْلَه على عادةِ القرآنِ في الترقِّي مِن العالي إلى الأعلى، فساقَ سبحانه ابتداءَ الخَلْقِ الذي هو مِن أعظَمِ الأدلةِ على وَحْدانيَّتِه مساقَ الإنعامِ على عبادِه بما فيه مِن منافعِهم؛ ليكونَ داعيًا إلى توحيدِه مِن وجهينِ: كونُه دالًّا على عظمة مؤثرِه، وكمالِ قدرتِه، وكونُه إحسانًا إلى عبادِه ولطفًا بهم، وقد جُبلتِ القلوبُ على حُبِّ مَن أحسَنَ إليها، فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾(١).

لمَّا ذكَر سبحانه في الآيةِ السابقة نعمةَ الإحياء، ناسَب أن يُتبِعَه هنا بذِكرِ نعمةِ الأرض والسماء، وهذه هي النِّعْمةُ الثانية بعد الإحياءِ التي عمَّتِ المكلَّفين بأَسْرِهم، وما أحسَنَ هذا الترتيبَ! فإنَّ الانتفاعَ بالأرضِ والسماء إنَّما يكونُ بعد حصولِ الحياة؛ فلهذا ذكَر اللهُ أمرَ الحياةِ أولًا، ثم أتبَعَه بذِكْرِ السماءِ والأرض(٢).

استدلالٌ ثانٍ على شناعةِ كفرِهم بالله تعالى، وعلى أنَّه ممَّا يُقضَى منه العجَبُ؛ فإنَّ دلائلَ ربوبيَّةِ الله ووَحْدانيَّتِه ظاهرةٌ في خَلْقِ الإنسان، وفي خَلْقِ جميعِ ما في الأرض؛ فهو ارتقاءٌ في الاستدلالِ بكثرةِ المخلوقات(٣).

---

(١) نظم الدرر (١/ ٢٢٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢/ ٣٧٩).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٧٨).

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾: تقريرٌ للإنكارِ، وتأكيدٌ له مِن الحيثيَّتينِ المذكورتينِ، غُيِّرَ سَبْكُه عن سبكِ ما قَبْلَه، مع اتحادِهما في المقصودِ؛ إبانةً لِما بَيْنهما مِن التفاوتِ؛ فإنَّ ما يتعلَّقُ بذواتِهم مِن الإحياءِ والإماتةِ والحشرِ أدخَلُ في الحثِّ على الإيمانِ والكفِّ عن الكفرِ ممَّا يتعلَّقُ بمعايشِهم، وما يَجري مَجراها[(١)].

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

لمَّا بيَّن سبحانه في الآيةِ السابقة نعمةَ خَلْقِ الأرض، وما أُودِعَ فيها مِن منافعَ؛ ناسَب أن يبيِّنَ هنا مَن سيستخلِفُه في هذه الأرضِ.

عطَفتِ «الواوُ» قصَّةَ خَلْقِ أولِ البشَرِ على قصَّةِ خَلْقِ السماواتِ والأرض؛ انتقالًا بهم في الاستدلالِ على أنَّ اللهَ واحدٌ، وعلى بطلانِ شِرْكِهم، وتخلُّصًا مِن ذِكْرِ خَلْقِ السماواتِ والأرض إلى خَلْقِ النوعِ الذي هو سلطانُ الأرض، والمتصرِّفُ في أحوالها؛ ليَجمَعَ بَيْنَ تعدُّدِ الأدلةِ وبين مختلِفِ حوادثِ تكوينِ العوالم وأصلِها؛ ليَعلَمَ المسلمون ما عَلِمه أهلُ الكتابِ مِن العلمِ الذي كانوا يباهون به العربَ[(٢)].

اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ دالةٌ على كيفيَّةِ خَلْقِه آدَمَ عليه السلام، وعلى كيفيَّةِ تعظيمِ الله تعالى إيَّاه، فيكونُ ذلك إنعامًا عامًّا على جميعِ بني آدَمَ، فيكون هذا هو النِّعْمةَ الثالثة مِن تلك النِّعَمِ العامة التي أورَدَها[(٣)].

(١) إرشاد العقل السليم (١/ ٧٨).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٩٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢/ ٣٨٣).

ومناسبتُها لِما قَبْلَها: أنَّه لمَّا امتَنَّ عليهم بخَلْقِ ما في الأرضِ لهم، وكان قَبْلَه إخراجُهم مِن العدَمِ إلىٰ الوجودِ؛ أتبَع ذلك ببَدْءِ خَلْقِهم، وامتَنَّ عليهم بتشريفِ أبيهم، وتكريمِه، وجَعْلِه خليفةً، وإسكانِه دارَ كرامتِه، وإسجادِ الملائكة تعظيمًا لشأنِه، وتنبيهًا علىٰ مكانِه، واختصاصِه بالعلمِ الذي به كمالُ الذات، وتمامُ الصفات، ولا شك أنَّ الإحسانَ إلىٰ الأصلِ إحسانٌ إلىٰ الفرعِ، وشرَفُ الفرعِ بشرَفِ الأصل(١).

بيانٌ لأمرٍ آخرَ مِن جنسِ الأمورِ المتقدِّمة، المؤكِّدةِ للإنكارِ والاستبعادِ؛ فإنَّ خَلْقَ آدَمَ عليه السلام وما خصَّه به مِن الكراماتِ السَّنِيَّةِ المَحْكيَّةِ مِن أجلِّ النِّعَمِ الداعيةِ لذريتِه إلىٰ الشكرِ والإيمان، الناهيةِ عن الكفرِ والعصيان، وتقريرٌ لمضمونِ ما قبله مِن قولِه تعالىٰ: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وتوضيحٌ لكيفيَّةِ التصرفِ، والانتفاعِ بما فيها(٢).

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾

ولمَّا أعلَمَ سبحانه الملائكةَ أنَّ الأمرَ علىٰ خلافِ ما ظنُّوا، شرَع في إقامةِ الدليل عليه، فقال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٣).

---

(١) البحر المحيط (١/ ٢٢٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ٧٩).

(٣) نظم الدرر (١/ ٢٤٠-٢٤١).

معطوفٌ علىٰ قولـه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ عَطْفَ حكايةِ الـدليلِ التفصـيليِّ علىٰ حكايةِ الاستدلال الإجماليِّ الذي اقتضاه قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ فإنَّ تعليمَ آدَمَ الأسماءَ وإظهارَ فضيلتِه بقَبوله لهذا التعليمِ دُونَ الملائكةِ جعَله اللهُ حُجَّةً علـىٰ قولِـه لهـم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: مـا لا تَعلَمـون مِـن جـدارةِ هـذا المخلوقِ بالخلافة في الأرض[١].

لمَّا ذكَر في الآيةِ السابقة أنَّ الملائكةَ سألوا عن وجهِ الحِكْمةِ في خَلْقِ آدَمَ وذريتِه وإسكانِه تعالىٰ إيَّاهم في الأرضِ، وأخبَر تعالىٰ عن وجهِ الحكمةِ في ذلك علىٰ سبيلِ الإجمال بقولِـه تعـالىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ ناسَب أن يَزيـدَهم بيانًا هنا، وأن يفصِّلَ لهم ذلك المجمَلَ، فبيَّن تعالىٰ لهم مِن فضلِ آدَمَ عليه السلام مـا لـم يكُـنْ مِن ذلـك معلومًا لهم؛ وذلك بأنْ علَّـم آدَمَ الأسماءَ كلَّها، ثـم عرَضهم عليهم؛ ليَظهَرَ بـذلك كمالُ فضلِه، وقصورُهم عنه في العلم[٢].

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾: شروعٌ في تفصيلِ ما جرىٰ بعد الجوابِ الإجماليِّ؛ تحقيقًا لمضمونِه، وتفسيرًا لإبهامِه[٣].

﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ ﴾

استئنافٌ واقعٌ موقعَ الجوابِ، فكأنَّه قيل: فماذا قالوا إذ ذاك؟ هل خرَجوا عن عهدةِ ما كُلِّفُوه أو لا؟ فقيل: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٠٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٢/ ٣٩٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ٨٣).

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣ ﴾

فلمَّا قالوا ذلك، وأراد إشهادَهم فَضْلَ آدَمَ عليه السلام؛ استأنَف في جوابِ مَن كأنَّه قال: ما قال لهم عند ذلك؟ قولَه: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾(١).

لمَّا دخَل هذا القولُ في جملةِ المحاوَرة، جُرِّدتِ الجملةُ مِن الفاء أيضًا؛ كما تقدَّم في نظائرِه؛ لأنَّه وإن كان إقبالًا بالخطاب على غيرِ المخاطَبين بالأقوالِ التي قبله، فهو بمثابةِ خطابٍ لهم؛ لأنَّ المقصودَ مِن خطابِ آدمَ بذلك أن يَظهرَ عَقِبَه فضلُه عليهم في العلمِ مِن هاته الناحيةِ، فكان الخطابُ بمنزلةِ أن يكونَ مسُوقًا إليهم لقولِه عَقِبَ ذلك: ﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾(٢).

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤ ﴾

ولمَّا أخبَرَنا سبحانه بهذه النِّعْمةِ على أبينا، ضَمَّ إليها الإنعامَ بإسجادِ الملائكة له ونحن في ظهرِه، فقال عاطفًا على (إذ) الأُولى، وعدَل عن الغَيْبةِ إلى التكلم، ثم إلى كونِه في مظهرِ العظمةِ؛ إعلامًا بأنَّه أمرٌ فصلٌ لا فُسْحةَ في المراجعةِ فيه. وقال الحَرَالِّيُّ: لمَّا أنبأ تعالى بأمرِ مفاوَضةِ الملائكة وما كان مِن ادعائِهم وتسليمِهم الأمرَ للهِ ولِمَن علَّمه اللهُ -وهو آدمَ عليه السلام-، نظَم بذلك نبأَ انقيادِهم لآدَمَ فعلًا كما انقادوا له

(١) نظم الدرر (١/ ٢٤٨-٢٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤١٧).

عِلْمًا تمامًا لكمالِ حالهم في التسليمِ علمًا وعملًا، فقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(١).

لمَّا ظهَرتْ مزيَّةُ آدمَ عليه السلام وشرفُه وعلمُه عليهم، ناسَب أن يأمرَهم هنا بالسجودِ له؛ تكريمًا له وتشريفًا.

اعلَمْ أنَّ هذا هو النِّعْمةُ الرابعة مِن النِّعَمِ العامة علىٰ جميعِ البشر؛ وهو أنَّه سبحانه وتعالى جعَل أبانا مسجودَ الملائكةِ؛ وذلك لأنَّه تعالىٰ ذكَر تخصيصَ آدمَ بالخلافةِ أولًا، ثم تخصيصَه بالعلمِ الكثير ثانيًا، ثم بلوغَه في العلم إلىٰ أن صارت الملائكةُ عاجزين عن بلوغِ درجتِه في العلم، وذكَر الآنَ كونَه مسجودًا للملائكة(٢).

ومناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها: أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا شرَّف آدمَ بفضيلةِ العلم، وجعَله معلِّمًا للملائكةِ وهم مستفيدون منه مع قولِهم السابقِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؛ أراد اللهُ أن يكرِّمَ هذا الذي استخلَفه بأن يُسجِدَ له ملائكتَه؛ ليُظهِرَ بذلك مزيَّةَ العلمِ علىٰ مزيةِ العبادة(٣).

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

ثم ذكَّر الكلَّ بنعمةٍ تَشمَلُهم؛ وهي مُحاجَّتُه لأقربِ خَلْقِه إذ ذاك إليه عن أبينا آدمَ قبل إيجادِه، اقتضىٰ الأسلوبُ الحكيم أن يوضِّحَ لهم الحجَّةَ في فضيلةِ هذا الخليفةِ، فذكَر ما آتاه مِن العلم، فلمَّا فرَغ مِن محاجَّتِهم بما أوجَب إذعانَهم، ذكَّر بَنِيهِ بنعمةِ السجود له، فما كان تقديمُ إظهارِ فضيلة العلم إلا محافظةً علىٰ حُسْنِ السياقِ في

(١) نظم الدرر (١/ ٢٥٥).
(٢) مفاتيح الغيب (٣/ ٤٢٧).
(٣) البحر المحيط (١/ ٢٤٥).

ترتيبِ الدليل علىٰ أقوَم منهاجٍ وأوضَحِ سبيلٍ، ولمَّا فرَغ مِن نعمةِ التفضيلِ في الصفاتِ الذاتية، بيَّن النِّعْمةَ بشرَفِ المسكنِ مع تسخيرِ زوجٍ مِن الجنسِ لكمالِ الأُنْسِ وما يَتبَعُ ذلك. وقال الحَرَالِّيُّ: لمَّا أظهَرَ اللهُ سبحانه فضيلةَ آدَمَ فيما أشاد به عند الملائكةِ مِن علمِه وخلافتِه والإسجادِ له وإباءِ إبليسَ عنه، أظهَر تعالىٰ إثْرَ ذلك ما يقابِلُ مِن أحوالِ آدَمَ حالَ ما ظهَر للملائكة بما فيه مِن حظٍّ مخالَفةٍ يشارِكُ بها إفراطَ ما في الشيطانِ مِن الإباءِ لإحاطةِ خَلْقِ آدَمَ بالكونِ كلِّه عُلْوًا وسُفْلًا، وليُظهِرَ فضلَ آدَمَ في حالِ مخالفتِه علىٰ إبليسَ في حالِ إبائه ممَّا يبدو علىٰ آدَمَ مِن الرجوعِ بالتوبةِ؛ كحالِ رجوعِ الملائكةِ بالتسليم، فيَظهَرَ فيه الجمعُ بَيْنَ الطرَفينِ، والفضلُ في الحالينِ: حالُ علمِه، وحالُ توبتِه في مخالفتِه، فجعَل تعالىٰ إسكانَ الجنَّةِ توطئةً لإظهارِ ذلك مِن أمرِه، فقال تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(١)].

بعد أن أكرَمَ اللهُ آدَمَ عليه السلام بسجودِ الملائكة له كرامةَ إجلالٍ، ناسَب إكرامُه بإسكانِه الجنَّةَ كرامةَ إنزالٍ[(٢)].

عطفٌ علىٰ ﴿قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾؛ أي: بعد أن انقضىٰ ذلك، قلنا: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[(٣)].

شروعٌ في حكايةِ ما جرىٰ بَيْنَه تعالىٰ وبين آدَمَ عليه السلام بعد تمامِ ما جرىٰ بَيْنَه تعالىٰ وبين الملائكةِ وإبليسَ مِن الأقوالِ والأفعال، وقد تُرِكتْ حكايةُ توبيخِ إبليسَ وجوابِه ولعنِه واستظهارِه وإنظارِه؛ اجتزاءً بما فُصِّلَ في سائرِ السُّوَرِ الكريمة[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١/ ٢٨١).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٢٨).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٤٢٨).

(٤) إرشاد العقل السليم (١/ ٩٠).

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

ثم بيَّن أنَّهما أسرَعا المواقَعةَ بقضيةِ خَلْقِهما على طبائعِ الشهوة لِما نُهيَا عنه، فقال: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾(١).

الفاءُ عاطفةٌ على قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾، وحقُّها إفادةُ التعقيبِ، فيكونُ التعقيبُ عرفيًّا؛ لأنَّ وقوعَ الإزلالِ كان بعد مضيِّ مدةٍ هي بالنسبةِ للمدة المرادة مِن سُكْنى الجنَّةِ كالأمدِ القليل، والأحسنُ جعلُ الفاءِ للتفريع مجرَّدةً عن التعقيب(٢).

لمَّا بيَّن في الآيةِ السابقة إكرامَه لآدمَ عليه السلام بإسكانِه وزوجِه الجنَّةَ، ناسَب أن يبيِّنَ هنا السببَ الذي مِن أجلِه خرَج مِن الجنَّة، فقال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

ولمَّا تسبَّب عن جزاءِ آدمَ عليه السلام بالإهباطِ الذي هو كفارةٌ له أنَّه أُلهِمَ الدعاءَ بما رُحِمَ به، عبَّر عن ذلك بقولِه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٣).

لمَّا بيَّن في الآيةِ السابقة إيقاعَ الشيطان لآدَمَ في المعصيةِ، وإخراجَه مِن الجنَّةِ دارِ السعادة إلى الأرضِ دارِ الشقاء، فكأنَّ قائلًا يقول: هل تاب اللهُ تعالى على آدمَ عليه السلام

(١) نظم الدرر (١/ ٢٨٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٣٣).

(٣) نظم الدرر (١/ ٢٩٣).

بعد عصيانِه؟ وكيف كان ذاك؟ فقال تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾

ولمَّا أُعلِموا بالعداوةِ اللازمة، كان كأنَّه قيل: فما وجهُ الخلاصِ منها؟ فقيل: اتِّباعُ شرعِنا المشروعِ للتوبةِ والرحمة؛ فإنَّا ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ (١).

أنَّ آدمَ وحوَّاءَ لمَّا أتيَا بالزَّلَّةِ، أُمِرَا بالهبوطِ، فتابا بعد الأمرِ بالهبوط، ووقَع في قلبِهما أنَّ الأمرَ بالهبوط لمَّا كان بسببِ الزلةِ فبَعْدَ التوبةِ وجَب ألا يَبقَىٰ الأمرُ بالهبوطِ، فأعاد اللهُ تعالىٰ الأمرَ بالهبوط مرةً ثانية؛ ليَعلَما أنَّ الأمرَ بالهبوط ما كان جزاءً علىٰ ارتكابِ الزلة حتىٰ يزُولَ بزوالها؛ بل الأمرُ بالهبوط باقٍ بعد التوبةِ؛ لأنَّ الأمرَ به كان تحقيقًا للوعدِ المتقدِّمِ في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾.

استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ ينسحبُ عليه الكلامُ، كأنَّه قيل: فماذا وقَع بعد قَبولِ توبتِه؟ فقيل: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ (٢).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

ولمَّا بشَّر المؤمنين الذين اتَّبَعوا الهدىٰ، أتبَعه إنذارَ الكافرين الذين نابَذوه بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (٣).

---

(١) نظم الدرر (١/ ٢٩٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ٩٢).

(٣) نظم الدرر (١/ ٣٠٠).

قولُـه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يحتمِـلُ أنَّـه مِـن جملـةِ مـا قيـل لآدَمَ؛ فإكمـالُ ذِكْرِه هنا استيعابٌ لأقسامِ ذريةِ آدَمَ، وفيه تعريضٌ بالمشركين مِن ذريةِ آدَمَ، وهو يعُمُّ مَن كـذَّب بـالمعجزاتِ كلِّهـا، ومِـن جملتِهـا القـرآنُ، ويحتمِـلُ أنَّـه تـذييلٌ ذُيِّلـتْ بـه قصَّةُ آدَمَ لمناسبةِ ذِكْرِ المهتدِين، وليس مِن المقُولِ له، والمقصودُ مِن هـذا التـذييلِ تهديدُ المشركين[١].

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠﴾

وابتـدأ سـبحانه بتـذكيرِهم بمـا خَصَّـهم بـه عـن النـوعِ الآدمـيِّ مِـن الـنِّعَمِ التـي كانوا يقابِلونها بالكفران، وما عامَلهم به مِن إمهالِهم علىٰ مرتكَباتِهم، ومعامَلتِهم بالعفوِ والإقالة؛ ممَّا يبيِّنُ سَعةَ رحمتِه، وعظيمَ حِلْمِه، وابتـدأ مِن أوامرِهم بالإيفاءِ بالعهود التي مِن أعظمِها متابعةُ هذا النبيِّ الكريم، والإيمانُ بكتابِه الـذي نفَىٰ عنه الرَّيْبَ، فقـال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[٢].

لمَّا كان السياقُ في الآياتِ السابقة في شأنِ آدَمَ عليه السلام وتكريمِه، وسجودِ الملائكة له، وامتناعِ إبليسَ لكِبْرِه وحسَدِه، وكان هذا معلومًا لليهودِ، لأنَّهم أهلُ كتابٍ؛ ناسَب أن يخاطِبَ اللهُ تعالىٰ بني إسرائيل مذكِّرًا إيَّاهم بما يجبُ عليهم مِن الإيمانِ والاستقامة، فناداهم بعنوانِ بُنوَّتهم لإسرائيلَ عليه السلام، فأمَرهم ونهاهم[٣].

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٤٤).

(٢) نظم الدرر (١/ ٣١٢).

(٣) أيسر التفاسير (١/ ٤٩).

انتقالٌ مِن موعظةِ المشركين إلىٰ موعظةِ الكافرين مِن أهلِ الكتاب؛ وبذلك تتمُّ موعظةُ الفِرَقِ المتقدِّمِ ذِكْرُها؛ لأنَّ فريقَ المنافِقين لا يعدو أن يكونوا مِن المشركين، أو مِن أهلِ الكتاب اليهودِ، ووُجِّهَ الخطابُ هنا إلىٰ بني إسرائيلَ، وهم أشهَرُ الأُمَمِ المتديِّنة ذاتِ الكتابِ الشهير، والشريعةِ الواسعة(١).

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾: تلوينٌ للخطاب، وتوجيهٌ له إلىٰ طائفةٍ خاصة مِن الكفرةِ المعاصرين للنبيِّ ﷺ؛ لتذكيرِهم بفنونِ النِّعم الفائضة عليهم، بعد توجيهِه إلىٰ رسولِ الله ﷺ، وأمرِه بتذكيرِ كلِّهم بالنِّعْمةِ العامة لبني آدمَ قاطبةً(٢).

﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١ ﴾

هذا شروعٌ في دعوةِ بني إسرائيلَ إلىٰ الإسلامِ، وهَدْيِ القرآن؛ وهذا هو المقصودُ مِن خطابِهم، ولكن قدَّم بَيْنَ يديه ما يهيِّئُ نفوسَهم إلىٰ قَبولِه كما تتقدَّمُ المقدِّمةُ علىٰ الغرضِ، والتخليةُ علىٰ التحليةِ، والإيمانُ بالكتابِ المنزل مِن عندِ الله أو بكتبِ الله وإن كان مِن جملةِ ما شَمِله العهدُ المشار إليه بقولِه: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ ﴾ إلا أنَّه لم يلتفِتْ إليه هنا مِن تلك الجهةِ؛ لأنَّهم عاهَدوا اللهَ علىٰ أشياءَ كثيرةٍ كما تقدَّم؛ ومِن جملتِها: الإيمانُ بالرُّسلِ والكتبِ التي تأتي بعد موسىٰ عليه السلام، إلا أنَّ ذلك مجمَلٌ في العهد، فلا يتعيَّنُ أن يكونَ ما جاء به محمَّدٌ ﷺ هو ممَّا عاهَدوا اللهَ عليه، بل حتىٰ يصدِّقوا بأنَّه مِن عندِ الله، وأنَّ الجائيَ به رسولٌ مِن الله، فهم مَدْعوُّون إلىٰ ذلك التصديقِ هنا(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٤٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ٩٤).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٤٥٨).

ثم أمَرهم بالأمرِ الخاص الذي لا يَتِمُّ إيمانُهم ولا يصحُّ إلا به، فقال: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾[1].

﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾

معطوفٌ علىٰ جميعِ ما تقدَّم مِن قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ إلىٰ هنا؛ لأنَّ هاته الجُمَلَ كلَّها لم يُقصَدْ أنَّ الواحدةَ منها معطوفةٌ علىٰ التي قبلها خاصةً، بل علىٰ جميعِ ما تقدَّمها، لا سيَّما قولُه: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾؛ فإنَّه مبدأُ انتقالٍ مِن غرضِ التحذير مِن الضَّلالِ إلىٰ غرضِ التحذير مِن الإضلال بعد أن وسَّط بينهما قولَه: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾؛ كما تقدَّم.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

ولمَّا فرَغ سبحانه مِن أمرِ أهلِ الكتاب بالإيمانِ بالله والنبيِّ والكتاب الذي هو مِن الهدىٰ الآتي إليهم المشارِ إلىٰ ذلك كلِّه بالإيفاءِ بالعهد، عطَف بقولِه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[2].

أمَر بالتلبُّسِ بشعارِ الإسلام عَقِبَ الأمرِ باعتقادِ عقيدة الإسلام؛ فقولُه: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ الآيةَ راجعٌ إلىٰ الإيمانِ بالنبي ﷺ، وما هو وسيلةُ ذلك، وما هو غايتُه؛ فالوسيلةُ ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾، والمقصدُ ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾، والغايةُ

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٥٠).

(٢) نظم الدرر (١/ ٣٣٥).

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وقد تخلَّل ذلك نَهْيٌ عن مفاسدَ تصُدُّهم عن المأموراتِ مناسباتٍ للأوامرِ(١).

اعلَمْ أنَّ اللهَ ﷻ لمَّا أمَرهم بالإيمانِ أولًا، ثم نهاهم عن لَبْسِ الحقِّ بالباطل وكتمانِ دلائلِ النبوَّة ثانيًا؛ ذكَر بعد ذلك بيانَ ما لَزِمهم مِن الشرائع، وذكَر مِن جملةِ الشرائع ما كان كالمقدَّمِ والأصلِ فيها؛ وهو الصلاةُ التي هي أعظَمُ العباداتِ البدَنية، والزكاةُ التي هي أعظَمُ العباداتِ المالية(٢).

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

ولمَّا أمَر علماءَهم بما ترَكوا مِن معالي الأخلاقِ مِن الإيمانِ والشرائع بعد أمرِهم بذِكْرِ ما خَصَّهم به مِن النِّعم، ونهاهم عمَّا ارتكَبوا مِن سَفْسافِها مِن كُفْرِ النِّعم ونقضِ العهود، وما تَبِع ذلك، وكانوا يأمرون غيرَهم بما يزعُمون أنَّه تزكيةٌ، ويَنهَونه عمَّا يدَّعُون أنَّه تَرْدِيَة؛ أنكَر عليهم -ترغيبًا فيما ندَبهم إليه وحثَّهم عليه، وتوبيخًا على تركِه- بقولِه: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٣).

هذا اعتراضٌ بَيْنَ قولِه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وقولِه: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، ووجهُ المناسبة في وقوعِه هنا: أنَّه لمَّا أمَرهم بفعلِ شعائرِ الإسلام مِن إقامةِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وذيَّل ذلك بقولِه: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ليشيرَ إلى أنَّ صلاتَهم التي

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٧٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٣/ ٤٨٥).

(٣) نظم الدرر (١/ ٣٣٦).

يفعلونها أصبَحتْ لا تُغنِي عنهم؛ ناسَب أن يزادَ لذلك أنَّ ما يأمرُ به دِينُهم مِن البِرِّ ليسوا قائمين به علىٰ ما ينبغي؛ فَجِيء بهذا الاعتراضِ[١].

اعلَمْ أنَّه ﷻ لمَّا أمَر بالإيمانِ والشرائع بِناءً علىٰ ما خَصَّهم به مِن النِّعَم، ورغَّبهم في ذلك بِناءً علىٰ مأخذٍ آخرَ، وهو أنَّ التغافلَ عن أعمالِ البِر مع حثِّ الناس عليها مستقبَحٌ في العقولِ؛ إذ المقصودُ مِن أمرِ الناس بذلك إمَّا النصيحةُ أو الشفقة، وليس مِن العقل أن يُشفِقَ الإنسانُ علىٰ غيرِه أو أن يَنصَحَ غيرَه ويُهمِلَ نفسَه؛ فحذَّرهم اللهُ تعالىٰ مِن ذلك بأنْ قرَّعهم بهذا الكلامِ[٢].

﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾

لمَّا أنكَر عليهم اتِّباعَ الهوىٰ في الآيةِ السابقة، أرشَدهم إلىٰ دوائه بأعظَمِ أخلاقِ النفس، وأجَلِّ أعمالِ البدَنِ؛ فقال عاطفًا علىٰ ما مضىٰ مِن الأوامرِ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾[٣].

خطابٌ لبني إسرائيلَ بالإرشادِ إلىٰ ما يُعِينُهم علىٰ التخلُّقِ بجميعِ ما عُدِّد لهم مِن الأوامرِ والنواهي الراجعةِ إلىٰ التحلِّي بالمحامدِ، والتخلِّي عن المذمَّات، له أحسَنُ وَقْعٍ مِن البلاغة؛ فإنَّهم لمَّا خُوطبوا بالترغيبِ والترهيب والتنزيهِ والتشويه ظُنَّ بهم أنَّهم لم يَبقَ في نفوسِهم مسلكٌ للشيطان، ولا مجالٌ للخِذْلان، وأنَّهم أنشَؤوا يَتحفَّزون للامتثالِ والائتساء، إلا أنَّ ذلك الإلفَ القديم يُثقِلُ أرجُلَهم في الخَطْوِ إلىٰ هذا الطريقِ القويم، فوُصِف لهم الدواءُ الذي به الصلاحُ، ورِيشَ بقادمتَي الصبرِ

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٧٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢/ ٤٨٧).

(٣) نظم الدرر (١/ ٣٤٠).

والصلاةِ منهم الجَناحُ؛ فالأمرُ بالاستعانةِ بالصبر؛ لأنَّ الصبرَ مِلاكُ الهدىٰ؛ فإنَّ ممَّا يصُدُّ الأُمَمَ عن اتِّباعِ دِينٍ قويمٍ إِلْفَهم بأحوالِهم القديمة، وضَعْفَ النفوسِ عن تحمُّلِ مفارَقتِها، فإذا تدرَّعوا[1] بالصبرِ، سهُلَ عليهم اتِّباعُ الحق، وأمَّا الاستعانةُ بالصلاةِ فالمراد تأكيدُ الأمرِ بها الذي في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وهذا إظهارٌ لحُسْنِ الظنِّ بهم، وهو طريقٌ بديع مِن طرقِ الترغيب[2].

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾: متصِلٌ بما قبله؛ كأنَّهم لمَّا كُلِّفوا ما فيه مشقَّةٌ - مِن تَرْكِ الرياسةِ، والإعراضِ عن المال - عُولِجوا بذلك[3].

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

وقد وصَف تعالىٰ الخاشعين بأنَّهم ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، وهي صلةٌ لها مزيدُ اتصالٍ بمعنىٰ الخشوع؛ ففيها معنىٰ التفسيرِ للخاشعين، ومعنىٰ بيانِ منشأِ خشوعهم؛ فدَلَّ علىٰ أنَّ المرادَ مِن الظنِّ هنا الاعتقادُ الجازم، وإطلاقُ الظنِّ في كلامِ العربِ علىٰ معنىٰ اليقينِ كثيرٌ جدًّا[4].

ولمَّا كان الخشوعُ هو خضوعَ القلبِ وطُمَأنينته، وسكونَه لله تعالىٰ، وانكسارَه بَيْنَ يديه، ذلًّا وافتقارًا، وإيمانًا به وبلقائِه؛ قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[5].

---

(١) أي: اتخذوه درعًا.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٧٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ٩٨).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٤٨١).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٥١-٥٢).

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ ﴾

ولمَّا كان الغالبُ على أكثرِ الناسِ الجمودَ، كرَّر النداءَ لهم مبالَغةً في اللُّطْفِ بهم إثرَ التَّرْجيةِ والتخويفِ، فقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[(١)].

أُعيدَ خطابُ بني إسرائيلَ بطريقِ النداء مماثِلًا لِما وقَع في خطابهم الأولِ؛ لقصدِ التكريرِ؛ للاهتمامِ بهذا الخطابِ، وما يترتبُ عليه؛ فإنَّ الخطابَ الأول قُصِد منه تذكيرُهم بنِعَمِ الله تعالى؛ ليكونَ ذلك التذكيرُ داعيةً لامتثالِ ما يردُ إليهم مِن اللهِ مِن أمرٍ ونهيٍ على لسانِ نبيِّه ﷺ، غيرَ أنَّه لمَّا كان الغرضُ المقصود مِن ذلك هو الامتثالَ، كان حقُّ البلاغةِ أن يُفضِيَ البليغُ إلى المقصودِ، ولا يُطِيلَ في المقدمة، وإنَّما يُلِمُّ بها إلمامًا، ويشيرُ إليها إجمالًا؛ تنبيهًا بالمبادرةِ إلى المقصودِ على شِدَّةِ الاهتمام به[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالى إنَّما أعاد هذا الكلامَ مرَّةً أخرى توكيدًا للحجَّةِ عليهم، وتحذيرًا مِن تركِ اتِّباعِ محمَّدٍ ﷺ، ثم قرَنه بالوعيدِ؛ وهو قولُه: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾؛ كأنَّه قال: إن لم تُطيعوني لأجلِ سوالفِ نعمتي عليكم، فأطيعوني للخوفِ مِن عقابي في المستقبل[(٣)].

(١) نظم الدرر (١/ ٣٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٨٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٣/ ٤٩٢).

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولمَّا ذكَّرهم بتخصيصِهم بالكرامة، ونهاهم عن المخالفةِ، وكانت المخالفةُ مع عظيمِ النِّعْمة أقبَحَ وأشَدَّ وأفحَشَ؛ حذَّرهم يومًا لا يُنجي أحدًا فيه إلا تَقْواه، فقال: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾(١).

عطَف التحذيرَ على التذكيرِ؛ فإنَّه لمَّا ذكَّرهم بالنِّعْمةِ، وخاصَّةً تفضيلَهم على العالَمين في زمانِهم، وكان ذلك منشأَ غرورِهم بأنَّه تفضيلٌ ذاتي، فتوهَّموا أنَّ التقصيرَ في العملِ الصالح لا يضُرُّهم، فعقَّب بالتحذيرِ مِن ذلك(٢).

كأنَّهم لمَّا أُمِروا بذِكْرِ النِّعَم وتفضيلِهم، ناسَب أنَّ مَن أُنعِمَ عليه وفُضِّل يكونُ محصِّلًا للتقوى؛ فأُمِروا بالإدامةِ على التقوى، أو بتحصيلِ التقوى، إن عرَض لهم خَلَلٌ(٣).

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

ولمَّا ذكَّرهم بالنِّعْمةِ الظاهرة، فانتبَه مَن تدارَكتْهُ الهداية، وتمادى مَن استحَقَّ العقوبةَ؛ ذكَّر أهلَ الاستحقاقِ بما عُوقبوا به بما يستلزمُه معنى النجاة، وبما فسَّره ممَّا أُخِذوا به على ذنوبٍ تشاكِلُ ما هم عليه في معانَدتِهم القرآنَ؛ فحين لم يَنفَعْ فيهم

(١) نظم الدرر (١/ ٣٤٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٨٤).

(٣) البحر المحيط (١/ ٣٠٦).

التذكيرانِ بالعهدِ والنِّعْمة، هُدِّدوا بتقريرِهم على مواقعِ ما أُصِيبوا به مِن البلاءِ مِن عدوِّهم لِما اقترَفوه مِن ذنوبِهم، فكان في تكذيبِهم بالرسالةِ الأولى وشكِّهم ما أصابهم مِن العقوبةِ مِن آلِ فِرْعونَ حتى أنقَذهم اللهُ بموسى عليه السلام، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾(١).

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا قدَّم ذِكْرَ نِعَمِه على بني إسرائيلَ إجمالًا، بيَّن بعد ذلك أقسامَ تلك النِّعَمِ على سبيلِ التفصيل؛ ليكونَ أبلَغَ في التذكير، وأعظَمَ في الحجَّةِ؛ فكأنَّه قال: اذكُروا نِعْمتي، واذكُروا إذ نجيناكم، واذكُروا إذ فرَقْنا بكم البحرَ؛ وهي إنعاماتٌ، والمذكورُ في هذه الآيةِ هو الإنعامُ الأول(٢).

تذكيرٌ لتفاصيلِ ما أُجمِلَ في قولِه تعالى: ﴿نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ مِن فنونِ النَّعماء، وصنوفِ الآلاء(٣).

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠)﴾

ولمَّا كان ما فُعِل بهم في البحرِ إهلاكًا للرجالِ وإبقاءً للنساءِ طِبْقَ ما فعَلوا ببني إسرائيلَ، عقَّبه به، فقال: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١/ ٣٥٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٣/ ٥٠٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ٩٩).

(٤) نظم الدرر (١/ ٣٥٧).

هذا زيادةٌ في التفصيلِ بذِكْرِ نِعْمةٍ أخرىٰ عظيمة، خارقةٍ للعادة، بها كان تمامُ الإنجاءِ مِن آلِ فِرْعونَ، وفيها بيانُ مقدارِ إكرامِ الله تعالىٰ لهم، ومعجزةٌ لموسىٰ عليه السلام، وتعديةُ فعلِ ﴿فَرَقْنَا﴾ إلىٰ ضميرِ المخاطَبين بواسطةِ الحرف جارٍ علىٰ نحوِ تعديةِ فعلِ ﴿نَجَّيْنَٰكُم﴾ إلىٰ ضميرِهم؛ كما تقدَّم[١].

لمَّا ذكَر اللهُ سبحانه وتعالى تسلُّطَ آلِ فِرْعونَ علىٰ بني إسرائيلَ في الآيةِ السابقة، ذكَر هنا مآلَ هؤلاء المتسلِّطين[٢].

بيانٌ لسببِ التَّنْجيَةِ، وتصويرٌ لكيفيَّتِها إثرَ تذكيرِها، وبيانُ عِظَمِها وهَوْلها، وقد بيَّن في تضاعيفِ[٣] ذلك نِعْمةً جليلة أخرىٰ؛ هي الإنجاءُ مِن الغرَقِ[٤].

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾

ولمَّا كان فَرْقُ البحرِ للإبقاء البدَنيِّ، وكان إنزالُ الكتاب للإبقاء الدِّينيِّ؛ عقَّبه به، وكان الطَّبْعُ السليمُ والمِزاجُ المستقيم يقتضي إحسانَ العمل زمَنَ المواعدةِ، واستعطافَ المُواعِدِ، والترفُّقَ له، والتملُّقَ بما يحقق الرجاء في إنجازِ وعدِه، لا سيَّما بعد بليغِ إحسانِه بالإنجاءِ مِن العدوِّ وإهلاكِه؛ نعَىٰ عليهم عمَلَهم بخلافِ ذلك بقولِه: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٩٤).

(٢) تفسير ابن عثيمين (١/ ١٧٨).

(٣) أي: في خلاله وفي أثنائه.

(٤) إرشاد العقل السليم (١/ ١٠٠).

(٥) نظم الدرر (١/ ٣٦٠-٣٦١).

لمَّا ذكَّرهم تعالىٰ بأمرِ الوفاءِ بالعهد الذي هو خاتمةُ أمرِهم، وبالتفصيلِ الذي كان باديةَ أمرِهم؛ نظَم ذلك بالأمرِ المتوسِّط بَيْنَ الطرَفَينِ، الذي أعلاه مواعَدةُ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه، الذي النِّعْمةُ عليه نعمةٌ عليهم، فقال: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾(١).

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ولمَّا كان ذلك مقتضيًا لأعظَمِ السَّخَطِ المقتضي مِن القادرِ للمعاجَلةِ بالأخذِ؛ ذكَّرهم نعمةَ الإمهالِ بعده، فقال مشيرًا إلىٰ عِظَمِ الذَّنبِ والنِّعْمة بأداةِ التراخي: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٢).

ثم تجاوَزَ الخطابُ ما أصابهم مِن العقوبةِ علىٰ اتخاذِهم إلىٰ ذِكرِ العفوِ تقريرًا علىٰ تكرُّرِ تَلافيهم حالًا بعد حالٍ، وقتًا بعد وقتٍ، كلمَّا أحدَثوا خطيئةً، تدارَكَهم منه عفوٌ، وخَصَّه باسمِ العفوِ لمَّا ذكَّر ذنوبَهم؛ لأنَّ المغفورَ له لا يُذكَر ذَنْبُه؛ فإنَّ العَفْوَ رفعُ العقوبةِ دُونَ رفعِ ذكرِها، والغَفْرَ إماتةُ ذِكْرِ الذَّنبِ مع رفعِ العقوبة(٣).

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾

ولمَّا كان في ذلك دليلٌ علىٰ سُوءِ طباعِهم، وعكسِ مِزاجِهم، وأنَّهم لا يَحفَظون عهدًا، ولا يستقيمون علىٰ نهجٍ؛ ذكَّرهم بنِعْمةِ الكتابِ الذي مِن شأنِه الضبطُ في

---

(١) نظم الدرر (١/ ٣٦١).

(٢) نظم الدرر (١/ ٣٦٦).

(٣) نظم الدرر (١/ ٣٦١).

جميعِ الأحوال، بالرجوعِ إليه عند الضَّلال، فقال: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[١].

لمَّا ذكَر تعالىٰ أمرَ موسىٰ عليه السلام، وهو خاصُّ أمرِهم؛ فصَّل لهم أمرَ ما جاء به موسىٰ، وما كان منهم فيما جاء به[٢].

لمَّا ختَم الآيةَ السابقة بالشكرِ، ناسَب أن يذكُرَ هنا إنزالَ الكتاب الذي مَن اهتدىٰ به كان شاكرًا لربِّه.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾

لمَّا تكمَّل إقبالُ الخطابِ عليهم مراتٍ بما تقدَّم مِن ندائهم، والعطفِ علىٰ ما في صلتِه؛ صرَف الحقُّ وجهَ الخطابِ عنهم إلىٰ ذِكْرِ خطابِ نبيِّه ﷺ لهم؛ فإنَّ اللهَ يخاطِبُ العبادَ بإسقاطِ الواسطة بينه وبينهم؛ ترفيعًا لأقدارهم لديه، فيَرفَع مَن شاء فيُجيبه بما شاء، ويوقِفُ مَن شاء فيجعل بينه وبينه في الخطابِ واسطةً مِن نبيِّه، فلمَّا قرَّرهم بما مضىٰ مِن التذكيرِ علىٰ ما واجَههم به الحقُّ تعالىٰ، ذكَر في هذه الآيةِ تقريرَهم علىٰ ما خاطَبهم به نبيُّهم حين أعرَض الحقُّ عن خطابِهم بما أصابوه مِن قبيحِ خطيئتهم[٣].

---

(١) نظم الدرر (١/ ٣٦٩).

(٢) نظم الدرر (١/ ٣٦٩).

(٣) نظم الدرر (١/ ٣٧١).

لمَّا ذكَّر اللهُ تعالىٰ اليهودَ بما أنعَم علىٰ أسلافهم مطالِبًا إيَّاهم بشكرِها، فيؤمنوا برسولِه ﷺ؛ ناسَب أن يُذكِّرهم هنا ببعضِ ذنوبِ أسلافهم ليتَّعِظوا فيؤمنوا(١).

هذه نعمةٌ أخرىٰ؛ وهي نعمةُ نسخِ تكليفٍ شديد عليهم، كان قد جُعِل جابرًا لِما اقترَفوه مِن إثمِ عبادةِ الوثَنِ، فحصَل العفوُ عنهم بدونِ ذلك التكليفِ، فتمَّتِ المِنَّةُ، وبهذا صحَّ جَعْلُ هذه منَّةً مستقلة بعد المنَّةِ المتضمِّن لها قولُه تعالىٰ: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾(٢).

بيانٌ لكيفيَّةِ وقوع العفوِ المذكور(٣).

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

ولمَّا استُتِيبوا عن عبادةِ العِجْلِ التي تقيَّدوا فيها بالمحسوسِ الذي هو مثَلٌ في الغباوةِ، طلَبوا رؤيةَ بارئهم بالحسِّ علىٰ ما له مِن صفاتِ الكمال التي تأبىٰ الابتذالَ، ناسِينَ لجميعِ النِّعم والنِّقم، مسرِعين في الكفرِ الذي هو مِن شأنِ الحائر، والحالُ أنَّ الفرقانَ الذي لا يدَعُ شُبْهةً ولا يُبقِي حيرةً قائمٌ بَيْنَ أيديهم؛ لأنَّهم مِن الجمودِ والوقوف مع الوَهْمِ والحِسِّ بمكانٍ عظيم، فذكَّرهم سبحانه ذلك مسلِّيًا للنبيِّ ﷺ في إبائهم للإيمانِ به بما فعَلوا مع موسىٰ عليه السلام وهو أحَدُهم، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾(٤).

---

(١) أيسر التفاسير (١/ ٥٧).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٥٠٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ١٠٢).

(٤) نظم الدرر (١/ ٣٧٨).

تذكيرٌ بنِعْمة أخرىٰ نشأت بعد عقابٍ علىٰ جفاءِ طَبْعٍ؛ فمحَلُّ المِنَّةِ والنِّعْمة هو قوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم ﴾، وما قبله تمهيدٌ له، وتأسيسٌ لبنائه، والظاهرُ أنَّ هذا القولَ وقَع منهم بعد العفوِ عن عبادتِهم العِجْلَ؛ كما هو ظاهرُ ترتيبِ الآيات(١).

اعلَمْ أنَّ هذا هو الإنعامُ السادس، بيانُه مِن وجوهٍ؛ أحدها: كأنَّه تعالىٰ قال: اذكُروا نعمتي حين قلتم لموسىٰ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾، ثم أحيَيْتُكم لتتوبوا عن بَغْيِكم، وتتخلَّصوا عن العقاب، وتفوزوا بالثواب، وثانيها: أنَّ فيها تحذيرًا لِمَن كان في زمانِ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ عن فعلِ ما يستحِقُّ بسببِه أن يُفعَلَ به ما فُعِل بأولئك(٢).

هذه محاوَرةُ بني إسرائيلَ لموسىٰ؛ وذلك بعد محاوَرتِه لهم في الآيةِ قبل هذا(٣).

تذكيرٌ لنِعْمة أخرىٰ عليهم بعدما صدَر عنهم ما صدَر مِن الجنايةِ العظيمة، التي هي اتخاذُ العِجْلِ(٤).

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

ولمَّا كان إحياؤهم مِن ذلك في الدارِ في غاية البُعْدِ وخَرْقِ العادة، عبَّر عنه بأداةِ التراخي، ومظهر العظمة، فقال: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٥٠٥-٥٠٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٣/ ٥١٨).

(٣) البحر المحيط (١/ ٣٣٩).

(٤) إرشاد العقل السليم (١/ ١٠٣).

(٥) نظم الدرر (١/ ٣٨٢).

قولـه: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ ﴾ إيجازٌ بـديع؛ أي: فمُـتُّم مِـن الصـاعقةِ، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ ﴾، وهذا خارقُ عادةٍ جعَله الله معجزةً لموسىٰ؛ استجابةً لدعائه وشفاعتِه، أو كرامةً لهم مِن بعدِ تأديبِهم إن كان السائلون هم السَّبعين؛ فإنَّهم مِن صالحي بني إسرائيلَ[1].

ثم دعَا موسىٰ عليه السلام ربَّه فأحياهم؛ كما قـال تعـالىٰ هنـا: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[2].

﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧ ﴾

ولمَّا ذُكِرتِ الصاعقةُ الناشئة غالبًا مِن الغمامِ، كـان أنسَبَ الأشياءِ إيلاؤُها[3] ذِكْرَ تظليلِ الغمام، وناسَب التحذيرَ مِن نِقْمةِ الإحراق بالصاعقة، والتذكيرَ بنِعْمةِ الإيجادِ مِن المـوتِ: الإتبـاعُ بـذِكْرِ التنعيمِ في الإبقـاء بالصيانةِ عـن حـرِّ الظـاهرِ بالشمس، والباطنِ بالجوع[4].

وعطَف تعالىٰ علىٰ ذِكْرِ البعثِ ذِكْرَ حالٍ مِن مثلِ أحوال أهلِ الجنَّة الذي ينالونه بعد البعثِ؛ فكأنَّ عامَّتَهم الذين لم يموتوا إنَّما شَرِكوا هـؤلاء المبعـوثين لكونِهم كـأنَّهم مـاتوا بمـوتِهم، وبُعِثـوا ببَعْـثِهم، فـذكَر ظِـلَّ الغمـامِ؛ وهـو مِـن أمـرِ مـا بعـد البعـثِ، والأرزاقَ بغيـرِ كُلْفـةٍ، وهـو مِـن حـالِ مـا بعـد البعـث، وأفهَـمَ ذلـك أمـورًا أُخَـرَ في أحوالهم؛ كما يقال: إنَّ ملابسَهم كانت تطُولُ معهم كلَّما طالوا، فكأنَّهم أُخرِجوا مِن

(١) التحرير والتنوير (١/ ٥٠٨).

(٢) فتح القدير (١/ ١٠٢).

(٣) أي: أن يذكر بعدها.

(٤) نظم الدرر (١/ ٣٨٥).

أحوالِ أهلِ الدنيا بالجملة إلىٰ شِبْهِ أحوالِ أهل الجنَّة في محَلِّ تِيهِهم، ومستحقِّ منالِ العقوبة لهم؛ كلُّ ذلك إنعامًا عليهم، ثم لم يَزيدوا مع ذلك إلا بُعْدًا عن التبصرةِ في كلِّ ما أُبدِيَ لهم مِن العجائبِ - حدِّثْ عن بني إسرائيلَ ولا حرَجَ - فقال: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾(١).

اعلَمْ أنَّ هذا هو الإنعامُ السابع الذي ذكَره اللهُ تعالىٰ، وقد ذكَر اللهُ تعالىٰ هذه الآيةَ بهذه الألفاظِ في سورة «الأعراف»، وظاهرُ هذه الآيةِ يدلُّ علىٰ أنَّ هذا الإظلالَ كان بعد أن بعَثهم؛ لأنَّه تعالىٰ قال: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾ بعضُه معطوفٌ علىٰ بعضٍ، وإن كان لا يمتنعُ خلافُ ذلك؛ لأنَّ الغرضَ تعريفُ النِّعَم التي خَصَّهم اللهُ تعالىٰ بها(٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما دفَعه عنهم مِن النِّقَم، شرَع يذكِّرُهم أيضًا بما أسبَغ عليهم مِن النِّعم(٣).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

ولمَّا كان كلٌّ مِن ظلِّ الغمامِ ولزومِ طعامٍ واحد غيرَ مألوفٍ لهم مع كونِه نِعْمةً دنيوية، وكان المألوفُ أحَبَّ إلىٰ النفوس؛ تلاه بالتذكيرِ بنِعْمةٍ مألوفة مِن الاستظلالِ بالأبنية، والأكلِ ممَّا يُشتهىٰ، مقرونةٍ بنِعْمة دِينية. قال الحَرَالِّيُّ: لمَّا ذكَر تعالىٰ عظيمَ فضلِه عليهم في حالِ استحقاقِ عقوبتهم في تظليلِ الغمام، وإنزالِ المَنِّ والسلوىٰ،

---

(١) نظم الدرر (١/ ٣٨٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٣/ ٥٢٢).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٦).

وهو مبتدأُ أمرِ تِيهِهم حين أبَوْا أن يقاتِلوا الجبَّارين؛ نظَم به آخِرَ أمرِ تِيهِهم بعد وفاةِ موسىٰ وهارونَ عليهما السلام حين دخولِهم مع يوشعَ عليه السلام، وما أُمِروا به مِن دخولِ البلد المقدَّس متذلِّلين بالسجودِ الذي هو أخَصُّ رُتَبِ العبادة، وكمالِ عملِ العامل، ودنوٍّ مِن الحق(١).

هذا تذكيرٌ بنِعْمةٍ أخرىٰ مُكِّنوا منها، فما أحسَنوا قَبولَها، ولا رعَوْها حقَّ رعايتِها، فحُرِموا منها إلىٰ حينٍ، وعوقب الذين كانوا السببَ في عدم قَبولها، وفي التذكيرِ بهذه النِّعْمةِ امتنانٌ عليهم ببَذْلِ النِّعْمة لهم؛ لأنَّ النِّعْمةَ نعمةٌ وإن لم يَقبَلْها المُنعَمُ عليه، وإثارةٌ لحسرتِهم علىٰ ما فات أسلافَهم، وما لَقُوه مِن جرَّاءِ إعجابِهم بآرائهم، وموعظةٌ لهم ألا يقعوا فيما وقَع فيه الأوَّلون؛ فقد علِموا أنَّهم كلَّما صدَفوا عن قدرِ حقِّ النِّعم نالَتْهم المصائبُ(٢).

اعلَمْ أنَّ هذا هو الإنعامُ الثامن، وهذه الآيةُ معطوفةٌ علىٰ النِّعم المتقدِّمة؛ لأنَّه تعالىٰ كما بيَّن نِعَمه عليهم بأن ظلَّل لهم مِن الغمام، وأنزَل عليهم مِن المَنِّ والسلوىٰ، وهو مِن النِّعَم العاجلة؛ أتبَعه بنِعَمِه عليهم في بابِ الدِّين؛ حيث أمَرهم بما يمحو ذنوبَهم، وبيَّن لهم طريقَ الـمَخْلَص ممَّا استوجَبوه مِن العقوبة(٣).

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

ولمّا كان هذا التصريحُ بالترغيبِ المتضمِّن للتلويحِ بالترهيب مقتضيًا للعاقلِ المبادرةَ إلىٰ الطاعة، بيَّن أنَّه تسبَّب عنه أنَّ بعضَهم عصَوْا، وكفَروا هذه النِّعْمةَ

(١) نظم الدرر (١/ ٣٩١).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ٥١٢).
(٣) مفاتيح الغيب (٣/ ٥٢٢).

العظيمة، ولم يقتصروا على ترك هذا الأمر، بل بدَّلوه بدخولهم -كما في الحديث- «يزحفون على أستاههم قائلين: حَبَّةٌ في شَعرةٍ»[(١)]؛ أي: جنسُ الحَبِّ في جنسِ الشَّعرة؛ أي: في الغرائزِ مطلوبُنا، لا الحِطَّة؛ وهي غفرانُ الذنوبِ[(٢)].

أُمِروا بالإخلاصِ لله نظرًا إلى حياةِ قلوبهم، فطلَبوا الحِنْطةَ نظرًا إلى حياةِ جسومهم، فقال تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾.

﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه نِعْمتَه عليهم بالإمكانِ مِن القريةِ بالنصرِ على أهلها، والتمتُّع بمنافعها، وختَمه بتعذيبِهم بما يُميتُ أو يُحرِق، وتبيَّن مِن ذلك كلِّه أنَّ قلوبَهم أشَدُّ قسوةً مِن الحجارةِ -كما سيأتي التصريحُ به مِن قولِ الله تعالى في قصَّةِ البقرة- وأنَّها لا منفعةَ فيها؛ أتبعَه التذكيرَ بنِعْمتِه عليهم في البَرِيَّةِ بما يُبرِّدُ الأكبادَ، ويُحيي الأجسادَ؛ فذكَر انفجارَ الماءِ مِن الحجَرِ الذي عَمَّهم نفعُه، وأنقَذهم مِن الموتِ نَبْعُه، ودلَّهم على التوحيدِ والرسالة أصلُه وفرعه، بقدرةِ الصانع وعلمِه؛ جمعًا لهم بذلك بَيْنَ نعمتَي الدِّينِ والدنيا، فقال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٣٠١٥).

(٢) نظم الدرر (١/ ٣٩٨-٣٩٩).

(٣) نظم الدرر (١/ ٤٠٣).

تذكيرٌ بنِعْمةٍ أخرىٰ جمَعتْ ثلاثَ نِعَمٍ؛ وهي: الرِّيُّ مِن العطش، وتلك نعمةٌ كبرىٰ أشَدُّ مِن نعمةِ إعطاءِ الطعام؛ ولذلك شاع التمثيلُ بريِّ الظَّمْآنِ في حصولِ المطلوب، وكونُ السَّقْيِ في مظنَّةِ عدمِ تحصيله، وتلك معجزةٌ لموسىٰ، وكرامةٌ لأمَّتِه؛ لأنَّ في ذلك فضلًا له، وكونُ العيونِ اثنتَيْ عَشْرةً؛ ليستقِلَّ كلُّ سِبْطٍ بمَشرَبٍ؛ فلا يَتدافعوا(١).

تذكيرٌ لنعمةٍ أخرىٰ كفَروها، وكان ذلك في التِّيهِ، حين استولىٰ عليهم العطشُ الشديد، وتغيير الترتيب: لِمَا أُشيرَ إليه مرارًا مِن قصدِ إبراز كلٍّ مِن الأمورِ المعدودة في معرِضِ أمرٍ مستقل واجبِ التذكير والتذكُّر، ولو رُوعي الترتيبُ الوقوعي، لفُهِم أنَّ الكلَّ أمرٌ واحد، أمرٌ بذِكْره(٢).

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

ولمَّا امتَنَّ عليهم بهذه النِّعْمةِ العُظمىٰ مِن أكلِ المَنِّ والسلوىٰ، وشُرْبِ هذا الماءِ الرَّباني؛ بيَّن أنَّهم كفَروها بالتضجُّرِ منها، وطلبِ غيرها، بل كما أنَّ هذه في غايةِ العلوِّ كان مطلوبُهم في غايةِ الدناءةِ والسُّفول(٣).

(١) التحرير والتنوير (١/ ٥١٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ١٠٥).

(٣) نظم الدرر (١/ ٤١٢).

اعلَمْ أنَّ سؤالَ النوعِ الآخَر مِن الطعام يحتمِلُ أن يكونَ لأغراضٍ: الأول: أنَّهم لمَّا تناوَلوا ذلك النوعَ الواحد أربعين سنةً، مَلُّوه، فاشتهَوْا غيرَه. الثاني: لعلَّهم في أصلِ الخِلْقة ما تعوَّدوا ذلك النوعَ، وإنَّما تعوَّدوا سائرَ الأنواع، ورغبةُ الإنسانِ فيما اعتاده في أصلِ التربية وإن كان خسيسًا، فوق رغبتِه فيما لم يَعتَدْه وإن كان شريفًا. الثالث: لعلَّهم مَلُّوا مِن البقاءِ في التِّيهِ، فسألوا هذه الأطعمةَ التي لا توجَدُ إلا في البلادِ، وغرضُهم الوصولُ إلىٰ البلاد، لا نفسُ تلك الأطعمةِ[(١)].

لمَّا سَئِموا مِن الإقامةِ في التيهِ، والمواظبة علىٰ مأكولٍ واحد، لبُعْدِهم عن الأرضِ التي أَلِفوها، وعن العوائدِ التي عَهِدوها؛ أخبَروا عمَّا وجَدوه مِن عدمِ الصبر علىٰ ذلك، وتشوُّفِهم[(٢)] إلىٰ ما كانوا يألفون، وسألوا موسىٰ أن يَسألَ اللهَ لهم[(٣)].

تذكيرٌ لجنايةٍ أخرىٰ لأسلافهم، وكفرانِهم لنِعْمة الله ﷻ، وإخلادِهم إلىٰ ما كانوا فيه مِن الدَّناءة، والخَساسة[(٤)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه أنَّهم لمَّا تعنَّتوا علىٰ موسىٰ عليه السلام -كما مرَّ ويأتي عن نصوصِ التَّوراة- مرةً بعد مرةٍ، أورَثهم كفرًا في قلوبِهم، فمَرَدُوا علىٰ العصيانِ، والتجرؤِ علىٰ مجاوزةِ الحدود، فضرَب عليهم الذِّلةَ والمسكنةَ، وأحَلَّهم الغضبَ، وكان في ذلك

(١) مفاتيح الغيب (٣/ ٥٣١).

(٢) أي: تطلُّعهم.

(٣) البحر المحيط (١/ ٣٧٣).

(٤) إرشاد العقل السليم (١/ ١٠٦).

تحذيرٌ لِمَن طلَب سلوكَ ذلك الصراطِ المستقيم مِن حالِهم، وإعلامٌ بأنَّ المتَّقين المستجابَ لهم في الدعاءِ بالهداية ليسوا في شيء مِن ذلك، بل قالوا: اهدِنا، عن يقينٍ وإخلاص، متبرِّئين مِن الدعاوىٰ والاعتراضِ علىٰ الرُّسل؛ نبَّه علىٰ أنَّ مَن عَمِل ضدَّ عمَلِهم، فآمَن منهم، أو مِن غيرهم، مِن جميعِ الملل؛ كان علىٰ ضدِّ حالهم عند ربِّهم، فلا يَغضَب عليهم، بل يوفِّيهم أجورَهم، ويورِثُهم الأمنَ والسرور المتضمِّنَينِ لضدِّ الذِّلةِ والمسكنةِ، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١].

توسَّطتْ هاته الآيةُ بَيْنَ آياتِ ذِكْرِ بني إسرائيلَ بما أنعَم اللهُ عليهم، وبما قابَلوا به تلك النِّعَمَ مِن الكفرانِ، وقلةِ الاكتراث، فجاءت معترِضةً بينها لمناسبةٍ يُدرِكُها كلُّ بليغ، وهي أنَّ ما تقدَّم مِن حكايةِ سُوءِ مقابلتِهم لنِعَم الله تعالىٰ قد جرَّتْ عليهم ضَرْبَ الذِّلةِ والمسكنة، ورجوعَهم بغضبٍ مِن الله تعالىٰ عليهم، ولمَّا كان الإنحاءُ[٢] عليهم بذلك مِن شأنِه أن يُفزِعَهم إلىٰ طلبِ الخلاص مِن غضبِ اللهِ تعالىٰ، لم يترُكِ اللهُ تعالىٰ عادتَه مع خَلْقِه مِن الرحمةِ بهم، وإرادتِه صلاحَ حالهم، فبيَّنَ لهم في هاته الآيةِ أنَّ بابَ الله مفتوحٌ لهم، وأنَّ اللجوءَ إليه أمرٌ هيِّنٌ عليهم؛ وذلك بأن يؤمِنوا، ويعملوا الصالحاتِ، ومِن بديعِ البلاغة أنْ قرَنَ معهم في ذلك ذِكرَ بقيَّةٍ مِن الأُمَمِ ليكونَ ذلك تأنيسًا لوَحْشةِ اليهود مِن القوارعِ السابقة في الآياتِ الماضية، وإنصافًا للصالحين منهم، واعترافًا بفضلِهم، وتبشيرًا لصالحي الأُمَم مِن اليهودِ وغيرِهم الذين مضَوْا؛ مثلُ الذين كانوا قبل عيسىٰ وامتثَلوا لأنبيائهم،

(١) نظم الدرر (١/ ٤٥٣-٤٥٤).

(٢) أي: الإقبال باللوم.

ومثلُ الحواريِّينَ، والموجودين في زمنِ نزول الآيةِ؛ مثل: عبدِ الله بن سَلَام، وصُهَيب؛ فقد وفَّتِ الآيةُ حقَّ الفريقينِ مِن الترغيبِ والبِشارة، وراعت المناسبتين للآياتِ المتقدِّمة: مناسبة اقترانِ الترغيب بالترهيب، ومناسبة ذِكْرِ الضدِّ بعد الكلامِ على ضده[1].

واعلَمْ أنَّ عادةَ الله إذا ذكَر وعدًا أو وعيدًا عقَّبه بما يضادُّه؛ ليكونَ الكلامُ تامًّا؛ فهاهنا لمَّا ذكَر حُكْمَ الكفرةِ مِن أهل الكتاب، وما حَلَّ بهم مِن العقوبةِ؛ أخبَر بما للمؤمنين مِن الأجرِ العظيم، والثوابِ الكريم، دالًّا على أنَّه سبحانه وتعالى يجازي المحسِنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته[2].

﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

إنَّه لمَّا قرَّر سبحانه قولَه للعالِمِ العامل المُذعِن، كائنًا مَن كان؛ تلاه بما لليهودِ مِن الجَلَافةِ الداعيةِ إلى النُّفورِ عن خِلَالِ السعادةِ التي هي ثمرةٌ للعلم، وما له سبحانه مِن التطوُّلِ عليهم بإكراهِهم على ردِّهم إليه، فقال: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[3].

تذكيرٌ بقصَّةٍ أخرى أرى اللهُ تعالى أسلافَهم فيها بَطْشَه ورحمتَه، فلم يَرتدعوا، ولم يشكُروا؛ وهي أنْ أخَذ الميثاقَ عليهم بواسطةِ موسى عليه السلام أن يَعملوا بالشريعةِ[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٥٣١).

(٢) مفاتيح الغيب (٣/ ٥٣٥).

(٣) نظم الدرر (١/ ٤٦٠).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٥٤١).

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فأخذتم ذلك، وأوثَقْتم العهدَ به خوفًا مِن أن يَدفِنكم بالجبلِ؛ عطَف عليه، وأشار إلىٰ أنَّه كان مِن حقِّه البُعْدُ عن تركِه بأداةِ البُعْدِ، فقال: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾[1].

قوله: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ إشارةٌ إلىٰ عبادتِهم العِجْلَ في مدةِ مناجاةِ موسىٰ، وأنَّ اللهَ تاب عليهم بفضلِه، ولولا ذلك، لكانوا مِن الخاسرين الهالكين في الدنيا، أو فيها وفي الآخرةِ[2].

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

ثم جاءت قصَّةُ المعتدِين في السبتِ مؤكِّدةً لذلك؛ إذ كان حاصلُها أنَّهم لمَّا ضيَّعوا أمرًا واحدًا مِن أوامرِه، واستخَفُّوا به، وهو تحريمُ السبت؛ عذَّبهم بعذابٍ لم يعذِّبْ به أحدًا مِن العالَمين، فقال: ﴿ وَلَقَدْ ﴾، وأقربُ مِن ذلك أن يقالَ: إنَّه سبحانه لمَّا ذكَّرهم بنِعْمةِ العفوِ الحافظ لهم مِن الخسران، قرَّعهم بجلافة أخرىٰ لهم، خذَّل بها فريقًا منهم حتىٰ غلَبهم الخسرانُ، فما ضَرُّوا إلا أنفسَهم، مُقسِمًا علىٰ أنَّهم بها عالِمون، ولها مستحضِرون، فقال تعالىٰ عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: لقد علِمتُم جميعَ

---

(١) نظم الدرر (١/ ٤٦٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٥٤٢).

ذلك مِن عهودِنا، وما ذكَرْنا مِن الإيقاعِ بمَنْ نقَض مِن شديدِ وعيدِنا، ومِن التهديدِ علىٰ ذلك بضَرْبِ الذِّلة، وما تَبِعها مِن أنواعِ النَّكال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾(١).

هذه مِن جملةِ الأخبار التي ذكَرها اللهُ تعالىٰ تذكيرًا لليهود بما أتاه سلَفُهم مِن الاستخفافِ بأوامرِ الله تعالىٰ، وبما عرَض في خلالِ ذلك مِن الزواجرِ والرحمةِ والتوبة، وإنَّما خالَف في حكايةِ هاته القصَّةِ أسلوبَ حكايةِ ما تقدَّمها وما تلاها مِن ذِكْرِ «إذ» المؤذِنةِ بزمَنِ القصَّةِ، والمُشعِرة بتحقُّقِ وقوعِها إلىٰ قولِه هنا: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ لمعنًىٰ بديعٍ هو مِن وجوهِ إعجاز القرآن؛ وذلك أنَّ هذه القصَّةَ المشارَ إليها بهذه الآيةِ ليست مِن القِصص التي تضمَّنتْها كتبُ التَّوراةِ؛ مثل القِصص الأخرىٰ المأتيِّ في حكايتِها بكلمةِ «إذ»؛ لأنَّها متواترةٌ عندهم، بل هذه القصَّةُ وقَعتْ في زمَنِ داودَ عليه السلام، فكانت غيرَ مسطورةٍ في الأسفارِ القديمة، وكانت معروفةً لعلمائهم وأحبارِهم، فأطلَع اللهُ تعالىٰ نبيَّه ﷺ عليها، وتلك معجزةٌ غيبيَّة، وأوحىٰ إليه في لفظِها ما يؤذِنُ بأنَّ العلمَ بها أخفىٰ مِن العلمِ بالقِصص الأخرىٰ، فأسنَد الأمرَ فيها لعلمِهم إذ قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا عدَّد وجوهَ إنعامِه عليهم أولًا، ختَم ذلك بشرحِ بعضِ ما وجَّه إليهم مِن التشديدات(٣).

---

(١) نظم الدرر (١/ ٤٦٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٥٤٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٣/ ٥٤٠).

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

فتسبَّب عن قولِنا: إنَّهم كانوا قردةً -كما قلنا- ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(١).

كأنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن ما أنزَله بهؤلاء القومِ الذين اعتدَوْا في السبتِ، واستحَلُّوا مِن اصطيادِ الحِيتانِ وغيرِه ما حرَّمه عليهم ابتغاءَ الدنيا، ونقَضوا ما كان منهم مِن المواثيقِ؛ فبيَّن أنَّه تعالىٰ أنزَل بهم عقوبةً لا علىٰ وجهِ المصلحة؛ لأنَّه كان لا يمتنِعُ أن يقلِّلَ مقدارَ مَسْخِهم، ويغيِّرَ صُوَرَهم بمنزلةِ ما يَنزِلُ بالمكلَّفِ مِن الأمراضِ المغيِّرة للصورة، ويكونُ مِحْنةً لا عقوبةً، فبيَّن تعالىٰ بقولِه: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا ﴾ أنَّه تعالىٰ فعَلها عقوبةً علىٰ ما كان منهم(٢).

ثم ذكَر المستفادَ مِن هذه العقوبةِ بقولِه: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن تعالىٰ قساوتَهم في حقوقِه عامةً، ثم خاصةً؛ أتبَعه بيانَ قساوتِهم في مصالحِ أنفسهم؛ لينتجَ أنَّهم أسفَهُ الناسِ، فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١/ ٤٦٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٣/ ٥٤٢).

(٣) نظم الدرر (١/ ٤٦٦).

أنَّه تقدَّم ذِكْرُ مخالفتِهم لأنبيائهم، وتكذيبِهم لهم في أكثرِ أنبائهم؛ فناسَب ذلك ذِكْرُ هذه الآيةِ لِما تضمَّنتْ مِن المراجعةِ والتعنُّت والعنادِ مرَّةً بعد مرة[1].

بيانُ نوعٍ مِن مَساويهم مِن غيرِ تعديدِ النِّعم، وصحَّ العطفُ؛ لأنَّ ذِكْرَ النِّعم سابقًا كان مشتمِلًا علىٰ ذِكْرِ المَساوي أيضًا؛ مِن المخالَفةِ للأنبياء، والتكذيبِ لهم، وغيرِ ذلك، وقد يقال: هو علىٰ نمطِ ما تقدَّم؛ لأنَّ الذَّبحَ نِعْمةٌ دنيوية: لرفعِه التشاجرَ بَيْنِ الفريقين، وأخرويةٌ: لكونِه معجزةً لموسىٰ عليه السلام[2].

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانُۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

لمَّا قال لهم موسىٰ عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، وعَلِموا أنَّ ما أخبَرهم به موسىٰ مِن أمرِ الله إيَّاهم بذَبْحِ البقرةِ كان عزيمةً وطلبًا جازمًا قالوا له ذلك، وهذا القولُ أيضًا فيه تعنيتٌ منهم، وقلةُ طواعيةٍ؛ إذ لو امتثَلوا فذبَحوا بقرةً، لكانوا قد أتَوْا بالمأمورِ، ولكن شدَّدوا، فشدَّد اللهُ عليهم[3].

جِيءَ في مراجعتِهم لنبيِّهم بالطريقةِ المألوفة في حكايةِ المحاوَرات؛ وهي طريقةُ حذفِ العاطف بَيْنَ أفعالِ القول[4].

استئنافٌ، كما مرَّ، كأنَّه قيل: فماذا قالوا بعد ذلك؟ فقيل: توجَّهوا نحوَ الامتثال، ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾[5].

---

(١) البحر المحيط (١/ ٤٠٣).

(٢) روح المعاني (١/ ٢٨٥).

(٣) البحر المحيط (١/ ٤٠٥).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٥٤٨).

(٥) إرشاد العقل السليم (١/ ١١١).

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾

فلم يَفعلوا ما أُمروا به، بل سألوا بيانَ اللونِ بعد بيانِ السِّنِّ، ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾[١].

سألوا بـ«ما» عن ماهيةِ اللونِ وجنسه؛ لأنَّه ثاني شيءٍ تتعلقُ به أغراضُ الراغبين في الحيوان[٢].

لمَّا تعرَّفوا سِنَّ هذه البقرةِ، شرَعوا في تعرُّفِ لونها؛ وذلك كلُّه يدلُّ على نقصِ فِطَرِهم وعقولهم؛ إذ قد تقدَّم أمرُ اللهِ لهم بذَبْحِ بقرةٍ، وأمرُ المبلِّغِ عن اللهِ، الناصحِ لهم، المشفِقِ عليهم، بقولِه: ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾، ومع ذلك لم يرتدعوا عن السؤالِ عن لونها[٣].

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

القولُ في ﴿مَا هِىَ﴾ كالقولِ في نظيره؛ فإن كان اللهُ تعالى حكى مرادفَ كلامِهم بلُغَةِ العرب، فالجوابُ لهم بأنَّها ﴿بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾؛ لِما عُلِم مِن أنَّه لم يَبقَ مِن الصفاتِ التي تتعلق الأغراضُ بها إلا الكرامةُ والنَّفاسة، وإن كان المحكيُّ في القرآنِ اختصارًا لكلامِهم، فالأمرُ ظاهرٌ، على أنَّ اللهَ قد عَلِم مرادَهم، فأنبأهم به، وجملةُ ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّهم عَلِموا أنَّ إعادتَهم السؤالَ توقِعُ في نفسِ

---

(١) نظم الدرر (١/ ٤٦٨).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٥٥٣).

(٣) البحر المحيط (١/ ٤٠٧).

موسىٰ تساؤلًا عن سببِ هذا التكريرِ في السؤال، وقولُهم: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ اعتذارٌ عن إعادةِ السؤال، وإنَّما لم يَعتذروا في المرتينِ الأُوليَينِ واعتذَروا الآن؛ لأنَّ للثالثةِ في التكرير وقعًا مِن النفسِ في التأكيدِ، والسآمة، وغيرِ ذلك؛ ولذلك كثُرَ في أحوالِ البشرِ وشرائعهم التوقيتُ بالثلاثة(١).

إعادةٌ للسؤالِ عن الحالِ والصفة لردِّ الجوابِ الأول بأنَّه غيرُ مطابقٍ، وأنَّ السؤالَ باقٍ علىٰ حاله، بل لطلبِ الكشف الزائدِ علىٰ ما حصَل، وإظهارِ أنَّه لم يحصُلِ البيانُ التام(٢).

وجهُ الاشتباهِ عليهم: أنَّ كلَّ بقرةٍ لا تصلح عندهم أن تكونَ آيةً؛ لِما عَلِموا مِن ناقةِ صالحٍ، وما كان فيها مِن العجائبِ، فظنُّوا أنَّ الحيوانَ لا يكون آيةً إلا إذا كان علىٰ ذلك الأسلوبِ؛ وذلك لمَّا نُبِّئوا أنَّها آيةٌ، سألوا عن ماهيَّتِها وكيفيتها؛ ولذلك لم يَسألوا موسىٰ عن ذلك، بل سألوه أن يسألَ اللهَ لهم عن ذلك؛ إذ اللهُ تعالىٰ هو العالِمُ بالآياتِ، وإنَّما سألوا عن التعيينِ، وإن كان اللفظُ مقتضاه الإطلاقُ؛ لأنَّهم لو عَمِلوا بمطلَقِه، لم يحصُلِ التقصِّي عن الأمرِ بيقينٍ(٣).

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

ولمَّا سألوا الهدايةَ في الآيةِ السابقة ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، اهتدَوْا هنا إلىٰ وصفِها المطابقِ لها، فذبَحوها.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٥٥٤).

(٢) روح المعاني (١/ ٢٨٩).

(٣) البحر المحيط (١/ ٤٠٩، ٤١٠).

ثم أجابهم موسىٰ عليه السلام، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾

قال الحَرالِّيُّ: قُدِّم نبأُ قولِ موسىٰ عليه السلام علىٰ ذِكْرِ تَدارُئِهم[١] في القتيلِ ابتداءً بأشرفِ القصدَينِ مِن معنىٰ التشريع، الذي هو القائمُ علىٰ أفعالِ الاعتداء، وأقوالِ الخصومة[٢].

تصديرُه بـ«إذ» علىٰ طريقةِ حكايةِ ما سبق مِن تَعْدادِ النِّعم والألطاف، ومقابلتِهم إيَّاها بالكفرانِ والاستخفاف؛ يومئُ إلىٰ أنَّ هذه قصَّةٌ غيرُ قصَّةِ الذَّبح، ولكنها حدَثَتْ عَقِبَ الأمرِ بالذبح؛ لإظهارِ شيءٍ مِن حكمةِ ذلك الأمرِ الذي أظهَروا استنكارَه عند سماعِه إذ ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، وفي ذلك إظهارُ معجزةٍ لموسىٰ[٣].

يجوز أن يكونَ ترتيبُ وجودِهما ونزولهما علىٰ حسَبِ تلاوتهما، فيكونَ اللهُ تعالىٰ قد أمَرهم بذَبْحِ البقرةِ، فذبَحوها وهم لا يعلمون بما له تعالىٰ فيها مِن السِّر، ثم وقَع بعد ذلك أمرُ القتيلِ، فأظهَرَ لهم ما كان أخفاه عنهم مِن الحكمةِ[٤].

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾: جملةٌ معطوفة علىٰ قوله: ﴿قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا﴾، والجملةُ مِن قولِه تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ اعتراضيةٌ بَيْنَ المعطوفِ

(١) أي: تدافعهم.
(٢) نظم الدرر (١/ ٤٧٥).
(٣) التحرير والتنوير (١/ ٥٦٠).
(٤) البحر المحيط (١/ ٤١٧).

والمعطوف عليه، مُشعِرةٌ بأنَّ التَّدارُؤَ لا يُجدِي شيئًا؛ إذ اللهُ تعالىٰ مُظهِرٌ ما كُتِم مِن أمرِ القتيل[(١)].

وقال منبِّهًا بالالتفاتِ إلىٰ أسلوبِ العظمة علىٰ ما في الفعلِ المأمور به منها: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[(٢)].

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

ولمَّا كان حصولُ المعصيةِ منهم بعد رؤيةِ هذه الخارقةِ مستبعَدَ التصوُّرِ، فضلًا عن الوقوعِ؛ أشار إليه بقولِه: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾[(٣)].

ولأنَّ صدورَ هذا الخارقِ العظيم الخارجِ عن مقدارِ البشر فيه مِن الاعتبارِ والعظات ما يقتضي لِينَ القلوبِ، والإنابةَ إلىٰ الله تعالىٰ، والتسليمَ لأقضيتِه، فصدَر منهم غيرُ ذلك؛ مِن غِلَظِ القلوب، وعدمِ انتفاعها بما شاهدت، والتعنُّتِ، والتكذيب، حتىٰ نُقِل أنَّهم بعدما حَيِيَ القتيلُ وأخبَر بمَن قتَله، قالوا: كذَبَ[(٤)].

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه أنَّ قلوبَهم صارت مِن كثرةِ المعاصي وتَوالي التجرُّؤِ علىٰ بارئها محجوبةً بالرَّيْنِ، كثيفةَ الطَّبع، بحيث إنَّها أشَدُّ قسوةً مِن الحجارة؛ تسبَّب عن ذلك

---

(١) البحر المحيط (١/ ٤١٩).

(٢) نظم الدرر (١/ ٤٧٨).

(٣) نظم الدرر (١/ ٤٧٩).

(٤) البحر المحيط (١/ ٤٢٢).

بُعْدُهم عن الإيمان، فالتفَتَ إلىٰ المؤمنين يؤيسُهم مِن فلاحِهم؛ تسليةً للنبي ﷺ عمَّا كان يشتدُّ حرصُه عليه مِن طلبِ إيمانهم في مَعرِضِ التنكيتِ عليهم، والتبكيتِ لهم، منكِرًا للطمعِ في إيمانهم بعدما قرَّر أنَّه تكرَّر مِن كفرانِهم، فقال: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا ذكَر قبائحَ أفعالِ أسلافِ اليهود إلىٰ هاهنا، شرَح مِن هنا قبائحَ أفعالِ اليهود الذين كانوا في زمنِ محمَّدٍ ﷺ[2].

تلوينٌ للخطاب، وصرفٌ له عن اليهود، إثرَ ما عُدَّتْ هَناتُهم، ونُعِيتْ عليهم جناياتُهم إلىٰ النبي ﷺ، ومَن معه مِن المؤمنين[3].

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

ولمَّا كان الكلامُ مرشِدًا إلىٰ أنَّ التقديرَ: فهُمْ لجرأتِهم علىٰ اللهِ إذا سَمِعوا كتابَكم حرَّفوه، وإذا حدَّثوا عبادَ الله لا يكادون يصدُقون؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١/ ٤٨٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٣/ ٥٥٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ١١٦).

(٤) نظم الدرر (١/ ٤٨٨).

جملةُ ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ على أنَّها حالٌ مثلُها مِن أحوالِ اليهود، وقد قُصِد منها تقييدُ النهيِ، أو التعجيبُ مِن الطمعِ في إيمانهم؛ فهو معطوفٌ على الحالِ بتأويلِ ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ آخَرُ إذا لَقُوا[(١)].

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ الثاني مِن قبائحِ أفعالِ اليهود الذين كانوا في زمنِ محمَّدٍ ﷺ[(٢)].

جملةٌ مستأنَفة، سِيقتْ إثرَ بيانِ ما صدَر عن أشباهِهم؛ لبيانِ ما صدَر عنهم بالذات مِن الشنائعِ المؤيسةِ عن إيمانهم؛ مِن نفاقِ بعضٍ، وعتابِ آخَرين عليهم، أو معطوفةٌ على ما سبَق مِن الجملةِ الحاليةِ، والضميرُ لليهودِ؛ لِما ستقفُ على سِرِّه، لا لمنافقيهم خاصةً[(٣)].

ثم ذكَر حالَ منافقي أهلِ الكتاب، فقال: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[(٤)].

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾

ولمَّا كان ظنُّهم هذا أقبحَ الفسادِ؛ لأنَّه لو لم يكُنْ علمُه مِن قِبَلِ اللهِ لم يَقدِرْ غيرُه أن يعبِّرَ عنه بعبارةٍ تَعجِزُ الخلائقُ عن مماثلتها؛ وصَل به قولَه موبِّخًا لهم: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٥٦٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٣/ ٥٦٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ١١٧).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٥٦).

(٥) نظم الدرر (١/ ٤٨٩).

هذا توبيخٌ مِن الله لهم؛ أي: إذا كان علمُ الله محيطًا بجميعِ أفعالهم، وهم عالِمون بذلك؛ فكيف يسُوغُ لهم أن ينافِقوا ويَتظاهروا للمؤمنين بما يَعلَمُ اللهُ منهم خلافَه، فلا يجامِعُ حالةَ نفاقِهم بحالةِ علمِهم بأنَّ اللهَ عالِمٌ بذلك، والأَوْلىٰ حملُ ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ علىٰ العموم؛ إذ هو ظاهرُ اللفظ(١).

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه في الآيةِ السابقة الفريقَ الذي هو مِن أعلاهم كفرًا، وأعتاهم أمرًا؛ عطَف عليه قِسْمًا أعتىٰ منه وأفَظَّ؛ لأنَّ العالِمَ يُرجَىٰ لَفْتُه عن رأيِه، أو تخجيلُه بالحِجاج(٢)، بخلافِ المقلِّدِ العاتي الكثيفِ الجافي، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(٣).

ولمَّا ذكَر العلماءَ مِن اليهودِ الذين عانَدوا بالتحريف مع العلمِ والاستيقان، ذكَر العوامَّ الذين قلَّدوهم، ونبَّه علىٰ أنَّهم في الضَّلال سواءٌ؛ لأنَّ العالِمَ عليه أن يعملَ بعلمِه، وعلىٰ العاميِّ ألا يرضىٰ بالتقليدِ والظنِّ وهو متمكِّنٌ مِن العلم(٤).

أنَّه لمَّا بيَّن أمرَ الفِرْقة الضالة التي حرَّفتْ كتابَ الله، وهم قد عقَلوه وعَلِموا بسُوءِ مرتكَبِهم، ثم بيَّن أمرَ الفِرْقة الثانية -المنافِقين- وأمرَ الثالثةِ -المجادِلة-؛ أخذ يبيِّنُ أمرَ الفرقةِ الرابعة؛ وهي: العامَّةُ، التي طريقُها التقليد، وقَبولُ ما يقال لهم(٥).

---

(١) البحر المحيط (١/ ٤٤٣).

(٢) أي: مقابلة الحجة بالحجة.

(٣) نظم الدرر (١/ ٤٩٠).

(٤) محاسن التأويل (١/ ٣٣٧).

(٥) البحر المحيط (١/ ٤٤٤).

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾

ولمَّا أثبَتَ لهذا الفريقِ القطعَ علىٰ اللهِ بما لا عِلْمَ لهم به، وكان هذا معلومَ الذمِّ، محتومَ الإثمِ؛ سبَّب عنه الذمَّ والإثم بطريقِ الأَوْلىٰ لفريقٍ هو أردَؤُهم، وأضَرُّهم لعبادِ الله وأعداهم، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾(١).

الفاءُ للترتيب والتسبُّب، فيكون ما بعدها مترتِّبًا علىٰ ما قبلها، والظاهرُ أنَّ ما بعدها مترتبٌ علىٰ قوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾، الدالِّ علىٰ وقوعِ تحريفٍ منهم عن عمدٍ؛ فرتَّب عليه الإخبارَ باستحقاقِهم سُوءَ الحالةِ، أو رتَّب عليه إنشاءَ استفظاعِ حالهم، وأعيدَ في خلالِ ذلك ما أُجمِلَ في الكلامِ المعطوفِ عليه إعادةَ تفصيل(٢).

ولمَّا بيَّن حالَ هؤلاء في تمسُّكِهم بحبالِ الأمانيِّ، واتِّباعِ الظن؛ عقَّب ببيانِ حال الذين أوقَعوهم في تلك الورطةِ؛ وهم الدعاةُ إلىٰ الضَّلال بالزُّورِ، والكذبِ علىٰ الله، وأكلِ أموال الناس بالباطل، فقيل علىٰ وجهِ الدعاء عليهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١/ ٤٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٥٧٥).

(٣) محاسن التأويل (١/ ٣٣٨).

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

ولمَّا أرشَد الكلامُ إلىٰ أنَّ التقديرَ: فحرَّفوا كثيرًا في كتابِ الله، وزادوا ونقَصوا؛ عطَف عليه ما بيَّن به جُرْأتَهم، وجَفَاهم، وعدمَ اكتراثهم بما يرتكبونه مِن الجرائم التي هم أعلَمُ الناس بأنَّ بعضَها موجِبٌ للخلودِ في النار، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

الأظهَرُ عندي أنَّ «الواو» عطفٌ علىٰ قوله: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ؛ أي: فعَلوا ذلك ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾، ووجهُ المناسبة أنَّ قولَهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ دلَّ علىٰ اعتقادٍ مقرَّرٍ في نفوسِهم، يُشِيعونه بَيْنَ الناسِ بألسنتهم، قد أنبأ بغرورٍ عظيم مِن شأنِه أن يُقدِمَهم علىٰ تلك الجريمةِ وغيرِها؛ إذ هم قد أَمِنوا مِن المؤاخذة إلا أيامًا معدودةً تعادِلُ أيامَ عبادة العِجْلِ، أو أيامًا؛ عن كلِّ ألفِ سنةٍ مِن العالم يومٌ، وإنَّ ذلك عذابٌ مكتوب علىٰ جميعِهم؛ فهم لا يَتوقَّوْنَ الإقدامَ علىٰ المعاصي لأجلِ ذلك[2].

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ الثالث مِن قبائحِ أقوالهم وأفعالهم؛ وهو جزمُهم بأنَّ اللهَ تعالىٰ لا يعذِّبُهم إلا أيامًا قليلة[3].

بيانٌ لبعضٍ آخرَ مِن جناياتهم، وفصلُه عمَّا قبله مُشعِرٌ بكونِه مِن الأكاذيب التي اختلَقوها، ولم يكتبوها في الكتاب[4].

---

(١) نظم الدرر (١/ ٤٩٣-٤٩٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٥٧٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٣/ ٥٦٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (١/ ١٢١).

بعد أن ذكر اللهُ تعالىٰ تحريفَهم التَّوراة، بيَّن سببَ جُرْأتِهم، وعدمَ اكتراثهم بما يرتكبونه مِن جرائمَ، وأنَّهم مع ذلك يُزَكُّون أنفسَهم؛ فجمَعوا بَيْنَ الإساءةِ والأمن(١).

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

ولمَّا انتفىٰ الأمرانِ، عُلِم أنَّ الكائنَ غيرُ ما ادَّعَوْهُ؛ فصرَّح به في قوله: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(٢).

قولُه: ﴿ بَلَىٰ ﴾ إبطالٌ لقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾، وكلماتُ الجوابِ تدخُلُ علىٰ الكلامِ السابق، لا علىٰ ما بعدها؛ فمعنىٰ ﴿ بَلَىٰ ﴾: بل أنتم تمَسُّكم النارُ مدةً طويلة(٣).

جوابٌ عن قولِهم المَحْكيِّ، وإبطالٌ له مِن جهتِه تعالىٰ، وبيانٌ لحقيقةِ الحال تفصيلًا، في ضمنِ تشريعٍ كلي، شاملٍ لهم ولسائرِ الكفرة، بعد إظهارِ كذبِهم إجمالًا، وتفويضُ ذلك إلىٰ النبي ﷺ لِما أنَّ المُحاجَّةَ والإلزام مِن وظائفِه عليه الصلاة والسلام، مع ما فيه مِن الإشعارِ بأنَّه أمرٌ هيِّنٌ، يتوقفُ علىٰ التوقيف(٤).

ثم ذكَر تعالىٰ حُكمًا عامًّا لكل أحد، يدخُلُ به بنو إسرائيلَ وغيرُهم؛ وهو الحكمُ

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٥٧).

(٢) نظم الدرر (١/ ٤٩٦).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٥٨٠).

(٤) إرشاد العقل السليم (١/ ١٢١).

الذي لا حُكْمَ غيرُه؛ لا أمانيُّهم ودعاويهم بصفةِ الهالكين والناجين، فقال: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(١).

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

ولمَّا بانَ بهذا ما لهم ولكلِّ مَن شاركهم في هذا الوصفِ، عطَف عليه ما لِمَن ادَّعَوا أنَّهم يخلُفونهم في النارِ، ولكلِّ مَن شاركهم في وصفِهم الذي استحَقُّوا به ذلك، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(٢).

قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ تذييلٌ لتعقيبِ النِّذارةِ بالبِشارة على عادة القرآن(٣).

اعلَمْ أنَّه سبحانه وتعالى ما ذكَر في القرآنِ آيةً في الوعيدِ إلا وذكَر بجنبِها آيةً في الوعدِ؛ وذلك لفوائدَ: أحدها: ليَظهَرَ بذلك عدلُه سبحانه؛ لأنَّه لمَّا حكَم بالعذابِ الدائم على المصرِّين على الكفر، وجَب أن يحكُمَ بالنعيمِ الدائم على المصرِّين على الإيمان. وثانيها: أنَّ المؤمنَ لا بد وأن يعتدلَ خوفُه ورجاؤه(٤).

جرَتِ السُّنةُ الإلهيَّة على شَفْعِ الوعدِ بالوعيد؛ مراعاةً لِما تقتضيه الحِكْمةُ في إرشادِ العباد؛ مِن الترغيبِ تارةً، والترهيب أخرى، والتبشيرِ مرةً، والإنذار أخرى(٥).

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٥٧).
(٢) نظم الدرر (١/ ٤٩٨).
(٣) التحرير والتنوير (١/ ٥٨١).
(٤) مفاتيح الغيب (٣/ ٥٨٤).
(٥) إرشاد العقل السليم (١/ ١٢٢).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾

ثم شرَع سبحانه يُقِيمُ الدليلَ علىٰ أنَّهم ممَّن أحاطت به خطيئتُه، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[1].

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن أنواعِ النِّعم التي خَصَّهم اللهُ بها؛ وذلك لأنَّ التكليفَ بهذه الأشياءِ موصلٌ إلىٰ أعظَمِ النِّعم؛ وهو الجنَّةُ، والموصلُ إلىٰ النِّعْمةِ نعمةٌ؛ فهذا التكليفُ -لا محالةَ- مِن النِّعم[2].

هذه الآيةُ مناسِبةٌ للآياتِ الواردة قبلها في ذِكْرِ توبيخِ بني إسرائيلَ وتقريعِهم، وتبيينِ ما أُخِذ عليهم مِن ميثاقِ العبادةِ لله، وإفرادِه تعالىٰ بالعبادةِ، وما أمَرهم به مِن مكارمِ الأخلاق؛ مِن صلةِ الأرحام، والإحسانِ إلىٰ المساكين، والمواظبةِ علىٰ رُكْنَيِ الإسلامِ البدَنيِّ والمالي، ثم ذكَر تولِّيَهم عن ذلك، ونَقْضَهم لذلك الميثاقِ، علىٰ عادتِهم السابقة، وطريقتِهم المألوفة لهم[3].

شروعٌ في تَعْدادِ بعضٍ آخرَ مِن قبائحِ أسلافِ اليهود، ممَّا ينادي بعدمِ إيمانِ أخلافهم[4].

---

(١) نظم الدرر (٢/ ١).

(٢) مفاتيح الغيب (٣/ ٥٨٥).

(٣) البحر المحيط (١/ ٤٥٥).

(٤) إرشاد العقل السليم (١/ ١٢٣).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٨٤﴾

ولمَّا كان أكبَرُ الكبائرِ بعد الشركِ القتلَ، تلاه بالتذكيرِ بما أخَذ عليهم فيه مِن العهدِ، وقرَن به الإخراجَ مِن الديارِ؛ لأنَّ المالَ عديلُ الرُّوح، والمنزلُ أعظَمُ المالِ، وهو للجسدِ كالجسدِ للرُّوحِ، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾[(١)].

تفنَّن الخطابُ هنا؛ فجاء علىٰ نسَقِ ما قبل الآيةِ السابقة؛ إذ عبَّر هنا عن جميعِ بني إسرائيلَ بضميرِ الخطاب علىٰ طريقِ التغليب؛ لأنَّ المخاطَبين حين نزولِ القرآن هم المقصودون مِن هذه الموعظة، أو علىٰ طريقِ تنزيلِ الخلَفِ منزلةَ السلَفِ؛ كما تقدَّم؛ لأنَّ الداعيَ للإظهار عند الانتقال مِن الاستطرادِ إلىٰ بقيةِ المقصودِ في الآية السابقة قد أخَذ ما يقتضيه، فعاد أسلوبُ الخطاب إلىٰ ما كان عليه[(٢)].

اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ تدلُّ علىٰ نوعٍ آخَرَ مِن نِعَمِ اللهِ عليهم؛ وهو أنَّه تعالىٰ كلَّفهم هذا التكليفَ، وأنَّهم أقَرُّوا بصحَّتِه، ثم خالَفوا العهدَ فيه[(٣)].

خوطب به اليهودُ قاطبةً، علىٰ ما ذُكِر مِن التغليبِ، ونُعِي عليهم إخلالُهم بمواجبِ الميثاقِ المأخوذ منهم في حقوقِ العباد، علىٰ طريقةِ النهي، إثرَ بيانِ ما فعَلوا بالميثاقِ المأخوذ منهم في حقوقِ الله سبحانه، وما يَجري مَجراها، علىٰ سبيلِ الأمر؛

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٨).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٥٨٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٣/ ٥٩٠).

فإنَّ المقصودَ الأصلي مِن النهيِ عن عبادةِ غيرِ الله تعالىٰ هو الأمرُ بتخصيصِ العبادة به تعالىٰ(١).

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾

ولمَّا كان هذا بما أُكِّد به مِن ذِكْرِ الميثاقِ في مظهرِ العظمة وإضافةِ الجناية إلىٰ نفسِ الجاني جديرًا بالبُعْدِ منه، أشار إلىٰ ذلك بقولِه: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾(٢).

هذا استبعادٌ لِما أخبرَ عنهم به مِن القتلِ والإجلاءِ والعدوان، بعد أخذِ الميثاقِ منهم، وإقرارِهم، وشَهادتهم(٣).

خطابٌ خاص بالحاضرين، فيه توبيخٌ شديد، واستبعادٌ قوي لِما ارتكَبوه، بعد ما كان مِن الميثاقِ، والإقرارِ به، والشَّهادة عليه(٤).

---

(١) إرشاد العقل السليم (١/ ١٢٣).

(٢) نظم الدرر (٢/ ١٠).

(٣) البحر المحيط (١/ ٤٦٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (١/ ١٢٤).

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦ ﴾

ولمَّا كانت الآياتُ السابقة كلُّها كالدليل، كانت فَذْلكةُ[1] ذلك قولَه تعالىٰ: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾[2].

وفي اسمِ الإشارة دليلٌ علىٰ أنَّه أشيرَ به إلىٰ الذين جمَعوا الأوصافَ السابقة الذميمة في الآيةِ السابقة، وأنَّه إذا عُدِّدتْ أوصافٌ لموصوف، أشيرَ إلىٰ ذلك الموصوفِ تنبيهًا علىٰ أنَّه هو جامعُ تلك الأوصاف[3].

ثم أخبَر تعالىٰ عن السببِ الذي أوجب لهم الكفرَ ببعضِ الكتاب، والإيمانَ ببعضِه، فقال: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾[4].

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧ ﴾

ولمَّا بيَّن لهم أنَّهم نقَضوا العهودَ، فأحاطت بهم الخطايا، فاستحَقُّوا الخلودَ في النار؛ توقَّع السائلُ الإخبارَ عن سببِ وقوعهم في ذلك؛ هل هو جهلٌ أو عناد؟ فبشَّع سبحانه ذلك عليهم بما افتتَحه بحرفِ التوقع، فقال: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ

---

(١) أي: حاصله ونتيجته.

(٢) نظم الدرر (٢/ ١٤).

(٣) البحر المحيط (١/ ٤٧٣).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٥٨).

وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾[(١)].

انتقالٌ مِن الإنحاءِ علىٰ بني إسرائيلَ في فعالِهم مع الرسولِ موسىٰ عليه السلام بما قابَلوه به مِن العصيانِ والتبرُّم والتعلُّل في قَبولِ الشريعة، وبما خالَفوا مِن أحكامِ التَّوراة بعد موتِه إلىٰ قُرْبِ مجيءِ الإسلام؛ إلىٰ الإنحاءِ عليهم بسُوءِ مقابلتِهم للرُّسل الذين أتَوْا بعد موسىٰ -مثل: يوشعَ، وإلياس، وأرمياءَ، وداودَ- مؤيِّدين لشريعتِه، ومفسِّرين، وباعثين للأمَّةِ علىٰ تجديدِ العمل بالشريعة، مع تعدُّدِ هؤلاء الرُّسل، واختلافِ مشاربِهم في الدعوةِ لذلك المقصدِ؛ مِن لِينٍ وشِدة، ومِن رغبةٍ ورهبة، ثم جاء عيسىٰ مؤيِّدًا، وناسخًا، ومبشِّرًا؛ فكانت مقابلتُهم لأولئك كلِّهم بالإعراضِ والاستكبار[(٢)].

ومناسبةُ هذا لِما قبله: أنَّ إيتاءَ موسىٰ الكتابَ هو نعمةٌ لهم؛ إذ فيه أحكامُهم وشرائعهم، ثم قابَلوا تلك النِّعْمةَ بالكفران، وذلك جرىٰ علىٰ ما سبَق مِن عادتِهم؛ إذ قد أُمِروا بأشياءَ، ونُهُوا عن أشياءَ، فخالَفوا أمرَ اللهِ ونَهْيَه؛ فناسَب ذِكْرُ هذه الآيةِ ما قبلها[(٣)].

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن النِّعَمِ التي أفاضها اللهُ عليهم، ثم إنَّهم قابَلوه بالكفرِ والأفعال القبيحة؛ وذلك لأنَّه تعالىٰ لمَّا وصَف حالَ اليهود مِن قبلُ بأنَّهم يخالفون أمرَ الله تعالىٰ في قتلِ أنفسهم، وإخراجِ بعضِهم بعضًا مِن ديارهم، وبيَّن أنَّهم بهذا الصنيعِ اشترَوُا الدنيا بالآخرةِ؛ زاد في تبكيتِهم بما ذكَره في هذه الآيةِ[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٢/ ١٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٥٩٢).

(٣) البحر المحيط (١/ ٤٧٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٣/ ٣٩٤، ٥٩٥).

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه مخازيَهم حتىٰ ختَمها بعظيمِ ما ارتكَبوا مع الرُّسل مِن القتلِ المعنويِّ بالتكذيبِ، والحسيِّ بإزهاقِ الرُّوح، مع العلم بأنَّهم أتَوْا بالبينات، والآياتِ المعجِزات، فأرشَد المقامُ إلىٰ أنَّ التقديرَ: فقالوا للأنبياءِ لمَّا أتَوْهم أمورًا كثيرة، يُعجَبُ مِن صدورِها عن عاقلٍ، وأتَوْا في الجوابِ عن تكذيبِهم وقتلِهم مِن التناقضات بما لا يرضاه عالِمٌ ولا جاهل؛ عطَف عليه أو علىٰ ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ قولَه -بيانًا لشدةِ بَهْتِهم، وقوةِ عنادِهم-: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[(١)].

إمَّا عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾، أو علىٰ ﴿كَذَّبْتُمْ﴾، فيكون علىٰ الوجهِ الثاني تفسيرًا للاستكبارِ؛ أي: يكونُ علىٰ تقديرِ عطفِه علىٰ ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ مِن جملةِ تفصيلِ الاستكبار بأن أشيرَ إلىٰ أنَّ استكبارَهم أنواعٌ: تكذيب، وتقتيل، وإعراض[(٢)].

بيانٌ لفنٍّ آخرَ مِن قبائحِهم، علىٰ طريقِ الالتفات إلىٰ الغَيْبة؛ إشعارًا بإبعادِهم عن رُتْبةِ الخطاب؛ لِما فُصِّل مِن مخازيهم الموجِبةِ للإعراض عنهم، وحكايةِ نظائرها لكلِّ مَن يَفهَمُ بطلانَها وقباحتَها مِن أهلِ الحق، والقائلون هم الموجودون في عصرِ النبي ﷺ[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٣٢-٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٥٩٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ١٢٧).

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه مِن جلافتِهم ما ختَمه بلَعْنِهم، وكان قد قدَّم ذِكْرَ كتابهم مرارًا، وأشار إلىٰ الإنجيلِ بإيتاءِ عيسىٰ عليه السلام البيناتِ؛ ذكَر سبحانه كفرَهم بهذا الكتابِ الذي مقصودُ السورةِ وصفُه بالهدىٰ، وبهذا الرسولِ الآتي به دليلًا علىٰ إغراقهم في الكفرِ؛ لأنَّهم مع استفتاحِهم به ﷺ قبل مبعثِهِ علىٰ مَن يعاديهم، واستبشارِهم به، وإشهادِهم أنفسَهم بالسرور بمجيئه؛ كانوا أبعَدَ الناسِ مِن دعوته؛ تماديًا في الكفرِ، وتقيُّدًا بالضَّلال؛ فكان هذا الدليلُ أبيَنَ مِن الأولِ عند أهلِ ذلك العصرِ؛ وذلك قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(١).

معطوفٌ علىٰ قوله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾؛ لقصدِ الزيادة في الإنحاءِ عليهم بالتوبيخ؛ فإنَّهم لو أعرَضوا عن الدعوةِ المحمَّدية إعراضًا مجردًا عن الأدلة، لكان في إعراضِهم معذرةٌ ما، ولكنهم أعرَضوا، وكفَروا بالكتابِ الذي جاء مصدِّقًا لِما معهم، والذي كانوا مِن قبلُ يستفتحون به علىٰ المشركين(٢).

(١) نظم الدرر (٢/ ٣٥-٣٦).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٠١).

📖 ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ 📖

ولمَّا استحَقُّوا بهذا وجوهَ المذامِّ كلها، وصَل به قولَه: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[(١)].

استئنافٌ لذَمِّهم وتسفيهِ رأيِهم إذ رَضُوا لأنفسِهم الكفرَ بالقرآن وبمحمَّدٍ ﷺ، وأعرَضوا عن النظرِ فيما اشتملت عليه كتبُهم مِن الوعدِ بمجيء رسولٍ بعد موسىٰ؛ إرضاءً لداعيةِ الحسدِ وهم يَحسَبون أنَّهم مع ذلك قد استبْقَوْا أنفسَهم علىٰ الحق إذ كفَروا بالقرآن؛ فهذا إيقاظٌ لهم نحوَ معرفةِ داعيهم إلىٰ الكفر، وإشهارٌ لِما ينطوي عليه عند المسلمين[(٢)].

📖 ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ 📖

ولمَّا أقام سبحانه الدليلَ علىٰ استحقاقِهم للخلود في النارِ بكفرِهم بالكتاب الذي كانوا يستفتحون بالآتي به، أقام دليلًا آخَرَ علىٰ ذلك أبيَنَ منه؛ وذلك بكفرِهم بكتابهم

(١) نظم الدرر (٢/ ٤٣).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٠٣).

نفسِه، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

معطوفٌ على قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، المعطوفِ على قوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، وبهذا الاعتبارِ يصح اعتبارُه معطوفًا على ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾؛ على المعروفِ في اعتبارِ العطفِ على ما هو معطوفٌ، وهذا كلُّه مِن عطفِ حكاياتِ أحوالهم في معاذيرِهم عن الإعراضِ عن الدعوةِ الإسلامية، فإذا دُعُوا، قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، وإذا سَمِعوا الكتابَ، أعرَضوا عنه بعد أن كانوا منتظريه؛ حسَدًا أن نزَل على رجُلٍ مِن غيرهم، وإذا وُعِظوا، وأُنذِروا، ودُعُوا إلى الإيمانِ بالقرآن، وبأنَّه أنزَله اللهُ، وأن ينظُروا في دلائلِ كونِه منزلًا مِن عندِ الله؛ أعرَضوا وقالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾؛ أي: بما أنزَله اللهُ على رسولنا موسى، وهذا هو مَجمَعُ ضلالاتهم، ومَنبَعُ عنادهم؛ فلذلك تصدى القرآنُ لتطويلِ المُحاجَّةِ فيه بما هنا وما بعده(٢).

﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

ولمَّا دلَّ على كذبِهم في دعوى الإيمان بما فعلوا بعد موسى ممَّا استحَقُّوا به الخلودَ في النار، أقام دليلًا آخَرَ أقوى مِن كلِّ ما تقدَّمه؛ فإنَّه لم يَعهَدْ إليهم في التَّوراةِ ما عَهِد إليهم في التوحيدِ، والبُعْدِ عن الإشراك، وهو في النُّسَخِ الموجودة بَيْنَ أظهُرِهم الآن، وقد نقَضوا جميعَ ذلك باتخاذ العِجْلِ في أيامِ موسى وبحضرةِ هارونَ عليهما السلام؛ كما هو

(١) نظم الدرر (٢/ ٤٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٠٦).

منصوصٌ الآن فيما بَيْنَ أيديهم منها، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾، والقصدُ منه تعليمُ الانتقالِ في المجادَلة معهم إلىٰ ما يَزيدُ إبطالَ دَعْواهم الإيمانَ بما أُنزِلَ إليهم خاصةً؛ وذلك أنَّه بعد أن أكذَبهم في ذلك بقولِه: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ -كما بيَّنَّا-؛ ترقَّىٰ إلىٰ ذِكْرِ أحوالهم في مقابلتِهم دعوةَ موسىٰ الذي يزعمون أنَّهم لا يؤمنون إلا بما جاءهم به؛ فإنَّهم مع ذلك قد قابَلوا دعوتَه بالعصيان قولًا وفعلًا، فإذا كانوا أعرَضوا عن الدعوةِ المحمَّدية بمعذرةِ أنَّهم لا يؤمنون إلا بما أُنزِلَ عليهم، فلماذا قابَلوا دعوةَ أنبيائهم بعد موسىٰ بالقتلِ؟ ولماذا قابلوا دعوةَ موسىٰ بما قابلوا؟![(٢)].

لمَّا حكىٰ طريقةَ اليهود في زمانِ محمَّدٍ ﷺ، ووصَفهم بالعنادِ والتكذيب، ومثَّلهم بسَلَفِهم في قتلِهم الأنبياءَ الذي يناسِبُ التكذيبَ لهم، بل يَزيدُ عليه؛ أعاد ذِكْرَ موسىٰ عليه السلام، وما جاء به مِن البينات، وأنَّهم مع وضوحِ ذلك أجازوا أن يَتخذوا العِجْلَ إلهًا، وهو مع ذلك صابرٌ ثابت علىٰ الدعاءِ إلىٰ ربِّه، والتمسُّكِ بدِينِه وشرعِه، فكذلك القولُ في حالي معكم، وإن بالغتم في التكذيبِ والإنكار[(٣)].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

ثم ذكَر أمرًا آخرَ هو أبيَنُ في عنادِهم، وأنَّهم إنَّما هم مع الهوىٰ، فقال مقبلًا علىٰ خطابهم -لأنَّه أشَدُّ في التقريع-: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ

(١) نظم الدرر (٢/ ٥٠).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٠٩).
(٣) مفاتيح الغيب (٣/ ٦٠٤).

خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[1].

اعلَمْ أنَّ في الإعادةِ وجوهًا: أحدها: أنَّ التَّكرارَ في هذا وأمثالِه للتأكيدِ، وإيجابِ الحجَّةِ علىٰ الخَصْمِ؛ علىٰ عادةِ العرب. وثانيها: أنَّه إنَّما ذكَر ذلك مع زيادةٍ، وهي قولهم: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾؛ وذلك يدلُّ علىٰ نهايةِ لَجاجِهم[2][3].

﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٤﴾

ولمَّا نهَضتِ الأدلةُ علىٰ أنَّه لا حظَّ لهم في الآخرةِ غيرُ النار، وذلك نقيضُ دَعْواهم أنَّها لهم فقط في قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾، وتفسيرُهم ذلك بأنَّها سبعةُ أيامٍ، وأنَّا نخلفُهم فيها؛ ختَم سبحانه ذلك بدليلٍ قطعيٍّ بديهي، فقال: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[4].

إبطالٌ لدعوىٰ قارَّةٍ في نفوسِهم، اقتضاها قولُهم: ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾، الذي أرادوا به الاعتذارَ عن إعراضِهم عن دعوة محمَّدٍ ﷺ بعُذْرِ أنَّهم متصلِّبون في التمسُّكِ بالتَّوراة، لا يَعدُونها، وأنَّهم بذلك استحَقُّوا محبةَ الله إيَّاهم، وتكونُ الآخرة لهم، فلمَّا أُبطِلتْ دعوىٰ إيمانِهم بما أُنزِلَ عليهم بإلزامِهم الكذبَ في دَعْواهم بسندِ ما أتاه سَلَفُهم -وهم جدودُهم- مِن الفظائعِ مع أنبيائِهم، والخروجِ عن أوامرِ

(١) نظم الدرر (٢/ ٥٢).

(٢) أي: إصرارهم وتعنتهم.

(٣) مفاتيح الغيب (٣/ ٦٠٤).

(٤) نظم الدرر (٢/ ٥٨).

التَّوراة بالإشراكِ بالله تعالىٰ بعبادة العِجْلِ؛ عقَّب ذلك بإبطالِ ما في عقائدِهم مِن أنَّهم أهلُ الانفرادِ برحمة الله ما داموا متمسِّكين بالتَّوراة، وأنَّ مَن خالَفها لا يكون له حظٌّ في الآخرة، وارتكَب في إبطالِ اعتقادهم هذا طريقةَ الإحالة علىٰ ما عقَدوا عليه اعتقادَهم مِن الثقةِ بحُسْنِ المصير، أو علىٰ شَكِّهم في ذلك، فإذا ثبَت لديهم شَكُّهم في ذلك، عَلِموا أنَّ إيمانَهم بالتَّوراة غيرُ ثابتٍ علىٰ حقِّه؛ وذلك أشَدُّ ما يفُتُّ في أعضادِهم، ويسقطُ في أيديهم؛ لأنَّ ترقُّبَ الحظِّ الأخروي أهَمُّ ما يتعلقُ به المعتقِدُ المتديِّن؛ فإنَّ تلك هي الحياةُ الدائمة، والنعيمُ المقيم، وإنَّما فُصِلتْ هاته الجملةُ عمَّا قبلها؛ لاختلافِ السياق؛ لأنَّ هذه الآيةَ إلقاءُ حجَّةٍ عليهم، والآياتُ السابقة تفظيعٌ لأحوالهم، وإن كان في كلٍّ مِن ذلك احتجاجٌ، لكنَّ الانتقالَ مِن أسلوبٍ إلىٰ أسلوب كان محسِّنًا للفصلِ دُونَ العطف، لا سيَّما مع افتتاحِ الاحتجاج بـ﴿قُلْ﴾ (١).

رَدٌّ لدعوَىٰ أخرىٰ لهم بعد ردِّ دعوىٰ الإيمان بما أُنزِلَ عليهم، ولاختلافِ الغرضِ لم يُعطَفْ أحدُهما علىٰ الآخرِ مع ظهور المناسبةِ المصحِّحة للذِّكر (٢).

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥)﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فقال لهم: فما تمنَّوْهُ؟ عطَف عليه قولَه - إخبارًا بالغيب؛ قطعًا للعنادِ، مؤكِّدًا لأنَّ ادعاءَهم الخلوصَ أعظَمُ مِن ادعائهم الوَلايةَ-: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦١٣).

(٢) روح المعاني (١/ ٣٢٧).

(٣) نظم الدرر (٢/ ٦٠).

جملةُ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ إلىٰ آخرِه معترضةٌ بَيْنَ جملةِ ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾، وبين جملةِ ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾، والكلامُ موجَّهٌ إلىٰ النبي ﷺ والمؤمنين؛ إعلامًا لهم ليزدادوا يقينًا، وليحصُلَ منه تحدٍّ لليهود إذ يَسمعونه ويَودُّون أن يخالِفوه لئلا يَنهَضَ حجَّةً علىٰ صدقِ المخبِرِ به، فيَلزمهم أنَّ الدارَ الآخرة ليست لهم[١].

كلامٌ مستأنَف، غيرُ داخلٍ تحت الأمر، سِيقَ مِن جهتِه سبحانه لبيانِ ما يكون منهم مِن الإحجامِ عمَّا دُعُوا إليه، الدالِّ علىٰ كذبِهم في دَعْواهم[٢].

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

ولمَّا بيَّن أنَّهم لا يتمنَّوْنَه، أثبتَ لهم ما هو فوق ذلك مِن تمنِّي الضدِّ الدالِّ علىٰ علمِهم بسُوءِ مُنقلَبِهم، فقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[٣].

معطوفٌ علىٰ قوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾؛ للإشارةِ إلىٰ أنَّ عدمَ تمنِّيهم الموتَ ليس علىٰ الوجهِ المعتاد عند البشرِ مِن كراهةِ الموت ما دام المرءُ بعافيةٍ، بل هم تجاوَزوا ذلك إلىٰ كونِهم أحرَصَ مِن سائرِ البشر علىٰ الحياةِ، حتىٰ المشركين الذين لا يرجون بعثًا ولا نشورًا ولا نعيمًا؛ فنعيمُهم عندهم هو نعيمُ الدنيا، وإلىٰ أن تمنَّوْا

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦١٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ١٣٢).

(٣) نظم الدرر (٢/ ٦١).

أن يُعمَّروا أقصىٰ أمدِ التعمير، مع ما يعتري صاحبَ هذا العُمُرِ مِن سوءِ الحالة، ورُذَالةِ العيش؛ فلِما في هذه الجُمَلِ المعطوفة مِن التأكيدِ لمضمون الجملةِ المعطوف عليها أُخِّرتْ عنها، ولِما فيها مِن الزيادةِ في وصفِهم بالأَحْرصيَّةِ المتجاوِزةِ الحدَّ عُطِف عليه ولم يُفصَلْ؛ لأنَّه لو كان لمجردِ التأكيد، لفُصِل كما يُفصَل التأكيدُ عن المؤكَّد[١].

اعلَمْ أنَّه ﷻ لمَّا أخبَر عنهم في الآيةِ المتقدِّمة أنَّهم لا يتمنَّوْنَ الموتَ، أخبَر في هذه الآيةِ أنَّهم في غايةِ الحرص علىٰ الحياة؛ لأنَّ ههنا قِسْمًا ثالثًا؛ وهو أن يكونَ الإنسانُ بحيث لا يتمنَّىٰ الموتَ، ولا يتمنَّىٰ الحياةَ، فقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[٢].

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾

ولمَّا ذكَر عداوتَهم لأخصِّ البشَرِ، واجتراءَهم عليه بالتكذيبِ والقتل، وختَم ذلك بعداوتِهم لأكمَلِ الخَلْقِ، وأخَصِّهم حسَدًا لنزولِ هذا الذِّكْرِ عليه عبارةً، ثم إشارةً بما رمَزه إلىٰ نَصْبِهم لقتلِه، وأنهىٰ ذلك بأنَّه لا محيصَ لهم مِن العذابِ؛ لأنَّه بصيرٌ بأعمالِهم الموجِبةِ له: ذكَر ما هو مِن دقيقِ أعمالهم في عراقتِهم في الكفرِ بعداوتهم لخواصِّ الملائكةِ الذين هم خيرٌ محضٌ، لا حاملَ أصلًا علىٰ بُغْضِهم إلا الكفرُ، وبُدِئ بذِكْرِ المُنزِّلِ للقرآن؛ لأنَّ عداوتَهم للمُنزَّلِ عليه لأجلِ ما نُزِّلَ عليه عداوةً لمُنزِّله؛ لأنَّه سببُ ما كانت العداوةُ لأجلِه، فقال آمرًا له ﷺ -إعلامًا بما أبصَره مِن

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦١٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٣/ ٦٠٩).

خَفِيِّ مكرِهم القاضي بضُرِّهم-: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

موقعُ هاته الجملةِ موقعُ الجُمَلِ قبلها مِن قولِه: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾؛ فإنَّ الجميعَ للردِّ علىٰ ما تضمَّنه قولُهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾؛ لأنَّهم أظهَروا به عذرًا عن الإعراضِ عن الدعوة المحمَّدية، وهو عذرٌ كاذب، ستَروا به السببَ في الواقع؛ وهو الحسدُ علىٰ نزولِ القرآن علىٰ رجُلٍ مِن غيرهم، فجاءت هاته المجادَلاتُ المصدَّرةُ بـ﴿قُلْ﴾ لإبطالِ معذرتِهم، وفضحِ مقصدِهم؛ فأبطَلَ أولًا ما تضمَّنه قولُهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ مِن أنَّهم إنَّما يَقبَلون ما أُنزِلَ علىٰ رُسلِهم بأنَّهم قد قابَلوا رُسلَهم أيضًا بالتكذيبِ، والأذىٰ، والمعصية؛ وذلك بقولِه: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾، وقولِه: ﴿قُلْ بِئْسَمَا﴾ إلخ، وأبطَلَ ثانيًا ما تضمَّنه مِن أنَّهم شديدو التمسُّكِ بما أُنزِلَ عليهم، حريصون علىٰ العملِ به، متباعِدون عن البُعْدِ عنه لقصدِ النجاة في الآخرةِ بقولِه: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾، وأبطَلَ ثالثًا أن يكونَ ذلك العذرُ هو الصارفَ لهم عن الإيمانِ مع إثباتِ أنَّ الصارفَ لهم هو الحسدُ بقولِه هنا: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلخ، ويؤيدُ هذا الارتباطَ وقوعُ الضمير في قوله: ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ عائدًا علىٰ ما أنزَل اللهُ في الآيةِ المُجابةِ بهاته الإبطالاتِ؛ ولذلك فُصِلتْ هذه كما فُصِلتْ أخواتُها، ولأنَّها لا علاقةَ لها بالجُمَلِ القريبةِ منها فتُعطَفَ عليها، فجاءت لذلك مستأنَفةً(٢).

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٦٤-٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦١٩).

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾

ولمَّا كانت عداوةُ واحدٍ مِن الحزبِ لكونِه مِن ذلك الحزبِ عداوةً لجميعِ ذلك الحزبِ، تلاه بقولِه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾(١).

لمَّا كانت عداوتُهم جِبْريلَ لأجلِ عداوتهم الرسولَ، ورجَعتْ بالآخرةِ إلىٰ إلزامِهم بعداوتهم اللهَ المرسِلَ؛ لأنَّ سببَ العداوة هو مجيئُه بالرسالة: تسنَّىٰ أنْ سجَّل عليهم أنَّهم أعداءُ اللهِ؛ لأنَّه المرسِلُ، وأعداءُ رُسلِه؛ لأنَّهم عادَوُا الرسولَ، وأعداءُ الملائكةِ لذلك(٢).

أكَّد بقولِه: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ أمرَ جِبْريلَ عليه السلام؛ إذ اليهودُ قد أخبَرتْ أنَّه عدوُّهم مِن الملائكةِ؛ لكونه يأتي بالهلاكِ والعذاب، فرَدَّ عليهم في الآيةِ السابقة بأنَّه أتىٰ بأصلِ الخُيُورِ(٣) كلِّها؛ وهو القرآنُ الجامع لتلك الصفاتِ الشريفة؛ مِن موافقتِه لكتبِهم، وكونِه هدًىٰ وبُشْرَىٰ؛ فكانت تجبُ محبَّتُه، ورَدَّ عليهم في هذه الآيةِ بأن قرَنه باسمِه تعالىٰ مندرجًا تحت عمومِ ملائكته، ثم ثانيًا تحت عمومِ رُسلِه؛ لأنَّ الرُّسلَ تشمَلُ الملائكةَ وغيرَهم ممَّن أُرسِلَ مِن بني آدَمَ، ثم ثالثًا بالتنصيصِ علىٰ ذكرِه مجردًا مع مَن يدَّعون أنَّهم يحبُّونه؛ وهو مِيكالُ عليه السلام، فصار مذكورًا في هذه الآيةِ ثلاثَ مرارٍ، كلُّ ذلك ردٌّ علىٰ اليهود، وذمٌّ لهم، وتنويهٌ بجِبْريلَ عليه السلام(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٦٨).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٢٣).

(٣) جمع: خير.

(٤) البحر المحيط (١/ ٥١٥).

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

ولمَّا فرَغ مِن ترغيبِهم في القرآن بأنَّه مِن عندِ الله، وأنَّه مصدِّقٌ لكتابهم، وفي جِبْريلَ بأنَّه الآتي به بإذنِ الله، ومِن ترهيبِهم مِن عداوتِه؛ أتبَعه مدحَ هذا القرآنِ، وأنَّه واضحُ الأمرِ لمريدِ الحق، وإن كفَر به مَن كفَر منهم، أو مِن غيرهم، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[(١)].

عطفٌ على قوله: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ عَطْفَ القصَّةِ على القصَّة لذكرِ كفرِهم بالقرآن؛ فهو مِن أحوالِهم، وهاته الجملةُ جوابٌ لقَسَمٍ محذوف، فعطفُها على ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا ﴾ مِن عطفِ الإنشاءِ على الإنشاء، وفيه زيادةُ إبطالٍ لقولهم: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾، وفي الانتقالِ إلى خطابِ النبيِّ ﷺ إقبالٌ عليه، وتسليةٌ له عمَّا لَقِيَ منهم، وأنَّ ما أُنزِلَ إليه لا يكذِّبُ به إلا مَن لا يؤبَهُ بتكذيبه؛ لكونِ هذا المُنزَلِ دلائلَ واضحةً لا تقصُرُ عن إقناعِهم بأحقيَّتِها، ولكنهم يُظهِرون أنفسَهم أنَّهم لم يوقِنوا بحقيَّتِها[(٢)].

لمَّا ذكَر تعالى جُمَلًا مِن قبائحِ اليهود، وذمَّهم على ذلك، وكان فيما ذكَر مِن ذلك معاداتُهم لجِبْريلَ؛ فناسَب ذلك إنكارَهم لِما نزَل به جِبْريلُ؛ فأخبَر اللهُ تعالى بأنَّ الرسولَ ﷺ أُنزِلَ عليه آياتٌ بيِّنات، وأنَّه لا يَجحَدُ نزولَها إلا كلُّ فاسقٍ؛ وذلك لوضوحِها[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٦٩-٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٢٤).

(٣) البحر المحيط (١/ ٥١٥).

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠٠﴾

ولمَّا أنكَر عليهم أولًا رَدَّهم للرُّسلِ لأمرِهم بمخالفةِ الهوىٰ في قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ﴾، وأتبعه بما يلائمُه إلىٰ أن ختَم بأنَّ آياتِ هذا الرسولِ مِن الأمر البيِّنِ الذي يَشهَدُ به كتابُهم، وقد أخَذ عليهم العهدَ باتِّباعِه، كما أرشَد إليه قولُه تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ الآيةَ؛ أنكَر عليهم ثانيًا كُفْرَهم بما أتىٰ به الرُّسلُ بقولِه: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(١)].

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١﴾

ثم أتبَع هذا الإنكارَ ذِكْرَ الكتابِ والرسول كما فعَل في الإنكارِ الأول، غيرَ أنَّه صرَّح هنا بما طواه هناك، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٢)].

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ١٠٢﴾

ولمَّا كانت سُنَّةُ اللهِ جاريةً بأنَّه ما أمات أحدٌ سُنَّةً إلا زاد في خِذْلانِه بأن أحيا علىٰ يدِه بِدْعةً، أعقَبهم نَبْذُهم لكلامِ الله أَوْلىٰ الأولياءِ إقبالَهم علىٰ كلامِ الشياطينِ الذين هم

(١) نظم الدرر (٢/ ٧١).

(٢) نظم الدرر (٢/ ٧١).

أعدى الأعداءِ، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾[1].

ذكَر خَصْلةً لهم عجيبة؛ وهي أخذُهم بالأباطيلِ بعد ذِكْرِ خَصْلةٍ أخرى؛ وهي نَبْذُهم للكتابِ الحقِّ؛ فذلك هو مناسبةُ عطفِ هذا الخبرِ على الذي قبله[2].

اعلَمْ أنَّ هذا هو نوعٌ آخَرُ مِن قبائحِ أفعالهم؛ وهو اشتغالُهم بالسِّحر، وإقبالُهم عليه، ودعاؤهم الناسَ إليه[3].

ولمَّا كان مِن العوائدِ القَدَرية والحِكْمةِ الإلهيَّة أنَّ مَن ترَك ما ينفعُه، وأمكَنه الانتفاعُ به فلم ينتفِعْ؛ ابتُلي بالاشتغالِ بما يضُرُّه؛ فمَن ترَك عبادةَ الرحمن، ابتُلي بعبادةِ الأوثان، ومَن ترَك محبَّةَ اللهِ وخوفَه ورجاءه، ابتُلي بمحبةِ غيرِ الله وخوفِه ورجائه، ومَن لم يُنفِقْ مالَه في طاعةِ الله، أنفقَه في طاعةِ الشيطان، ومَن ترَك الذُّلَّ لربِّه، ابتُلي بالذلِّ للعبيد، ومَن ترَك الحقَّ، ابتُلي بالباطلِ؛ كذلك هؤلاء اليهودُ، لمَّا نبَذوا كتابَ الله، اتبَعوا ما تتلو الشياطينُ وتختلقُ مِن السِّحْرِ على مُلْكِ سليمانَ، حيث أخرَجتِ الشياطينُ للناس السِّحْرَ، وزعَموا أنَّ سليمانَ عليه السلام كان يستعمِلُه، وبه حصَل له المُلْكُ العظيم، وهم كَذَبةٌ في ذلك؛ فلم يستعمِلْهُ سليمانُ، بل نزَّهه الصادقُ في قِيلِه[4].

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٣﴾

ولمَّا بيَّن ما عليهم فيما ارتكَبوه مِن المَضارِّ، أتبَعه ما في الإعراضِ عنه مِن المنافعِ، فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٢٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٣/ ٦١٧).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٦١).

(٥) نظم الدرر (٢/ ٨٢).

اعلَمْ أنَّ الضميرَ عائدٌ إلىٰ اليهودِ الذين تقدَّم ذِكْرُهم؛ فإنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن فيهم الوعيدَ بقولِه: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾، أتبعَه بالوعدِ جامعًا بَيْنَ الترهيبِ والترغيب؛ لأنَّ الجمعَ بينهما أدعىٰ إلىٰ الطاعةِ، والعدولِ عن المعصية(١).

لمَّا كانت الآياتُ السابقة فيها ما يتضمَّنُ الوعيدَ مِن قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، وقولِه: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، وذِكْرِ نَبْذِ العهود، ونبذِ كتابِ الله، واتِّباعِ الشياطين، وتعلُّمِ ما يضُرُّ ولا ينفعُ، والإخبارِ عنهم بأنَّهم عَلِموا أنَّه لا نصيبَ لهم في الآخرةِ؛ أتبَع ذلك بآيةٍ تتضمَّنُ الوعدَ الجميل لِمَن آمَن واتَّقىٰ(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

ولمَّا كان مِن الحقِّ إجراءُ الأمورِ علىٰ حُكْمِ ما أثبَتها الحقُّ؛ لأنَّها بذلك حقٌّ هو مثالٌ للحق المبين، وصرفُها إلىٰ مَن لم يُثبِتْها الحقُّ في حيِّزِه إفكٌ وقلبٌ عن وجهِه، فهو خيالٌ باطلٌ هو في بابِ الرأيِ بمنزلةِ السِّحْرِ في الحِسِّ، فهو خيال لِمَا صحَّة النسبة فيه مثالٌ؛ أتبَع الآياتِ الذامَّةَ للسِّحْرِ الحقيقيِّ التنبيهَ علىٰ السِّحْرِ المَجازيِّ الذي خيَّلوا به الخيرَ وقصَدوا به الشَّرَّ؛ ليكونَ النهيُ عنه نهيًا عن الأولِ بطريق الأَولىٰ، فقال ملتفتًا عن ذِكْرِهم إلىٰ خطابِ المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (٣/ ٦٣٣).

(٢) البحر المحيط (١/ ٥٣٨).

(٣) نظم الدرر (٢/ ٨٥-٨٦).

ومناسبةُ نزولِ هاته الآيةِ عَقِبَ الآياتِ المتقدِّمة في السِّحْرِ، وما نشأ عن ذَمِّه أنَّ السحرَ -كما قدَّمْنا- راجعٌ إلىٰ التمويهِ، وأنَّ مِن ضروبِ السحر ما هو تمويهُ ألفاظٍ، وما مَبْناه علىٰ اعتقادِ تأثيرِ الألفاظ في المسحورِ بحسَبِ نيةِ الساحر، وتوجيهِه النفسيِّ إلىٰ المسحورِ، وقد تأصَّل هذا عند اليهودِ، واقتنَعوا به في مقاومةِ أعدائهم، ولمَّا كان أذىٰ الشخصِ بقولٍ أو فعل لا يُعلَمُ مغزاهما كخطابِه بلفظٍ يفيد معنًىٰ، ومقصودُ المتكلِّمِ منه أذًىٰ، أو كإهانةِ صورتِه، أو الوطءِ علىٰ ظِلِّه، كلُّ ذلك راجعًا إلىٰ الاكتفاءِ بالنية والتوجُّهِ في حصولِ الأذىٰ؛ كان هذا شبيهًا ببعضِ ضروب السحرِ؛ ولذلك كان مِن شعارِ مَن استهواهم السحرُ واشترَوْهُ؛ ناسَب ذِكْرُ هاته الحالةِ مِن أحوالهم عَقِبَ الكلامِ علىٰ افتتانهم بالسحرِ وحُبِّه دُونَ بقيةِ ما تقدَّم مِن أحوالهم، وهاته المناسبةُ هي موجِبُ التعقيبِ في الذِّكر، وإنَّما فُصِلتْ هذه الآيةُ عمَّا قبلها؛ لاختلاف الغرضينِ؛ لأنَّ هذه في تأديبِ المؤمنين، ثم يحصُلُ منه التعريضُ باليهودِ في نفاقِهم، وأذاهم، والإشعارِ لهم بأنَّ كيدَهم قد أطلَع اللهُ عليه نبيَّه، وقد كانوا يعُدُّون تفطُّنَ المسحورِ للسحر يُبطِلُ أثَرَه، فأشبَهه التفطُّنُ للنوايا الخبيثةِ، وصريح الآياتِ قبلها في أحوالِهم الدِّينيةِ المنافية لأصول دِينهم(١).

اعلَمْ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا شرَح قبائحَ أفعالهم قبل مبعثِ محمَّدٍ ﷺ، أراد مِن ههنا أن يشرحَ قبائحَ أفعالهم عند مبعثِ محمَّدٍ ﷺ، وجِدَّهم واجتهادَهم في القَدْحِ فيه، والطعنِ في دِينه(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦٥١).

(٢) مفاتيح الغيب (٣/ ٦٣٤).

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

ولمَّا أرشَد ختمُ الآيةِ إلىٰ العلةِ الحاملة علىٰ الامتثالِ، علَّل بعلةٍ أخرىٰ، فقال: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(١).

ولعلَّ تعلُّقَه بما قبله مِن حيث إنَّ القولَ المنهيَّ عنه كثيرًا ما كان يقعُ عند تنزيلِ الوحي المعبَّرِ عنه في هذه الآيةِ بالخير، فكأنَّه أشيرَ إلىٰ أنَّ سببَ تحريفِهم له إلىٰ ما حُكِيَ عنهم؛ لوقوعِه في أثناءِ حصولِ ما يَكرَهونه مِن تنزيلِ الخير(٢).

ووجهُ المناسبة بَيْنَ الآيتينِ ظاهرٌ؛ لاتحادِ المآل، ولأنَّ الداعي للسبِّ والأذىٰ هو الحسدُ(٣).

واعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن حالَ اليهودِ والكفار في العداوةِ والمعاندة، حذَّر المؤمنين منهم، فقال: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فنفىٰ عن قلوبِهم الوُدَّ والمحبة لكلِّ ما يَظهرُ به فضلُ المؤمنين(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٨٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ١٤١).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٦٥٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٣/ ٦٣٦).

﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

ولمَّا حرَّم سبحانه قولَه: ﴿رَٰعِنَا﴾ بعد حِلِّه، وكان ذلك مِن بابِ النَّسْخِ، وأنهىٰ ما يتعلقُ به بالوصفِ بالفضل العظيم بعد التخصيصِ الذي مِن مقتضاه نقلُ ما يكون مِن المنافعِ مِن مُلْكٍ أو دِينٍ أو قوة أو علم مِن ناسٍ إلىٰ ناس، وكان اليهودُ يَرون أنَّ دِينَهم لا يُنسَخُ؛ فكان النَّسْخُ لذلك مِن مطاعنِهم في هذا الدِّين، وفي كونِ هذا الكتابِ هدًىٰ للمتقين؛ لأنَّه علىٰ زعمِهم لا يجوز علىٰ اللهِ ... فلمَّا كان ذلك، قال تعالىٰ جوابًا عن طعنِهم سابقًا له في مظهرِ العظمةِ، مُعلِمًا أنَّه قد ألبَسَ العربَ المحسودين ما كان قد زيَّن به أهلَ الكتاب دهورًا، فابتذَلوه، ودنَّسوا مُحيَّاه، ورذَّلوه، وغيَّروه، وبدَّلوه، إشارةً إلىٰ أنَّ الحسدَ لكونِه اعتراضًا علىٰ المنعِمِ يكون سببًا لإلباسِ المحسودِ ثوبَ الحاسد: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

مناسبةُ هذه الآيةِ للآيات قبلها: أنَّ اليهودَ اعتذَروا عن إعراضِهم عن الإيمانِ بالنبي ﷺ بقولِهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، وأرادوا به أنَّهم يكفُرون بغيرِه، وهم في عُذْرِهم ذلك يدَّعون أنَّ شريعتَهم لا تُنسَخ، ويقولون: إنَّ محمَّدًا وصَف التَّوراةَ بأنَّها حقٌّ، وأنَّه جاء مصدِّقًا لها، فكيف يكون شرعُه مبطِلًا للتوراة؟! ويموِّهون علىٰ الناسِ بما سمَّوْه البَداءَ؛ وهو لزومُ أن يكونَ اللهُ تعالىٰ غيرَ عالِمٍ بما يحسُنُ تشريعُه، وأنَّه يبدو له الأمرُ ثم يُعرِضُ عنه، ويبدِّلُ شريعةً بشريعة، فأراد نَقْضَ تلك السَّفْسطةِ أو الشُّبهة التي رامُوا ترويجَها علىٰ الناس بمنعِ النَّسخ، والمقصدُ الأصليُّ مِن هذا

(١) نظم الدرر (٢/ ٩٠-٩٢).

هو تعليمُ المسلمين أصلًا مِن أصولِ الشرائع، وهو أصلُ النَّسخ الذي يطرأ على شريعةٍ بشريعة بعدها، ويطرأ على بعضِ أحكامِ شريعة بأحكامٍ تُبطِلُها مِن تلك الشريعةِ، ولكونِ هذا هو المقصدَ الأصليَّ، عدَل عن مخاطبةِ اليهودِ بالردِّ عليهم، ووجَّه الخطابَ إلى المسلمين، وفي هذا إعراضٌ عن مخاطبةِ اليهود؛ لأنَّ تعليمَ المسلمين أهَمُّ؛ وذلك يستتبعُ الردَّ على اليهودِ بطريقِ المساواة؛ لأنَّه إذا ظهَرتْ حِكْمُة تغييرِ بعضِ الأحكام لمصلحةٍ، تَظهَرُ حكمةُ تغييرِ بعضِ الشرائع[1].

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ الثاني مِن طعنِ اليهودِ في الإسلام، فقالوا: ألَا تَرون إلى محمَّدٍ يأمر أصحابَه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه، ويأمرُهم بخلافِه، ويقولُ اليومَ قولًا وغدًا يَرجِعُ عنه؟![2].

كلامٌ مستأنَف، مسُوقٌ لبيانِ سرِّ النَّسخ، الذي هو فردٌ مِن أفرادِ تنزيل الوحي، وإبطالِ مقالةِ الطاعنين فيه إثرَ تحقيقِ حقيقةِ الوحيِ، وردِّ كلامِ الكارهين له رأسًا[3].

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

ثم أتبَع ذلك بما هو كالدليلِ على شمولِ القدرة، فقال: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦٥٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٣/ ٦٣٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ١٤٢).

(٤) نظم الدرر (٢/ ٩٩).

مسُوقٌ لبيانِ حِكْمةِ النَّسخ والإتيانِ بالخيرِ والمِثْلِ بيانًا غيرَ مفصَّلٍ علىٰ طريقةِ الأسلوب الحكيم؛ وذلك أنَّه بعد أن فرَغ مِن التنبيهِ علىٰ أنَّ النَّسْخَ الذي استبعَدوه وتذرَّعوا به لتكذيبِ الرسول هو غيرُ مفارِقٍ لتعويضِ المنسوخ بخيرٍ منه أو مثلِه، أو تعزيزِ المُبقَّىٰ بمثلِه؛ أريدَ أن ينتقِلَ مِن ذلك إلىٰ كشفِ ما بَقِيَ مِن الشُّبهةِ؛ وهي أن يقولَ المنكِرُ: وما هي الفائدةُ في النَّسْخِ حتىٰ يُحتاجَ للتعويض؟ وكان مقتضىٰ الظاهرِ أن يتصدىٰ لبيانِ اختلافِ المصالح، ومناسبتِها للأحوال والأعصار، ولبيانِ تفاصيلِ الخيريَّةِ والمِثْليَّةِ في كلِّ ناسخٍ ومنسوخ، ولما كان التصدي لذلك أمرًا لم تتهيَّأْ له عقولُ السامعين لعُسْرِ إدراكِهم مراتبَ المصالحِ وتفاوتَها؛ لأنَّ ذلك ممَّا يَحتاجُ إلىٰ تأصيلِ قواعدَ مِن أصولٍ شرعية وسياسية: عدَل بهم عن بيانِ ذلك، وأُجمِلتْ لهم المصلحةُ بالحَوَالةِ علىٰ قدرةِ الله تعالىٰ التي لا يَشِذُّ عنها ممكِنٌ مرادٌ(١).

اعلَمْ أنَّه ﷻ لمَّا حكَم بجوازِ النَّسْخِ، عقَّبه ببيانِ أنَّ مُلْكَ السماواتِ والأرض له، لا لغيرِه، وهذا هو التنبيهُ علىٰ أنَّه ﷻ إنَّما حسُنَ منه الأمرُ والنهيُ؛ لكونِه مالكًا للخَلْق(٢).

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

ولمَّا رسَخ ما ذكَره سبحانه مِن تمامِ قُدْرتِه، وعظيمِ مملكتِه، وما أظهَرَ لذاتِه المقدَّس مِن العِظَمِ بتكريرِ اسمه العلَمِ، وإثباتِ أنَّ ما سِواه عَدَمٌ، فتأهَّلت القلوبُ للوعظِ؛ صدَعها بالتأديبِ بالإنكارِ الشديد، فقال: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦٦٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٣/ ٦٤٣).

(٣) نظم الدرر (٢/ ١٠١).

﴿ أَمَ ﴾ حرفُ عطفٍ مختصٌّ بالاستفهامِ، وما في معناه؛ وهو التسويةُ، فإذا عطَفتَ أحدَ مفرَدَينِ مستفهِمًا عن تعيينِ أحدهما استفهامًا حقيقيًّا، أو مُسوًّىٰ بينهما في احتمالِ الحصول؛ فهي بمعنىٰ «أو» العاطفةِ، ويسمِّيها النُّحاةُ متصلةً، وإذا وقَعتْ عاطفةً جملةً دلَّتْ علىٰ انتقالٍ مِن الكلامِ السابق إلىٰ استفهامٍ، فتكونُ بمعنىٰ «بل» الانتقاليةِ، ويسمِّيها النُّحاةُ منقطِعةً، والاستفهامُ ملازِمٌ لِما بعدها في الحالينِ. وهي هنا منقطِعةٌ لا محالةَ؛ لأنَّ الاستفهامينِ اللذين قبلها في معنىٰ الخبرِ؛ لأنَّهما للتقريرِ كما تقدَّم، إلا أنَّ وقوعَهما في صورةِ الاستفهام -ولو للتقريرِ- يحسن موقع «أم» بعدها؛ كما هو الغالب، والاستفهامُ الذي بعدهما هنا إنكارٌ وتحذير، والمناسبةُ في هذا الانتقالِ تامةٌ؛ فإنَّ التقريرَ الذي قبلها مرادٌ منه التحذيرُ مِن الغلَطِ، وأن يكونوا كمَن لا يَعلَم، والاستفهامُ الذي بعدها مرادٌ منه التحذيرُ كذلك، والمحذَّرُ منه في الجميعِ مشترِكٌ في كونِه مِن أحوالِ اليهود المذمومة، ولا يصحُّ كونُ «أم» هنا متصِلةً؛ لأنَّ الاستفهامينِ اللذين قبلها ليسا علىٰ حقيقتِهما لا محالةَ كما تقدَّم[1].

في اتصالِ هذه الآيةِ بما قبلها وجوه: أحدها: أنَّه تعالىٰ لمَّا حكَم بجواز النَّسْخِ في الشرائع، فلعلَّهم كانوا يطالبونه بتفاصيلِ ذلك الحُكْمِ، فمنَعهم اللهُ تعالىٰ عنها، وبيَّن أنَّهم ليس لهم أن يشتغلوا بهذه الأسئلةِ؛ كما أنَّه ما كان لقومِ موسىٰ أن يذكُروا أسئلتَهم الفاسدة. وثانيها: لمَّا تقدَّم مِن الأوامرِ والنواهي، قال لهم: إن لم تَقبَلوا ما أمرتُكم به، وتمرَّدتم عن الطاعةِ؛ كنتم كمَنْ سأل موسىٰ ما ليس له أن يَسألَه. وثالثها: لمَّا أمَر ونهىٰ، قال: أتفعلون ما أمَرْتم، أم تفعلون كما فعَل مَن قَبْلكم مِن قومِ موسىٰ؟[2].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦٦٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٣/ ٦٤٣).

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾

ولمَّا كان أكثرُ المُثيرين لهذه الشكوكِ في صُوَرِ أهلِ الإسلام، قال تعالىٰ مخاطبًا للمؤمنين، وهم في غمارِهم -تنفيرًا لهم عن الضَّلالِ الذي هو في نفسِه أهلٌ لأن يُنفرَ عنه، فكيف وهو شماتةُ العدوِّ وبتخييلِه ووَدادتِه- تحذيرًا لهم مِن مخالطتِهم: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١).

مناسبتُه لِما قبله: أنَّ ما تقدَّم إخبارٌ عن حسَدِ أهلِ الكتاب، وخاصةً اليهودَ منهم، وآخِرتُها شُبْهةُ النَّسْخ؛ فجِيءَ في هذه الآيةِ بتصريحٍ بمفهوم قولِه: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الآيةَ؛ لأنَّهم إذا لم يَودُّوا مجيءَ هذا الدِّين الذي اتبعه المسلمون، فهم يَودُّون بقاءَ مَن أسلَمَ علىٰ كفرِه، ويودون أن يَرجِعَ بعد إسلامه إلىٰ الكفرِ، وقد استطرَد بَيْنَه وبين الآيةِ السابقة بقولِه: ﴿مَا نَنسَخْ ﴾ الآياتِ؛ للوجوهِ المتقدِّمة؛ فلأجلِ ذلك فُصِلتْ هاته الجملةُ لكونها مِن الجملةِ التي قبلها بمنزلةِ البيان؛ إذ هي بيانٌ لمنطوقِها ولمفهومها(٢).

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

ولمَّا أمَرهم بالثقةِ بهذا الكتابِ، ما نُسِخَ منه وما لم يُنسَخْ، وألا يعُوقَهم عنه طعنُ الطاعنين ولا حسَدُ الحاسدين، وأمَرهم بالإعراضِ عن الغيرِ؛ أمَرهم بالإقبالِ علىٰ

(١) نظم الدرر (٢/ ١٠٤).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٦٩).

إصلاح النفس، والإحسانِ إلىٰ الغير، ممَّا اتصَف به المهتدون، ولمَّا كان المقصودُ مِن الصلاة قَصْرَ الهمَّةِ والنية علىٰ الوقوف بَيْنَ يدَيِ الله، وتفريغِ البال مِن جميعِ الشواغل؛ عُلِم أنَّ التقديرَ بعد الختمِ بشمول القدرة: فاعلَموا ذلك، وثِقُوا به، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ أمَر بالعفوِ والصَّفح عن اليهود، ثم عقَّبه بقولِه تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ تنبيهًا علىٰ أنَّه كما ألزَمهم لِحَظِّ الغيرِ وصلاحِه العفوَ والصَّفح، فكذلك ألزَمهم لحظِّ أنفسِهم وصلاحِها القيامَ بالصلاة والزكاة الواجبتينِ، ونبَّه بهما علىٰ ما عداهما مِن الواجبات(٢).

لمَّا أمَر بالعفوِ والصَّفح، أمَر بالمواظبةِ علىٰ عمودَيِ الإسلام: العبادةِ البدَنية، والعبادةِ المالية؛ إذ الصلاةُ فيها مناجاةُ الله تعالىٰ، والتلذذُ بالوقوفِ بَيْنَ يديه، والزكاةُ فيها الإحسانُ إلىٰ الخَلْقِ بالإيثارِ علىٰ النفس؛ فأُمِروا بالوقوف بَيْنَ يدَيِ الحق، وبالإحسانِ إلىٰ الخَلْق(٣).

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾

ولمَّا ذكَر دَعْواهم في مسِّ النار، وأبطَلها مِن وجوهٍ كثيرة، أحاطت بهم فيها الخطايا إحاطةً اقتضت خلودَهم فيها مِن جهةِ ضَلالهم إلىٰ آيةِ النَّسْخِ، مُرقِّيًا الخطابَ

(١) نظم الدرر (٢/ ١٠٧-١٠٨).
(٢) مفاتيح الغيب (٤/ ٥).
(٣) البحر المحيط (١/ ٥٥٩).

مِن سيئةٍ إلىٰ أسوأَ منها، ثم مِن جهةِ إضلالهم لغيرهم مِن آيةِ النَّسْخِ؛ عطَف علىٰ تلك الدعوىٰ الإخبارَ بدَعْواهم في دخولِ الجنَّة تصريحًا بما أفهمته الدعوىٰ الأولىٰ تلويحًا، وقرَن بذلك مثلَ ما ختَم به ما قبلها مِن أنَّ مَن فعَل خيرًا، وجَد علىٰ وجهٍ بَيِّنٍ فيه أنَّ ذلك الخيرَ الإسلامُ والإحسان، فقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ الرابع مِن تخليطِ اليهود، وإلقاء الشُّبَه في قلوبِ المسلمين، واعلَمْ أنَّ اليهودَ لا تقولُ في النصارىٰ: إنَّها تدخُلُ الجنَّة، ولا النصارىٰ في اليهودِ؛ فلا بد مِن تفصيلٍ في الكلام، فكأنَّه قال: وقالت اليهودُ: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلا مَن كان هودًا، وقالت النصارىٰ: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلا مَن كان نصارىٰ، ولا يصحُّ في الكلامِ سِواه، مع علمِنا بأنَّ كلَّ واحدٍ مِن الفريقينِ يكفِّرُ الآخَرَ[2].

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

ولمَّا نادىٰ عليهم بالكذبِ في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، أثبَتَ لغيرِهم بقولِه: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (٢/ ١١٠-١١١).

(٢) مفاتيح الغيب (٤/ ٥).

(٣) نظم الدرر (٢/ ١١٣).

فيه وجوهٌ: الأول: أنَّه إثباتٌ لِما نفَوْهُ مِن دخولِ غيرِهم الجنَّةَ. الثاني: أنَّه تعالىٰ لمَّا نفىٰ أن يكونَ لهم برهانٌ، أثبَتَ أنَّ لِمَن أسلَم وجهَه للهِ برهانًا. الثالث: كأنَّه قيل لهم: أنتم علىٰ ما أنتم عليه لا تفوزون بالجنَّة، بلىٰ، إن غيَّرتم طريقتكم، وأسلمتم وجهَكم للهِ، وأحسَنتم؛ فلكم الجنَّةُ، فيكون ذلك ترغيبًا لهم في الإسلامِ، وبيانًا لمفارقةِ حالِهم لحالِ مَن يدخُلُ الجنَّةَ؛ لكي يُقلِعوا عمَّا هم عليه، ويَعدِلوا إلىٰ هذه الطريقة[١].

ثم ذكَر تعالىٰ البرهانَ الجليَّ العام لكلِّ أحدٍ، فقال: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٢].

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

ولمَّا أبطَل دعوىٰ اختصاصِهم بالرحمة قَدْحًا منهم في غيرِهم، وأثبَتَها للمحسنين؛ أتبَع ذلك قَدْحَ كلِّ فريقٍ منهم في الآخَر، وبيانَ انتفائها عنهم بإساءتهم بإبطالِ كلِّ فِرْقةٍ منهم دعوىٰ الأخرىٰ مع ما يشهدُ به كتابُ كلٍّ مِن بطلانِ قوله، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[٣].

---

(١) مفاتيح الغيب (٤/ ٦).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٦٣).

(٣) نظم الدرر (٢/ ١١٤-١١٥).

معطوفٌ علىٰ قوله: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾؛ لزيادةِ بيانِ أنَّ المجازفةَ دأبُهم، وأنَّ رَمْيَ المخالِفِ لهم بأنَّه ضالٌّ شِنْشِنةٌ[١] قديمة فيهم؛ فهم يرمُون المخالفين بالضَّلال لمجردِ المخالفة؛ فقديمًا ما رمَتِ اليهودُ النصارىٰ بالضَّلال، ورمَتِ النصارىٰ اليهودَ بمثله؛ فلا تَعجَبوا مِن حُكْمِ كلِّ فريقٍ منهم بأنَّ المسلمين لا يدخلون الجنَّةَ، وفي ذلك إنحاءٌ علىٰ أهلِ الكتابِ، وتطمينٌ لخواطرِ المسلمين، ودفعُ الشُّبهة عن المشركين بأنَّهم يَتخذون مِن طعنِ أهلِ الكتاب في الإسلام حجَّةً لأنفسِهم علىٰ مناوأته، وثباتًا علىٰ شِرْكِهم[٢].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا جمَعهم في الخبرِ الأول، فصَلهم في هذه الآيةِ، وبيَّن قولَ كلِّ فريقٍ منهم في الآخَرِ، وكيف يُنكِرُ كلُّ طائفةٍ دِينَ الأخرىٰ[٣].

بيانٌ لتضليل كلِّ فريقٍ صاحبَه بخصوصه، إثرَ بيانِ تضليلِه كلَّ مَن عداه علىٰ وجه العموم[٤].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

ولمَّا اشتركت جميعُ هذه الفِرَقِ في الظُّلم، وزاد الجهلةُ مَنْعَ حزبِ الله مِن عمارةِ المسجد الحرام بما يُرضيه مِن القولِ والفعل، فازدادوا بذلك ظلمًا آخرَ، وكان مَن

---

(١) أي: عادة.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٧٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ٩).

(٤) إرشاد العقل السليم (١/ ١٤٨).

منَع مسجدًا واحدًا -لكونه مسجدًا- مانعًا لجميعِ المساجد؛ قال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[١].

عطفٌ على ما سبَق ذلك مِن الآياتِ الدالة على أفانينِ أهل الكتاب في الجَراءة، وسُوءِ المقالة؛ أي: إنَّ قولَهم هذا وما تقدَّمه ظلمٌ ولا كظُلْمِ مَن منَع مساجدَ الله! وهذا استطرادٌ واقع معترِضًا بَيْنَ ذِكْرِ أحوالِ اليهود والنصارى، بذكرِ مساوئِ المشركين في سُوءِ تَلَقِّيهم دعوةَ الإسلام الذي جاء لهَدْيِهم ونجاتهم[٢].

في كيفيَّةِ اتصال هذه الآيةِ بما قبلها وجوهٌ: فأمَّا مَن حمَلها على النصارى وخرابِ بيت المقدس، قال: تتصلُ بما قبلها مِن حيث إنَّ النصارى ادَّعَوْا أنَّهم مِن أهلِ الجنَّةِ فقط، فقيل لهم: كيف تكونون كذلك مع أنَّ معاملتكم في تخريبِ المساجد والسعي في خرابِها هكذا؟ وأمَّا مَن حمَله على المسجدِ الحرام وسائرِ المساجد، قال: جرى ذِكْرُ مشركي العربِ في قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾، وقيل: جرى ذِكْرُ جميعِ الكفار وذَمُّهم؛ فمرَّةً وجَّه الذمَّ إلى اليهودِ والنصارى، ومرةً إلى المشركين[٣].

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

ولمَّا أفهَمتِ الآيةُ السابقة أنَّه حصَل لأولياءِ الله منعٌ مِن عمارةِ بيتِ الله بذكرِه، وكان اللهُ تعالى قد مَنَّ على هذه الأمَّةِ بأن جعَل الأرضَ كلَّها لها مسجدًا؛ سلَّى المؤمنين بأنَّهم أينما صلَّوْا بقصدِ عبادتِه، لَقِيَهم ثوابُه؛ لأنَّه لا يختصُّ به جهةٌ دُونَ

(١) نظم الدرر (٢/ ١١٨).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٧٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ١٠).

جهة؛ لأنَّ مِلْكَه للكلِّ علىٰ حدٍّ سواءٍ، فكان كأنَّه قيل: فأقيموا الصلاةَ التي هي أعظَمُ ذِكْرِ الله حيثما كنتم؛ فإنَّه للهِ، كما أنَّ المسجدَ الذي مُنِعتُموه لله، وعطَف عليه قولَه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١).

لمَّا جاء بوعيدِهم ووعدِ المؤمنين، عطَف علىٰ ذلك تسليةَ المؤمنين علىٰ خروجِهم مِن مكَّةَ، ونكايةِ المشركين بفَسْخِ ابتهاجِهم بخروج المؤمنين منها، وانفرادِهم هم بمزيَّةِ جوارِ الكعبة؛ فبيَّن أنَّ الأرضَ كلَّها لله تعالىٰ، وأنَّها ما تفاضَلتْ جهاتُها إلا بكونِها مظنَّةً للتقرب إليه تعالىٰ، وتذكُّرِ نِعَمِه وآياته العظيمة، فإذا كانت وجهةُ الإنسان نحوَ مرضاةِ الله تعالىٰ، فأينما تولَّىٰ، فقد صادَف رضا اللهِ تعالىٰ، وإذا كانت وجهتُه الكفرَ والغُرور والظُّلم، فما يُغنِي عنه العِياذُ بالمواضعِ المقدسة، بل هو فيها دخيلٌ لا يَلبَثُ أن يُقلَعَ منها (٢).

أنَّه لمَّا ذكَر مَنْعَ المساجدِ مِن ذِكْرِ الله، والسعيَ في تخريبِها؛ نبَّه علىٰ أنَّ ذلك لا يمنعُ مِن أداءِ الصلوات، ولا مِن ذكرِ الله؛ إذ المشرقُ والمغرب لله تعالىٰ، فأيُّ جهةٍ أدَّيتم فيها العبادةَ، فهي للهِ، يُثِيبُ علىٰ ذلك، ولا يختص مكانُ التأديةِ بالمسجد (٣).

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾

ولمَّا أفاد ما تقدَّم وَصْفَه تعالىٰ بتمامِ القدرة، واتساعِ المُلْكِ والفضل، وشمولِ العلم؛ كان مِن المُحالِ افتقارُه إلىٰ شيءٍ مِن ولدٍ أو غيره، قدَّم أهل الأديان الباطلة

---

(١) نظم الدرر (٢/ ١٢١).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٨٢).

(٣) البحر المحيط (١/ ٥٧٦، ٥٧٧).

كلهم بافترائهم في الولدِ: اليهود في عُزَيرٍ، والنصارىٰ في المسيحِ، وعبدة الأوثانِ في الملائكة، فقال معجِّبًا ممَّن اجترأ علىٰ نسبةِ ذلك إليه مع معرفةِ ما تقدَّم -عاطفًا علىٰ ما سبَق مِن دعاويهم-: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾(١).

الضميرُ المرفوع بـ(قالوا) عائدٌ إلىٰ جميعِ الفِرَق الثلاث؛ وهي: اليهودُ، والنصارىٰ، والذين لا يعلمون؛ إشارةً إلىٰ ضلالٍ آخرَ اتفَق فيه الفِرَقُ الثلاث، وقد اجتمَع علىٰ هذه الضَّلالةِ الفِرَقُ الثلاث كما اتفَقوا علىٰ ما قبلها؛ فقالت اليهودُ: عُزَيرٌ ابنُ الله، وقالت النصارىٰ: المسيحُ ابنُ الله، وقال المشركون: الملائكةُ بناتُ الله(٢).

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ العاشر مِن مَقابِحِ أفعالِ اليهود، والنصارىٰ، والمشركين(٣).

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾

ثم علَّل ذلك بما هو أعظَمُ منه، فقال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٤).

اعلَمْ أنَّ هذا مِن تمامِ الكلام الأول؛ لأنَّه تعالىٰ قال: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فبيَّن بذلك كونَه مالكًا لِما في السماواتِ والأرض، ثم بيَّن بعده أنَّه المالكُ أيضًا للسماوات والأرض(٥).

---

(١) نظم الدرر (٢/ ١٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٨٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ٢٢).

(٤) نظم الدرر (٢/ ١٢٨).

(٥) يُنظر: مفاتيح الغيب (٤/ ٢٤).

لمَّا ذكَر أنَّه مالكٌ لجميعِ مَن في السماوات والأرض، وأنَّهم كلَّهم قانتون له، وهُمُ المظروفُ للسماواتِ والأرض؛ ذكَر الظَّرْفَينِ، وخصَّهما بالبَدَاعةِ[1]؛ لأنَّهما أعظَمُ ما نشاهده مِن المخلوقاتِ[2].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾

ولمَّا تقرَّر بما أنبأ مِن بديعِ آياته في مُنبَثِّ مصنوعاتِه أنَّ عظَمتَهُ تقصُرُ عنها الأوهام، وتَنكِصُ خاسئةً دُونَها نوافذُ الأفهام؛ عجَّب مِن الجرأةِ عليه بما استوىٰ فيه حالُ الجهلةِ مِن العرب بالعلماء مِن أهل الكتاب؛ تبكيتًا لهم، وتنفيرًا منهم بأنَّه لا حاملَ لهم علىٰ الرضا لأنفسِهم بالنزول مِن أَوْجِ العلمِ إلىٰ حضيضِ أهل الجهل إلا اتِّباعُ الهوىٰ، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[3].

عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾، المعطوفِ علىٰ قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾؛ لمناسبةِ اشتراكِ المشركين واليهود والنصارىٰ في الأقوالِ والعقائد الضالة، إلا أنَّه قدَّم قولَ أهلِ الكتاب في الآيةِ الماضية؛ وهي: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ﴾؛ لأنَّهم الذين ابتدَؤوا بذلك أيامَ مجادَلتِهم في تفاضُلِ أديانهم،

---

(١) أي: كون الشيء بديعًا.

(٢) البحر المحيط (١/ ٥٨٢).

(٣) نظم الدرر (٢/ ١٣٤).

ويومئذٍ لم يكُنْ للمشركين ما يوجِبُ الاشتغالَ بذلك إلىٰ أن جاء الإسلامُ، فقالوا مثلَ قولِ أهل الكتاب[(١)].

أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا حكىٰ عن اليهودِ والنصارىٰ والمشركين ما يَقدَحُ في التوحيدِ، وهو أنَّه تعالىٰ اتخَذ الولدَ؛ حكىٰ الآن عنهم ما يقدحُ في النبوَّة[(٢)].

حكايةٌ لنوعٍ آخرَ مِن قبائحِهم؛ وهو قَدْحُهم في أمرِ النبوَّة بعد حكايةِ قدحِهم في شأنِ التوحيد بنسبة الولدِ إليه ﷻ[(٣)].

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ (١١٩) ﴾

ولمَّا تضمَّن هذا السياقُ الشَّهادةَ بصحَّةِ رسالته ﷺ، وأنَّه ليس عليه إلا البيانُ؛ صرَّح بالأمرينِ في قولِه مؤكدًا لكثرةِ المنكِرين: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[(٤)].

جملةٌ معترضة بَيْنَ حكاياتِ أحوالِ المشركين وأهلِ الكتاب؛ القصدُ منها تأنيسُ الرسول ﷺ مِن أسَفِهِ علىٰ ما لَقِيَه مِن أهلِ الكتاب ممَّا يماثِلُ ما لَقِيه مِن المشركين، وقد كان يَوَدُّ أن يؤمنَ به أهلُ الكتاب، فيتأيَّدَ بهم الإسلامُ علىٰ المشركين، فإذا هو يَلقَىٰ منهم ما لَقِيَ مِن المشركين، أو أشَدَّ، وقد قال: ((لو آمَن بي عشَرةٌ مِن اليهودِ، لآمَن بي اليهودُ كلُّهم))[(٥)]، فكان لتذكيرِ الله إيَّاه بأنَّه أرسَله تهدئةٌ لخاطرِه الشريف،

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦٨٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٤/ ٢٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ١٥١).

(٤) نظم الدرر (٢/ ١٣٦).

(٥) أخرجه البخاري (٣٩٤١)، ومسلم (٢٧٩٣).

وعُذْرٌ له إذ أبلَغ الرسالةَ، وتطمينٌ لنفسِه بأنَّه غيرُ مسؤولٍ عن قومٍ رَضُوا لأنفسهم بالجحيم، وفيه تمهيدٌ للتأييس مِن إيمانِ اليهود والنصارىٰ[(١)].

أنَّه لمَّا ذكَر أنَّه بيَّن الآياتِ، ذكَر مَن بُيِّنتْ علىٰ يديه، فأقبَل عليه وخاطَبه ﷺ؛ ليَعلَمَ أنَّه هو صاحبُ الآيات[(٢)].

اعلَمْ أنَّ القومَ لمَّا أصَرُّوا علىٰ العنادِ واللَّجاج الباطل، واقترَحوا المعجزاتِ علىٰ سبيل التعنُّتِ؛ بيَّن اللهُ تعالىٰ لرسوله ﷺ أنَّه لا مزيدَ علىٰ ما فعَله في مصالحِ دِينِهم مِن إظهارِ الأدلة، وكما بيَّن ذلك، بيَّن أنَّه لا مزيدَ علىٰ ما فعَله الرسولُ في باب الإبلاغِ والتنبيه؛ لكيلا يكثُرَ غَمُّه بسببِ إصرارِهم علىٰ كفرهم[(٣)].

ثم ذكَر تعالىٰ بعضَ آيةٍ موجَزة مختصَرة جامعة للآياتِ الدالة علىٰ صدقِه ﷺ، وصحَّةِ ما جاء به، فقال: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾؛ فهذا مشتمِلٌ علىٰ الآياتِ التي جاء بها، وهي ترجعُ إلىٰ ثلاثةِ أمور: الأول: في نفسِ إرساله. والثاني: في سيرتِه، وهَدْيِه، ودَلِّه[(٤)]. والثالث: في معرفةِ ما جاء به مِن القرآن والسُّنة[(٥)].

﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠﴾

ولمَّا جرَتِ العادةُ بأنَّ المبشَّرَ يُسَرُّ بالبشير، أخبَر تعالىٰ أنَّ أهلَ الكتاب في قسمِ

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦٩١).

(٢) البحر المحيط (١/ ٥٨٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ٢٨).

(٤) أي: السكينة في الهيئة والمنظر.

(٥) تفسير السعدي (ص: ٦٤).

المنذَرين؛ فهم لا يزالون عليه غِضابًا، فقال عطفًا على ما اقتضاه ما قبله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[1].

عطفٌ على قوله: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾، أو على ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾، وقد جاء هذا الكلامُ المؤيسُ مِن إيمانهم بعد أن قدَّم قَبْلَه التأنيسَ والتسلية على نحوِ مجيءِ العتاب بعد تقديم العفوِ؛ وهذا مِن كرامةِ الله تعالى لنبيِّه ﷺ[2].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا صبَّر رسولَه ﷺ بما تقدَّم مِن الآيةِ، وبيَّن أنَّ العلةَ قد انزاحت مِن قِبَلِه، لا مِن قِبَلِهم، وأنَّه لا عُذْرَ لهم في الثباتِ على التكذيب به؛ عقَّب ذلك بأنَّ القومَ بلَغ حالُهم في تشدُّدِهم في باطلِهم وثباتِهم على كفرهم أنَّهم يريدون مع ذلك أن يتَّبِعَ ملَّتَهم، ولا يَرضَون منه بالكتابِ، بل يريدون منه الموافقةَ لهم فيما هم عليه، فبيَّن بذلك شِدَّةَ عداوتِهم للرسول ﷺ، وشرَح ما يوجِبُ اليأسَ مِن موافقتهم[3].

نفى اللهُ رضاهم عنه إلا بمتابَعةِ دِينِهم؛ وذلك بيانُ أنَّهم أصحابُ الجحيمِ الذين هم أصحابُها، لا يُطمَعُ في إسلامِهم[4].

بيانٌ لكمالِ شدةِ شكيمةِ هاتين الطائفتين خاصةً إثرَ بيانِ ما يعُمُّهما والمشركين مِن الإصرارِ على ما هم عليه إلى الموت[5].

---

(١) نظم الدرر (٢/ ١٣٩).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٩٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ٢٩).

(٤) البحر المحيط (١/ ٥٩٠).

(٥) إرشاد العقل السليم (١/ ١٥٢).

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١ ﴾

ولمَّا أفصَح بمَن يستحِقُّ النِّذارةَ منهم بتغييرِ الدِّين بأهوائهم، فأفهَمَ مَن يستحِقُّ البشارةَ؛ تلاه بالإفصاحِ بالقِسمَينِ: مَن يستحق البشارةَ منهم، ومَن يستحق النِّذارةَ، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾[1].

استئنافٌ ناشئ عن قوله: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ مع قوله: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ ؛ لتضمُّنِه أنَّ اليهودَ والنصارىٰ ليسوا يومئذٍ علىٰ شيء مِن الهدىٰ، كأنَّ سائلًا سأل: كيف وهم متمسِّكون بشريعةٍ؟ ومَن الذي هو علىٰ هدًىٰ ممَّن اتَّبَع هاتين الشريعتينِ؟ فأجيبَ بأنَّ الذين أوتوا الكتابَ وتلَوْهُ حقَّ تلاوته هم الذين يؤمنون به[2].

اعتراضٌ لبيانِ حال مؤمني أهلِ الكتاب بعد ذِكْرِ أحوالِ كفرَتِهم، ولم يُعطَفْ تنبيهًا علىٰ كمالِ التبايُنِ بَيْنَ الفريقينِ[3].

لمَّا ذكَر تعالىٰ -فيما تقدَّم- عدمَ رضاءِ اليهود والنصارىٰ إلا باتِّباعِ مِلَّتِهم، لدَعْواهم أنَّهم علىٰ حقٍّ، وأنَّهم مؤمنون بما لديهم؛ فنَّدَ تعالىٰ دَعْواهم الإيمانَ به بأنَّ مَن أوتيَ الكتابَ فتلاه حقَّ تلاوتِه فذاك المؤمنُ به[4].

---

(١) نظم الدرر (٢/ ١٤٣).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٩٦).

(٣) روح المعاني (١/ ٣٧٠).

(٤) محاسن التأويل (١/ ٣٨٧-٣٨٨).

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾

ولمَّا طال المدىٰ في استقصاءِ تذكيرِهم بالنِّعَم، ثم في بيانِ عَوارِهم وهَتْكِ أستارِهم، وختَم ذلك بالترهيبِ بخَسارِهم، لتضييعِ أديانِهم بأعمالِهم وأحوالهم وأقوالهم؛ أعاد ما صدَّر به قِصَّتَهم مِن التذكير بالنِّعم، والتحذيرِ مِن حلول النِّقَم، يومَ يُجمَعُ الأُمَم، ويدومُ فيه النَّدم، لِمَن زلَّتْ به القَدَم؛ ليُعلَمَ أنَّ ذلك فَذْلكةُ القصَّة، والمقصودُ بالذاتِ في الحثِّ علىٰ انتهازِ الفرصة في التَّفصِّي[1] عن حرمةِ النقص إلىٰ لذَّةِ الرِّبحِ بدوام الشُّكر[2].

كُرِّرتِ الآيةُ هاهنا للتأكيدِ والحثِّ علىٰ اتِّباع الرسول النبيِّ الأمِّي الذي يجدون صفتَهُ في كتبِهم، ونَعْتَه واسمَه، وأمرَه وأمَّتَه، يحذِّرُهم مِن كتمانِ هذا، وكتمانِ ما أنعَم به عليهم، وأمَرهم أن يذكُروا نعمةَ الله عليهم؛ مِن النِّعَمِ الدنيوية والدِّينية[3].

أعيدَ نداءُ بني إسرائيلَ نداءَ التنبيهِ والإنذار والتذكير علىٰ طريقةِ التكرير في الغرضِ الذي سِيقَ الكلامُ الماضي لأجلِه[4].

اعلَمْ أنَّه ﷻ لمَّا استقصىٰ في شرحِ وجوه نِعَمِه علىٰ بني إسرائيلَ، ثم في شرحِ قبائحهم في أديانِهم وأعمالِهم، وختَم هذا الفصلَ بما بدأ به، وهو قولُه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾؛ شرَع سبحانه هاهنا في نوعٍ آخرَ مِن البيانِ؛ وهو أن ذكَر قصَّةَ إبراهيمَ عليه السلام، وكيفيَّةَ أحواله، والحِكْمةُ فيه أنَّ إبراهيمَ عليه السلام

(١) أي: التخلص.

(٢) نظم الدرر (٢/ ١٤٤-١٤٥).

(٣) يُنظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٥).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٦٩٧).

شخصٌ يعترفُ بفضله جميعُ الطوائف والمِلَل؛ فالمشركون كانوا معترِفين بفضله، متشرِّفين بأنَّهم مِن أولادِه، ومِن ساكني حَرَمِه، وخادمي بيته[(١)].

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

لمَّا ذكَّرهم اللهُ تعالىٰ بنِعَمِه، عطَف علىٰ ذلك التحذيرَ مِن حلولِ نِقَمه بهم يومَ القيامة[(٢)].

﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

ولمَّا عابَ سبحانه أهلَ الضَّلال، وكان جُلُّهم مِن ذريةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجميعُ طوائفِ المِلَل تعظِّمُه، ومنهم العربُ، وبيتُه الذي بناه أكبرُ مفاخرِهم، وأعظَمُ مآثرِهم؛ ذكَّر الجميعَ ما أنعَم به عليه تذكيرًا يؤدي إلىٰ ثبوتِ هذا الدِّين باطِّلاعِ هذا النبيِّ الأُمِّي الذي لم يخالِطْ عالِمًا قط علىٰ ما لا يَعلَمه إلا خواصُّ العلماء، وذكَر البيتَ الذي بناه، فجعَله اللهُ عمادَ صلاحهم، وأمَر بأن يُتَّخذَ بعضُ ما هناك مُصلًّىٰ؛ تعظيمًا لأمره، وتفخيمًا لعَلِيِّ قَدْرِه، وفي التذكيرِ بوفائه بعد ذِكْرِ الذين وفَّوْا بحقِّ التلاوةِ، وبعد دعوةِ بني إسرائيلَ عامةً إلىٰ الوفاءِ بالشكر: حثٌّ علىٰ الاقتداءِ به، وكذا في ذِكْرِ الإسلامِ والتوحيد هزٌّ لجميعِ مَن يعظِّمُه إلىٰ اتِّباعِه في ذلك[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٤/ ٣٠).

(٢) يُنظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٦).

(٣) نظم الدرر (٢/ ١٤٨).

مناسبةُ ذِكْرِ فضائلِ إبراهيمَ، ومنزلتِه عند ربِّه، ودَعْوتِه لعَقِبِه عَقِبَ ذِكْرِ أحوالِ بني إسرائيلَ: هي الاتحادُ في المقصدِ؛ فإنَّ المقصودَ مِن تذكيرِ بني إسرائيلَ بالنِّعَم والتخويف تحريضُهم علىٰ الإنصافِ في تَلَقِّي الدعوة الإسلامية، والتجردِ مِن المكابرةِ والحسد، وتركِ الحظوظِ الدنيوية لنيلِ السعادةِ الأخروية، والمقصودُ مِن ذِكْرِ قصَّةِ إبراهيمَ موعظةُ المشركين ابتداءً، وبني إسرائيلَ تبعًا له؛ لأنَّ العربَ أشدُّ اختصاصًا بإبراهيمَ مِن حيث إنَّهم يَزيدون علىٰ نَسَبِهم إليه بكونِهم حَفَظةَ حَرَمِه، ومُنْتَمِين قديمًا للحنيفيَّةِ، ولم يطرأ عليهم دِينٌ يخالفُ الحنيفيَّةَ، بخلافِ أهل الكتابينِ[1].

أنَّه لمَّا جرىٰ ذِكْرُ الكعبةِ والقِبْلة، وأنَّ اليهودَ عيَّروا المؤمنين بتوجُّههم إلىٰ الكعبة وتركِ بيتِ المقدس؛ ذكَر حديثَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وما ابتلاه به اللهُ، واستطرَد إلىٰ ذِكْرِ البيت وكيفيَّة بنائه، وأنَّهم لمَّا كانوا مِن نَسْلِ إبراهيم، كان ينبغي أن يكونوا أكثَرَ الناس اتِّباعًا لشرعِه، واقتفاءً لآثارِه، فكان تعظيمُ البيت لازمًا لهم، فنبَّه اللهُ بذلك علىٰ سُوءِ اعتمادهم، وكثرةِ مخالفتهم، وخروجِهم عن سَنَنِ مَن ينبغي اتِّباعُه مِن آبائهم، وأنَّهم وإن كانوا مِن نَسْلِه، لا ينالون -لظُلْمِهم- شيئًا مِن عهدٍ[2].

شروعٌ في تحقيقِ أنَّ هدىٰ اللهِ هو ما عليه النبيُّ ﷺ مِن التوحيدِ والإسلام الذي هو ملَّةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّ ما عليه أهلُ الكتابينِ أهواءٌ زائغة، وأنَّ ما يدَّعُونه مِن أنَّهم علىٰ ملَّتِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِرْيةٌ بلا مِرْيةٍ؛ ببيانِ ما صدَر عن إبراهيمَ وأبنائه الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِن الأقاويلِ والأفاعيلِ الناطقة بحَقِّيَّةِ التوحيدِ، والإسلام، وبطلانِ الشرك، وبصحَّةِ نبوَّةِ

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧٠٠).
(٢) البحر المحيط (١/ ٥٩٩).

النبي ﷺ، وبكونِه ذلك النبيَّ الذي استدعاه إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما الصلاة والسلام بقولِهما: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ الآية[(١)].

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾

ولمَّا كان مِن إمامته اتِّباعُ الناسِ له في حجِّ البيت الذي شرَّفه اللهُ ببنائه، قال إثرَ ذلك ناعيًا على أهلِ الكتاب مخالفته وتَرْكَ دِينِه، وموطِّئًا لأمرِ القِبْلة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[(٢)].

هذا تدرُّجٌ في ذِكْرِ مَنقَبةِ إبراهيمَ إذ جعَل اللهُ بيتَه بهذه الفضيلةِ[(٣)].

اعلَمْ أنَّه تعالى بيَّن كيفيَّةَ حالِ إبراهيمَ عليه السلام حين كلَّفه بالإمامةِ، وهذا شرحُ التكليفِ الثاني؛ وهو التكليفُ بتطهيرِ البيت[(٤)].

لمَّا رَدَّ على اليهودِ في إنكارهم التوجُّهَ إلى الكعبة، وكانت الكعبةُ بناءَ إبراهيمَ أبيهم؛ كانوا أحَقَّ بتعظيمِها؛ لأنَّها مِن مآثرِ أبيهم، ولوجهٍ آخرَ مِن إظهارِ فضلها؛ وهو كونُها مثابةً للناسِ وأمنًا، وأنَّ فيها مَقامَ إبراهيمَ، وأنَّه تعالى أوحى إليه وإلى ولدِه ببنائها وتطهيرِها، وجعَلها محَلًّا للطائفِ والعاكف، والراكعِ والساجد، وأمَره بأن ينادِيَ في الناسِ بحَجِّها[(٥)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (١/ ١٥٤).

(٢) نظم الدرر (٢/ ١٥٢).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٧٠٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٤/ ٤١).

(٥) البحر المحيط (١/ ٦٠٧).

ثم ذكَر تعالىٰ نموذجًا باقيًا دالًّا علىٰ إمامةِ إبراهيمَ؛ وهو هذا البيتُ الحرام الذي جُعِل قَصْدُه ركنًا مِن أركانِ الإسلام، حاطًّا للذنوبِ والآثام، وفيه مِن آثارِ الخليل وذريتِه ما عُرِف به إمامتُه، وتُذُكِّرتْ به حالتُه(١).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

ولمَّا ذكَر أمرَ البيتِ الشريف فيما تكفَّل به سبحانه، وفيما أمَر به الخليلَ وولدَه عليهما السلام مِن تطهيرِه؛ ذكَّر باهتمامِه بأهله، ودعائه لهم -مبكِّتًا لِمَن عقَّه مِن ذريتِه بالتصريحِ بكفرهم بيومِ الجزاء، الآمرِ بكل خير، الزاجرِ عن كلِّ ضَيْرٍ- فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٢).

عطفٌ علىٰ ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً﴾؛ لإفادةِ مَنقَبةٍ ثالثة لإبراهيمَ عليه السلام في استجابةِ دَعْوتِه بفضلِ مكَّةَ، والنِّعْمةِ علىٰ ساكنيها إذا شكَروا، وتنبيهٌ ثالث لمشركي مكَّةَ يومئذ ليتذكَّروا دعوةَ أبيهم إبراهيمَ، المُشعِرةَ بحرصِه علىٰ إيمانِهم بالله واليوم الآخِرِ، حتىٰ خَصَّ مِن ذريتِه بدعوتِه المؤمنين، فيَعرِضُ المشركون أنفسَهم علىٰ الحال التي سألها أبوهم، فيتَّضِحَ لهم أنَّهم علىٰ غيرِ تلك الحالة، وفي ذلك بَعْثٌ لهم علىٰ الاتصافِ بذلك؛ لأنَّ للناسِ رغبةً في الاقتداءِ بأسلافهم، وحنينًا إلىٰ أحوالهم، وفي ذلك كلِّه تعريضٌ بهم بأنَّ ما يُدْلُون(٣) به مِن النَّسبِ لإبراهيمَ ومِن عمارةِ

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٥).
(٢) نظم الدرر (٢/ ١٥٥).
(٣) أي: يتصلون.

المسجدِ الحرام ومِن شعائرِ الحج لا يُغنِي عنهم مِن الإشراكِ بالله، كما عرَّض بالآياتِ قبل ذلك باليهودِ والنصارىٰ؛ وذلك في قوله هنا: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، وبه تظهرُ مناسبةُ ذِكْرِ هذه المَنقَبةِ عَقِبَ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[1].

لمَّا بنىٰ إبراهيمُ عليه السلام البيتَ في أرضٍ مُقفِرة، وكان حالُ مَن يَتمدَّنُ مِن الأماكنِ يحتاجُ فيه إلىٰ ماءٍ يجري ومزرعةٍ يمكِنُ بهما القِطانُ[2] بالمدينةِ؛ دعا اللهَ للبلدِ بالأمن، وبأن يُجبَىٰ له الأرزاقُ؛ فإنَّه إذا كان البلدُ ذا أمنٍ، أمكَن وفودُ التجارِ إليه لطلبِ الربح[3].

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾

ولمَّا ذكَر بما مهَّده مِن أمرِ البيت دِينًا ودُنْيَا، أتبَعه ببنائه مشيرًا إلىٰ ما حبَاهم به مِن النِّعْمةِ، وما قابَلوه به مِن كفرِها؛ باختيارهم لأن يكونوا مِن غيرِ الأمَّة المسلِمة التي دعَا لها لمَّا دعَا للرسول، فقال عاطفًا علىٰ ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ﴾ -تعديدًا لوجوهِ النِّعم علىٰ العربِ بأبيهم الأعظَمِ؛ استعطافًا إلىٰ التوحيدِ-: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧١٣).

(٢) أي: الإقامة.

(٣) البحر المحيط (١/ ٦١٣).

(٤) نظم الدرر (٢/ ١٥٧).

عطفٌ على ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾؛ و(إذ) للمضيِّ، وآثَرَ صيغةَ المضارع مع أنَّ القصَّةَ ماضيةٌ استحضارًا لهذا الأمرِ؛ ليقتديَ الناسُ به في إتيانِ الطاعات الشاقَّة مع الابتهالِ في قَبولها، وليَعلَموا عظَمةَ البيتِ المبنيِّ، فيعظِّموه(١).

هذه مَنقَبةٌ ثالثة لإبراهيمَ ﵇، وتذكيرٌ بشرَفِ الكعبة، ووسيلةٌ ثالثة إلى التعريضِ بالمشركين بعد قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، وتمهيدٌ للردِّ على اليهودِ إنكارَهم استقبالَ الكعبةِ الذي يجيء عند قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، ولأجلِ استقلالِها بهاتِهِ المقاصدِ الثلاثة التي تضمَّنتها الآياتُ قبلها، عُطِفتْ على سوابقِها مع الاقترانِ بـ(إذ) تنبيهًا على الاستقلال(٢).

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ الرابع مِن الأمورِ التي حكاها اللهُ تعالى عن إبراهيمَ وإسماعيلَ ﵉؛ وهو أنَّهما عند بناءِ البيت ذكَرا ثلاثةً مِن الدعاء(٣).

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾

ولمَّا سأل اللهَ القَبولَ، سأل اللهَ الزيادةَ عليه بقولِه: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٤).

فائدةُ تكريرِ النداء بقولِه: ﴿رَبَّنَا﴾ إظهارُ الضَّراعةِ إلى الله تعالى، وإظهارُ أنَّ كلَّ دعوى مِن هاته الدعَواتِ مقصودةٌ بالذات؛ ولذلك لم يكرِّرِ النداءَ إلا عند

(١) روح المعاني (١/ ٣٨١).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٧١٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ٥٠).

(٤) نظم الدرر (٢/ ١٥٩).

الانتقال مِن دعوةٍ إلىٰ أخرىٰ؛ فإنَّ الدعوةَ الأُولىٰ لطلبِ تقبُّلِ العمل، والثانيةَ لطلبِ الاهتداء[(١)].

﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

ولمَّا طلَب ما هو له في منصبِ النبوَّةِ مِن تعليمِ اللهِ له المناسكَ بغيرِ واسطةٍ، طلَب لذريتِه مثلَ ذلك بواسطةِ مَن جرَتِ العادةُ به لأمثالِهم، فقال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[(٢)].

كُرِّر النداءُ لأنَّه عطفُ غرضٍ آخرَ في هذا الدعاءِ؛ وهو غرضُ الدعاءِ بمجيءِ الرسالةِ في ذريته؛ لتشريفِهم، وحرصًا علىٰ تمامِ هَدْيِهم[(٣)].

لمَّا دعا ربَّه بالأمنِ لمكَّةَ، وبالرزقِ لأهلِها، وبأن يَجعَلَ مِن ذريته أمَّةً مسلِمة؛ ختَم الدعاءَ لهم بما فيه سعادتُهم دُنْيَا وآخرةً؛ وهو بعثةُ محمَّدٍ ﷺ فيهم؛ فشَمِل دعاؤه لهم الأمنَ، والخِصْبَ، والهدايةَ[(٤)].

﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فمَن يرغَبُ في مخالَفةِ مَن يرسِلُه مَن هو بهذه الصفةِ، عطَف عليه قولَه: ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧٢٠).

(٢) نظم الدرر (٢/ ١٦١).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٧٢٢).

(٤) البحر المحيط (١/ ٦٢٥).

(٥) نظم الدرر (٢/ ١٦٣).

موقعُ هاته الآياتِ مِن سوابقِها موقعُ النتيجةِ بعد الدليل؛ فإنَّه لمَّا بيَّن فضائلَ إبراهيمَ عليه السلام، عُلِم أنَّ صاحبَ هاته الفضائلِ لا يَعدِلُ عن دِينِه والاقتداءِ به إلا سفيهُ العقلِ، أَفِنُ الرأيِ[1]؛ فمقتضىٰ الظاهرِ: أن تُعطَفَ علىٰ سوابقِها بـ«الفاء»، وإنَّما عدَل مِن «الفاء» إلىٰ «الواو»؛ ليكونَ مدلولُ هذه الجملةِ مستقلًّا بنفسه في تكميلِ التنويهِ بشأن إبراهيمَ، وفي أنَّ هذا الحُكْمَ حقيقٌ بملَّةِ إبراهيمَ مِن كلِّ جهةٍ، لا مِن خصوصِ ما حكَىٰ عنه في الآياتِ السالفة، وفي التعريضِ بالذين حادُوا عن الدِّين الذي جاء متضمِّنًا لملَّةِ إبراهيمَ، والدلالةُ عن التفريعِ لا تفُوتُ؛ لأنَّ وقوعَ الجملةِ بعد سوابقها متضمِّنةً هذا المعنىٰ دليلٌ علىٰ أنَّها نتيجةٌ لِما تقدَّم[2].

اعلَمْ أنَّ اللهَ تعالىٰ بعد أن ذكَر أمرَ إبراهيمَ عليه السلام، وما أجراه علىٰ يدِه مِن شرائفِ شرائعِه التي ابتلاه بها، ومِن بناءِ بيتِه، وأمرِه بحَجِّ عبادِ الله إليه، وما جبَله اللهُ تعالىٰ عليه مِن الحرصِ علىٰ مصالحِ عباده، ودعائِه بالخير لهم، وغيرِ ذلك مِن الأمور التي سلَفتْ في هذه الآيةِ السالفة؛ عجَّب الناسَ، فقال: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3].

﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١﴾

ولمَّا ذكَر إمامتَه، ذكَر ما يؤتَمُّ به فيه؛ وهو سببُ اصطفائِه وصلاحه، وذلك دِينُه، وما أوصىٰ به عليه السلام بَنِيه، وما أوصىٰ به بَنُوه بَنِيهم سلَفًا لخلَفٍ، ولا سيَّما يعقوبُ عليه السلام المُنوَّهُ بنسبةِ أهلِ الكتاب إليه، فقال: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[4].

---

(١) أي: ناقص.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٧٢٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ٦٠).

(٤) نظم الدرر (٢/ ١٦٥).

﴿ إِذْ ﴾: هو ظرفٌ لـ﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ وما عُطِف عليه، قُصِد مِن هذه الظرفيةِ التخلُّصُ إلىٰ مَنقَبةٍ أخرىٰ؛ لأنَّ ذلك الوقتَ هو دليلُ اصطفائه؛ حيث خاطَبه اللهُ بوحيٍ، وأمَرَه بما تضمَّنه قولُه: ﴿أَسْلِمْ﴾ مِن مَعانٍ؛ جِماعُها: التوحيدُ، والبراءةُ مِن الحَوْلِ والقوةِ، وإخلاصُ الطاعة(١).

فكأنَّه تعالىٰ ذكَر الاصطفاءَ، ثم عقَّبه بذِكْرِ سببِ الاصطفاء؛ فكأنَّه لمَّا أسلَمَ نفسَهُ لعبادةِ الله تعالىٰ، وخضَع لها، وانقادَ؛ عَلِم تعالىٰ مِن حالِه أنَّه لا يَتغيَّرُ علىٰ الأوقاتِ، وأنَّه مستمِرٌّ علىٰ هذه الطريقةِ، وهو مع ذلك مُطهَّرٌ مِن كلِّ الذنوب؛ فعند ذلك اختاره للرسالة، واختَصَّه بها؛ لأنَّه تعالىٰ لا يختارُ للرسالة إلا مَن هذا حالُه في البَدْءِ والعاقبة(٢).

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

لمَّا كان مِن شأنِ أهلِ الحقِّ والحِكْمة أن يكونوا حريصين علىٰ صلاحِ أنفسِهم وصلاحِ أمَّتِهم، كان مِن مكمِّلاتِ ذلك أن يَحرِصوا علىٰ دوامِ الحق في الناس متَّبَعًا مشهورًا؛ فكان مِن سَنَنِهم التوصيةُ لِمَن يظنُّونهم خلَفًا عنهم في الناسِ بألا يَحِيدوا عن طريقِ الحق، ولا يفرِّطوا فيما حصَل لهم منه؛ فإنَّ حصولَه بمجاهدةِ نفوسٍ، ومرورِ أزمان؛ فكان لذلك أمرًا نفيسًا يجدُرُ أن يُحتفظَ به(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧٢٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٤/ ٦٢).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٧٢٧).

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ السادس مِن الأمورِ المستحسَنة التي حكاها اللهُ عن إبراهيمَ عليه السلام[(١)].

شروعٌ في بيانِ تكميلِه عليه السلام لغيره، إثرَ بيانِ كماله في نفسِه، وفيه توكيدٌ لوجوبِ الرغبة في ملَّتِه عليه السلام[(٢)].

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

ولمَّا قرَّر سبحانه لبني إسرائيلَ أنَّ أباهم يعقوبَ عليه السلام ممَّن أوصىٰ بَنِيهِ بالإسلام، قال مبكِّتًا لهم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[(٣)].

تفصيلٌ لوصيَّةِ يعقوب عليه السلام بأنَّه أمَر أبناءه أن يكونوا علىٰ ملَّةِ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ، وهي نظيرُ ما وصَّىٰ به إبراهيمُ بَنِيهِ، فأجمَلَ هنا اعتمادًا علىٰ ما صرَّح به في قولِه سابقًا: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[(٤)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عن إبراهيمَ عليه السلام أنَّه بالَغ في وصيَّةِ بَنِيهِ في الدِّين والإسلامِ، ذكَر عَقِيبه أنَّ يعقوبَ وصَّىٰ بَنِيه بمثلِ ذلك؛ تأكيدًا للحجَّةِ علىٰ اليهود والنصارىٰ[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٤/ ٦٣).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ١٦٣).

(٣) نظم الدرر (٢/ ١٧٩).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٧٣٠).

(٥) مفاتيح الغيب (٤/ ٦٤).

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

ولمَّا كان في ذلك أعظَمُ تسجيلٍ عليهم بأنَّهم نابَذوا وصيَّةَ الأصفياءِ مِن أسلافهم، ومرَقوا مِن دِينِهم، وتعبَّدوا بخلافِهم، وكان مِن المعلوم قطعًا أنَّ الجوابَ أنَّهم ما شَهِدوا ذلك، ولا هم مسلِمون؛ عبَّر عنه بقولِه: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

عُقِّبتِ الآياتُ المتقدِّمة بهذه الآيةِ؛ لأنَّ تلك الآياتِ تضمَّنتِ الثناءَ على إبراهيمَ عليه السلام وبَنِيهِ، والتنويهَ بشأنهم، والتعريضَ بمَن لم يقتفِ آثارَهم مِن ذريتِهم، وكأنَّ ذلك قد ينتحِلُ منه المغرورون عُذْرًا لأنفسهم، فيقولون: نحن وإن قصَّرْنا، فإنَّ لنا مِن فضلِ آبائنا مسلكًا لنجاتِنا؛ فذُكِرت هذه الآيةُ لإفادةِ أنَّ الجزاءَ بالأعمال، لا بالاتِّكال[2].

قولُه تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾، هو إشارةٌ إلى مَن ذكَرهم اللهُ تعالى في الآيةِ المتقدِّمة؛ وهم إبراهيمُ، وإسماعيلُ، وإسحاقُ، ويعقوبُ، وبَنُوه الموحِّدون؛ والمعنى: أنِّي اقتصَصْتُ عليكم أخبارَهم، وما كانوا عليه مِن الإسلامِ والدعوةِ إلى الإسلام؛ فليس لكم نفعٌ في سيرتِهم دُونَ أن تفعلوا ما فعَلوه، فإن أنتم فعلتم ذلك انتفعتم، وإن أبَيْتم لم تنتفعوا بأفعالهم[3].

---

(١) نظم الدرر (٢/ ١٨٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٧٣٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ٦٨).

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

ولمَّا أخبَرَ تعالىٰ أنَّهم ترَكوا السُّنةَ في تهذيبِ أنفسهم بالاقتداءِ في الاهتداءِ بالأصفياءِ مِن أسلافهم، وبيَّن بطلانَ ما هم عليه الآنَ مِن كلِّ وجهٍ، وأوضَحَ أنَّه محضُ الضَّلال؛ بيَّن أنَّه عاقَبهم علىٰ ذلك بأنْ صيَّرهم دعاةً إلىٰ الكفرِ؛ لأنَّ سُنَّتَه الماضيةَ سبقَتْ -ولن تجدَ لسُنَّتِه تحويلًا- أنَّ مَن أماتَ سُنَّةً، أحيا علىٰ يدَيه بِدْعةً؛ عقوبةً له[(١)].

الظاهرُ أنَّه عطفٌ علىٰ قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾؛ فإنَّه بعد أن ذمَّهم بالعدولِ عن تلقِّي الإسلامِ الذي شَمِل خِصالَ الحنيفيَّةِ، بيَّن كيفيَّةَ إعراضِهم ومقدارَ غرورِهم بأنَّهم حصَروا الهدىٰ في اليهوديةِ والنصرانية؛ أي: كلُّ فريقٍ منهم حصَر الهدىٰ في دِينه[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن بالدلائلِ التي تقدَّمت صحَّةَ دِينِ الإسلام، حكىٰ بعدها أنواعًا مِن شُبَهِ المخالِفين الطاعنين في الإسلام[(٣)].

شروعٌ في بيانِ فنٍّ آخرَ مِن فنونِ كفرِهم؛ وهو إضلالُهم لغيرِهم، إثرَ بيانِ ضَلالهم في أنفسِهم، والضميرُ لأهلِ الكتابَينِ؛ علىٰ طريقةِ الالتفاتِ المؤذِنِ باستيجابِ[(٤)] حالِهم؛ لإبعادِهم مِن مقامِ المخاطَبةِ، والإعراضِ عنهم، وتعديدِ جناياتهم عند غيرِهم[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٢/ ١٨٣).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٧٣٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ٧٠).

(٤) أي: استحقاق.

(٥) إرشاد العقل السليم (١/ ١٦٥).

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾

ولمَّا قيل ذلك، توجَّهتِ النفسُ إلىٰ ما به يوصَلُ إلىٰ ملَّةِ إبراهيمَ عليه السلام؛ فصرَف الخطابَ الذي كان عند الحِجاج للأكملِ علىٰ وجهٍ يَشمَلُ مَن قاربه إلىٰ مَن دُونَه بما يشمله؛ لأنَّ المرادَ العمومُ، وساقه تعالىٰ في جوابِ مَن كأنَّهم قالوا: ما نقولُ حتىٰ نكون إيَّاها؟ فقال: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[1].

بدلٌ مِن جملةِ ﴿قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ﴾؛ لتفصيلِ كيفيَّة هاته الملَّةِ بعد أن أجمَلَ ذلك في قوله: ﴿قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗا﴾، والأمرُ بالقول أمرٌ بما يتضمَّنُه؛ إذ لا اعتدادَ بالقول إلا لأنَّه يطابِقُ الاعتقادَ؛ إذ النسبةُ إنَّما وُضِعت للصدقِ، لا للكذبِ، والمقصودُ مِن الأمرِ بهذا القولِ الإعلانُ به، والدعوةُ إليه؛ لِما يشتملُ عليه مِن الفضيلةِ الظاهرة بحصولِ فضيلةِ سائر الأديان لأهلِ هاته الملَّة، ولِما فيه مِن الإنصافِ، وسلامةِ الطويَّة؛ ليَرغَبَ في ذلك الراغبون، ويَكمَدَ عند سماعِه المعاندون[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا أجاب بالجوابِ الجدليِّ أولًا، ذكَر بعده جوابًا برهانيًّا في هذه الآيةِ؛ وهو: أنَّ الطريقَ إلىٰ معرفةِ نبوَّة الأنبياء عليهم السلام ظهورُ المعجِزِ عليهم، ولمَّا ظهَر المعجِزُ علىٰ يدِ محمَّدٍ ﷺ، وجَب الاعترافُ بنبوَّتِه، والإيمانُ برسالتِه؛ فإنَّ

---

(١) نظم الدرر (٢/ ١٨٧).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٧٣٨).

تخصيصَ البعضِ بالقَبول وتخصيصَ البعضِ بالرد يوجِبُ المناقضةَ في الدليل، وأنَّه ممتنِعٌ عقلًا(١).

وارتبطت هذه الآيةُ بما قبلها؛ لأنَّه لمَّا ذكَر في قوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ جوابًا إلزاميًّا؛ وهو أنَّهم: وما أُمِروا باتِّباعِ اليهوديةِ والنَّصرانية، وإنَّما كان ذلك منهم علىٰ سبيلِ التقليد، هذا وكلُّ طائفةٍ منهما تكفرُ الأخرىٰ؛ أجيبوا بأنَّ الأَوْلىٰ في التقليدِ اتِّباعُ إبراهيمَ؛ لأنَّهم - أعني الطائفتَينِ المختلِفتين - قد اتفقوا علىٰ صحَّةِ دِينِ إبراهيمَ، والأخذُ بالمتفقِ أَوْلىٰ مِن الأخذِ بالمختلَفِ فيه؛ إن كان الدِّينُ بالتقليد(٢).

خطابٌ للمؤمنين بعد خطابِه ﷺ بردِّ مقالتِهم الشَّنْعاءِ علىٰ الإجمالِ، وإرشادٌ لهم إلىٰ طريقِ التوحيدِ والإيمان؛ علىٰ ضربٍ مِن التفصيل(٣).

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾

ولمَّا قدَّم تعالىٰ ما أمَرهم به، وكان عينَ الهدىٰ؛ تسبَّب عنه قولُه معبِّرًا بأداةِ الشك؛ إشارةً إلىٰ أنَّ إيمانَهم -لِما لهم مِن الكثافةِ والغِلْظة والجَلافةِ- في غايةِ البُعْدِ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(٤).

(١) مفاتيح الغيب (٤/ ٧٢).

(٢) البحر المحيط (١/ ٦٤٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ١٦٦).

(٤) نظم الدرر (٢/ ١٩١).

كلامٌ معترِضٌ بَيْنَ قوله: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾، وقوله: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ ﴾، و«الفاء» للتفريع، ودخولُ «الفاء» في الاعتراضِ واردٌ في الكلامِ كثيرًا، وإن تردَّد فيه بعضُ النُّحاة، والتفريعُ علىٰ قولِه: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾؛ والمراد مِن القولِ: أن يكونَ إعلانًا؛ أي: أعلِنوا دِينكم، واجهَروا بالدعوةِ إليه، فإن اتبَعكم الذين قالوا: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْ ﴾، فإيمانُهم اهتداءٌ، وليسوا قبل ذلك علىٰ هدًىٰ؛ خلافًا لزعمِهم أنَّهم عليه مِن قولهم: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْ ﴾ ؛ فدلَّ مفهومُ الشرطِ علىٰ أنَّهم ليسوا علىٰ هدًىٰ ما داموا غيرَ مؤمنين بالإسلام(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن الطريقَ الواضح في الدِّينِ؛ وهو أن يعترفَ الإنسانُ بنبوَّةِ مَن قامت الدَّلالةُ علىٰ نبوَّتِه، وأن يحترزَ في ذلك عن المناقَضةِ: رغَّبهم في مثلِ هذا الإيمانِ، فقال: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ ﴾(٢).

﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨ ﴾

هذا متصِلٌ بالقولِ المأمور به في ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾، وما بينها اعتراضٌ كما عَلِمتَ؛ والمعنىٰ: آمنَّا بالله، وما أُنزِلَ إلينا، وما أُنزِلَ إلىٰ الأنبياءِ مِن قبلُ إيمانًا صِبْغةَ الله(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر الجوابَ الثانيَ؛ وهو أنْ ذكَر ما يدلُّ علىٰ صحَّةِ هذا الدِّينِ: ذكَر بعده ما يدلُّ علىٰ أنَّ دلائلَ هذا الدِّينِ واضحةٌ جليَّة، فقال: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧٤٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٤/ ٧٣).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٧٤٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٤/ ٧٥).

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

ولمَّا أمَر تعالىٰ بقولِه: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ وما بعده بإعلامِ الخَصْمِ بالمخالَفة، وأنْ لا موافَقةَ إلا بترْكِ الهوىٰ، واتِّباعِ الهدىٰ؛ أمَر بمجادَلتِهم بما يُوهِي أقوالَهم، ويزيحُ شُبَهَهم، فقال مُعرِّضًا بالخطابِ عن الجمعِ، موجِّهًا له إلىٰ رسولِه ﷺ -رفعًا لمقامِه، وتعريفًا بعَلِيِّ منصبِه؛ إعلامًا بأنَّه لا ينهضُ بذلك غيرُه؛ لِما لهم مِن العلمِ مع ما عندهم مِن الجدَلِ واللَّددِ[1]-: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾[2].

استئنافٌ عن قولِه: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾؛ كما تقدَّم هنالك، و(تحاجوننا) خطابٌ لأهلِ الكتاب؛ لأنَّه جوابُ كلامِهم السابق؛ ولدليل قوله الآتي: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾[3].

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

ولمَّا كان قد بَقِي مِن مباهتاتِهم أنَّهم يدَّعون أنَّ أسلافَهم كانوا علىٰ دِينِهم، فيكونُ دَعْواهم الاختصاصَ بالجنَّةِ صحيحةً؛ أبطَلَها سبحانه بقولِه: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[4].

---

(١) أي: الخصومة.
(٢) نظم الدرر (٢/ ١٩٥).
(٣) التحرير والتنوير (١/ ٧٤٥).
(٤) نظم الدرر (٢/ ١٩٧).

﴿ أَمْ ﴾ منقطعةٌ بمعنىٰ «بل»، وهي إضرابٌ للانتقالِ مِن غرضٍ إلىٰ غرض، وفيها تقديرُ استفهامٍ، وهو استفهامٌ للتوبيخِ والإنكار؛ وذلك لمَبلَغِهم مِن الجهلِ بتاريخِ شرائعهم؛ زعَموا أنَّ إبراهيمَ وأبناءَه كانوا علىٰ اليهوديةِ، أو علىٰ النَّصرانية(١).

وهذه دعوىٰ أخرىٰ منهم، ومُحاجَّةٌ في رُسُلِ اللهِ بعد المُحاجَّة في اللهِ؛ حيث زعَموا أنَّهم أَوْلىٰ بهؤلاء الرُّسلِ المذكورين مِن المسلمين، فرَدَّ اللهُ عليهم بقولِه: ﴿ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾(٢).

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (١٤١)

ولمَّا لم يدَعْ لهم متمسَّكًا مِن جهةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أتبَع ذلك الإشارةَ -علىٰ تقديرِ صحَّةِ دَعْواهم- إلىٰ أنَّ الدِّينَ دائرٌ مع أمرِه في كلِّ زمانٍ، لا مع ما قرَّره لأحدٍ مِن خَلْقِه؛ فإنَّه لا حَجْرَ عليه، ولا اعتراضَ؛ بل له أن يأمرَ اليومَ بأمرٍ، وغدًا مثلًا بضِدِّه، وأن يَفعَلَ ما يشاءُ مِن إحكامٍ ونَسْخٍ، ونَسِيءٍ وإنساءٍ؛ فقال: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٣).

تكريرٌ لنظيرِه الذي تقدَّم آنفًا؛ لزيادةِ رسوخِ مدلوله في نفوس السامعين؛ اهتمامًا بما تضمَّنه؛ لكونِه معنىً لم يَسبِقْ سماعُه للمخاطَبين، فلم يقتنِعْ فيه بمرةٍ واحدة، ومثلُ هذا التكريرِ واردٌ في كلامِ العرب(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧٤٧).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٦٩).

(٣) نظم الدرر (٢/ ١٩٨).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٧٤٨).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حاجَّ اليهودَ في هؤلاء الأنبياءِ، عقَّبه بهذه الآيةِ لوجوه: أحدها: ليكونَ وعظًا لهم وزجرًا؛ حتىٰ لا يتكلموا علىٰ فضلِ الآباء؛ فكلٌّ واحدٍ يؤخذ بعمله. وثانيها: أنَّه تعالىٰ بيَّن أنَّه متىٰ لا يُستنكَرُ أن يكونَ فرضُكم عينَ فرضِهم لاختلافِ المصالح، لم يُستنكَرْ أن تختلِفَ المصالحُ، فينقُلكم محمَّدٌ ﷺ مِن ملَّةٍ إلىٰ ملة أخرىٰ. وثالثها: أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر حُسْنَ طريقةِ الأنبياء الذين ذكَرهم في هذه الآياتِ، بيَّن أنَّ الدليلَ لا يتمُّ بذلك؛ بل كلُّ إنسانٍ مسؤولٌ عن عملِه، ولا عُذْرَ له في تَرْكِ الحق بأن توهَّم أنَّه متمسِّكٌ بطريقةِ مَن تقدَّم؛ لأنَّهم أصابوا أم أخطَؤوا لا ينفعُ هؤلاء ولا يضُرُّهم؛ لئلا يتوهَّمَ أنَّ طريقةَ الدِّينِ التقليدُ(١).

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾

ولمَّا كان ادِّعاؤهم أنَّ أسلافَهم علىٰ دِينِهم لئلا تنتقِضَ دَعْواهم أنَّ الجنَّةَ خاصةٌ بهم مع كونِه فضولًا لا سنَدَ له يثبُتُ به شيءٌ محاوَلةً لعدمِ جوازِ النَّسْخِ، وكان إبطالُ اللهِ تعالىٰ لقولِهم وعَيْبُهم بما أحدَثوا في دِينِهم وتقريعُهم به ملزومًا لأن يكونوا أباحوا أنفسَهم منه ما منَعوا منه خالقُهم، وهو لا يُسألُ عمَّا يفعَلُ؛ كانوا أسفَهَ الناسِ؛ فعقَّبه بالتصريحِ بعيبِهم، والتعجيبِ منهم في إنكارِهم لنَسْخِ القِبْلَةِ، وخِفَّتِهم بالاعتراضِ علىٰ ربِّهم، فقال واصلًا له بما قبله علىٰ وجهٍ أعَمَّ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢).

قد خَفِيَ موقعُ هذه الآيةِ مِن الآيِ التي بعدها؛ لأنَّ الظاهرَ منها أنَّها إخبارٌ عن أمرٍ يقعُ في المستقبَل، وأنَّ القِبْلةَ المذكورة فيها هي القِبْلةُ التي كانت في أولِ الهجرةِ

(١) مفاتيح الغيب (٤/ ٧٨).

(٢) نظم الدرر (٢/ ٢٠٠-٢٠١).

بالمدينة؛ وهي استقبالُ بيتِ المقدس، وأنَّ التولِّيَ عنها هو نَسْخُها باستقبالِ الكعبة، فكان الشأنُ أن يُترقَّبَ طعنُ الطاعنين في هذا التحويلِ بعد وقوعِ النَّسْخِ؛ أي: بعد الآياتِ الناسخة لاستقبالِ بيت المقدس؛ لِما هو معلومٌ مِن دأبِهم مِن الترصُّدِ للطعنِ في تصرفاتِ المسلمين؛ فإنَّ السُّورةَ نزلت متتابعةً، والأصلُ موافقةُ التلاوةِ للنزولِ في السورةِ الواحدة، إلا ما ثبَت أنَّه نزَل متأخِّرًا ويُتلَىٰ متقدِّمًا. والظاهرُ أنَّ المرادَ بالقِبْلةِ المحوَّلة القِبْلةُ المنسوخة؛ وهي استقبالُ بيتِ المقدس؛ أعني الشَّرْقَ، وهي قِبْلةُ اليهودِ، ولم يَشفِ أحدٌ مِن المفسِّرين وأصحابِ أسبابِ النزول الغليلَ في هذا، علىٰ أنَّ المناسبةَ بينها وبين الآيِ التي قبلها غيرُ واضحةٍ؛ فاحتاج بعضُ المفسِّرين إلىٰ تكلُّفِ إبدائها. والذي استقرَّ عليه فَهْمي أنَّ مناسبةَ وقوعِ هذه الآيةِ هنا مناسبةٌ بديعة؛ وهي أنَّ الآياتِ التي قبلها تكرَّر فيها التنويهُ بإبراهيمَ، وملَّتِه، والكعبةِ، وأنَّ مَن يَرغَبُ عنها قد سَفِهَ نفسَه، فكانت مثارًا لأن يقولَ المشركون: ما ولَّىٰ محمَّدًا وأتباعَه عن قِبْلتِهم التي كانوا عليها بمكَّةَ -أي: استقبال الكعبةِ- مع أنَّه يقول: إنَّه علىٰ ملَّةِ إبراهيمَ، ويأبىٰ عن اتِّباعِ اليهودية والنَّصْرانية؟ فكيف ترَك قِبْلَةَ إبراهيمَ واستقبَل بيتَ المقدسِ؟ ولأنَّه قد تكرَّرتِ الإشارةُ في الآياتِ السابقة إلىٰ هذا الغرضِ بقولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾، وقولِه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ ؛ كما ذكَرْناه هنالك، وقد عَلِم اللهُ ذلك منهم، فأنبأ رسولَه بقولِهم، وأتىٰ فيه بهذا الموقعِ العجيب؛ وهو أن جعَله بعد الآياتِ المثيرةِ له، وقبل الآياتِ التي أُنزِلتْ إليه في نَسْخِ استقبالِ بيت المقدس، والأمرِ بالتوجُّهِ في الصلاةِ إلىٰ جهةِ الكعبة؛ لئلا يكونَ القرآنُ الذي فيه الأمرُ باستقبالِ الكعبة نازلًا بعد مقالةِ المشركين، فيَشمَخوا بأنوفِهم، يقولون: غيَّر محمَّدٌ قِبْلتَه مِن أجلِ اعتراضنا عليه؛ فكان لموضعِ هذه الآيةِ هنا أفضَلُ تمكُّنٍ، وأوثَقُ ربطٍ، وبهذا يظهرُ وجهُ نزولِها قبل آيةِ النَّسْخِ؛ وهي قولُه: ﴿قَدْ نَرَىٰ

﴿تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ الآياتِ؛ لأنَّ مقالةَ المشركين أو توقُّعَها حاصلٌ قبل نَسْخِ استقبالِ بيت المقدس، وناشئٌ عن التنويهِ بملَّةِ إبراهيمَ، والكعبةِ(١).

اعلَمْ أنَّ هذا هو الشُّبهةُ الثانيةُ مِن الشُّبَهِ التي ذكَرها اليهودُ والنصارىٰ طعنًا في الإسلام(٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾

ولمَّا بيَّن استقامةَ القِبْلةِ التي وجَّههم إليها، عرَّف أنَّها وسَطٌ لا جَوْرَ فيها؛ فأتبَعَ ذلك قولَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾(٣).

لمَّا أشارت الآيةُ السابقة إلىٰ أنَّ الذين هُدُوا إلىٰ صراطٍ مستقيم هم المسلمون، وأنَّ ذلك فضلٌ لهم؛ ناسَب أن يستطرِدَ لذكرِ فضيلةٍ أخرىٰ لهم هي خيرٌ ممَّا تقدَّم، وهي فضيلةُ كونِ المسلمين عدولًا خيارًا ليَشهَدوا علىٰ الأُمَمِ؛ لأنَّ الآياتِ الواقعةَ بعدها هي في ذِكْرِ أمرِ القِبْلةِ، وهذه الآيةُ لا تتعلقُ بأمرِ القِبْلة(٤).

اعتراضٌ بَيْنَ كلامينِ متصلين وقَعَا خطابًا له ﷺ؛ استطرادًا لمدحِ المؤمنين بوجهٍ آخَرَ، أو تأكيدًا لردِّ الإنكار بأنَّ هذه الأمَّةَ وأهلَ هذه الملَّةِ شهداءُ عليكم يومَ الجزاءِ،

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٥، ٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٤/ ٧٨).

(٣) نظم الدرر (٢/ ٢٠٥-٢٠٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢/ ١٤).

وشَهاداتُهم مقبولةٌ عندكم؛ فأنتم إذًا أحَقُّ باتِّباعِهم، والاقتداءِ بهم؛ فلا وجهَ لإنكارِكم عليهم[(١)].

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

ولمَّا أشعَرَ الكلامُ السابق أهلَ البلاغةِ بإحداثِ أمرٍ في القِبْلة، فتوقَّعوا الخبَرَ عن ذلك، وبيَّن رأفتَه ورحمتَه بالناس عمومًا؛ بيَّن ذلك برسولِه خصوصًا، بأنَّ تحويلَه إلىٰ الكعبةِ رأفةٌ منه به، ورحمةٌ له، مع ما تقدَّم مِن فوائدِه، فقال تعالىٰ: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[(٢)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ، وإفضاءٌ لشَرْعِ استقبالِ الكعبة، ونَسْخِ استقبالِ بيتِ المقدس؛ فهذا هو المقصودُ مِن الكلام المفتتَحِ بقولِه: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ بعد أنْ مهَّد اللهُ بما تقدَّم مِن أفانينِ التهيئة، وإعدادِ الناس إلىٰ ترقُّبِه؛ ابتداءً مِن قوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾، ثم قولِه: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ ﴾، ثم قوله: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾، ثم قوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[(٣)].

---

(١) روح المعاني (١/ ٤٠٣).

(٢) نظم الدرر (٢/ ٢١٦-٢١٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٢٦).

ولمَّا انطوى ضميرُ النبيِّ ﷺ على إرادةِ التوجُّهِ إلى الكعبة؛ لأنَّها قِبْلةُ أبيه إبراهيمَ عليه السلام، ومَفخرةُ العرب، ومَزارُهم، ومَطافُهم، ولمخالفةِ اليهود؛ أجابه الحقُّ إلى ذلك بقوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(١).

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)﴾

ولمَّا أطمَعَ أولَ الآيةِ في أهلِ الكتاب، وقطَع عنهم آخِرها؛ صرَّح بما لوَّح إليه هذا الأخيرُ، وأعلَمَه ﷺ بعاقبةِ أمرهم، وأنَّه لا اتفاقَ بينه وبينهم أصلًا، ولا اتفاقَ بَيْنَ فريقَيْهم، مع كونِ الكلِّ مِن بني إسرائيلَ؛ ليُريحَهُ ﷺ مِن التَّطلُّعِ إلى هُدَى بعضِهم، فقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٢).

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ والمناسبةُ أنَّهم يَعلَمون ولا يَعمَلون، فلمَّا أُفيدَ أنَّهم يعلمون أنَّه الحقُّ -على الوجهِ المتقدِّم في إفادتِه التعريضَ بأنَّهم مكابِرون-، ناسبت أن يحقِّقَ نفيَ

---

(١) محاسن التأويل (١/ ٤٢٤).

(٢) نظم الدرر (٢/ ٢٢٢).

الطمعِ في اتِّباعهم القِبْلةَ؛ لدفعِ توهُّمِ أن يَطمَعَ السامعُ باتِّباعهم لأنَّهم يَعلَمون أحقِّيَّتَها؛ فلذا أُكِّدتِ الجملةُ الدالةُ علىٰ نفيِ اتِّباعِهم بالقَسَمِ واللامِ الموطِّئة، وبالتعليقِ علىٰ أقصىٰ ما يمكِنُ عادةً(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن في الآيةِ الأُولىٰ أنَّ الذين أُوتوا الكتابَ يَعلَمون أنَّ هذه القِبْلةَ حقٌّ، بيَّن بعد ذلك أنَّ صِفتَهم لا تتغيَّرُ في الاستمرارِ علىٰ المعاندة(٢).

هذه تسليةٌ للرسولِ ﷺ عن متابَعةِ أهلِ الكتاب له، أعلَمَه أولًا أنَّهم يَعلَمون أنَّه الحقُّ، وهم يكتُمونه، ولا يُرتِّبون علىٰ العلمِ به مقتضاه، ثم سلَّاه عن قَبولِهم الحقَّ بأنَّهم قد انتهَوْا في العنادِ وإظهارِ المعاداةِ إلىٰ رُتْبةٍ لو جئتَهم فيها بجميعِ المعجِزاتِ، التي كلُّ معجزةٍ منها تقتضي قَبولَ الحقِّ؛ ما تَبِعوك، ولا سلَكوا طريقَك، وإذا كانوا لا يتَّبِعونك مع مجيئِك لهم بجميعِ المعجزات، فأحرىٰ ألا يتَّبِعوك إذا جئتَهم بمعجزةٍ واحدة(٣).

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾

ولمَّا ختَم الخطابَ بالإشارةِ بقولِه: ﴿أَهۡوَآءَهُم﴾ إلىٰ عِلْمِهم بحقِّيَّةِ هذا التحويلِ تلويحًا، كما فتَحه بالإعلامِ به تصريحًا؛ كَرَّ علىٰ تأكيدِ الإعلام بما هم عليه في أمرِها مِن التحقُّق؛ إشارةً إلىٰ ما تبطَّنوه مِن العنادِ الموجِبِ للتَّمادي في الفسادِ، فقال مضمِرًا له علىٰ وجهٍ يصلُحُ أن يكونَ للنبيِّ ﷺ، مُعظِّمًا لهذه المعرفةِ بإسنادِ الإيتاء

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٣٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٤/ ١٠٧).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٢٦).

إليـه سـبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١).

جملةٌ معترضة بَيْنَ جملةِ ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وبين جملةِ ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ اعتراضَ استطرادٍ بمناسبة ذِكْرِ مطاعنِ أهلِ الكتاب في القِبْلةِ الإسلامية؛ فإنَّ طَعْنَهم كان عن مكابَرةٍ مع علمِهم بأنَّ القِبْلةَ الإسلاميةَ حقٌّ؛ كما دلَّ عليه قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، فاستطرَد بأنَّ طَعْنَهم في القِبْلةِ الإسلامية ما هو إلا مِن مجموعِ طعنِهم في الإسلام، وفي النبيِّ ﷺ؛ والدليلُ علىٰ الاستطرادِ قولُه بعده: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾؛ فقد عاد الكلامُ إلىٰ استقبالِ القِبْلة(٢).

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

ولأنَّ هذا المجموعَ يُفيدُ قَهرَ الحقِّ للخَلْقِ بما شاء منهم مِن هُدًىٰ وفتنةٍ؛ لتَظهَرَ فيها رحمتُه ونِقْمتُه، وهو الحقُّ، الذي هو ماضي الحُكْمِ، الذي جِبلَّةُ محمَّدٍ ﷺ تتقاضىٰ التَّوقُّفَ فيه لِما هو عليه مِن طلبِ الرحمةِ، ولزومِ حُكْمِ الوصيَّةِ؛ خاطَبه الحقُّ بقولِه: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾(٣).

تذييلٌ لجملةِ ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾، علىٰ أنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوف، تقديرُه: هذا الحقُّ(٤).

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٢٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٣٩).

(٣) نظم الدرر (٢/ ٢٢٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢/ ٤١).

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن أنَّ أحدًا مِن هؤلاء الفِرَقِ لا يتبعُ قِبْلةَ الآخَرِ، وتضمَّن ذلك أنَّ لكلٍّ منهم قِبْلةً، وقرَّر أنَّ ذلك مِن أهلِ الكتاب علىٰ وجهِ العنادِ؛ أثبتَ ما تضمَّنه الكلامُ السابق علىٰ وجهٍ أعمَّ منه، وسبَّب عنه النتيجةَ، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ ؛ فهو مِن تمامِ الاعتراض، أو عطفٌ علىٰ جملة ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾، مع اعتبارِ ما استؤنِفَ عنه مِن الجُمَلِ؛ ذلك أنَّه بعد أن لقَّن الرسولَ ﷺ ما يجيبُ به عن قولِهم: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ ﴾، وبعد أن بيَّن للمسلمين فضيلةَ قِبْلتِهم، وأنَّهم علىٰ الحقِّ، وأيأَسهم مِن ترقُّبِ اعترافِ اليهود بصحَّةِ استقبال الكعبة؛ ذيَّل ذلك بهذا التذييلِ الجامع لِمَعانٍ ساميةٍ؛ طيًّا لبِساطِ المجادَلةِ مع اليهود في أمرِ القِبْلة[2].

لمَّا ذكَر القِبْلةَ التي أُمِر المسلمون بالتوجهِ إليها، وهي الكعبةُ، وذكَر مِن تصميمِ أهلِ الكتاب علىٰ عدمِ اتِّباعها، وأنَّ كلًّا مِن طائفتَي اليهودِ والنصارىٰ مصمِّمةٌ علىٰ عدمِ اتِّباعِ صاحبها؛ أعلَمَ أنَّ ذلك هو بفعلِه، وأنَّه هو المقدِّرُ ذلك، وأنَّه هو مُوجِّهُ كلٍّ منهم إلىٰ قِبْلتِه؛ ففي ذلك تنبيهٌ علىٰ شكرِ الله؛ إذ وفَّق المسلمين إلىٰ اتِّباعِ ما أمَر به مِن التوجهِ، واختارهم لذلك[3].

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٢٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٤١).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٣٥).

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

ولمَّا عظُمَ في شأنِ القِبْلةِ انتشارُ أقوالِهم في تنويعِ شَغْبِهم وجدالِهم، وكانوا أهلَ علمٍ وكتاب، وقد مرَّت لهم دهورٌ وهو مَوْسُومون بأنَّهم على صوابٍ، فاشرأبَّ لذلك النفاقُ، ودارت رحَىٰ الباطلِ والشِّقاق، وقامت سُوقُ الفسوقِ فيما هنالك علىٰ ساقٍ؛ كان الحالُ مقتضيًا لمزيدِ تأكيدٍ لأمرها؛ تعظيمًا لشأنِها، وتوهيةً لشُبَهِ السفهاء، فقال تعالىٰ ثانيًا معبِّرًا بعبارةٍ مُشعِرة بإمامتِه ﷺ، وانتظارِ المصلِّين له: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

عُطِفَ قولُه: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ علىٰ قولِه: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ عَطْفَ حُكْمٍ علىٰ حُكْمٍ مِن جنسِه؛ للإعلامِ بأنَّ استقبالَ الكعبة في الصلاةِ المفروضة لا تهاوُنَ في القيامِ به، ولو في حالةِ العُذْرِ؛ كالسَّفر[2].

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّ لكلٍّ وِجْهةً يَتولَّاها، أمَر نبيَّه ﷺ أن يولِّيَ وجهَه شَطْرَ المسجدِ الحرام مِن أيِّ مكانٍ خرَج؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ظاهرُه أنَّه أمرٌ له باستقبالِ الكعبة وهو مقيمٌ بالمدينةِ، فبيَّن بهذا الأمرِ الثاني تَساوِيَ الحالَينِ -إقامةً وسفرًا- في أنَّه مأمورٌ باستقبالِ البيتِ الحرام[3].

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٢٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٤٤).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٣٨).

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

لمَّـا تقـرَّر بمـا تكـرَّر أنَّ تحويـلَ القِبْلـةِ فـرضٌ في حقِّـه ﷺ حَـتْمٌ لا فتـورَ عنـه، ولا رُخْصةَ فيه، إلا ما استُثني؛ أدخَلَ معه أمَّتَه؛ ليعُمَّهم الحُكْمُ، وربأ بالمؤمنين عن أن يكونَ لأحدٍ عليهم حُجَّةٌ، فقال: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1].

قولُه بعده: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ عطفٌ على الجملةِ التي قبله، وأعيدَ لفظُ الجملةِ السالفة ليُبْنىٰ عليه التعليلُ بقولِه: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾[2].

اعلَمْ أنَّ أولَ ما في هذه الآيةِ مِن البحثِ أنَّ اللهَ تعالىٰ قال قبل هذه الآياتِ: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾، وذكَر هاهنا ثانيًا قولَه تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾، ثم ذكَر ثالثًا قولَه: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾، فهل في هذا التَّكرارِ فائدةٌ أم لا؟ وللعلماءِ فيه أقوالٌ: أحدها: أنَّ الأحوالَ ثلاثةٌ؛ أولها: أن يكونَ الإنسانُ في المسجدِ الحرام. وثانيها: أن يخرُجَ عن المسجدِ الحرام، ويكونَ في البلد. وثالثها: أن يخرُجَ عن البلدِ إلىٰ أقطارِ

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٢٣٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٤٥).

الأرض. فالآيةُ الأُولىٰ محمولةٌ علىٰ الحالةِ الأولىٰ، والثانيةُ علىٰ الثانيةِ، والثالثةُ علىٰ الثالثةِ؛ لأنَّه قد كان يُتوهَّمُ أنَّ للقُرْبِ حُرْمةً لا تثبُتُ فيها للبُعْدِ؛ فلأجلِ إزالةِ هذا الوَهْمِ، كرَّر اللهُ تعالىٰ هذه الآياتِ(١).

لمَّا عظُمَ في شأنِ القِبْلةِ انتشارُ أقوالِ السفهاء، وتنوَّع شَغْبُهم وجدالُهم؛ كان الحالُ مقتضيًا لمزيدِ تأكيدٍ لأمرها؛ تعظيمًا لشأنِها، وتوهيةً لشُبَهِهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٢).

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)﴾

تشبيهٌ للعلَّتَينِ مِن قولِه: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾، وقولِه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ أي: ذلك مِن نعمتي عليكم؛ كنِعْمةِ إرسال محمَّدٍ ﷺ، وجُعِل الإرسالُ مشبَّهًا به؛ لأنَّه أسبَقُ وأظهَرُ تحقيقًا للمشبَّهِ؛ أي: إنَّ المَبادئَ دلَّتْ علىٰ الغاياتِ(٣).

كما أنَّ استقبالَ الكعبة في الآيةِ السابقة أمرٌ لا يزادُ عليه شيءٌ يَنسَخُه؛ فهي آخِرُ القِبْلاتِ المتوجَّهِ إليها في الصلاةِ؛ فإنَّ إرسالَ محمَّدٍ ﷺ هو آخِرُ إرسالاتِ الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -؛ إذ لا نبيَّ بعده، وهو خاتَمُ النَّبيين؛ فشبَّه إتمامَ تلك النِّعْمةِ -التي هي كمالُ نِعْمةِ استقبالِ القِبَلِ- بهذا الإتمامِ الذي هو كمالُ

(١) مفاتيح الغيب (٤/ ١١٨).
(٢) محاسن التأويل (١/ ٤٣٠).
(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٤٨).

إرسال الرُّسل، وفي إتمامِ هاتين النِّعْمتين عزٌّ للعرب، وشرَفٌ، واستمالةٌ لقلوبهم؛ إذ كان الرسولُ منهم، والقِبْلةُ التي يستقبلونها في الصلاةِ بيتُهم الذي يحُجُّونه قديمًا وحديثًا، ويُعظِّمونه(١).

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن المعلومِ أنَّ هذا الخيرَ الذي لا يفترُ عنه ذو بصيرةٍ ولا يقصِّرُ دُونَه مَن له أدنىٰ همةٍ إنَّما كان بذِكْرِ الله ﷻ للعربِ -تفضُّلًا منه عليهم بعد طُولِ الشَّقاءِ، وتَمادي الجهلِ والجَهْدِ والعناء-؛ رغَّبهم فيما يُدِيمُ ذلك مسبِّبًا له عمَّا تقدَّم، فقال: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾(٢).

«الفاء» للتفريعِ، عاطفةٌ جملةَ الأمرِ بذِكْرِ الله وشكرِه علىٰ جُمَلِ النِّعَمِ المتقدِّمة؛ أي: إذ قد أنعَمْتُ عليكم بهاته النِّعَم، فأنا آمُرُكم بذِكْري(٣).

ثم ندَب اللهُ المؤمنين إلىٰ الاعترافِ بهذه النِّعْمة، ومقابلتِها بذِكْرِه وشكرِه، وقال: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾(٤).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

ولمَّا عُلِم مِن هذه الآياتِ السابقة إعضالُ ما بينهم وبين السُّفهاء، وأمَرهم بالدواءِ المُنجِحِ مِن الإعراضِ عنهم، والإقبالِ علىٰ ذِكْرِه وشكرِه؛ أتبَع ذلك الإشارةَ إلىٰ

---

(١) البحر المحيط (٢/ ٤٧).

(٢) نظم الدرر (٢/ ٢٤٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٥٠).

(٤) محاسن التأويل (١/ ٤٣٢).

أنَّ الأمـرَ يصـلُ إلـىٰ أشَـدَّ ممَّـا توهَّمـوه، فقـال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(١).

هذه جُمَلٌ معترِضة بَيْنَ قولِه تعالىٰ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾، وما اتصَل به مِن تعليلِه بقولِه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾، وما عُطِف عليه مِن قوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾؛ وبَيْنَ قولِه: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾؛ لأنَّ ذلك وقَع تكملةً لدفعِ المطاعنِ في شأن تحويل القِبْلة؛ فله أشَدُّ اتصالٍ بقولِه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ المتصِلِ بقولِه: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾، وهو اعتراضٌ مُطنِبٌ، ابتُدِئ به إعدادُ المسلمين لِما هم أهلُه؛ مِن نصرِ دِينِ الله؛ شكرًا له علىٰ ما خوَّلهم مِن النِّعَمِ المعدودة في الآياتِ السالفة؛ مِن جَعْلِهم أمَّةً وسَطًا وشهداءَ علىٰ الناس، وتفضيلِهم بالتوجهِ إلىٰ استقبالِ أفضلِ بقعةٍ، وتأييدِهم بأنَّهم علىٰ الحقِّ في ذلك، وأمرِهم بالاستخفافِ بالظالمين وألا يَخشَوْهم، وتبشيرِهم بأنَّه أتَمَّ نِعْمتَه عليهم وهدَاهم، وامتَنَّ عليهم بأنَّه أرسَل فيهم رسولًا منهم، وهدَاهم إلىٰ الامتثالِ للأحكام العظيمة كالشكرِ والذِّكر؛ فإنَّ الشكرَ والذِّكر بهما تهيئةُ النفوسِ إلىٰ عظيمِ الأعمال؛ مِن أجلِ ذلك كلِّه أمَرهم هنا بالصبرِ والصلاة، ونبَّههم إلىٰ أنَّهما عَوْنٌ للنفسِ علىٰ عظيمِ الأعمال؛ فناسَب تعقيبُها بها، وأيضًا فإنَّ ما ذكَر مِن قولِه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ أناسًا مُتصَدُّون لشَغْبِهم وتشكيكِهم والكيدِ لهم؛ فأُمِروا بالاستعانةِ عليهم بالصبرِ والصلاة(٢).

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٢٤٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٥١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا أوجَب بقولِه: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ جميعَ العبادات، وبقولِه: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾ ما يتصلُ بالشكرِ؛ أردَفه ببيانِ ما يُعِينُ عليهما، فقال: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، وإنَّما خصَّهما بذلك؛ لِما فيهما مِن المعونةِ علىٰ العبادات، أمَّا الصبرُ فهو قَهْرُ النفسِ علىٰ احتمالِ المكاره في ذاتِ الله تعالىٰ، وتوطينُها علىٰ تحمُّلِ المشاقِّ، وتجنُّبِ الجزَعِ، ومَن حمَل نفسَه وقلبَه علىٰ هذا التذليلِ، سهُلَ عليه فعلُ الطاعات، وتحمُّلُ مشاقِّ العبادات، وتجنُّبُ المحظورات، ومِن الناسِ مَن حمَل الصبرَ علىٰ الصومِ، ومنهم مَن حمَله علىٰ الجهادِ؛ لأنَّه تعالىٰ ذكَر بعده: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (١).

ومناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها ظاهرةٌ؛ لأنَّهم سَمِعوا مِن طعنِ الكفارِ علىٰ التوجهِ إلىٰ الكعبة والصلاةِ إليها أذىٰ كثيرًا؛ فأُمِروا عند ذلك بالاستعانةِ بالصبر والصلاة (٢).

لمَّا فرَغ تعالىٰ مِن بيانِ الأمرِ بالشكر، شرَع في بيانِ الصبر، والإرشادِ إلىٰ الاستعانةِ بالصبر والصلاة؛ فإنَّ العبدَ إمَّا أن يكونَ في نعمةٍ فيشكُرَ عليها، أو في نِقْمةٍ فيَصبِرَ عليها (٣).

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾

ولمَّا أشار لهم إلىٰ ما يستقبلونه مِن حالِ الطاعنين في دِينِهم، ورقَّاهم في ذلك درجةً بعد درجةٍ؛ أتبَعه ما دلَّ علىٰ أنَّ الأمرَ يصل إلىٰ القتلِ وما داناه؛ ليأخذوا لذلك أُهْبتَه،

---

(١) مفاتيح الغيب (٤/ ١٢٤).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٥١).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٤٤٦).

ويَعتدُّوا له عُدَّتَه. وقال الحَرَالِّيُّ: ولمَّا كان الصبرُ لله إنَّما هو حملُ النفس علىٰ ما تَعهَدُ فيه كُرْهَها، أنبأهم الحقُّ تعالىٰ أنَّ الصبرَ له ليس علىٰ المعهودِ، وأنَّه يوجَدُ فيه عند تجشُّمِه حلاوةُ لذَّةِ الحياة، وإن كان ذلك ممَّا لا يَنالُه شعورُ الذين آمنوا؛ لخفائه عن إدراكِ المعقول، فأنبأهم بما يَحمِلُهم علىٰ تجشُّمِ الصبرِ في الجهادِ في سبيلِ الله، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[(١)].

لمَّا أُمِروا بالصبرِ، عرَفوا أنَّ الموتَ في سبيلِ الله أقوىٰ ما يَصبِرون عليه، ولكن نبَّه مع ذلك علىٰ أنَّ الصبرَ ينقلبُ شكرًا عندما يرىٰ الشهيدُ كرامتَه بعد الشَّهادة، وعندما يوقِنُ ذَوُوه بمصيرِه مِن الحياةِ الأبدية[(٢)].

وجهُ تعلُّقِ الآية بما قبلها: كأنَّه قيل: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ في إقامةِ دِيني، فإن احتجتم في تلك الإقامةِ إلىٰ مجاهَدةِ عدوِّي بأموالِكم وأبدانكم، ففعلتم ذلك، فتَلِفَتْ نفوسُكم؛ فلا تَحسَبوا أنَّكم ضيَّعتم أنفسَكم، بل اعلَموا أنَّ قَتْلاكم أحياءٌ[(٣)].

لمَّا ذكَر ﷻ الأمرَ بالاستعانةِ بالصبرِ علىٰ جميعِ الأمور، ذكَر نموذجًا ممَّا يستعانُ بالصبرِ عليه؛ وهو الجهادُ في سبيلِه، وهو أفضلُ الطاعاتِ البدَنية، وأشَقُّها علىٰ النفوسِ؛ لمشقَّتِه في نفسِه، ولكونِه مؤدِّيًا للقتلِ، وعدمِ الحياةِ؛ التي إنَّما يَرغَب الراغبون في هذه الدنيا لحصولِ الحياةِ ولوازمِها؛ فكلُّ ما يتصرفون به فإنَّه سعيٌ لها، ودفعٌ لِما يضادُّها، ومِن المعلومِ أنَّ المحبوبَ لا يتركُه العاقل إلا لمحبوبٍ أعلىٰ منه وأعظَمَ، فأخبرَ تعالىٰ أنَّ مَن قُتِل في سبيلِه؛ بأن قاتَلَ في سبيلِ الله؛ لتكونَ كلمةُ اللهِ

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٢٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٥٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ١٢٥).

هي العليا، ودِينُه الظاهرَ، لا لغيرِ ذلك مِن الأغراض: فإنَّه لم تَفُتْهُ الحياةُ المحبوبة، بل حصَل له حياةٌ أعظَمُ وأكمل ممَّا تظنُّون وتَحسَبون[(١)].

﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ﴾

ولمَّا كان مِن شأنِ الطِّينِ الذي منه البشَرُ وما تولَّد منه ألا يخلُصَ عن الشَّوائبِ إلا بعد معاناةٍ شديدة، ألا ترىٰ أنَّ الذَّهبَ أصفاه وهو لا يخلو عن الغِشِّ ولا يَعرَىٰ عمَّا خالَطه مِن الدَّنَسِ إلا بالامتحانِ بشديدِ النيران؟! قال تعالىٰ معلِّمًا لهم بالتربيةِ بما تحصُلُ به التصفيةُ بما تؤدي إليه مناصَبةُ الكفار، ومقارَعةُ أهلِ دارِ البوار: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[(٢)].

عُطِف ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم ﴾ علىٰ قولِه: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ عَطْفَ المقصدِ علىٰ المقدِّمة؛ كما أشَرْنا إليه قبل، ولك أن تجعلَ قولَه: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم ﴾ عطفًا علىٰ قوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ ﴾ الآياتِ؛ ليُعلِمَ المسلمين أنَّ تمامَ النِّعمةِ ومنزلةَ الكرامة عند الله لا يحُولُ بينهم وبين لَحاقِ المصائبِ الدُّنيوية المرتبطةِ بأسبابها، وأنَّ تلك المصائبَ مَظهَرٌ لثباتِهم علىٰ الإيمان، ومحبَّةِ اللهِ تعالىٰ، والتسليمِ لقضائه، فينالون بذلك بهجةَ نفوسِهم بما أصابهم في مرضاةِ الله، ويزدادون به رِفْعةً وزكاءً، ويزدادون يقينًا بأنَّ اتِّباعَهم لهذا الدِّينِ لم يكُنْ لنَوالِ حظوظٍ في الدنيا، ويَنجرُّ لهم مِن ذلك ثوابٌ؛ ولذلك جاء بعده ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، وجُعِل قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ الآيةَ بَيْنَ هذين المتعاطِفَينِ؛ ليكونَ نصيحةً لعلاجِ الأمرينِ:

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٥).

(٢) نظم الدرر (٢/ ٢٥٢-٢٥٣).

تمامِ النِّعْمةِ والهدىٰ، والابتلاءِ، ثم أعيدَ عليه ما يصيِّرُ الجميعَ خبرًا بقولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وجِيءَ بكلمةِ (شيء) تهوينًا للخبَرِ المُفجِع، وإشارةً إلىٰ الفرقِ بَيْنَ هذا الابتلاءِ وبين الجوعِ والخوف اللذين سلَّطهما اللهُ علىٰ بعضِ الأُمَمِ عقوبةً(١).

وهذه الآيةُ لها تعلُّقٌ بما قبلها؛ فالشكرُ يوجِبُ زيادةَ النِّعَم، والابتلاءُ بما ذُكِر ينافيه ظاهرًا؛ وتوجيهُه أنَّ إتمامَ الشرائع إتمامٌ للنِّعْمة؛ ولذلك يوجِبُ الشكرَ، والقيامُ بتلك الشرائعِ لا يمكِنُ إلا بتحمُّلِ المشاقِّ؛ فأُمِر فيها بالصبر، وأنَّه أُنعِمَ عليه أولًا فشكَر، وابتُلِيَ ثانيًا فصبَرَ؛ لينالَ درجتَيِ الشكرِ والصبر، فيكمُلَ إيمانُه(٢).

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾

ولمَّا كان للصابرِ الثاني البشرىٰ بالسلامة مِن عقوبةِ الآخرة، ومنالُهم لِما نوَّلهم، وشتَّانَ بَيْنَ مَن كان اللهُ معه وبَيْنَ مَن قيل لنبيِّه: بشِّرْهُ بصبره علىٰ بلاءِ التخلُّف، وما كان للأنفسِ مَدخَلٌ في تحمُّلِ الصبر -شرفًا وحفيظةً علىٰ الأحسابِ والرُّتَب الدُّنيوية-؛ خلَّص تعالىٰ الصابرين له مِن الصابرين تطبُّعًا وتحامُلًا، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾(٣).

ووصَف الصابرين بأنَّهم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾؛ لإفادةِ أنَّ صَبْرَهم أكمَلُ الصبرِ؛ إذ هو صبرٌ مقترن ببصيرةٍ في أمرِ الله تعالىٰ؛ إذ يَعلَمون عند المصيبةِ أنَّهم مِلْكٌ للهِ تعالىٰ، يَتصرَّفُ فيهم كيف يشاء؛ فلا يَجزَعون ممَّا يأتيهم، ويَعلَمون أنَّهم صائرون إليه؛ فيُثيبهم علىٰ ذلك(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٥٤).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٥٤).

(٣) نظم الدرر (٢/ ٢٥٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢/ ٥٧).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ الإنسانَ كيف يكون صابرًا(١).

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ١٥٧﴾

الإتيانُ باسمِ الإشارة في قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ للتَّنبيهِ علىٰ أنَّ المشارَ إليه هو ذلك الموصوفُ بجميعِ الصفات السابقة علىٰ اسمِ الإشارة، وأنَّ الحُكْمَ الذي يَرِدُ بعد اسمِ الإشارة مُترتِّبٌ علىٰ تلك الأوصافِ؛ وهذا بيانٌ لجزاءِ صبرِهم(٢).

ثم ذكَر ثوابهم، فقال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾

ولمَّا فرَغ ممَّا أراد مِن أحوالِ الطاعنين في القِبْلةِ التي هي قيامٌ للناس، وما استتبَع ذلك ممَّا يضطرُّه إليه في إقامةِ الدِّين مِن جدالِهم وجلادِهم، وختَم ذلك بالهدىٰ؛ شرَع في ذِكْرِ ما كان البيتُ به قيامًا للناس مِن المشاعرِ القائدة إلىٰ كلِّ خيرٍ، الحاميةِ عن كلِّ ضَيْرٍ، التي جُعِلتْ مواقفُها أعلامًا علىٰ الساعةِ، لا سيَّما والحجُّ أخو الجهادِ في المشقَّةِ، والنزوحِ عن الوطنِ، وقد سمَّاه النبيُّ ﷺ أحدَ الجهادَينِ(٣)، مع أنَّه مِن أعظَمِ مقاصدِ البيتِ المذكورةِ في هذه الآياتِ مناقبُه، المتلوَّةِ مآثرُه، المنصوبةِ شعائرُه، التي هي في الحقيقةِ دعائمُه؛ مِن الاعتكافِ، والصلاة، والطواف، المشارِ

(١) مفاتيح الغيب (٤/ ١٣٢).
(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٥٧).
(٣) أخرجه البخاري (١٥١٦).

إلىٰ حَجِّهِ واعتماره بقولِه: ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، فأفصَحَ به بعد تلك الإشارةِ بعضَ الإفصاح؛ إذ كان لم يَبقَ مِن مفاخرِه العظمىٰ غيرُه، وضمَّ إليه العمرةَ الحَجَّ الأصغر؛ لمشاركتِها له في إظهارِ فَخارِه، وإعلاءِ مَنارِه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[(١)].

هذا كلامٌ وقَع معترِضًا بَيْنَ مُحاجَّةِ أهلِ الكتابِ والمشركين في أمرِ القِبْلة، نزَل هذا بسببِ تردُّدٍ واضطراب بَيْنَ المسلمين في أمرِ السعيِ بَيْنَ الصفا والمروةِ، وذلك عامَ حجَّةِ الوداع؛ فهذه الآيةُ نزَلتْ بعد الآياتِ التي قبلها، وبعد الآياتِ التي نقرؤها بعدها؛ لأنَّ الحجَّ لم يكُنْ قد فُرِض، وهي مِن الآياتِ التي أُمِر رسولُ الله ﷺ بإلحاقِها ببعضِ السُّوَرِ التي نزَلتْ قبل نزولِها بمدةٍ؛ والمناسبةُ بينها وبين ما قبلها هو أنَّ العدولَ عن السعيِ بَيْنَ الصفا والمروةِ يُشبِهُ فعلَ مَن عُبِّر عنهم بالسفهاءِ في القِبْلة وإنكار العدول عن استقبال بيت المقدس؛ فموقعُ هذه الآيةِ بعد إلحاقها بهذا المكانِ موقعُ الاعتراضِ في أثناء الاعتراضِ؛ فقد كان السعيُ بَيْنَ الصفا والمروةِ مِن أعمالِ الحجِّ مِن زمنِ إبراهيمَ عليه السلام؛ تذكيرًا بنِعْمةِ اللهِ علىٰ هاجَرَ وابنِها إسماعيلَ إذ أنقَذه اللهُ مِن العطش[(٢)].

أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا أثنىٰ علىٰ الصابرين، وكان الحجُّ مِن الأعمالِ الشاقَّة المُفْنيَةِ للمالِ والبدَن، وكان أحدَ أركانِ الإسلام؛ ناسَب ذِكْرُه بعد ذلك[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٢٦١-٢٦٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٥٩).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٦٥).

اعلَمْ أنَّ تعلُّقَ هذه الآيةِ بما قبلها مِن وجوهٍ: أحدها: أنَّ اللهَ تعالىٰ بيَّن أنَّه إنَّما حوَّل القِبْلَةَ إلىٰ الكعبةِ ليُتِمَّ إنعامَه علىٰ محمَّدٍ ﷺ وأمَّتِه بإحياءِ شرائعِ إبراهيمَ ودِينِه؛ علىٰ ما قال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾، وكان السعيُ بَيْنَ الصفا والمروةِ مِن شعائرِ إبراهيمَ؛ علىٰ ما ذكَر في قصَّةِ بناءِ الكعبة وسعيِ هاجَرَ بَيْنَ الجبَلَين، فلمَّا كان الأمرُ كذلك، ذكَر اللهُ تعالىٰ هذا الحُكْمَ عَقِيبَ تلك الآيةِ. وثانيها: أنَّه تعالىٰ لمَّا قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، قال: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، وإنَّما جعَلهما كذلك؛ لأنَّهما مِن آثارِ هاجَرَ وإسماعيلَ ممَّا جرَىٰ عليهما مِن البلوىٰ، واستدلُّوا بذلك علىٰ أنَّ مَن صبَر علىٰ البلوىٰ، لا بدَّ وأن يصلَ إلىٰ أعظَمِ الدرجات، وأعلىٰ المقامات[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩)﴾

ولمَّا تقدَّم أنَّ بعضَ أهلِ الكتاب يكتُمون ما يَعلَمون مِن هذا، لَحِق وختَم ما أتبَعه له بصفتَي الشكرِ والعلم؛ ترغيبًا وترهيبًا بأنَّه يشكُرُ مَن فعَل ما شرَعه له، ويَعلَمُ مَن أخفاه، وإن دَقَّ فعلُه، وبالَغ في كتمانِه؛ انعطَف الكلامُ إلىٰ تبكيتِ المنافِقين منهم والمصارِحين في لَعْنِهم علىٰ كتمانِهم ما يَعلَمون مِن الحق؛ إذ كانت هذه كلُّها في الحقيقةِ قِصَصَهم، والخروجُ إلىٰ غيرِها إنَّما هو استطرادٌ علىٰ الأسلوبِ الحكيم المبين؛ لأنَّ هذا الكتابَ هدًىٰ، وكان السياقُ مرشدًا إلىٰ أنَّ التقديرَ بعد ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ : ومَن أحدَثَ شرًّا، فإنَّ اللهَ عليمٌ قدير، فوصَل به استئنافًا قولَه علىٰ وجهٍ يعُمُّهم وغيرَهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[2].

---

(١) مفاتيح الغيب (٤/ ١٣٥).

(٢) نظم الدرر (٢/ ٢٧٢-٢٧٣).

عودٌ بالكلامِ إلىٰ مَهْيَعِهِ[١] الذي فُصِل عنه بما اعتُرِض مِن شرعِ السعيِ بَيْنَ الصفا والمروةِ؛ كما عَلِمتَه آنفًا؛ فمناسبةُ وَقْعِ هاته الآيةِ بعد التي قبلها: أنَّ ما قبلها كان مِن الأفانينِ القرآنيةِ المتفنِّنة علىٰ ذِكْرِ ما قابَل به اليهودُ دعوةَ النَّبيءِ ﷺ، وتشبيهِهم فيها بحالِ سلَفِهم في مقابلةِ دعوة أنبيائهم مِن قبلُ، وما قابَل به أشباهُهم مِن النصارىٰ ومِن المشركين الدعوةَ الإسلامية، ثم أفضىٰ ذلك إلىٰ الإنحاءِ علىٰ المشركين قلةَ وفائهم بوصايا إبراهيمَ الذي يفتخرون بأنَّهم مِن ذريتِه، وأنَّهم سدَنةُ بيتِه، فنوَّه بإبراهيمَ، وبالكعبةِ، واستقبالها، وشعائرِها، وتخلَّل ذلك رَدُّ ما صدَر عن اليهودِ مِن إنكارِ استقبال الكعبة، ثم عقَّب ذلك بتكملةِ فضائلِ الكعبة وشعائرها، فلمَّا تم جميعُ ذلك، عطَف الكلامَ إلىٰ تفصيلِ ما رمَاهم به إجمالًا في قولِه تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا﴾ إلخ، وهذه طريقةٌ في الخطابةِ؛ هي إيفاءُ الغرضِ المقصودِ حقَّه، وتقصيرُ الاستطرادِ والاعتراضِ الواقعَينِ في أثنائه، ثم الرجوعُ إلىٰ ما يُهِمُّ الرجوعُ إليه؛ مِن تفصيلِ استطرادٍ أو اعتراضٍ تخلَّل الغرضَ المقصود[٢].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾

ولمَّا تمَّ أمرُ القِبْلةِ وما استتبَعه، وختَم بشريعةِ الحجِّ، المكتوبةِ علىٰ الناسِ عامَّةً، الآمِرِ لهم بها باني البيت إبراهيمُ عليه السلام عن أمرِ الله سبحانه وتعالى بقولِه إذ قام المَقامَ: «يا أيُّها الناسُ، كُتِب عليكم الحجُّ؛ فحُجُّوا»[٣]، فأجابه مَن عَلِم اللهُ سبحانه وتعالى أنَّه يحُجُّ، ثم حَجَّت الأنبياءُ مِن بني إسرائيلَ بنِ إبراهيمَ عليهما السلام، ثم أخفاها أهلُ الكتابِ فيما أخفَوْهُ

---

(١) المهيع: الطريق الواضح البين.

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٦٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٠٤).

مِن كتابهم؛ حسَدًا للعربِ، وخُتِمتْ آيةُ الحجِّ بـ ﴿عَلِيمٌ﴾؛ رجَع إلىٰ أمرِ الكاتمين الذين يكتُمون الحقَّ وهم يَعلمون، وأعظَمُ ما كتَموه أمرُ هذا الكتابِ، الذي هو الهدىٰ المفتتَحُ به السورةُ، ولمَّا بيَّن جزاءَهم، استثنىٰ منهم التائبين -مبيِّنًا لشرائطِ التوبةِ الثلاثةِ-، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

قولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ استثناءٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾؛ أي: فهُمْ لا تَلحَقُهم اللعنةُ، وهو استثناءٌ حقيقيٌّ منصوب علىٰ تمامِ الكلام مِن ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا﴾ إلخ[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن عظيمَ الوعيدِ في الذين يكتُمون ما أنزَل اللهُ، كان يجوزُ أن يُتوهَّمَ أنَّ الوعيدَ يَلحَقُهم علىٰ كلِّ حالٍ؛ فبيَّن تعالىٰ أنَّهم إذا تابوا تغيَّر حُكْمُهم، ودخَلوا في أهلِ الوعيد، وقد ذكَرْنا أنَّ التوبةَ عبارةٌ عن الندمِ علىٰ فعلِ القبيح، لا لغرضٍ سِواه؛ لأنَّ مَن ترَك رَدَّ الوديعةِ ثم نَدِم عليه لأنَّ الناسَ ذَمُّوه، أو لأنَّ الحاكمَ رَدَّ شَهادتَه؛ لم يكُنْ تائبًا، وكذلك لو عزَم علىٰ ردِّ كلِّ وديعةٍ، والقيامِ بكلِّ واجبٍ، لكي تُقبَلَ شهادتُه، أو يُمدَحَ بالثناءِ عليه؛ لم يكن تائبًا، وهذا معنىٰ الإخلاصِ في التوبة، ثم بيَّن تعالىٰ أنَّه لا بد له بعد التوبةِ مِن إصلاحِ ما أفسَده؛ مثلًا لو أفسَد علىٰ غيرِه دِينَه بإيرادِ شُبْهةٍ عليه، يَلزَمُه إزالةُ تلك الشُّبهة، ثم بيَّن ثالثًا أنَّه بعد ذلك يجب عليه فعلُ ضدِّ الكتمانِ؛ وهو البيانُ[3].

ثم استثنىٰ تعالىٰ مِن هؤلاء مَن تاب إليه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٢٧٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٧١).

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ١٤٢).

(٤) محاسن التأويل (١/ ٤٥٦).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ ﴾

ولمَّا لعَن الكاتمين، واستثنىٰ منهم التائبين؛ ذكَر المصرِّين، معبِّرًا عن كتمانِهم بالكفرِ؛ لتعُمَّ العبارةُ كلَّ كفرٍ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾(١).

استئنافُ كلامٍ لإفادةِ حالِ فريقٍ آخرَ مشاركٍ للذي قبله في استحقاقِ لعنةِ اللهِ واللاعنين، وهي لعنةٌ أخرىٰ، وهذا الفريقُ هم المشركون؛ فإنَّ الكفرَ يُطلَق كثيرًا في القرآنِ مرادًا به الشركُ؛ وذلك أنَّ المشركين قد قُرِنوا سابقًا مع أهلِ الكتاب، فلمَّا استؤنف الكلامُ ببيانِ لعنةِ أهلِ الكتاب الذين يكتُمون، عقَّب ذلك ببيانِ عقوبةِ المشركين أيضًا(٢).

لمَّا ذكَر حالَ الذين يكتُمون، ثم ذكَر حالَ التائبين منهم؛ ذكَر أيضًا حالَ مَن يموتُ منهم مِن غيرِ توبةٍ، وأيضًا أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر أنَّ أولئك الكاتمين ملعونون حالَ الحياةِ، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّهم ملعونون أيضًا بعد المماتِ. والجوابُ عنه: أنَّ هذا إنَّما يصحُّ متىٰ كان الذين يموتون مِن غيرِ توبةٍ لا يكونون داخلين تحت الآيةِ الأُولىٰ، فأمَّا إذا دخَلوا تحت الأُولىٰ: استُغني عن ذِكْرِهم، فيجبُ حملُ الكلامِ علىٰ أمرٍ مستأنَف(٣).

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٢٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٧٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ١٤٣).

لمَّا ذكَر حالَ مَن كتَم العلم، وحالَ مَن تاب؛ ذكَر حالَ مَن مات مصرًّا علىٰ الكفرِ، وبالَغ في اللعنةِ؛ بأن جعَلها مستعلِيَةً عليه، وقد تجلَّلته وغَشِيَتْهُ؛ فهو تحتها، وهي عامَّةٌ في كلِّ مَن كان كذلك(١).

جملةٌ مستأنَفة، سِيقت لتحقيقِ بقاء اللعنِ فيما وراء الاستثناءِ، وتأكيدِ دوامه، واستمرارِه علىٰ غيرِ التائبين، حسبما يفيدُه الكلام، والاقتصارُ علىٰ ذِكْرِ الكفرِ في الصلة مِن غيرِ تعرُّضٍ لعدمِ التوبةِ والإصلاح والتبيينِ مبنيٌّ علىٰ ما أشيرَ إليه، فكما أنَّ وجودَ تلك الأمورِ الثلاثة مستلزِمٌ للإيمان، الموجبِ لعدم الكفرِ؛ كذلك وجودُ الكفرِ مستلزِمٌ لعدمِها جميعًا(٢).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾

قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ تصريحٌ بلازمِ اللعنة الدائمة؛ فالضميرُ عائد لـ«جهنَّمَ»؛ لأنَّها معروفةٌ مِن المقامِ، ويجوز أن يعودَ إلىٰ اللعنةِ ويرادَ أثرُها ولازمها(٣).

ثم ذكَر مدَّةَ بقائهم فيها، فقال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾.

﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾

ولمَّا أفاض عليهم ﷻ ما أفاض مِن بحارِ الحِجاجِ المفرَّقةِ بالأمواج، وقرَّر ما أراد مِن شرائعِ الإسلام علىٰ وجهِ الإتقانِ والإحكام، وأرشَد هذا السياقُ المذكورُ فيه ثوابُ المطيعِ وعقابُ العاصي إلىٰ أنَّ التقدير: فإلٰهُكم إلهٌ واحد لا شريكَ له يدافِعُه

(١) البحر المحيط (٢/ ٧١).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ١٨٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٧٣).

عمَّا يريدُ، لا إلهَ إلا هو المنتقِمُ مِن أعدائه، العظيمُ في كبريائه؛ عطَف عليه -مكرِّرًا الزاجرَ لكلِّ منافقٍ وكافر، ومذكِّرًا بالعاطفِ لكلِّ موافِقٍ مؤالِفٍ- قولَه تعالىٰ: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(١).

والمناسبةُ: أنَّه لمَّا ذكَر ما ينالُهم علىٰ الشركِ مِن اللعنةِ والخلود في النار، بيَّن أنَّ الذي كفَروا به وأشرَكوا هو إلهٌ واحد، وفي هذا العطفِ زيادةُ ترجيحٍ لِما انتَمَيْناه(٢) مِن كونِ المراد مِن الذين كفروا المشركين؛ لأنَّ أهلَ الكتابِ يؤمنون بإلهٍ واحد(٣).

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا المقامُ لا يصحُّ إلا بتمامِ العلم وكمالِ القدرة، نصَب الأدلةَ علىٰ ذلك في هذه الآيةِ الثالثة بأبسَطَ ممَّا في الآيةِ الثانية، كما كانت الثانيةُ أبسَطَ مِن الأولىٰ وأجلىٰ تبصيرًا للجهال وتذكيرًا للعلماء؛ فكانت هذه الآيةُ تفصيلًا لتَيْنِكَ الآيتينِ السابقتين، ولم تدْعُ حاجةً إلىٰ مثلِ هذه التفصيلِ في آيةِ «آلِ عِمْران»؛ لأنَّ معظمَ المرادِ بها الدلالةُ علىٰ شمولِ القدرة، وأمَّا هذه فدليلٌ علىٰ التَّفرُّدِ؛ فكان لا بد مِن ذِكْرِ ما ربما أضيفَ إلىٰ أسبابِه القريبة؛ تنبيهًا علىٰ أنَّه لا شريكَ له في شيءٍ مِن ذلك،

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٢٧٩-٢٨٠).

(٢) أي: رجحناه.

(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٧٤).

وأنَّ الكلَّ بخَلْقِه، وإن أقام لذلك أسبابًا ظاهريةً، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١).

موقعُ هاته الآيةِ عَقِبَ سابقتِها موقعُ الحجَّةِ مِن الدعوىٰ؛ ذلك أنَّ اللهَ تعالىٰ أعلَنَ أنَّ الإلهَ إلهٌ واحدٌ لا إلهَ غيرُه، وهي قضيةٌ مِن شأنها أن تُتلقَّىٰ بالإنكارِ مِن كثيرٍ مِن الناس؛ فناسَب إقامةُ الحجَّةِ لِمَن لا يقتنعُ، فجاء بهذه الدلائلِ الواضحة التي لا يسَعُ الناظرَ إلا التسليمُ إليها؛ والمقصودُ مِن هاته الآيةِ: إثباتُ دلائلِ وجودِ الله تعالىٰ ووَحْدانيَّتِه؛ ولذلك ذُكِرتْ إثرَ ذِكْرِ الوَحْدانيَّة؛ لأنَّها إذا أُثبِتتْ بها الوَحْدانيَّةُ، ثبَت الوجودُ بالضرورة؛ فالآيةُ صالحةٌ للردِّ علىٰ كفارِ قُرَيشٍ؛ دَهْرِيِّهم ومشرِكهم، والمشركون هم المقصودُ ابتداءً، وقد قرَّر اللهُ في هاته الآيةِ دلائلَ كلُّها واضحةٌ مِن أصنافِ المخلوقات، وهي مع وضوحِها تشتمِلُ علىٰ أسرارٍ يتفاوتُ الناسُ في دَرْكِها، حتىٰ يتناولَ كلُّ صِنْفٍ مِن العقلاءِ مقدارَ الأدلةِ منها علىٰ قَدْرِ قرائحِهم وعلومِهم(٢).

اعلَمْ أنَّه ﷻ لمَّا حكَم بالوَحْدانيَّةِ، ذكَر ثمانيةَ أنواعٍ مِن الدلائل التي يمكِنُ أن يُستدلَّ بها علىٰ وجودِه سبحانه أولًا، وعلىٰ توحيدِه وبراءتِه عن الأضدادِ والأنداد(٣).

ولمَّا كان مقامُ الوَحْدانيَّةِ لا يصحُّ إلا بتمامِ العلم وكمالِ القدرة، نصَب تعالىٰ الأدلةَ -مِن العُلْويَّاتِ والسُّفْلياتِ وعوارضِهما والمتوسِّطاتِ- علىٰ ذلك -تبصيرًا

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٢٨٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٧٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ١٥٢).

للجُهَّـالِ، وتـذكيرًا للعلمـاءِ- بقولِـه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾

ولمَّا نهَضتِ الأدلةُ، وسطَعتِ البراهينُ، وزاحت العِلَلُ والشكوك؛ عابَ مَن عبَد سِواه، وفَزِع إلىٰ غيرِه؛ كما نهىٰ عن الأندادِ عَقِب الآيةِ الأُولىٰ الداعيةِ إلىٰ العبادة، مشيرًا بخَتْمِ التي قبلُ بـ﴿يَعْقِلُونَ﴾ إلىٰ أنَّ هؤلاء ناسٌ ضلَّتْ عقولُهم، وفالَتْ[2] آراؤهم، وبيَّن أنَّهم يَتبرأُ بعضُهم مِن بعضٍ يومَ ينكشفُ حجابُ الغفلةِ عن سُرادِقِ العظَمة، ويَتجلَّىٰ الجبَّارُ في صفةِ النِّقْمة، فقال ﷻ عاطفًا علىٰ ما قدَّرْتُه ممَّا أرشَد إليه المعنىٰ: ومِن، أو يكونُ التقدير: فمِن الناسِ مَن عقَل تلك الآياتِ، فآمَن بربِّه، وفَنِيَ في حبِّـه، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾[3].

عُطِف علىٰ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ تلك الجملةَ تضمَّنتْ أنَّ قومًا يَعقِلون استدَلُّوا بخَلْقِ السماواتِ والأرض وما عُطِف عليه علىٰ أنَّ اللهَ واحدٌ، فوحَّدوه؛ فناسَب أن يُعطَفَ عليه شأنُ الذين لم يَهتدوا لذلك، فاتخَذوا لأنفسهم

(١) محاسن التأويل (١/ ٤٥٧).

(٢) أي: ضعفت وأخطأت.

(٣) نظم الدرر (٢/ ٣٠١).

شركاءَ مع قيامِ تلك الدلائلِ الواضحة؛ فهؤلاء الذين اتخذوا مِن دُونِ اللهِ هم المتحدَّثُ عنهم آنفًا بقولِه تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ الآياتِ[١].

ما أحسَنَ اتصالَ هذه الآيةِ بما قبلها! فإنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن وَحْدانيَّته، وأدلتَها القاطعةَ، وبراهينَها الساطعةَ الموصلةَ إلىٰ علمِ اليقين، المزيلةَ لكلِّ شكٍّ؛ ذكَر هنا أنَّ مِن الناس مع هذا البيانِ التام مَن يتخذُ مِن المخلوقين أندادًا للهِ؛ أي: نُظَراءَ ومُثَلاءَ، يساويهم في اللهِ بالعبادةِ والمحبة، والتعظيمِ والطاعة[٢].

اعلَمْ أنَّه ﷻ لمَّا قرَّر التوحيدَ بالدلائلِ القاهرة القاطعة، أردَف ذلك بتقبيحِ ما يُضادُّ التوحيدَ؛ لأنَّ تقبيحَ ضدِّ الشيء ممَّا يؤكِّدُ حُسْنَ الشيءِ؛ ولذلك قال الشاعرُ: «وبضِدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ»[٣].

بيانٌ لكمالِ ركاكةِ آراء المشركين، إثْرَ تقريرِ وَحْدانيَّتِه سبحانه، وتحريرِ الآياتِ الباهرة، الملجئةِ للعقلاءِ إلىٰ الاعترافِ بها، الفائضةِ باستحالةِ أن يشارِكَه شيءٌ مِن الموجوداتِ في صفةٍ مِن صفاتِ الكمال، فضلًا عن المشاركةِ في صفةِ الألوهية[٤].

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾

قال الحَرَالِّيُّ: قال ذلك إظهارًا لإفصاحِ ما أفهَمَه مضمونُ الخطابِ الأول؛ لتتَّسِقَ الآياتُ بعضُها ببعضٍ، فتُظْهِرَ الآيةُ ما في ضمنِ سابقتِها، وتَجمَعَ الآيةُ ما في تفصيلِ لاحقتِها، وإعلاءً للخطابِ بما هو المعقولُ علمُه، المتقدِّمُ إلىٰ ما في الإيمانِ نبؤُه؛

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٨٩).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ١٧٤).

(٤) إرشاد العقل السليم (١/ ١٨٥).

لِيَتِمَّ نورُ العقلِ الذي وقَع به الاعتبارُ بنُورِ الإيمانِ الذي يقع به القَبولُ لِما في الآخرةِ عِيانُه، فمَنْ عقَل عِبْرَةَ الكونِ الظاهر، استحَقَّ إسماعَ نبأِ الغيب الآتي، ثم قال: بذا يَتبرَّأُ المتبوعُ في الذِّكْرِ؛ لأنَّه الآخِرُ في الكونِ، فكأنَّه في المعنىٰ: إنَّما تعلَّق التابعُ بالمتبوع ليُعِيذَه في الآخرةِ؛ كما كان عَهْدٌ منه أن يُعِيذَه في الدنيا فيَتبرَّأَ منه(١).

﴿إِذْ﴾ ظرفٌ وقَع بدَلَ اشتمالٍ مِن ظرفِ ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: لو تراهم في هذين الحالينِ حالَ رؤيتِهم العذابَ، وهي حالةٌ فظيعة، وتشتمِلُ علىٰ حالِ اتخاذٍ لهم، وتبرُّؤِ بعضِهم مِن بعضٍ، وهي حالةٌ شنيعة، وهما حاصلانِ في زمنٍ واحد(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن حالَ مَن يتخِذُ مِن دُونِ الله أندادًا علىٰ طريقِ التهديد، زاد في هذا الوعيدِ، فبيَّن أنَّ الذين أفنَوْا عُمُرَهم علىٰ عبادتِهم، واعتقَدوا أنَّهم أوكَدُ أسبابِ نجاتهم؛ فإنَّهم يَتبرَّؤون منهم عند احتياجِهم إليهم(٣).

لمَّا ذكَر متَّخِذي الأندادِ، ذكَر أنَّ عبادتَهم لهم، وإفناءَ أعمارِهم في طاعتهم، معتقِدين أنَّهم سببُ نجاتِهم: لم تُغْنِ شيئًا، وأنَّهم حين صاروا أحوَجَ إليهم، تبرَّؤوا منهم(٤).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾

أظهَرَ في مقامِ الإضمار؛ لأنَّ ضميرَيِ الغَيْبةِ اللذين قبله عائدان إلىٰ مجموعِ الفريقين، علىٰ أنَّ في صلةِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ تنبيهًا علىٰ إغاظةِ المتبوعين، وإثارةِ حَسْرتِهم، وذلك عذابٌ نَفْسانيٌّ يضاعِفُ العذابَ الجُثْمانيَّ(٥).

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٣٠٨-٣٠٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٩٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٤/ ١٧٩).

(٤) البحر المحيط (٢/ ٩١).

(٥) التحرير والتنوير (٢/ ٩٦).

فكأنَّه قيل: فماذا قال الأتباعُ حينئذٍ؟ فقيل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾

ولمَّا عجَّب ﷻ مِن الضالِّين، وبيَّن مِن مآلِهم ما يزجُرُ مثلَه مَن له أدنىٰ عقلٍ، فكانوا بذلك في عِدادِ المقبِلِ بعد الإدبار، والمذعِنِ بعد الاستكبار؛ أقبَلَ علىٰ الكلِّ إقبالَ متلطِّفٍ بعمومِ الإذن في تناولِ ما أبدَعَه لهم، ورَحِمهم به في هذا الملكوتِ المذكور في ضمنِ ما نصَب مِن الأدلة؛ تذكيرًا لهم بالنِّعْمة، وتودُّدًا إليهم بجميعِ ما يوجِبُ المحبَّةَ، وإشارةً إلىٰ أنَّه هو الذي خلَق لهم ما تقرَّبوا به إلىٰ غيرِه ممَّا ادَّعَوْهُ ندًّا مِن البَحِيرةِ والسائبة والوَصِيلةِ وما شاكَلها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(١).

لمَّا أقام ﷻ الدليلَ علىٰ الوَحْدانيَّةِ بما خلَق مِن المنافعِ، وصنَّف الناسَ صنفَين: ضالٌّ معطوف -دالٌّ بعطفه علىٰ غير مذكور- علىٰ مهتدٍ معطوف عليه، وختَم بتأبيدِ عذاب الضالِّ، أقبَلَ علىٰ الصِّنفَين إقبالَ متلطِّفٍ مترفِّق مستعطِف، مناديًا لهم إلىٰ تأبيدِ نفعِهم قائلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٢).

لمَّا استوفىٰ ﷻ ذِكْرَ أمرِ الدِّين إلىٰ أنهاه مِن رُتْبةِ دِينِ الإسلام الذي رَضِيَه، وكان الدِّينُ هو غذاءَ القلوب وزكاةَ الأنفسِ؛ نظَم به ذِكْرَ غذاءِ الأبدان مِن الأقواتِ؛ ليَتِمَّ بذِكْرِ النَّماءَينِ نماءُ الذواتِ، ظاهرِها البدَني، وباطنِها الدِّيني؛ لِما بَيْنَ تَغذِّي الأبدانِ

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٣١٤).

(٢) نظم الدرر (٢/ ٣١٥).

وقِوامِ الأديان مِن التعاونِ على جمعِ أمرَيْ صلاحِ العمل ظاهرًا، وقَبولِه باطنًا، قال ﷺ: «لا يَقبَلُ اللهُ عملًا إلا بالورَعِ الشافي»(١)، وكما قيل: «مِلاكُ الدِّينِ الورَعُ، وهلاكُه التَّرَف، ونقصُه السَّرفُ»، فكما انتظَم الكتابُ قَصْرَ الخَلْقِ على أفضلِ مُتصرَّفاتهم في التديُّن، اتصَل به قصرُهم على أفضلِ مأكلِهم في التَّقوُّتِ، ولمَّا ذكَر الدِّينَ في رُتْبَتَي صِنْفَينِ مِن الناسِ والذين آمَنوا، انتظَم به ذِكْرَ المأكلِ في صِنفَيْهما، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٢).

استئنافٌ ابتدائيٌّ هو كالخاتمةِ لتشويهِ أحوالِ أهلِ الشرك مِن أصولِ دِينِهم وفروعِه التي ابتدأ الكلامُ فيها مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الآيةَ؛ إذ ذكَر كفرَهم إجمالًا، ثم أبطَله بقولِه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، واستدَلَّ على إبطالِه بقولِه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآياتِ، ثم وصَف كفرَهم بقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، ووصَف حالَهم وحَسْرتَهم يومَ القيامة؛ فوصَف هنا بعضَ مساوئِ دِينِ أهلِ الشرك فيما حرَّموا على أنفسِهم ممَّا أخرَج اللهُ لهم مِن الأرض، وناسَب ذِكْرُه هنا أنَّه وقَع بعد ما تضمَّنه الاستدلالُ على وَحْدانيَّةِ الله، والامتنانِ عليهم بنِعْمتِه بقولِه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ الآيةَ، وهو تمهيدٌ وتلخيص لِما يعقُبُه مِن ذِكْرِ شرائعِ الإسلام في الأطعمةِ وغيرِها، التي ستأتي مِن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾(٣).

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) نظم الدرر (٢/ ٣١٥-٣١٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢/ ١٠١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن التوحيدَ ودلائله، وما للموحِّدين مِن الثواب، وأتبَعه بذِكْرِ الشركِ ومَن يتخذُ مِن دُونِ الله أندادًا، ويتبعُ رؤساءَ الكفرةِ؛ أتبَع ذلك بذِكْرِ إنعامِه علىٰ الفريقَينِ، وإحسانِه إليهم، وأنَّ معصيةَ مَن عصاه وكُفْرَ مَن كفَر به لم تؤثِّرْ في قَطْعِ إحسانِه ونِعَمِه عنهم(١).

أنَّه لمَّا بيَّن التوحيدَ ودلائله، وما للتائبين والعاصين؛ أتبَع ذلك بذِكْرِ إنعامِه علىٰ الكافرِ والمؤمن؛ ليدُلَّ أنَّ الكفرَ لا يؤثِّرُ في قَطْعِ الإنعام. وقال المَرْوَزيُّ: لمَّا حذَّر المؤمنين مِن حالِ مَن يَصِيرُ عملُه عليه حسرةً، أمَرهم بأكلِ الحلال؛ لأنَّ مدارَ الطاعةِ عليه(٢).

📖 ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ 📖

ثم علَّل إبانةَ عداوتِه والنهيَ عن اتِّباعِه بقولِه: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٣).

قولُه: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لقولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾، فيؤُولُ إلىٰ كونِه علَّةً للعلة؛ إذ يَسأَلُ السامعُ عن ثبوتِ العداوة مع عدمِ سَبْقِ المعرفة، ومع بُعْدِ ما بيننا وبينه، فقيل: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم ﴾؛ أي: لأنَّه لا يأمُركم إلا بالسُّوء إلخ؛ أي: يحسِّنُ لكم ما فيه مضرَّتُكم؛ لأنَّ عداوتَه أمرٌ خفيٌّ، عرَفْناه مِن آثارِ أفعاله(٤).

لمَّا أخبرَ أنَّه عدوٌّ، أخَذ يذكُرُ ثمرةَ العداوةِ وما نشأ عنها؛ وهو أمرُه بما ذكَر(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (٤/ ١٨٥).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٩٩).

(٣) نظم الدرر (٢/ ٣١٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢/ ١٠٤).

(٥) البحر المحيط (٢/ ١٠٢).

استئنافٌ لبيانِ كيفيَّةِ عداوتِه، وتفصيلٌ لفنونِ شرِّه، وإفسادِه، وانحصارِ معاملتِه معهم في ذلك[(١)].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠﴾

ولمَّا نهاهم ﷻ عن متابعةِ العدوِّ، ذَمَّهم بمتابعتِه -مع أنَّه عدوٌّ- مِن غيرِ حجَّةٍ؛ بل بمجردِ التقليدِ للجهَلةِ، فقال معجِّبًا منهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[(٢)].

وفي هذه الآيةِ المعطوفة زيادةُ تفظيعٍ لحالِ أهل الشرك؛ فبَعْدَ أن أثبَت لهم اتِّباعَهم خطواتِ الشيطانِ فيما حرَّموا على أنفسِهم مِن الطيباتِ، أعقَب ذلك بذِكْرِ إعراضِهم عمَّن يدعوهم إلى اتِّباعِ ما أنزَل اللهُ، وتشبَّثوا بعدمِ مخالَفتِهم ما أَلِفوا عليه آباءَهم، وأعرَضوا عن الدعوةِ -إلى غيرِ ذلك- دُونَ تأمُّلٍ ولا تدبُّرٍ[(٣)].

التفاتٌ إلى الغَيْبةِ؛ تسجيلًا بكمالِ ضلالهم، وإيذانًا بإيجابِ تَعْدادِ ما ذُكِر مِن جناياتِهم؛ لصرفِ الخطابِ عنهم، وتوجيهِه إلى العقلاء، وتفصيلُ مَساوي أحوالِهم لهم على نهجِ المُباثَّةِ[(٤)][(٥)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (١/ ١٨٨).

(٢) نظم الدرر (٢/ ٣٢٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢/ ١٠٦).

(٤) أي المواساة؛ من البث؛ وهو إظهار الحزن.

(٥) إرشاد العقل السليم (١/ ١٨٨).

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمُّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فمثَلُهم حينئذٍ كمَنْ تَبع أعمىٰ في طريقٍ وَعْرٍ خَفِيٍّ في فلَواتٍ شاسعةٍ كثيرةِ الخطَرِ، عطَف عليه ما يرشِدُ إلىٰ تقديرِه مِن قوله منبِّهًا علىٰ أنَّهم صاروا بهذا كالبهائمِ، بل أضَلُّ؛ لأنَّها وإن كانت لا تعقِلُ فهي تَسمَعُ وتُبصِرُ فتهتدي إلىٰ منافعِها: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمُّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[(١)].

لمَّا ذكَر تَلقِّيَهم الدعوةَ إلىٰ اتِّباع الدِّينِ بالإعراض إلىٰ أن بلَغ قولَه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾، وذكَر فسادَ عقيدتِهم إلىٰ أن بلَغ قولَه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ الآيةَ، فالمرادُ بالذين كفروا المضروبِ لهم المثَلُ هنا هو عينُ المرادِ مِن الناسِ في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾، وعينُ المرادِ مِن الذين ظلَموا في قوله: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾، وإنَّما عطَفه بـ«الواو» هنا ولم يَفصِلْهُ؛ لأنَّه أُريدَ هنا جَعْلُ هذه صفةً مستقلَّةً لهم في تَلقِّي دعوةِ الإسلام، ولو لم يَعطِفْه، لَمَا صحَّ ذلك[(٢)].

لمَّا حكىٰ عن الكفارِ أنَّهم عند الدعاء إلىٰ اتِّباع ما أنـزَل اللهُ ترَكوا النظرَ والتدبُّر، وأخلَدوا إلىٰ التقليدِ، وقالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾؛ ضرَب لهم هذا المثَلَ تنبيهًا للسامعين لهم أنَّهم إنَّما وقَعوا فيما وقَعوا فيه بسببِ تَرْكِ الإصغاء، وقلةِ الاهتمامِ بالدِّين، فصيَّرهم مِن هذا الوجهِ بمنزلةِ الأنعام، ومِثْلُ هذا المثَلِ يَزيدُ السامعَ معرفةً بأحوالِ الكفار، ويحقِّرُ إلىٰ الكافرِ نفسَه إذا سَمِع ذلك، فيكونُ كَسْرًا

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٣٣١).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ١١٠).

لقلبه، وتضييقًا لصدره؛ حيث صيَّره كالبهيمةِ، فيكون في ذلك نهايةُ الزَّجْرِ والرَّدْعِ لِمَن يَسمَعُه عن أن يسلُكَ مثلَ طريقِه في التقليدِ[١].

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّ هؤلاء الكفارَ إذا أُمِروا باتِّباع ما أنزَل اللهُ، أعرَضوا عن ذلك، ورجَعوا إلىٰ ما أَلِفوه مِن اتِّباع الباطلِ الذي نشَؤوا عليه، ووجَدوا عليه آباءهم، ولم يَتدبَّروا ما يقالُ لهم، وصَمُّوا عن سماعِ الحق، وخَرِسوا عن النطقِ به، وعَمُوا عن إبصارِ النور الساطع النبويِّ؛ ذكَر هذا التشبيهَ العجيب في هذه الآيةِ منبِّهًا علىٰ حالةِ الكافر في تقليدِه أباه، ومحقِّرًا نفسه؛ إذ صار هو في رُتْبةِ البهيمةِ، أو في رتبةِ داعيها[٢].

لمَّا بيَّن تعالىٰ عدمَ انقيادِهم لِما جاءت به الرُّسلُ، ورَدَّهم لذلك بالتقليدِ؛ عُلِم مِن ذلك أنَّهم غيرُ قابلين للحقِّ، ولا مستجيبين له؛ بل كان معلومًا لكلِّ أحدٍ أنَّهم لن يَزُولوا عن عنادِهم؛ أخبَر تعالىٰ أنَّ مثَلَهم عند دعاءِ الداعي لهم إلىٰ الإيمان كمثَلِ البهائم التي يَنعِقُ لها راعيها، وليس لها علمٌ بما يقولُ راعيها ومناديها، فهُمْ يَسمَعون مجردَ الصوتِ، الذي تقومُ به عليهم الحجَّةُ، ولكنَّهم لا يَفقَهونه فقهًا ينفعُهم؛ فلهذا كانوا صُمًّا لا يَسمَعون الحقَّ سماعَ فَهْمٍ وقَبول، عُمْيًا لا ينظُرون نظَرَ اعتبارٍ، بُكْمًا فلا يَنطِقون بما فيه خيرٌ لهم[٣].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر ﷻ أنَّ الدعاءَ لا يَزيدُهم إلا نفورًا، رُقِّي الخطابُ مِن الناسِ إلىٰ أعلىٰ منهم رتبةً، فقال آمرًا لهم أمرَ إباحةٍ أيضًا، وهو إيجابٌ في تناولِ ما يُقيمُ البِنْيةَ

(١) مفاتيح الغيب (٥/ ١٨٩).
(٢) البحر المحيط (٢/ ١٠٤).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٨١).

ويحفظُها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾(١).

اعتراضٌ بخطابِ المسلمين بالامتنانِ عليهم بإباحةِ ما في الأرض مِن الطيِّبات، جرَّتْ إليه مناسبةُ الانتقالِ؛ فقد انتقَل مِن توبيخِ أهلِ الشرك علىٰ أن حرَّموا ما خلَقه اللهُ مِن الطيباتِ إلىٰ تحذيرِ المسلمين مِن مثلِ ذلك مع بيانِ ما حُرِّم عليهم مِن المطعوماتِ، وقد أعيدَ مضمونُ الجملةِ المتقدِّمة جملةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بمضمونِ جملةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾؛ ليكونَ خطابُ المسلمين مستقلًّا بنفسه؛ ولهذا كان الخطابُ هنا بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾(٢).

لمَّا أباح تعالىٰ لعبادِه أكلَ ما في الأرضِ مِن الحلال الطيِّب، وكانت وجوهُ الحلالِ كثيرةً؛ بيَّن لهم ما حرَّم عليهم؛ لكونِه أقلَّ، فلمَّا بيَّن ما حرَّم، بَقِي ما سِوىٰ ذلك علىٰ التَّحليلِ حتىٰ يَرِدَ منعٌ آخرُ(٣).

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾

ولمَّا قيَّد الإذنَ لهم بالطيِّبِ مِن الرزقِ، افتقَر الأمرُ إلىٰ بيانِ الخبيثِ منه ليُجتنبَ، فبيَّن صريحًا ما حُرِّم عليهم ممَّا كان المشركون يستحِلُّونه ويحرِّمون غيرَه، وأفهَم حِلَّ ما عداه، وأنَّه كثير جدًّا؛ ليزدادَ المخاطَبُ شُكرًا، فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٣٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ١١٤).

(٣) البحر المحيط (٢/ ١٠٨).

ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

استئنافٌ بيانيٌّ؛ ذلك أنَّ الإذنَ بأكلِ الطيِّبات يُثِيرُ سؤالَ مَن يَسأل: ما هي الطيِّباتُ؟ فجاء هذا الاستئنافُ مبيِّنًا المحرَّماتِ -وهي أضدادُ الطيِّباتِ- لتُعرَفَ الطيِّباتُ بطريقِ المضادَّةِ المستفادة مِن صيغةِ الحصر، وإنَّما سلَك طريقَ بيانِ ضدِّ الطيِّبات للاختصار؛ فإنَّ المحرَّماتِ قليلةٌ، ولأنَّ في هذا الحصرِ تعريضًا بالمشركين الذين حرَّموا على أنفسهم كثيرًا مِن الطيِّبات، وأحَلُّوا المَيْتةَ والدمَ، ولمَّا كان القصرُ هنا حقيقيًّا؛ لأنَّ المخاطَبَ به هم المؤمنون، وهم لا يعتقدون خلافَ ما يُشرَعُ لهم؛ لم يكُنْ في هذا القصرِ قلبُ اعتقادِ أحدٍ، وإنَّما حصَل الردُّ به على المشركين بطريقةِ التعريض(٢).

اعلَمْ أنَّه سبحانه وتعالى لمَّا أمَرَنا في الآيةِ السالفة بتناولِ الحلال، فصَّل في هذه الآيةِ أنواعَ الحرام(٣).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾

ولمَّا كان في بيانِ هذه المحرَّماتِ الإشارةُ إلى عَيْبِ مَن استحَلَّها مِن العربِ وترَك ما أُمِر به مِن الطيِّباتِ جهلًا وتقليدًا، تلاها بتكريرِ عَيْبِ الكاتمين لِما عندهم مِن الحقِّ ممَّا أُنزِلَ في كتابِهم مِن صفةِ النبيِّ ﷺ، وأمرِ الحجِّ، وأمرِ القِبْلة، وغيرِها

(١) نظم الدرر (٢/ ٣٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ١١٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٥/ ١٩١).

مِمَّا يُصدِّق هذا الكتابَ الذي لا ريبَ فيه؛ خوفًا على انقطاعِ ما كان يُهدَىٰ إليهم لرئاستِهم مِن دِينِهم، على وجهٍ عائبٍ لهم لاستحلالِهم أكلَ السُّحْتِ على علمٍ، مُبيِّنٍ أنَّهم استحَقُّوا الذَّمَّ مِن وجهَين: أحدهما: نفسُ الأكلِ على هذا الوجهِ المؤدي إلى الإعراضِ عن الطيِّباتِ، والموافقةِ للعرب. الثاني: كونُه على كتمانِ ما يَعلَمون مِن الحقِّ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١).

عَودٌ إلى مُحاجَّةِ أهلِ الكتاب لاحقٌ بقولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ ﴾، بمناسبةِ قولِه: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ ﴾؛ تحذيرًا للمسلمين ممَّا أحدَثه اليهودُ في دِينِهم مِن تحريمِ بعضِ ما أحَلَّ اللهُ لهم، وتحليلِ بعضِ ما حرَّم اللهُ عليهم؛ لأنَّهم كانوا إذا أرادوا التوسيعَ والتضييق، ترَكوا أن يَقرؤوا مِن كتابِهم ما غيَّروا العملَ بأحكامه، وفي هذا تهيئةٌ للتخلُّصِ إلى ابتداءِ شرائعِ الإسلام؛ فإنَّ هذا الكلامَ فيه إبطالٌ لِما شرَعه أهلُ الكتاب في دِينِهم، فيكونُ التخلُّصُ ملوَّنًا بلونَيِ الغرضِ السابق، والغرضِ اللاحق(٢).

ثم أعاد تعالى وعيدَ كاتِمِي أحكامِه، إثرَ ما ذكَره مِن الأحكامِ؛ تحذيرًا لهذه الأمَّةِ أن يسلُكوا سبيلَ مَن عُنُوا به؛ وهُمْ أهلُ الكتابِ، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٣٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ١٢٢).

(٣) محاسن التأويل (١/ ٤٧٨).

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥ ﴾

ولمَّا ذكَر جزاءَهم، أتبعه ترجمةَ حالِهم مؤكِّدًا لبُعْدِهم، فقال: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾[1].

إن جعَلتَ ﴿ أُولَٰٓئِكَ ﴾ مبتدأً ثانيًا لجملةٍ هي خبرٌ ثانٍ عن المبتدأِ الأول؛ وهو اسمُ ﴿ إِنَّ ﴾ في قولِه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾؛ فالقولُ فيه كالقولِ في نظيرِه؛ وهو ﴿أُولَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾، ونُكْتةُ تكريرِه أنَّه للتنبيهِ على أنَّ المشارَ إليه جديرٌ بأحكامٍ أخرىٰ غيرِ الحُكْمِ السابق، وأنَّ تلك الأحكامَ لأهميَّتِها ينبغي ألا تُجعَلَ معطوفةً تابعة للحُكْمِ الأول، بل تُفرَدُ بالحُكْميَّةِ، وإن جعَلتَه مبتدأً مستقلًّا مع جملتِه، فالجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لبيانِ سببِ انغماسهم في عذابِ النار؛ لأنَّه وعيدٌ عظيم جدًّا يستوجِبُ أن يَسأَلَ عنه السائلُ، فيُبيَّن بأنَّهم أخذوا الضَّلالَ ونبَذوا الهدىٰ، واختاروا العذابَ ونبَذوا المغفرةَ، ومجيءُ المسنَدِ إليه حينئذٍ اسمَ إشارةٍ لتفظيعِ حالِهم؛ لأنَّه يشيرُ لهم بوصفِهم السابقِ؛ وهو كتمانُ ما أنزَل اللهُ مِن الكتاب[2].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦ ﴾

ولمَّا ذكَر جزاءهم، وشرَح حالهم، والتَّعْجيبَ مِن أمرهم؛ ذكَر السَّببَ الموجِبَ لهذا الإبعادِ العظيم، والتَّهديدِ الكبير، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٣٥٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢/ ١٢٤، ١٢٥).
(٣) نظم الدرر (٢/ ٣٥٤).

جِيءَ باسمِ الإشارة لربطِ الكلام اللاحقِ بالسابق علىٰ طريقةِ العرب في أمثالِه إذا طال الفصلُ بَيْنَ الشيءِ وما ارتبَط به مِن حُكْمٍ أو علَّةٍ أو نحوِهما، والجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لاستغرابِ تعمُّدِهم كتمانَ ما أنزَل اللهُ مِن الكتاب، وإنَّ هذا الصُّنْعَ الشنيع لا يكون إلا عن سببٍ عظيم، فبُيِّنَ بقولِه تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾(١).

إشارةٌ إلىٰ ما تقدَّم مِن الوعيدِ؛ لأنَّه تعالىٰ لمَّا حكَم علىٰ الذين يكتُمون البيناتِ بالوعيد الشديد، بيَّن أنَّ ذلك الوعيدَ علىٰ ذلك الكتمانِ إنَّما كان لأنَّ اللهَ نزَّل الكتابَ بالحق في صفةِ محمَّدٍ ﷺ، وأنَّ هؤلاء اليهودَ والنصارىٰ لأجلِ مُشاقَّةِ الرسول يُخْفُونه ويُوقِعون الشُّبْهةَ فيه؛ فلا جرَمَ استحَقُّوا ذلك الوعيدَ الشديد، ثم قد تقدَّم في وعيدِهم أمورٌ: أحدها: أنَّهم اشترَوُا العذابَ بالمغفرة. وثانيها: اشترَوُا الضَّلالةَ بالهدىٰ. وثالثها: أنَّ لهم عذابًا أليمًا. ورابعها: أنَّ اللهَ لا يزكِّيهم. وخامسها: أنَّ اللهَ لا يكلِّمُهم(٢).

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

لمَّا بيَّن ﷻ كُفْرَ أهلِ الكتاب الطاعنين في نَسْخِ القِبْلةِ بتكذيبِ الرسول ﷺ، وكتمانِ الحقِّ، وغيرِ ذلك إلىٰ أن ختَم بكفرِهم بالاختلافِ في الكتاب، وكتمانِ ما فيه مِن مؤيِّدات الإسلام؛ أتبَعه الإشارةَ إلىٰ أنَّ أمرَ الفروع أحَقُّ مِن أمرِ الأصول؛

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٢٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٥/ ٢٠٩).

لأنَّ الفروعَ ليست مقصودةً لذاتِها، والاستقبالُ الذي جعلوا مِن جملةِ شِقاقِهم أن كتَموا ما عندهم مِن الدَّلالةِ علىٰ حَقِّيَّته وأكثَروا الإفاضةَ في عَيْبِ المتَّقين به ليس مقصودًا لذاتِه؛ وإنَّما المقصودُ بالذات الإيمانُ، فإذا وقَع، تَبِعتْهُ جميعُ الطاعاتِ؛ مِن الصلاةِ المشترَطِ فيها الاستقبالُ، وغيرِها، فقال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1].

هذا إقبالٌ علىٰ خطابِ المؤمنين بمناسبة ذِكْرِ أحوالِ أهلِ الكتاب، وحسَدِهم المؤمنين علىٰ اتِّباعِ الإسلام؛ مرادٌ منه تلقينُ المسلمين الحجَّةَ علىٰ أهلِ الكتاب في تهويلِهم علىٰ المسلمين إبطالَ القِبْلةِ التي كانوا يُصَلُّون إليها؛ ففي ذلك تعريضٌ بأهلِ الكتاب؛ فأهلُ الكتاب رأَوْا أنَّ المسلمين كانوا علىٰ شيءٍ مِن البِرِّ باستقبالِهم قِبْلتَهم، فلمَّا تحوَّلوا عنها، لَمَزوهم بأنَّهم أضاعوا أمرًا مِن أمور البِرِّ؛ يقولُ: عَدِّ عن هذا، وأعرِضوا عن تهويلِ الواهنين، وهَبُوا أنَّ قِبْلةَ الصلاةِ تغيَّرتْ، أو كانت الصلاةُ بلا قِبْلةٍ أصلًا، فهل ذلك أمرٌ له أثرٌ في تزكيةِ النفوس واتصافِها بالبِرِّ؟! فذِكْرُ المشرقِ والمغرب اقتصارٌ علىٰ أشهَرِ الجهات، أو هو للإشارةِ إلىٰ قِبْلةِ اليهود وقِبْلة النصارىٰ؛ لإبطالِ تهويلِ الفريقين علىٰ المسلمين حين استقبَلوا الكعبةَ[2].

ومناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها ظاهرةٌ؛ لأنَّها إن كانت في أهلِ الكتاب، فقد جرىٰ ذِكْرُهم بأقبَحِ الذِّكْرِ؛ مِن كتمانِهم ما أنزَل اللهُ، واشترائهم به ثمنًا قليلًا، وذِكْرُ ما أُعِدَّ

---

(١) نظم الدرر (٣/١).

(٢) التحرير والتنوير (١٢٨/٢).

لهم، ولم يَبقَ لهم ممَّا يُظهِرون به شِعارَ دِينِهم إلا صلاتُهم، وزعمُهم أنَّ ذلك البِرُّ؛ فرَدَّ عليهم بهذه الآيةِ. وإن كانت في المؤمنين، فهو نهيٌ لهم أن يَتعلقوا مِن شريعتِهم بأيسَرِ شيءٍ كما تعلَّق أهلُ الكتابينِ، ولكن عليهم العملُ بجميعِ ما في طاقتهم مِن تكاليفِ الشريعة علىٰ ما بيَّنها اللهُ تعالىٰ(١).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ ﴾

لمَّا تقدَّم أنَّ شرطَ رفعِ الإثم عن المضطرِّ تَرْكُ العدوان، وكان العدوانُ في ذلك وفي غيرِه ربما أدَّىٰ إلىٰ القتلِ، وتلا ذلك بما استتبَعه -كما تقدَّم- إلىٰ أن ختَم بهذه الآيةِ، وختَمها بمدحِ الصبر، والصدقِ في دعوىٰ الإيمانِ، والوفاءِ بالعهد وكلِّ شيء، وكان مِن جملةِ ما خالَف فيه أهلُ الكتاب العهدَ أمرُ سَفْكِ الدماء، فغيَّروه كلَّه أو بعضَه، وكان الصبرُ علىٰ بذلِ الرُّوحِ أعظَمَ الصبر، وفعلُه أعظَمَ مُصدِّقٍ في الإيمانِ، والاستسلامُ للقِصاصِ أشَدَّ وفاءٍ بالعهدِ؛ أخبَر المؤمنين بما أوجَب عليهم مِن ذلك، وما يتبعُه، فقال تعالىٰ ملذِّذًا لهم بالإقبالِ عليهم بالخطابِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾(٢).

أعيدَ الخطابُ بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾؛ لأنَّ هذا صِنفٌ مِن التشريعِ لأحكامٍ ذاتِ بالٍ في صلاحِ المجتمع الإسلاميِّ، واستتبابِ نظامه وأمنِه، حين صار المسلمون بعد

---

(١) البحر المحيط (٢/ ١٣٠).
(٢) نظم الدرر (٣/ ٢١).

الهجرةِ جماعةً ذاتَ استقلالٍ بنفسها ومدينتِها؛ فإنَّ هاته الآياتِ كانت مِن أولِ ما أُنزِلَ بالمدينة عامَ الهجرة؛ كما ذكَره المفسِّرون في سببِ نزولها، في تفسيرِ قوله تعالىٰ بعد هذا: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾ الآيةَ. تلك أحكامٌ متتابِعة مِن إصلاحِ أحوالِ الأفراد وأحوالِ المجتمع، وابتُدئ بأحكامِ القِصاص؛ لأنَّ أعظَمَ شيءٍ مِن اختلالِ الأحوال اختلالُ حفظِ نفوس الأمَّة، وقد أفرَط العربُ في إضاعةِ هذا الأصلِ؛ يَعلَم ذلك مَن له إلمامٌ بتاريخِهم وآدابهم وأحوالهم؛ فقد بلَغ بهم تطرُّفُهم في ذلك إلىٰ وَشْكِ الفَناءِ؛ لو طال ذلك فلم يَتدارَكْهم اللهُ فيه بنِعْمةِ الإسلام، فكانوا يُغِيرُ بعضُهم علىٰ بعضٍ؛ لغنيمةِ أنعامه وعبيدِه ونسائه، فيدافعُ المُغارُ عليه، وتَتلَفُ نفوسٌ بَيْنَ الفريقينِ، ثم ينشأ عن ذلك طلبُ الثارات، فيَسعىٰ كلُّ مَن قُتِل له قتيلٌ في قتلِ قاتلِ وليِّه، وإن أعوزَه ذلك، قتَل به غيرَه مِن واحدٍ كُفْءٍ له، أو عددًا يراهم لا يوازِنونه، ويُسمُّون ذلك بالتكايُلِ في الدمِ؛ أي: كأنَّ دمَ الشريفِ يكالُ بدماءٍ كثيرة، فربَّما قدَّروه باثنينِ، أو بعشَرةٍ، أو بمائة، وهكذا يدور الأمرُ، ويتزايدُ تزايدًا فاحشًا حتىٰ يَصِيرَ تفانيًا، وينتقلُ الأمرُ مِن قبيلةٍ إلىٰ قبيلة بالولاءِ والنَّسَب، والحِلْفِ والنُّصرة، حتىٰ صارت الإِحَنُ فاشيةً، فتخاذَلوا بينهم، واستنصَر بعضُ القبائل علىٰ بعضٍ، فوجَد الفُرْسُ والرُّوم مَدخَلًا إلىٰ التفرقةِ بينهم، فحكَموهم، وأرهَبوهم[(١)].

ومناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها: أنَّه لمَّا حلَّل ما حلَّل قبلُ، وحرَّم ما حرَّم، ثم أتبَع بذِكْرِ مَن أخَذ مالًا مِن غيرِ وجهه، وأنَّه ما يأكلُ في بطنِه إلا النارَ، واقتضىٰ ذلك انتظامَ جميعِ المحرَّمات مِن الأموالِ، ثم أعقَب ذلك بذِكرِ مَن اتصَف بالبِرِّ، وأثنىٰ عليهم بالصفاتِ الحميدة التي انطوَوْا عليها؛ أخَذ يذكُرُ تحريمَ الدماءِ، ويستدعي حِفْظَها وصَوْنَها، فنبَّه بمشروعيةِ القِصاصِ علىٰ تحريمها، ونبَّه علىٰ جوازِ أخذِ مالٍ بسببها،

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٣٤).

وأنَّه ليس مِن المال الذي يؤخَذُ مِن غيرِ وجهه، وكان تقديمُ تبيينِ ما أحَلَّ اللهُ وما حرَّم مِن المأكولِ علىٰ تبيينِ مشروعية القِصاصِ؛ لعمومِ البلوىٰ بالمأكول؛ لأنَّ به قِوامَ البُنْيةِ، وحِفْظَ صورةِ الإنسان. ثم ذكَر حُكْمَ متلِفِ تلك الصورةِ؛ لأنَّ مَن كان مؤمنًا يندُرُ منه وقوعُ القتل؛ فهو بالنسبة لِمَن اتصَف بالأوصاف السابقة بعيدٌ منه وقوعُ ذلك، وكان ذِكْرُ تقديمِ ما تعُمُّ به البلوىٰ أعَمَّ، ونبَّه أيضًا علىٰ أنَّه وإن عرَض مِثلُ هذا الأمرِ الفظيع لِمَن اتصَف بالبرِّ، فليس ذلك مُخرِجًا له عن البرِّ، ولا عن الإيمانِ[(١)].

شروعٌ في بيانِ بعضِ الأحكام الشرعية علىٰ وجهِ التلافي لِما فرَط مِن المُخلِّين، بما تقدَّم مِن قواعدِ الدِّينِ التي يُبنَىٰ عليها أمرُ المعاشِ والمَعاد[(٢)].

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

لمَّا أخبَر ﷻ بفائدةِ العفوِ، أخبَر بفائدةِ مقابِلِه؛ تتميمًا لتأنيبِ أهل الكتاب علىٰ عُدُولِهم عن النَّصِّ، وعَمَاهم عن الحِكْمةِ، فقال: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[(٣)].

تذييلٌ لهاتِهِ الأحكامِ الكبرىٰ، طَمْأنَ به نفوسَ الفريقينِ: أولياءِ الدمِ والقاتلين في قَبولِ أحكام القِصاصِ؛ فبيَّن أنَّ في القِصاصِ حياةً، والتنكيرُ في ﴿حَيَوٰةٌ﴾ للتعظيمِ بقرينة المقامِ؛ أي: في القِصاصِ حياةٌ لكم؛ أي: لنفوسِكم؛ فإنَّ فيه ارتداعَ الناسِ عن قتلِ النفوس، فلو أُهمِل حُكْمُ القِصاصِ، لَمَا ارتدَع الناسُ؛ لأنَّ أشَدَّ ما تتوقَّاه نفوسُ البشرِ مِن الحوادثِ هو الموتُ؛ فلو عَلِم القاتلُ أنَّه يَسلَم مِن الموت، لأقدَمَ علىٰ القتل مستخِفًّا بالعقوبات، ولو تُرِك الأمرُ للأخذِ بالثأر كما كان عليه في الجاهليةِ،

---

(١) البحر المحيط (٢/ ١٤٣).

(٢) روح المعاني (١/ ٤٤٥).

(٣) نظم الدرر (٣/ ٣٠).

لأفرَطوا في القتل، وتسلسَلَ الأمرُ؛ كما تقدَّم؛ فكان في مشروعيةِ القِصاصِ حياةٌ عظيمة مِن الجانبينِ، وليس الترغيبُ في أخذِ مالِ الصلح والعفوِ بناقضٍ لحِكْمةِ القِصاص؛ لأنَّ الازدجارَ يحصُلُ بتخييرِ الوليِّ في قَبولِ الدِّيَةِ، فلا يطمئنُّ مضمِرُ القتلِ إلىٰ عفوِ الوليِّ إلا نادرًا، وكفىٰ بهذا في الازدجارِ(١).

اعلَمْ أنَّه سبحانه وتعالى لمَّا أوجَب في الآيةِ المتقدِّمة القِصاصَ، وكان القِصاصُ مِن بابِ الإيلام؛ توجَّهَ فيه سؤالٌ؛ وهو أن يقالَ: كيف يَليقُ بكمالِ رحمتِه إيلامُ العبدِ الضعيف؟ فلأجلِ دفعِ هذا السؤال، ذكَر عَقِيبَه حِكْمةَ شرعِ القِصاصِ، فقال: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٢).

بيانٌ لمحاسنِ الحُكْمِ المذكور علىٰ وجهٍ بديع لا تُنالُ غايتُه؛ حيث جُعِل الشيءُ محَلًّا لضِدِّه، وعُرِّف القِصاصُ ونُكِّر الحياةُ؛ ليدُلَّ علىٰ أنَّ في هذا الجنسِ نوعًا مِن الحياة عظيمًا لا يبلُغُه الوصفُ؛ وذلك لأنَّ العلمَ به يَردَعُ القاتلَ عن القتل، فيَتسبَّب لحياةِ نَفْسَينِ، ولأنَّهم كانوا يقتُلون غيرَ القاتلِ، والجماعةَ بالواحد، فتثُورُ الفتنةُ بينهم؛ فإذا اقتُصَّ مِن القاتل، سَلِم الباقون، فيكونُ ذلك سببًا لحياتهم(٣).

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

لمَّا أظهَرَ سبحانه وتعالى وجوهَ التزكيةِ في هذه المخاطَبات، وما ألزَمه مِن الكتابِ وعلَّمه مِن الحِكْمة، وأظهَرَ استنادَ ذلك كلِّه إلىٰ تَقْوىٰ تكون وصفًا ثابتًا، أو استجدادًا معالجًا حسَبَ ما ختَم به آيةَ البِرِّ، وما ختَم به آيةَ القِصاصِ؛ رفَع رتبةَ الخطابِ إلىٰ ما هو

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٤٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٥/ ٢٢٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ١٩٦).

حقٌّ علىٰ المتَّقين حين كان الأولُ مكتوبًا علىٰ المترجينَ لأن يتَّقُوا؛ تربيةً وتزكيةً بخطابٍ يتوسَّلُ به إلىٰ خطابٍ أعلىٰ في التزكيةِ؛ لينتهيَ في الخطابِ مِن رتبةٍ إلىٰ رتبة إلىٰ أن يستوفيَ نهاياتِ رُتَبِ أسنانِ القلوب وأحوالها؛ كما تقدَّمت الإشارةُ إليه، ولمَّا كان في الخطابِ السابق ذِكْرُ القتلِ والقِصاصِ الذي هو حالُ حَضْرةِ الموت، انتظَم به ذِكْرُ الوصيَّةِ؛ لأنَّه حالُ مَن حضَره الموتُ، فقال: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[1].

استئنافٌ ابتدائيٌّ لبيانِ حُكْمِ المال بعد موتِ صاحبه؛ فإنَّه لم يَسبِقْ له تشريعٌ، ولم يفتتحْ بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾؛ لأنَّ الوصيةَ كانت معروفةً قبل الإسلام؛ فلم يكُنْ شرعُها إحداثَ شيءٍ غيرِ معروف؛ لذلك لا يحتاجُ فيها إلىٰ مزيدِ تنبيهٍ لتَلقِّي الحُكْمِ، ومناسبةُ ذِكْرِه أنَّه تغييرٌ لِما كانوا عليه في أولِ الإسلام مِن بقايا عوائدِ الجاهلية في أموالِ الأموات؛ فإنَّهم كانوا كثيرًا ما يَمنَعون القريبَ مِن الإرثِ بتوهُّمِ أنَّه يَتمنَّىٰ موتَ قريبِه ليَرِثَه، وربما فضَّلوا بعضَ الأقاربِ علىٰ بعضٍ، ولمَّا كان هذا ممَّا يُفضِي بهم إلىٰ الإِحَنِ، وبها تَختلُّ الحالةُ الاجتماعية بإلقاءِ العداوة بَيْنَ الأقاربِ؛ كان تغييرُها إلىٰ حالِ العدلِ فيها مِن أهَمِّ مقاصدِ الإسلام، أمَّا مناسبةُ ذِكْرِه عَقِبَ حُكْمِ القِصاص، فهو جريانُ ذِكْرِ موتِ القتيل، وموتِ القاتل قِصاصًا[2].

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١ ﴾

ولمَّا تسبَّب عن كونِه فِعْلَ ما دعَتْ إليه التقوىٰ مِن العدلِ وجوبُ العملِ به، قال: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (٣/ ٣٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ١٤٦).

(٣) نظم الدرر (٣/ ٣٦).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر أمرَ الوصيةِ ووجوبَها، وعظَّم أمرَها؛ أتبَعه بما يَجري مَجرىٰ الوعيدِ في تغييرِها[1].

مناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها ظاهرةٌ؛ وذلك أنَّه لمَّا ذكَر تعالىٰ القتلَ في القِصاصِ والدِّيَةَ، أتبَع ذلك بالتنبيهِ علىٰ الوصيةِ، وبيانِ أنَّه ممَّا كتَبه اللهُ علىٰ عبادِه؛ حتىٰ يتنبَّهَ كلُّ أحدٍ فيوصِيَ خوفَ مفاجأةِ الموتِ، فيموتَ علىٰ غيرِ وصيةٍ. ولا ضرورةَ تدعو إلىٰ أنَّ ﴿كُتِبَ﴾ أصلُه العطفُ علىٰ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾، التقدير: وكتب عليكم، وأنَّ «الواو» حُذِفت للطُّولِ؛ بل هذه جملةٌ مستأنَفة ظاهرةُ الارتباط بما قبلها؛ لأنَّ مَن أشرَفَ علىٰ أن يُقتصَّ منه فهو بعضُ مَن حضَره الموتُ، ومعنىٰ حضورِ الموت؛ أي: حضورِ مقدِّماته وأسبابِه؛ مِن العِلَل، والأمراض، والأعراضِ المَخُوفة، والعربُ تُطلِق علىٰ أسبابِ الموت موتًا علىٰ سبيل التجوُّز[2].

ولمَّا كان الموصي قد يمتنِعُ مِن الوصية؛ لِما يَتوهَّمه أنَّ مَن بعده قد يبدِّلُ ما وصَّىٰ به؛ قال تعالىٰ: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾[3].

﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾

ولمَّا كان التَّحذيرُ مِن التَّبديلِ إنَّما هو في عملِ العدل، وكان الموصي ربَّما جارَ في وصيَّتِه -لجهلٍ أو غرَضٍ-؛ تسبَّب عنه قولُه: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (٥/ ٢٣٥).

(٢) البحر المحيط (٢/ ١٥٦).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٥).

(٤) نظم الدرر (٣/ ٣٧).

تفريعٌ علىٰ الحُكْمِ الذي تقدَّمه؛ وهو تحريمُ التبديل؛ فكما تفرَّع عن الأمرِ بالعدلِ في الوصية وعيدُ المبدِّلِ لها، وتفرَّع عن وعيدِ المبدِّل الإذنُ في تبديلٍ هو مِن المعروفِ؛ وهو تبديلُ الوصيةِ التي فيها جَوْرٌ وحَيْفٌ[١] بطريقةِ الإصلاح بَيْنَ الموصىٰ لهم وبَيْنَ مَن ناله الحَيْفُ مِن تلك الوصيةِ؛ بأن كان جديرًا بالإيصاء إليه، فتركه الموصي، أو كان جديرًا بمقدارٍ، فأجحَف به الموصي؛ لأنَّ آيةَ الوصيةِ حصَرتْ قِسْمةَ تركةِ الميتِ في اتِّباع وصيَّتِه، وجعَلتْ ذلك موكولًا إلىٰ أمانتِه بالمعروف، فإذا حافَ حَيْفًا واضحًا، وجنَف[٢] عن المعروفِ؛ أُمِر ولاةُ الأمور بالصُّلح[٣].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا توعَّد مَن يبدِّلُ الوصيةَ، بيَّن أنَّ المرادَ بذلك التَّبديلِ أن يبدِّلَهُ عن الحقِّ إلىٰ الباطلِ، أمَّا إذا غيَّره عن باطلٍ إلىٰ حقٍّ علىٰ طريقِ الإصلاح، فقد أحسَنَ[٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾

ولمَّا أباح سبحانه الأكلَ ممَّا خلَقه دليلًا علىٰ الوَحْدانيَّةِ والرحمةِ العامة والخاصة، وكان مِن طَبْعِ الإنسانِ الاستئثارُ، وكان الاستئثارُ جارًّا إلىٰ الفِتَنِ، وأتبَعه حُكْمَ المضطرِّ، وأشار إلىٰ زَجْرِه عن العدوانِ بتقييدِه عنه في حالِ التَّلَفِ، فكان في ذلك زَجْرٌ لغيرِه بطريقِ الأَوْلىٰ، وأَوْلاه النَّدْبَ إلىٰ التخلِّي عمَّا دخَل في اليدِ مِن متاعِ الدنيا للأصنافِ الستة ومَن لافَّهُمْ[٥]، ثم الإيجابَ بالزكاةِ تزهيدًا في زهرةِ الحياة الدنيا؛

---

(١) أي: ظلم.

(٢) أي: مال وجار.

(٣) التحرير والتنوير (٢/ ١٥٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٥/ ٢٣٦).

(٥) أي: قاربهم.

ليَجتثَّ العدوانَ مِن أصلِه، وقفَّىٰ ذلك بحُكْمِ مَن قد يَعدُو، ثم بما تَبِعه مِن التخلِّي عن المالِ في حضرةِ الموت، فتدرَّبتِ النفسُ في الزهدِ بما هو معقولُ المعنىٰ بادئَ بَدْءٍ مِن التخلِّي عنه لِمَن ينتفِعُ به؛ أتبَعه الأمرَ بالتخلِّي عنه، لا لمحتاجٍ إليه، بل للهِ الذي أوجَده؛ لمجرَّدِ تزكيةِ النفس، وتطهيرِها؛ لتهيُّئِها لِما يقتضيه عليها صفةُ الصَّمَدية مِن الحِكْمةِ؛ هذا مع ما للقِصاصِ والوصيَّة مِن المناسبةِ للصوم مِن حيث إنَّ في القِصاصِ قَتْلَ النفسِ حسًّا، وفي الصومِ قَتْلُ الشهوةِ؛ السببِ للوطء؛ السببِ لإيجاد النفس حسًّا، وفيه حياةُ الأجسادِ معنًىٰ، وفي الصومِ حياةُ الأرواحِ بطهارةِ القلوب، وفراغِها للتفكُّر، وتهيُّئِها لإفاضة الحِكْمةِ والخشية الداعيةِ إلىٰ التقوىٰ، وإماتةِ الشهوة، وشهرُه شهرُ الصبرِ المستعانُ به علىٰ الشكرِ، وفيه تذكيرٌ بالضُّرِّ الحاثِّ علىٰ الإحسانِ إلىٰ المضرور، وهو مَدْعاةٌ إلىٰ التخلِّي مِن الدنيا، والتحلِّي بأوصافِ الملائكة؛ ولذلك نزَل فيه القرآنُ المتلقَّىٰ مِن المَلِكِ؛ فهو أنسَبُ شيءٍ لآيةِ الوصية المأمورِ بها المتقون بالتخلي مِن الدنيا عند مقارَبةِ الاجتماعِ بالملائكة، وختَمها بالمغفرةِ والرحمة إشارةً إلىٰ أنَّ الصائمَ مِن أقربِ الناس إليهما، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾(١).

مناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها: أنَّه أخبَر تعالىٰ أولًا بكَتْبِ القِصاصِ؛ وهو: إتلافُ النفوس، وهو مِن أشَقِّ التكاليف؛ إذ يجبُ علىٰ القاتلِ إسلامُ نفسِه للقتل، ثم أخبَر ثانيًا بكَتْبِ الوصية؛ وهو: إخراجُ المالِ الذي هو عديلُ الرُّوح، ثم انتقل ثالثًا إلىٰ كَتْبِ الصيام؛ وهو: مُنهِكٌ للبدَنِ، مُضعِفٌ له، مانعٌ وقاطع ما أَلِفَه الإنسانُ مِن الغذاء بالنهار؛ فابتدأ بالأشَقِّ، ثم بالأشَقِّ بعده، ثم بالشاقِّ؛ فهذا انتقالٌ فيما كتَبه اللهُ علىٰ

(١) نظم الدرر (٣/ ٣٩-٤١).

عبادِه في هذه الآيةِ، وكان فيما قبل ذلك قد ذكَر مِن أركانِ الإسلام ثلاثةً: الإيمانَ، والصلاة، والزكاة، فأتىٰ بهذا الرُّكنِ الرابع؛ وهو الصومُ(١).

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾

ولمَّا كان لهذه الأمَّةِ جَمْعٌ لِما في الكُتبِ والصُّحف، كانت مبادئُ أحكامِها علىٰ حُكْمِ الأحكامِ المتقدِّمة؛ فكما وُجِّهوا وِجهةَ أهلِ الكتاب ابتداءً، ثم خُتِم لهم بالوِجهةِ إلىٰ الكعبةِ انتهاءً؛ كذلك صُوِّموا صومَ أهلِ الكتابِ ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٢).

في انتصابِ ﴿ أَيَّامًا ﴾ أقوالٌ: الأول: نصبٌ علىٰ الظَّرف؛ كأنَّه قيل: كُتِب عليكم الصيامُ في أيامٍ، ونظيرُه قولُك: نويتُ الخروجَ يومَ الجمعة. والثاني -وهو قولُ الفرَّاء-: أنَّه خبرُ ما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ كقولهم: أُعطيَ زيدٌ مالًا. والثالث: علىٰ التفسيرِ. والرابع: بإضمارٍ؛ أي: فصُومُوا أيامًا(٣).

ولمَّا ذكَر أنَّه فرَض عليهم الصيامَ، أخبرَ أنَّه ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾؛ أي: قليلةً، في غايةِ السهولة، ثم سهَّل تسهيلًا آخرَ، فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ

(١) البحر المحيط (٢/ ١٧٧).

(٢) نظم الدرر (٣/ ٤٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٥/ ٢٤١).

أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(١).

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) ﴾

ولمَّا أبهَمَ الأمرَ أولًا في الأيامِ، وجعَله واجبًا مخيَّرًا علىٰ المُطِيقِ؛ عيَّن هنا وبتَّ الأمر فيه بقولِه تعالىٰ: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٢).

هذه الآياتُ تكملةٌ للآياتِ السابقة، وأنْ لا نَسْخَ في خلالِ هاته الآياتِ؛ فقولُه: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوف، تقديرُه: هي؛ أي: الأيامُ المعدودات شهرُ رمضان، والجملةُ مستأنفةٌ بيانيًّا؛ لأنَّ قوله: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ يُثيرُ سؤالَ السامع عن تعيينِ هذه الأيامِ، ويؤيِّدُ ذلك قراءةُ مجاهدٍ: «شهرًا» بالنصبِ علىٰ البدليَّةِ مِن ﴿ أَيَّامًا ﴾ بدَلَ تفصيلٍ(٣).

(١) تفسير السعدي (ص: ٨٦).

(٢) نظم الدرر (٣/ ٥٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢/ ١٦٩).

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

ولمَّا كان دعاءُ الصائمِ مُجابًا، وكان هذا الشهرُ بالخصوصِ مظنَّةَ الإجابةِ للصيام، ولمكانِ ليلة القَدْرِ، وكان ذِكْرُ كبريائه ﷻ مهيِّئًا لعبادِه للإحساس بالبُعْدِ، فكان ربما أوقَعَ في وَهْمِ أنَّه علىٰ عادةِ المتكبِّرين في بُعْدِ المسافةِ عن مَحَالِّ العبيدِ، وأنَّه إن كان بحيث يَسمَعُ، لم يكُنْ لأحدٍ منهم أن يَسألَه إلا بواسطةٍ؛ رفع هذا الوَهْمَ بقولِه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(١).

لمَّا أثبَت الحقُّ ﷻ كتابَ الصيام لعباده لِما أرادهم له مِن إعلائهم إلىٰ خِبْءِ جزائِه، وأطلَعَهم علىٰ ما شاء في صومِهم مِن ملكوتِه بحضورِ ليلة القَدْرِ، فأنهاهم إلىٰ التكبيرِ علىٰ عظيمِ ما هداهم إليه، واستخلَفهم في فضلِه وشكرِ نِعْمتِه بما خوَّلهم مِن عظيمِ فضله، وأظهَرَ عليهم مِن رُواءِ بركاتِه ما يدعو الناظرين لهم إلىٰ سؤالهم عمَّا نالوه مِن ربِّهم، فيُلِيحون(٢) لِمَن دُونَهم ما به يَلِيقُ بهم رتبةً رتبة؛ يؤثَرُ عن عُمَرَ رضي الله تعالىٰ عنه أنَّه قال: «كان رسولُ الله ﷺ يكلِّمُ أبا بكرٍ رضي الله تعالىٰ عنه، فكأنَّما يتكلمانِ بلسانٍ أعجَمَ، لا أفهَمُ ممَّا يقولانِ شيئًا»(٣)، إلىٰ أن ينتهيَ الأمرُ إلىٰ أدنىٰ السائلين الذين هم في رتبةِ حضرةٍ بعدُ، فيُبشَّرون بمطالَعةِ القُرْبِ، فقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٣/ ٦٩).

(٢) من (ألاحَ) بمعنىٰ: أومض، أي: أومأ وأشار.

(٣) أورده المناوي في فيض القدير (٣/ ٤٤).

(٤) نظم الدرر (٣/ ٧٠).

الجملةُ معطوفةٌ على الجُمَلِ السابقة المتعاطِفة؛ أي: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، ثم التفتَ إلى خطابِ النبيِّ ﷺ وحده؛ لأنَّه في مقامِ تبليغٍ، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾؛ أي: العبادُ الذين كان الحديثُ معهم، ومقتضى الظاهرِ أن يقالَ: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ وتَدْعون فأستجيبَ لكم، إلا أنَّه عدَلَ عنه؛ ليحصُلَ في خلالِ ذلك تعظيمُ شأنِ النبي ﷺ بأنَّه يَسألُه المسلمون عن أمرِ الله تعالى، والإشارةُ إلى جوابِ مَن عسى أن يكونوا سألوا النبيَّ ﷺ عن كيفيَّةِ الدعاء: هل يكون جَهْرًا أو سِرًّا؟ وليكونَ نَظْمُ الآيةِ مؤذِنًا بأنَّ اللهَ تعالى بعد أن أمَرهم بما يجبُ له عليهم، أكرَمهم، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾[1].

في كيفيَّةِ اتصالِ هذه الآيةِ بما قبلها وجوهٌ: الأول: أنَّه تعالى لمَّا قال بعد إيجابِ فرضِ الصومِ وبيانِ أحكامه: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، فأمَر العبدَ بالتَّكبيرِ الذي هو الذِّكْرُ، وبالشُّكرِ؛ بيَّن أنَّه سبحانه بلُطْفِه ورحمتِه قريبٌ مِن العبد، مُطَّلعٌ على ذِكْرِه وشكرِه، فيَسمَعُ نداءَه، ويُجِيبُ دعاءَه، ولا يخيِّبُ رجاءَه. والثاني: أنَّه أمَر بالتَّكبيرِ أولًا، ثم رغَّبه في الدعاءِ ثانيًا؛ تنبيهًا على أنَّ الدعاءَ لا بدَّ وأن يكونَ مسبوقًا بالثناءِ الجميل، ألا ترى أنَّ الخليلَ عليه السلام لمَّا أراد الدعاءَ، قدَّم عليه الثناءَ، فقال أولًا: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾، وكلُّ هذا ثناءٌ منه على اللهِ تعالى، ثم شرَع بعده في الدعاءِ، فقال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فكذا ههنا أمَر بالتكبيرِ أولًا، ثم شرَع بعده في الدعاء ثانيًا. الثالث: أنَّ اللهَ تعالى لمَّا فرَض عليهم

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٧٨).

الصيامَ كما فرَض علىٰ الذين مِن قبلِهم، وكان ذلك علىٰ أنَّهم إذا ناموا حرُمَ عليهم ما يحرُمُ علىٰ الصائم، فشَقَّ ذلك علىٰ بعضِهم حتىٰ عَصَوُا اللهَ في ذلك التَّكليفِ، ثم نَدِموا وسألوا النبيَّ ﷺ عن توبتِهم؛ فأنزَل اللهُ تعالىٰ هذه الآيةَ مُخبِرًا لهم بقَبولِ توبتهم، ونسَخ ذلك التَّشديدَ بسببِ دعائهم وتضرُّعهم(١).

مناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها: أنَّه تعالىٰ لمَّا تضمَّن قولُه: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ طلَبَ تكبيرِه وشكرِه، بيَّن أنَّه مطَّلِعٌ علىٰ ذِكْرِ مَن ذكَره، وشُكْرِ مَن شكَره، يَسمَع نداءَه، ويجيبُ دعاءَه أو رَغْبتَه؛ تنبيهًا علىٰ أن يكونَ ولا بد مسبوقًا بالثناءِ الجميل(٢).

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

ولمَّا تصوَّروا لهذه الآيةِ الشريفة قُرْبَه وحُبَّه علىٰ عظَمتِه وعُلُوِّه، فتذكَّروا لذيذَ مخاطَبتِه فيما قبلُ، فاشتاقوا إليها، وكان قد يسَّر لهم أمرَ الصومِ كمًّا علىٰ جميعِهم، وكيفًا علىٰ أهلِ الضرورة منهم؛ كانوا كأنَّهم سألوه التَّيسيرَ علىٰ أهل الرَّفاهية فيما حرُمَ عليهم كما حرُمَ علىٰ أهلِ الكتاب، والوطء في شهرِ الصوم، والأكل بعد النومِ؛ فقال تحقيقًا للإجابةِ والقُرْبِ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ

---

(١) مفاتيح الغيب (٥/ ٢٦٠).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٢٠٥).

فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[1].

انتقالٌ في أحكام الصيام إلىٰ بيانِ أعمالٍ في بعضِ أزمنةِ رمضانَ قد يُظَنُّ أنَّها تُنافي عبادةَ الصيام، ولأجلِ هذا الانتقالِ فُصِلتِ الجملةُ عن الجُمَلِ السابقة[2].

ومناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها مِن الآيات: أنَّها مِن تمامِ الأحوال التي تَعرِضُ للصائم، ولمَّا كان افتتاحُ آياتِ الصوم بأنَّه: كُتِب علينا كما كُتِب علىٰ الذين مِن قبلِنا؛ اقتضىٰ عمومُ التَّشبيهِ العمومَ في الكتابةِ، وفي العَدَدِ، وفي الشَّرائطِ، وسائرِ تكاليفِ الصوم. وكان أهلُ الكتابِ قد أُمِروا بتركِ الأكلِ والجماعِ في صيامهم بعد أن يناموا، وقيل: بعد العِشاء، وكان المسلمون كذلك، فلمَّا جرىٰ لعُمَرَ وقيسٍ ما جرىٰ في كونِ أحدهم واقَعَ أهلَه بعد العِشاء الآخرةِ، ونام أحدُهم قبل أن يُفطِرَ، وأصبَح صائمًا، فغُشِيَ عليه؛ أباح اللهُ لهم ذلك مِن أولِ الليل إلىٰ طلوعِ الفجر؛ لطفًا بهم، وناسَب أيضًا قولُه تعالىٰ في آخرِ آيةِ الصوم: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، وهذا مِن التَّيسير[3].

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

ولمَّا أَذِن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما كان قد منَع منه مِن المَطعَم والمَنكِح للصائم، وقدَّم المَنكِح؛ لأنَّه أشهىٰ؛ إذ الطَّبعُ إليه أدعىٰ، ولأنَّ المنعَ منه كان في جميعِ الشهر، فالضَّررُ فيه أقوىٰ،

(١) نظم الدرر (٣/ ٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ١٨٠).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٢١٠).

وأتبعه الإذنَ في الأكل؛ لأنَّه قِوامُ الجسم، وأَوْلاه المنعَ مِن النكاحِ في بعضِ الأحوال: فعَل كذلك في المالِ الذي منه الأكلُ؛ لأنَّه قد كان ممَّا خانَ فيه أهلُ الكتاب عَهْدَ كتابِهم، واشتَرْوا به ثمنًا قليلًا، كثير مِن أمره، لا سيَّما تحريمُ الرِّشوة؛ فإنَّهم أخفَوْهُ واستباحوها حتىٰ صارت بينهم شَرْعًا متعارَفًا، وكان طِيبُ المَطعَمِ محثوثًا عليه، لا سيَّما في الصوم؛ فنهىٰ عن بعضِ أسبابِ تحصيل المال، أعَمَّ مِن أن تكونَ رِشْوةً أو غيرَها، فقال: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[(١)].

عطفُ جملةٍ علىٰ جملة؛ والمناسبة أنَّ قوله: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَا﴾ تحذيرٌ مِن الجرأةِ علىٰ مخالَفةِ الصيام بالإفطارِ غيرِ المأذون فيه، وهو ضربٌ مِن الأكلِ الحرام، فعُطِف عليه أكلٌ آخَرُ مُحرَّمٌ؛ وهو أكلُ المالِ بالباطل، والمشاكلةُ زادت المناسبةَ قوةً؛ هذا مِن جملةِ عِدادِ الأحكامِ المشروعة لإصلاحِ ما اختَلَّ مِن أحوالهم في الجاهلية؛ ولذلك عُطِف علىٰ نظائره، وهو مع ذلك أصلُ تشريعٍ عظيم للأموال في الإسلام[(٢)].

ومناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها ظاهرةٌ؛ وذلك أنَّ مَن تعبَّد للهِ تعالىٰ بالصيام، فحبَس نفسَه عمَّا تعوَّدَه مِن الأكلِ والشُّرب والمباشَرةِ بالنهار، ثم حبَس نفسَه بالتَّقييدِ في مكانٍ تعبُّدًا للهِ تعالىٰ، صائمًا له، ممنوعًا مِن اللَّذَّةِ الكبرىٰ بالليلِ والنهار؛ جديرٌ ألا يكونَ مَطعَمُه ومَشرَبُه إلا مِن الحلالِ الخالص الذي يُنوِّرُ القلبَ، ويَزيدُه بصيرةً، ويُفضِي به إلىٰ الاجتهادِ في العبادةِ؛ فلذلك نُهي عن أكلِ الحرام المفضِي به إلىٰ عدمِ قَبولِ عبادته مِن صيامِه واعتكافه، وتخلَّل أيضًا بَيْنَ آياتِ الصيام آيةُ إجابةِ سؤال الداعي،

(١) نظم الدرر (٣/ ٩٣-٩٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ١٨٧).

وسؤالِ العبادِ اللهَ تعالىٰ، وقد جاء في الحديثِ: أنَّ «مَن كان مَطعَمُه حرامًا، ومَلبَسُه حرامًا، ومَشرَبُه حرامًا، ثم سأَلَ اللهَ؛ أنَّىٰ يستجابُ له؟!». فناسَب أيضًا النهيُ عن أكلِ المال الحرام. ويجوز أن تكونَ المناسبةُ: أنَّه لمَّا أوجَب عليهم الصومَ كما أوجَبه علىٰ مَن كان مِن قبلِهم، ثم خالَف بَيْنَ أهلِ الكتاب وبينهم، فأحَلَّ لهم الأكلَ والشُّرْبَ والجماعَ في ليالي الصوم؛ أمَرهم ألا يوافِقوهم في أكلِ الرِّشا[1] مِن ملوكِهم وسَفِلَتِهم، وما يَتعاطَوْنَه مِن الرِّبا، وما يستبيحونه مِن الأموالِ بالباطل، وأن يكونوا مخالِفيهم قولًا وفعلًا، وصومًا وفِطْرًا، وكَسْبًا واعتقادًا؛ ولذلك ورَد لمَّا ندَب إلىٰ السُّحور: «خالِفوا اليهودَ»، وكذلك أمَرهم في الحُيَّضِ بمخالفتِهم؛ إذ عزَم الصحابةُ علىٰ اعتزالِ الحُيَّضِ -إذ نزَل: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ - كاعتزالِ اليهود؛ بألا يؤاكلوهنَّ، ولا يناموا معهنَّ في بيتٍ، فقال النبيُّ ﷺ: «افعَلوا كلَّ شيءٍ إلا النكاح»، فقالت اليهودُ: ما يريد هذا الرجُلُ أن يترُكَ مِن أمرِنا شيئًا إلا خالَفَنا فيه[2][3].

﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾

لمَّا أتمَّ ﷻ البيانَ لِما أراده ممَّا شرَعه في شهرِ الصوم ليلًا ونهارًا، وبعضِ ما تَبِع ذلك، وكان كثيرٌ مِن الأحكام يدورُ علىٰ الهلالِ، لا سيَّما أحدُ قواعدِ الإسلام: الحجُّ، الذي هو أخو الصوم، وكانت الأهلَّةُ كالحُكَّامِ، توجِبُ أشياءَ، وتَنفي غيرَها؛ كالصيامِ، والدُّيون، والزكَوات، وتؤكَلُ بها الأموالُ حقًّا أو باطلًا، وكان ذِكْرُ الشهرِ

---

(١) جمع: رشوة.

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٢).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٢٢٤).

وإكمالِ العدَّة قد حرَّكَ العزمَ للسؤال عنه؛ بيَّن ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

اعتراضٌ بَيْنَ شرائعِ الأحكام الراجعةِ إلىٰ إصلاح النظام؛ دعا إليه ما حدَث مِن السؤالِ؛ فمناسبةُ وضعِها في هذا الموضعِ هي توقيتُ الصيامِ بحلولِ شهر رمضان؛ فكان مِن المناسبةِ ذِكْرُ المواقيتِ لإقامةِ نظام الجامعةِ الإسلامية علىٰ أكمَلِ وجهٍ، ومِن كمالِ النظام ضبطُ الأوقات[2].

ومناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها ظاهرةٌ؛ وهو أنَّ ما قبلها مِن الآياتِ نزَلتْ في الصيامِ، وأنَّ صيامَ رمضانَ مقرونٌ برؤيةِ الهلال، وكذلك الإفطارُ في شهرِ شوَّالٍ؛ ولذلك قال ﷺ: «صُومُوا لرؤيتِه، وأفطِروا لرؤيته»[3]، وكان أيضًا قد تقدَّم كلامٌ في شيءٍ مِن أعمالِ الحج؛ وهو الطوافُ، والحجُّ أحدُ الأركان التي بُنِي الإسلامُ عليها. وكان قد مضىٰ الكلامُ في توحيدِ الله تعالىٰ، وفي الصلاةِ، والزكاة، والصيام، فأتىٰ بالكلامِ علىٰ الرُّكنِ الخامس -وهو الحجُّ- ليكونَ قد كمَلتِ الأركانُ التي بُنِي الإسلامُ عليها[4].

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه الحجَّ في هذه السُّورةِ المدَنية، وكان سبيلُه إذ ذاك ممنوعًا عن أهلِ الإسلام بأهلِ الحربِ الذين أخرَجوهم مِن بلدِهم، ومنَعوهم مِن المسجدِ الذي هم

(١) نظم الدرر (٣/ ٩٧-٩٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ١٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٠٩)، ومسلم (١٠٨١).

(٤) البحر المحيط (٢/ ٢٣٤).

أَحَقُّ به مِن غيرِهم، وكان الحجُّ مِن الجهادِ، وكان كلٌّ مِن الصومِ والجهاد تخلِّيًا مِن الدنيا: «سِياحةُ أمَّتي الصومُ، ورَهْبانيَّةُ أمَّتي الجهادُ»(١)، وكانت أمَّهاتُ العبادات مُوقَّتةً؛ وهي: الصلاة، والزكاة، والصوم، والحجُّ، وغيرَ مُوقَّتةٍ؛ وهي: الذِّكْرُ، والجهادُ؛ وهو قتالُ أهلِ الحرب، خلافًا لِما كان عند أهلِ الجاهلية مِن توقيتِه مكانًا بغيرِ الحَرَمِ، وزمانًا بغيرِ الأشهُرِ الحُرُمِ، وكان القتالُ في الأشهُرِ الحُرُمِ وفي الحَرَمِ في غايةِ المنع، فكيف عند المسجدِ؟! وكان سبحانه قد ذكَر العباداتِ الموقَّتةَ؛ أتبَعها بغيرِ الموقَّتةِ؛ وهي: الجهادُ، الذي هو حظيرةُ الموقَّتةِ، الذي لا سلامةَ لها بدونه؛ التفاتًا إلىٰ الظالمين بالمنعِ عن المسجد الحرام، والإخراجِ منه، فأمَر بأن يُفعَلَ معهم مِثلُ ما فعَلوا مِن القتالِ والإخراج؛ فِعْلَ الحكيمِ الذي يوصي بالشيءِ العظيم؛ فهو يُلقِيه بالتدريج في أساليبِ البلاغة، وأفانينِ البيان؛ تشويقًا إليه، وتحريضًا عليه، بعد أن أشار لأهلِ هذا الدِّينِ أولًا بأنَّه يُخزي ظالِميهم، وثانيًا بأنَّ المقتولَ منهم حيٌّ يُرزَقُ، وثالثًا بمدحِهم علىٰ الصبرِ في مواطنِ البأس بأنَّهم الذين صدَقوا، وأنَّهم المتقون، فلمَّا شوَّقهم إلىٰ جهادِ أهلِ البغيِ والعنادِ، ألزَمَهم القتالَ بصيغةِ الأمر؛ لتيسيرِ بابِ الحجِّ الذي افترَضه، وسبيلُه ممنوعٌ بأهلِ الحرب، فقال تعالىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾.

قال الحَرَالِّيُّ: مِن حيث إنَّه حظيرةٌ علىٰ دِينِ الإسلام المقيَّدِ بالمواقيت مِن حيث إنَّ الإسلامَ عملٌ يقيِّدُه الوقتُ، والدفعُ عنه أمرٌ لا يقيِّدُه وقتٌ؛ بل أيَّانَ طرَق الضُّرُّ لبناءِ الإسلام، دُفِع عنه؛ كما هو حُكْمُ الدفعِ في الأمورِ الدِّينية؛ فكانت الصلاةُ لمواقيتِ اليومِ والليلة، والصومُ والحجُّ لمواقيتِ الأهلَّة، والزكاةُ لميقاتِ الشمس، والجهادُ

(١) لم أقف عليه.

لمُطلَقِ الميقاتِ؛ حيثما وقَع مِن مكانٍ وزمان ناظرًا بوجهٍ ما لِما يقابِلُه مِن عمودِ الإسلام، الذي هو ذِكْرُ كلمةِ الإخلاص؛ وهي لا إلهَ إلا اللهُ(١).

جملةُ ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ﴾ الآيةَ، وهو استطرادٌ دعا إليه استعدادُ النبيِّ ﷺ لعُمْرةِ القضاءِ سنةَ ستٍّ، وتوقُّعُ المسلمين غَدْرَ المشركين بالعهدِ، وهو قتالٌ متوقَّع لقصدِ الدفاعِ؛ لقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾(٢).

أنَّه تعالىٰ أمَر بالاستقامةِ في الآيةِ المتقدِّمة بالتقوىٰ في طريقِ معرفةِ الله تعالىٰ، فقال: ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وأمَر بالتقوىٰ في طريقِ طاعةِ الله؛ وهو عبارةٌ عن تركِ المحظورات، وفعلِ الواجبات؛ فالاستقامةُ علمٌ، والتقوىٰ عملٌ، وليس التكليفُ إلا في هذين، ثم أمَر في هذه الآيةِ بأشَدِّ أقسامِ التقوىٰ وأشَقِّها علىٰ النفسِ؛ وهو قتلُ أعداءِ الله، فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾(٣).

﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١﴾

ولمَّا حرَّم الاعتداءَ، صرَّح بإباحةِ أصل القتال، فقال: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٣/ ١٠٥-١٠٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ١٩٩، ٢٠٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٥/ ٢٨٧).

(٤) نظم الدرر (٣/ ١٠٨).

هذا أمرٌ بقتلِ مَن يُعثَرُ عليه منهم، وإن لم يكُنْ في ساحةِ القتال؛ فإنَّه بعد أن أمَرهم بقتالِ مَن يقاتِلُهم، عمَّم المواقعَ والبقاعَ زيادةً في أحوالِ القتل، وتصريحًا بتعميمِ الأماكن؛ فإنَّ أهميَّةَ هذا الغرضِ تَبعَثُ على عدمِ الاكتفاء باقتضاءِ عمومِ الأشخاص تعميمَ الأمكنةِ؛ ليكونَ المسلمون مأذونين بذلك، فكلُّ مكانٍ يحُلُّ فيه العدوُّ فهو موضعُ قتالٍ، وعُطِفتِ الجملةُ على التي قبلها، وإن كانت هي مكمِّلةً لها، باعتبارِ أنَّ ما تضمَّنته قتلٌ خاصٌّ غيرُ قتالِ الوغى(١)؛ فحصَلتِ المغايَرةُ المقتضيَةُ العطفَ؛ ولذلك قال هنا: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾، ولم يقُلْ: «وقاتلوهم» مِثلَ الآيةِ قبلها؛ تنبيهًا على قتلِ المحارِبِ، ولو كان وقتَ العثورِ عليه غيرَ مباشِرٍ للقتال، وأنَّه مَن خرَج محارِبًا، فهو قاتلٌ، وإن لم يقتُلْ(٢).

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾

ولمَّا كان النُّزوعُ بعد الشُّروع، لا سيَّما حالة الإشراف على الظَّفَرِ، عَسِرًا على الأنفسِ الأبيَّة، والهِمَم العليَّة؛ قال: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالى أوجَب عليهم القتالَ على ما تقدَّم ذِكْرُه، وكان يجوز أن يُقدَّر أنَّ ذلك القتالَ لا يُزالُ، وإنِ انتهَوْا وتابوا؛ كما ثبَت في كثيرٍ مِن الحدودِ: أنَّ التوبةَ لا تُزِيلُه، فقال تعالى بعدما أوجَب القتلَ عليهم: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فبيَّن بهذا أنَّهم متى انتهَوْا عن ذلك، سقَط وجوبُ القتلِ عنهم(٤).

---

(١) أي: الحرب.

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٢٠١).

(٣) نظم الدرر (٣/ ١١٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٥/ ٢٩١).

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٩٣) ﴾

لمَّا كان المرادُ بما مضىٰ مِن قتالِهم كَفَّ أذاهم بأيِّ فعلٍ كانَ، حقَّقه بقولِه: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

عُطِف علىٰ جملةِ ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾، وكان مقتضىٰ الظاهرِ ألا تُعطَفَ هذه الجملةُ؛ لأنَّها مبيِّنةٌ لِما أُجمِلَ مِن غايةِ الأمر بقتالِ المشركين، ولكنها عُطِفتْ لِما وقَع مِن الفصلِ بينها وبين الجملةِ المبيَّنة[2].

عطفٌ علىٰ ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ ؛ فالأولُ مسُوقٌ لوجوبِ أصل القتال، وهذا لبيانِ غايته[3].

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (١٩٤) ﴾

ولمَّا أباح تعالىٰ القتالَ في كلِّ مكانٍ، حتىٰ في الحَرَمِ، وكان فعلُه في الأشهُرِ الحُرُمِ عندهم شديدًا جدًّا؛ ثار العزمُ للسُّؤال عنه، فقال معلمًا لهم ما يفعلون في عمرةِ القضاء إن احتاجوا -علىٰ وجهٍ عامٍّ-: ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٣/ ١١٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٢٠٧).

(٣) روح المعاني (١/ ٤٧٢).

(٤) نظم الدرر (٣/ ١١٦).

جملةٌ مستأنفة فُصِلتْ عن سوابقها؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ؛ فإنَّه لمَّا بيَّن تعميمَ الأمكنةِ، وأخرَجَ منها المسجدَ الحرام في حالةٍ خاصة؛ كان السامعُ بحيث يَتساءلُ عمَّا يماثِلُ البقاعَ الحرامَ؛ وهو الأزمنةُ الحرام؛ أعني الأشهُرَ الحُرُمَ التي يُتوقَّعُ حظرُ القتالِ فيها، فإن كان هذا تشريعًا نازلًا علىٰ غيرِ حادثةٍ، فهو استكمالٌ واستفصال لِما تدعو الحاجةُ إلىٰ بيانِه في هذا المقامِ المهم، وإن كان نازلًا علىٰ سببٍ؛ كما قيل: إنَّ المسلمين في عامِ القَضِيَّةِ لمَّا قصَدوا مكَّةَ في ذي القَعْدةِ سنةَ سبعٍ معتمِرينَ، خَشُوا ألا يَفِيَ لهم المشركون بدخولِ مكَّةَ، أو أن يَغدِروهم، ويَتعرَّضوا لهم بالقتالِ قبل دخولِ مكَّةَ، وهم في شهرٍ حرام، فإن دافَعوا عن أنفسِهم، انتهَكوا حُرْمةَ الشهرِ؛ فنزَلتْ هذه الآيةُ[(١)][(٢)].

اعلَمْ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا أباح القتالَ، وكان ذلك منكَرًا فيما بينهم؛ ذكَر في هذه الآيةِ ما يزيلُ ذلك، فقال: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[(٣)].

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾

لمَّا كانت النَّفقةُ مِن أعظَمِ دعائمِ الجهاد، وكان العيشُ في أولِ الإسلام ضيِّقًا، والمالُ قليلًا، فكان ذلك موجِبًا لكلِّ أحدٍ أن يَتمسَّكَ بما في يده ظنًّا أنَّ في التمسُّكِ به النَّجاةَ، وفي إنفاقِه الهلاكَ؛ أخبَرهم أنَّ الأمرَ علىٰ غيرِ ما يُسوِّلُ به الشيطانُ مِن ذلك، ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، قال الحَرالِّيُّ: ولمكانِ ما لَزِم العفوُ مِن العزِّ الذي جاء علىٰ خلافِ غرضِ النفس، نظَم به تعالىٰ ما

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (٣٧٩٩٨).
(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٢١٠).
(٣) مفاتيح الغيب (٥/ ٢٩٢).

يجيء علىٰ خلافِ مَدرَكِ الحسِّ في الإنفاقِ الذي يحصُلُ به الزَّكاءُ والنَّماء، وأيضًا لمَّا أسَّس تعالىٰ حُكْمَ الجهادِ الذي هو أشَقُّ الأعمالِ علىٰ النفس، نظَم به أمرَ الجُودِ والإنفاق الذي هو أشَقُّ منه علىٰ الأنفسِ، ومِن حيث إنَّ القتالَ مدافَعةٌ يشتمِلُ علىٰ عُدَّةٍ وزاد، لم يكُنْ أمرُه يتمُّ إلا بأعمالِ الغريزتينِ: الشَّجاعةِ، والجُودِ؛ ولذلك كان أشَدُّ الآفاتِ في الدِّين البُخْلَ والجُبْنَ[1].

هذه الجملةُ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلخ؛ فإنَّهم لمَّا أُمِروا بقتالِ عدوِّهم، وكان العدوُّ أوفَرَ منهم عُدَّةَ حربٍ، أيقَظهم إلىٰ الاستعدادِ بإنفاقِ الأموال في سبيل الله؛ فالمخاطَبون بالأمرِ بالإنفاق جميعُ المسلمين، لا خصوصُ المقاتِلين؛ ووجهُ الحاجةِ إلىٰ هذا الأمرِ مع أنَّ الاستعدادَ للحربِ مركوزٌ في الطِّباعِ: تنبيهُ المسلمين؛ فإنَّهم قد يقصِّرون في الإتيانِ علىٰ منتهىٰ الاستعدادِ لعدوٍّ قويٍّ؛ لأنَّهم قد مُلئتْ قلوبُهم إيمانًا بالله، وثقةً به، ومُلِئتْ أسماعُهم بوعدِ الله إيَّاهم النصرَ، وأخيرًا بقولِه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ نُبِّهوا علىٰ أنَّ تعهُّدَ اللهِ لهم بالتأييد والنصر لا يُسقِطُ عنهم أخذَ العُدَّةِ المعروفة؛ فلا يَحسَبوا أنَّهم غيرُ مأمورين ببذلِ الوُسْعِ لوسائلِ النصر، التي هي أسبابٌ ناط اللهُ تعالىٰ بها مسبَّباتِها علىٰ حسَبِ الحِكْمةِ التي اقتضاها النظامُ الذي سَنَّه اللهُ في الأسبابِ ومسبَّباتها؛ فتطلُّبُ المسبَّباتِ دُونَ أسبابِها غَلَطٌ، وسُوءُ أدبٍ مع خالقِ الأسبابِ ومسبَّباتها؛ فالمسلمون إذا بذَلوا وُسْعَهم، ولم يفرِّطوا في شيءٍ، ثم ارتبَكوا في أمرٍ بعد ذلك؛ فاللهُ ناصرُهم، ومؤيِّدُهم فيما لا قِبَلَ لهم بتحصيلِه، ولقد نصَرهم اللهُ ببَدْرٍ وهم أذلَّةٌ؛ إذ هم يومئذٍ جملةُ المسلمين، وإذ لم يقصِّروا في شيءٍ، فأمَّا أقوامٌ يُتلِفون أموالَ المسلمين في شهواتهم، ويُفِيتُون[2]

(١) نظم الدرر (٣/ ١١٩).

(٢) أي: يضيعون.

الفُرَصَ وقتَ الأمنِ، فلا يَستعدُّون لشيءٍ، ثم يطلُبون بعد ذلك مِن الله النصرَ والظَّفَرَ؛ فأولئك قومٌ مغرورون؛ ولذلك يسلِّطُ اللهُ عليهم أعداءهم بتفريطِهم، ولعله يَتداركُهم في خلالِ ذلك بلُطْفِه فيما يَرجِعُ إلىٰ استبقاءِ الدِّين(١).

اعلَمْ أنَّ تعلُّقَ هذه الآيةِ بما قبلها مِن وجهين: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر بالقتالِ، والاشتغالُ بالقتال لا يَتيسَّر إلا بالآلاتِ وأدواتٍ يُحتاجُ فيها إلىٰ المالِ، وربما كان ذو المال عاجزًا عن القتالِ، وكان الشجاعُ القادر علىٰ القتال فقيرًا عديمَ المالِ؛ فلهذا أمَر اللهُ تعالىٰ الأغنياءَ بأن يُنفِقوا علىٰ الفقراءِ الذين يَقدِرون علىٰ القتال. والثاني: يُروَىٰ أنَّه لمَّا نزَل قولُه تعالىٰ: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ﴾، قال رجُلٌ مِن الحاضرين: واللهِ يا رسولَ الله، ما لنا زادٌ، وليس أحدٌ يُطعِمُنا، فأمَر رسولُ ﷺ أن يُنفِقوا في سبيل الله، وأن يَتصدَّقوا، وألا يكُفُّوا أيديَهم عن الصدقةِ، ولو بشِقِّ تمرةٍ تُحمَل في سبيلِ الله، فيَهلِكوا؛ فنزَلتْ هذه الآيةُ علىٰ وَفْقِ رسولِ الله ﷺ(٢).

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾

لمَّا ختَم آياتِ القتال بالنَّفَقة في سبيلِ الله؛ لشِدَّة حاجةِ الجهاد إليها، وكان سبيلُ الله اسمًا يقع علىٰ الحجِّ كما يقع علىٰ الجهادِ؛ كما ورَد في الحديثِ: «الحجُّ مِن

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٢١٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٥/ ٢٩٤).

سبيلِ الله»[(١)]؛ رجَع إلىٰ الحجِّ والعمرة المشيرِ إليهما ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، و﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ الآيةَ، و﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾، ولا سيَّما وآياتُ القتال هذه إنَّما نُظِمتْ ههنا بسببهما توصيلًا إليهما، وبعضُها سببُه عمرةُ الحُدَيبيَةِ التي صَدَّ المشركون عنها، فكان كأنَّه قيل: ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾؛ فحُجُّوا واعتمِروا؛ أي: تلبَّسُوا بذلك وإن صُدِدتم عنه، وقاتِلوا في سبيلِ الله مَن قاتَلكم في وجهِكم ذلك؛ لينفتِحَ لكم السَّبيلُ، ولمَّا كان ذلك بعد الفتحِ ممكِنًا لا صادَّ عنه، عبَّر بالإتمام، فقال: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[(٢)].

هذا عَوْدٌ إلىٰ الكلامِ علىٰ العمرة؛ فهو عطفٌ علىٰ قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ إلخ، وما بينهما استطرادٌ أو اعتراض، علىٰ أنَّ عَطْفَ الأحكامِ بعضِها علىٰ بعضٍ للمناسبة طريقةٌ قرآنية؛ فلك أن تَجعَلَ هذه الجملةَ عطفًا علىٰ التي قبلها عَطْفَ قصَّةٍ علىٰ قصَّة، ولا خلافَ في أنَّ هذه الآيةَ نزلَتْ في الحُدَيبيَةِ سنةَ ستٍّ حين صَدَّ المشركون المسلمين عن البيتِ، وقد كانوا ناوِينَ العمرةَ، وذلك قبل أن يُفرَضَ الحجُّ؛ فالمقصودُ مِن الكلام هو العمرةُ، وإنَّما ذُكِر الحجُّ علىٰ وجهِ الإدماج تبشيرًا بأنَّهم سيتمكنون مِن الحجِّ فيما بعدُ؛ وهذا مِن معجِزاتِ القرآن[(٣)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ أحكامَ الصيام، وعطَف بذِكْرِ الجهادِ؛ شرَع في بيانِ المناسكِ، فأمَر بإتمامِ الحجِّ والعمرة[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (١٥١٦).

(٢) نظم الدرر (٣/ ١٢٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٢١٦).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٠).

﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾

لمَّا ذكَر ﷻ أنَّ الحجَّ مُوقَّتٌ بالأهلَّةِ، ولم يُعيِّنْ له وقتًا مِن شهورِ السَّنة، وختَم ذلك بالتَّفرقةِ في بعضِ أحكام الحجِّ بسببِ الأماكن؛ تشوَّفتِ النفسُ إلىٰ تعيينِ وقته، وأنَّه هل هو كالمكانِ أو عامُّ الحُكْمِ؟ فقال: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾(١).

استئنافٌ ابتدائيٌّ للإعلامِ بتفصيل مناسكِ الحجِّ؛ أمَر الرسولُ ﷺ بوضعِها في هذا الموضعِ مِن هذه السُّورةِ؛ للجَمْعِ بَيْنَ أعمالِ الحجِّ وأعمالِ العمرة، وهي وِصايةٌ بفرائضِ الحج وسُنَنِه، وممَّا يَحِقُّ أن يُراعىٰ في أدائه، وذكر ما أراد اللهُ الوصايةَ به مِن أركانه وشعائرِه، وقد ظهَرتْ عنايةُ اللهِ تعالىٰ بهذه العبادةِ العظيمة؛ إذ بسَط تفاصيلَها وأحوالها مع تغييرِ ما أدخَلَه أهلُ الجاهليةِ فيها(٢).

لمَّا أمَر اللهُ تعالىٰ بإتمامِ الحجِّ والعمرة، وكانت العمرةُ لا وقتَ لها معلومًا؛ بيَّن أنَّ الحجَّ له وقتٌ معلومٌ؛ فهذه مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها(٣).

---

(١) نظم الدرر (٣/ ١٣٧-١٣٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٢٣١).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٢٧٦).

﴿ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨ ﴾

لمَّا فُهِم مِن هذا الحثُّ علىٰ الإكثار مِن الزاد، تحرَّكتْ نفوسُ أُولي الهِمَمِ الزاكيةِ القابلة للتَّجرُّد عن الأعراضِ الفانية إلىٰ السُّؤالِ عن المتجرِ لإنفاقِه في وجوهِ الخير هل يُكرَهُ في زمانٍ أو مكانٍ، لا سيَّما عند تذكُّرِ أنَّ أناسًا كانوا في الجاهليَّةِ يَكرَهون التجارةَ للحاجِّ؟ فأجيبَ بقولِه -مُعلِمًا أنَّ قَطْعَ العلائقِ لِمَن صدَق عزمُه وشرُفتْ همَّتُه أَوْلىٰ-: ﴿ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾(١).

جملةٌ معترِضة بَيْنَ المتعاطِفَينِ بمناسبةِ النهيِ عن أعمالٍ في الحجِّ تُنافي المقصدَ منه، فنُقِل الكلامُ إلىٰ إباحةِ ما كانوا يَتحرَّجون منه في الحجِّ -وهو التجارةُ- ببيانِ أنَّها لا تُنافي المقصدَ الشرعيَّ؛ إبطالًا لِما كان عليه المشركون؛ إذ كانوا يرَوْنَ التجارةَ للمُحرِم بالحج حرامًا(٢).

ومناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّه لمَّا نهىٰ عن الجدالِ، والتجارةُ قد تُفضِي إلىٰ المنازَعةِ؛ ناسَب أن يُتوقَّفَ فيها؛ لأنَّ ما أفضىٰ إلىٰ المنهيِّ عنه منهيٌّ عنه، أو لأنَّ التجارةَ كانت محرَّمةً عند أهلِ الجاهليَّةِ وقتَ الحجِّ؛ إذ مَن يشتغِلُ بالعبادة يناسِبُه ألا يَشغَلَ نفسَه بالأكْسابِ الدنيويَّة، أو لأنَّ المسلمين لمَّا صار كثيرٌ مِن المباحات

(١) نظم الدرر (٣/ ١٤٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٢٣٧).

محرَّمًا عليهم في الحج، كانوا بصَدَدِ أن تكونَ التجارةُ مِن هذا القَبيلِ عندهم؛ فأباح اللهُ ذلك، وأخبَرهم أنَّه لا دَرَكَ عليهم فيه في أيامِ الحج[(١)].

لمَّا أمَر تعالىٰ بالتقوىٰ، أخبَر تعالىٰ أنَّ ابتغاءَ فضلِ الله بالتكسُّبِ في مواسمِ الحج وغيرِه ليس فيه حرَجٌ -إذا لم يَشغَلْ عمَّا يجبُ- إذا كان المقصودُ هو الحجَّ، وكان الكسبُ حلالًا منسوبًا إلىٰ فضلِ الله، لا منسوبًا إلىٰ حِذْقِ العبد، والوقوف مع السببِ، ونسيان المسبِّبِ؛ فإنَّ هذا هو الحرَجُ بعينِه[(٢)].

﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٩ ﴾

ولمَّا قبَّح عليهم ما كانوا عليه مِن المخالفةِ في الوقوف بالنسبة إلىٰ الضَّلالِ بالجملةِ الاسميَّة مؤكَّدة بأنواعِ التأكيد، وكان ما مضىٰ مِن ذِكْرِ الإفاضة ليس بقاطعٍ في الوجوب؛ أشار لهم إلىٰ تعظيمِ ما هداهم له مِن الموافقةِ بأداة التراخي، فقال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فلا تُفيضوا مِن المشعَرِ الحرام الإفاضةَ التي كنتم تخالِفون فيها الناسَ دالًّا علىٰ تفاوُتِ الإفاضتين، وبُعْدِ ما بينهما، علىٰ وجهٍ مُعلِمٍ بالوجوب: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(٣)].

﴿ ثُمَّ ﴾ هاهنا لعطفِ خبرٍ علىٰ خبر، وترتيبه عليه؛ كأنَّه تعالىٰ أمَر الواقفَ بعرفاتٍ أن يَدفَعَ إلىٰ المزدلفةِ؛ ليذكُرَ اللهَ عند المشعَرِ الحرام، وأمَره أن يكونَ وقوفُه مع جمهورِ الناس بعرفاتٍ، كما كان جمهورُ الناس يصنعون، يَقِفون بها، إلا قُرَيشًا؛

(١) البحر المحيط (٢/ ٢٩٣).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٩٢).

(٣) نظم الدرر (٣/ ١٥٢).

فإنَّهم لم يكونوا يخرُجون مِن الحرم، فيَقِفون في طرَفِ الحَرَمِ عند أدنىٰ الحِلِّ، ويقولون: نحن أهلُ اللهِ في بلدتِه، وقُطَّانُ[(١)] بيتِه[(٢)].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠)﴾

لمَّا أمَرهم بالذِّكرِ في المناسكِ، وكان الإنسانُ فيها بصدد الذِّكرِ؛ أمَرهم بالذِّكْرِ بعد قضائها؛ لأنَّ مَن فرَغ مِن العبادةِ كان بصددِ أن يستريحَ فيفتُرَ عن الذِّكرِ إلىٰ غيره، وكانت عادتُهم أن يذكُروا بعد فراغِهم مَفاخِرَ آبائهم، فقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[(٣)].

تفريعٌ علىٰ قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾؛ لأنَّ تلك الإفاضةَ هي الدفعُ مِن مزدلفةَ إلىٰ مِنًى، أو لأنَّها تستلزِمُ ذلك، ومِنًىٰ هي محَلُّ رَمْيِ الجِمار، وأشارت الآيةُ إلىٰ رَمْيِ جمرةِ العقبَةِ يومَ عاشرِ ذي الحِجَّة، فأمَرت بأن يذكُروا اللهَ عند الرميِ، ثم الهَدْيِ بعد ذلك، وقد تم الحجُّ عند ذلك، وقُضِيتْ مناسكُه[(٤)].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١)﴾

اعلَمْ أنَّ اللهَ تعالىٰ بيَّن أولًا تفصيلَ مناسكِ الحج، ثم أمَر بعدها بالذِّكْرِ، فقال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ

---

(١) أي: المقيمون فيه.
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٥٥).
(٣) نظم الدرر (٣/ ١٥٥).
(٤) التحرير والتنوير (٢/ ٢٤٤).

كَمَا هَدَىٰكُمْ ﴾، ثم بيَّن أنَّ الأَوْلىٰ أن يُترَكَ ذِكْرُ غيرِه، وأن يُقتصرَ علىٰ ذِكْرِه، فقال: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾، ثم بيَّن بعد ذلك الذِّكرِ كيفيَّةَ الدعاء، فقال: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾، وما أحسنَ هذا الترتيبَ! فإنَّه لا بد مِن تقديمِ العبادة؛ لكسرِ النفسِ، وإزالةِ ظُلُماتها، ثم بعدَ العبادةِ لا بد مِن الاشتغالِ بذِكْرِ الله تعالىٰ؛ لتنويرِ القلب، وتَجلِّي نورِ جلالِه، ثم بعد ذلك الذِّكْرِ يشتغِلُ الرجُلُ بالدعاء؛ فإنَّ الدعاءَ إنَّما يكمُلُ إذا كان مسبوقًا بالذِّكر[(١)].

ثم مدَح مَن يَسأله للدنيا والأخرىٰ، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[(٢)].

لمَّا أرشَدَ سبحانه عبادَه إلىٰ ذِكْرِه، وكان الدعاءُ نوعًا مِن أنواعِ الذِّكْرِ؛ جعَل مَن يدعوه منقسِمًا إلىٰ قِسمَينِ: أحدهما: يطلُبُ حظَّ الدنيا، ولا يلتفتُ إلىٰ حظِّ الآخرة، والقسمُ الآخر: يطلُبُ الأمرينِ جميعًا، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[(٣)].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

ثم عظَّم شأنَهم بقولِه علىٰ سبيلِ الاستئناف، جامعًا علىٰ معنىٰ «مَن»؛ بشارةً بكثرةِ الناجي في هذه الأمَّة، أو يكونُ الجمعُ لعِظَمِ صفاتهم[(٤)]: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٥/ ٣٣٥).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٥٨).

(٣) فتح القدير (١/ ٢٣٥).

(٤) يعني أن قوله (أولئك) بصيغة الجمع؛ إما أن يكون علىٰ معنىٰ (مَن) في قوله: {من يقول}؛ لأنها تفيد الجمع، وإما أن يكون لتعظيم وصفهم.

(٥) نظم الدرر (٣/ ١٦٠).

تقدَّم انقسامُ الناس إلىٰ فريقينِ: فريقٌ اقتصَر في سؤاله علىٰ دنياه، وفريقٌ أشرَك في دنياه أخراه؛ فالظاهر أنَّ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الفريقينِ؛ إذ المحكومُ به -وهو كونُ نصيبٍ لهم ممَّا كسَبوا- مشتركٌ بينهما؛ والمعنىٰ: أنَّ كلَّ فريقٍ له نصيبٌ ممَّا كسَب؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ(١).

﴿ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣ ﴾

ولمَّا كان قد أمَرهم بذِكْرِه عند قضاءِ الأركان، وكان ربما فُهِم اقتصارُهم عليه في الوقتِ الذي كانوا يذكُرون فيه آباءهم؛ قال مُعمِّمًا، وليكونَ الحثُّ عليه آكَدَ -لتكريرِ النَّدبِ إليه بصيغةِ الأمر- فيكونَ أضخَمَ لشأنِه: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾(٢).

معطوفٌ علىٰ ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ﴾، وما بينهما اعتراضٌ، وإعادةُ فعلِ (اذكروا)؛ ليُبنَىٰ عليه تعليقُ المجرور؛ أي: قولِه: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ ؛ لبُعْدِ متعلَّقه؛ وهو ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ﴾؛ لأنَّه أريدَ تقييدُ الذِّكْرِ بصفتِه، ثم تقييدُه بزمانِه ومكانه؛ فالذِّكْرُ الثاني هو نفسُ الذِّكر الأول، وعطفُه عليه منظورٌ فيه إلىٰ المغايَرةِ بما عُلِّقَ به مِن زمانِه، وإنَّما أُمِروا بالذِّكرِ في هذه الأيام؛ لأنَّ أهلَ الجاهلية كانوا يَشغَلونها بالتفاخر، ومغازَلةِ النساء؛ لأنَّهم كانوا يرون أنَّ الحجَّ قد

(١) البحر المحيط (٢/ ٣١١).

(٢) نظم الدرر (٣/ ١٦٢).

انتهىٰ بانتهاءِ العاشر، بعد أن أمسَكوا عن مَلاذِّهم مدةً طويلة، فكانوا يعُودون إليها؛ فأمَرهم اللهُ تعالىٰ بذِكْرِ الله فيها(١).

اعلَمْ أنَّه لمَّا ذكَر ما يَتعلق بالمشعَرِ الحرام، لم يذكُرِ الرَّمْيَ؛ لوجهين: أحدهما: أنَّ ذلك كان أمرًا مشهورًا فيما بينهم، وما كانوا منكِرين لذلك، إلا أنَّه تعالىٰ ذكَر ما فيه مِن ذِكْرِ الله؛ لأنَّهم كانوا لا يفعلونه، والثاني: لعلَّه إنَّما لم يذكُرِ الرَّمْيَ؛ لأنَّ في الأمرِ بذِكْرِ الله في هذه الأيامِ دليلًا عليه؛ إذ كان مِن سننِه التكبيرُ علىٰ كلِّ حصاةٍ منها، ثم قال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾(٢).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤﴾

لمَّا كان قد ذكَر سُبحانه وتعالىٰ الراغبَ في الدنيا وَحْدَها، والراغبَ في الدارينِ، وكان قد بَقِيَ مِن الأقسامِ العقلية المُعرِضُ عنهما، وهو مفقودٌ فلم يذكُرْهُ، والراغبُ في الآخرة فقط، وكلٌّ مِن الأقسامِ تارةً يكون مُسِرًّا، وتارةً يكون مُعلِنًا، وكان المحذورُ منها إنَّما هو المُسِرُّ لإرادةِ الدنيا بإظهارِه لإرادةِ الآخرة، وكان هذا هو المنافِقَ؛ بدأ به بعد ذِكْرِ التقوىٰ والحشرِ؛ ليكونَ مصدوعًا بادئَ بَدْءٍ بذلك الأمرِ، مقصودًا بالتهديدِ بالحشر، وساقَه بصيغةِ ما في أولِ السورة مِن ذِكْرِ المنافِقين؛ ليتذكَّرَ السامعُ تلك القِصصَ، ويستحضِرَها بتلك الأحوالِ، وحسَّن ذلك طولُ الفصلِ، وبُعْدُ العهدِ، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٢٦١).

(٢) مفاتيح الغيب (٥/ ٣٤٠).

(٣) نظم الدرر (٣/ ١٦٨).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾؛ لأنَّه ذكَر هنالك حالَ المشركين الصُّرحاءِ الذين لا حظَّ لهم في الآخرةِ، وقابَل ذِكْرَهم بذِكْرِ المؤمنين الذين لهم رغبةٌ في الحسنةِ في الدنيا والآخرة؛ فانتقَل هنا إلىٰ حالِ فريقٍ آخَرين ممَّن لا حظَّ لهم في الآخرةِ وهم متظاهِرون بأنَّهم راغبون فيها، مع مقابَلةِ حالِهم بحال المؤمنين الخالصين الذين يؤثِرون الآخرةَ والحياةَ الأبدية علىٰ الحياةِ في الدنيا؛ وهم المذكورون في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ الذين يَشهَدون مشاعرَ الحجِّ فريقانِ: كافرٌ؛ وهو الذي يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾، ومسلمٌ؛ وهو الذي يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾؛ بَقِي المنافقُ، فذكَره في هذه الآيةِ، وشرَح صفاتِه وأفعالَه؛ فهذا ما يَتعلَّق بنَظْمِ الآية، والغرضُ بكلِّ ذلك أن يَبعَثَ العبادَ علىٰ الطَّريقةِ الحسنة فيما يتصلُ بأفعالِ القلوب والجوارح، وأن يَعلَموا أنَّ المعبودَ لا يمكِنُ إخفاءُ الأمور عنه(٢).

ومناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها: هو أنَّه لمَّا قسَّم السائلين اللهَ قبلُ إلىٰ مقتصِرٍ علىٰ أمرِ الدنيا، وسائلٍ حسَنةَ الدنيا والآخرة، والوقايةَ مِن النارِ؛ أتىٰ بذِكْرِ النَّوعينِ هنا؛ فذكَر مِن النوعِ الأول مَن هو حُلْوُ المنطقِ، مُظهِرُ الودِّ، وليس ظاهرُه كباطنِه، وعطَف عليه مَن يَقصِدُ رضا اللهِ تعالىٰ، ويبيعُ نفسَه في طلبِه، وقدَّم هنا الأولَ؛ لأنَّه هناك المقدَّمُ في قوله: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾، وأحالَ هنا علىٰ إعجابِ قولِه دُونَ غيرِه مِن الأوصاف؛ لأنَّ القولَ هو الظاهرُ منه أولًا في قوله تعالىٰ:

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٢٦٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٥/ ٣٤٣، ٣٤٤).

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾، فكان مِن حيث توجُّهه إلى اللهِ تعالىٰ في الدعاء ينبغي أن يكونَ لا يقتصِرُ علىٰ الدنيا، وأن يَسأَلَ منه أن يُنجِيَه مِن عذابِه، وكذلك هذا الثاني ينبغي ألا يقتصِرَ علىٰ حلاوةِ مَنطقِه، بل كان يطابِقُ في سريرتِه لعلانيتِه[1].

لمَّا أمَر تعالىٰ بالإكثار مِن ذِكْرِه -وخصوصًا في الأوقاتِ الفاضلة- الذي هو خيرٌ ومصلحة وبِرٌّ، أخبَر تعالىٰ بحالِ مَن يتكلمُ بلسانِه، ويخالِفُ فِعلُه قولَه؛ فالكلامُ إمَّا أن يرفَعَ الإنسانَ أو يَخفِضَه، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾[2].

تجريدٌ للخطابِ، وتوجيهٌ له إليه ﷺ، وهو كلامٌ مبتدأ، سِيقَ لبيانِ تحزُّبِ الناسِ في شأنِ التقوىٰ إلىٰ حِزْبَينِ، وتعيينِ مآل كلٍّ منهما[3].

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾

ولمَّا ذكَر أنَّه ألَدُّ[4]، شرَع يذكُرُ وجهَ لَدَدِه، فقال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فإذا واجَهك، اجتهَد في إظهارِ أنَّه مُصلِحٌ، ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[5].

---

(١) البحر المحيط (٢/ ٣٢٥).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٩٣).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ٢١٠).

(٤) أي: شديد الخصومة.

(٥) نظم الدرر (٣/ ١٧١-١٧٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن مِن حالِ ذلك الإنسانِ أنَّه حُلْوُ الكلام، وأنَّه يقرِّرُ صِدْقَ قولِه بالاستشهاد بالله، وأنَّه ألَدُّ الخصامِ؛ بيَّن بعد ذلك أنَّ كلَّ ما ذكَره باللسانِ، فقلبُه مُنطَوٍ علىٰ ضدِّ ذلك(١).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن الناس مَن يفعلُ الفسادَ، فإذا نُهِيَ عنه انتهىٰ؛ بيَّن أنَّ هذا علىٰ غيرِ ذلك؛ تحقيقًا لألَدِّيَّتِه(٢)، فقال مبشِّرًا بأداةِ التحقيق بأنَّه لا يَزالُ في الناس مَن يقومُ بالأمرِ بالمعروف، والنهيِ عن المنكَرِ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾(٣).

لمَّا كان هذا المُفسِدُ يسعىٰ في الأرضِ بالفساد الذي هو سببٌ لهلاكِ الحَرْث والنَّسْل، ناسَب أن يؤمَرَ هنا بالتقوىٰ، التي هي أعظَمُ الأسبابِ في الكفِّ عن فساد المفسد.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

ولمَّا أتمَّ الخبَرَ عن هذا القِسْمِ الذي هو شرُّ الأقسامِ، أتبَعه خيرَها؛ ليكونَ ختامًا، وبينهما تبايُنٌ؛ فإنَّ الأولَ مَن يُهلِكُ الناسَ لاستبقاءِ نفسه، وهذا يُهلِكُ نفسَه لاستصلاحِ الناس، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٥/ ٣٤٦).

(٢) أي: كونه ألدَّ.

(٣) نظم الدرر (٣/ ١٧٤).

(٤) نظم الدرر (٣/ ١٧٦).

هذا قسيمُ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ ﴾، وذكره هنا بمنزلةِ الاستطراد؛ استيعابًا لِقِسْمَي الناسِ؛ فهذا القِسمُ هو الذي تمحَّض فعلُه للخيرِ حتىٰ بلَغ غايةَ ذلك؛ وهو تعريضُ نفسِه التي هي أنفَسُ الأشياءِ عليه للهلاك لأجلِ تحصيلِ ما يُرضِي اللهَ تعالىٰ، وإنَّما رِضَا اللهِ تعالىٰ بفعلِ الناسِ للخير الذي أمَرهم به[1].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا وصَف في الآيةِ المتقدِّمة حالَ مَن يبذُلُ دِينَه لطلبِ الدُّنيا، ذكَر في هذه الآيةِ حالَ مَن يبذُلُ دنياه ونفسَه ومالَه لطلبِ الدِّين[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾

ولمَّا ختَم هذين القِسمَينِ بالساعي في رضا اللهِ عنه مشاكَلةً للأولين، حسُنَ جدًّا تعقيبُه بقولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾؛ ليكونَ هذا النداءُ واقعًا بادئَ بَدْءٍ في أُذُنِ هذا الواعي، كما كان المنافقُ مصدوعًا بما سبَقه مِن التَّقوىٰ والحشرِ مع كونه دليلًا علىٰ صفةِ الرأفة[3].

استئنافٌ علىٰ طريقةِ الاعتراض؛ انتهازًا للفرصةِ بالدعوة إلىٰ الدخول في السِّلْمِ، ومناسبةُ ذِكْرِه عَقِب ما قبله: أنَّ الآياتِ السابقةَ اشتمَلتْ علىٰ تقسيمِ الناس تجاهَ الدِّينِ مراتبَ: أعلاها: ﴿مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ النفسَ أغلىٰ ما يُبذَل، وأقلُّها: ﴿مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾؛ أي: يُضمِرُ الكيدَ، ويُفسِدُ علىٰ الناس ما فيه نفعُ الجميع؛ وهو خيراتُ

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٢٧٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٥/ ٣٤٩).

(٣) نظم الدرر (٣/ ١٧٨-١٧٩).

الأرض، وذلك يشتمِلُ علىٰ أنَّه اعتدىٰ علىٰ قومٍ مسالِمين؛ فناسَب بعد ذلك أن يُدْعَىٰ الناسُ إلىٰ الدخول فيما يُطلَق عليه اسمُ السِّلْمِ، وهذه المناسبةُ تقوَىٰ وتضعُفُ بحسَبِ تعدُّد الاحتمالاتِ في معنىٰ طلبِ الدخول في السِّلم(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عن المنافقِ أنَّه يسعىٰ في الأرضِ ليُفسِدَ فيها ويُهلِكَ الحَرْثَ والنَّسل، أمَر المسلمين بما يُضادُّ ذلك؛ وهو الموافَقةُ في الإسلام، وفي شرائعِه، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾(٢).

لمَّا ذكَر اللهُ سبحانه أنَّ الناسَ ينقسمون إلىٰ ثلاثِ طوائفَ: مؤمنين، وكافرين، ومنافِقين؛ أمَرهم بعد ذلك بالكونِ علىٰ ملَّةٍ واحدة، وإنَّما أطلَق علىٰ الثلاثِ الطوائفِ لفظَ الإيمانِ؛ لأنَّ أهلَ الكتاب يؤمنون بنبيِّهم وكتابهم، والمنافقُ مؤمنٌ بلسانه، وإن كان غيرَ مؤمنٍ بقلبه(٣).

﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾

ولمَّا أقام ﷻ الأدلةَ علىٰ عظَمتِه التي منها الوَحْدانيَّةُ، وأزال الشُّبَهَ، ومحَا الشُّكوكَ، وذكَّر بأنواعِ اللُّطفِ والبرِّ إلىٰ أن ختَم الآيتينِ بما ذكَر مِن وَلايتِه وعداوةِ المُضِلِّ عن طريقه؛ سبَّب عن ذلك قولَه: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٢٧٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٥/ ٣٤٩).

(٣) فتح القدير (١/ ٢٤١).

(٤) نظم الدرر (٣/ ١٨١).

تفريعٌ علىٰ النهيِ؛ أي: فإن اتَّبعتم خطواتِ الشَّيطان فزلَلْتم، أو فإن زلَلْتم فاتَّبعتم خطواتِ الشيطان، وأراد بالزَّلَلِ المخالفةَ للنَّهي(١).

ولمَّا كان العبدُ لا بد أن يقعَ منه خلَلٌ وزلَلٌ، قال تعالىٰ: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾

ولمَّا كان هذا الخَتْمُ في قوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مُؤذِنًا بالعذاب، وكان إتيانُ العذاب مِن محَلٍّ تُتوقَّعُ منه الرحمةُ أفظَعَ، وكان أنفعَ الأشياءِ السَّحَابُ؛ لحَمْلِه الغيثَ، والملائكة الذين هم خيرٌ محضٌ، وكان الذين شاهَدوا العذابَ مِن السَّحاب -الذي هو مظنَّةُ الرحمةِ ليكونَ أهوَلَ- عادًا وبني إسرائيلَ، وكان عادٌ قد مضَوْا، فلا يمكِنُ عادةً سؤالُهم، وكان مَن زَلَّ بعد هذا البيانِ قد أشبَهَ بني إسرائيلَ في هذا الحالِ؛ فكان جديرًا بأن يشبِّهَهم في المآلِ فيما صاروا إليه مِن ضربِ الذِّلَّة والمسكنةِ، وحلولِ الغضب، والوقوعِ في العطَبِ؛ قال تعالىٰ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾(٣).

إن كان الإضمارُ جاريًا علىٰ مقتضىٰ الظاهرِ، فضميرُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ راجعٌ إلىٰ مُعادٍ مذكور قبله؛ وهو ﴿مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، وإمَّا إلىٰ ﴿مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾، أو إلىٰ كليهما؛ لأنَّ الفريقينِ ينتظرون يومَ الجزاء؛ فأحدُ الفريقين ينتظِرُه شكًّا في الوعيدِ بالعذاب، والفريقُ الآخر ينتظِرُه انتظارَ الراجي

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٢٧٩).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٩٤).

(٣) نظم الدرر (٣/ ١٨٣).

للثواب، وإن كان الإضمارُ جاريًا علىٰ خلاف مقتضىٰ الظاهرِ، فهو راجعٌ إلىٰ المخاطَبين بقولِه: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ﴾ وما بعده، أو إلىٰ الذين زَلُّوا، المستفادِ مِن قوله: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾، وهو حينئذٍ التفاتٌ مِن الخطاب إلىٰ الغَيْبة؛ إمَّا لمجردِ تجديدِ نشاط السامع إن كان راجعًا إلىٰ المخاطَبين بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وإمَّا لزيادةِ نُكْتةِ إبعاد المخاطَبين بقولِه: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾ عن عِزِّ الحضور(١).

﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١﴾

ولمَّا كان بنو إسرائيلَ أعلَمَ الناسِ بظهور مجدِ الله في الغَمامِ؛ لِما رأىٰ أسلافُهم منه عند خروجِهم مِن مِصْرَ، وفي جبَلِ الطُّور، وقبَّةِ الزمان، وما في ذلك علىٰ ما نُقِل إليهم مِن وُفورِ الهَيْبةِ، وتعاظُمِ الجلالِ؛ قال تعالىٰ جوابًا لِمَن كأنَّه قال: كيف يكون هذا؟ ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾(٢).

تَتنزَّلُ هاته الآيةُ مِن التي قبلها منزلةَ البرهانِ علىٰ معنىٰ الجملةِ السابقة؛ فإنَّ قولَه: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ سواءٌ كان خبرًا أو وعيدًا أو وعدًا أم تهكُّمًا، وأيًّا ما كان مُعادُ الضميرِ فيه علىٰ الأوجُهِ السابقة؛ قد دلَّ بكلِّ احتمالٍ علىٰ تعريضٍ بِفِرَقٍ ذوي غرورٍ، وتمادٍ في الكفر، وقلةِ انتفاعٍ بالآيات البينات؛ فناسَب أن يعقِّبَ ذلك بإلفاتهم إلىٰ ما بلَغهم مِن قلةِ انتفاع بني إسرائيلَ بما أُوتُوه مِن آياتِ الاهتداء مع قلةِ غَناءِ

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٢٨١).

(٢) نظم الدرر (٣/ ١٨٦-١٨٧).

الآيات لديهم علىٰ كثرتها؛ فإنَّهم عانَدوا رسولَهم، ثم آمَنوا به إيمانًا ضعيفًا، ثم بدَّلوا الدِّينَ بعد ذلك تبديلًا[(١)].

ولمَّا تقدَّم: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ ﴾، وكان المعنىٰ في ذلك استبطاءَ لُحوقِهم بالإسلام، وأنَّهم لا ينظُرون إلا آيةً عظيمةً تُلجِئهم إلىٰ الدُّخول في الإسلام؛ جاء هذا الأمرُ بسؤالهم عمَّا جاءتهم مِن الآياتِ العظيمة، ولم تَنفَعْهم تلك الآياتُ؛ فعدمُ إسلامِهم مُرتَّب علىٰ عنادِهم، واستصحابِ لَجاجِهم، وهذا السُّؤالُ ليس سؤالًا عمَّا لا يعلم؛ إذ هو عالِمٌ أنَّ بني إسرائيلَ آتاهم اللهُ آياتٍ بيِّنات، وإنَّما هو سؤالٌ عن معلوم؛ فهو تقريعٌ وتوبيخٌ وتقريرٌ لهم علىٰ ما آتاهم اللهُ مِن الآيات البينات، وأنَّها ما أجْدَتْ عندهم؛ لقولِه بعدُ: ﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ ﴾[(٢)].

وربطُ الآيةِ بما قبلها علىٰ ما قيل: إنَّ الضَّميرَ في ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ إن كان لأهلِ الكتاب، فهي كالدَّليل عليه، وإن كان لِمَن يُعجِبك، فهي بيانٌ لحالِ المعانِدين مِن أهلِ الكتاب بعد بيانِ حالِ المنافِقين مِن أهل الشرك[(٣)].

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾

ولمَّا تقدَّم مِن الأمرِ بالسِّلْمِ والتهديدِ علىٰ الزَّلَلِ عنه ما يقتضي لزومَه حتمًا، كان كأنَّه قيل: ما فعَل مَن خُوطِب بهذه الأوامرِ، وقُمِع بتلك الزَّواجر؟ فقيل: أبَىٰ أكثرُهم، فقيل: إنَّ هذا لعجَبٌ! ما الذي صدَّهم؟ فقيل: تقديرُ العزيزِ الذي لا يُخالَفُ مرادُه

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٢٨٨).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٣٣٧).

(٣) روح المعاني (١/ ٤٩٤).

الحكيم، الذي يَدِقُّ عن الأفكارِ استدراجُه، فقيل: كيف يُتصوَّر مِن العاقل كفرُ النِّعْمة؟ فبيَّن أنَّ سببَ ذلك -غالبًا- الترفُّعُ والتَّعظُّم، والكِبْرُ والبطَرُ؛ فرحًا بما في اليدِ، وركونًا إليه، وإعراضًا عمَّا خُبِّئ في خزائنِ الله، فقال مستأنفًا بانيًا للمفعول دلالةً علىٰ ضَعْفِ عقولِهم بأنَّهم يَغترُّون بكلِّ مُزيِّنٍ: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(١).

استئنافٌ بالرجوع إلىٰ أحوالِ كفَّارِ العربِ المَعْنيِّينَ مِن الآياتِ السابقة قصدًا وتعريضًا مِن قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾، والمحتجِّ عليهم بقولِه: ﴿ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾؛ استئنافًا لبيانِ خُلُقِهم العجيبِ، المفضي بهم إلىٰ قلةِ الاكتراث بالإيمانِ وأهلِه، إلىٰ الاستمرارِ علىٰ الكفرِ وشُعَبِه التي سبَق الحديثُ عنها؛ فعن ابنِ عبَّاسٍ: المرادُ: رؤساءُ قُرَيشٍ، فهذا الاستئنافُ في معنىٰ التعليلِ للأحوال الماضية، ولأجلِ ذلك قُطِع عن الجُمَل السابقة، لا سيَّما وقد حالَ بينه وبينها الاستطرادُ بقولِه: ﴿ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الآية(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر مِن قبلُ حالَ مَن يبدِّلُ نِعْمةَ الله مِن بعدِ ما جاءته، وهم الكفارُ الذين كذَّبوا بالدَّلالةِ والأنبياء، وعدَلوا عنها؛ أتبعه اللهُ تعالىٰ بذِكْرِ السببِ الذي لأجلِه كانت هذه طريقتَهم، فقال: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٣).

ومناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّه لمَّا ذكَر أنَّ بني إسرائيلَ أتتهم آياتٌ واضحةٌ مِن الله تعالىٰ، وأنَّهم بدَّلوا؛ أخبَر أنَّ سببَ ذلك التَّبديلِ هو الركونُ إلىٰ الدنيا، والاستبشارُ

---

(١) نظم الدرر (٣/ ١٩٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٢٩٣، ٢٩٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٦/ ٣٦٧).

بها، وتزيينُها لهم، واستقامتُهم للمؤمنين؛ فلبني إسرائيلَ مِن هذه الآيةِ أكبرُ حظٍّ؛ لأنَّهم كانوا يشترون بآياتِ الله ثمنًا قليلًا، ويكذبون علىٰ كتابِ الله، فيكتُبون ما شاؤوا لينالوا حظًّا خسيسًا مِن حظوظِ الدنيا، ويقولون: هذا مِن عندِ الله[١].

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: هل كان هذا الكفرُ والتَّزيين مِن بَدْءِ الأمرِ أم هو شيءٌ حدَث فيكونَ حدوثُه أعجَبَ؟ فقيل: لا فَرْقَ عند الحكيمِ بَيْنَ هذا وذاك؛ فإنَّ قُدْرتَه علىٰ الكبيرِ والصغير والجاهلِ والعليم والطائشِ والحليم علىٰ حدٍّ سواءٍ، علىٰ أنَّ الواقعَ أنَّ ذلك شيءٌ حدَث بعد البيانِ؛ ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢].

استئنافٌ لبيانِ أنَّ اختلافَ الأديان أمرٌ كان مِن البشَرِ لحِكْمةٍ اقتضته، وأنَّه ارتفَع ذلك، ورجَع اللهُ بالناس إلىٰ وَحْدةِ الدِّين بالإسلام، والمناسبةُ بينها وبين ما تقدَّمَها تحتمل وجوهًا: الأول: قال فخرُ الدِّين: إنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا بيَّن في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أنَّ سببَ إصرارِ الكفار علىٰ كفرِهم هو استبدالُهم الدنيا بالآخرة، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ هذه الحالةَ غيرُ مختصةٍ بالذين كفروا بمحمَّدٍ ﷺ؛ بل

(١) البحر المحيط (٢/ ٣٥٣).

(٢) نظم الدرر (٣/ ١٩٨).

كانت حاصلةً في الأزمنةِ المتقادِمة؛ لأنَّ الناسَ كانوا أُمَّةً واحدة قائمةً علىٰ الحق، وما كان اختلافُهم لسببِ البَغْيِ والتحاسد في طلبِ الدنيا. اهـ. فتكونُ الجملةُ مستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا لتنظيرِ ما لَقِيَه المسلمون بما كان في الأُمَمِ الغابرة. الثاني: يؤخَذُ مِن كلامِ الطِّيبيِّ عند قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾، أخذًا مِن كلامِ «الكشَّاف»: أنَّ المقصودَ مِن قوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ تشجيعُ الرسول ﷺ والمؤمنين علىٰ الثباتِ والصبر علىٰ أذىٰ المشركين بذِكْرِ ما قابلت به الأُمَمُ السالفة أنبياءَها، وما لَقُوا فيها مِن الشدائدِ. اهـ. فالمناسبةُ علىٰ هذا في مدلولِ قوله تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وتكونُ الجملةُ مستأنَفة استئنافًا ابتدائيًّا للمناسبة. والظاهرُ عندي أنَّ موقعَ هذه الآيةِ هنا جامعٌ لموقعِ تذييلٍ لِما قبلها، ومقدِّمةٌ لِما بعدها: فأمَّا الأولُ، فلأنَّها أفادت بيانَ حالةِ الأُمَمِ الماضية كيف نشأ الخلافُ بينهم في الحقِّ ممَّا لأجلِه تداركَهم اللهُ ببعثاتِ الرُّسلِ في العصور والأجيال التي اقتضتها حِكْمةُ اللهِ ولُطْفُه ممَّا يماثِلُ الحالةَ التي نشأت فيها البعثةُ المحمَّدية، وما لَقِيَه الرسولُ والمسلمون مِن المشركين. وأمَّا الثاني، فلأنَّها مقدِّمةٌ لِما يَرِدُ بعدها مِن ذِكْرِ اختصاصِ الإسلام بالهداية إلىٰ الحقِّ الذي اختلَف فيه الأُمَمُ؛ وهو مضمونُ قولِه تعالىٰ: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وذلك مِن خصائصِ كونِ الإسلام مهيمِنًا علىٰ ما سبَقه مِن الشرائعِ الإلهيَّة، وتفضيلِه علىٰ جميعِ الأديان، وأنَّ هذه المزيَّةَ العظمىٰ يجب الاعترافُ بها، وألا تكونَ مثارَ حسَدٍ للنَّبيءِ وأمَّتِه؛ ردًّا علىٰ حسَدِ المشركين إذ يَسخَرون مِن الذين آمَنوا، وعلىٰ حسَدِ أهلِ الكتاب الذي سبَق التنبيهُ عليه، وحصَل مِن عمومِ ذلك تعليمُ المسلمين تاريخَ أطوارِ الدِّين بَيْنَ عصورِ البشَرِ بكلماتٍ جامعة خُتِمتْ بقولِه: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾، فإن كان

المرادُ مِن كونِهم أمَّةً واحدة الوَحْدةَ في الخيرِ والحقِّ -وهو المختارُ؛ كما سيأتي-، فقد نبَّه اللهُ أنَّ الناسَ اختلَفوا، فبعَث لهم أنبياءَ متفرِّقين لقصدِ تهيئة الناس للدخول في دِينٍ واحد عام؛ فالمناسبة حاصلةٌ مع جملة ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ بِناءً علىٰ أنَّها خطابٌ لأهل الكتاب؛ أي: ادخلُوا في دِينِ الإسلام الذي هدىٰ اللهُ به المسلمين، وإن كان المرادُ مِن كونِ الناس أمَّةً واحدة الوَحْدةَ في الضَّلالِ والكفر، يكُنِ اللهُ قد نبَّههم أنَّ بعثةَ الرُّسلِ تقع لأجلِ إزالة الكفرِ والضَّلال الذي يحدُثُ في قرونِ الجَهالة، فكذلك انتهت تلك القرونُ إلىٰ القرنِ الذي أعقَبَتْه بعثةُ محمَّدٍ ﷺ، فتكونُ الآية تثبيتًا للمؤمنين؛ فالمناسبة حاصلةٌ مع قولِه: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾[1].

لمَّا بيَّن في هذه الآيةِ المتقدِّمة أنَّ سببَ إصرارِ هؤلاء الكفار علىٰ كفرهم هو حُبُّ الدنيا، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ هذا المعنىٰ غيرُ مختصٍّ بهذا الزمان؛ بل كان حاصلًا في الأزمنةِ المتقادِمة؛ لأنَّ الناسَ كانوا أمَّةً واحدة قائمةً علىٰ الحقِّ، ثم اختلَفوا، وما كان اختلافُهم إلا بسببِ البَغْيِ، والتحاسد، والتنازعِ في طلب الدنيا؛ فهذا هو الكلامُ في ترتيب النَّظم[2].

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: هو أنَّ إصرارَ هؤلاء علىٰ كفرهم هو حُبُّ الدُّنيا، وأنَّ ذلك ليس مختصًّا بهذا الزمانِ الذي بُعِثتْ فيه؛ بل هذا أمرٌ كان في الأزمنةِ المتقادِمة؛ إذ كانوا علىٰ حقٍّ، ثم اختلَفوا بَغْيًا وحسَدًا، وتنازُعًا في طلب الدنيا[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٢٩٨، ٢٩٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٦/ ٣٧٣).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٣٦٣).

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾

ولمَّا أفهَمَ ما صرَّح به الكلامُ السابق مِن الاختلافِ وقوعَ العداوات، وكان في العداوات خطَرُ الأموالِ والأنفس، وكان ذلك أشَقَّ ما يكون، وكانت العادةُ قاضيةً بأنَّ المدعُوِّين إلىٰ ذلك إن لم يُصمِّموا علىٰ الآياتِ، كانوا بَيْنَ مستثقِلين لأمرِ الرُّسل، يرَوْن أنَّهم يفرِّقون ما اتفَق مِن الكلمةِ ورَضِيَ به الناسُ لأنفسهم، ويشتِّتون أمرَهم مستثقِلين لطُولِ انتظارِ الانتصار؛ كان حالُهم حالَ مَن يطلُبُ الراحاتِ في ذُرَىٰ الجنَّاتِ بلا مشقَّاتٍ، وذلك مُحالٌ، ومحضُ ضلالٍ؛ فإنَّ الثَّباتَ علىٰ الصراطِ المستقيم لا يكون إلا باحتمالِ شدائدِ التكاليف، فكان كأنَّه قيل في جوابِ ذلك عدولًا عن خطابِ النبي ﷺ المقُولِ له: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلىٰ خطابِ الأتباع؛ تشريفًا له عن ذلك، ورفعًا لهِمَمِهم بالمواجهةِ بالخطاب، والتَّأسيةِ بمَن مضىٰ مِن أُولي الألباب؛ تنشيطًا لهم، وتقويةً لعزائمِهم: أحَسِبْتم أنَّا لا نُرسِلُ الرُّسلَ لتمييزِ الخبيث مِن الطيِّب، ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾؟![1].

إضرابٌ انتقاليٌّ عن الكلامِ السابق، فاحتاج إلىٰ وجهِ مناسبةٍ به، فقال الطِّيبيُّ أخذًا مِن كلامِ «الكشاف»: إنَّ قولَه تعالىٰ: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ كلامٌ ذُكِرتْ فيه الأُمَمُ السالفة، وذُكِر مَن بُعِث إليهم مِن الأنبياء، وما لَقُوا منهم مِن الشدائد، ومُدمَجٌ لتشجيعِ الرسول ﷺ والمؤمنين علىٰ الثباتِ والصبر علىٰ أذىٰ المشركين؛ فمِن هذا

---

(١) نظم الدرر (٣/ ٢٠٤-٢٠٥).

الوجهِ كان الرسولُ ﷺ وأصحابه مرادِينَ مِن ذلك الكلام، يدلُّ عليه قولـه: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وهو المُضرَبُ عنه بـ«بل» التي تضمَّنها ﴿أَمْ﴾؛ أي: دَعْ ذلك، أحَسِبوا أن يدخُلوا الجنَّةَ؟ وبيانُه أنَّ القصدَ مِن ذِكْرِ الأُمَم السالفة حيثما وقَع في القرآن هو العِبْرةُ والموعظة، والتحذيرُ مِن الوقوع فيما وقَعوا فيه بسُوءِ عملِهم، والاقتداءُ في المحامد، فكان قولُه تعالىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ الآية إجمالًا لذلك، وقد خُتِم بقولِه: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾، ولمَّا كان هذا الختامُ مَنقَبةً للمسلمين، أُوقِظوا ألا يُزْهَوا بهذا الثناءِ، فيَحسَبوا أنَّهم قضَوْا حقَّ شكرِ النِّعْمة، فعُقِّب بأنَّ عليهم أن يَصبِروا لِما عسىٰ أن يعترِضَهم في طريقِ إيمانهم مِن البأساءِ والضراء؛ اقتداءً بصالحي الأُمَم السالفة، فكما حذَّرهم اللهُ مِن الوقوع فيما وقَع فيه الضالُّون مِن أولئك الأُمَمِ، حرَّضهم هنا علىٰ الاقتداءِ بهُدَىٰ المهتدين منهم؛ علىٰ عادةِ القرآن في تعقيبِ البِشارة بالنِّذارة، وعكسِ ذلك، فيكونُ قولُه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ إضرابًا عن قولـه: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وليكونَ ذلك تصبيرًا لهم علىٰ ما نالهم يومَ الحُدَيبيَةِ مِن تطاوُلِ المشركين عليهم بمَنْعِهم مِن العمرة، وما اشترَطوا عليهم للعامِ القابل، ويكونَ أيضًا تمهيدًا لقولـه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ الآية[1].

في النَّظْمِ وجهان: الأول: أنَّه تعالىٰ قال في الآيةِ السالفة: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ والمرادُ أنَّه يَهدي مَن يشاء إلىٰ الحقِّ، وطلبِ الجنَّة، فبيَّن في هذه الآيةِ أنَّ ذلك الطَّلَبَ لا يَتِمُّ ولا يكمُلُ إلا باحتمالِ الشَّدائد في التَّكليف، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ الآية. الثاني: أنَّه في الآيةِ السالفة لمَّا بيَّن أنَّه هداهم لِما اختلَفوا فيه مِن الحقِّ بإذنه، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّهم بعد

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٣١٣).

تلك الهدايةِ احتمَلوا الشَّدائدَ في إقامةِ الحق، وصبَروا على البلوى، فكذا أنتم يا أصحابَ محمَّدٍ ﷺ لا تستحِقُّون الفضيلةَ في الدِّينِ إلا بتحمُّلِ هذه المِحَن(١).

خوطِبَ به رسولُ الله ﷺ ومَن معه مِن المؤمنين؛ حثًّا لهم على الثباتِ على المُصابَرة على مخالَفةِ الكفرةِ، وتحمُّلِ المَشاقِّ مِن جهتهم، إثرَ بيانِ اختلاف الأُمَم على الأنبياء عليهم السلام، وقد بُيِّن فيه مآلُ اختلافِهم، وما لَقِيَ الأنبياءُ ومَن معهم مِن قبلِهم؛ مِن مكابَدةِ الشدائد، ومقاساةِ الهمومِ، وأنَّ عاقبةَ أمرِهم النصرُ(٢).

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾

ولمَّا كانت النَّفقةُ مِن أصولِ ما بُنِيتْ عليه السورةُ مِن صفاتِ المؤمنين في أولِ السورة، كرَّر التَّرغيبَ فيها في تضاعيفِ الآيِ إلى أنْ أمَر بها في أوَّلِ آيات الحجِّ الماضيةِ آنفًا مع أنَّها مِن دعائمِ بداياتِ الجهاد، إلى أن تضمَّنَتْها الآيةُ السالفة مع القتلِ الذي هو نهايةُ الجهاد؛ كان هذا موضعَ السُّؤالِ عنهما، فأخبَر تعالى عن ذلك على طريقِ النَّشْرِ المشوَّشِ(٣)، وذلك مؤيِّدٌ لِما فَهِمْته في البأساءِ والضَّراء؛ فإنَّ استعمالَه في القرآنِ أكثرُ مِن المرتَّبِ، فقال مُعلِمًا لِمَن سأل: هل سأل المخاطَبون بذلك عنهما؟ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٦/ ٣٧٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ٢١٥).

(٣) النشر: هو التفصيل بعد الإجمال، والمشوش: عكس المرتب.

(٤) نظم الدرر (٣/ ٢١٢).

استئنافٌ ابتدائيٌّ لابتداءِ جوابٍ عن سؤال سأله بعضُ المسلمين النَّبيءَ ﷺ؛ روىٰ الواحديُّ عن ابنِ عبَّاسٍ: «أنَّ السائلَ عمرُو بن الجَمُوحِ الأنصاري، وكان ذا مالٍ، فقال: يا رسول الله، بماذا يَتصدَّقُ وعلىٰ مَن يُنفِقُ؟»[(١)]، وقال ابنُ عطيَّةَ: السائلون هم المؤمنون؛ يعني أنَّه تكرَّر السؤالُ عن تفصيلِ الإنفاق الذي أُمِروا به غيرَ مرةٍ علىٰ الإجمال، فطلَبوا بيانَ مَن ينفقُ عليهم، وموقعُ هذه الآيةِ في هذا الموضعِ إمَّا لأنَّ نزولَها وقَع عَقِب نزولِ التي قبلها، وإمَّا لأمرٍ بوضعِها في هذا الموضعِ؛ جمعًا لطائفةٍ مِن الأحكامِ المفتتَحة بجملةِ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾، وهي ستَّةُ أحكامٍ[(٢)].

اعلَمْ أنَّه ﷻ لمَّا بالَغ في بيانِ أنَّه يجب علىٰ كلِّ مكلَّفٍ أن يكونَ مُعرِضًا عن طلبِ العاجل، وأن يكونَ مشتغِلًا بطلب الآجل، وأن يكونَ بحيث يبذُلُ النَّفسَ والمال في ذلك؛ شرَع بعد ذلك في بيانِ الأحكام؛ لأنَّ مِن عادةِ القرآن أن يكونَ بيانُ التوحيدِ وبيانُ الوعظ والنصيحة وبيانُ الأحكام مختلِطًا بعضُها بالبعض؛ ليكونَ كلُّ واحدٍ منها مقوِّيًا للآخَر، ومؤكِّدًا له[(٣)].

ومناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّ الصَّبرَ علىٰ النَّفقةِ وبَذْلَ المالِ هو مِن أعظَمِ ما تحلَّىٰ به المؤمنُ، وهو مِن أقوىٰ الأسباب الموصِّلةِ إلىٰ الجنَّة، حتىٰ لقد ورَد: «الصَّدقةُ تُطفئُ غضَبَ الرَّبِّ»[(٤)][(٥)].

---

(١) أورده الواحدي في "أسباب النزول" (صـ٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٣١٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٦/ ٣٨١).

(٤) أخرجه الترمذي (٦٦٤).

(٥) البحر المحيط (٢/ ٣٧٦).

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

ولمَّا أُخبِروا بما سألوا عنه مِن إحدىٰ الخَصْلتَينِ المضمَّنتَينِ لآيةِ الزلزال، كان ذلك موضعَ السُّؤالِ عن الأُخرىٰ؛ فأُجيبوا علىٰ طريقِ الاستئناف بقولِه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١).

المناسبةُ أنَّ القتالَ مِن البأساء التي في قوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾؛ فقد كُلِّفتْ به الأُمَمُ قبلنا؛ فقد كُلِّفتْ بنو إسرائيلَ بقتالِ الكَنْعانيِّينَ مع موسىٰ عليه السلام، وكُلِّفوا بالقتالِ مع طالوتَ -وهو شاوُلُ- مع داودَ، وكُلِّف ذو القَرْنينِ بتعذيبِ الظالمين مِن القوم الذين كانوا في جهةِ المغربِ مِن الأرض(٢).

ومناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: هو أنَّه لمَّا ذكَر ما مسَّ مَن تقدَّمَنا مِن أتباعِ الرُّسل مِن البلايا، وأنَّ دخولَ الجنَّة معذوقٌ(٣) بالصَّبر علىٰ ما يُبتلىٰ به المكلَّفُ، ثم ذكَر الإنفاقَ علىٰ مَن ذكَر، فهو جهادُ النَّفسِ بالمال؛ انتقَل إلىٰ أعلىٰ منه؛ وهو الجهادُ الذي يستقيم به الدِّينُ، وفيه الصَّبر علىٰ بَذْلِ المالِ والنَّفس(٤).

---

(١) نظم الدرر (٣/ ٢١٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٣١٩).

(٣) من العَذق، وهو إخراج الثمر، والمعنىٰ: أن الصبر يثمر دخول الجنة.

(٤) البحر المحيط (٢/ ٣٧٩).

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾

ولمَّا أخبرَهم ﷻ بإيجابِ القتال عليهم مرسَلًا في جميعِ الأوقات، وكان قد أمَرهم فيما مضىٰ بقتلِهم حيث ثَقِفوهم، ثم قيَّد عليهم في القتالِ في المسجد الحرام؛ كان بحيث يسألُ هنا: هل الأمرُ في الحَرَمِ والحرام كما مضىٰ أم لا؟ وكان المشركون قد نسَبوهم في سَرِيَّة عبدِ الله بن جحشٍ، التي قتَلوا فيها مِن المشركين عمرَو بن الحَضْرميِّ، إلىٰ التَّعدي بالقتال في الشَّهرِ الحرام، واشتدَّ تعييرُهم لهم به، فكان موضعُ السُّؤال: هل سألوا عمَّا عيَّرهم به الكفارُ مِن ذلك؟ فقال مُخبِرًا عن سؤالهم، مُبيِّنًا لحالِهم: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾[1].

مِن أهمِّ تفاصيلِ الأحوال في القتال الذي كُتِب علىٰ المسلمين في الآيةِ قبل هذه أن يَعلَموا ما إذا صادَف القتالُ بينهم وبين المشركين الأشهُرَ الحُرُمَ؛ إذ كان مَحجِرًا[2] في العرب مِن عهدٍ قديم، ولم يذكُرِ الإسلامُ إبطالَ ذلك الحَجْرِ؛ لأنَّه مِن المصالحِ، فكان الحالُ يَبعَث علىٰ السؤال عن استمرارِ حُرْمةِ الشهر الحرام في نظرِ الإسلام، والأظهَرُ عندي أنَّ هذه الآيةَ نزَلتْ بعد الآية التي قبلها، وأنَّها تكملةٌ وتأكيد

(١) نظم الدرر (٣/ ٢٢٤-٢٢٥).

(٢) أي: ممنوعًا، ومحرمًا.

لآيـةِ ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾؛ فالجملـةُ اسـتئنافٌ ابتـدائي، ورَدتْ علـىٰ سـؤالِ الناس عن القتال في الشهرِ الحرام، ومناسبةُ موقعِها عَقِبَ آيةِ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ ظاهرةٌ(١).

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّه لمَّا فُرِض القتالُ، لم يُخَصَّ بزمانٍ دُونَ زمانٍ، وكان مِن العوائدِ السابقة أنَّ الشَّهرَ الحرام لا يُستباح فيه القتالُ؛ فبيَّن حُكْمَ القتالِ في الشَّهر الحرام(٢).

📖 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ 📖

ولمَّا بيَّن ﷻ المقطوعَ لهم بالنار، بيَّن الذين هم أهلٌ لرجاءِ الجنَّة؛ لئلا يَزالَ العبدُ هاربًا مِن موجِبات النار، مُقبِلًا علىٰ مرجِّئات الجنَّة؛ خوفًا مِن أن يقعَ فيما يُسقِطُ رجاءَه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾(٣).

لمَّا ذكَر أمرَ المتزلزِلين، ذكَر أمرَ الثابتين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾(٤).

أعقَب اللهُ ﷻ الإنذارَ بالبشارة، ونزَّه المؤمنين مِن احتمالِ ارتدادهم؛ فإنَّ المهاجِرين لم يرتدَّ منهم أحدٌ(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٣٢٣).
(٢) البحر المحيط (٢/ ٣٨٢).
(٣) نظم الدرر (٣/ ٢٣٦).
(٤) يُنظر: نظم الدرر (٣/ ٢٣٦).
(٥) التحرير والتنوير (٢/ ٣٣٧).

أنَّه تعالىٰ لمَّا أوجَب الجهادَ مِن قبلُ بقولِه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾، وبيَّن أنَّ تَرْكَه سببٌ للوعيدِ؛ أتبَع ذلك بذِكْرِ مَن يقومُ به، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١).

لمَّا أوجَب الجهادَ بقولِه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾، وبيَّن أنَّ تَرْكَه سببٌ للوعيد؛ أتبَع ذلك بذِكْرِ مَن يقومُ به، ولا يكاد يوجَدُ وعيدٌ إلا ويَتبَعه وعدٌ، وقد احتوت هذه الجملةُ علىٰ ثلاثةِ أوصاف، وجاءت مرتَّبةً بحسَبِ الوقائعِ والواقع؛ لأنَّ الإيمانَ أولُها، ثم المهاجَرة، ثم الجهاد في سبيل الله، ولمَّا كان الإيمانُ هو الأصلَ، أُفرِدَ به موصولٌ وَحْدَه، ولمَّا كانت الهجرةُ والجهاد فرعينِ عنه، أُفرِدَا بموصولٍ واحد؛ لأنَّهما مِن حيث الفَرْعيَّةُ كالشيء الواحد(٢).

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾

ولمَّا كان الشَّرابُ ممَّا أُذِن فيه في ليلِ الصيام، وكان غالِبَ شرابِهم النَّبيذُ مِن التمرِ والزَّبيب، وكانت بلادُهم حارَّةً، فكان ربما اشتدَّ فكان عائقًا عن العبادةِ، لا سيَّما الجهادُ؛ لأنَّ السَّكران لا يُنتفع به في رأيٍ ولا بطشٍ، ولم يكُنْ ضروريًّا في إقامةِ البدَنِ كالطعامِ؛ أخَّر بيانَه إلىٰ أن فرَغ ممَّا هو أَوْلىٰ منه بالإعلام، وختَم الآياتِ المتخلِّلةَ بينه وبين آيات الإذن بما بدأها به مِن الجهاد، ونصَّ فيها علىٰ أنَّ فاعِلَ أجَدِّ الجِدِّ وأمَّهاتِ الأطايبِ مِن الجهاد وما ذُكِر معه في محَلِّ الرجاءِ للرحمة،

(١) مفاتيح الغيب (٦/ ٣٩٤).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٣٩٤).

فاقتضى الحالُ السُّؤالَ: هل سألوا عن أهزَلِ الهَزْلِ، وأمَّهاتِ الخبائث؟ فقال مُعلِمًا بسؤالهم عنه مُبيِّنًا لِما اقتضاه الحالُ مِن حِلْمِه، فيَبقى ما عداه على الإباحةِ المَحْضة، فقال: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

استئنافٌ لإبطالِ عمَلَينِ غالبينِ على الناس في الجاهليةِ؛ وهما شُرْبُ الخمرِ والمَيسِرُ، وهذا مِن عدادِ الأحكام التي بيَّنها في هاته السورةِ ممَّا يَرجِع إلى إصلاحِ الأحوال التي كان عليها الناس في الجاهلية، والمشروعُ في بيانها مِن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ إلى آخِرِ السورة، عدا ما تخلَّل ذلك مِن الآدابِ، والزواجر، والبشائر، والمواعظ، والأمثال، والقصص؛ على عادةِ القرآن في تفنُّنِ أساليبه؛ تنشيطًا للمخاطَبين والسامعين والقارئين ومَن بلَغَ، وقد تناسَقتْ في هذه الآيةِ[2].

ومناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّهم لمَّا سألوا عن ماذا يُنفِقون؟ فبيَّن لهم مَصرِفَ ذلك في الوالدَينِ والأقربين واليتامى والمساكينِ وابن السَّبيل، ثم ذكَر تعالى فرضَ القتالِ والجهاد في سبيل الله؛ ناسَب ذِكْرُ سؤالهم عن الخمرِ والمَيسِر؛ إذ هما أيضًا مِن مصارفِ المال، ومع مداومتِهما قلَّ أن يَبقَى مالٌ فتَتصدَّق به، أو تجاهِدَ به؛ فلذلك وقَع السُّؤال عنهما[3].

---

(١) يُنظر: نظم الدرر (٣/ ٢٣٩-٢٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٣٣٨).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٤٠٢).

﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠﴾

ولمَّا كان البيانُ مِن أولِ السُّؤال إلىٰ هنا قد شفَىٰ في أمورِ الدارينِ وكفَىٰ، وأوضَح ثمراتِ كلٍّ منهما، وكان العربُ يُنكِرون الآخرةَ؛ ساقَ ذِكْرَها مساقَ ما لا نزاعَ فيه؛ لكثرةِ ما دلَّ عليها، فقال: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ أي: في أمورِهما فتعلَّموا بما فتَح اللهُ لكم ﷻ مِن الأبوابِ وما أصَّل لكم مِن الأصولِ ما هو صالحٌ وما هو أصلَحُ، وما هو شرٌّ وما هو أشرُّ؛ لتَفعلوا الخيرَ، وتتَّقُوا الشرَّ؛ فيؤُولَ بكم ذلك إلىٰ فوزِ الدارين(١).

ومناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّه لمَّا ذكَر السُّؤالَ عن الخمرِ والمَيسِر، وكان تَرْكُهما مَدْعاةً إلىٰ تنميةِ المال، وذكَر السُّؤالَ عن النَّفقة، وأُجيبوا بأنَّهم يُنفِقون ما سهُل عليهم؛ ناسَب ذلك النَّظرُ في حالِ اليتيم، وحِفْظِ ماله، وتنميتِه، وإصلاحِ اليتيم بالنَّظرِ في تربيته؛ فالجامعُ بَيْنَ الآيتينِ أنَّ في تَرْكِ الخمرِ والمَيسِرِ إصلاحَ أحوالِهم أنفسِهم، وفي النَّظرِ في حالِ اليتامىٰ إصلاحًا لغيرِهم ممَّن هو عاجزٌ أن يُصلِحَ نفسَه، فيكونُ قد جمَعوا بَيْنَ النَّفعِ لأنفسِهم ولغيرِهم(٢).

عُطِف تبيينُ معاملةِ اليتامىٰ علىٰ تبيينِ الإنفاق؛ لتعلُّق الأمرين بحُكْمِ تحريمِ المَيسِر، أو التَّنويهِ عنه؛ فإنَّ المَيسِرَ كان بابًا واسعًا للإنفاقِ علىٰ المحاويجِ، وعلىٰ اليتامىٰ، فكان تحريمُ المَيسِر ممَّا يُثير سؤالًا عن سدِّ هذا البابِ علىٰ اليتامىٰ، وفيه صلاحٌ عظيمٌ لهم، وكان ذلك السُّؤالُ مناسبةً حسنةً للتَّخلُّصِ إلىٰ الوصايةِ باليتامىٰ،

(١) نظم الدرر (٣/ ٢٦٤).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٤١٠).

وذِكْرِ مُجمَلِ أحوالهم في جملةِ إصلاح الأحوال التي كانوا عليها قبل الإسلام؛ فكان هذا وجهَ عطفِ هذه الجملةِ على التي قبلها بواوِ العطف؛ لاتصالِ بعضِ هذه الأسئلةِ ببعضٍ(١).

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

ولمَّا ذكَر تعالىٰ فيما مرَّ حِلَّ الجماعِ في ليلِ الصيام، وأتبَع ذلك مِن أمرِه ما أراد، إلىٰ أن ذكَر المخالَطةَ علىٰ وجهٍ يَشمَلُ النكاحَ في سياقٍ مانعٍ من الفساد، داعٍ إلىٰ الصَّلاح، وختَم بوصفِ الحِكْمة، ولمَّا كان النكاحُ مِن معظمِ المخالَطة في النَّفقةِ وغيرها، وكان الإنسان جهولًا؛ تولَّىٰ ﷻ بحِكْمتِه تعريفَه ما يصلُحُ له وما لا يصلُحُ مِن ذلك، وأخَّر أمرَ النكاحِ عن بيان ما ذُكِر معه مِن الأكلِ والشُّرب في ليل الصيام؛ لأنَّ الضَّرورةَ إليهما أعظَمُ، وقدَّمه في آيةِ الصيام؛ لأنَّ النَّفسَ إليه أميَلُ، فقال عاطفًا علىٰ ما دلَّ العطفُ علىٰ غيرِ مذكورٍ علىٰ أنَّ تقديرَه: فخالِطوهم، وأنكِحوا مَن تَلُونَهُ مِن اليتيماتِ علىٰ وجهِ الإصلاح إن أردتم، ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٣٥٤).

(٢) نظم الدرر (٣/ ٢٦٨-٢٦٩).

كان المسلمون أيامَ نزولِ هذه السورةِ ما زالوا مختلِطين مع المشركين بالمدينة، وما هم ببعيدٍ عن أقربائهم مِن أهلِ مكَّةَ، فربما رَغِب بعضُهم في تزوُّجِ المشركات، أو رَغِب بعضُ المشركين في تزوُّج نساءٍ مسلمات؛ فبيَّن اللهُ الحُكْمَ في هذه الأحوالِ، وقد أوقَعَ هذا البيانَ بحِكْمتِه في أرشَقِ موقعِه، وأسعَدِه به؛ وهو موقعُ تعقيبِ حُكْمِ مخالَطة اليتامىٰ؛ فإنَّ للمسلمين يومئذٍ أقارِبَ وموالِيَ لم يَزالوا مشركين، ومنهم يتامىٰ فقَدوا آباءهم في يومِ بَدْرٍ وما بعده، فلمَّا ذكَر اللهُ بيانَ مخالطةِ اليتامىٰ، وكانت المصاهَرةُ مِن أعظَمِ أحوالِ المخالطة؛ تطلَّعتِ النفوسُ إلىٰ حُكْمِ هاته المصاهَرةِ بالنسبة للمشركات والمشركين، فعُطِف حُكْمُ ذلك علىٰ حُكْمِ اليتامىٰ لهاته المناسبةِ[1].

ومناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّه لمَّا ذكَر تعالىٰ حُكْمَ اليتامىٰ في المخالَطة، وكانت تقتضي المناكَحةَ وغيرَها ممَّا يُسمَّىٰ مخالَطةً، حتىٰ إنَّ بعضَهم فسَّرها بالمصاهَرة فقط، وكان مِن اليتامىٰ مَن يكونُ مِن أولادِ الكفار؛ نهىٰ اللهُ تعالىٰ عن مناكَحةِ المشركات والمشركين، وأشار إلىٰ العلَّةِ المسوِّغة للنكاحِ؛ وهي الأُخوَّة الدِّينيَّة، فنهىٰ عن نكاحِ مَن لم تكُنْ فيه هذه الأُخوَّة، واندرَج يتامىٰ الكفارِ في عمومِ مَن أشرَك. ومناسبةٌ أخرىٰ: أنَّه لمَّا تقدَّم حُكْمُ الشُّرْبِ في الخمر، والأكلِ في المَيسِر، وذكَر حُكْمَ المَنكِحِ، فكما حرَّم الخمرَ مِن المشروبات، وما يجُرُّ إليه المَيسِرُ مِن المأكولات؛ حرَّم المشركاتِ مِن المنكوحات[2].

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٣٥٩).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٤١٦).

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾

ولمَّا كان في ذِكْرِ هذه الآيةِ رجوعٌ إلىٰ تتميمِ ما أُحِلَّ مِن الرَّفَثِ في ليلِ الصيام علىٰ أحسَنِ وجهٍ، تلاها بالسُّؤال عن غِشْيانِ الحائض، ولمَّا كان في النكاحِ شائبةٌ للجِماع تُثِيرُ للسُّؤالِ عن أحواله، وشائبةٌ للأُنس والانتفاع تفتَرُّ[1] عن ذلك؛ كان نَظْمُ آيةِ الحرثِ بآيةِ العَقد بطريقِ العطفِ أنسَبَ منه بطريقِ الاستئناف، فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[2].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾؛ بمناسبةِ أنَّ تحريمَ نكاح المشركات يؤذِنُ بالتَّنزُّهِ عن أحوال المشركين، وكان المشركون لا يَقربون نساءهم إذا كُنَّ حُيَّضًا، وكانوا يُفرِطون في الابتعادِ منهنَّ مدَّةَ الحَيْضِ؛ فناسَب تحديدُ ما يكثُرُ وقوعُه، وهو مِن الأحوالِ التي يخالِفُ فيها المشركون غيرَهم، ويتساءل المسلمون عن أحقِّ المناهجِ في شأنها، والباعثُ علىٰ السؤال أنَّ أهلَ يَثرِبَ قد امتزَجوا باليهود، واستَنُّوا بسُنَّتِهم في كثيرٍ مِن الأشياء، وكان اليهودُ يَتباعدون عن الحائضِ أشَدَّ التباعد بحُكْمِ التَّوراة، فكانت الحالُ مَظِنَّةَ حَيْرةِ المسلمين في هذا الأمرِ تبعَثُ علىٰ السؤال عنه[3].

---

(١) أي: تثبَّط.

(٢) نظم الدرر (٣/ ٢٧٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٣٦٤).

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: هو أنَّه لمَّا نهىٰ عن مناكَحةِ الكفار، وتضمَّن مناكَحةَ أهلِ الإيمان، وإيثارَ ذلك؛ بيَّن حُكْمًا عظيمًا مِن أحكامِ النكاح؛ وهو حُكْمُ النكاحِ في زمانِ الحَيض(١).

عطفٌ علىٰ ما تقدَّم مِن مثلِه، ولعلَّ حكايةَ هذه الأسئلةِ الثلاثة بالعطفِ؛ لوقوعِ الكلِّ عند السؤال عن الخمرِ، وحكايةَ ما عداها بغيرِ عطفٍ؛ لوقوعِ كلٍّ مِن ذلك في وقتٍ علىٰ حِدَةٍ(٢).

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

ولمَّا بيَّن ﷻ المأتيَّ في الآيةِ السابقة نوعَ بيانٍ، أوضَحه مشيرًا إلىٰ ثمرةِ النكاح الناهيةِ لكلِّ ذي لُبٍّ عن السِّفاح، فقال: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

هذه الجملةُ تذييلٌ ثانٍ لجملة: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾، قُصِد به الارتفاقُ بالمخاطَبين، والتأنُّس لهم؛ لإشعارِهم بأنَّ مَنْعَهم مِن قِرْبانِ النساء في مدةِ المَحيض منعٌ مؤقَّت لفائدتهم، وأنَّ اللهَ يَعلَم أنَّ نساءهم محَلُّ تعهُّدِهم وملابَستهم، ليس منعُهم منهنَّ في بعضِ الأحوال بأمرٍ هيِّنٍ عليهم لولا إرادةُ حفظِهم مِن الأذىٰ(٤).

---

(١) البحر المحيط (٢/ ٤٢٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ٢٢٢).

(٣) نظم الدرر (٣/ ٢٧٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢/ ٣٧١).

ومناسبتُها لِما قبلها ظاهرةٌ؛ لأنَّه لمَّا تقدَّم: ﴿فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾، وكان الإطلاقُ يقتضي تسويغَ إتيانِهنَّ علىٰ سائرِ أحوال الإتيان؛ أكَّد ذلك بأنْ نصَّ بما يدُلُّ علىٰ سائرِ الكيفيَّات، وبيَّن أيضًا المحَلَّ بجعلِه حَرْثًا؛ وهو القُبُلُ[1].

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٤﴾

ولمَّا أَذِن في إتيانِ النساء في محَلِّ الحرث كيفما اتَّفَق، ومنَع ممَّا سِوىٰ ذلك، ومنَع مِن محَلِّ الحرثِ في حالِ الحَيض؛ بيَّن حُكْمَ ما إذا منَع الإنسانُ نفسَه مِن ذلك بالإيلاء، أو بمُطلَق اليمين، ولو علىٰ غيرِ سبيلِ الإيلاء؛ لأنَّه نُقِل عن كثيرٍ منهم شدَّةُ الميلِ إلىٰ النكاح، فكان يَخشَىٰ المواقَعةَ في حالِ المنع، فتَحمِلُه شدَّةُ الورَعِ علىٰ أن يَمنَعَ نفسَه بمانعِ مظاهَرةٍ؛ كما بُيِّنَ في سورةِ «المجادلة»، أو غيرِها مِن الأيمان، فمنَعهم مِن ذلك بقولِه تعالىٰ عادلًا عن خطابِ نبيِّه ﷺ تعظيمًا لمقامِه: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾[2].

جملةٌ معطوفة علىٰ جملةِ ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ عَطْفَ تشريعٍ علىٰ تشريع؛ فالمناسبةُ بَيْنَ الجملتين: تعلُّقُ مضمونَيْهما بأحكامِ معاشَرةِ الأزواج مع كونِ مضمون الجملةِ الأُولىٰ منعًا مِن قِرْبانِ الأزواج في حالةِ الحَيض، وكونِ مضمونِ هذه الجملةِ تمهيدًا لجملةِ ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾؛ فوقَع هذا التمهيدُ موقعَ الاعتراض بَيْنَ جملةِ

(١) البحر المحيط (٢/ ٤٢٧).

(٢) نظم الدرر (٣/ ٢٨٣-٢٨٤).

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾، وجملة ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾، وسُلِك فيه طريقُ العطف؛ لأنَّه نهيٌ عُطِفَ على نهيٍ في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾؛ فالمناسبةُ أنَّه لمَّا أمَرهم باستحضارِ يومِ لقائه، بيَّن لهم شيئًا مِن التقوىٰ دقيقَ المسلك، شديدَ الخفاء؛ وهو التقوىٰ باحترامِ الاسم المعظَّم؛ فإنَّ التقوىٰ مِن الأحداثِ التي إذا تعلَّقتْ بالأسماءِ، كان مُفادُها التعلُّقَ بمسمَّىٰ الاسم، لا بلفظِه؛ لأنَّ الأحكامَ اللفظيةَ إنَّما تَجري علىٰ المدلولاتِ إلا إذا قام دليلٌ علىٰ تعلُّقِها بالأسماء؛ مثل: سمَّيتُه محمَّدًا، فجيء بهذه الآيةِ لبيانِ ما يترتب علىٰ تعظيمِ اسم الله واتقائه في حُرْمةِ أسمائه عند الحِنْثِ، مع بيانِ ما رُخِّص فيه مِن الحِنْثِ، أو لبيانِ التحذير مِن تعريضِ اسمه تعالىٰ للاستخفافِ بكثرة الحَلِفِ حتىٰ لا يُضطرَّ إلىٰ الحِنث(١).

ومناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر بتقوىٰ الله تعالىٰ، وحذَّرهم يومَ الميعاد؛ نهاهم عن ابتذالِ اسمه، وجعلِه معرَّضًا لِما يَحلِفون عليه دائمًا؛ لأنَّ مَن يُتَّقىٰ ويُحذَر تجب صيانةُ اسمِه وتنزيهُه عمَّا لا يَلِيقُ به مِن كونه يُذكَر في كلِّ ما يُحلَف عليه، مِن قليلٍ أو كثيرٍ، عظيمٍ أو حقيرٍ؛ لأنَّ كثرةَ ذلك تُوجِب عدمَ الاكتراثِ بالمحلوف به. وقد تكون المناسبةُ بأنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر المؤمنين بالتَّحرُّزِ في أفعالِهم السابقة مِن: الخمرِ، والمَيسِر، وإنفاقِ العفوِ، وأمرِ اليتامىٰ، ونكاحِ مَن أشرَك، وحالِ وطءِ الحائض؛ أمَرهم تعالىٰ بالتَّحرُّزِ في أقوالهم، فانتظَم بذاك أمرُهم بالتَّحرُّزِ في الأفعال والأقوال(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٣٧٦).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٤٣٩).

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

ولمَّا تقدَّم إليهم ﷻ في هذا، وكانت ألسنتُهم قد مَرَنتْ على الأيمانِ مِن غيرِ قصدٍ، بحيث صاروا لا يَقدِرون على تركِ ذلك إلا برياضةٍ كبيرةٍ، ومعالجةٍ طويلةٍ، وكان ممَّا رَحِم اللهُ به هذه الأمَّةَ العفوُ عمَّا أخطأت به ولم تَتعمَّده؛ قال في جوابِ مَن كأنَّه سأل عن ذلك: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[1].

استئنافٌ بياني؛ لأنَّ الآيةَ السابقة لمَّا أفادت النهيَ عن التسرُّع بالحَلِفِ إفادةً صريحة أو التزامية، كانت نفوسُ السامعين بحيث يَهجِسُ بها التفكُّرُ والتطلُّع إلى حُكْمِ اليمينِ التي تَجري على الألسُنِ. ومناسبتُه لِما قبله ظاهرةٌ، لا سيَّما إن جعلتَ قولَه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ نهيًا عن الحَلِف[2].

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها ظاهرةٌ؛ لأنَّه تعالى لمَّا نهى عن جعلِ اللهِ معرَّضًا للأيمانِ، كان ذلك حتمًا لتَرْكِ الأيمان، وهم يشُقُّ عليهم ذلك؛ لأنَّ العادةَ جرَتْ لهم بالأيمانِ، فذكَر أنَّ ما كان منها لغوًا فهو لا يؤاخِذُ به؛ لأنَّه ممَّا لا يُقصَدُ به حقيقةُ اليمين، وإنَّما هو شيءٌ يَجري على اللسان عند المحاوَرة مِن غيرِ قصدٍ، وهذا أحسَنُ ما يفسَّرُ به اللغوُ؛ لأنَّه تعالى جعَل مقابِلَه ما كسَبه القلبُ؛ وهو ما له فيه اعتمادٌ وقَصْدٌ[3].

---

(١) نظم الدرر (٣/ ٢٨٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٣٨٠).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٤٤٣).

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) ﴾

ولمَّا كان الإيلاءُ حَلِفًا مقيَّدًا، وبيَّن حُكْمَ مُطلَقِ اليمينِ قبله -لتقدُّمِ المُطلَقِ علىٰ المقيَّد بانفكاكِه عنه-؛ بيَّنه دليلًا علىٰ حِلْمِه؛ حيث لم يؤاخِذْهم به؛ فقد كانوا يُضارُّون به النساءَ في الجاهليةِ بأن يَحلِفوا علىٰ عدمِ الوَطْءِ أبدًا، فتكون المرأةُ لا أيِّمًا ولا ذاتَ بَعْلٍ، وجعَل لهم فيه مَرجِعًا يَرجِعون إليه، فقال في جوابِ مَن كأنَّه سأل عنه لمَّا أشعَرَ به ما تقدَّم: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

استئنافٌ ابتدائي للانتقالِ إلىٰ تشريعٍ في عملٍ كان يَغلِبُ علىٰ الرجال أن يَعمَلوه في الجاهليةِ، والإسلامِ. كان مِن أشهَرِ الأيمانِ الحائلة بَيْنَ البِرِّ والتقوىٰ والإصلاحِ أيمانُ الرجالِ علىٰ مهاجَرة نسائهم؛ فإنَّها تَجمَع الثلاثةَ؛ لأنَّ حُسْنَ المعاشَرة مِن البِرِّ بَيْنَ المتعاشِرين، وقد أمَر اللهُ به؛ فامتثالُه مِن التقوىٰ، ولأنَّ دوامَه مِن دوامِ الإصلاح، ويحدُثُ بفَقْدِه الشِّقاقُ، وهو مُنافٍ للتقوىٰ. وقد كان الرجُلُ في الجاهليةِ يُولِي(٢) مِن امرأتِه السَّنةَ والسَّنتين، ولا تَنحلُّ يمينُه إلا بعد مُضِيِّ تلك المدة، ولا كلامَ للمرأةِ في ذلك. وعن سعيدِ بن المسيَّبِ: كان الرجُلُ في الجاهليةِ لا يريد المرأةَ، ولا يحبُّ أن يطلِّقَها؛ لئلا يتزوَّجَها غيرُه، فكان يَحلِفُ ألَّا يَقربَها مضارَّةً للمرأة؛ أي: ويُقسِمُ علىٰ ذلك؛ لكيلا يعُودَ إليها إذا حصَل له شيءٌ مِن الندم، قال: ثم كان أهلُ الإسلام يفعلون ذلك، فأزال اللهُ ذلك، وأمهَلَ للزوجِ مدةً حتىٰ يَتروىٰ،

(١) نظم الدرر (٣/ ٢٨٩).

(٢) من الإيلاء، أي: يحلف ألا يقربها.

فكان هذا الحُكْمُ مِن أهمِّ المقاصدِ في أحكام الأيمان، التي مهَّد لها بقولِه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾(١).

ومناسبةُ هذه الآية لِما قبلها ظاهرةٌ؛ لأنَّه تقدَّم شيءٌ مِن أحكامِ النساء، وشيءٌ مِن أحكام الأيمان، وهذه الآيةُ جمَعتْ بيْنَ الشَّيئين(٢).

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾

ولمَّا كان الحالُ في مدَّةِ الإيلاء شبيهًا بحالِ الطَّلاق، وليس به؛ قال مبيِّنًا أنَّ الطَّلاقَ لا يقعُ بمجرَّدِ مُضِيِّ الأربعةِ الأشهر؛ بل إمَّا أن يَفِيءَ أو يُطلِّقَ، فإن أبىٰ، طلَّق عليه الحاكمُ: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٣).

قوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ دليلٌ علىٰ شرطٍ محذوف؛ دلَّ عليه قولُه: ﴿فَإِن فَآءُو﴾؛ فالتقدير: وإن لم يَفِيئوا، فقد وجَب عليهم الطلاقُ؛ فهُم بخيرِ النَّظرينِ: بَيْنَ أن يَفِيئوا، أو يُطلِّقوا، فإن عزَموا الطلاقَ، فقد وقَع طلاقُهم(٤).

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

ولمَّا ختَم آيتَي الإيلاءِ بالطَّلاق، بيَّن عِدَّتَه، فقال: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٣٨٤).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٤٤٥).

(٣) نظم الدرر (٣/ ٢٩٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢/ ٣٨٦).

أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

لمَّا ذكَر تربُّصَ الزوجِ ﷺ في أمرِ الطلاق الذي هو أمانتُه، ذكَر تربُّصَ المرأةِ في أمرِ العِدَّة التي هي أمانتُها[2].

عطفٌ علىٰ الجملةِ قبلها؛ لشدَّةِ المناسبة، وللاتحادِ في الحُكْمِ؛ وهو التربُّصُ؛ إذ كلاهما انتظارٌ لأجلِ المراجَعة؛ ولذلك لم يقدِّمْ قولَه: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ علىٰ قولِه: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾؛ لأنَّ هذه الآيَ جاءت متناسِقةً منتظِمة علىٰ حسَبِ مناسباتِ الانتقال؛ علىٰ عادةِ القرآن في إبداعِ الأحكام وإلقائها بأسلوبٍ سهل لا تَسأمُ له النفسُ، ولا يجيءُ علىٰ صورةِ التعليم والدَّرسِ[3].

ومناسبةُ هذه الآية لِما قبلها ظاهرةٌ جدًّا؛ لأنَّه حُكْمٌ غالبٌ مِن أحكامِ النساء؛ لأنَّ الطَّلاقَ يحصُلُ به المنعُ مِن الوطءِ والاستمتاع دائمًا، وبالإيلاءِ منَع نفسَه مِن الوطء مُدَّةً محصورةً؛ فناسَب ذِكْرُ غيرِ المحصور بعد ذِكْرِ المحصور، ومشروعٌ تربُّصُ المُولِي أربعةَ أشهُرٍ، ومشروعٌ تربُّصُ هؤلاء ثلاثةَ قُروءٍ؛ فناسَب ذِكْرُها بعَقِبها[4].

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر الرَّجْعةَ ولم يُبيِّنْ لها غايةً تنتهي بها، فكانت الآيةُ كالمُجمَلِ؛ عرَض سؤالٌ: هل هي ممتدَّةٌ كما كانوا يفعلون في الجاهليَّةِ؛ متىٰ راجَعها في العِدَّةِ له أن يطلِّقَها

(١) نظم الدرر (٣/ ٢٩٤).
(٢) نظم الدرر (٣/ ٢٩٤).
(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٣٨٨).
(٤) البحر المحيط (٢/ ٤٥٢).

ما دام يفعلُ ذلك، ولو أَلْفَ مرَّةٍ، أو منقطِعةٌ؟ فقال: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾[١].

استئنافٌ لذِكْرِ غايةِ الطلاق، الذي يَملِكُه الزوجُ مِن امرأته؛ نشأ عن قوله تعالىٰ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗا﴾، وعن بعضِ ما يشيرُ إليه قولُه تعالىٰ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞ﴾؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ أعلَنَ أنَّ للنساءِ حقًّا كحقِّ الرجال، وجعَل للرجالِ درجةً زائدة؛ منها أنَّ لهم حقَّ الطلاق، ولهم حقَّ الرَّجعة؛ لقوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، ولمَّا كان أمرُ العربِ في الجاهلية جاريًا علىٰ عدمِ تحديدِ نهاية الطلاق، كما سيأتي قريبًا؛ ناسَب أن يذكُرَ عَقِبَ ذلك كلِّه حُكْمَ تحديدِ الطلاق؛ إفادةً للتشريع في هذا البابِ، ودفعًا لِما قد يَعلَقُ أو عَلِقَ بالأوهامِ في شأنه[٢].

ومناسبتُها لِما قبلها ظاهرةٌ؛ وهو أنَّه لمَّا تضمَّنت الآيةُ قبلها الطَّلاقَ الرَّجْعيَّ، وكانوا يُطلِّقون ويراجِعون مِن غيرِ حدٍّ ولا عَدٍّ؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه مرَّتانِ، فحصَر الطَّلاقَ الرَّجْعيَّ في أنَّه مرَّتان[٣].

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠ ﴾

ولمَّا كانت الرَّجْعةُ والخُلْعُ لا يصحَّانِ إلا قبل الطَّلقةِ الثالثة، وأمَّا بعدها فلا يبقىٰ شيءٌ مِن ذلك؛ ذكَر اللهُ حُكْمَ الرَّجعةِ، ثم أتبَعه حُكْمَ الخُلْعِ، ثم ذكَر بعد الكلِّ حُكْمَ الطَّلْقةِ الثالثة؛ لأنَّها كالخاتمةِ لهذا الأمرِ، فقال تعالىٰ: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ

---

(١) نظم الدرر (٣/ ٣٠٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٤٠٣).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٤٦٣).

حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(١).

تفريعٌ مرتَّبٌ علىٰ قولِه: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾، وما بينهما بمنزلةِ الاعتراض، علىٰ أنَّ تقديمَه يكسبُه تأثيرًا في تفريعِ هذا علىٰ جميعِ ما تقدَّم؛ لأنَّه قد عُلِم مِن مجموعِ ذلك أنَّ بعد المرَّتينِ تخييرًا بَيْنَ المراجَعةِ وعدَمِها، فرتَّب علىٰ تقديرِ المراجَعة المعبَّرِ عنها بالإمساك: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا ﴾، وهو يدلُّ بطريقِ الاقتضاء علىٰ مقدَّر؛ أي: فإن راجَعها فطلَّقها؛ لبيانِ حُكْمِ الطَّلقةِ الثالثة(٢).

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) ﴾

ولمَّا ذكَر الطَّلاقَ رَجْعيَّةً وبائنة، عقَّبه ببيانِ وصفِ الرَّجعة مِن الحِلِّ والحُرْمةِ، وبيانِ وقتِها وتحديدِه، والإشارةِ إلىٰ تصويرِ بعضِ صُوَرِ المُضارَّةِ ترهيبًا منها؛ فليست الآيةُ مكرَّرةً، فقال: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (٦/ ٤٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٤١٤).

(٣) نظم الدرر (٣/ ٣١٧-٣١٨).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ الآيةَ، عَطْفَ حُكْمٍ علىٰ حُكْمٍ، وتشريعٍ علىٰ تشريعٍ؛ لقصدِ زيادةِ الوَصاةِ بحُسْنِ المعاملةِ في الاجتماعِ والفُرْقة، وما تَبِع ذلك مِن التَّحذيرِ الذي سيأتي بيانُه(١).

أولُ ما يجبُ تقديمُه في هذه الآيةِ أنَّ لقائلٍ أن يقولَ: لا فَرْقَ بَيْنَ هذه الآيةِ وبين قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ﴾، فتكون إعادةُ هذه الآيةِ بعد ذِكْرِ تلك الآيةِ تكريرًا لكلامٍ واحد في موضعٍ واحد مِن غيرِ فائدةٍ، وإنَّه لا يجوزُ. والجواب: أمَّا أصحابُ أبي حنيفةَ، فهم الذين حمَلوا قولَه: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ﴾ علىٰ أنَّ الجَمْعَ بَيْنَ الطَّلَقاتِ غيرُ مشروع؛ وإنَّما المشروعُ هو التفريق؛ فهذا السؤالُ ساقطٌ عنهم؛ لأنَّ تلك الآيةَ في بيانِ كيفيَّة الجَمْعِ والتفريق، وهذه الآيةَ في بيانِ كيفيَّة الرَّجْعة. وأمَّا أصحابُ الشافعيِّ ﷺ، وهم الذين حمَلوا تلك الآيةَ علىٰ كيفيَّة الرَّجْعة، فهذا السؤالُ واردٌ عليهم، ولهم أن يقولوا: إنَّ مَن ذكَر حُكْمًا يتناولُ صورًا كثيرة، وكان إثباتُ ذلك الحُكْمِ في بعضِ تلك الصُّوَرِ أهَمَّ؛ لم يبعُدْ أن يُعِيدَ بعد ذلك الحُكْمِ العامِّ تلك الصورةَ الخاصة مرَّةً أخرىٰ؛ ليدُلَّ ذلك التكريرُ علىٰ أنَّ في تلك الصورةِ مِن الاهتمام ما ليس في غيرِها، وهاهنا كذلك؛ وذلك لأنَّ قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ﴾ فيه بيانُ أنَّه لا بد في مدةِ العِدَّةِ مِن أحدِ هذين الأمرينِ، وأمَّا في هذه الآيةِ، ففيه بيانُ أنَّ عند مُشارَفةِ العِدَّةِ علىٰ الزوالِ لا بد مِن رعايةِ أحدِ هذين الأمرينِ، ومِن المعلوم أنَّ رعايةَ أحدِ هذين الأمرينِ عند مشارفةِ زوالِ العِدَّة أَوْلىٰ بالوجوب مِن سائرِ الأوقات التي قبل هذا الوقتِ؛ وذلك لأنَّ أعظَمَ أنواعِ الإيذاء أن يطلِّقَها، ثم يراجِعَها مرَّتينِ عند آخرِ الأجلِ؛ حتىٰ تَبقَىٰ في العِدَّةِ تسعةَ أشهُرٍ، فلمَّا كان هذا أعظَمَ أنواعِ المُضارَّةِ، لم يقبُحْ

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٤٢١).

أن يُعِيدَ اللهُ حُكْمَ هذه الصورةِ؛ تنبيهًا على أنَّ هذه الصورةَ أعظَمُ الصُّوَرِ اشتمالًا علىٰ المُضارَّةِ، وأَوْلاها بأن يحترِزَ المكلَّفُ عنها(١).

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

ولمَّا نهىٰ عن الضِّرارِ في العِصْمةِ، وفي أثَرِها الذي هو العِدَّة؛ أتبعه النَّهيَ عمَّا كان منه بعد انقضائها بالعَضْلِ مِن كلِّ مَن يُتصوَّر منه عَضْلٌ، لكن لمَّا كان نَهْيُ الأولياء إذا كانوا أزواجًا نهيًا لغيرِهم بطريقِ الأَوْلىٰ، أسنَده إلىٰ الأزواجِ وهم في غِمارِهم، فقال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢).

المرادُ مِن هذه الآيةِ مخاطَبةُ أولياءِ النساء بألَّا يَمنَعوهنَّ مِن مراجَعةِ أزواجِهنَّ، بعد أن أمَر المفارِقين بإمساكِهنَّ بمعروفٍ، ورغَّبهم في ذلك؛ إذ قد عُلِم أنَّ المرأةَ إذا رأت الرغبةَ مِن الرجُلِ الذي كانت تألَفُه وتعاشِرُه، لم تَلبَثْ أن تَقرِنَ رغبتَه برغبتِها؛ فإنَّ المرأةَ سريعةُ الانفعال، قريبةُ القلب، فإذا جاء مَنْعٌ، فإنَّما يجيء مِن قِبَلِ الأولياء؛ ولذلك لم يذكُرِ اللهُ ترغيبَ النساءِ في الرضا بمراجَعةِ أزواجِهنَّ، ونهىٰ الأولياءَ عن منعِهنَّ مِن ذلك، وقد عُرِف مِن شأنِ الأولياءِ في الجاهليةِ وما قارَبها الأَنَفَةُ مِن أصهارِهم عند حدوثِ الشِّقاق بينهم وبين ولاياهم، وربما رأَوُا الطلاقَ

---

(١) مفاتيح الغيب (٦/ ٤٥٢).

(٢) نظم الدرر (٣/ ٣٢٢).

استخفافًا بأولياءِ المرأة، وقلةَ اكتراثٍ بهم، فحمَلتْهم الحميَّةُ علىٰ قصدِ الانتقام منهم عندما يرَوْن منهم ندامةً، ورغبةً في المراجَعة[(١)].

اعلَمْ أنَّ هذا هو الحُكْمُ السادس مِن أحكامِ الطلاق؛ وهو حُكْمُ المرأةِ المطلَّقة بعد انقضاء العِدَّة[(٢)].

بيانٌ لحُكْمِ ما كانوا يفعلونه عند بلوغِ الأجلِ حقيقةً، بعد بيانِ حُكْمِ ما كانوا يفعلونه عند المشارفةِ إليه[(٣)].

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾

انتقالٌ مِن أحكامِ الطلاق والبَيْنونة؛ فإنَّه لمَّا نهىٰ عن العَضْلِ، وكانت بعضُ المطلَّقاتِ لهنَّ أولادٌ في الرَّضاعة، ويَتعذَّر عليهن التزوُّجُ وهنَّ مُرضِعاتٌ؛ لأنَّ ذلك قد يضُرُّ بالأولاد، ويقلِّلُ رغبةَ الأزواجِ فيهنَّ؛ كانت تلك الحالةُ مثارَ خلافٍ بَيْنَ الآباء والأمَّهات؛ فلذلك ناسَب التعرُّضُ لوجهِ الفصلِ بينهم في ذلك؛ فإنَّ أمرَ الإرضاعِ مهمٌّ؛ لأنَّ به حياةَ النَّسْلِ، ولأنَّ تنظيمَ أمره مِن أهَمِّ شؤونِ أحكامِ العائلة؛ فجملةُ ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾، والمناسبةُ غيرُ خفيَّة[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٤٢٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٦/ ٤٥٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ٢٢٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢/ ٤٢٩).

ولمَّا كان النكاحُ قد يكون عنه ولادةٌ، فيكون عنها رَضاعٌ، وقد تكون المرضِعةُ زوجةً، وقد تكون أجنبيَّةً، والزَّوجةُ قد تكون متصِلةً، وقد تكون منفصلةً، وكان الفِراقُ بالطَّلاقِ أكثَرَ منه بالموتِ؛ وسَّطه بَيْنَ عِدَّتَي الطَّلاقِ والوفاة؛ لإدلائه إلىٰ كلِّ بسببٍ، واهتمامًا بشأنه، وحثًّا علىٰ الشَّفقةِ علىٰ الصغير، وشِدَّةِ العناية بأمره؛ لأنَّ الأُمَّ ربما كانت مطلَّقةً فاستهانت بالولدِ إيذاءً للزَّوجِ إن كان الطَّلاقُ عن شِقاقٍ، أو رغبةٍ في زوجٍ آخَرَ، وكذا الأبُ؛ فقال تعالىٰ عاطفًا علىٰ ما تقديرُه مثلًا: فالنساءُ لهنَّ أحكامٌ كثيرةٌ، وقد عَلِمتم منها هنا أصولًا تُفهِمُ مَن بصَّره اللهُ كثيرًا مِن الفروع، والمطلَّقات إن لم يكُنْ بينكم وبينهنَّ عُلْقةٌ بولادةٍ أو نحوها، فلا سبيلَ لكم عليهنَّ، ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١).

لمَّا ذكَر ﷻ أحكامَ الاشتجارِ(٢) بَيْنَ الأزواجِ التي عظُم متنزَّلُ الكتابِ لأجلها، وكان مِن حُكْمِ تواشُجِ(٣) الأزواج وقوعُ الولد، وأحكامُ الرَّضاع؛ نظَم به عطفًا أيضًا علىٰ معاني ما يتجاوزُه الإفصاح، ويتضمَّنُه الإفهامُ لِما قد عُلِم مِن أنَّ إفهامَ القرآنِ أضعافُ إفصاحِه بما لا يكاد ينتهي عَدُّه؛ فلذلك يكثُرُ فيه الخطابُ عطفًا؛ أي: علىٰ

(١) نظم الدرر (٣/ ٣٢٨).

(٢) أي: الاختلاف.

(٣) أي: تداخل وتشابك.

غيرِ مذكورٍ؛ ليكونَ الإفصاحُ أبدًا مشعِرًا بإفهامٍ ينالُه مَن وُهِب رُوحَ العقلِ مِن الفهم، كما ينالُ فقهَ الإفصاحِ مَن وهَبه اللهُ نفسَ العقلِ الذي هو العلمُ[(١)].

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر جملةً في النكاحِ، والطَّلاق، والعِدَّة، والرَّجْعة، والعَضْلِ؛ أخَذ يذكُرُ حُكْمَ ما كان مِن نتيجةِ النكاح؛ وهو ما شُرِع مِن حُكْمِ الإرضاع ومُدَّتِه، وحُكْمِ الكسوةِ، والنَّفقةِ، ونحوِها[(٢)].

شروعٌ في بيانِ الأحكام المتعلِّقةِ بأولادِهنَّ خصوصًا، واشتراكًا، وهو أمرٌ أُخرِج مخرجَ الخبَرِ؛ مبالَغةً في الحملِ علىٰ تحقيقِ مضمونه[(٣)].

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

ولمَّا ذكَر الرَّضاعَ، وكان مِن تقاديرِه ما إذا مات الأبُ؛ ذكَر عِدَّةَ الوفاةِ لذلك، وتتميمًا لأنواعِ العِدَدِ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[(٤)].

لمَّا ذكَر عِدَّةَ الطلاقِ الذي هو فُرْقةُ الحياة، انتظَم برأسِ آيته ذِكْر عِدَّةِ الوفاة الذي هو فِراقُ الموت، واتصَل بالآيةِ السابقة لما انجرَّ في ذِكْرِ الرَّضاعِ مِن موتِ الوالد، وأمرِ

(١) نظم الدرر (٣/ ٣٢٩).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٤٩٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ٢٣٠).

(٤) نظم الدرر (٣/ ٣٤٠).

الوارث، وكذلك كلُّ آيةٍ تكون رأسًا لها متصِلان: متصِلٌ بالرأسِ النظيرِ لها المنتظِمةِ به، ومتصِلٌ بالآيةِ السابقة قبلها بوجهٍ ما[١].

انتقالٌ إلىٰ بيانِ عِدَّةِ الوفاةِ بعد الكلام عن عِدَّةِ طلاقٍ، وما اتصَل بذلك مِن أحكامِ الإرضاع عَقِب الطلاق؛ تقصِّيًا لِما به إصلاحُ أحوالِ العائلات؛ فهو عطفُ قصَّةٍ علىٰ قصَّة[٢].

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾

ولمَّا حدَّ ﷻ هذه المدَّةَ لمَنْعِهنَّ عن الرجال، بيَّن أنَّ التَّعريضَ بالخِطْبةِ ليس داخلًا في المنعِ، فقال: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[٣].

عطفٌ علىٰ الجملةِ التي قبلها؛ فهذا مِن الأحكامِ المتعلِّقة بالعِدَّة، وقد تضمَّنت الآياتُ التي قبلها أحكامَ عِدَّةِ الطلاق وعِدَّةِ الوفاة، وأنَّ أمَدَ العِدَّةِ محترَمٌ، وأنَّ المطلَّقاتِ إذا بلَغْنَ أجلَهنَّ، جاز أن يَفعَلْنَ في أنفسِهنَّ ما أَرَدْنَ مِن المعروفِ، فعُلِم

(١) نظم الدرر (٣/ ٣٤٠).
(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٤٤١).
(٣) نظم الدرر (٣/ ٣٤٤).

مِن ذلك أنَّهن إذا لم يبلُغْنَهُ، لا يجوز ذلك؛ فالتزوُّجُ في مدةِ الأجل حرامٌ، ولمَّا كان التحدثُ في التزوُّجِ إنَّما يَقصِدُ منه المتحدِّثُ حصولَ الزواج، وكان مِن عادتهم أن يَتسابقوا إلىٰ خِطْبَةِ المعتدَّة ومواعَدتها؛ حرصًا علىٰ الاستئثارِ بها بعد انقضاء العِدَّة؛ فبيَّنتِ الشريعةُ لهم تحريمَ ذلك، ورخَّصتْ في شيءٍ منه؛ ولذلك عُطِف هذا الكلامُ علىٰ سابقِه[(١)].

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾

ولمَّا تمَّت أحكامُ العِدَدِ وما يَتبَعُها ممَّا حقُّ الرجالِ فيه أغلَبُ، أتبعها أحكامَ الأَصْدِقَةِ[(٢)]، ولمَّا كان الكلامُ قد طال في أحكامِ الطَّلاق والموت ولم يذكُرِ الصَّداقَ، وكان قد ختَم تلك الأحكامَ بصفتَيِ الغَفْرِ والحِلْمِ، وكان الصَّداقُ معلومًا عندهم قبل الإسلام؛ اقتضىٰ ذلك السُّؤالَ: هل يجب للمفارَقةِ صداقٌ، أو هو ممَّا دخَل تحت المغفرةِ والحِلْمِ فلا يجب؟ فقيل: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٣)].

استئنافُ تشريعٍ لبيانِ حُكْمِ ما يترتبُ علىٰ الطلاق مِن دفعِ المهر، كلِّه أو بعضِه، وسقوطِه، وحُكْمِ المتعةِ، مع إفادةِ إباحة الطلاق قبل المَسِيسِ؛ فالجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، ومناسبةُ موقعِها لا تَخفَىٰ؛ فإنَّه لمَّا جرىٰ الكلامُ في الآياتِ السابقة

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٤٥٠).

(٢) جمع: صداق.

(٣) نظم الدرر (٣/ ٣٥١-٣٥٢).

علىٰ الطلاقِ الذي تجبُ فيه العِدَّةُ؛ وهو طلاقُ المدخولِ بهنَّ؛ عرَّج هنا علىٰ الطلاقِ الواقع قبل الدخول، وذكَر مع ذلك هنا تنصيفَ المهرِ، والعَفْوَ عنه(١).

ومناسبتُها لِما قبلها: أنَّه لمَّا بيَّن تعالىٰ حُكْمَ المطلَّقاتِ المدخولِ بهنَّ، والمتوفَّىٰ عنهنَّ أزواجُهنَّ؛ بيَّن حُكْمَ المطلَّقةِ غيرِ المدخول بها، وغيرِ المسمَّىٰ لها، مدخولًا بها أو غيرَ ذلك(٢).

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

ولمَّا نُفِي الجُناحُ بانتفاءِ المَسِيسِ والفرضِ، فأفهَمَ أنَّهما إذا وُجِدا، وُجِد الجُناحُ بوجوبِ المفروض كلِّه؛ أتبعَه ما إذا انتفىٰ أحدُهما فقط؛ فذكَر الحُكْمَ عند انتفاءِ المَسِيس وَحْدَه صريحًا في ضِدِّ المفوَّضةِ السابقة، وأفهَمَ بذلك ما إذا انتفىٰ الفرضُ وَحْدَه تلويحًا، فقال: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٣).

لمَّا بيَّن حالَ المطلَّقةِ قبل المَسِيس وقبل الفرضِ، بيَّن حالَ المطلَّقة قبل المَسِيس وبعد الفرض، والمرادُ بالمَسِيسِ الجِماعُ، وبالفريضةِ الصداقُ(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٤٥٧).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٤٢٧).

(٣) نظم الدرر (٣/ ٣٥٥).

(٤) البحر المحيط (٢/ ٥٣٤).

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾

ولمَّا ذُكِرتْ أحكامُ النساء وشُعِّبتْ حتىٰ ضاقَ فسيحُ العقلِ بانتشارها، وكاد أن يَضِيعَ في مُتَّسعِ مِضمارِها، مع ما هناك مِن مَظنَّةِ الميلِ بالعشقِ، والنفرةِ بالبُغْضِ الحاملِ علىٰ الإحَنِ، والشُّغلِ بالأولادِ، وغيرِ ذلك مِن فِتَنٍ وبلايا ومِحَنٍ يَضِيقُ عنها نطاقُ الحصرِ، ويكون بعضُها مَظِنَّةً للتهاونِ بالصلاة، بل وبكلِّ عبادةٍ؛ اقتضىٰ الحالُ أن يقالَ: يا ربِّ! إنَّ الإنسانَ ضعيفٌ، وفي بعضِ ذلك له شاغلٌ عن كلِّ مهمٍّ؛ فهل بَقِيَ له سَعَةٌ لعبادتِك؟ فقيل: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾(١).

لمَّا ذكَر ﷻ ما بَيْنَ العبادِ خاصةً، ذكَر ما بَيْنَه وبينهم، فقال: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾(٢).

لمَّا كان ما أُنزِلَ له الكتابُ إقامةَ ثلاثةِ أمور: إقامةُ أمرِ الدِّين الذي هو ما بَيْنَ العبدِ وربِّه، وتمشيةُ حالِ الدنيا التي هي دارُ محنةِ العبد، وإصلاحُ حالِ الآخرة والمَعاد الذي هو موضعُ قرارِ العبد؛ صار ما يَجري ذِكْرُه مِن أحكامِ تمشية الدنيا غلَسًا نجومُ إنارتِه أحكامُ أمرِ الدِّين؛ فلذلك مطلعُ نجومِ خطاباتِ الدِّين أثناء خطاباتِ أمرِ الدنيا، فيكونُ خطابُ الأمرِ نجمًا خلالَ خطاباتِ الحرام والحلال في أمرِ الدنيا، وإنَّما كان نجمُ هذا الخطابِ للمحافظةِ علىٰ الصلاة؛ لأنَّ هذا الاشتجارَ المذكور بَيْنَ الأزواج فيما يقعُ مِن تكرُّهٍ في الأنفُسِ، وتَشاحٍّ(٣) في الأموالِ؛ إنَّما وقَع مِن تضييعِ المحافظةِ علىٰ الصلوات؛ لأنَّ الصلاةَ بركةٌ في الرزق، وسلاحٌ علىٰ الأعداء، وكراهةُ الشيطان؛ فهي دافعةٌ للأمور التي منها تتضايقُ الأنفُسُ، وتَقبلُ الوَسْواسَ، ويطرُقُها الشُّحُّ، فكان

---

(١) نظم الدرر (٣/ ٣٥٩).

(٢) نظم الدرر (٣/ ٣٦٠).

(٣) من الشُّح.

في إفهامِ نجمِ هذا الخطابِ أثناء هذه الأحكامِ الأمرُ بالمحافظةِ على الصلوات؛ لتَجريَ أمورُهم على سَدادٍ يُغْنيهم عن الارتباكِ في جملةِ هذه الأحكام[1].

الانتقالُ مِن غرضٍ إلى غرض في آيِ القرآن لا تَلزمُ له قوةُ ارتباطٍ؛ لأنَّ القرآنَ ليس كتابَ تدريسٍ يرتَّبُ بالتبويب، وتفريعِ المسائل بعضِها على بعض، ولكنه كتابُ تذكيرٍ وموعظة؛ فهو مجموعُ ما نزَل مِن الوحيِ في هَدْيِ الأمَّة وتشريعها، وموعظتِها وتعليمها؛ فقد يُجمَع به الشيءُ للشيء مِن غيرِ لزومِ ارتباطٍ، وتفرُّعِ مناسبةٍ، وربما كفى في ذلك نزولُ الغرضِ الثاني عَقِب الغرضِ الأول، أو تكون الآيةُ مأمورًا بإلحاقها بموضعٍ معيَّن مِن إحدى سُوَرِ القرآن؛ كما تقدَّم في المقدمةِ الثامنة، ولا يخلو ذلك مِن مناسبةٍ في المعاني، أو في انسجامِ نَظْمِ الكلام؛ فلعلَّ آيةَ ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ نزَلتْ عَقِبَ آياتِ تشريع العِدَّةِ والطلاق لسببٍ اقتضى ذلك مِن غفلةٍ عن الصلاة الوسطى، أو استشعارِ مشقَّةٍ في المحافظةِ عليها؛ فموقعُ هذه الآيةِ موقعُ الجملة المعترِضة بَيْنَ أحكامِ الطلاق والعِدَد، وإذا أبَيتَ ألا تطلُبَ الارتباطَ، فالظاهرُ أنَّه لمَّا طال تِبْيانُ أحكامٍ كثيرة متواليةٍ: ابتداءً مِن قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾؛ جاءت هذه الآيةُ مرتبِطةً بالتذييل الذي ذُيِّلتْ به الآيةُ السابقة؛ وهو قوله: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾؛ فإنَّ اللهَ دعانا إلى خُلُقٍ حميد؛ وهو العفوُ عن الحقوقِ، ولمَّا كان ذلك الخُلُقُ قد يعسُرُ على النفس؛ لِما فيه مِن تَرْكِ ما تحبُّه مِن الملائمِ، مِن مالٍ وغيره؛ كالانتقامِ مِن الظالم، وكان في طباعِ الأنفسِ الشحُّ؛ علَّمنا اللهُ تعالى دواءَ هذا الداءِ بدواءَين: أحدهما: دنيويٌّ عقلي؛ وهو قوله: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، المذكِّرُ بأنَّ العفوَ يقرِّبُ إليك البعيدَ، ويصيِّرُ العدوَّ صديقًا، وإنَّك إن عفَوْتَ، فيوشِكُ أن تقترفَ ذنبًا فيُعفَى عنك؛ إذا تعارَف الناسُ

(١) نظم الدرر (٣/ ٣٦١).

الفضلَ بينهم، بخلاف ما إذا أصبَحوا لا يتنازعون عن الحقِّ. والدواءُ الثاني: أخرويٌّ رُوحاني؛ وهو: الصلاةُ التي وصَفها اللهُ تعالىٰ في آيةٍ أخرىٰ بأنَّها تَنهَىٰ عن الفحشاءِ والمنكَر، فلمَّا كانت مُعِينةً علىٰ التقوىٰ، ومكارمِ الأخلاق؛ حثَّ اللهُ علىٰ المحافظةِ عليها، ولك أن تقولَ: لمَّا طال تعاقُبُ الآياتِ المبيِّنة تشريعاتٍ تَغلِبُ فيها الحظوظُ الدُّنيوية للمكلَّفين، عُقِّبَتْ تلك التشريعاتُ بتشريعٍ تَغلِبُ فيه الحظوظُ الأخروية؛ لكي لا يشتغِلَ الناسُ بدراسةِ أحد الصِّنفين مِن التشريعِ عن دراسةِ الصِّنف الآخَر. قال البَيْضاويُّ: أمرٌ بالمحافظةِ عليها في تضاعيفِ أحكامِ الأولاد والأزواج؛ لئلا يُلهِيَهم الاشتغالُ بشأنهم عنها، وقال بعضُهم: لمَّا ذكَر حقوقَ الناس، دلَّهم علىٰ المحافظةِ علىٰ حقوقِ الله. وهو في الجملةِ مع الإشارةِ إلىٰ أنَّ في العنايةِ بالصلوات أداءَ حقِّ الشكرِ لله تعالىٰ علىٰ ما وجَّه إلينا مِن عنايتِه بأمورِنا التي بها قِوامُ نظامِنا[(١)].

لمَّا تقدَّم مِن بيانِ النكاح والطلاق والعِدَّة اشتغالٌ بمصالحِ الدنيا، أتبَع ذلك بذِكْرِ الصلاة التي هي مصالحُ الآخرة[(٢)].

أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر جملةً كثيرة مِن أحوالِ الأزواج والزوجات، وأحكامِهم في النكاح، والوطءِ، والإيلاء، والطلاق، والرَّجْعة، والإرضاع، والنفقة، والكسوة، والعِدَّة، والخِطْبة، والمتعة، والصداق، والتَّشطُّر[(٣)]، وغيرِ ذلك؛ كانت تكاليفَ عظيمة تَشغَلُ مَن كُلِّفَها أعظَمَ شُغلٍ، بحيث لا يكاد يسعُ معها شيءٌ مِن الأعمال، وكان كلٌّ مِن الزَّوجينِ قد أُوجِبَ عليه للآخَرِ ما يستفرِغُ فيه الوقتَ، ويبلُغُ منه الجهدَ، وأمَر كلًّا منهما بالإحسانِ إلىٰ الآخَر، حتىٰ في حالةِ الفِراق، وكانت مَدْعاةً إلىٰ التكاسل

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٤٦٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٦/ ٤٨٩).

(٣) أي: كونه علىٰ الشَّطْر.

عن الاشتغالِ بالعبادة إلا لِمَن وفَّقه اللهُ تعالىٰ؛ أَمَر تعالىٰ بالمحافَظةِ علىٰ الصلواتِ التي هي الوسيلةُ بَيْنَ اللهِ وبين عبدِه، وإذا كان قد أُمِر بالمحافظةِ علىٰ أداءِ حقوق الآدَميِّينَ، فلأن يؤمَرَ بأداءِ حقوق الله أَوْلىٰ وأحَقُّ. وقيل: مناسبةُ الأمرِ بالمحافظة علىٰ الصلواتِ عَقِيب الأوامرِ السابقة: أنَّ الصلاةَ تَنهَىٰ عن الفحشاءِ والمنكَر، فيكون ذلك عونًا لهم علىٰ امتثالِها، وصَوْنًا لهم عن مخالفتِها. وقيل: وجهُ ارتباطِها بما قبلها وبما بعدها: أنَّه لمَّا أمَر تعالىٰ بالمحافظةِ علىٰ حقوق الخَلْقِ بقولِه: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، ناسَب أن يأمرَ بالمحافظةِ علىٰ حقوقِ الحق[1].

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

تفريعٌ علىٰ قوله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾؛ للتنبيهِ علىٰ أنَّ حالةَ الخوفِ لا تكون عذرًا في تَرْكِ المحافظةِ علىٰ الصلوات، ولكنها عذرٌ في تركِ القيامِ لله قانتين، فأفاد هذا التفريعُ غرَضينِ: أحدهما: بصريحِ لفظه، والآخر: بلازمِ معناه[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا أوجَب المحافظةَ علىٰ الصَّلوات، والقيامَ علىٰ أدائها بأركانِها وشروطها؛ بيَّن مِن بعدُ أنَّ هذه المحافظةَ علىٰ هذا الحدِّ لا تجبُ إلا مع الأمنِ دُونَ الخوف[3].

لمَّا ذكَر المحافظةَ علىٰ الصَّلوات، وأمَر بالقيامِ فيها قانتين؛ كان ممَّا يَعرِضُ للمصلِّين حالةٌ يخافون فيها؛ فرخَّص لهم في الصلاةِ ماشِينَ علىٰ الأقدامِ، وراكبين[4].

---

(١) البحر المحيط (٢/ ٥٤٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٤٦٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٦/ ٤٨٩).

(٤) البحر المحيط (٢/ ٥٤٩).

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾

ولمَّا كان ذِكْرُ أحكامِ عِشْرةِ النساء على هذا الوجهِ مَظِنَّةَ سؤالِ سائلٍ -كما تقدَّم- يقول: قد استغرَق الاشتغالُ بهنَّ الزمانَ، وأضَرَّ بالفراغِ للعبادة، وكان هذا السؤالُ إيماءً إلى الاستئذانِ في الرَّهْبانية، وكان الإعراضُ عن جوابِ السائل بالأمر بالمحافظةِ على الصلاة ربما أشعَرَ بالإقرارِ على مضمونِ السؤال، والإذنِ في الترهُّبِ بقرينةِ الإعراض عن السؤال، وربما كان مشيرًا إلى النهيِ عن الترهُّبِ بقرينةِ السكوت على ما تقدَّم مِن الأمرِ بعِشْرتِهنَّ مِن غيرِ نهيٍ عنه؛ عقَّب الأمرَ بذلك ببعضِ آياتِ النساء؛ تأكيدًا لِما أفهَمَتْهُ تلك الإشارةُ؛ أي: اترُكوا الترهُّبَ، وكونوا رجالًا في الاقتداءِ بنبيِّكم ﷺ في القيامِ بحقوقِ الله، وحقوقِ نفسِه، وغيرِه مِن سائرِ العباد، وجعَل ما تعقَّب آيةَ الصلاة مِن تعلُّقِ النكاح آيتَينِ فقط؛ أُولاهما في حُكْمٍ مِن أحكامِ الموت، وهي منسوخةٌ؛ كما قال الأكثرُ، ليست مِن دعائمِ أحكامِ هذا البابِ، إشارةً إلى أنَّه ينبغي أن يكونَ الإقبالُ على العبادة أكثَرَ، وأن يكونَ الاشتغالُ بأمرِ النساء والأولاد إنَّما هو على وجهِ التزوُّدِ للموتِ وما بعده، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (1).

لمَّا ذكَر سُبحانَه وتعالى أحكامَ الأزواجِ في الطلاق والوفاة، وحُكْمَ الفرضِ والمتعة في المطلَّقات قبل الدخول؛ ختَم هذه الأحكامَ المؤكَّدة بالفرضِ والأمر بما هو مِن نحوِها، فنظَم بالمتعةِ مِن النفقة والكسوةِ والإخدام وما في معناه المتعةَ بالسُّكْنى

---

(1) نظم الدرر (٣/ ٣٧٨).

للمتوفَّىٰ عنها زوجُها إلىٰ حدٍّ ما كانت العِدَّةُ في الجاهليةِ؛ ليكونَ للخيرِ والمعروف بقاءٌ في الإسلامِ بوجهٍ ما؛ أيُّما عقدٍ وعهدٍ كان في الجاهليةِ، فلن يَزيدَه الإسلامُ إلا شِدَّةً[(١)][(٢)].

ووجهُ مناسبةِ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ بعد قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ الآيةَ؛ لأنَّ الخوفَ مَظِنَّةُ الهلَكةِ؛ فناسَب ذِكْرُ الوفاةِ والوصية بعده.

لمَّا أراد نَسْخَ عِدَّةِ الجاهلية، وراعىٰ لُطْفَه بالناس في قَطْعِهم عن مُعتادِهم؛ أقَرَّ الاعتدادَ بالحَوْلِ، وأقَرَّ ما معه مِن المُكْثِ في البيتِ مدةَ العِدَّة، لكنه أوقَفه علىٰ وصيةِ الزوج عند وفاتِه لزَوْجِه بالسُّكْنىٰ، وعلىٰ قَبولِ الزوجة ذلك، فإن لم يوصِ لها، أو لم تَقبَلْ؛ فليس عليها السُّكْنىٰ، ولها الخروجُ، وتَعتدُّ حيث شاءت، ونَسَخ وصيَّةَ السُّكنىٰ حَوْلًا بالمواريثِ، وبَقِيَ لها السُّكنىٰ في محَلِّ زوجِها مدةَ العِدَّةِ مشروعًا بحديثِ الفُرَيعةِ[(٣)][(٤)].

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾

ولمَّا ذكَر ﷻ متاعَ المتوفَّىٰ عنهنَّ، عقَّبه متاعَ المطلَّقاتِ؛ تأكيدًا للحُكْمِ بالتَّكرير، وتعميمًا بعد تخصيصِ بعضِ أفراده، فقال تعالىٰ: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣٠).

(٢) نظم الدرر (٣/ ٣٧٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٣٠٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢/ ٤٧٢).

(٥) نظم الدرر (٣/ ٣٨٣).

عطفٌ على جملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾، جُعِل استيفاءً لأحكامِ المتعة للمطلَّقات بعد أن تقدَّم حُكْمُ متعةِ المطلَّقات قبل المَسِيس وقبل الفرضِ، فعمَّم بهذه الآيةِ طلبَ المتعةِ للمطلَّقات كلِّهنَّ؛ فاللامُ في قوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ﴾ لامُ الاستحقاق[(١)].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

ولمَّا بيَّن ﷻ هذه الأحكامَ هذا البيانَ الشافيَ، كان كأنَّ سائلًا قال: هل يُبيِّنُ غيرَها مثلَها؟ فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[(٢)].

ولمَّا بيَّن تعالىٰ هذه الأحكامَ العظيمة المشتمِلة علىٰ الحِكْمةِ والرحمة، امتنَّ بها علىٰ عبادِه، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[(٣)].

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾

ولمَّا انقضىٰ ما لا بدَّ منه ممَّا سِيق بعد الإعلام بفرضِ القتال المكروهِ للأنفس مِن تفصيلِ ما أُجمِلَ في ليلِ الصِّيام مِن المشاربِ والمناكحِ وما تَبِعها، وكان الطَّلاقُ -كما سلَف- كالموتِ، وكانت المراجَعةُ كالإحياء، وختَم ذلك بالصلاةِ حالَ الخوفِ الذي أغلَبُ صُوَرِه الجهاد، ثم بتبيينِ الآيات أعَمَّ مِن أن تكونَ في الجهادِ

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: نظم الدرر (٣/ ٣٨٤).

(٣) تفسير السعدي (ص: ١٠٦).

أو غيرِه؛ عقَّب ذلك بقولِه دليلًا على آيةِ كَتْبِ القتال المحثوثِ فيها على الإقدامِ على المكارِهِ لجهلِ المخلوقِ بالغايات: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[1].

لمَّا كان أمرُ الدِّينِ مُقامًا بمَعالِمِه الخَمْسِ التي إقامةُ ظاهرِها تمامٌ في الأمَّة، وإنَّما تَتِمُّ إقامتُها بتقوى القلوبِ وإخلاصِ النِّيات؛ كان القليلُ مِن المواعظِ والقِصص في شأنه كافيًا، ولمَّا كان حظيرةُ الدِّين إنَّما هو الجهادُ الذي فيه بَذْلُ الأنفُسِ وإنفاقُ الأموال، كثُرتْ فيه مواعظُ القرآن، وتردَّدتْ، وعرض لهذه الأمَّةِ بإعلام بما يقعُ فيه؛ فذكَر ما وقَع مِن الأقاصيصِ في الأُمَمِ السالفة، وخصوصًا أهلَ الكتابَين: بني إسرائيلَ، ومَن لَحِق بهم مِن أبناءِ العيص، فكانت وقائعُهم مثَلًا لوقائعِ هذه الأمَّةِ؛ فلذلك أُحِيلَ النبيُّ ﷺ على استنطاقِ أحوالهم بما يكشفُه اللهُ ﷻ له مِن أمرِهم عِيانًا، وبما يُنزِلُه مِن خبَرِهم بيانًا، وكان مِن جامعةِ معنى ذلك ما تقدَّم مِن قولِه ﷻ: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾، وكان مِن جملةِ الآيات التي يَحِقُّ الإقبالُ بها على النبيِّ ﷺ لعُلُوِّ معناها؛ فأشرَفُ المعاني ما قيل فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إقبالًا على النبي ﷺ، وعمومُ المعاني ما قيل فيه: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ﴾؛ إقبالًا على الأمَّةِ ليخاطَبَ كلٌّ على قَدْرِ ما قُدِّم لهم مِن تمهيدِ موهبةِ العقل؛ لتترتَّبَ المَكسِبةُ مِن العلم على مقدارِ الموهبة مِن العقل، فكان مِن القَصَصِ العَلِيِّ العلمِ اللطيفِ الاعتبارِ ما تضمَّنته هذه الآياتُ مِن قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ ليكونَ ذلك عِبْرةً لهذه الأمَّةِ؛ حتى لا يَفِرُّوا مِن الموتِ فرارَ مَن قَبْلَهم؛ قال ﷺ: «إذا نزَل الوباءُ بأرضٍ وأنتم بها، فلا تخرُجوا فرارًا

---

(١) نظم الدرر (٣/ ٣٨٥-٣٨٦).

منه»[١]؛ وذلك لتَظهَرَ مزيَّتُهم علىٰ مَن قَبْلَهم بما يكون مِن عزمِهم؛ كما أظهَرَ اللهُ تعالىٰ مزيَّتَهم علىٰ مَن قبلهم بما آتاهم مِن فضلِه ورحمتِه التي لم ينوِّلْها لِمَن قبلهم[٢].

استئنافٌ ابتدائيٌّ للتحريضِ علىٰ الجهاد، والتذكيرِ بأنَّ الحذَرَ لا يؤخِّرُ الأجلَ، وأنَّ الجبانَ قد يَلقَىٰ حَتْفَه في مَظِنَّةِ النجاة، وقد تقدَّم أنَّ هذه السُّورةَ نزلت في مدةِ صُلْحِ الحُدَيبيَة، وأنَّها تمهيدٌ لفتحِ مكَّةَ؛ فالقتال مِن أهمِّ أغراضها، والمقصودُ مِن هذا الكلامِ هو قوله: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الآية؛ فالكلامُ رجوعٌ إلىٰ قوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ ﴾، وفصَلتْ بَيْنَ الكلامينِ الآياتُ النازلة خلالهما، المفتتَحةُ بـ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ ﴾، وموقعُ ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ ﴾ قبل قوله: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ موقعُ ذِكْرِ الدليلِ قبل المقصود؛ وهذا طريقٌ مِن طُرُقِ الخطابةِ؛ أن يقدَّمَ الدليلُ قبل المستدَلِّ عليه؛ لمقاصِدَ[٣].

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّه تعالىٰ متىٰ ذكَر شيئًا مِن الأحكامِ التكليفية، أعقَب ذلك بشيءٍ مِن القَصصِ علىٰ سبيلِ الاعتبار للسامع، فيَحمِلُه ذلك علىٰ الانقيادِ، وتَرْكِ العناد، وكان تعالىٰ قد ذكَر أشياءَ مِن أحكامِ الموتىٰ ومَن خلَّفوا، فأعقَب ذلك بذِكْرِ هذه القصَّةِ العجيبة، وكيف أمات اللهُ هؤلاء الخارجين مِن ديارهم، ثم أحياهم في الدنيا، فكما كان قادرًا علىٰ إحيائهم في الدنيا، هو قادرٌ علىٰ إحياءِ المتوفَّيْنَ في الآخرة، فيجازي كلًّا منهم بما عَمِل. ففي هذه القصَّةِ تنبيهٌ علىٰ المَعاد، وأنَّه كائنٌ لا محالةَ، فيَلِيقُ بكلِّ عاقلٍ أن يعملَ لمَعادِه؛ بأن يحافِظَ علىٰ عبادةِ ربِّه، وأن يوفِّيَ

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨).

(٢) نظم الدرر (٣/ ٣٨٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٤٧٥).

في حقوقِ عباده، وقيل: مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: هو أنَّه لمَّا ذكر ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، ذكر هذه القصَّة؛ لأنَّها مِن عظيمِ آياته، وبدائعِ قُدْرته[(١)].

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤﴾

ولمَّا بيَّن ﷻ أنَّ الموتَ لا يصُونُ منه فرارٌ، أمَر بالجهاد الذي هو المقصودُ الأعظم بهذه السياقاتِ، ولفَتَ القولَ إلىٰ مَن يَحتاج إلىٰ الأمرِ به، وصدَّره بـ«الواو»، فأفهَمَ العطفُ علىٰ غيرِ معطوفٍ عليه مذكورٍ أنَّ التَّقديرَ: فلا تَفِرُّوا مِن أسباب الموت، بل اثبُتوا في مواطنِ البأساءِ، ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾[(٢)].

جملةُ ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ، هي المقصودُ الأول؛ فإنَّ ما قبلها تمهيدٌ لها -كما عَلِمتَ-، وقد جُعِلتْ في النَّظم معطوفةً علىٰ جملةِ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ عطفًا علىٰ الاستئنافِ، فيكونُ لها حُكْمُ جملةٍ مستأنَفة استئنافًا ابتدائيًّا، ولولا طولُ الفصلِ بينها وبين جملةِ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ﴾، لقُلْنا: إنَّها معطوفةٌ عليها، علىٰ أنَّ اتصالَ الغرَضينِ يُلحِقُها بها بدُونِ عطفٍ، وجملةُ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ حثٌّ علىٰ القتال، وتحذيرٌ مِن تَرْكِه؛ بتذكيرِهم بإحاطةِ علمِ الله تعالىٰ بجميعِ المعلومات، ظاهرِها وباطنِها، وقُدِّم وَصْفُ ﴿سَمِيعٌ﴾، وهو أخَصُّ مِن ﴿عَلِيمٞ﴾؛ اهتمامًا به هنا؛ لأنَّ معظمَ أحوالِ القتال في سبيل الله مِن الأمور المسموعة؛ مثلُ: جَلَبةِ الجيش، وقَعْقَعةِ السلاح، وصَهِيل الخيل، ثم ذُكِر وَصْفُ ﴿عَلِيمٞ﴾؛ لأنه يعُمُّ العلمَ بجميعِ المعلومات، وفيها ما هو مِن حديثِ

(١) البحر المحيط (٢/ ٥٥٩).
(٢) نظم الدرر (٣/ ٤٠٠).

النفس؛ مثلُ: خُلُقِ الخوف، وتسويلِ النفسِ القعودَ عن القتالِ، وفي هذا تعريضٌ بالوعدِ والوعيد[١].

لمَّا بيَّن تعالىٰ حُكْمَ النكاحِ، بيَّن حُكْمَ القتال؛ لأنَّ النكاحَ تحصينٌ للدِّين، والقتالَ تحصينٌ للدِّين، والمال، والرُّوح[٢].

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

ولمَّا كانت النَّفقةُ التي هي مِن أعظَمِ مقاصدِ السُّورة أوثَقَ دعائمِ الجهاد، وأقوىٰ مُصدِّقٍ للإيمان، ومُحقِّقٍ لمبايَعةِ الملك الدَّيان؛ كرَّر الحثَّ عليها علىٰ وجهٍ أبلَغَ تشويقًا ممَّا مضىٰ، فقال علىٰ هيئةِ الممتحِنِ للصادق ممَّن أمَره وحذَّره وأنذَره: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٣].

اعتراضٌ بَيْنَ جملةِ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ إلىٰ آخرها، وجملةِ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية، قُصِد به الاستطرادُ للحثِّ علىٰ الإنفاقِ لوجهِ الله في طُرُقِ البرِّ؛ لمناسبةِ الحثِّ علىٰ القتال؛ فإنَّ القتالَ يستدعي إنفاقَ المقاتِلِ علىٰ نفسه في العُدَّةِ والمَؤُونةِ مع الحثِّ علىٰ إنفاقِ الواجد فضلًا في سبيل الله بإعطاءِ العُدَّةِ لِمَن لا عُدَّة له، والإنفاقِ علىٰ المُعسِرين مِن الجيش، وفيها تبيينٌ لمضمونِ جملة ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ فكانت ذاتَ ثلاثةِ أغراضٍ[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٤٨٠).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٥٦٠).

(٣) نظم الدرر (٣/ ٤٠٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢/ ٤٨١).

لمَّا أمَر بالقتالِ في سبيل الله، ثم أردفه بقولِه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ اختلَف المفسرون فيه علىٰ قولين: الأول: أنَّ هذه الآيةَ متعلِّقةٌ بما قبلها، والمرادُ منها القرضُ في الجهاد خاصةً، فندَب العاجزَ عن الجهاد أن يُنفِقَ علىٰ الفقيرِ القادر علىٰ الجهاد، وأمَر القادرَ علىٰ الجهاد أن يُنفِقَ علىٰ نفسِه في طريق الجهاد، ثم أكَّد تعالىٰ ذلك بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾؛ وذلك لأنَّ مَن عَلِم ذلك كان اعتمادُه علىٰ فضلِ الله تعالىٰ أكثَرَ مِن اعتمادِه علىٰ ماله، وذلك يَدْعوه إلىٰ إنفاقِ المال في سبيل الله، والاحترازِ عن البخلِ بذلك الإنفاقِ. والقول الثاني: أنَّ هذا الكلامَ مبتدأٌ لا تعلُّقَ له بما قبله[1].

ولمَّا كان القتالُ فىٰ سبيلِ الله لا يتمُّ إلا بالنفقةِ وبَذْلِ الأموال في ذلك، أمَر تعالىٰ بالإنفاقِ في سبيلِه، ورغَّب فيه، وسمَّاه قَرْضًا، فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾

ولمَّا كان الصحابةُ رضوان الله تعالىٰ عليهم يتمنَّوْنَ في مكَّةَ المشرَّفةِ الإذنَ في مقارعةِ الكفار ليرُدُّوهم عمَّا هم عليه مِن الأذىٰ والغَيِّ والعمىٰ، عجَّب مِن حالِ بني إسرائيلَ حيث سألوا الأمرَ بالقتالِ، ثم لم يُنصِفوا إذ أُمِروا؛ تحذيرًا مِن

---

(١) مفاتيح الغيب (٦/ ٤٩٨، ٤٩٩).

(٢) تفسير السعدي (ص: ١٠٦).

مثلِ حالهم، وتصويرًا لعجيبِ قُدْرتِه على نقضِ العزائم، وتقليبِ القلوب، وإعلامًا بعظيمِ مقاديرِ الأنبياء، وتمكُّنِهم في المعارفِ الإلهيَّة، ودليلًا على ختامِ الآية التي قبلها، فقال مُقبِلًا على أعلى الخَلْقِ -إشارةً إلى أنَّ للنُّفوس مِن دقائقِ الوساوس ما لا يفهمُه إلا البُصراءُ-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(١)].

أَراه في الأُولى حالَ أهلِ الحذَرِ مِن الموت بما في الأنفُسِ مِن الهلَعِ الذي حُذِّرتْ منه هذه الأمَّةُ، ثم أَراه في هذه مقابِلَ ذلك مِن الترامي إلى طلبِ الحربِ، وهما طرَفَا انحرافٍ في الأنفس؛ قال ﷺ: «لا تتمنَّوْا لقاءَ العدو، واسألوا اللهَ العافيةَ، فإذا لَقِيتموه، فاصبِروا، واعلَموا أنَّ الجنَّةَ تحت ظلالِ السيوف». ففيه إشعارٌ لهذه الأمَّة بألا تطلُبَ الحربَ ابتداءً، وإنَّما تدافِعُ عن منعِها مِن إقامةِ دِينِها؛ فحقُّ المؤمن أن يأبى الحربَ ولا يطلُبَه؛ فإنَّه إن طلَبه فأُوتيَه، عجَز كما عجَز هؤلاء حين تولَّوْا إلا قليلًا؛ فهذه الأقاصيصُ ليس المراد منها حديثًا عن الماضين، وإنَّما هو إعلامٌ بما يستقبِلُه الآتون، إيَّاكِ أعني واسمَعي يا جارة! فلذلك لا يَسمَع القرآنَ مَن لم يأخُذْه بجملتِه خطابًا لهذه الأمَّةِ بكلِّ ما قَصَّ له مِن أقاصيصِ الأوَّلين[(٢)].

جملةُ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ استئنافٌ ثانٍ مِن جملةِ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾، سِيقَ مساقَ الاستدلال لجملة ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وفيها

---

(١) نظم الدرر (٣/ ٤٠٥-٤٠٦).

(٢) نظم الدرر (٣/ ٤٠٧).

زيادةُ تأكيدٍ لفظاعةِ حالِ التقاعس عن القتال بعد التهيُّؤ له في سبيل الله، والتكريرُ في مثله يفيدُ مزيدَ تحذيرٍ وتعريض بالتوبيخ؛ فإنَّ المأمورين بالجهادِ في قوله: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ لا يخلُونَ مِن نفَرٍ تعتريهم هواجسُ تثبِّطُهم عن القتالِ حبًّا للحياة، ومِن نفَرٍ تعترضُهم خواطرُ تهوِّنُ عليهم الموتَ عند مشاهدةِ أكدار الحياة، ومصائبِ المذلَّة؛ فضرَب اللهُ لهذين الحالينِ مثلَينِ: أحدُهما: ما تقدَّم في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ ﴾، والثاني: قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، وقد قدَّم أحدَهما وأخَّر الآخرَ: ليقعَ التحريضُ علىٰ القتال بينهما، ومناسبةُ تقديمِ الأُولىٰ: أنَّها تشنِّعُ حالَ الذين استسلَموا واستضعَفوا أنفسهم، فخرَجوا مِن ديارهم مع كثرتهم، وهذه الحالةُ أنسَبُ بأن تُقدَّم بَيْنَ يدَيِ الأمرِ بالقتال، والدفاعِ عن البَيْضةِ[(١)]؛ لأنَّ الأمرَ بذلك بعدها يقع موقعَ القَبولِ مِن السامعين لا محالةَ، ومناسبةُ تأخيرِ الثانية: أنَّها تمثيلُ حالِ الذين عرَفوا فائدةَ القتال في سبيل الله؛ لقولهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ إلخ، فسألوه دُونَ أن يُفرَضَ عليهم، فلمَّا عُيِّن لهم القتالُ، نكَصوا علىٰ أعقابهم، وموضعُ العِبرة هو التحذيرُ مِن الوقوع في مثلِ حالهم بعد الشروعِ في القتال، أو بعد كَتْبِهِ عليهم؛ فلِلَّهِ بلاغةُ هذا الكلامِ، وبراعةُ هذا الأسلوبِ تقديمًا وتأخيرًا![(٢)].

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها ظاهرةٌ؛ وذلك أنَّه لمَّا أمَر المؤمنين بالقتالِ في سبيل الله، وكان قد قدَّم قبل ذلك قصَّةَ الذين خرَجوا مِن ديارهم حَذَرَ الموتِ: إمَّا بالقتالِ أو بالطاعون، علىٰ سبيلِ التَّشجيع والتَّثبيت للمؤمنين، والإعلامِ بأنَّه لا يُنجِي حَذَرٌ مِن

---

(١) أي: أصل القوم ومجتمعهم.

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٤٨٩).

قَـدَرٍ؛ أردَف ذلـك بـأنَّ القتـالَ كـان مطلوبًـا مشـروعًا في الأُمَـم السـابقة؛ فلـيس مِـن الأحكامِ التي خُصِصتم بها؛ لأنَّ ما وقَع فيه الاشتراكُ، كانت النَّفسُ أميَلَ لقَبولِـه مِـن التَّكليفِ الذي يكون يقعُ به الانفرادُ(١).

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾

ولـمَّا أرشَد العطفُ على غيرِ مذكورٍ إلى أنَّ التَّقديرَ: فقال لهم نبيُّهم: ألم أقُلْ لكم: لا تَسألوا البلاءَ، ولا تُدانوا أمرَ القضاء؛ فإنَّ أكثَرَ قولِ النَّفس كَذِبٌ، وجُلَّ أمانيِّها زُورٌ، وأمَّا أمرُ الله فمتى برَز يَجِبْ؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢).

أعـاد الفعـلَ في قولِـه: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴾؛ للدَّلالـةِ علـى أنَّ كلامَـه هـذا لـيس مِـن بقيَّـةِ كلامِـه الأول؛ بـل هـو حـديثٌ آخَـرُ متـأخِّرٌ عنـه؛ وذلـك أنَّـه بعـد أن حـذَّرهم عواقبَ الحكومةِ الملَكيَّة، وحذَّرهم التولِّيَ عن القتال؛ تكلَّـم معهـم كلامًـا آخَـرَ في وقتٍ آخر(٣).

---

(١) البحر المحيط (٢/ ٥٦٨).

(٢) نظم الدرر (٣/ ٤١٣-٤١٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٤٨٤).

لمَّا بيَّن في الآيةِ الأُولىٰ أنَّه أجابهم إلىٰ ما سألوا، ثم إنَّهم تولَّوْا، فبيَّن أنَّ أولَ ما تولَّوْا إنكارُهم إمرةَ طالوتَ؛ وذلك لأنَّهم طلبوا مِن نبيِّهم أن يطلُبَ مِن الله أن يعيِّنَ لهم مَلِكًا، فأجابهم بأنَّ اللهَ قد بعَث لهم طالوتَ مَلِكًا(١).

شروعٌ في تفصيلِ ما جرىٰ بَيْنَهُ ﷺ وبينهم مِن الأقوالِ والأفعال، إثرَ الإشارةِ الإجمالية إلىٰ مصيرِ حالهم(٢).

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

ولمَّا كان أغلَبُهم واقفًا مع المشاهَداتِ غيرَ ثابتِ القَدَمِ في الإيمانِ بالغيبِ، قال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٣).

اعلَمْ أنَّ ظاهرَ الآية المتقدِّمة يدلُّ علىٰ أنَّ أولئك الأقوامَ كانوا مُقِرِّينَ بنبوَّةِ النبيِّ الذي كان فيهم؛ لأنَّ قولَه تعالىٰ حكايةً عنهم: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ كالظاهرِ في أنَّهم كانوا معترفين بنبوَّةِ ذلك النبيِّ، ومُقِرِّين بأنَّه مبعوثٌ مِن عندِ الله تعالىٰ، ثم إنَّ ذلك النبيَّ لمَّا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ كان هذا

(١) مفاتيح الغيب (٦/ ٥٠٣).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ٢٤٠).

(٣) نظم الدرر (٣/ ٤١٩).

دليلًا قاطعًا في كونِ طالوتَ مَلِكًا، ثم إنَّه تعالىٰ لكمالِ رحمتِه بالخَلْقِ ضَمَّ إلىٰ ذلك الدليلِ دليلًا آخَرَ يدلُّ علىٰ كونِ ذلك النبيِّ صادقًا في ذلك الكلام، ويدلُّ أيضًا علىٰ أنَّ طالوتَ نصَبه اللهُ تعالىٰ للمُلْكِ، وإكثارُ الدلائل مِن اللهِ تعالىٰ جائزٌ؛ ولذلك أنَّه كثُرتْ معجِزاتُ موسىٰ عليه السلام، ومحمَّدٍ ﷺ؛ فلهذا قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾(١).

ولمَّا طلَبوا منه في الآيةِ السابقة حُجَّةً علىٰ أنَّه سبحانه وتعالىٰ اصطفىٰ طالوتَ وملَّكه عليهم، ناسَب ذِكْرُ الآيةِ هنا(٢).

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ عطفٌ علىٰ مثلِه ممَّا تقدَّم، وكان توسيطُ ما تقدَّم بينهما للإشعارِ بعدم اتصالِ أحدهما بالآخر، وتخلُّلُ كلامٍ مِن جهة المخاطَبين متفرِّعٌ علىٰ السابقِ، مستتبعٌ للأحقِّ، ورواياتُ القُصَّاصِ متضافرةٌ علىٰ أنَّهم قالوا لنبيِّهم: ما آيةُ مُلْكِه واصطفائه علينا؟ فقال: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾، ولمَّا لم يكُنْ قولُهم ذلك مذكورًا ليقعَ هذا جوابًا له صراحةً، أعاد الفاعلَ ليغايِرَ ما عُلِم صراحةً كونُه جوابًا، وإنَّما لم يَجرِ ذلك المَجرىٰ بأن يذكُرَ مقُولَهم، ويكونَ هذا جوابًا له، ويكتفيَ بالإضمار كما اكتفىٰ به أولًا؛ للإيماء إلىٰ أنَّ ذلك السؤالَ للنبيِّ بعد تصديقِهم له، وبيانِه لهم ما استفهَموا عنه، ممَّا لا ينبغي أن يكونَ حتىٰ يجابَ؛ لأنَّ له شَبَهًا تامًّا بالتعنُّت حينئذ، وإن عُدَّ مِن بابِ السؤال لتقويةِ العلم؛ وهذا بِناءً علىٰ أنَّ القومَ كانوا مؤمنين(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (٦/ ٥٥٩).

(٢) أنوار التنزيل (١/ ١٥٠).

(٣) روح المعاني (١/ ٤٩٤).

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فأتاهم التابوتُ على الصفةِ المذكورة، فأطاعوا نبيَّهم فيه، فملَّكوه، وانتدَبوا معه، فخرَج بهم إلى العدوِّ، وفصَل بالجنودِ مِن محَلِّ السَّكن؛ عطَف عليه قولَه: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(١).

عطفَتِ الفاءُ جملةَ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ﴾ على جملةِ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾؛ لأنَّ بَعْثَ المَلِكِ لأجلِ القتال يترتَّبُ عليه الخروجُ للقتالِ الذي سألوا لأجلِه بَعْثَ النبيِّ، وقد حُذِف بَيْنَ الجملتينِ كلامٌ كثير مقدَّر؛ وهو: الرضا بالملكِ، ومجيءُ التابوت، وتجنيدُ الجنود؛ لأنَّ ذلك ممَّا يدلُّ عليه جملة ﴿فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾(٢).

---

(١) نظم الدرر (٣/ ٤٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٤٩٥).

اعلَمْ أنَّ وجهَ اتصالِ هذه الآيةِ بما قبلها يَظهَرُ بتقديرِ محذوفٍ يدلُّ عليه باقي الكلام، والتقديرُ: أنَّه لمَّا أتاهم بآيةِ التابوت، أذعَنوا له، وأجابوا إلىٰ المسيرِ تحت رايتِه(١).

📖 ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ 📖

ثم بيَّن أنَّهم صدَّقوا قولَهم قبل المباشَرةِ بالفعل عندها، فقال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فلمَّا قالوا لهم ذلك، جمَع اللهُ كَلِمتَهم، فاعتمَدوا عليه، وبرَزوا للقتالِ بيْنَ يديه، ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢).

أنَّ العلماءَ والأقوياء مِن عسكرِ طالوتَ لمَّا قرَّروا مع العوامِّ والضُّعفاء أنَّه كم مِن فئةٍ قليلةٍ غلَبتْ فئةً كثيرة بإذنِ الله، وأوضَحوا أنَّ الفتْحَ والنُّصْرةَ لا يحصُلانِ إلا بإعانةِ الله؛ لا جرَمَ لمَّا برَزَ عسكرُ طالوتَ إلىٰ عسكرِ جالوتَ، ورأَوُا القِلَّةَ في جانبِهم، والكثرةَ في جانبِ عدوِّهم؛ لا جرَمَ اشتغَلوا بالدُّعاءِ والتَّضرُّع، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٣).

📖 ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ 📖

ثم رتَّب علىٰ تلك النَّتيجةِ حثًّا علىٰ الاقتداءِ بهم لنيلِ ما نالوا، فقال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فأجاب اللهُ سبحانه وتعالى دعاءَهم؛ ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ

---

(١) مفاتيح الغيب (٦/ ٥٠٨).

(٢) نظم الدرر (٣/ ٤٣٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٦/ ٥١٤).

وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١).

مِن هاهنا نَعلَم أنَّ جالوتَ وجنودَه كانوا كفارًا، فاستجاب اللهُ لهم ذلك الدعاءَ؛ لإتيانِهم بالأسباب الموجِبة لذلك، ونصَرهم عليهم؛ ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٢).

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾

ولمَّا علَتْ هذه الآياتُ عن أقصىٰ ما يَعرِفه البُصَراء البُلَغاء مِن الغايات، وتجاوَزتْ إلىٰ حدٍّ تَعجِزُ العقولُ عن مَنالِه، وتضاءل نوافذُ الأفهامِ عن الإتيان بشيءٍ مِن مثالِه؛ نبَّه سبحانه وتعالى علىٰ ذلك بقوله: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(٣).

الإشارةُ إلىٰ ما تضمَّنته القِصَصُ الماضية وما فيها مِن العِبَرِ، ولكنَّ الحِكَمَ العاليةَ في قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾، وقد نزَّلها منزلةَ المُشاهِدِ لوضوحِها وبيانها، وجُعِلت آياتٍ؛ لأنَّها دلائلُ علىٰ عِظَمِ تصرُّفِ الله تعالىٰ، وعلىٰ سَعَةِ علمِه(٤).

---

(١) نظم الدرر (٣/ ٤٣٦).

(٢) تفسير السعدي (ص: ١٠٨).

(٣) نظم الدرر (٣/ ٤٤٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢/ ٥٠٣).

اعلَمْ أنَّ قولـه: ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارةٌ إلىٰ القِصَصِ التي ذكَرها مِن حديثِ الألوف، وإماتتِهم وإحيائهم، وتمليكِ طالوتَ، وإظهارِ الآيةِ التي هي نزولُ التابوتِ مِن السماء، وغَلَبِ الجبابرةِ علىٰ يدِ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو صبيٌّ فقير، ولا شكَّ أنَّ هذه الأحوالَ آياتٌ باهرة دالة علىٰ كمالِ قدرةِ الله تعالىٰ، وحِكْمتِه ورحمتِه[1].

﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) ﴾

ولـمَّا تقدَّم في هذه السورةِ ذِكْرُ رُسُلٍ كثيرة، وختَم هذه الآياتِ بأنَّه ﷺ منهم؛ تشوَّفتِ النفسُ إلىٰ معرفةِ أحوالهم في الفضلِ: هل هم فيه سواءٌ أو هم متفاضِلون؟ فأشار إلىٰ علوِّ مقاديرِ الكلِّ في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[2].

موقعُ هذه الآيةِ موقعُ الفَذْلكةِ لِما قبلها، والمقدمةِ لِما بعدها؛ فأمَّا الأول: فإنَّ الله تعالىٰ لـمَّا أنبأ باختبارِ الرُّسل «إبراهيمَ، وموسىٰ، وعيسىٰ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»، وما عرَض لهم مع أقوامهم، وختَم ذلك بقولِه: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ جمَع ذلك كلَّه في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾؛ لَفتًا إلىٰ العِبرِ التي في خلالِ ذلك كلِّه، ولـمَّا أنهىٰ ذلك كلَّه، عقَّبه بقولِه: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ تذكيرًا بأنَّ إعلامَه بأخبارِ الأُمَم

(١) مفاتيح الغيب (٦/ ٥٢٠).
(٢) نظم الدرر (٤/ ١).

والرُّسل آيةٌ علىٰ صِدْقِ رسالته؛ إذ ما كان لمثلِه قِبَلٌ بعِلْمِ ذلك لولا وحيُ اللهِ إليه، وفي هذا كلِّه حُجَّةٌ علىٰ المشركين، وعلىٰ أهلِ الكتاب الذين جحَدوا رسالةَ محمَّدٍ ﷺ. والإشارةُ إلىٰ جماعةِ المرسلين في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وجيء بالإشارةِ لِما فيها مِن الدلالةِ علىٰ الاستحضار، حتىٰ كأنَّ جماعةَ الرُّسل حاضرةٌ للسامع بعد ما مرَّ مِن ذِكْرِ عجيبِ أحوال بعضهم، وما أعقَبَه مِن ذِكْرِهم علىٰ سبيلِ الإجمال. وأمَّا الثاني: فلأنَّه لمَّا أُفيضَ القولُ في القتال، وفي الحثِّ علىٰ الجهاد والاعتبار بقتالِ الأُمَم الماضية، عقَّب ذلك بأنَّه لو شاء اللهُ ما اختلَف الناسُ في أمر الدِّين مِن بعدِ ما جاءتهم البيِّناتُ، ولكنَّهم أساؤوا الفَهْمَ، فجحَدوا البيناتِ، فأفضىٰ بهم سوءُ فهمِهم إلىٰ اشتطاطِ[1] الخلاف بينهم حتىٰ أفضىٰ إلىٰ الاقتتال، فموقعُ اسمِ الإشارة علىٰ هذا الاعتبارِ كموقعِ ضميرِ الشأن؛ أي: هي قصَّةُ الرُّسلِ وأُمَمِهم، فضَّلنا بعضَ الرُّسل علىٰ بعضٍ، فحسَدتْ بعضُ الأُمَم أتباعَ بعضِ الرُّسل، فكذَّب اليهودُ عيسىٰ ومحمَّدًا عليهما الصلاة والسلام، وكذَّب النصارىٰ محمَّدًا ﷺ[2].

وجهُ تعليقِ هذه الآيةِ بما قبلها: ما ذكَره أبو مسلمٍ؛ وهو: أنَّه تعالىٰ أنبأ محمَّدًا ﷺ مِن أخبارِ المتقدِّمين مع قومهم؛ كسؤال قومِ موسىٰ: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، وقولِهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، وكقومِ عيسىٰ بعد أن شاهَدوا منه إحياءَ الموتىٰ وإبراءَ الأكمَهِ والأبرَصِ بإذنِ الله، فكذَّبوه وراموا قتلَه، ثم أقام فريقٌ علىٰ الكفرِ به، وهم اليهودُ، وفريقٌ زعَموا أنَّهم أولياؤه، وادَّعَتْ علىٰ اليهودِ مِن قتلِهِ وصَلْبِهِ ما كذَّبهم اللهُ تعالىٰ فيه، كالملأ مِن بني إسرائيلَ حسَدوا طالوتَ، ودفَعوا مُلْكَه بعد المسألةِ، وكذلك ما جرىٰ مِن أمرِ النهرِ؛ فعزَّىٰ اللهُ رسولَه عمَّا رأىٰ مِن قومِه مِن

---

(١) أي: اشتداد.

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٥).

التكذيبِ والحسَدِ، فقال: هؤلاء الرُّسلُ الذين كلَّم اللهُ تعالىٰ بعضَهم، ورفَع الباقين درجاتٍ، وأيَّد عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ برُوحِ القُدُسِ: قد نالهم مِن قومِهم ما ذكَرْناه بعد مشاهدةِ المعجِزات، وأنت رسولٌ مثلُهم؛ فلا تَحزَنْ علىٰ ما ترىٰ مِن قومك، فلو شاء اللهُ لم تختلفوا أنتم وأولئك، ولكن ما قضىٰ اللهُ فهو كائنٌ، وما قدَره فهو واقعٌ، وبالجملة فالمقصودُ مِن هذا الكلامِ تسليةُ الرسولِ ﷺ علىٰ إيذاءِ قومه له[١].

مناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها: أنَّه لمَّا ذكَر اصطفاءَ طالوتَ علىٰ بني إسرائيلَ، وتفضُّلَ داودَ عليهم بإيتائه المُلْكَ والحِكْمةَ وتعليمِه، ثم خاطَب نبيَّه محمَّدًا ﷺ بأنَّه مِن المرسَلين، وكان ظاهرُ اللَّفظِ يقتضي التَّسويةَ بَيْنَ المرسَلين، بيَّن بأنَّ المرسَلين متفاضِلون أيضًا[٢].

استئنافٌ فيه رمزٌ إلىٰ أنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن أفاضلِ الرُّسل العظامِ عليهم الصلاة والسلام، إثرَ بيانِ كونِه مِن جملتِهم[٣].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤ ﴾

ولمَّا كان الاختلافُ علىٰ الأنبياءِ سببًا للجهاد الذي هو حظيرةُ الدِّين، وكان عمادُ الجهادِ النَّفقةَ؛ أتبَع ذلك قولَه رجوعًا إلىٰ أولِ السُّورةِ مِن هنا إلىٰ آخرِها، وإلىٰ التَّأكيدِ بلفظ الأمر لِما تقدَّم الحثُّ عليه مِن أمرِ النَّفقة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب (٦/ ٥٢١).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٥٩٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ٢٤٥-٢٤٦).

(٤) نظم الدرر (٤/ ٢١).

لمَّا دعاهم إلىٰ بَذْلِ نفوسِهم للقتال في سبيل الله، شفَعه بالدعوةِ إلىٰ بذلِ المال في الجهاد(١).

اعلَمْ أنَّ أصعَبَ الأشياءِ علىٰ الإنسان بذلُ النفسِ في القتال، وبذلُ المالِ في الإنفاق؛ فلمَّا قدَّم الأمرَ بالقتال، أعقَبه بالأمرِ بالإنفاق(٢).

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: هو أنَّه لمَّا ذكَر أنَّ اللهَ تعالىٰ أراد الاختلافَ إلىٰ مؤمنٍ وكافر، وأراد الاقتتالَ، وأمَر به المؤمنين، وكان الجهادُ يَحتاج صاحبُه إلىٰ الإعانةِ عليه؛ أمَر تعالىٰ بالنفقةِ مِن بعضِ ما رزَق، فشَمِل النفقةَ في الجهادِ، وهي وإن لم يُنَصَّ عليها مندرِجةٌ في قولِه: ﴿أَنفِقُواْ﴾، وداخلةٌ فيها دخولًا أوليًّا؛ إذ جاء الأمرُ بها عَقِب ذِكْرِ المؤمن والكافر، واقتتالِهم(٣).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾

ولمَّا ابتدأ ﷻ الفاتحةَ كما مضىٰ بذِكْرِ الذات، ثم تعرَّفَ بالأفعالِ لأنَّها مُشاهَدات، ثم رقَّىٰ الخطابَ إلىٰ التعريفِ بالصفات، ثم أعلاه رجوعًا إلىٰ الذاتِ للتأهُّلِ للمعرفةِ؛ ابتدأ هذه السُّورةَ بصفةِ الكلام؛ لأنَّها أعظَمُ المعجِزات وأبيَنُها وأدلُّها علىٰ غيبِ الذات، وأوقَعُها في النفوسِ، لا سيَّما عند العربِ، ثم تعرَّفَ بالأفعالِ فأكثَرَ منها، فلمَّا لم يَبْقَ لَبْسٌ، أثبَت الوَحْدانيَّةَ بآيتِها السابقةِ، مخلِّلًا ذلك بأفانينِ الحِكَمِ،

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٦/ ٥٣٠).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٦٠٤).

ومحاسنِ الأحكام، وأنواعِ الترغيب والترهيب، في مُحكَمِ الوصفِ والترتيب، فلمَّا تمَّتِ الأوامر، وهالت تلك الزواجر، وتشوَّقتِ الأنفُسُ وتشوَّفتِ الخواطر إلىٰ معرفةِ سببِ انقطاع الوصلِ بانبتارِ (١) الأسباب، وانتفاءِ الشفاعة في ذلك اليومِ؛ إذ كان المألوفُ مِن ملوكِ الدنيا أنَّهم لا يكادون يتمكَّنون مِن أمرٍ مِن الأمور حقَّ التمكُّنِ مِن كثرةِ الشُّفَعاءِ والراغبين مِن الأصدقاءِ؛ إذ كان المَلِكُ منهم لا يخلو مجلسُه قطُّ عن جمعِ كلٍّ منهم، صالحٍ للقيامِ مَقامَه، ولو خذَله، أو وجَّه إليه مَكْرَه ضَعْضَعَ أمرَه، وفَتَّ في عضُدِه، فهو محتاجٌ إلىٰ مراعاتِهم، واسترضائهم، ومُدارَاتِهم؛ بيَّن ﷻ صفةَ الآمِرِ بما هو عليه مِن الجلالِ والعظَمة، ونفوذِ الأمر، والعلوِّ عن الصدِّ، والتنزُّهِ عن الكفر والنِّد، والتفرُّدِ بجميعِ الكمالات، والهَيْبَةِ المانعة بعد انكشافِها هناك أتَمَّ انكشافٍ لأن تتوجَّهَ الهِمَمُ لغيرِه، وأن تَنطِقَ بغيرِ إذنه، وأن يكونَ غيرُ ما يريد؛ ليكونَ ذلك أدعىٰ إلىٰ قَبولِ أمره، والوقوفِ عند نَهْيِه وزَجْرِه، ولأجلِ هذه الأغراضِ ساقَ الكلامَ مساقَ جوابِ السؤال، فكأنَّه قيل: هذا ما لا يُعرَفُ مِن أحوالِ الملوك؛ فمَن المَلِكُ في ذلك اليومِ؟ فذكَر آيةَ الكُرْسيِّ، سيِّدةَ آيِ القرآن، التي ما اشتمَل كتابٌ علىٰ مثلِها، مفتتِحًا لها بالاسمِ العَلَمِ الفردِ الجامعِ، الذي لم يتَّسِمْ به غيرُه؛ وذلك لمَّا تأهَّل السامعُ بعد التعرُّفِ بالكلام والتودُّدِ بالأفعال لمَقامِ المعرفة، فترقَّىٰ إلىٰ أَوْجِ المراقَبة، وحَضْرةِ المشاهَدة، فقال عائدًا إلىٰ مظهرِ الجلالِ، الجامع لصفات الجلالِ والإكرام؛ لأنَّه مِن أعظَمِ مقاماتِه: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ (٢).

---

(١) أي: انقطاع.

(٢) نظم الدرر (٤/ ٢٧).

ولمَّا ذكَر هولَ يومِ القيامة، وذكَر حالَ الكافرين؛ استأنَف بذِكْرِ تمجيدِ الله تعالىٰ، وذكرِ صفاتِه؛ إبطالًا لكُفْرِ الكافرين، وقطعًا لرجائهم؛ لأنَّ فيها ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وجُعِلتْ هذه الآيةُ ابتداءً لآياتِ تقريرِ الوَحْدانيَّة والبعث، وأُودِعت هذه الآيةُ العظيمة هنا؛ لأنَّها كالبَرْزخِ بَيْنَ الأغراضِ السابقة واللاحقة[١].

اعلَمْ أنَّ مِن عادتِه ﷻ في هذا الكتابِ الكريم أنَّه يَخلِطُ هذه الأنواعَ الثلاثة بعضَها بالبعض؛ أعني: علمَ التوحيدِ، وعلم الأحكام، وعلم القَصص، والمقصودُ مِن ذِكْرِ القَصص: إمَّا تقريرُ دلائلِ التوحيد، وإمَّا المبالغةُ في إلزامِ الأحكامِ والتكاليف، وهذا الطريقُ هو الطريقُ الأحسن، لا إبقاءُ الإنسان في النوعِ الواحد؛ لأنَّه يوجِبُ المَلَالَ، فأمَّا إذا انتقَل مِن نوعٍ مِن العلوم إلىٰ نوعٍ آخرَ، فكأنَّه يَشرَحُ به الصدر، ويُفرِحُ به القلبَ، فكأنَّه سافَر مِن بلدٍ إلىٰ بلد آخرَ، وانتقَل مِن بستانٍ إلىٰ بستان آخرَ، وانتقَل مِن تناوُلِ طعامٍ لذيذ إلىٰ تناولِ نوعٍ آخرَ، ولا شك أنَّه يكون ألَذَّ وأشهىٰ، ولمَّا ذكَر فيما تقدَّم مِن علمِ الأحكام ومِن علم القَصص ما رآه مصلحةً، ذكَر الآن ما يتعلقُ بعلمِ التوحيد، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[٢].

ومناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر أنَّه فضَّل بعضَ الأنبياءِ علىٰ بعضٍ، وأنَّ منهم مَن كلَّمه، وفُسِّر بموسىٰ عليه السلام، وأنَّه رفَع بعضَهم درجاتٍ، وفُسِّر بمحمَّدٍ ﷺ، ونصَّ علىٰ عيسىٰ عليه السلام، وتفضيلُ المتبوعِ يُفهَم منه تفضيلُ التابع،

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ٥).

وكانت اليهودُ والنَّصارىٰ قد أحدَثوا بعد نبيِّهم بِدَعًا في أديانِهم وعقائدهم، ونسَبوا اللهَ تعالىٰ إلىٰ ما لا يجوزُ عليه، وكان رسولُ الله ﷺ بُعِث إلىٰ الناسِ كافةً، فكان منهم العرَبُ، وكانوا قد اتخَذوا مِن دُونِ الله أصنامًا آلهةً، وأشرَكوا بالله، فصار جميعُ الناس المبعوثِ إليهم ﷺ علىٰ غيرِ استقامةٍ في شرائعِهم وعقائدهم، وذكَر تعالىٰ أنَّ الكافرين هم الظالمون، وهم الواضعون الشيءَ غيرَ مواضعه؛ أتىٰ بهذه الآيةِ العظيمة الدالَّة علىٰ إفرادِ الله بالوحدانيَّةِ، والمتضمِّنة صفاتِهِ العُلا من: الحياةِ، وقَيُّوميَّته، ومُلْكِه لِما في السماوات والأرض، وامتناعِ الشفاعة عنده إلا بإذنِه، وسَعَةِ علمِه، وعدمِ إحاطة أحدٍ بشيءٍ مِن علمِه إلا بإرادته، إلىٰ غيرِ ذلك ممَّا تضمَّنته الآيةُ؛ نبَّههم بها علىٰ العقيدةِ الصحيحة التي هي مَحْضُ التَّوحيد، وعلىٰ طَرْحِ ما سِواها[(١)].

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾

ولمَّا اتَّضحت الدَّلائلُ لكل عالمٍ وجاهلٍ، صار الدِّينُ إلىٰ حدٍّ لا يَحتاج فيه مُنصِفٌ لنفسه إلىٰ إكراهٍ فيه، فقال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[(٢)].

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن الأمرِ بالقتال في سبيل الله في قوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾؛ إذ يبدو للسامعِ أنَّ القتالَ لأجلِ دخول العدوِّ في الإسلام، فبيَّن في هذه الآيةِ أنَّه لا إكراهَ علىٰ الدخول في الإسلامِ، وتعقيبُ آيةِ الكُرْسيِّ بهاته الآيةِ بمناسبة أنَّ ما اشتمَلتْ عليه الآيةُ السابقة مِن دلائلِ الوَحْدانيَّة، وعظَمةِ الخالق، وتنزيهِه عن شوائبِ ما كفَرتْ به الأُمَمُ؛ كان ذلك مِن شأنه أن يسُوقَ

---

(١) البحر المحيط (٢/ ٦٠٧).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٤٠).

ذوي العقول إلىٰ قَبولِ هذا الدِّين الواضحِ العقيـدةِ، المستقيمِ الشَّريعةِ، باختيـارِهم دُونَ جَبْرٍ ولا إكـراهٍ، ومِـن شـأنه أن يَجعَـلَ دوامَهـم علـىٰ الشـركِ بمَحَـلِّ السُّـؤالِ: أيُترَكون عليه أم يُكرَهون علىٰ الإسلام؟ فكانت الجملةُ استئنافًا بيانيًّا(١).

لمَّا بيَّن دلائلَ التوحيدِ بيانًا شافيًا قاطعًا للعذرِ، قال بعد ذلك: إنَّه لم يَبقَ بعد إيضاحِ هذه الدلائلِ للكافر عُذْرٌ في الإقامةِ علىٰ الكفر إلا أن يُقسَرَ علىٰ الإيمان، ويُجبَر عليه؛ وذلك ممَّا لا يجوز في دارِ الدنيا التي هي دارُ الابتلاء؛ إذ في القَهْرِ والإكراه علىٰ الدِّينِ بطلانُ معنىٰ الابتلاء والامتحان(٢).

جملةٌ مستأنَفة، جاء بها إثرَ بيانِ تفرُّده ﷻ بالشؤونِ الجليلة، الموجِبة للإيمان به وحده؛ إيذانًا بأنَّ مِن حقِّ العاقل ألا يَحتاجَ إلىٰ التكليفِ، والإلزام؛ بل يختار الدِّينَ الحقَّ مِن غير تردُّدٍ وتلعثُمٍ(٣).

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾

ولمَّا قرَّر ذلك، وأرشَد السِّياقُ إلىٰ شيءٍ اقتضت البلاغةُ طيَّهُ إرشادًا إلىٰ البُعْدِ منه، والهرَبِ عنه لبشاعتِه وسُوءِ مَغبَّتِه، وهو: ومَن يؤمنُ بالطاغوتِ ويكفُرُ بالله فلا يُتمسَّك له، واللهُ يُهْوِيهِ إلىٰ الجحيمِ؛ كأنَّه قيل: فمَن يُخلِّصُ النَّفسَ مِن ظلماتِ الهوىٰ والشَّهوةِ ووساوسِ الشيطان؟ فقال مستأنِفًا: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ١٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ٢٤٩).

مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(١).

وقَع قولُه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآيةَ موقعَ التَّعليلِ لقوله: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾؛ لأنَّ الذين كفَروا بالطاغوت وآمَنوا بالله قد تولَّوُا اللهَ تعالىٰ فصار وَليَّهم؛ فهو يُقدِّر لهم ما فيه نفعُهم؛ وهو ذَبُّ الشُّبهاتِ عنهم، فبذلك يستمِرُّ تمسُّكُهم بالعُرْوةِ الوثقىٰ، ويأمنون انفصامَها، فاللهُ يَزيدُ الذين اهتدَوْا هُدًىٰ؛ لأنَّ اتِّباعَهم الإسلامَ تيسيرٌ لطُرُقِ اليقين، فهم يزدادون توغُّلًا فيها يومًا فيومًا، وبعكسِهم الذين اختاروا الكفرَ علىٰ الإسلام، فإنَّ اختيارَهم ذلك دَلَّ علىٰ خَتْمٍ ضُرِب علىٰ عقولِهم، فلم يَهتدوا، فهم يزدادون في الضَّلالِ يومًا فيومًا، ولأجلِ هذا الازديادِ المتجدِّد في الأمرينِ، وقَع التعبيرُ بالمضارعِ في ﴿يُخۡرِجُهُم﴾ و﴿يُخۡرِجُونَهُم﴾(٢).

ثم ذكَر السببَ الذي أوصَلهم إلىٰ ذلك، فقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٣).

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾

ولمَّا ذكَر ما له ﷻ مِن الإحاطةِ والعظَمة، وأتبَعه أمرَ الإيمانِ وتولِّيه حِزْبَه، وأمرَ الكفرانِ وخِذْلانِه أهلَه؛ أخذ يدُلُّ علىٰ ذلك بقصَّةِ المُحاجِّ للخليلِ، والمارِّ علىٰ

(١) نظم الدرر (٤/ ٤٤-٤٥).
(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٣٠).
(٣) تفسير السعدي (ص: ١١١).

القريةِ، مُذكِّرًا بقصَّةِ الذين قال لهم: ﴿مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾ في سياقِ التَّعجيب مِن تلك الجرأةِ، فقال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(١)].

جرىٰ هذا الكلامُ مَجرىٰ الحجَّةِ علىٰ مضمونِ الجملة الماضية أو المثالِ لها؛ فإنَّه لمَّا ذكَر أنَّ اللهَ يُخرِجُ الذين آمنوا مِن الظلماتِ إلىٰ النُّور، وأنَّ الطاغوتَ يُخرِجون الذين كفَروا مِن النُّورِ إلىٰ الظلمات؛ ساقَ ثلاثةَ شواهدَ علىٰ ذلك؛ هذا أولُها وأجمَعُها؛ لأنَّه اشتمَل علىٰ ضلالِ الكافر وهُدىٰ المؤمن، فكان هذا في قوةِ المثال، والمقصودُ مِن هذا: تمثيلُ حالِ المشركين في مجادَلتهم النبيَّ ﷺ في البعثِ بحالِ الذي حاجَّ إبراهيمَ في ربِّه[(٢)].

مناسبةُ هذه القصَّةِ التي جرت بَيْنَ إبراهيمَ عليه السلام والذي حاجَّه، وأنَّه ناظَر ذلك الكافرَ فغلَبه وقطَعه إذ كان اللهُ وليَّه، وانقطَع ذلك الكافرُ وبُهِت إذ كان وليُّه هو الطاغوتَ، فصارت هذه القصَّةُ مثَلًا للمؤمنِ والكافر اللَّذينِ تقدَّم ذِكْرُهما[(٣)].

استشهادٌ علىٰ ما ذُكِر مِن أنَّ الكفَرةَ أولياؤهم الطاغوتُ، وتقريرٌ له، كما أنَّ ما بعده استشهادٌ علىٰ وَلايتِهِ تعالىٰ للمؤمنين، وتقريرٌ لها، وإنَّما بُدِئ بهذا لرعايةِ الاقتران بَيْنَه وبين مدلوله، ولاستقلالِه بأمرٍ عجيب حقيقٍ بأن يُصدَّر به المقالُ؛ وهو اجتراؤُه علىٰ المُحاجَّةِ في الله عز وجل، وما أتىٰ بها في أثنائها مِن العظيمةِ المناديةِ بكمال حماقتِه، ولأنَّ فيما بعده تَعْددًا وتفصيلًا يورِثُ تقديمُه انتشارَ النَّظم، علىٰ أنَّه قد أشيرَ في

(١) نظم الدرر (٤/ ٤٧-٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٣١).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٦٢٤).

تضاعيفِه إلىٰ هدايةِ الله تعالىٰ أيضًا بواسطةِ إبراهيمَ؛ عليه السلام فإنَّ ما يُحكَىٰ عنه مِن الدعوةِ إلىٰ الحقِّ وإدحاضِ حُجَّةِ الكفار مِن آثارِ وَلايتِه تعالىٰ(١).

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾

ولمَّا كان الإحياءُ والإماتة مِن أظهَرِ آياتِ الرَّبانيَّة وأخصِّها بها، أظهَرَ سبحانه وتعالى الغَيْرةَ عليها تارةً بإبهاتِ(٢) المُدَّعي للمشاركة، وتارةً بإشهادِ المستبعِدِ في نفسِه وغيرِه بفعلِ ربِّه، وتارةً بإشهاد المسترشِدِ في غيرِه بنفسه، مُعبِّرًا في كلٍّ منها بما اقتضاه حالُه، وأشعَرَ به سؤالُه؛ فعبَّر في الكافرِ بـ«إلىٰ» إشارةً إلىٰ أنَّه في محَلِّ البُعْدِ عن المخاطب صلى الله عليه وسلم، وفي المتعجِّب بإسقاطِها إسقاطًا لذلك البُعْدِ، وفي المسترشِدِ المستطلِع بـ«إذ»، كما هي العادةُ المستمرَّة في أهلِ الصفاءِ والمحبَّة والوفاء، فأتبعَ التَّعجيبَ مِن حالِ المُحاجِج التَّعجيبَ أيضًا مِن حالِ مَن استعظَم إحياءه تعالىٰ لتلك القريةِ(٣).

لمَّا قرَّر بالآيةِ السابقة ثبوتَ انفرادِ الله بالإلهيَّة، وذلك أصلُ الإسلام؛ أعقب بإثباتِ البعث، الذي إنكارُه أصلُ أهلِ الإشراك، فقال تعالىٰ: ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾(٤).

---

(١) إرشاد العقل السليم (١/ ٢٥١).

(٢) أي: إظهار كذبه.

(٣) نظم الدرر (٤/ ٥٣-٥٤).

(٤) التحرير والتنوير (٣/ ٣٤).

استشهادٌ على ما ذكَر مِن وَلايتِه تعالى للمؤمنين، وتقريرٌ له، معطوفٌ على الموصول السابق، وإيثارُ ﴿ أَوْ ﴾ الفارقةِ على «الواوِ» الجامعة؛ للاحتراز عن توهُّمِ اتحادِ المستشهَدِ عليه مِن أولِ الأمر(١).

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾

ولمَّا كان الإيمانُ بالبعث -بل الإيقانُ- مِن المقاصدِ العظمىٰ في هذه السورةِ، وانتهىٰ إلىٰ هذا السياقِ الذي هو لتثبيتِ دعائمِ القُدْرةِ علىٰ الإحياء مع تبايُنِ المناهج، واختلاف الطُّرقِ، فبيَّن أولًا بالردِّ علىٰ الكافر ما يوجِبُ الإيمانَ، وبإشهادِ المتعجِّب ما ختَم الإيقان، عَلَا عن ذلك البيانِ في قصَّةِ الخليل صلوات الله وسلامه عليه إلىٰ ما يُثبِتُ الطُّمأنينةَ، وقد قرَّر ﷻ أمرَ البعثِ في هذه السورةِ بعد ما أشارت إليه الفاتحةُ بـ﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ أحسَنَ تقريرٍ؛ فبثَّ نجومَه فيها خلالَ سماواتِ آياتها، وفرَّق رسومَه في أرجائها بَيْنَ دلائلِها وبيِّناتها، فِعْلَ الحكيمِ الذي يُلقِي ما يريد بالتدريجِ غيرَ عَجِلٍ ولا مقصِّر؛ فكرَّر ﷻ ذِكْرَه بالآخرةِ تارة، والإحياءِ أخرىٰ، تارةً في الدنيا، وتارةً في الآخرةِ في مثلِ قوله: ﴿ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾، ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ﴾، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾، ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾، ﴿ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ﴾، وما كان مِن أمثالِه ونظائره وأشكاله في تلك الأساليبِ المرادة غالبًا بالذاتِ لغيره، فاستأنست أنفُسُ المنكِرين له به، فصار لها استعدادٌ لسماعِ الاستدلال عليه حتىٰ ساقَ لهم أمرَ خليلِه عليه الصلاة والسلام والتحيةُ والإكرام، فكان كأنَّه قيل: يا منكِري البعثِ، ومظهِري العجَبِ منه، ومقلِّدي

(١) إرشاد العقل السليم (١/ ٢٥٢).

الآباءِ في أمرِه بالأخبار التي أكثرُها كاذبٌ! اسمَعوا قصَّةَ أبيكم إبراهيمَ ﷺ التي لقَّاكم بها الاستدلال علىٰ البعثِ وجمعِ المتفرِّق وإعادةِ الرُّوحِ بإخبارِ مَن لا يُتَّهَمُ بشهادةِ القرآن الذي أعجَزكم عن الإتيان بمثلِ شيءٍ منه؛ فشَهادتُه شهادةُ الله؛ لتَصِيروا مِن ذلك علىٰ علمِ اليقين، بل عينِ اليقين، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [1].

ولمَّا كان أمرُ منزلِ القرآنِ إقامةَ الدِّين بمكتوبِه وحدودِه، فأنهاه تعالىٰ منتهًىٰ منه، ثم نظَم به ما نظَم مِن علَنِه في آيةِ الكُرْسيِّ، ورتَّب علىٰ ذلك دِينَ الإسلام الذي هو إلقاءٌ كإلقاءِ اليدِ عند الموت؛ انتظَم به أمر المَعادِ الذي لا مدخَلَ للعبادِ في أمره، فرتَّب سُبحانه وتعالىٰ ذِكْرَ المعادِ في ثلاثةِ أحوال: حالِ الجاحد الذي انتهت غايتُه إلىٰ بَهَتٍ، ثم حالِ المستبعِدِ الذي انتهت غايتُه إلىٰ علمٍ وإيمان، وأنهىٰ الخطابَ إلىٰ حالِ المؤمن الذي انتهىٰ حالُه إلىٰ يقينٍ، وطُمَأنينة، ورؤيةِ ملكوتٍ في ملكوتِ الأرض [2].

معطوفٌ علىٰ قوله: ﴿أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾؛ فهو مثالٌ ثالث لقضيةِ قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآيةَ، ومثالٌ ثانٍ لقضية ﴿أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾؛ فالتقدير: أو هو كإبراهيمَ، ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآيةَ؛ فإنَّ إبراهيمَ عليه السلام لفَرْطِ محبَّتِه الوصولَ إلىٰ مرتبة المعايَنةِ في دليل البعثِ رامَ الانتقالَ مِن العلمِ النظريِّ البرهاني إلىٰ العلمِ الضروريِّ، فسأل اللهَ أن يُرِيَه إحياءَ الموتىٰ بالمحسوس [3].

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٦١).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٦٢).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٣٨).

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها في غايةِ الظُّهور؛ إذ كلاهما أُتِي بها دَلالةً على البعثِ المنسوب إلى الله تعالى في قولِ إبراهيمَ لنُمْرودَ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، لكنَّ المارَّ على القريةِ أراه اللهُ ذلك في نفسِه وفي حمارِه، وإبراهيمَ أراه ذلك في غيرِه، وقُدِّمتْ آيةُ المارِّ على آية إبراهيمَ، وإن كان إبراهيمُ مقدَّمًا في الزمانِ على المارِّ؛ لأنَّه تعجَّب مِن الإحياءِ بعد الموت، وإن كان تعجُّبَ اعتبارٍ، فأشبَهَ الإنكارَ، وإن لم يكُنْ إنكارًا، فكان أقرَبَ إلى قصَّةِ النُّمْرودِ وإبراهيمَ، وأمَّا إن كان المارُّ كافرًا، فظهرت المناسبةُ أقوى ظهورٍ، وأمَّا قصَّةُ إبراهيمَ، فهي سؤالٌ لكيفيَّةِ إراءةِ الإحياء؛ ليشاهِدَ عِيانًا ما كان يَعلَمُه بالقلبِ، وأخبَرَ به نُمْرودَ[(١)].

أنَّه تعالى لم يُسَمِّ عُزَيرًا حين قال: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ﴾، وسمَّى ههنا إبراهيمَ عليه السلام مع أنَّ المقصودَ مِن البحث في كلتا القصَّتينِ شيءٌ واحدٌ؛ والسببُ أنَّ عُزَيرًا لم يَحفَظِ الأدبَ، بل قال: ﴿أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾، وإبراهيمُ عليه السلام حفِظ الأدبَ؛ فإنَّه أثنى على اللهِ أولًا بقولِه: ﴿رَبِّ﴾، ثم دعا حيث قال: ﴿أَرِنِي﴾، وأيضًا أنَّ إبراهيمَ لمَّا راعى الأدبَ، جعَل الإحياءَ والإماتة في الطُّيورِ، وعُزَيرًا لمَّا لم يُراعِ الأدبَ، جعَل الإحياءَ والإماتة في نفسه[(٢)].

أنَّه لمَّا قال إبراهيم لنُمْروذَ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، أحَبَّ أن يَترقَّى مِن علمِ اليقين في ذلك إلى عينِ اليقين، وأن يَرى ذلك مشاهَدةً، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾[(٣)].

---

(١) البحر المحيط (٢/ ٦٤٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ٣٤).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٦٨٩).

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾

ولمَّا انقضىٰ جوابُ السُّؤال عن المَلِكِ الذي لا تنفعُ عنده شفاعةٌ بغير إذنِه، ولا خُلَّةٌ، ولا غيرُهما، وما تَبِع ذلك إلىٰ أن ختَم بقصَّةِ الأطيار التي صغَتْ[(١)] إلىٰ الخليلِ بالإنفاقِ عليها، والإحسانِ إليها؛ ثنَىٰ الكلامَ إلىٰ الأمرِ بالنَّفقة قبل ذلك اليومِ الذي لا تنفعُ فيه الوسائلُ إلا بالوجهِ الذي شرَعه[(٢)].

عَوْدٌ إلىٰ التحريضِ علىٰ الإنفاقِ في سبيل الله؛ فهذا المثَلُ راجعٌ إلىٰ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾، وهو استئنافٌ بياني؛ لأنَّ قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ الآيةَ يُثِيرُ في نفوسِ السامعين الاستشرافَ لِما يَلْقاه المنفِقُ في سبيلِ الله يومئذٍ بعد أن أعقَب بدلائلَ ومواعظَ وعِبَرٍ، وقد تهيَّأتْ نفوسُ السامعين إلىٰ التمحُّضِ لهذا المقصودِ، فأطيلَ الكلامُ فيه إطالةً تناسِبُ أهميَّتَه[(٣)].

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: هي أنَّه لمَّا ذكَر قصَّةَ المارِّ علىٰ قريةٍ وقصَّةَ إبراهيمَ، وكانا مِن أدلِّ دليلٍ علىٰ البعثِ؛ ذكَر ما ينتفِعُ به يومَ البعث، وما يجد جَدْواه هناك؛ وهو الإنفاقُ في سبيل الله[(٤)].

لمَّا بيَّن تعالىٰ أنَّه وليُّ المؤمنين، وأنَّ الكفارَ أولياؤهم الطاغوتُ؛ بيَّن مثَلَ ما يُنفِقُ المؤمنُ في سبيل الله، وما يُنفِق الكافرُ في سبيل الطاغوت[(٥)].

---

(١) أي: مالت.

(٢) نظم الدرر (٤/ ٧٣-٧٤).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٤١).

(٤) البحر المحيط (٢/ ٦٥٢).

(٥) مفاتيح الغيب (٧/ ٣٩).

اعلَمْ أنَّه سبحانه لمَّا ذكَر مِن بيانِ أصول العلم بالمبدأ وبالمَعاد، ومِن دلائلِ صِحَّتِهما ما أراد؛ أتبَع ذلك ببيانِ الشَّرائع والأحكام والتَّكاليف؛ فالحُكْمُ الأول: في بيانِ التكاليفِ المعتبَرة في إنفاق الأموال(١).

إنَّه تعالىٰ لمَّا أجمَلَ في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾، فصَّل بعد ذلك في هذه الآيةِ تلك الأضعافَ؛ وإنَّما ذكَر بَيْنَ الآيتين الأدلةَ علىٰ قُدْرتِه بالإحياء والإماتة مِن حيث لولا ذلك، لم يحسُنِ التكليفُ بالإنفاق؛ لأنَّه لولا وجودُ الإلهِ المُثِيب المعاقِب، لكان الإنفاقُ في سائرِ الطاعات عبثًا، فكأنَّه تعالىٰ قال لِمَن رغَّبه في الإنفاقِ: قد عرَفْتَ أنِّي خلَقْتُك، وأكملتُ نعمتي عليك بالإحياءِ والإقدار، وقد علِمْتَ قُدْرتي علىٰ المُجازاةِ والإثابة؛ فليكُنْ علمُك بهذه الأحوالِ داعيًا إلىٰ إنفاقِ المال؛ فإنَّه يجازي القليلَ بالكثير، ثم ضرَب لذلك الكثيرِ مثَلًا؛ وهو أنَّ مَن بذَر حَبَّةً، أخرَجتْ سَبْعَ سنابلَ، في كلِّ سُنْبلةٍ مائةُ حَبَّةٍ؛ فصارت الواحدةُ سَبْعَمائةٍ(٢).

أنَّه تعالىٰ ضرَب هذا المثَلَ بعد أن احتَجَّ علىٰ الكلِّ بما يوجِبُ تصديقَ النبي ﷺ؛ ليَرغَبوا في المجاهَدةِ بالنفسِ والمال في نُصْرتِه، وإعلاءِ شريعته(٣).

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾

ولمَّا كان الإنسانُ قد يَزرَعُ ما يكون لغيره، بيَّن أنَّ هذا لهم بشرطٍ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٧/ ٣٩).
(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ٣٩).
(٣) مفاتيح الغيب (٧/ ٣٩).
(٤) نظم الدرر (٤/ ٧٦).

ولمَّا كان للخلافةِ، وخصوصًا بالإنفاق، موقعٌ مِن النفس بوجوهٍ ممَّا ينقُصُ التضعيفَ أو يُبطِلُه، كالذي يطرأ على الحَرْثِ الذي ضُرِب به المثَلُ ممَّا ينقُصُ نباتَه أو يستأصِلُه؛ نبَّه تعالى على ما يُبطِل[1].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا عظَّم أمرَ الإنفاق في سبيل الله، أتبَعه ببيانِ الأمور التي يجب تحصيلُها؛ حتى يَبقَى ذلك الثَّوابُ[2].

لمَّا شبَّه تعالى صفةَ المنفِقِ في سبيلِ الله بزارعِ الحَبَّةِ التي أنجَبتْ في تكثيرِ حسناتِه ككثرةِ ما أخرَجتِ الحبَّةُ، وكان ذلك على العمومِ؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ ذلك إنَّما هو لِمَن لا يُتبِعُ إنفاقَه مَنًّا ولا أذًى؛ لأنَّهما مُبطِلانِ للصَّدقة[3].

استئنافٌ جِيءَ به لبيانِ كيفيَّة الإنفاقِ الذي بيَّن فضلَه[4].

﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾

تخلَّص مِن غرضِ التنويهِ بالإنفاق في سبيل الله إلى التنويهِ بضربٍ آخرَ مِن الإنفاقِ؛ وهو الإنفاقُ على المحاويجِ مِن الناس، وهو الصَّدَقات، ولم يتقدَّمْ ذِكْرٌ للصدقةِ، إلا أنَّها تخطُرُ بالبالِ عند ذِكْرِ الإنفاقِ في سبيل الله، فلمَّا وصَف الإنفاقَ في سبيل الله بصفةِ الإخلاص لله فيه بقولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ﴾ الآيةَ، انتقَل بمناسبةِ ذلك إلى طَرْدِ ذلك الوصفِ في الإنفاق على المحتاجين؛ فإنَّ المَنَّ والأذى في الصَّدقةِ أكثَرُ حصولًا؛ لكونِ الصَّدقةِ متعلِّقةً

(١) نظم الدرر (٤/ ٧٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ٤٠).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٦٥٨).

(٤) روح المعاني (٢/ ٣٣).

بأشخاصٍ معيَّنين، بخلافِ الإنفاق في سبيل الله؛ فإنَّ أكثَرَ مَن تنالُهم النَّفقةُ لا يعلمُهم المُنفِق[(١)].

لمَّا ذكَر الإنفاقَ في سبيلِ الله في الآيةِ السابقة، ناسَب أن يذكِّرَ هنا بما يجابُ السائلُ مِن كلامٍ طيِّبٍ، وقولٍ حسَنٍ.

لمَّا ذكَر صدقةَ المالِ وثوابَها، ذكَر بعدها صدقةَ القولِ وثوابَها؛ فقد جاء في الأثرِ: «والكلمةُ الطَّيبة صدقةٌ»[(٢)].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾

ولمَّا شرَط لقَبولِها شرطًا، ووهَّىٰ ما عَرِيَ منها عنه؛ أتبَعه التَّصريحَ بالنهي عن إهماله، والنَّصَّ علىٰ مَحْقِه لها وإبطالِه، وضرَب لذلك مثَلًا، وضرَب للمثَلِ مثَلًا مبالغةً في الزَّجرِ عن ذلك، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[(٣)].

ثم إنَّه تعالىٰ وصَف هذين النَّوعينِ مِن الإنفاق: أحدهما: الذي يَتبَعُه المَنُّ والأذىٰ، والثاني: الذي لا يتبعُه المَنُّ والأذىٰ، فشرَح حالَ كلِّ واحدٍ منهما، وضرَب مثَلًا لكلِّ

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٤٣، ٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٧٨-٧٩).

واحدٍ منهما، فقال في القِسْمِ الأول الذي يتبعُه المَنُّ والأذىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[1].

لمَّا شرط في الإنفاقِ ألا يُتبعَ مَنًّا ولا أذًىٰ، لم يكتفِ بذلك حتىٰ جعَل المَنَّ والأذىٰ مُبطِلًا للصَّدقة، ونهىٰ عن الإبطالِ بهما؛ ليُقوِّيَ اجتنابَ المؤمن لهما؛ ولذلك ناداهم بوصفِ الإيمان، ولمَّا جرىٰ ذِكْرُ المَنِّ والأذىٰ مرَّتين، أعادهما هنا بالألفِ واللام[2].

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾

ولمَّا فرَغ مِن مثَلِ العاري عن الشَّرْطِ، ضرَب للمقترنِ بالشَّرطِ مِن الإنفاق مثَلًا منبِّهًا فيه علىٰ أنَّ غيرَه ليس مُبتغًىٰ به وجهُ الله، فقال: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[3].

عطَف ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ علىٰ ﴿ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾، لزيادةِ بيان ما بَيْنَ المرتبتينِ مِن البَوْنِ، وتأكيدًا للثناءِ علىٰ المنفِقينَ بإخلاصٍ، وتفنُّنًا في التمثيلِ؛ فإنَّه قد مثَّله فيما سلَف بحَبَّةٍ أنبتتْ سَبْعَ سنابلَ، ومثَّله

---

(١) مفاتيح الغيب (٧/ ٤٩).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٦٦٢).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٨١-٨٢).

فيما سلَف تمثيلًا غيرَ كثيرِ التركيب؛ لتحصُلَ السرعةُ بتخيُّلِ مضاعَفة الثواب، فلمَّا مثَّل حالَ المنفِقِ رِئَاءً بالتمثيل الذي مضىٰ، أعيدَ تمثيلُ حالِ المنفِق ابتغاءَ مرضاةِ الله بما هو أعجَبُ في حُسْنِ التخيُّل؛ فإنَّ الأمثالَ تُبهِجُ السامعَ كلمَّا كانت أكثَرَ تركيبًا، وضُمِّنتِ الهيئةُ المشبَّهُ بها أحوالًا حسَنة تكسبُها حُسْنًا؛ ليَسرِيَ ذلك التحسينُ إلىٰ المشبَّهِ؛ وهذا مِن جملةِ مقاصدِ التشبيه(١).

ولمَّا ضرَب مثَلَ مَن أنفَق ماله رِئَاءَ الناس وهو غيرُ مؤمنٍ، ذكَر ضدَّه بتمثيلٍ محسوسٍ للذِّهن؛ حتىٰ يَتصوَّرَ السامعُ تفاوُتَ ما بين الضِّدَّين؛ وهذا مِن بديعِ أساليبِ فصاحة القرآن، ولمَّا وصَف صاحبَ النَّفقةِ بوصفينِ، قابَل ذلك هنا بوصفينِ؛ فقولُه: ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ مقابِلٌ لقوله: ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، وقولُه: ﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ مقابل لقوله: ﴿وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾(٢).

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾

ولمَّا قدَّم ﷻ أنَّ المَنَّ مُبطِلٌ للصَّدقة، ومثَّله بالرِّياء، وضرَب لهما مثَلًا، ورغَّب في الخالصِ، وختَم ذلك بما يصلُحُ للتَّرهيب مِن المَنِّ والرِّياء؛ رجَع إليهما دَلالةً علىٰ الاهتمام بهما؛ فضرَب لهما مثَلًا أوضَحَ مِن السالف، وأشَدَّ في التَّنفير عنهما والبُعْدِ منهما، فقال منكِرًا علىٰ مَن يُبطِلُ عمَلَه كأهلِ مثَلِ الصَّفْوانِ بعد كشفِ الحال بضربِ هذه الأمثالِ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٥٠).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٦٦٥).

تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴾(١).

استئنافٌ بيانيٌّ أثاره ضربُ المثَلِ العجيب للمنفِقِ في سبيل الله بمثَلِ حَبَّةٍ أنبَتتْ سَبْعَ سنابلَ، ومثَلِ جنَّةٍ برَبْوةٍ، إلىٰ آخرِ ما وُصِف مِن المثَلين، ولمَّا أُتبعَ بما يُفيد أنَّ ذلك إنَّما هو للمنفِقِين في سبيل الله الذين لا يُتبِعون ما أنفقوا مَنًّا ولا أذًىٰ، ثم أُتبع بالنَّهي عن أن يُتبِعوا صدَقاتِهم بالمنِّ والأذىٰ؛ استشرَفتْ نفسُ السامع لتلقِّي مثَلٍ لهم يوضِّحُ حالَهم الذَّميمةَ، كما ضُرِب المثَلُ لِمَن كانوا بضدِّ حالِهم في حالةٍ محمودةٍ؛ ضَرَب اللهُ هذا مثَلًا لمقابِلِ مثَلِ النفقة لمرضاةِ الله والتصديقِ؛ وهو نفقةُ الرِّئاءِ، ووجهُ الشَّبه هو حصولُ خَيْبةٍ ويأس في وقتِ تمام الرجاء، وإشرافِ الإنتاج؛ فهذا مقابِلَ قوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ، وقد وصَف الجنَّةَ بأعظَمِ ما يحسُنُ به أحوالُ الجنَّات، وما يُرجَىٰ منه توفُّرُ ريعِها، ثم وصَف صاحبَها بأقصىٰ صفاتِ الحاجة إلىٰ فائدةِ جنَّتِه: بأنَّه ذو عيالٍ؛ فهو في حاجةٍ إلىٰ نفعِهم، وأنَّهم ضعفاءُ؛ أي: صِغارٌ، وقد أصابه الكِبَرُ؛ فلا قدرةَ له علىٰ الكسبِ غيرُ تلك الجنَّةِ؛ فهذه أشَدُّ أحوالِ الحرص(٢).

اعلَمْ أنَّ هذا مثَلٌ آخرُ ذكَره الله تعالىٰ في حقِّ مَن يُتبِعُ إنفاقَه بالمَنِّ والأذىٰ؛ والمعنىٰ: أن يكونَ للإنسان جنَّةٌ في غايةِ الحُسْنِ والنهاية، كثيرةُ النفع، وكان الإنسانُ في غايةِ العجزِ عن الكسب، وفي غايةِ شدة الحاجة، وكما أنَّ الإنسانَ كذلك، فله ذريةٌ أيضًا في غايةِ الحاجة، وفي غايةِ العجزِ، ولا شك أنَّ كونَه محتاجًا أو عاجزًا مَظِنَّةُ الشِّدة

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٥٣).

والمِحنة، وتعلُّقُ جمعٍ مِن المحتاجين العاجزين به زيادةُ محنةٍ علىٰ محنة، فإذا أصبَح الإنسانُ وشاهَد تلك الجنَّةَ مُحرَقةً بالكلية، فانظُرْ كم يكون في قلبه مِن الغَمِّ والحسرة، والمِحنة والبَلِيَّةِ[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾

ولمَّا رغَّب في الفعلِ، وتخليصِه عن الشَّوائب؛ أتبَعه المالَ المُنفَقَ منه؛ فأمَر بطَيِّبِه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[2].

إفضاءٌ إلىٰ المقصود؛ وهو الأمرُ بالصدقات بعد أن قُدِّم بَيْنَ يديهِ مواعظُ وترغيبٌ وتحذير، وهي طريقةٌ بلاغية في الخطابةِ والخطاب، فربما قدَّموا المطلوبَ ثم جاؤوا بما يكسبُه قَبولًا عند السامعين، وربما قدَّموا ما يكسبُ القَبولَ قبل المقصودِ كما هنا؛ وهذا مِن ارتكابِ خلاف مقتضىٰ الظاهرِ في ترتيب الجُمَلِ؛ ونكتةُ ذلك: أنَّه قد شاع بَيْنَ الناسِ الترغيبُ في الصدقةِ، وتكرَّر ذلك في نزولِ القرآن، فصار غرَضًا دِينيًّا مشهورًا، وكان الاهتمامُ بإيضاحِه والترغيب في أحواله والتنفيرِ مِن نقائصِه أجدَرَ بالبيان[3].

---

(١) مفاتيح الغيب (٧/ ٥٠).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٨٩).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٥٥).

اعلَمْ أنَّه رغَّب في الإنفاق، ثم بيَّن أنَّ الإنفاقَ علىٰ قسمين: منه ما يَتبَعُه المَنُّ والأذىٰ، ومنه ما لا يتبعُه ذلك، ثم إنَّه تعالىٰ شرَح ما يتعلقُ بكلِّ واحدٍ مِن هذين القِسمين، وضرَب لكلِّ واحد منهما مثَلًا يكشفُ عن المعنىٰ، ويوضِّحُ المقصودَ منه علىٰ أبلَغِ الوجوه، ثم إنَّه تعالىٰ ذكَر في هذه الآيةِ أنَّ المالَ الذي أمَر بإنفاقِه في سبيل الله كيف ينبغي أن يكونَ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ ﴾(١).

ومناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: هو أنَّه لمَّا ذكَر فضلَ النَّفقةِ في سبيل الله وحَثَّ عليها، وقبَّح المِنَّةَ ونهىٰ عنها، ثم ذكَر القصدَ فيها مِن الرِّياءِ وابتغاءِ رضا الله؛ ذكَر هنا وصفَ المنفِقِ مِن المختار(٢).

بيانٌ لحالِ ما يُنفَقُ منه، إثرَ بيانِ أصل الإنفاق، وكيفيتِه(٣).

بعد أن ذكَر اللهُ فيما سبَق فضيلةَ الإنفاق ابتغاءَ وجهِه، وسوءَ العاقبة لِمَن مَنَّ بصدقتِه أو أنفَق رياءً؛ حَثَّ علىٰ الإنفاقِ، لكنَّ الفرقَ بَيْنَ ما هنا وبين ما سبَق أنَّ ما هنا بيانٌ للذي يُنفَقُ منه، وهناك بيانٌ للذي يُنفَق عليه(٤).

﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ ﴾

ولمَّا رغَّب ﷻ في الإنفاقِ، وختَم آياتِه بما يقتضي الوعدَ مِن أصدَقِ القائلين بالغنىٰ والإثابةِ في الدارين؛ أتبَعه بما للعدوِّ الكاذب مِن ضدِّ ذلك، فقال محذِّرًا مِن البُخل - في جوابِ مَن كأنَّه قال: هذا ما لا يُشَكُّ فيه؛ فما للنُّفوس لا توجَدُ غالبًا إلا شحيحةً

(١) مفاتيح الغيب (٧/ ٥٢).
(٢) البحر المحيط (٢/ ٦٧٦).
(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ٢٦١).
(٤) تفسير ابن عثيمين (٣/ ٣٣٨).

بالإنفـــاقِ؟!-: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾[١].

استئنافٌ عن قوله: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ ﴾؛ لأنَّ الشيطانَ يصُدُّ الناسَ عن إعطاءِ خيار أموالهم، ويُغْريهم بالشحِّ أو بإعطاءِ الرَّديء والخبيث، ويخوِّفُهم مِن الفقر إن أعطَوْا بعضَ مالهم، وقدَّم اسمَ الشيطان مسنَدًا إليه؛ لأنَّ تقديمَه مؤذِنٌ بذمِّ الحُكْمِ الذي سِيقَ له الكلامُ، وشؤمِهِ؛ لتحذيرِ المسلمين مِن هذا الحكم[٢].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا رغَّب الإنسانَ في إنفاقِ أجوَدِ ما يَملِكُه، حذَّره بعد ذلك مِن وسوسةِ الشَّيطان[٣].

لمَّا ذكَر الخبيثَ مِن الكسبِ في الآية السابقة في قوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ ﴾، ناسَب أن يذكُرَ الخبيثَ مِن الخَلْقِ ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾.

﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾

ولمَّا انقضىٰ الكلامُ في الإنفاق والمال المُنفَق علىٰ هذا الأسلوبِ الحكيم تصريحًا وتلويحًا، وختَم ذلك بهاتين الصِّفتينِ، وتضمَّن ذلك مع التَّصريحِ بأنَّه عليمٌ أنَّه حكيمٌ؛ أتبَع ذلك الوصفَ بأنَّ مِن سَعَتِه وعلمِه وحِكْمته أنَّه يهَبُ مِن صفاتِه ما يشاء لِمَن يشاء؛ بأن يؤتيَهُ الحِكْمةَ، فيُوقِفَه علىٰ علمِ ما خَفِيَ مِن هذه الأمثالِ المُتقَنة والأقوال الحسَنة تصريحًا وتلويحًا، ويُوفِّقَه للعملِ بذلك إنشاءً وتصحيحًا، فقال تعالىٰ منبِّهًا علىٰ ترجيحِ العمل بأمرِ الرحمن وقَبولِ وعدِه بأنَّه علىٰ مقتضىٰ العقلِ

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٩١).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٥٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٧/ ٥٥).

والحِكْمة، وأنَّ أمرَ الشيطانِ ووعدَه على وَفْقِ الهوى والشهوة: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١).

ولمَّا أبدى سبحانه وتعالى أمرَ الآخرةِ، وأظهَرَ ما فيها، وبيَّن أمرَ الدنيا مِن الترتيبِ والتسبيب، ورَجْعِ بعضِها على بعضٍ عَوْدًا على بَدْءٍ؛ أنبأ تعالى أنَّ ذلك مِن حِكْمتِه، وأنهى الحكمةِ؛ لِما فيها مِن استيفاءِ حكمةِ الدارين؛ فليس الحكيمُ مَن عَلِم أمرَ الدنيا، بل مَن عَلِم أمرَ ما بَيْنَ الدنيا والآخرةِ؛ فداوى أدواءَ الدنيا بدواءِ الآخرة، وداوى النفسَ بدواءِ الدارين، وضَمَّ جوامعَها في تيسيرِ الكَلِمِ كما ضَمَّها لِمَن اصطفاه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٢).

هذه الجملةُ اعتراضٌ وتذييل لِما تضمَّنته آياتُ الإنفاق مِن المواعظِ والآداب وتلقينِ الأخلاق الكريمة، ممَّا يكسبُ العاملين به رجاحةَ العقل، واستقامةَ العمل؛ فالمقصودُ التنبيهُ إلى نفاسةِ ما وعَظهم اللهُ به، وتنبيهُهم إلى أنَّهم قد أصبَحوا به حُكَماءَ بعد أن كانوا في الجاهليةِ جُهَلاءَ(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا ذكَر في الآيةِ المتقدِّمة أنَّ الشَّيطانَ يَعِدُ بالفقرِ ويأمر بالفحشاء، وأنَّ الرحمنَ يَعِدُ بالمغفرةِ والفضل؛ نبَّه على أنَّ الأمرَ الذي لأجلِه وجَب ترجيحُ وعدِ الرحمن على وعدِ الشَّيطان هو أنَّ وعدَ الرحمن ترجِّحُه الحكمةُ والعقل، ووعدَ الشَّيطانِ ترجِّحُه الشَّهوةُ والنَّفس مِن حيث إنَّهما يأمرانِ بتحصيلِ اللَّذَّة الحاضرة، واتِّباعِ أحكام الخيال والوَهْمِ، ولا شكَّ أنَّ حُكْمَ الحِكْمةِ والعقل هو الحكمُ الصادق المبرَّأ عن الزَّيْغِ والخَلَل، وحُكْمَ الحسِّ والشَّهوة والنَّفس توقِع

(١) نظم الدرر (٤/ ٩٤).
(٢) نظم الدرر (٤/ ٩٤).
(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٦٠).

الإنسانَ في البلاء والمحنة، فكان حُكْمُ الحِكْمةِ والعقل أَوْلىٰ بالقَبول؛ فهذا هو الإشارةُ إلىٰ وجهِ النَّظم (١).

لمَّا أَمَر تعالىٰ بهذه الأوامرِ العظيمة المشتمِلة علىٰ الأسرار والحِكَم، وكانت معرفةُ ذلك لا تحصُلُ لكلِّ أحدٍ؛ بل لِمَن مَنَّ اللهُ عليه فآتاه الحِكْمةَ، ولمَّا ذكَر أحوالَ المنفِقِينَ للأموال، وأنَّ اللهَ أعطاهم، ومَنَّ عليهم بالأموالِ التي يُدرِكون بها النَّفقاتِ في مسالكِ الخيرات، وينالون بها سَنِيَّ المقاماتِ؛ ذكَر ما هو أفضَلُ مِن ذلك، فبَذْلُ النَّفقاتِ المالية التي سبَق ذِكْرُها، وبَذْلُ الحِكْمةِ العلميَّة مِن أفضَلِ ما يتقرَّب به المتقرِّبون إلىٰ الله تعالىٰ؛ كما جاء عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا حسَدَ إلا في اثنتينِ: رجلٌ آتاه الله مالًا، فسلَّطه علىٰ هلكَتِه في الحقِّ، ورجلٌ آتاه اللهُ الحِكْمةَ، فهو يقضي بها ويُعلِّمُها» (٢)(٣).

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾

ولمَّا كان السِّياقُ سابقًا ولاحقًا للإنفاق، عُلِم أنَّ التَّقديرَ: فما جمَعتُم مِن شيءٍ، فإنَّ اللهَ مُطالِبُكم في وضعِه وجمعِه بوجهِ الحكمة، ومحاسِبُكم علىٰ ذلك، فعطَف عليه -حثًّا علىٰ الإسرارِ بالنَّفقة في الخيرِ والوفاء بالنَّذر، وتحذيرًا مِن الإنفاقِ في المعصية، ولو علىٰ أدقِّ الوجوهِ، بأنَّه يَعلَم ذلك كلَّه ويُجازي عليه- قولَه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٧/ ٥٧).
(٢) أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦).
(٣) تفسير السعدي (ص: ١١٥).
(٤) نظم الدرر (٤/ ٩٧).

تذييلٌ للكلام السابق المسُوقِ للأمرِ بالإنفاق، وصفاتِه المقبولة، والتحذيرِ مِن المثبِّطات عنه ابتداءً مِن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾؛ والمقصودُ مِن هذا التذييلِ: التذكيرُ بأنَّ الله لا يَخفَىٰ عليه شيءٌ مِن النفقاتِ وصفاتها، وأُدمِجَ النَّذْرُ مع الإنفاقِ؛ فكان الكلامُ جديرًا بأن يكونَ تذييلًا(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ الإنفاقَ يجب أن يكونَ مِن أجوَدِ المال، ثم حثَّ أولًا بقولِه: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ﴾، وثانيًا بقولِه: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾؛ حثَّ عليه ثالثًا بقولِه: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾(٢).

فهذه الآيةُ بيانٌ لحُكْمٍ كليٍّ شامل لجميعِ أفراد النفقات، أو ما في حُكْمِها، إثْرَ بيانِ حُكْمِ ما كان منها في سبيلِ الله تعالىٰ(٣).

﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾

ولمَّا كان حالُ الإنفاقِ المحثوثِ عليه يختلفُ بالسِّرِّ والجهرِ فكان ممَّا يُسأل عنه، قال ﷻ حاثًّا علىٰ الصَّدقةِ في كلتا الحالتينِ مع ترجيحِ الإسرار -لِما فيه مِن البُعْدِ عن الرياء-: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٦٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ٥٩).

(٣) روح المعاني (٢/ ٤٢).

(٤) نظم الدرر (٤/ ٩٩).

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾؛ إذ أشعرَ تعميمُ ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾ بحالِ الصَّدَقات الخفيَّة، فيَتساءل السامعُ في نفسِه: هل إبداءُ الصَّدَقاتِ يُعَدُّ رياءً وقد سَمِع قبل ذلك قولَه: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، ولأنَّ قولَه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ قد كان قولًا فصلًا في اعتبارِ نيَّاتِ المتصدِّقين، وأحوالِ ما يُظهِرونه منها وما يُخفُونه مِن صدَقاتِهم؟ فهذا الاستئنافُ يَدفَع توهُّمًا مِن شأنِه تعطيلُ الصَّدَقات والنفقات؛ وهو أن يُمسِكَ المرءُ عنها إذا لم يَجِدْ بُدًّا مِن ظهورها، فيَخشىٰ أن يُصِيبَه الرياءُ[١].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن أولًا أنَّ الإنفاقَ منه ما يَتبَعُه المَنُّ والأذىٰ، ومنه ما لا يكون كذلك، وذكَر حُكْمَ كلِّ واحدٍ مِن القِسمين، ثم ذكَر ثانيًا أنَّ الإنفاقَ قد يكون مِن جيدٍ ومِن رديءٍ، وذكَر حُكْمَ كلِّ واحدٍ مِن القسمينِ، وذكَر في هذه الآيةِ أنَّ الإنفاقَ قد يكون ظاهرًا وقد يكون خفيًّا، وذكَر كلَّ واحدٍ مِن القسمين[٢].

لمَّا بيَّن تعالىٰ فضلَ الإنفاقِ في سبيله وحَثَّ عليه، وحذَّرنا مِن الجُنوحِ إلىٰ نزَغاتِ الشيطان، وذكَّرنا بوعدِ الله الجامعِ لسعادةِ الآخرة والدنيا مِن المغفرةِ والفضل، وبيَّن أنَّ هذا الأمرَ والفرقَ بَيْنَ الوعدَينِ لا يُدرِكُه إلا مَن تخصَّص بالحِكْمةِ التي يؤتيها اللهُ مَن يشاء مِن عبادِه؛ رجَع إلىٰ ذِكْرِ النفقةِ والحثِّ عليها، وأنَّها موضوعةٌ عند مَن لا يَنسىٰ ولا يسهو، وصار ذِكْرُ الحِكْمةِ مع كونه متعلِّقًا بما تقدَّم كالاستطرادِ، والتنويهِ بذِكْرِها، والحثِّ علىٰ معرفتها[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٦٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ٦١).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٦٨٨).

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾

ولمَّا حَثَّ ﷻ على وجوهِ الخير، ورغَّب في لزومِ الهدىٰ، وكان أكثَرُهم مُعرِضين؛ لأنَّ ما دعا إليه هادمٌ لِما جُبلوا عليه مِن الحُبِّ لتوفيرِ المال، والحفيظةِ على النَّفس، وكان ﷺ شديدَ الأسفِ عليهم، دائمَ القلقِ مِن أجلِهم؛ لعظيمِ رحمتِه لهم، وشفقتِه عليهم، فكان يجدُ مِن تقاعدِهم عمَّا يدعوهم إليه مِن هذه الحالةِ العليَّة التي هي حِكْمةُ الله التي رأسُها الإيمانُ بالله واشتراءُ الآخرةِ بكليَّةِ الدُّنيا وَجْدًا شديدًا: خفَّض ﷻ عليه الأمرَ، وخفَّف عليه الحالَ، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾(١).

استئنافٌ معترَضٌ به بَيْنَ قولِه: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ وبين قولِه: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾، ومناسبتُه هنا أنَّ الآياتِ المتقدِّمةَ يلُوحُ مِن خلالها أصنافٌ مِن الناس: منهم الذين يُنفِقون أموالَهم رِئاءَ الناس ولا يؤمنون باللهِ ولا باليوم الآخِر، ومنهم الذين يُبطِلون صدَقاتِهم بالمَنِّ والأذىٰ، ومنهم الذين يَتيمَّمون الخبيثَ منه يُنفِقون، ومنهم مَن يَعِدُهم الشيطانُ الفقرَ ويأمرهم بالفحشاءِ، وكان وجودُ هذه الفِرَقِ ممَّا يثقُلُ على النبيِّ ﷺ؛ فعقَّب اللهُ ذلك بتسكينِ نفسِ رسوله، والتهوينِ عليه: بأنْ ليس عليه هُدَاهم، ولكنْ عليه البلاغُ(٢).

---

(١) نظم الدرر (٤/ ١٠٠-١٠١).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٦٩).

هذا هو الحُكْمُ الرابع مِن أحكامِ الإنفاق؛ وهو بيانُ أنَّ الذي يجوزُ الإنفاقُ عليه مَن هو؟(١).

ومناسبة تعلُّقِ هذه الجملةِ بما قبلها: أنَّه لمَّا ذكَر تعالىٰ قولَه: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ الآيةَ، اقتضىٰ أنَّه ليس كلُّ أحدٍ آتاه اللهُ الحِكْمةَ، فانقسَم الناسُ مِن مفهومِ هذا إلىٰ قسمينِ: مَن آتاه اللهُ الحكمةَ فهو يعملُ بها، ومَن لم يؤتِهِ إيَّاها فهو يَخبِطُ عَشْواءَ في الضَّلالِ؛ فنبَّه بهذه الآيةِ أنَّ هذا القِسْمَ ليس عليك هُداهم، بل الهدايةُ وإيتاء الحِكْمةِ إنَّما ذلك إلىٰ الله تعالىٰ؛ ليَتسلَّىٰ بذلك في كونِ هذا القسمِ لم يحصُلْ له السَّعادةُ الأبديَّة، وليُنبِّهَ علىٰ أنَّهم -وإن لم يكونوا مهتدِين- تجوزُ الصَّدقةُ عليهم(٢).

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾

ولمَّا كان غالبُ هذه الأحكامِ التي ذُكِرتْ في الإنفاقِ مِن أجل المحاويجِ، وكان ما مضىٰ شاملًا للمؤمنِ وغيرِه؛ بيَّن أنَّ محَطَّ القصدِ في الحثِّ عليها المؤمنُ؛ قال ﷻ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (٧/ ٦٥).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٦٩٤).

(٣) نظم الدرر (٤/ ١٠٤).

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿ تُنفِقُونَ ﴾ الأخيرةِ، وتعلُّقُه به يؤذِنُ بتعلُّق معناه بنظائرِه المقدَّمة؛ فما مِن نفقةٍ ذُكِرتْ آنفًا إلا وهي للفقراء؛ لأنَّ الجُمَلَ قد عضَدَ بعضُها بعضًا[١].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن في الآيةِ الأُولىٰ أنَّه يجوز صرفُ الصَّدقة إلىٰ أيِّ فقيرٍ كان، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ الذي يكونُ أشدَّ الناسِ استحقاقًا بصرفِ الصَّدقة إليه مَن هو؟[٢].

ثم ذكَر مَصرِفَ النفقاتِ الذين هم أَوْلىٰ الناسِ بها، فوصَفهم بسِتِّ صفاتٍ، فقال: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾[٣].

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾

ولمَّا حضَّ علىٰ النَّفقةِ فأكثَرَ، وضرَب فيها الأمثالَ وأطنَبَ في المقال، ولم يُعيِّنْ لها وقتًا؛ كان كأنَّ سائلًا قال: في أيِّ وقتٍ تُفعَل؟ فبيَّن في آيةٍ جامعةٍ لأصنافِ الأموال والأزمان والأحوال أنَّها حسَنةٌ في كلِّ وقتٍ، وعلىٰ كلِّ حالٍ، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٧٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ٦٧).

(٣) تفسير السعدي (ص: ١١٦).

(٤) نظم الدرر (٤/ ١٠٦).

جملةٌ مستأنفةٌ تُفيد تعميمَ أحوالِ فضائلِ الإنفاق بعد أن خُصِّص الكلامُ بالإنفاق: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1].

في كيفيَّةِ النَّظمِ أقوالٌ: الأول: لمَّا بيَّن في هذه الآيةِ المتقدِّمة أنَّ أكمَلَ مَن تُصرَف إليه النَّفقةُ مَن هو، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ أكمَلَ وجوهِ الإنفاق كيف هو، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾. والثاني: أنَّه تعالىٰ ذكَر هذه الآيةَ لتأكيدِ ما تقدَّم مِن قوله: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ﴾. والثالث: أنَّ هذه الآيةَ آخِرُ الآياتِ المذكورة في أحكامِ الإنفاق؛ فلا جرَمَ أرشَدَ الخَلْقَ إلىٰ أكمَلِ وجوهِ الإنفاقات[2].

ثم ذكَر حالةَ المتصدِّقين في جميعِ الأوقات علىٰ جميعِ الأحوال، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3].

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾

ولمَّا كان ﷻ قد ذكَر النَّفَقةَ ممَّا أفاض عليهم مِن الرِّزق مِن أول السُّورةِ إلىٰ هنا في غيرِ آيةٍ، ورغَّب فيها بأنواعٍ مِن التَّرغيب، في فنونٍ مِن الأساليب، وكان الرِّزقُ يَشمل

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٧٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ٧١).

(٣) تفسير السعدي (ص: ١١٦).

الحلالَ والحرام، وكان ممَّا يَسترزقون به قبل الإسلام الرِّبا، وهو أخذٌ مجَّانًا، وهو في الصُّورةِ زيادةٌ، وفي الحقيقةِ نقصٌ وعيبٌ، ضدُّ ما تقدَّم الحثُّ عليه مِن الإعطاء مجَّانًا، وهو في الظاهرِ نقصٌ، وفي الباطنِ زيادةٌ وخيرٌ؛ نهاهم عن تَعاطيه، ونفَّرهم منه، وبيَّن لهم حُكْمَه، وأنَّه خبيثٌ، لا يصلُحُ لأكلٍ ولا صدقةٍ، وجعَل ذلك في أسلوبِ الجواب لِمَن قال: هل يكون النفقةُ المحبوبة المحثوث عليها مِن كلِّ مالٍ؟ فأجاب بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[١].

ولمَّا كان حالُ المنفِقِ -لا سيَّما المبتغي وجهَ اللهِ تعالى- أفضَلَ الأحوالِ، وهو الحالُ الذي دُعُوا إليه؛ نظَم به أدنى الأحوالِ، وهو الذي يُتوسَّل به إلى الأموالِ بالرِّبا؛ فأفضَلُ الناس المنفِقُ، وشَرُّ الناسِ المُرْبِي، فنظَم به خطابَ الرِّبا، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٢].

نظَم القرآنُ أهَمَّ أصولِ حفظِ مال الأمَّة في سِلْكِ هاته الآياتِ؛ فبعد أنِ ابتدأ بأعظَمِ تلك الأصول؛ وهو تأسيسُ مالٍ للأمَّة به قِوامُ أمرها، يؤخَذُ مِن أهلِ الأموال أخذًا عَدْلًا، ممَّا كان فضلًا عن الغِنى، ففرَضه على الناسِ؛ يؤخَذ مِن أغنيائهم، فيُرَدُّ على فقرائهم[٣]، سواءٌ في ذلك ما كان مفروضًا، وهو الزكاةُ، أو تطوعًا، وهو الصَّدقةُ،

---

(١) نظم الدرر (٤/ ١٠٩).

(٢) نظم الدرر (٤/ ١٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩).

فأطنَب في الحثِّ عليه والتَّرغيبِ في ثوابه والتَّحذيرِ في إمساكه ما كان فيه موعظةٌ لِمَن اتَّعَظ: عطَف الكلامَ إلىٰ إبطالِ وسيلةٍ كانت مِن أسبابِ ابتزاز الأغنياء أموالَ المحتاجِين إليهم؛ وهي المعاملةُ بالرِّبا، الذي لقَّبه النبيُّ ﷺ رِبَا الجاهليَّة[1]؛ وهو أن يُعطِيَ المَدِينُ مالًا لدائنه زائدًا علىٰ قدرِ الدَّين لأجلِ الانتظار، فإذا حَلَّ الأجلُ ولم يَدفَعْ، زاد في الدَّينِ، يقولون: إمَّا أن تَقضِيَ، وإمَّا أن تُربِيَ، وقد كان ذلك شائعًا في الجاهليَّة[2].

اعلَمْ أنَّ بَيْنَ الرِّبا وبين الصدقةِ مناسبةً مِن جهةِ التضاد؛ وذلك لأنَّ الصدقةَ عبارةٌ عن تنقيصِ المال بسببِ أمر الله بذلك، والرِّبا عبارةٌ عن طلبِ الزيادة علىٰ المال مع نَهْيِ الله عنه؛ فكانا متضادَّينِ؛ ولهذا قال اللهُ تعالىٰ: ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾، فلمَّا حصَل بَيْنَ هذين الحُكْمَينِ هذا النوعُ مِن المناسبة، لا جرَمَ ذكَر عَقِيبَ حُكْمِ الصدقاتِ حُكْمَ الرِّبا[3].

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّ ما قبلها واردٌ في تفضيلِ الإنفاق والصَّدقة في سبيل الله، وأنَّه يكونُ ذلك مِن طيِّبِ ما كسَب، ولا يكون مِن الخبيثِ، فذُكِر نوعٌ غالب عليهم في الجاهليَّة، وهو خبيثٌ؛ وهو: الرِّبا؛ حتىٰ يمتنِعَ مِن الصَّدقة بما كان مِن رِبًا، وأيضًا فتظهرُ مناسبةٌ أخرىٰ؛ وذلك أنَّ الصَّدَقاتِ فيها نقصانُ مالٍ، والرِّبا فيه زيادةُ مالٍ، فاستطرَد مِن المأمور به إلىٰ ذِكْرِ المَنْهيِّ عنه؛ لِما بينهما مِن مناسبةِ ذِكْرِ التَّضادِّ، وأبدىٰ لأكلِ الرِّبا صورةً تستبشِعُها العربُ علىٰ عادتها في ذِكْرِ ما استغرَبَتْهُ واستوحَشتْ منه[4].

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٧٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٧/ ٧٢).

(٤) البحر المحيط (٢/ ٧٠٤).

لمَّا ذكَر تعالىٰ الأبرارَ المؤدِّين النَّفقاتِ، المخرِجين الزَّكَواتِ، المتفضِّلين بالبِرِّ والصِّلات لذوي الحاجات والقرابات، في جميعِ الأحوال والآنات؛ شرَع في ذِكْرِ أكَلةِ الرِّبا وأموالِ الناس بالباطل وأنواعِ الشُّبهات، فأخبَر عنهم يومَ خروجهم مِن قبورِهم، وقيامِهم منها إلىٰ بَعْثِهم ونشورهم (١).

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦ ﴾

ولمَّا كان المرغِّبُ في الرِّبا ما فيه مِن الرِّبح الناجز المشاهَد، والمفتِّرُ عن الصَّدقة كونَها نقصًا محقَّقًا بالحسِّ؛ بيَّن أنَّ الرِّبا وإن كان بصورةِ الزيادة فهو نقصٌ، وأنَّ الصَّدقةَ وإن كانت بصورة النَّقص فهي زيادةٌ؛ لأنَّ ذلك إنَّما هو بيدِه ﷻ، فما شاء محَقَهُ وإن كان كثيرًا، أو ما أراد نمَّاه وإن كان يسيرًا، فقال كالتعليلِ للأمر بالصدقة والنهيِ عن الربا ولكونِ فاعله مِن أهل النارِ: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (٢).

استئنافٌ لبيانِ سُوءِ عاقبة الرِّبا في الدُّنيا بعد أن بُيِّنَتْ عاقِبتُه في الآخرةِ؛ فهو استئنافٌ بيانيٌّ لتوقُّعِ سؤالِ مَن يَسأل عن حالِ هؤلاء الذين لا ينتهون بموعظةِ الله (٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بالَغ في الزَّجرِ عن الرِّبا، وكان قد بالَغ في الآياتِ المتقدِّمة في الأمرِ بالصَّدقات؛ ذكَر ههنا ما يَجري مَجرىٰ الدُّعاء إلىٰ تَرْكِ الصَّدقاتِ وفعلِ الرِّبا، وكشَف عن فسادِه؛ وذلك لأنَّ الدَّاعيَ إلىٰ فعلِ الرِّبا تحصيلُ المزيدِ في الخيرات، والصارفَ عن الصَّدقات الاحترازُ عن نقصانِ الخير، فبيَّن تعالىٰ أنَّ الرِّبا وإن كان

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٧٠٨).

(٢) نظم الدرر (٤/ ١٣٣-١٣٤).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٩١).

في زيـادةٍ في الحـالِ إلا أنَّـه نقصـانٌ في الحقيقـة، وأنَّ الصَّـدقةَ وإن كانـت نقصـانًا في الصُّورةِ إلا أنَّها زيـادةٌ في المعنىٰ، ولمَّـا كـان الأمـرُ كـذلك، كـان اللائـقُ بالعاقـل ألا يلتفِتَ إلىٰ ما يقضي به الطَّبعُ والحسُّ مِن الـدَّواعي والصَّـوارفِ، بـل يُعـوِّلُ علـىٰ مـا ندَبه الشَّرعُ إليه مِن الدَّواعي والصَّوارفِ؛ فهذا وجهُ النَّظم(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧﴾

ولمَّا بيَّن تعالىٰ ما سلَبه عن الكافرين مِن محبَّتِه، أتبَعه ما أثبَته للمـؤمنين المصـدِّقين مِن رحمةٍ، الملوِّحِ إليهم فيما قبلُ بالعطفِ علىٰ غيرِ معطوفٍ عليـه ظـاهرٍ كمـا تقـدَّم آنفًا علىٰ وجهٍ لم يُخْلِهِ مِن ذِكْرِ النَّفقةِ، فقال تعالىٰ مشيرًا إلـىٰ قسـيمِ ﴿وَمَنۡ عَادَ﴾: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾(٢).

جملةٌ معترضـة لمقابَلـةِ الـذمِّ بالمـدح، وقـد تقـدَّم تفسيرُ نظيرتهـا قريبًـا؛ والمقصـودُ التعريضُ بأنَّ الصـفاتِ المقابِلـةَ لهاتـه الصـفاتِ صـفاتُ غيـرِ المـؤمنين، والمناسـبةُ تزداد ظهورًا لقوله: ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾(٣).

اعلَمْ أنَّ عادةَ الله في القرآنِ مطَّردةٌ بأنَّه تعالىٰ مهما ذكَر وعيدًا، ذكَر بعده وعـدًا، فلمَّـا بالَغ هاهنا في وعيدِ المُرابي، أتبَعه بهذا الوعدِ(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٧/ ٨٠).

(٢) نظم الدرر (٤/ ١٣٦).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٩٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٧/ ٨١).

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها واضحةٌ؛ وذلك أنَّه لمَّا ذكَر حالَ آكلِ الرِّبا، وحالَ مَن عاد بعد مجيءِ الموعظةِ، وأنَّه كافرٌ أثيم؛ ذكَر ضدَّ هؤلاء ليبيِّنَ فَرْقَ ما بَيْنَ الحالينِ[(١)].

لمَّا ذكَر أَكَلةَ الرِّبا، وكان مِن المعلوم أنَّهم لو كانوا مؤمنين إيمانًا ينفعُهم لم يصدُرْ منهم ما صدَر؛ ذكَر حالةَ المؤمنين وأجرَهم؛ فإنَّ أكبَرَ الأسبابِ لاجتنابِ ما حرَّم اللهُ تعالىٰ مِن المكاسبِ الرِّبَويَّة تكميلُ الإيمانِ وحقوقِه، خصوصًا إقامةَ الصلاة، وإيتاءَ الزكاة؛ فإنَّ الصلاةَ تَنهىٰ عن الفحشاءِ والمنكَر، والزكاةَ إحسانٌ إلىٰ الخَلْقِ، وهذا يُنافي تَعاطيَ الرِّبا، الذي هو ظُلْمٌ لهم[(٢)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٧٨ ﴾

ولمَّا كانت نتيجةُ الآيةِ الماضية في الاعتمادِ علىٰ ما عند الله ﷻ مِن الأجرِ وعدمِ الحُزْنِ علىٰ ما فات مِن رِبًا وغيرِه، والخوفِ مِن شيءٍ آتٍ مِن فقرٍ أو غيره؛ ترَكَ كلَّ شيءٍ يُنسَب إلىٰ الرِّبا، وكان بَيْنَ أهلِ الإسلام وأهل الجاهليَّةِ وبَيْنَ بعضِهم وبعضٍ معاملاتٌ في الجاهليَّة ربويَّةٌ لم تَتِمَّ بعدُ؛ بيَّن أمرَها نفيًا لِما قد يُتوهَّم مِن قوله سابقًا: ﴿ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾ مِن تحليلِ بقايا الرِّبا، وأنَّ النَّهيَ خاصٌّ بما تجدَّد منه، فقال مخاطِبًا لأقرَبِ مَن ذكَره ممَّن تلبَّسَ بالإيمان، ولم يلتفِتْ إلىٰ غيرهم تشريفًا لهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[(٣)].

قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ إفضاءٌ إلىٰ التشريعِ بعد أن قدَّم أمامه مِن الموعظةِ ما هيَّأ النفوسَ إليه. فإن كان قولُه: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ

---

(١) البحر المحيط (٢/ ٧١١).

(٢) تفسير السعدي (ص: ١١٧).

(٣) نظم الدرر (٤/ ١٣٩).

﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ مِن كلامِ الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ فظاهرٌ، وإن كان مِن كلامِ الله تعالىٰ فهو تشريعٌ وقَع في سياقِ الردِّ، فلم يكتفِ بتشريعٍ غيرِ مقصود؛ ولذا احتِيجَ إلىٰ هذا التشريعِ الصريح المقصود، وما تقدَّم كلُّه وصفٌ لحالِ أهل الجاهلية، وما بَقِيَ منه في صدرِ الإسلام قبل التحريم، وأُمِروا بتقوىٰ اللهِ قبل الأمر بتركِ الرِّبا؛ لأنَّ تقوىٰ اللهِ هي أصلُ الامتثالِ والاجتنابِ، ولأنَّ تَرْكَ الرِّبا مِن جملتِها، فهو كالأمرِ بطريقٍ برهانيٍّ[(١)].

لمَّا بيَّن في الآيةِ المتقدِّمة أنَّ مَن انتهىٰ عن الرِّبا فله ما سلَف، فقد كان يجوزُ أن يُظَنَّ أنَّه لا فَرْقَ بَيْنَ المقبوضِ منه وبين الباقي في ذمَّةِ القوم، فقال تعالىٰ في هذه الآيةِ: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾[(٢)].

ولما كان يجوز أن يُظَنَّ أنَّ الممنوعَ هو إنشاءُ عَقْدٍ رِبَويٍّ بعد التحريمِ؛ أزال تعالىٰ هذا الاحتمالَ بأن أمَر بتَرْكِ ما بَقِيَ مِن الرِّبا في العقودِ السابقة قبل التَّحريمِ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[(٣)].

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾

ولمَّا كان مِن حقِّ مَن عانَد السَّيدَ الأخذُ، سبَّب عن ذلك قولَه: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٩٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ٨٢).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٧١٢).

(٤) نظم الدرر (٤/ ١٣٧-١٣٨).

ثم توعَّدَهم تعالىٰ - إن لم يَذْروا الرِّبا - بحربٍ مِن اللهِ ورسوله، والحربُ داعيةُ القتلِ، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (١).

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾

ولمَّا كان الناسُ منقسِمين إلىٰ مُوسِرٍ ومُعسِرٍ -أي: غنيٍّ وفقيرٍ-، كان كأنَّه قيل: هذا حُكْمُ المُوسِرِ، ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢).

عطفٌ علىٰ قوله: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾؛ لأنَّ ظاهرَ الجواب أنَّهم يَسترجعونها مُعجَّلةً؛ إذ العقودُ قد فُسِخت، فعطَف عليه حالةً أخرىٰ (٣).

لمَّا حكَم سبحانه لأهلِ الرِّبا برؤوس أموالهم عند الواجدين للمالِ، حكَم في ذَوِي العُسْرةِ بالنَّظَرِ إلىٰ يَسارٍ (٤).

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

ولمَّا كان مِن المعلوم أنَّه لا يَدفَعُه حُجَّةٌ، كان التَّقديرُ: فامتثِلوا ما أُمِرتم به، واجتنِبوا ما نُهِيتم عنه، فعطَف عليه تخويفًا مِن يوم العرضِ عليه، والمجازاةِ بَيْنَ يديه، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥).

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ٣٧٤).

(٢) نظم الدرر (٤/ ١٤٠).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٩٥).

(٤) فتح القدير (١/ ٣٤١-٣٤٢).

(٥) نظم الدرر (٤/ ١٤٣-١٤٤).

لمَّا أنهىٰ الخطابَ بأمرِ الدِّين وعلَنِه، وأمرِ الآخرة علىٰ وجوهِها، وإظهارِ حِكْمتِها المرتبطةِ بأمر الدنيا، وبيَّن أمرَ الإنفاقِ والرِّبا الذي هو غايةُ أمر الدِّين والدنيا في صلاحِهما، وأنهىٰ ذلك إلىٰ الموعظةِ بموعودِ جزائه في الدنيا والآخرةِ؛ أجمَلَ الموعظةَ بتقوىٰ يومِ الرَّجْعةِ إلىٰ إحاطةِ أمره؛ ليقعَ الخَتْمُ بأجمَلِ موعظةٍ وأشمَلِها؛ ليكونَ انتهاءُ الخطابِ علىٰ ترهيبِ الأنفس؛ لتجتمعَ عزائمُها علىٰ ما هو مِلاكُ أمرها مِن قَبولِ صلاح دِينِها ودنياها ومَعادِها مِن خطابِ الله ﷻ لها، فختَم ذلك بكمالِ معناه بهذه الآيةِ، كما أنَّها هي الآيةُ التي خُتِم بها التنزيلُ، أُنزِلتْ علىٰ النبيِّ ﷺ وهو في الشِّكاية، وهي آخرُ آيةٍ أُنزِلتْ علىٰ النبي ﷺ في مقابَلةِ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، الذي هو أولُ منزلِ النبوَّة، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ الذي هو أولُ منزلِ الرسالة، فكان أولُ الأمر نِذارةً، وآخِرُه موعظةً، تَبعَثُ النفسَ علىٰ الخوف، وتَبعَثُ القلبَ علىٰ الشوقِ، مِن معنىٰ ما انختَم به أمرُ خطابِ اللهِ ﷻ في آيةِ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾(١).

جِيء بقولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ تذييلًا لهاته الأحكامِ؛ لأنَّه صالحٌ للتَّرهيبِ مِن ارتكابِ ما نُهِي عنه، والتَّرغيبِ في فعلِ ما أُمِر به أو نُدِب إليه؛ لأنَّ في تَرْكِ المَنْهيَّاتِ سلامةً مِن آثامها، وفي فعلِ المطلوبات استكثارًا مِن ثوابها، والكلُّ يَرجِعُ إلىٰ اتِّقاءِ ذلك اليومِ الذي تُطلَب فيه السَّلامةُ، وكثرةُ أسبابِ النَّجاح(٢).

اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ في العظماءِ الذين كانوا يعامِلون بالرِّبا، وكانوا أصحابَ ثروةٍ وجلال وأنصار وأعوانٍ، وكان قد يَجري منهم التغلُّبُ علىٰ الناسِ بسببِ ثروتهم، فاحتاجوا إلىٰ مَزيدِ زَجْرٍ ووعيد وتهديد؛ حتىٰ يَمتنعوا عن الرِّبا، وعن أخذِ أموالِ الناس بالباطل؛ فلا جرَمَ توعَّدَهم اللهُ بهذه الآيةِ، وخوَّفهم علىٰ أعظَمِ الوجوه(٣).

---

(١) نظم الدرر (٤/ ١٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٩٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٧/ ٨٧).

ثم قال تعالىٰ يَعِظُ عبادَه، ويذكِّرُهم زوالَ الدنيا، وفَناءَ ما فيها مِن الأموال وغيرِها، وإتيانَ الآخرة، والرجوعَ إليه تعالىٰ، ومحاسَبتَه تعالىٰ خَلْقَه علىٰ ما عَمِلوا، ومجازاتَه إيَّاهم بما كسَبوا مِن خيرٍ وشرٍّ، ويحذِّرُهم عقوبتَه، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾

ولمَّا نهىٰ ﷻ عن الرِّبا، وكان أحدَ مُدايَناتِهم، وكان غيرُه مِن الدَّين مأذونًا فيه، وهو مِن أنواعِ الإنفاق، مع دخولِه في المطالَبةِ برؤوس الأموال؛ عقَّب ذلك بآيةِ الدَّين(٢).

لمَّا ذكَر في المالِ أمرينِ ينقُصانِه ظاهرًا، ويزكِّيانِه باطنًا: الصدقةَ وتَرْكَ الرِّبا، وأَذِن في رؤوسِ الأموال، وأمَر بالإنظارِ في الإعسار، وختَم بالتهديد، فكان ذلك ربما أطمَعَ

---

(١) محاسن التأويل (٢/ ٢٣١).

(٢) نظم الدرر (٤/ ١٤٧).

المَدِينَ في شيءٍ مِن الدَّين، ولو بدعوىٰ الإعسارِ؛ اقتضىٰ حالُ الإنسان لِما له مِن النقصانِ الإرشادُ إلىٰ حفظِ المال الحلال، وصَوْنِه عن الفسادِ، والتنبيهِ علىٰ كيفيَّةِ التوثُّق، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾[1].

لمَّا اهتمَّ القرآنُ بنظامِ أحوال المسلمين في أموالِهم، فابتدأ بما به قِوامُ عامَّتِهم مِن مواساةِ الفقير، وإغاثةِ الملهوف، ووضَّح ذلك بما فيه عِبْرةٌ للمعتبِر، ثم عطَف عليه التَّحذيرَ مِن مضايَقةِ المحتاجين إلىٰ المواساةِ مضايَقةَ الرِّبا مع ما في تلك المعاملاتِ مِن المفاسدِ؛ ثلَّث ببيانِ التَّوثُّقاتِ الماليَّة؛ مِن الإشهادِ، وما يقومُ مَقامَه؛ وهو الرَّهنُ والائتمان، وإنَّ تحديدَ التَّوثُّقِ في المعاملات مِن أعظَمِ وسائلِ بثِّ الثِّقةِ بَيْنَ المتعامِلين؛ وذلك مِن شأنِه تكثيرُ عقودِ المعاملات، ودوران دولابِ التَّموُّل، والجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ، والمناسبةُ في الانتقالِ ظاهرةٌ عَقِبَ الكلامِ علىٰ غُرَماءِ أهلِ الربا، والتداينُ مِن أعظَمِ أسبابِ رواجِ المعاملات؛ لأنَّ المقتدِرَ علىٰ تنميةِ المال قد يُعوِزُه المالُ، فيُضطرُّ إلىٰ التداينِ؛ ليُظهِرَ مواهِبَه في التجارة، أو الصناعة، أو الزراعة، ولأنَّ المترفِّهَ قد ينضُبُ المالُ مِن بَيْنِ يديه وله قِبَلٌ به بعد حينٍ، فإذا لم يَتدايَنِ اختَلَّ نظامُ ماله؛ فشرَع اللهُ تعالىٰ للناس بقاءَ التداين المتعارَفِ بينهم؛ كيلا يظُنُّوا أنَّ تحريمَ الربا والرجوعَ بالمتعامِلين إلىٰ رؤوسِ أموالهم إبطالٌ للتداينِ كلِّه، وأفاد ذلك التشريعَ بوضعِه في تشريعٍ آخرَ مكمِّلٍ له؛ وهو التوثُّقُ له بالكتابةِ والإشهاد، والخطابُ موجَّهٌ للمؤمنين؛ أي: لمجموعِهم، والمقصودُ منه: خصوصُ المتدايِنين، والأخَصُّ بالخطابِ هو المَدِينُ؛ لأنَّ مِن حقٍّ عليه أن يَجعَلَ دائنَه مطمئنَّ البالِ علىٰ ماله، فعلىٰ المستقرِضِ أن يطلُبَ الكتابةَ، وإن لم يَسألْها الدائنُ[2].

(١) نظم الدرر (٤/ ١٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٩٧، ٩٨).

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّه لمَّا أمَر بالنَّفقة في سبيل الله، وبتَرْكِ الرِّبا، وكلاهما يحصُلُ به تنقيصُ المال؛ نبَّه علىٰ طريقٍ حلالٍ في تنميةِ المال وزيادته، وأكَّد في كيفيَّةِ حفظِه، وبسَط في هذه الآيةِ، وأمَر فيها بعدَّةِ أوامرَ(١).

أنَّ اللهَ سبحانه لمَّا ذكَر قبل هذا الحُكْم نوعينِ مِن الحُكْمِ: أحدهما: الإنفاقُ في سبيل الله، وهو يوجِبُ تنقيصَ المال، والثاني: تَرْكُ الرِّبا، وهو أيضًا سببٌ لتنقيصِ المال، ثم إنَّه تعالىٰ ختَم ذَيْنِكَ الحُكْمَينِ بالتَّهديدِ العظيم، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾، والتَّقوىٰ تسُدُّ علىٰ الإنسانِ أكثَرَ أبوابِ المكاسب والمنافع؛ أتبَع ذلك بأن ندَبه إلىٰ كيفيَّةِ حفظِ المال الحلال، وصَوْنِه عن الفسادِ والبَوَار؛ فإنَّ القُدْرةَ علىٰ الإنفاقِ في سبيل الله، وعلىٰ تركِ الرِّبا، وعلىٰ ملازمةِ التَّقوىٰ: لا يَتِمُّ ولا يكمُلُ إلا عند حصولِ المال(٢).

شروعٌ في بيانِ حال المدايَنةِ الواقعة في تضاعيفِ المعاوَضات الجاريةِ فيما بينهم، ببيعِ السِّلَعِ بالنقودِ، بعد بيانِ حال الرِّبا(٣).

﴿۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣﴾

ولمَّا كان التَّقدير: هذا إذا كنتم حضورًا يسهُلُ عليكم إحضارُ الكاتبِ والشاهد، عطَف عليه قولَه: ﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾(٤).

---

(١) البحر المحيط (٢/ ٧٢٢، ٧٢٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ٨٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ٢٦٩).

(٤) نظم الدرر (٤/ ١٦٠).

هذا معطوفٌ علىٰ قولِه: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ الآيةَ؛ فجميعُ ما تقدَّم حُكْمٌ في الحضَرِ والمُكْنةِ، فإن كانوا علىٰ سفَرٍ، ولم يَتمكَّنوا مِن الكتابةِ لعدم وجودِ مَن يكتُبُ ويَشهَد؛ فقد شُرِع لهم حُكْمٌ آخَرُ؛ وهو الرَّهنُ، وهذا آخرُ الأقسام المتوقَّعة في صُوَرِ المعاملة، وهي حالةُ السَّفرِ غالبًا، ويَلحَق بها ما يماثِلُ السَّفرَ في هاته الحالةِ(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ جعَل البِياعاتِ في هذه الآيةِ علىٰ ثلاثةِ أقسام: بيعٌ بكتابٍ وشهود، وبيعٌ برِهانٍ مقبوضة، وبيعُ الأمانة، ولمَّا أمَر في آخرِ الآية المتقدِّمة بالكتابةِ والإشهاد، وأعلَمَ أنَّه ربما تعذَّر ذلك في السَّفرِ: إمَّا بألا يوجَدَ الكاتبُ، أو إن وُجِد لكنه لا توجَدُ آلاتُ الكتابة؛ ذكَر نوعًا آخرَ مِن الاستيثاق؛ وهو أخذُ الرَّهنِ؛ فهذا وجهُ النَّظم، وهذا أبلَغُ في الاحتياطِ مِن الكتابة والإشهاد(٢).

لمَّا ذكَر سبحانه مشروعيةَ الكتابةِ والإشهاد لحفظِ الأموال ودفعِ الرَّيب، عقَّب ذلك بذِكْرِ حالةِ العُذْرِ عن وجودِ الكاتب، ونصَّ علىٰ حالةِ السَّفر؛ فإنَّها مِن جملةِ أحوال العذر، ويَلحَق بذلك كلُّ عُذْرٍ يقومُ مَقامَ السَّفر، وجعَل الرِّهانَ المقبوضة قائمةً مقامَ الكتابة(٣).

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾

ولمَّا أخبَر عن سَعةِ علمِه، دلَّ عليه بسَعةِ مُلْكِه المستلزِمِ لسَعة قُدْرتِه؛ ليدُلَّ ذلك علىٰ جميعِ الكمال(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٢٠).
(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ٩٩).
(٣) فتح القدير (١/ ٣٤٨).
(٤) نظم الدرر (٤/ ١٦٣).

تعليلٌ واستدلال علىٰ مضمونِ جملة ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ﴾، وعلىٰ ما تقدَّم آنفًا، فإذا كان ذلك تعريضًا بالوعدِ والوعيد، فقد جاء هذا الكلامُ تصريحًا واستدلالًا عليه؛ فجملةُ ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ إلىٰ آخرِها هي محطُّ التصريحِ، وهي المقصودُ بالكلام، وهي معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾، وجملةُ ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ هي موقعُ الاستدلال، وهي اعتراضٌ بَيْنَ الجملتينِ المتعاطفتين، أو علَّةٌ لجملةِ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾، باعتبارِ إرادةِ الوعيد والوعد؛ فالمعنىٰ: أنَّكم عبيدُه؛ فلا يفُوتُه عملُكم، والجزاءُ عليه(١).

ومناسبتُها ظاهرةٌ؛ لأنَّه لمَّا ذكَر أنَّ مَن كتَم الشَّهادةَ فإنَّ قلبه آثمٌ، ذكَر ما انطوىٰ عليه الضَّميرُ، فكتَمه أو أبداه، فإنَّ اللهَ يحاسِبُه به؛ ففيه وعيدٌ وتهديدٌ لِمَن كتَم الشَّهادةَ، ولمَّا علَّق الإثمَ بالقلب، ذكَر هنا الأنفُسَ، فقال: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾(٢).

إنَّه تعالىٰ لمَّا قال في آخرِ الآية المتقدِّمة: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾، ذكَر عَقِيبَه ما يَجري مَجرىٰ الدَّليلِ العقليِّ، فقال: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٌ﴾(٣).

إنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر بهذه الوثائقِ -أعني الكتابةَ والإشهاد والرَّهن-، فكان المقصودُ مِن الأمرِ بها صيانةَ الأموال، والاحتياطَ في حفظِها؛ بيَّن اللهُ تعالىٰ أنَّه إنَّما المقصودُ

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٢٩).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٧٤٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٧/ ١٠٢).

لمنفعةٍ تَرجِعُ إلىٰ الخَلْقِ، لا لمنفعةٍ تعود إليه سبحانه منها؛ فإنَّه له مُلْكُ السَّماواتِ والأرض(١).

إنَّه تعالىٰ لمَّا نهىٰ عن كتمانِ الشَّهادة وأوعَدَ عليه، بيَّن أنَّه له مُلْكُ السَّماواتِ والأرض، فيجازي علىٰ الكتمانِ والإظهار(٢).

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾

قال الزجَّاجُ: «لمَّا ذكَر اللهُ في هذه السُّورةِ أحكامًا كثيرة وقصصًا، ختَمها بقولِه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾؛ تعظيمًا لنبيِّه ﷺ وأتباعِه، وتأكيدًا وفَذْلكةً لجميعِ ذلك المذكور مِن قبلُ»؛ يعني: أنَّ هذا انتقالٌ مِن المواعظِ، والإرشاد، والتشريع، وما تخلَّل ذلك: ممَّا هو عَوْنٌ علىٰ تلك المقاصدِ؛ إلىٰ الثناءِ علىٰ رسولِه ﷺ والمؤمنين في إيمانهم بجميعِ ذلك إيمانًا خالصًا يَتفرَّع عليه العملُ؛ لأنَّ الإيمانَ بالرسولِ ﷺ والكتابِ يقتضي الامتثالَ لِما جاء به مِن عملٍ؛ فالجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ وُضِعتْ في هذا الموقعِ لمناسبةِ ما تقدَّم، وهو انتقالٌ مؤذِنٌ بانتهاءِ السورة؛ لأنَّه لمَّا انتقَل مِن أغراضٍ متناسبة إلىٰ غرضٍ آخرَ هو كالحاصلِ والفَذْلكة، فقد أشعَرَ بأنَّه استوفىٰ تلك الأغراضَ(٣).

في كيفيَّةِ النَّظم وجوهٌ: الأول: وهو أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن في الآيةِ المتقدِّمة كمالَ المُلْكِ، وكمال العلم، وكمالَ القدرة لله تعالىٰ، وذلك يوجِبُ كمالَ صفات الرُّبوبيَّة؛ أتبَع

(١) مفاتيح الغيب (٧/ ١٠٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ١٠٣).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ١٣١، ١٣٢).

ذلك بأنْ بيَّن كونَ المؤمنين في نهايةِ الانقياد والطاعة والخضوع لله تعالىٰ؛ وذلك هو كمالُ العبوديَّة، وإذا ظهَر لنا كمالُ الرُّبوبيَّة، وقد ظهَر منَّا كمالُ العبوديَّة؛ فالمرجوُّ مِن عميمِ فضله وإحسانِه أن يُظهِرَ يومَ القيامةِ في حقِّنا كمالَ العنايةِ والرَّحمة والإحسان؛ اللهمَّ حقِّقْ هذا الأملَ. الوجهُ الثاني في النَّظم: أنَّه تعالىٰ لمَّا قال: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾، بيَّن أنَّه لا يَخفىٰ عليه مِن سِرِّنا وجهرنا وباطننا وظاهرنا شيءٌ البتَّةَ، ثم إنَّه تعالىٰ ذكَر عَقِيبَ ذلك ما يَجري مَجرىٰ المدحِ لنا والثَّناء علينا، فقال: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، كأنَّه بفضلِه يقول: عبدي أنا، وإن كنتُ أعلَمُ جميعَ أحوالِك، فلا أُظهِرُ مِن أحوالك ولا أذكُرُ منها إلا ما يكونُ مدحًا لك وثناءً عليك؛ حتىٰ تَعلَمَ أنِّي كما أنا الكاملُ في المُلْكِ والعلم والقدرة، فأنا الكاملُ في الجُودِ والرَّحمةِ، وفي إظهارِ الحسنات، وفي السَّتْرِ علىٰ السَّيِّئات(١).

لمَّا نزَل: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ الآيةَ، أشفَقوا منها، ثم تقرَّر الأمرُ علىٰ أن قالوا: سَمِعْنا وأطَعْنا، فرجَعوا إلىٰ التضرُّعِ والاستكانة، فمدَحهم اللهُ وأثنىٰ عليهم، وقدَّم ذلك بَيْنَ يدَيْ رِفْقِه بهم، وكشفِه لذلك الكَرْبِ الذي أوجَبه تأوُّلُهم، فجمَع لهم تعالىٰ التشريفَ بالمدحِ والثناء ورفعِ المشقَّةِ في أمرِ الخواطر؛ وهذه ثمرةُ الطاعةِ والانقطاع إلىٰ الله تعالىٰ؛ كما جرىٰ لبني إسرائيلَ ضدُّ ذلك مِن ذمِّهم، وتحميلِهم المشقَّاتِ مِن الذِّلَّةِ والمَسكنة والجَلاء إذ قالوا: سَمِعْنا وعصَيْنا؛ وهذه ثمرةُ العصيانِ والتمرُّدِ علىٰ الله، أعاذنا اللهُ تعالىٰ مِن نِقَمِه. انتهىٰ هذا، وهو كلامُ ابنِ عطيَّةَ، وظهَر بسببِ النزول مناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها(٢).

---

(١) مفاتيح الغيب (٧/ ١٠٥، ١٠٦).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٧٥٥).

لمَّا ذكَر في فاتحةِ السُّورةِ الكريمة أنَّ ما أُنزِلَ إلىٰ الرسول ﷺ مِن الكتابِ العظيم الشأنِ هُدًىٰ للمتصِفين بما فُصِّل هناك مِن الصفاتِ الفاضلة، التي مِن جملتِها الإيمانُ به، وبما أُنزِلَ قبله مِن الكتبِ الإلهيَّة، وأنَّهم حائزون لأثَرتَي الهدىٰ والفلاحِ، مِن غيرِ تعيينٍ لهم بخصوصهم، ولا تصريحٍ بتحقُّقِ اتصافِهم بها؛ إذ ليس فيما يُذكَرُ في حيِّزِ الصلةِ حُكْمٌ بالفعل، وعُقِّب ذلك ببيانِ حالِ مَن كفَر به، مِن المجاهِرين والمنافِقين، ثم شرَح في تضاعيفِها مِن فنونِ الشرائع، والأحكام، والمواعظِ، والحِكَمِ، وأخبارِ سوالفِ الأُمَمِ، وغيرِ ذلك ممَّا تقتضي الحِكْمةُ شرحَه: عُيِّنَ في خاتمتِها المتصِفون بها، وحُكِم باتصافهم بها، علىٰ طريقِ الشَّهادة لهم مِن جهتِه ﷻ بكمالِ الإيمان، وحُسْنِ الطاعة[1].

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

ولمَّا مُنُّوا بالإيمانِ في سؤال الغفرانِ، علَّلوا السُّؤالَ بقولِهم: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2].

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ الأظهَرُ أنَّه مِن كلامِ الله تعالىٰ، لا مِن حكايةِ كلام الرسول والمؤمنين، فيكونُ اعتراضًا بَيْنَ الجُمَلِ المَحْكيَّةِ بالقول، وفائدتُه إظهارُ ثمرةِ الإيمان، والتسليم، والطاعة، فأعلَمَهم اللهُ بأنَّه لم يَجعَلْ عليهم

(١) إرشاد العقل السليم (١/ ٢٧٣).

(٢) نظم الدرر (٤/ ١٧٥).

في هذا الدِّينِ التكليفَ بما فيه مشقَّةٌ، وهو مع ذلك تبشيرٌ باستجابةِ دَعْوتِهم المُلَقَّنة، أو التي أُلْهِمُوها؛ وهي: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قبل أن يحكيَ دعَواتِهم تلك(١).

في كيفيَّةِ النَّظم: إن قلنا: إنَّ هذا مِن كلامِ المؤمنين، فوجهُ النَّظمِ أنَّهم لمَّا قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، فكأنَّهم قالوا: كيف لا نَسمَعُ ولا نُطِيعُ وأنَّه تعالىٰ لا يكلِّفُنا إلا ما في وُسْعِنا وطاقتنا؟! فإذا كان هو تعالىٰ بحُكْمِ الرَّحمة الإلهيَّة لا يطالِبُنا إلا بالشَّيءِ السَّهل الهيِّن، فكذلك نحن بحُكْمِ العبوديَّةِ وجَب أن نكونَ سامعين مُطِيعين، وإن قلنا: إنَّ هذا مِن كلامِ الله تعالىٰ، فوجهُ النَّظم أنَّهم لمَّا قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ثم قالوا بعده: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾؛ دلَّ ذلك علىٰ أنَّ قولهم: ﴿غُفْرَانَكَ﴾ طلبٌ للمغفرةِ فيما يصدُرُ عنهم مِن وجوهِ التَّقصير منهم علىٰ سبيلِ العمد، فلمَّا كان قولُهم: ﴿غُفْرَانَكَ﴾ طلبًا للمغفرةِ في ذلك التَّقصيرِ، لا جرَمَ خفَّف اللهُ تعالىٰ عنهم ذلك، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(٢).

جملةٌ مستقلَّة، جِيءَ بها إثْرَ حكايةِ تَلقِّيهم لتكاليفِه تعالىٰ بحُسْنِ الطاعةِ؛ إظهارًا لِما له تعالىٰ عليهم، في ضمنِ التكليف، مِن محاسنِ آثار الفضل والرحمة ابتداءً، لا بعد السؤالِ(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٣٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ١١٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (١/ ٢٧٦).

سورة آل عمران

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن معنىٰ القيُّومِ أنَّه المدبِّرُ للمَصالحِ، اتصَل به الإعلامُ بتنزيلِ ما يتضمن ذلك؛ وهو الكتابُ، فقال: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾[1].

قوله: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ خبرٌ عن اسمِ الجلالة، والخبرُ هنا مستعمَلٌ في الامتنانِ، أو هو تعريضٌ ونكاية بأهلِ الكتاب الذين أنكَروا ذلك، وجِيءَ بالمسنَدِ فعلًا لإفادةِ تقوية الخبر، أو للدلالةِ - مع ذلك - علىٰ الاختصاصِ؛ أي: اللهُ لا غيرُه نزَّل عليك الكتابَ؛ إبطالًا لقولِ المشرِكين: إنَّ القرآنَ مِن كلام الشيطان، أو مِن طرائقِ الكهانة، أو يعلِّمُه بشَرٌ[2].

ولمَّا لم يكُنْ إنزالُهما مستغرِقًا للماضي؛ لأنَّه لم يكُنْ في أولِ الزَّمان؛ أدخَل الجارَّ معرِّيًا مِن التَّقييدِ بمَن نزَلا عليه؛ لشهرتِه وعدمِ النزاع، بخلافِ القرآن[3].

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٢٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ١٤٧).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٢٠٩).

﴿ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾

﴿ مِن قَبْلُ ﴾ يتعلق بـ(أنزل)، والأحسن أن يكونَ حالًا أُولى مِن التَّوراةِ والإنجيل، و﴿ هُدًى ﴾ حالٌ ثانية، وتقديمُ ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ على ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ للاهتمامِ به، وأمَّا ذِكْرُ هذا القيدِ، فلكي لا يُتوهَّمَ أنَّ هُدَىٰ التَّوراة والإنجيل مستمِرٌّ بعد نزولِ القرآن، وفيه إشارةٌ إلىٰ أنَّها كالمقدِّمات لنزولِ القرآن، الذي هو تمامُ مرادِ الله مِن البشر؛ فالهدىٰ الذي سبَقه غيرُ تامٍّ(١).

فاعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن أنَّه أنزَل التَّوراةَ والإنجيل قبل أن أنزَل القرآنَ، ثم بيَّن أنَّه إنَّما أنزَلهما هُدًىٰ للناس(٢).

لمَّا قرَّر تعالىٰ أمرَ الإلهيَّةِ وأمرَ النبوَّة بذِكْرِ الكتبِ المنزَّلة، توعَّد مَن كفَر بآياتِ الله -مِن كُتبِه المنزَّلة وغيرها- بالعذابِ الشَّديد مِن عذاب الدُّنيا: كالقتلِ، والأَسْرِ، والغلَبة، وعذابِ الآخرة: كالنار(٣).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ ﴾

ثم قال توضيحًا لِما قدَّم في آيةِ الكُرسيِّ مِن إثباتِ العلم، واستدلالًا علىٰ وصفِهِ ﷻ بالقيُّوميَّةِ التي فارَق بها كلَّ مَن يُدَّعىٰ فيه الإلهيَّةُ، مشيرًا بذلك إلىٰ الردِّ علىٰ مَن

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٥٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ١٣٢).

(٣) البحر المحيط (٣/ ١٨).

جادَل في عيسىٰ عليه السلام فأَطْراه بدَعْواه أنَّه إلهٌ، وموضِّحًا لأنَّ كُتبَه هُدًىٰ، وأنَّه عالِمٌ بالمُطيع والعاصي بما تقدَّم أنَّه أرشَد العطفُ في ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ إلىٰ تقديرِه، ومعلِّلًا لوصفِه بالعِزَّةِ والقدرة لِما يأتي في سُورةِ «طه» مِن أنَّ تمامَ العلم يستلزِمُ شمولَ القدرةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[(١)].

استئنافٌ يَتنزَّل منزلةَ البيان لوصفِ الحيِّ؛ لأنَّ عمومَ العلم يُبيِّنُ كمالَ الحياة[(٢)].

لمَّا ذكَر أنَّه قيُّومٌ، والقيُّومُ هو القائمُ بإصلاح مصالحِ الخَلْقِ ومُهِمَّاتِهم، وكونُه كذلك لا يَتِمُّ إلا بمجموعِ أمرينِ: أحدهما: أن يكونَ عالِمًا بحاجاتهم علىٰ جميعِ وجوهِ الكَمِّيَّةِ والكيفيَّة، والثاني: أن يكونَ بحيث متىٰ عَلِم جهاتِ حاجاتهم، قدَر علىٰ دفعِها. والأول: لا يَتِمُّ إلا إذا كان عالِمًا بجميعِ المعلومات، والثاني: لا يَتِمُّ إلا إذا كان قادرًا علىٰ جميعِ الممكِنات؛ فقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إشارةٌ إلىٰ كمالِ علمِه المتعلِّق بجميعِ المعلومات، فحينئذٍ يكون عالِمًا -لا محالةَ- مقاديرَ الحاجات، ومراتبَ الضرورات، لا يَشغَلُه سؤالٌ عن سؤال، ولا يشتبِهُ الأمرُ عليه بسببِ كثرةِ أسئلة السائلين[(٣)].

استئنافٌ لبيانِ سَعةِ علمِه سبحانه، وإحاطتِه بجميع ما في العالَمِ، الذي مِن جملتِه إيمانُ مَن آمَن وكفرُ مَن كفَر، إثرَ بيانِ كمال قُدْرتِه، وعظيمِ عِزَّتِه، وفي بيانِ ذلك تربيةٌ للوعيد، وإشارةٌ إلىٰ دليلِ كونِه حيًّا[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٢١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ١٥١).

(٣) مفاتيح الغيب (٧/ ١٣٤).

(٤) روح المعاني (٢/ ٧٦).

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦ ﴾

ولمَّا قرَّر ﷻ شمولَ علمِه، أتبَعه دليلَه مِن تمام قُدْرتِه، فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[(١)].

ولمَّا كان كلُّ تفصيلٍ يَتقدَّمه بالرُّتبةِ مُجمَلٌ جامع، وكانت تراجمُ السُّورةِ موضعَ الإجمال ليكونَ تفصيلُها موضعَ التفاصيل، وكان مِن المذكورِ في سورةِ الكتاب ما وقَع مِن اللَّبْسِ كذلك؛ كان في هذه السُّورةِ -التي ترجَمَها جوامع إلهيَّة- ما وقَع مِن اللَّبْسِ في أمرِ الإلهيَّة في أمرِ عيسىٰ عليه السلام، فكان في هذه الآيةِ الجامعة توطئةٌ لبيانِ الأمر في شأنه عليه السلام مِن حيث إنَّه ممَّا صُوِّرَ في الرَّحِمِ، وحمَلتْهُ الأنثىٰ ووضَعتْهُ، وأنَّ جميعَ ما حوته السماءُ والأرض لا ينبغي أن يقعَ فيه لَبْسٌ في أمرِ الإلهيَّة؛ انتهىٰ فقال مبيِّنًا أمرَ قُدْرتِه بما لا يَقدِرُ عليه عيسىٰ عليه السلام ولا غيرُه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[(٢)].

استئنافٌ ثانٍ يبيِّنُ شيئًا مِن معنىٰ القيُّوميَّة، فهو كبدَلِ البعضِ مِن الكل، وخَصَّ مِن بَيْنِ شؤونِ القيُّوميَّةِ تصويرَ البشَرِ؛ لأنَّه مِن أعجَبِ مظاهرِ القدرة، ولأنَّ فيه تعريضًا بالردِّ علىٰ النصارىٰ في اعتقادِهم إلهيَّةَ عيسىٰ مِن أجلِ أنَّ اللهَ صوَّره بكيفيَّةٍ غيرِ معتادة، فبيَّن لهم أنَّ الكيفياتِ العارضةَ للموجودات كلِّها مِن صُنْعِ الله وتصويره، سواءٌ المعتادُ وغيرُ المعتاد[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٢١٩).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٢١٩-٢٢٠).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ١٥١).

قولُه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ إشارةٌ إلىٰ كونه تعالىٰ قادرًا علىٰ جميعِ الممكِنات، وحينئذٍ يكون قادرًا علىٰ تحصيلِ مصالح جميع الخَلْقِ ومنافعِهم، وعند حصولِ هذين الأمرينِ يَظهَرُ كونُه قائمًا بالقسطِ، قيُّومًا بجميعِ الممكِنات والكائنات(١).

جملةٌ مستأنَفة، ناطقةٌ ببعضِ أحكام قيُّوميَّته تعالىٰ، وجريانِ أحوال الخَلْقِ في أطوارِ الوجود حسَبَ مشيئتِهِ المبنيَّةِ علىٰ الحِكَمِ البالغة، مقرِّرةٌ لكمالِ علمِهِ، مع زيادةِ بيانٍ لتعلُّقِه بالأشياء قبل دخولها تحت الوجودِ ضرورةَ وجوبِ علمِه تعالىٰ بالصُّوَرِ المختلِفة المترتِّبة علىٰ التصوير المترتِّب علىٰ المشيئةِ قبل تحقُّقِها بمراتبَ(٢).

لمَّا قرَّر إحاطةَ علمِه بالمعلومات كلِّها، جليِّها وخفيِّها، ظاهرِها وباطنِها؛ ذكَر مِن جملةِ ذلك الأجنَّةَ في البطونِ، التي لا يُدرِكُها بصَرُ المخلوقين، ولا ينالُها علمُهم، وهو تعالىٰ يدبِّرها بألطَفِ تدبير، ويقدِّرها بكلِّ تقدير؛ فلهذا قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾(٣).

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾

ولمَّا ختَم ﷻ بوصفِ العزَّةِ الدالَّة علىٰ الغلَبةِ الدالَّة علىٰ كمالِ القدرة والحِكْمةِ المقتضي لوضعِ كلِّ شيءٍ في أحسَنِ مَحالِّهِ وأكمَلِها، المستلزمِ لكمال العلم، تقديرًا

(١) مفاتيح الغيب (٧/ ١٣٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ٦).

(٣) تفسير السعدي (ص: ١٢١-١٢٢).

لِما مرَّ مِن التصويرِ وغيرِه، وكان هذا الكتابُ أكمَلَ مسموعاتِ العبادِ؛ لنزولِه علىٰ وجهٍ هو أعلىٰ الوجوه، ونظمِهِ علىٰ أسلوبٍ أعجَزَ الفُصَحاءَ، وأبكَمَ البُلَغاءَ، إلىٰ غيرِ ذلك مِن الأمورِ الباهرة، والأسرارِ الظاهرة، وعلىٰ عبدٍ هو أكمَلُ الخَلْقِ؛ أعقبَ الوصفينِ بقولِه بيانًا لتمامِ علمِه، وشمولِ قُدْرتِه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾(١).

ولمَّا كانت هذه السُّورةُ فيما اختصَّتْ به مِن عَلَنِ أمرِ الله ﷻ مُناظَرةً بسورةِ «البقرة» فيما أُنزِلتْ مِن إظهارِ كتاب الله ﷻ؛ كان المنتظمُ بمنزلِ فاتحتِها ما يناظِرُ المنتظمَ بفاتحةِ سورةِ «البقرة»، فلمَّا كانت سورةُ «البقرة» منزلَ كتابٍ هو الوحيُ، انتظَمَ بترجمتِها الإعلامُ بأمرِ كتاب الخَلْقِ، الذي هو القَدَرُ، فكما بيَّن في أولِ سورة «البقرة» كتابَ تقديرِ الذي قدَّره وكتَبه في ذواتٍ؛ مِن مؤمنٍ وكافرٍ ومُردَّدٍ بينهما هو المنافقُ، فتنزَّلتْ سورةُ الكتابِ لِلْوَحْيِ إلىٰ بيانِ قَدْرِ الكتابِ الخَلْقيِّ؛ لذلك كان متنزَّلُ هذا الافتتاحِ الإلهيِّ إلىٰ أصلِ منزلِ الكتابِ الوحي، ولمَّا بيَّن أمرَ الخَلْقِ أنَّ منهم مَن فطَره علىٰ الإيمانِ، ومنهم مَن جبَله علىٰ الكفرِ، ومنهم مَن أناسه بَيْنَ الخَلْقَينِ؛ بيَّن في الكتاب أنَّ منه ما أنزَله علىٰ الإحكام، ومنه ما أنزَله علىٰ الاشتباهِ، وفي إفهامِه ما أنزَله علىٰ الافتنانِ والإضلال بمنزلةِ خَتْمِ الكفَّارِ(٢).

استئنافٌ ثالث بإخبارٍ عن شأنٍ مِن شؤون الله تعالىٰ، متعلِّقٌ بالغرضِ المسُوقِ له الكلامُ؛ وهو: تحقيقُ إنزالِه القرآنَ والكتابينِ مِن قَبْلِه، فهذا الاستئنافُ مؤكِّدٌ

(١) نظم الدرر (٤/ ٢٢٣).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٢٢٤).

لمضمون قوله: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، وتمهيدٌ لقوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾؛ لأنَّ الآياتِ نزَلتْ في مجادَلةِ وفدِ نَجْرانَ، وصُدِّرتْ بإبطالِ عقيدتهم في إلهيَّةِ المسيح عليه السلام بالإشارةِ إلى أوصافِ الإلهِ الحقَّةِ. توجَّهَ الكلامُ هنا إلى إزالةِ شُبْهتِهم في شأنِ زعمِهم اعترافَ نصوصِ القرآن بإلهيَّةِ المسيح؛ إذ وُصِف فيها بأنَّه رُوحُ اللهِ، وأنَّه يُحيِي الموتى، وأنَّه كلمةُ الله، وغيرُ ذلك، فنودي عليهم بأنَّ ما تعلَّقوا به تعلُّقُ اشتباهٍ، وسُوءُ تأويلٍ[1].

في اتصالِ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ بما قبله احتمالانِ: أحدهما: أنَّ ذلك كالتقريرِ لكونِه قيُّومًا، والثاني: أنَّ ذلك الجواب عن شُبَهِ النصارى؛ فأمَّا على الاحتمالِ الأول: فنقول: إنَّه تعالى أراد أن يبيِّنَ أنَّه قيُّومٌ وقائمٌ بمصالحِ الخَلْق، ومصالحُ الخَلْق قسمان: جُسْمانية ورُوحانية، أمَّا الجسمانيةُ: فأشرَفُها تعديلُ البِنْيةِ، وتسويةُ المِزاجِ على أحسَنِ الصُّوَر، وأكمَلِ الأشكال؛ وهو المرادُ بقولِه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾، وأمَّا الرُّوحانيةُ: فأشرَفُها العلمُ الذي تَصِيرُ الرُّوحُ معه كالمرآةِ المَجْلوَّةِ التي تجلَّتْ صُوَرُ جميعِ الموجودات فيها؛ وهو المراد بقولِه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، وأمَّا على الاحتمالِ الثاني: فقد ذكَرْنا أنَّ مِن جملة شُبَهِ النصارى تمسُّكَهم بما جاء في القرآن مِن قولِه تعالى في صفةِ عيسى عليه السلام: إنَّه رُوحُ اللهِ وكَلِمتُه، فبيَّن اللهُ تعالى بهذه الآيةِ أنَّ القرآنَ مشتمِلٌ على مُحكَمٍ وعلى متشابِهٍ، والتمسُّكُ بالمتشابِهات غيرُ جائزٍ؛ فهذا ما يتعلقُ بكيفيَّةِ النَّظم، وهو في غايةِ الحُسْنِ والاستقامة[2].

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٥٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ١٣٧).

مناسبةُ هذا لِما قبله: أنَّه لمَّا ذكَر تعديلَ البِنْيةِ وتصويرَها علىٰ ما يشاءُ مِن الأشكالِ الحسنة، وهذا أمرٌ جُسْمانيٌّ؛ استطرَد إلىٰ العلم، وهو أمرٌ رُوحانيٌّ [(١)].

شروعٌ في إبطال شُبَهِهم الناشئة عمَّا نطَق به القرآنُ في نَعْتِ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بطريقِ الاستئناف إثرَ بيانِ اختصاص الرُّبوبيَّة ومَناطِها به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تارةً بعد أخرىٰ، وكونِ كلِّ مَن عداه مقهورًا تحت ملكوتِه، تابعًا لمشيئتِه [(٢)].

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾

ولمَّا عُلِم بذلك أنَّ الراسخين أيقَنوا أنَّه مِن عندِ الله المستلزِمِ لأنَّه لا عِوَجَ فيه، أخبَر أنَّهم أقبَلوا علىٰ التَّضرع إليه في أن يثبِّتَهم بعد هدايتِه، ثم أن يَرحَمَهم ببيانِ ما أشكَل عليهم بقولِه حاكيًا عنهم، وهو في الحقيقةِ تلقينٌ منه لهم لطفًا بهم، مقدِّمًا ما ينبغي تقديمُه مِن السُّؤالِ في تطهير القلب عمَّا لا ينبغي علىٰ طلبِ تنويرِه بما ينبغي؛ لأنَّ إزالةَ المانع قبل إيجادِ المقتضي عينُ الحِكْمةِ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ [(٣)].

دعاءٌ علَّمه النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعليمًا للأمَّةِ؛ لأنَّ الموقعَ المَحْكيَّ موقعُ عِبْرةٍ ومثارٍ لهواجسِ الخوف مِن سُوءِ المصير إلىٰ حالِ الذين في قلوبهم زَيْغٌ، فما هم إلا مِن عقلاءِ البشر، لا تفاوُتَ بينهم وبين الراسخين في الإنسانيةِ، ولا في سلامةِ العقول والمشاعر، فما كان ضلالُهم إلا عن حِرْمانِهم التوفيقَ، واللُّطْفَ، ووسائلَ الاهتداء، وقد عُلِم مِن تعقيبِ قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ الآياتِ، بقولِه: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا ﴾: أنَّ مِن جملةِ ما قُصِد بوصفِ الكتاب بأنَّ منه مُحكَمًا ومنه متشابِهًا إيقاظَ الأمَّةِ إلىٰ ذلك؛

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٢١).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ٧).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٢٤٩-٢٥٠).

لتكونَ علىٰ بصيرةٍ في تدبُّرِ كتابها؛ تحذيرًا لها مِن الوقوع في الضَّلالِ، الذي أوقَع الأُمَمَ في كثيرٍ منه وجودُ المتشابِهات في كُتبِها، وتحذيرًا للمسلمين مِن اتِّباع البوارقِ الباطلة؛ مثل ما وقَع فيه بعضُ العرب مِن الرِّدةِ والعصيان بعد وفاةِ الرسول ﷺ؛ لتوهُّمِ أنَّ التديُّنَ بالدِّين إنَّما كان لأجلِ وجود الرسول بينهم؛ ولذلك كان أبو بكرٍ يدعو بهذه الآيةِ في صلاتِه مدةَ ارتدادِ مَن ارتَدَّ مِن العرب؛ ففي «الموطَّأ»: عن الصُّنابِحيِّ أنَّه قال: قَدِمتُ المدينةَ في خلافةِ أبي بكرٍ الصِّديق، فصلَّيتُ وراءه المغربَ، فقام في الثالثة، فدنوتُ منه، حتىٰ إنَّ ثيابي لتكادُ تمَسُّ ثيابَه، فسَمِعتُه يقرأ بأمِّ القرآن، وهذه الآيةِ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ الآيةَ[(١)](٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ كما حكىٰ عن الراسخين أنَّهم ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، حكىٰ عنهم أنَّهم يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[(٣)].

كأنَّهم لمَّا رأَوُا انقسامَ الناس إلىٰ زائغٍ ومتذكِّرٍ مؤمنٍ، دعَوُا اللهَ تعالىٰ بلفظ الرَّبِّ ألا يُزِيغَ قلوبَهم بعد هدايتهم، فيَلحَقوا بمَن في قلبِه زيغٌ[(٤)].

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾

ولمَّا كان مِن المعلوم مِن أولِ ما فرَغ السَّمعُ مِن الكتابِ في «الفاتحة» وأولِ «البقرة» وأثنائها أنَّ للناس يومًا يُدانون فيه، وصَلوا بقولِهم السابقِ قولَه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[(٥)].

---

(١) أخرجه مالك في "الموطأ" (١/ ٧٩).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ١٦٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٧/ ١٤٨).

(٤) البحر المحيط (٣/ ٣١).

(٥) نظم الدرر (٤/ ٢٥١).

استحضَروا عند طلبِ الرَّحمة أحوَجَ ما يكونون إليها؛ وهو يومُ تكونُ الرَّحمةُ سببًا للفوز الأبديِّ، فأعقَبوا بذِكْرِ هذا اليومِ دعاءَهم علىٰ سبيل الإيجاز(١).

واعلَمْ أنَّ هذا الدُّعاءَ مِن بقيَّةِ كلام الراسخين في العلمِ؛ وذلك لأنَّهم لمَّا طلَبوا مِن اللهِ تعالىٰ أن يصُونَهم عن الزَّيغِ، وأن يخُصَّهم بالهدايةِ والرحمة؛ فكأنَّهم قالوا: ليس الغرضُ مِن هذا السُّؤالِ ما يتعلق بمصالحِ الدُّنيا؛ فإنَّها منقضِيَةٌ منقرِضةٌ، وإنَّما الغرضُ الأعظم منه ما يتعلَّق بالآخرة؛ فإنَّا نعلمُ أنَّك -يا إلهَنا- جامعُ الناس للجزاء في يومِ القيامة، ونعلمُ أنَّ وعدَك لا يكونُ خُلْفًا، وكلامُك لا يكون كَذِبًا، فمَن زاغ قلبُه، بَقِي هناك في العذابِ أبدَ الآباد، ومَن أعطَيتَه التَّوفيقَ والهداية والرَّحمة وجعَلته مِن المؤمنين، بَقِي هناك في السَّعادةِ والكرامة أبدَ الآباد؛ فالغرضُ الأعظم مِن ذلك الدُّعاءِ ما يتعلَّق بالآخرة(٢).

لمَّا سألوه تعالىٰ ألا يُزِيغَ قلوبَهم بعد الهداية، وكانت ثمرةُ انتفاءِ الزَّيغ والهداية إنَّما تَظهَرُ في يومِ القيامة؛ أخبَروا أنَّهم مُوقِنون بيومِ القيامة، والبعثِ فيه للمجازاة، وأنَّ اعتقادَ صحَّةِ الوعد به هو الذي هداهم إلىٰ سؤالِ ألا يُزِيغَ قلوبهم(٣).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾

ولمَّا تحقَّق أنَّ يومَ الجَمْعِ كائنٌ لا محالةَ، تحقَّق أنَّ مِن نتائجِه تحقيقًا لعِزَّتِه سبحانه وتعالى، وانتقامِه مِن الكفرةِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٧١).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ١٥٠).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٣٣).

(٤) نظم الدرر (٤/ ٢٥٣).

استئنافُ كلامٍ ناشئٌ عن حكايةِ ما دعا به المؤمنون: مِن دوامِ الهداية، وسؤال الرَّحمة، وانتظارِ الفوز يوم القيامة، بذِكْرِ حالِ الكافرين في ذلك اليومِ؛ على عادةِ القرآن في إرداف البِشارةِ بالنِّذارةِ، وتعقيبُ دعاءِ المؤمنين بذِكْرِ حالِ المشركين إيماءٌ إلى أنَّ دَعْوتَهم استُجِيبت[١].

اعلَمْ أنَّ اللهَ ﷻ لمَّا حكى عن المؤمنين دعاءهم وتضرُّعَهم، حكى كيفيَّةَ حالِ الكافرين، وشديد عقابهم[٢].

إثْرَ ما بيَّن الدِّينَ الحقَّ والتوحيد، وذكَر أحوالَ الكتب الناطقة به، وشرَح شأنَ القرآن العظيم، وكيفيَّةَ إيمانِ العلماء الراسخين به؛ شرَع في بيانِ حال مَن كفَر به[٣].

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

ولمَّا كان السَّببُ المقتضي لاستمرار الكفرِ مِن النَّصارى المجادلين في أمرِ عيسى عليه السلام الخوفَ ممَّن فوقهم مِن ملوكِ النَّصرانيَّة، نبَّههم ﷻ على أولِ قصَّة أسلافهم مِن بني إسرائيلَ، وما كانوا فيه مِن الذُّل مع آلِ فِرْعونَ، وما كان فيه فِرْعونُ مِن العظَمةِ التي تُقسَرُ بها ملوكُ زمانهم، ثم لمَّا أراد الله ﷻ قهْرَ أسلافِهم له، لم تضُرَّهم ذِلَّتُهم ولا قِلَّتُهم، ولا نفَعتْهُ عِزَّتُه ولا كثرةُ آلِه؛ فلذلك صرَّح بهم ﷻ، وطوَى ذِكْرَ مَن قبْلَهم، فقال: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٧١).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ١٥٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٠).

(٤) نظم الدرر (٤/ ٢٥٨).

لمَّا ذكَر أنَّ مَن كفَر وكذَّب بالله مآلُه إلىٰ النار، ولن يُغنِيَ عنه مالُه ولا ولَدُه؛ ذكَر أنَّ شأنَ هؤلاء في تكذيبِهم لرسول الله ﷺ وترتُّبِ العذاب علىٰ كفرِهم كشأنِ مَن تقدَّم مِن كفارِ الأُمَم؛ أُخِذوا بذنوبهم، وعُذِّبوا عليها، ونبَّه علىٰ آلِ فِرْعونَ؛ لأنَّ الكلامَ مع بني إسرائيلَ، وهم يعرفون ما جرىٰ لهم حين كذَّبوا بموسىٰ؛ مِن إغراقِهم، وتصييرِهم آخِرًا إلىٰ النار، وظهورِ بني إسرائيلَ عليهم، وتوريثِهم أماكنَ مُلْكِهم؛ ففي هذا كلِّه بِشارةٌ لرسولِ الله ﷺ ولِمَن آمَن به: أنَّ الكفارَ مآلُهم في الدنيا إلىٰ الاستئصال، وفي الآخرةِ إلىٰ النار؛ كما جرىٰ لآلِ فِرْعونَ؛ أُهلِكوا في الدُّنيا، وصاروا إلىٰ النار(١).

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ١٢ ﴾

ولمَّا تمَّ ذلك علىٰ هذه الوجوهِ الظاهرة التي أوجَبتِ اليقينَ لكل مُنصِفٍ بأنَّهم مغلوبون، وصَل بها أمرَه ﷺ، وهو الحبيبُ العزيز، بأن يُصرِّحَ لهم بمضمونِ ذلك، فقال: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾(٢).

استئنافٌ ابتدائيٌّ للانتقالِ مِن النِّذارة إلىٰ التَّهديد، ومِن ضربِ المثَلِ لهم بأحوالِ سَلَفِهم في الكفر إلىٰ ضربِ المثل لهم بسابقِ أحوالهم المؤذِنة بأنَّ أمرهم صائرٌ إلىٰ زوالٍ، وأنَّ أمر الإسلام ستندَكُّ له صُمُّ الجبال، وجِيءَ في هذا التهديدِ بأطنَبِ عبارةٍ وأبلَغِها؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إطنابٍ لمزيدِ الموعظة والتذكير بوصفِ يومٍ كان عليهم، يَعلَمونه(٣).

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٣٦).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٢٦١).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ١٧٥).

ولمَّا أخبَر تعالىٰ قبلُ أنَّ الذين كفروا لن تُغنِيَ عنهم أموالُهم ولا أولادهم، وأنَّهم وقودُ النارِ؛ ناسَب ذلك الوعدَ الصادقَ إتباعُه بهذا الوعدِ الصادق، وهو كالتَّوكيدِ لِما قبله؛ فالغلَبَةُ تحصُلُ بعدمِ انتفاعِهم بالأموالِ والأولاد، والحشرُ لجهنَّمَ مبدأُ كونِهم يكونون لها وقودًا(١).

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا كان الكفرةُ مِن أهلِ الكتاب وغيرِهم مِن العرب بمَعرِضٍ أن يقولوا حين قيل لهم ذلك: كيف نُغلَبُ وما هم فينا إلا كالشَّعرةِ البيضاء في جِلْدِ الثَّور الأسود؟ قيل لهم: إن كانت قصَّةُ آلِ فِرعونَ لم تنفعْكم لجهلٍ أو طُولِ عهدٍ، فإنَّه ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾(٢).

وجهُ النَّظمِ أنَّا ذكَرْنا أنَّ الآيةَ المتقدِّمة، وهي قولُه تعالىٰ: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ ﴾، نزَلتْ في اليهود، وأنَّ رسولَ الله ﷺ لمَّا دعاهم إلىٰ الإسلام، أظهَروا التَّمردَ، وقالوا: لَسْنا أمثالَ قُرَيشٍ في الضَّعْفِ، وقلَّةِ المعرفةِ بالقتال؛ بل معنا مِن الشَّوكةِ والمعرفة بالقتال ما يَغلِبُ كلَّ مَن ينازِعُنا، فاللهُ تعالىٰ قال لهم: إنَّكم وإن كنتم أقوياءَ وأربابَ العِدَّةِ والعُدَّةِ فإنَّكم ستُغلَبون، ثم ذكَر اللهُ تعالىٰ ما يَجري مَجرىٰ الدَّلالة علىٰ صحَّة تلك الحِكَمِ، فقال: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ﴾؛

(١) البحر المحيط (٣/ ٤٣).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٢٦٢).

يعني: واقعةُ بَدْرٍ كانت كالدَّلالةِ علىٰ ذلك؛ لأنَّ الكثرةَ والعُدَّة كانت مِن جانبِ الكفار، والقِلَّةَ وعدمَ السلاح مِن جانبِ المسلمين، ثم إنَّ الله تعالىٰ قهر الكفارَ، وجعَل المسلمين مُظفَّرين منصورين؛ وذلك يدلُّ علىٰ أنَّ تلك الغلَبةَ كانت بتأييدِ الله ونصرِه، ومَن كان كذلك، فإنَّه يكون غالبًا لجميعِ الخصوم، سواءٌ كانوا أقوياءَ أو لم يكونوا كذلك؛ فهذا ما يَجري مَجرىٰ الدَّلالة علىٰ أنَّه ﷺ يَهزِمُ هؤلاء اليهودَ ويَقهَرُهم، وإن كانوا أربابَ السِّلاح والقُوَّة، فصارت هذه الآيةُ كالدَّلالة علىٰ صحَّة قوله: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ ﴾ الآيةَ؛ فهذا هو الكلامُ في وجهِ النَّظم(١).

الخطابُ في قوله: ﴿ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٌ ﴾ خطابٌ للذين كفروا -كما هو الظاهرُ-؛ لأنَّ المَقامَ للمُحاجَّةِ، فأعقَب الإنذارَ والوعيد بإقامةِ الحُجَّة، فيكون مِن جملةِ المقُولِ، ويجوز أن يكونَ الخطابُ للمسلمين، فيكونَ استئنافًا ناشئًا عن قوله: ﴿سَتُغۡلَبُونَ ﴾؛ إذ لعلَّ كثرةَ المخاطَبين مِن المشركين أو اليهودِ، أو كليهما، يُثيرُ تعجُّبَ السامعين مِن غلَبِهم، فذكَّرهم اللهُ بما كان يومَ بَدْرٍ(٢).

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا عُلِم بهذا أنَّ الذي وقَف بهم عن الإيمانِ مِن الأموال والأولاد وسائرِ المتاع إنَّما هو شهواتٌ وعرَضٌ زائلٌ، لا يُؤثِرُه علىٰ اتِّباع ما شرَعه المَلِكُ إلا مَن انسلَخ مِن صفاتِ البشَرِ إلىٰ طَوْرِ البهائم التي لا تَعرِفُ إلا الشَّهواتِ، وختم ذلك بذِكْرِ آيةِ

(١) مفاتيح الغيب (٧/ ١٥٥، ١٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ١٧٦).

الفِئَتينِ؛ كان كأنَّه قيل: الآيةُ: العلامةُ، ومِن شأنها الظُّهورُ، فما حجَبها عنهم؟ فقيل: تزيينُ الشَّهواتِ لِمَن دَنَتْ هِمَّتُه[1].

لمَّا أظهَر ﷻ في هذه السُّورةِ ما أظهَره بقاءً لعَلَنِ قيُّوميَّته مِن تنزيلِ الكتاب الجامع الأولِ، وإنزالِ الكتبِ الثلاثة: إنزال التَّوراة بما أنشا عليه قومَها مِن وَضْعِ رَغْبتِهم ورَهْبتِهم في أمرِ الدنيا، فكان وعيدُهم فيها ووعدُهم علىٰ إقامةِ ما فيها إنَّما هو برغبةٍ في الدنيا ورَهْبتِها؛ لأنَّ كلَّ أمَّةٍ تُدْعَىٰ لنحوِ ما جُبِلتْ عليه مِن رغبةٍ ورهبة، فمِن مجبولٍ علىٰ رغبةٍ ورهبة في أمر الدنيا، ومِن مجبولٍ علىٰ ما هو مِن نحوِ ذلك في أمر الآخرة، ومِن مفطورٍ علىٰ ما هو مِن غيرِ ذلك مِن أمر الله، فيَرِدُ خطابُ كلِّ أمَّةٍ ويَنزِلُ عليها كتابُها مِن نحوِ ما جُبِلتْ عليه؛ فكان كتابُ التَّوراةِ كتابَ رجاءٍ ورغبة وخوفٍ ورهبة في موجودِ الدنيا، وكان كتابُ الإنجيلِ كتابَ دعوةٍ إلىٰ ملكوت الآخرة، وكانا متقابِلَينِ، بينهما ملابَسةٌ، لم يفصِّلْ أمرَهما فُرْقانٌ واضح، فكثُرَ فيهما الاشتباهُ؛ فأنزَل اللهُ تعالىٰ الفُرْقانَ لرفعِ لَبْسِ ما فيهما؛ فأبان فيه المُحكَمَ والمتشابِهَ مِن منزلِ الوحيِ، وكما أبان فيه فُرْقانَ الوحيِ، أبان فيه أيضًا فُرْقانَ الخَلْقِ، وما اشتبَه مِن أمرِ الدنيا والآخرة، وما التبَس علىٰ أهلِ الدنيا مِن أمرِ الخَلْقِ بلوائحِ آياتِ الحق عليهم؛ فتبيَّنَ في الفُرْقانِ مُحكَمُ الوحيِ مِن متشابِهِه، ومُحكَمُ الخَلْقِ مِن متشابِهِه، وكان متشابِهُ الخَلْقِ هو المُزيَّنَ مِن متاع الدنيا، ومُحكَمُ الخَلْقِ هو المحقَّقَ مِن دوامِ خَلْقِ الآخرة، فاطَّلَع نجمُ هذه الآيةِ لإنارةِ غَلَسِ ما بُنِيَ عليه أمرُ التَّوراة مِن إثبات أمر الدنيا لهم وعدًا ووعيدًا؛ لتكونَ هذه الآيةُ توطئةً لتحقيق صَرْفِ النَّهيِ عن مَدِّ اليدِ والبصرِ إلىٰ ما مُتِّعَ به أهلُها، فأنبأ تعالىٰ أنَّ متاعَ الدنيا أمرٌ مُزيَّنٌ، لا حقيقةَ لزينتِه، ولا حُسْنَ لِما وراءَ زُخْرفِه، فقال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ

(١) نظم الدرر (٤/ ٢٦٧).

وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾(١).

استئنافٌ نشأ عن قوله: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾؛ إذ كانت إضافةُ أموالٍ وأولاد إلىٰ ضميرِ «هم» دالَّةً علىٰ أنَّها معلومةٌ للمسلمين، قُصِد منه عِظَةُ المسلمين ألا يَغترُّوا بحالِ الذين كفَروا، فتُعجِبَهم زينةُ الدنيا، وتُلهِيَهم عن التهمُّمِ(٢) بما به الفوزُ في الآخرة؛ فإنَّ التحذيرَ مِن الغاياتِ يستدعي التحذيرَ مِن البدايات، وقد صُدِّر هذا الوعظُ والتأديب ببيانِ مدخلِ هذه الحالةِ إلىٰ النفوس؛ حتىٰ يكونوا علىٰ أشَدِّ الحذَرِ منها؛ لأنَّ ما قارنتُه النفسُ ينساب إليها مع الأنفاس(٣).

لمَّا قال في الآية المتقدِّمة: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾، ذكَر بعد هذه الآية ما هو كالشَّرح والبيان لتلك العبرة؛ وذلك هو أنَّه تعالىٰ بيَّن أنَّه زيَّن للنَّاس حُبَّ الشَّهوات الجسمانيَّة، واللَّذات الدُّنيويَّة، ثم إنَّها فانيةٌ منقضيةٌ تذهب لذاتها، وتبقىٰ تبعاتها(٤).

كلامٌ مستأنَفٌ سِيقَ لبيانِ حقارة شأنِ الحظوظ الدُّنيويَّة بأصنافِها، وتزهيدِ الناس فيها، وتوجيهِ رغباتِهم إلىٰ ما عنده تعالىٰ، إثْرَ بيانِ عدم نفعِها للكفَرةِ الذين كانوا يَتعزَّزون بها(٥).

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٢٦٩).

(٢) أي: التطلُّب والتتبُّع.

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ١٧٨).

(٤) مفاتيح الغيب (٧/ ١٥٩).

(٥) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٤).

﴿ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥ ﴾

ولمَّا ذكَر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما أوجَب الإعراضَ عن هذا العرضِ، فكان السامعُ جديرًا بأن يقولَ: فعلامَ أُقبِلُ؟ أمَر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أقربَ الخَلْقِ إليه وأعزَّهم لديه بجوابِه؛ لتكونَ البشارةُ داعيةً إلىٰ حُبِّه، فقال: ﴿ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾[(١)].

استئنافٌ بيانيٌّ؛ فإنَّه نشأ عن قوله: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ المقتضي أنَّ الكلامَ مسُوقٌ مساقَ الغضِّ مِن هذه الشهواتِ، وافتُتح الاستئنافُ بكلمة ﴿ قُلۡ ﴾ للاهتمام بالمقُولِ، والمخاطَبُ بـ﴿ قُلۡ ﴾ النبيُّ ﷺ، والاستفهامُ للعرضِ تشويقًا مِن نفوسِ المخاطَبين إلىٰ تلَقِّي ما سيُقَصُّ عليهم[(٢)].

أنَّه تعالىٰ لمَّا عدَّد نِعَمَ الدُّنيا، بيَّن أنَّ منافعَ الآخرة خيرٌ منها[(٣)].

كأنَّه تعالىٰ نبَّه علىٰ أنَّ أمرك في الدُّنيا وإن كان حسَنًا منتظِمًا إلا أنَّ أمرك في الآخرةِ خيرٌ وأفضلُ، والمقصودُ منه أن يَعلَمَ العبدُ أنَّه كما أنَّ الدُّنيا أطيَبُ وأوسع وأفسح مِن بطنِ الأُمِّ، فكذلك الآخرةُ أطيَبُ وأوسع وأفسح مِن الدُّنيا[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٢٧٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ١٨٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٧/ ١٦٤).

(٤) مفاتيح الغيب (٧/ ١٦٤).

ولمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّ ﴿عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾، ذكَر المآبَ، وأنَّه خيرٌ مِن متاع الدُّنيا؛ لأنَّه خيرٌ خالٍ مِن شَوْبِ المَضارِّ، وباقٍ لا ينقطع[(١)].

إثرَ ما بيَّن شأنَ مُزَخْرَفاتِ الدنيا، وذكَر ما عنده تعالىٰ مِن حُسْنِ المآب إجمالًا؛ أمَر النبيَّ ﷺ بتفصيلِ ذلك المُجمَلِ للناس؛ مبالَغةً في الترغيب[(٢)].

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦﴾

ولمَّا أخبَر ﷻ بأنَّه بصيرٌ بمَن يستحِقُّ ما أعَدَّ مِن الفوز، أتبَعه ما استحَقُّوا ذلك به مِن الأوصاف؛ تفضُّلًا منه عليهم بها، وبإيجابِ ذلك علىٰ نفسِه؛ حثًّا لهم علىٰ التَّخلُّق بتلك الأوصافِ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[(٣)].

لمَّا وصَف تعالىٰ قلوبَهم بالتَّقوىٰ، وبرَّأهم مِن الاستغناء بشيءٍ مِن دُونِه؛ وصَف أدبَهم في المقالِ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[(٤)].

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ عطفُ بيانٍ ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾، وصَفهم بالتقوىٰ، وبالتوجُّهِ إلىٰ الله تعالىٰ بطلبِ المغفرة[(٥)].

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٥٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٥).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٢٧٩).

(٤) نظم الدرر (٤/ ٢٧٩).

(٥) التحرير والتنوير (٣/ ١٨٤).

﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝١٧ ﴾

ولمَّا وصَف تقوىٰ قلوبِهم باطنًا، وأدبَ مقالِهم ظاهرًا؛ وصَف لهم أحوالَ أنفسهم؛ ليتطابَقَ ظاهرُ أمرِهم بمتوسِّطِه وباطنِه، فقال: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾[(١)].

قولُه: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ الآيةَ، صفاتٌ ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾، أو صفاتٌ للذين يقولون، والظاهرُ الأول، وذكَر هنا أصولَ فضائلِ صفات المتديِّنين؛ وهي: الصَّبْرُ الذي هو مِلاكُ فعل الطاعات وتركِ المعاصي، والصدقُ الذي هو مِلاكُ الاستقامة وبَثِّ الثقةِ بَيْنَ أفرادِ الأمَّة، والقنوتُ، وهو ملازمةُ العباداتِ في أوقاتها وإتقانُها، وهو عبادةٌ نفسية جسدية، والإنفاقُ، وهو أصلُ إقامةِ أودِ[(٢)] الأمَّةِ بكفايةِ حاجِ[(٣)] المحتاجين، وهو قُرْبةٌ مالية، والمالُ شقيقُ النفس، وزادَ الاستغفارَ بالأسحار، وهو الدعاءُ والصلاة المشتمِلة عليه في أواخرِ الليل، والسَّحَرُ سُدُسُ الليلِ الأخير؛ لأنَّ العبادةَ فيه أشَدُّ إخلاصًا؛ لِما في ذلك الوقتِ مِن هدوءِ النفوس، ولدَلالتِه علىٰ اهتمامِ صاحبه بأمرِ آخرته، فاختار له هؤلاء الصادقون آخِرَ الليل؛ لأنَّه وقتُ صفاءِ السرائر، والتجرُّدِ عن الشواغل[(٤)].

لمَّا ذكَر الإيمانَ بالقول، أخبَر بالوصفِ الدَّالِّ علىٰ حَبْسِ النَّفس علىٰ ما هو شاقٌّ عليها مِن التَّكاليف، فصبَروا علىٰ أداء الطاعة، وعن اجتناب المَحارِم، ثم بالوصفِ

(١) نظم الدرر (٤/ ٢٨١-٢٨٣).

(٢) أي: اعوجاج.

(٣) جمع: حاجة.

(٤) التحرير والتنوير (٣/ ١٨٥).

الدَّال علىٰ مطابَقةِ الاعتقادِ في القلب لِلَّفْظِ النَّاطقِ به اللسانُ؛ فهم صادقون فيما أخبَروا به[١].

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨ ﴾

لمَّا أخبرَ ﷻ بوَحْدانيَّته في أولِ السُّورة، واستدَلَّ عليها، وأخبَر عمَّا أعَدَّ للكافرين، واستدَلَّ عليه بما دَلَّ علىٰ الوَحْدانيَّة، وختَم بالإخبارِ بما أعَدَّ للمتَّقِين ممَّا جَرَّ إلىٰ ذِكْرِه تعالىٰ بما يقتضي الوَحْدانيَّةَ أيضًا مِن الأوصافِ المبنيَّة علىٰ الإيمان؛ أنتَج ذلك ثبوتَها ثبوتًا لا مِرْيَةَ فيه، فكرَّر تعالىٰ هذه النتيجةَ علىٰ وجهٍ أضخَمَ مِن الماضي؛ كما اقتضته الأدلةُ، فقال: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٢].

لمَّا أنهىٰ تعالىٰ الفُرْقانَ نهايتَه ببيانِ المُحكَمينِ والمتشابِهينِ في الوحي والكون، انتظَمتْ هذه الشَّهادةُ التي هي أعظَمُ شَهادةٍ في كتاب الله بآيةِ القيُّوميَّةِ التي هي أعظَمُ آيةِ الوجود؛ لينتظِمَ آيةُ الشهودِ بآيةِ الوجود[٣].

استئنافٌ وتمهيد لقولِه: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾؛ ذلك أنَّ أساسَ الإسلام هو توحيدُ الله، وإعلانُ هذا التوحيد، وتخليصُه مِن شوائبِ الإشراك، وفيه تعريضٌ بالمشركين وبالنصارىٰ واليهود، وإن تفاوَتوا في مراتبِ الإشراك، وفيه ضربٌ مِن رَدِّ العَجُزِ علىٰ الصَّدْرِ؛ لأنَّه يؤكِّدُ ما افتُتِحت به السُّورةُ مِن قوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾[٤].

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٥٧).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٢٨٧).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٢٨٧).

(٤) التحرير والتنوير (٣/ ١٨٦).

اعلَـمْ أنَّـه تعـالىٰ لمَّـا مـدَح المـؤمنين وأثنـىٰ علـيهم بقولِـه: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾، أردفه بـأنْ بيَّن أنَّ دلائـلَ الإيمـان ظـاهرةٌ جليَّةٌ، فقـال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾(١).

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا كان ذلك، عُلِم أنَّه يجبُ أن تَخضَعَ لـه الرقـابُ، ويُخلِصَ لـه التَّوحيدَ جميعُ الألباب؛ وذلك هو الإسلامُ، فقال مُعلِّلًا للشَّهادة منهم بالعدل: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(٢).

استئنافٌ ابتدائيٌّ لبيانِ فضيلة هذا الدِّينِ بأجمَعِ عبارةٍ وأوجزها، وهذا شـروعٌ في أولِ غـرَضٍ أُنزِلـتْ فيه هـذه السُّورةُ: غـرضِ مُحاجَّـةِ نصارىٰ نَجْرانَ، فهـذا الاستئنافُ مِن مناسبات افتتاحِ السُّورةِ بذِكْرِ تنزيـلِ القـرآن والتَّـوراة والإنجيـل، ثـم بتخصيصِ القرآن بالذِّكر، وتفضيلِه بأنَّ هَدْيَه يفُوقُ هَدْيَ ما قبله مِن الكتبِ؛ إذ هو الفُرْقانُ؛ فإنَّ ذلك أُسُّ الـدِّين القـويم، ولـمَّـا كـان الكـلامُ المتقـدِّم مشتمِلًا علىٰ تعـريضٍ بـاليهود والنصـارىٰ الـذين كـذَّبوا بـالقرآن، وإبطـالٍ لقـولِ وفـدِ نَجْـرانَ لمَّـا طلَـب مـنهم الرسولُ ﷺ الإسلامَ: أسـلَمْنا قبلـك، فقـال لهـم: «كـذَبْتم»(٣)؛ ناسَـب أن ينوِّهَ بعد ذلك بالإسلامِ الذي جاء به القـرآنُ؛ ولـذلك عطَـف علىٰ هـذه الجملةِ قولَـه: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، واعلَـمْ أنَّ جُمَـلَ الكـلامِ

---

(١) مفاتيح الغيب (٧/ ١٦٨).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٢٩٢).

(٣) أخرجه أحمد في "فضائل الصحابة" (١٣٧٤).

البليغ لا يخلو انتظامُها عن المناسبة، وإن كان بعضُها استئنافًا، وإنَّما لا تُطلَب المناسبةُ في المحادَثات والاقتضابات[١].

ولمَّا شَهِد تعالىٰ لنفسِه بالوحدانيَّة، وشَهِد له بذلك الملائكةُ وأولو العلم؛ حكَمَ أنَّ الدِّينَ المقبول عند الله هو الإسلامُ؛ فلا ينبغي لأحدٍ أن يَعدِلَ عنه[٢].

ولمَّا قرَّر أنَّه الإلهُ الحقُّ المعبود، بيَّن العبادةَ والدِّين الذي يتعيَّن أن يُعبَدَ به، ويُدانَ له؛ وهو الإسلامُ، الذي هو الاستسلامُ للهِ بتوحيدِه وطاعته التي دعَتْ إليها رُسلُه، وحثَّتْ عليها كُتبُه، وهو الذي لا يُقبَل مِن أحدٍ دِينٌ سِواه[٣].

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾

ولمَّا تمَّ ذلك، كان كأنَّه قيل: قد جئناك بالأمرِ الواضح الذي لا يشُكُّون فيه، ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾، قال الحَرالِّيُّ: ولمَّا أدرَج تعالىٰ شَهادةَ الملائكة وأُولي العلم في شهادته، لقَّن نبيَّه ﷺ أن يُدرِجَ مَن اتَّبعه في إسلامِه وجهَه لله؛ ليكونَ إسلامُهم بإسلام نبيِّهم ﷺ، لا بإسلامِ أنفسهم؛ لتَلحَقَ التابعةُ مِن الأمَّةِ بالأئمَّة؛ وذلك حالُ الفِرْقةِ الناجية مؤثرةِ الفِرَق الاثنتين والسَّبعين، التي قال النبي ﷺ: «ما أنا عليه وأصحابي»[٤] فيما أوتوه مِن الانقياد، وبراءتِهم مِن الرجوع

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٨٨).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٦٩).

(٣) تفسير السعدي (ص: ١٢٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٤١).

إلىٰ أنفسِهم في أمرٍ، كما كانوا يقولون عند كلِّ ناشئةِ علمٍ أو أمرٍ: اللهُ ورسوله أعلم، فمَن دخَل برأيه في أمرٍ، نقَص حظُّه مِن الاتِّباع بحسَبِ استبدادِه(١).

تفريعٌ علىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ الآية؛ فإنَّ الإسلامَ دِينٌ قد أنكَروه، واختلافُهم في أديانهم يُفضِي بهم إلىٰ مُحاجَّةِ الرسول في تبريرِ ما هم عليه مِن الدِّين، وأنَّهم ليسوا علىٰ أقَلَّ ممَّا جاء به دِينُ الإسلام(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر مِن قبلُ أنَّ أهلَ الكتاب اختلَفوا مِن بعدِ ما جاءهم العلمُ، وأنَّهم أصَرُّوا علىٰ الكفرِ مع ذلك؛ بيَّن اللهُ تعالىٰ للرسول ﷺ ما يقوله في مُحاجَّتهم(٣).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

ولمَّا أشرَكَ اليهودُ في هذا الخطابِ السابق، وأفهَمَ شرطُ التَّولي بأداة الشَّك وقوعَه، فتشوَّفتِ النَّفسُ إلىٰ معرفة جزائهم؛ أشار إليه هنا واصفًا لهم ببعضِ ما اشتَدَّ فُحْشُه مِن أفعالهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٤).

ولمَّا كانت هذه السُّورةُ منزَّلةً لتبيينِ ما اشتبَه علىٰ أهلِ الإنجيل، جرَىٰ ذِكْرُ أهلِ التَّوراة فيها مُجمَلًا بجوامعَ مِن ذِكْرِهم؛ لأنَّ تفاصيلَ أمرهم قد استقرأته سورةُ «البقرة»،

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٢٩٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٢٠٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٧/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: نظم الدرر (٤/ ٢٩٨).

فكان أمرُ أهلِ التَّوراة في سورة «البقرة» بيانًا، وأهلِ الإنجيل إجمالًا، وكان أمرُ أهلِ الإنجيل في سورة «آلِ عِمْران» بيانًا، وذِكْرُ أهلِ التَّوراة إجمالًا؛ لِما كان لَبَسَ أهلُ التَّوراة في الكتابِ، فوقَع تفصيلُ ذِكْرِهم في سورةِ «البقرة»، ولمَّا كان اشتباهُ أمرِ أهل الإنجيل في شأنِ الإلهيَّة، كان بيانُ ما تشابَهَ عليهم في سورةِ «آلِ عِمْران»، فجاء هذا الذِّكْرُ لأهلِ التَّوراة معادَلةً بينهم وبين أهل الإنجيل بما كفَروا بالآيات مِن المعنى الذي اشتركوا فيه في أمرِ الإلهيَّة في عُزَيرٍ، واختَصُّوا بقتلِ الأنبياء، وقتلِ أهل الخير الآمِرين بالقِسط[1].

استئنافٌ لبيانِ بعض أحوال اليهود، المنافيةِ إسلامَ الوجهِ لله؛ فالمرادُ بأصحابِ هذه الصلاتِ خصوصُ اليهود، وهم قد عرَفوا بمضمونِ هذه الصلات في مواضعَ كثيرةٍ مِن القرآن؛ والمناسبةُ: جريانُ الجدالِ مع النصارى، وأن جُعِلوا جميعًا في قَرنٍ قوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡ﴾[2].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا ذكَر مِن قبلُ حالَ مَن يُعرِضُ ويتولى، أردَفه بصفةِ هذا المتولِّي؛ فذكَر ثلاثةَ أنواعٍ مِن الصِّفات[3].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٢﴾

ولمَّا كان الحال ربما اقتضى أن يقالَ مِن بعضِ أهل الضَّلال: إنَّ لهؤلاء أعمالًا حِسانًا، واجتهاداتٍ في الطَّاعة عظيمةً؛ بيَّن تعالى أنَّ تلك الأفعالَ مجرَّدُ صُوَرٍ

(١) نظم الدرر (٤/ ٢٩٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٢٠٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٧/ ١٧٦).

لا معانيَ لها؛ لتضييعِ القواعد، كما أنَّهم هم أيضًا ذواتٌ بغيرِ قلوبٍ؛ لتقعَ المناسبةُ بَيْنَ الأعمالِ والعاملين، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾(١).

جِيءَ باسمِ الإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾؛ لأنَّهم تميَّزوا بهذه الأفعالِ التي دلت عليها صلاتُ الموصول أكمَلَ تمييزٍ، وللتنبيهِ علىٰ أنَّهم أحِقَّاءُ بما سيُخبَرُ به عنهم بعد اسمِ الإشارة(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ كما وصَفهم بهذه الصفاتِ الثلاثة، فقد ذكَر وعيدَهم مِن ثلاثة أوجه: الأول: قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، والنوع الثاني مِن الوعيد: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن بهذا أنَّ محاسنَ أعمالِ الكفار مُحبَطةٌ في الدنيا والآخرة، أمَّا الدنيا: فبإبدالِ المدح بالذم، والثناءِ باللَّعن، ويدخُلُ فيه ما ينزلُ بهم مِن القتلِ والسَّبْيِ، وأخذِ الأموال منهم غَنيمةً، والاسترقاقِ لهم، إلىٰ غيرِ ذلك مِن الذُّلِّ الظاهر فيهم، وأمَّا حبوطُها في الآخرةِ: فبإزالةِ الثواب إلىٰ العقاب، والنوع الثالث مِن وعيدهم: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بيَّن بالنوعِ الأول مِن الوعيد اجتماعَ أسبابِ الآلام والمكروهات في حقِّهم، وبيَّن بالنوع الثاني زوالَ أسبابِ المنافع عنهم بالكلية، وبيَّن بهذا الوجهِ الثالث لزومَ ذلك في حقِّهم علىٰ وجهٍ لا يكون لهم ناصرٌ ولا دافع، والله أعلم(٣).

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٣٠١).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٢٠٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٧/ ١٧٧).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا كان مِن المعلوم أنَّ ثباتَ الأعمال وزكاءَها إنَّما هو باتِّباعِ أمر الله ﷻ وأمرِ رسوله ﷺ وأمرِ الذين وَرِثوا العلمَ عنه، دلَّ علىٰ ما أخبَرَ به مِن الحبوطِ وعدمِ النَّصر بما يُشاهَدُ مِن أحوالِهم في منابَذةِ الدِّين، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1].

استئنافٌ ابتدائي للتعجيبِ مِن حالةِ اليهود في شِدَّة ضَلالهم؛ فالاستفهامُ في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتقريرِ والتعجيب، وقد جاء الاستعمال في مثلِه أن يكونَ الاستفهامُ داخلًا علىٰ نفيِ الفعل، والمرادُ حصولُ الإقرار بالفعل؛ ليكونَ التقريرُ علىٰ نفيه محرِّضًا للمخاطَبِ علىٰ الاعترافِ به بِناءً علىٰ أنَّه لا يَرضَىٰ أن يكونَ ممَّن يَجهَلُه[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا نبَّه علىٰ عنادِ القوم بقولِه: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾، بيَّن في هذه الآيةِ غايةَ عنادهم؛ وهو أنَّهم يُدْعَوْنَ إلىٰ الكتابِ الذي يزعُمون أنَّهم يؤمنون به، وهو التَّوراةُ، ثم إنَّهم يَتمرَّدُون، ويَتولَّوْنَ؛ وذلك يدُلُّ علىٰ غايةِ عنادهم[3].

تعجيبٌ لرسولِ الله ﷺ أو لكلِّ مَن يَتأتىٰ منه الرؤيةُ مِن حالِ أهلِ الكتاب وسُوءِ صنيعهم، وتقريرٌ لِما سبق مِن أنَّ اختلافَهم في الإسلام إنَّما كان بعد ما جاءهم العلمُ بحَقِّيَّته[4].

(١) نظم الدرر (٤/ ٣٠٢).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٢٠٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٧/ ١٧٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٠).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾

ثم علَّل اجتراءهم على الله تعالى، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾(١).

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ الإشارةُ إلى تولِّيهم وإعراضِهم، والباءُ للسَّببية؛ أي: إنَّهم فعَلوا ما فعلوا بسبب زعمِهم أنَّهم في أمانٍ مِن العذاب إلا أيامًا قليلة، فانعدَم اكتراثُهم باتِّباعِ الحق؛ لأنَّ اعتقادَهم النجاةَ مِن عذابِ الله على كلِّ حالٍ جرَّأهم على ارتكابِ مثلِ هذا الإعراض، وهذا الاعتقادُ مع بطلانه مؤذِنٌ أيضًا بسَفالةِ هِمَّتِهم الدِّينية، فكانوا لا ينافِسون في تزكيةِ الأنفس، وعبَّر عن الاعتقادِ بالقول دَلالةً على أنَّ هذا الاعتقادَ لا دليلَ عليه، وأنَّه مُفترًى مُدلَّسٌ، وهذه العقيدةُ عقيدة اليهود؛ كما تقدَّم في «البقرة»(٢).

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)﴾

ولمَّا تسبَّب عن اجترائهم بالكذبِ على الله أن يُسأَل عن حالهم معه، قال صارفًا القولَ إلى مظهرِ العظَمةِ، المقتضي للمجازاةِ والمناقشة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٣٠٤).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٢١٠).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٣٠٦).

قوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فيه تفريعٌ عن قوله: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم ﴾؛ أي: إذا كان ذلك غرورًا، فكيف حالُهم أو جزاؤهم إذا جَمْعناهم ووفَّيْناهم جزاءهم؟! والاستفهامُ هنا مستعمَلٌ في التعجيبِ والتفظيع مجازًا[١].

أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عنهم اغترارَهم بما هم عليه مِن الجهل، بيَّن أنَّه سيجيء يومٌ يزولُ فيه ذلك الجهلُ، ويُكشَف فيه ذلك الغُرورُ[٢].

هذا تعجيبٌ مِن حالهم، واستعظامٌ لعِظَمِ مقالتِهم حين اختلفت مطامعُهم، وظهَر كذبُ دَعْواهم؛ إذ صاروا إلىٰ عذابٍ ما لهم حيلةٌ في دفعِه[٣].

ثم رَدَّ قولهم المذكورَ، وأبطَل ما غَرَّهم باستعظامِ ما أعَدَّ لهم، وتهويلِه، وأنَّهم يقعون فيما لا حيلةَ لهم في دفعِه بقولِه: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[٤].

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾

ولمَّا أخبرَ تعالىٰ أنَّ الكفارَ سيُغلَبون، وأنَّه ليس لهم مِن ناصرين؛ كان حالُهم مقتضِيًا لأن يقولوا: كيف ونحن أكثرُ مِن الحصىٰ، وأشَدُّ شكائمَ مِن لُيوثِ الشَّرىٰ؛ فكيف نُغلَب؟ أم كيف لا ينصُرُ بعضُنا بعضًا، وفينا الملوكُ والأمراء، والأكابر والرُّؤساء،

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢١١).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ١٨٠).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٨٣).

(٤) محاسن التأويل (٢/ ٣٠١).

ومُناوُونا[1] القليلُ الضُّعفاء، أهلُ الأرضِ الغَبْراء، وأولو البأساءِ والضَّراء؟! فقال تعالىٰ لينتبهَ الراقدون مِن فُرُشِ الغَفَلات، المتقلِّبون في فلَواتِ البَلادات، مِن تَلهِّيهم بما رأَوْا وسَمِعوا مِن نزعِ المُلْكِ مِن أقوىٰ الناس وإعطائه لأضعَفِهم، فيَعلَموا أنَّ الذي مِن شأنه أن يفعلَ ذلك مع بعضِ أعدائه جديرٌ بأن يفعلَ أضعافَه لأوليائه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

ولمَّا كان هذا الأمرُ نبوَّةً، ثم خلافة، ثم مُلْكًا، فانتظَم بما تقدَّم مِن أول السُّورة أمرُ النبوَّةِ في التنزيل والإنزال، وأمرُ الخلافة في ذِكْرِ الراسخين في العلمِ الذين يقولون: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾، وكانت مِن هِجِّيرىٰ[3] أبي بكرٍ ﷺ، يقنُتُ بها في وِتْرِ صلاةِ النهار في آخرِ ركعةٍ مِن المغرب؛ انتظَم برؤوسِ تلك المعاني ذِكْرُ المُلْكِ الذي آتىٰ اللهُ هذه الأمَّةَ، وخَصَّ به مَن لاقَ به المُلْكُ، كما خَصَّ بالخلافةِ مَن صلَحتْ له الخلافةُ، كما تعيَّن للنبوَّة الخاتمةِ مَن لا يَحمِلُها سِواه[4].

استئنافٌ ابتدائيٌّ المقصودُ منه التَّعريضُ بأهل الكتاب بأنَّ إعراضَهم إنَّما هو حسَدٌ علىٰ زوال النُّبوة منهم، وانقراضِ الملك منهم، بتهديدِهم، وبإقامة الحُجَّة عليهم في أنَّه لا عجَبَ أن تنتقلَ النُّبوةُ مِن بني إسرائيلَ إلىٰ العرب، مع الإيماء إلىٰ أنَّ الشَّريعةَ الإسلاميَّة شريعةٌ مقارِنةٌ للسُّلطان والمُلك[5].

---

(١) من المناوأة، وهي: المعاداة.

(٢) نظم الدرر (٤/ ٣٠٨).

(٣) أي: عادة.

(٤) نظم الدرر (٤/ ٣٠٩).

(٥) التحرير والتنوير (٣/ ٢١٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر دلائلَ التَّوحيد والنُّبوة، وصحَّة دِين الإسلام، ثم ذكَر مِن صفات المخالِفين كُفْرَهم بالله، وقَتْلَهم الأنبياءَ والصَّالحين بغير حقٍّ، وذكَر شدَّةَ عنادِهم وتمرُّدهم، ثم ذكَر شدَّةَ غرورِهم، ثم ذكَر وعيدَهم؛ أمَر رسولَ الله ﷺ بدعاءٍ وتمجيدٍ يدُلُّ علىٰ مبايَنةِ طريقِه وطريقِ أتباعه لطريقةِ هؤلاء الكافرين المعانِدين المعرِضين، فقال مُعلِّمًا نبيَّه كيف يمجِّدُ ويعظِّمُ ويدعو ويطلب: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾(١).

تأكيدٌ لِما تُشعِر به الآيةُ السابقة مِن مزيدِ عظَمتِه تعالىٰ، وعظيمِ قُدْرته، وفيه أيضًا إفحامٌ لِمَن كذَّب النبيَّ ﷺ وردَّ عليه، لا سيما المنافِقين الذين هم أسوأ حالًا مِن اليهودِ والنصارىٰ، وبِشارةٌ له ﷺ بالغلَبةِ الحِسِّية علىٰ مَن خالَفه كغلَبتِه بالحجَّةِ علىٰ مَن جادَله، وبهذا تنتظمُ هذه الآيةُ الكريمة بما قبلها(٢).

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾

فلمَّا ثبَتتْ خَصُوصيَّتُه سُبحانَه وتعالىٰ بصفةِ القدرةِ علىٰ الوجه الأعمِّ، ذكَر بعضَ ما تحت ذلك ممَّا لم يدخُلْ شيءٌ منه تحت قدرةِ غيره، فقال: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾(٣).

ولمَّا كانت هذه الآيةُ متضمِّنةً تقلُّباتٍ نفسانيةً في العالَمِ القائم الآدمي، اتصَل بها ذِكْرُ تقلُّباتٍ في العالَم الدائر؛ ليؤخَذَ لكلٍّ منها اعتبارٌ مِن الآخَر، ولمَّا ظهَر في هذه الآيةِ افتراقُ النَّزْعِ والإيتاء والإعزازِ والإذلال، أبدىٰ في الآيةِ التالية تَوالُجَ(٤) بعضِها في

---

(١) مفاتيح الغيب (٨/ ١٨٥).

(٢) روح المعاني (٢/ ١٠٨).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٣١٧-٣١٩).

(٤) أي: تداخل.

بعضٍ؛ ليؤذِنَ بولوجِ العِزِّ في الذُّل والذُّلِّ في العِز، والإيتاءِ في النَّزع والنَّزع في الإيتاء، وتوالُجِ المفترِقات والمتقابِلات بعضِها في بعضٍ، ولمَّا كانت هذه السُّورةُ متضمِّنةً لبيانِ الإحكام والتشابُهِ في منزلِ الكتاب بحُكْمِ الفُرْقان، أظهَر تعالىٰ في آياتِها ما أُحكِمَ وبُيِّن في خَلْقِه وأمرِه، وما التبَس وأُولِجَ في خَلْقِه وأمرِه، فكان مِن مُحكَمِ آيِهِ في الكائنِ القائم الآدميِّ ما تضمَّنه إيتاءُ المُلك ونَزْعُه والإعزاز والإذلال، وكان مِن الاشتباهِ إيلاجُ العِزِّ في الذُّل وإيلاج الذُّل في العز، فلمَّا صرَّح بالإحكامِ ببيانِ الطرَفَينِ في الكائنِ القائم الآدمي، وضمَّن الخطابَ اشتباهَه في ذِكْرِ العِزِّ والذُّل؛ صرَّح به في آيةِ الكون الدائر، فذكَر آيةَ الآفاق، وهو الليلُ والنهار بما يعايَنُ فيها مِن التوالُجِ؛ حيث ظهَر ذلك فيها، وخَفِي في توالُجِ أحوالِ الكائن القائم؛ لأنَّ الإحكامَ والاشتباه مترادٌّ بَيْنَ الآيتين: آيةِ الكائنِ القائم الآدمي، وآيةِ الكونِ الدائر العَرْشي، فما وقَع اشتباهُه في أحدهما، ظهَر إحكامُه في الآخرِ، فقال ﷻ: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[(١)].

عقَّب ذلك ببيانِ قُدْرتِه علىٰ مُعاقَبةِ اللَّيلِ والنَّهار، والموتِ والحياة، وسَعةِ فضلِه؛ دلالةً علىٰ أنَّ مَن قدَر علىٰ ذلك، قدَر علىٰ مُعاقَبةِ الذُّل والعزِّ، وإيتاءِ المُلك ونَزْعِه[(٢)].

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨﴾

ولمَّا بان في الآيةِ السابقة أنْ لا شيءَ في يدِ غيره، واقتضىٰ ذلك قَصْرَ الهِمَمِ عليه، وكان نصارىٰ نَجْرانَ إنَّما داموا علىٰ موالاةِ ملوك الرُّوم لمحضِ الدُّنيا مع العلم

(١) نظم الدرر (٤/ ٣١٩).

(٢) أنوار التنزيل (٢/ ١٢).

ببطلانِ ما هم عليه؛ حذَّر المؤمنين مِن مداناةِ مثلِ ذلك مع كونهم مؤمنين؛ إشارةً إلىٰ أنَّه لا تجتمعُ موالاةُ المؤمنين وموالاة الكافرين في قلبٍ إلا أوشكت إحداهما أن تَغلِبَ علىٰ الأخرىٰ فتَنزِعَها، فقال تعالىٰ منبِّهًا علىٰ ذلك كلِّه، سائقًا مساقَ النَّتيجة لِما قبله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾(١).

ولمَّا كان مضمونُ هاتين الآيتينِ بشرىٰ لخصوصِ هذه الأمَّةِ وعمومها بالعِزِّ والمُلْكِ، وختَم الرِّزْقَ الذي لا حسابَ فيه؛ كان مِن الحق أن تَظهَرَ علىٰ المبشَّرين عِزَّةُ البشرىٰ، فلا يَتولَّوْا غيرَه، ولمَّا قبَض ما بأيدي الخَلْقِ إليه في إيتاءِ المُلْك ونَزْعِه والإعزازِ والإذلال، وأظهَر إحاطةَ قُدْرتِه علىٰ كلِّ شيء، وإقامةَ امتحانه بما أولَجَ وأخرَجَ، وأنبأ عن إطلاقِ حَدِّ العَدِّ عن أرزاقِه، فسَدَّ علىٰ النفسِ الأبوابَ التي منها تَتوهَّمُ الحاجةَ إلىٰ الخَلْقِ؛ نهىٰ المؤمنين الذين كانت لهم عادةٌ بمباطَنة بعضِ كفَرةِ أهلِ الكتاب وغيرِهم مِن المشركين ومَن شَمِله وصفُ الكفرِ أن يَجْرُوا علىٰ عادتِهم في موالاتهم، ومصافاتِهم، والحديثِ معهم؛ لأنَّ المؤمنين يفاوِضونهم بصفاءٍ، والكافرون يَتسَمَّعون ويأخذون منهم بدَغَلٍ(٢) ونفاقٍ عليهم، فنهاهم اللهُ ﷻ عمَّا غاب عنهم خِبرتُه وطِيَّتُه(٣)، فقال تعالىٰ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٢) أي: فساد.

(٣) من الطَّي، والمعنىٰ: غاب عنهم أمره.

(٤) نظم الدرر (٤/ ٣٢٣).

استئنافٌ عُقِّب به الآيُ المتقدِّمة، المتضمِّنةُ عداءَ المشركين للإسلام وأهلِه، وحسَدَ اليهودِ لهم، وتولِّيهم عنه؛ فالمناسبةُ أنَّ هذه كالنتيجة لِما تقدَّمها: نهى اللهُ المؤمنين - بعدما بيَّن لهم بَغْيَ المخالِفين وإعراضَهم- أن يَتَّخِذوا الكفارَ أولياءَ مِن دُونِ المؤمنين؛ لأنَّ اتخاذَهم أولياءَ- بعد أن سفَّه الآخرون دِينَهم، وسَفَّهوا أحلامَهم في اتِّباعِه- يُعَدُّ ضعفًا في الدِّين، وتصويبًا للمعتدِين(١).

في كيفيَّةِ النَّظم وجهان: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر ما يجب أن يكونَ المؤمنُ عليه في تعظيمِ الله تعالىٰ، ثم ذكَر بعده ما يجب أن يكونَ المؤمنُ عليه في المعاملةِ مع الناس؛ لأنَّ كمالَ الأمر ليس إلا في شيئين: التعظيمِ لأمر الله تعالىٰ، والشفقةِ علىٰ خَلْقِ الله؛ قال: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. الثاني: لمَّا بيَّن أنَّه تعالىٰ مالكُ الدنيا والآخرة، بيَّن أنَّه ينبغي أن تكونَ الرغبةُ فيما عنده، وعند أوليائه دُونَ أعدائه(٢).

لمَّا ذكَر ما يجب أن يكونَ المؤمنُ عليه مِن تعظيمِ الله تعالىٰ، والثَّناءِ عليه بالأفعال التي يختصُّ بها؛ ذكَر ما يجب علىٰ المؤمن مِن معاملةِ الخَلْقِ، وكانت الآياتُ السابقة في الكفارِ؛ فنُهُوا عن موالاتِهم، وأُمِروا بالرَّغبةِ فيما عنده وعند أوليائه دُونَ أعدائه؛ إذ هو تعالىٰ مالكُ المُلْكِ(٣).

﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

ولمَّا كانت الموالاةُ بالباطن المَنْهيُّ عنها مطلقًا ودائمًا قد تُفعَل ويُدَّعىٰ نفيُها لخفائها، أمَره ﷺ بتحذيرِهم مِن موالاةِ أعدائه علىٰ وجهِ النِّفاق أو غيرِه، فقال:

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢١٥).
(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ١٩١).
(٣) البحر المحيط (٣/ ٩٢).

﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١).

ولمَّا كان حقيقةُ ما نهىٰ عنه في الوَلايةِ والتُّقاةِ أمرًا باطنًا يترتبُ عليه فعلٌ ظاهر، فوقَع التحذيرُ فيه علىٰ الفعلِ؛ كرَّر فيه التحذيرَ علىٰ ما وراء الفعلِ ممَّا في الصدور، ونبَّه فيه علىٰ منالِ العلم خُفْيَةً؛ فإنَّه قد يترُكُ الشيءَ فعلًا ولا تترُكُ النفسُ الغَيَّةُ(٢) صَغْوًا(٣) ونزوعًا إليه في أوقاتٍ، وكرَّر في خَتْمِه التحذيرَ ليتثنَّىٰ التحذيرانِ ترقِّيًا مِن الظاهرِ في الفعل إلىٰ باطنِ الحماية في العلمِ، كما تَثنَّىٰ الأمرانِ في الظاهر والباطن، وكان في إجراء هذا الخطابِ علىٰ لسان النبي ﷺ حُجَّةٌ عليهم بما أنَّه بشَرٌ مثلُهم، يَلزمُهم الاقتداءُ به فيما لم يبادِروا إلىٰ أخذِه مِن الله في خطابِه الذي عرَّض به نحوَهم(٤).

انتقالٌ مِن التَّحذيرِ المُجمَل إلىٰ ضربٍ مِن ضروبِ تفصيله؛ وهو إشعارُ المحذَّر باطِّلاعِ الله علىٰ ما يُخفُونه مِن الأمرِ(٥).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا نهىٰ المؤمنين عن اتخاذِ الكافرين أولياءَ ظاهرًا وباطنًا، واستثنىٰ عنه التَّقيَّةَ في الظاهرِ؛ أتبَع ذلك بالوعيدِ علىٰ أن يَصِيرَ الباطنُ موافقًا للظاهر في وقتِ التَّقيَّة؛ وذلك لأنَّ مَن أقدمَ عند التَّقيَّة علىٰ إظهارِ الموالاة، فقد يَصِيرُ إقدامُه علىٰ ذلك الفعلِ بحسَبِ الظاهر سببًا لحصولِ تلك الموالاة في الباطن؛ فلا جرَمَ بيَّن تعالىٰ أنَّه عالِمٌ بالبواطنِ كعلمه بالظواهر، فيَعلَمُ العبدُ أنَّه لا بد أن يجازيَه علىٰ كلِّ ما عزَم عليه في قلبه(٦).

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٣٢٧-٣٢٨).

(٢) أي: الزلل.

(٣) أي: ميلًا.

(٤) نظم الدرر (٤/ ٣٢٨).

(٥) التحرير والتنوير (٣/ ٢٢٢).

(٦) مفاتيح الغيب (٨/ ١٩٤).

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

ولمَّا تمَّ الوصفُ بالعلم والقدرة بعد التَّحذير مِن سطَواته، ذكَر يومَ المصيرِ المحذَّر منه، المُحصَىٰ فيه كلُّ كبيرٍ وصغير، المُعامَلُ فيه كلُّ عاملٍ بما يَليق به، الذي يَتِمُّ فيه انكشافُ الأوصاف لكلِّ ذكيٍّ وغبيٍّ، فقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾(١).

اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ مِن بابِ الترغيب والترهيب، ومِن تمامِ الكلام الذي تقدَّم(٢).

لمَّا أخبَر اللهُ تعالىٰ عن علمِه وقُدْرتِه، وفي ضِمْنِه الإخبارُ بما هو لازِمُ ذلك مِن المجازاةِ علىٰ الأعمال؛ ناسَب أن يُخبِرَ هنا عن محَلِّ ذلك؛ وهو يومُ القيامة، الذي تُوفَّىٰ فيه كلُّ نفسٍ ما كسَبتْ؛ فلهذا قال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾(٣).

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

ولمَّا فطَمهم ﷻ عن موالاةِ الكفار ظاهرًا وباطنًا، بما اقتضىٰ القصرَ علىٰ موالاةِ أهلِ الله؛ لنَفْيه مَن تولَّىٰ الكفر عن أن يكونَ في شيءٍ مِن الله، وكان الإنسانُ ربما والىٰ الكافرَ وهو يدَّعي محبَّةَ الله ﷻ، وختَم برأفتِه ﷻ بعبادِه، وكانت الرَّأفةُ قد

(١) نظم الدرر (٤/ ٣٢٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣١).

تكون عن المحبَّةِ الموجِبة للقُرْبِ، فكان الإخبارُ بها ربما دعا إلىٰ الاتِّكالِ، ووقَع لأجلِه الاشتباهُ في الحِزْبَينِ؛ جعَل لذلك ﷺ علامةً، فقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(١)].

انتقالٌ إلىٰ التَّرغيبِ بعد التَّرهيب علىٰ عادةِ القرآن؛ والمناسبةُ أنَّ التَّرهيبَ المتقدِّم خُتِم بقولِه: ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾، والرَّأفة تستلزِمُ محبَّةَ المرؤوفِ به الرَّؤوف، فجعَل محبَّةَ الله فعلًا للشَّرط في مقامِ تعليق الأمر باتِّباع الرَّسولِ عليه؛ مبنيٌّ علىٰ كونِ الرَّأفة تستلزم المحبَّةَ، أو هو مبنيٌّ علىٰ أنَّ محبَّةَ الله أمرٌ مقطوعٌ به مِن جانبِ المخاطَبين؛ فالتَّعليقُ عليه تعليقُ شرطٍ مُحقَّقٍ، ثم رُتِّب علىٰ الجزاءِ مشروطٌ آخرُ؛ وهو قوله: ﴿ يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾؛ لكونِه أيضًا مقطوعَ الرَّغبة مِن المخاطَبين؛ لأنَّ الخطابَ للمؤمنين، والمؤمنُ غايةُ قصدِه تحصيلُ رضا الله عنه، ومحبَّتِه إيَّاه[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا دعا القومَ إلىٰ الإيمانِ به، والإيمانِ برُسلِه علىٰ سبيلِ التهديد والوعيد؛ دعاهم إلىٰ ذلك مِن طريقٍ آخرَ؛ وهو أنَّ اليهودَ كانوا يقولون: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾؛ فنزَلتْ هذه الآيةُ[(٣)(٤)].

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ولمَّا كان الاتِّباعُ قد يكون عن غلَبةٍ لا عن طاعةٍ، بيَّن أنَّه لا ينفعُ إلا مع الإذعانِ، فقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٣٣٢-٣٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٢٢٤، ٢٢٥).

(٣) أخرجه الطبري في "التفسير" (٨/ ٢٦٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٨/ ١٩٧).

(٥) نظم الدرر (٤/ ٣٣٦-٣٣٧).

لمَّا كان ﷺ في غايةِ الرأفة بالعباد، وكان يَعلَمُ أنَّ آحادَ الأمَّة لا يَقدِرون علىٰ كمالِ اتِّباعه؛ لِما له -مع العصمةِ- مِن الطَّبْعِ علىٰ خصالِ الكمال؛ كان كأنَّه قال له ﷻ: فإن لم يَقدِروا علىٰ كمال اتِّباعي؟ فقال: ﴿ قُلْ ﴾.

ولمَّا ذكَر تعالىٰ ما تقدَّم مِن التحذيرَينِ في رُتبتَينِ، أَوْلاهما(١) في الذِّكْرِ نجاتَينِ مِن موجِبِ التحذيرَينِ، فكان الاتِّباعُ موجِبَ النجاة مِن التحذيرِ الثاني الباطن الذي مَبدؤُه الرأفةُ، وكان الطاعةُ موجِبَ النجاةِ مِن التحذيرِ الأول السابق، فمَن أطاع اللهَ ورسوله فيما نهىٰ عنه مِن اتخاذِ وَلايةِ الكافرين مِن دُونِ وَلايةِ المؤمنين، سَلِم مِن التحذيرِ الظاهر، ومَن اتبَع الرسولَ فأحَبَّه اللهُ، سَلِم مِن التحذيرِ الباطن، فخُتِم الخطابُ بما به بدأ، أو لمَّا كانت رتبةُ الاتِّباع عُلْيا، وَلِيَتْها رتبةُ الائتمار؛ فهو إمَّا مُتَّبعٌ علىٰ حبٍّ، وإمَّا مؤتمِرٌ علىٰ طاعةٍ، فمَن لم يكُنْ مِن أهلِ الاتِّباع، فليكُنْ مِن أهلِ الطاعة؛ فكأنَّ الخطابَ يُفهِمُ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي ﴾، فإن لم تستطيعوا أن تتَّبعوني، فأطيعوني(٢).

عودةٌ إلىٰ الموعظةِ بطريقِ الإجمال البحت: فَذْلكةً للكلام، وحرصًا علىٰ الإجابةِ، فابتدأ الموعظةَ أولًا بمقدمةٍ؛ وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾، ثم شرَع في الموعظة بقولِه: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ ﴾ الآيةَ، وهو ترهيبٌ، ثم بذِكْرِ مقابِلِه في الترغيب بقولِه: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ الآيةَ، ثم بتأييدِ ما عليه المسلمون بقولِه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ الآيةَ، وفي ذلك تفصيلٌ كثير، ثم جاء بطريقِ المجادَلة بقولِه: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ الآيةَ، ثم بترهيبٍ بغيرِ استدلال صريحٍ، ولكن بالإيماء إلىٰ الدليلِ؛ وذلك قولُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ

---

(١) أي: أتْبَعَهما.

(٢) نظم الدرر (٤/ ٣٣٧).

بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، ثم بطريقِ التهديدِ والإنذار التعريضيِّ بقولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ الآياتِ، ثم أمَر بالقطيعةِ في قولـه: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾، ثـم انتقَـل إلىٰ طريقـةِ الترغيـب في قولـه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ﴾ إلىٰ قولـه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وختَم بذِكرِ عدمِ محبَّةِ الكافرين رَدًّا للعَجُزِ علىٰ الصَّدْرِ المتقدِّمِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ الآيةَ؛ ليكـونَ نَفْيُ المحبَّةِ عن جميعِ الكافرين نفيًا عن هؤلاء الكافرين المُعيَّنين[(١)].

تحقيقُ الكلام: أنَّ الآيةَ الأُولىٰ لمَّا اقتضت وجوبَ متابَعتِه، ثم إنَّ المنافقَ ألقىٰ شُبْهةً في الدِّين؛ وهي أنَّ محمَّدًا يدَّعي لنفسه مثلَ ما يقوله النصارىٰ في عيسىٰ؛ ذكَر اللهُ تعالىٰ هذه الآيةَ إزالةً لتلك الشُّبْهةِ، فقال: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾؛ يعني: إنَّما أوجَب اللهُ عليكم متابعتي، لا كما تقول النصارىٰ في عيسىٰ، بل لكوني رسولًا مِن عندِ الله، ولمَّا كان مبلِّغُ التكاليفِ عن الله هو الرسولَ، لَزِم أن تكونَ طاعتُه واجبةً؛ فكان إيجابُ المتابَعة لهذا المعنىٰ لا لأجلِ الشُّبهة التي ألقاها المنافقُ في الدِّين[(٢)].

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

ولمَّا كان الأصفياءُ أخَصَّ مِن مطلَقِ الأحباب، بيَّن بعضَ الأصفياء، وما أكرَمهم به؛ تصديقًا لقولِه ﷻ في الحديثِ القُدْسيِّ الشريف: «فإذا أحبَبْتُه، كنتُ سَمْعَه الذي يسمعُ به، وبصَرَه الذي يُبصِر به، ويدَه التي يَبطِش بها، ورِجْلَه التي يمشي بها»[(٣)]؛ تنبيهًا لوفدِ نصارىٰ نَجْرانَ وغيرِهم علىٰ أنَّه مِثلُ ما اصطفىٰ لنفسِه دِينًا، اصطفىٰ للتخلُّقِ به ناسًا يحبُّونه ويُطيعونه، ويوالُون أولياءَه ويعادُون أعداءه، وليسوا مِن

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٢٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ١٩٨).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

صفاتِ الكافرين في شيءٍ، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(١).

إنَّه ﷻ لمَّا شبَّه أفعالَه في التشابُهِ وغيرِه بأقواله، وعرَّف أنَّ الطريقَ الأقومَ رَدُّ المتشابِهِ منها إلىٰ الواضحِ المُحكَم، والالتجاءُ في كشفِ المشكِلِ إليه، مع الاعتقادِ الجازمِ المستقيم، وبيَّن أنَّ المُوقِفَ عن هذا الطريق الأقوم: الوقوفُ مع العرَضِ الدُّنيوي من الرئاسة وغيرِها، وإلف الدين مع التعلُّل فيه بالتمنِّي الفارغ، وأنهىٰ ذلك وتوابعَه، إلىٰ أن ختَم بتهديدِ مَن تولَّىٰ عن الحقِّ؛ أخَذ في تصويرِ تصويرِه في الأرحام كيف شاء، بما شوهِدَ مِن ذلك، ولم يُشَكَّ فيه مِن أحوالِ أناسٍ هم مِن خُلَّصِ عبادِه المقبِلين علىٰ ما يُرضيه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(٢).

ولمَّا أخبَر ﷻ أنَّ أهلَ الكتاب ما اختلَفوا إلا مِن بعدِ ما جاءهم العلمُ، فكفَروا بذلك، وألحَقَ به ما تَبِعه إلىٰ أن ختَم بالأمر باتِّباع الرسولِ وبأنَّه لا يحبُّ الكافرين بالتولِّي عن رُسلِه؛ اشتَدَّ تشوُّفُ النفسِ إلىٰ معرفة الرُّسلِ الآتِين بالعلم، الذين توجِبُ مخالَفتُهم الكفرَ، فبيَّنهم بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ محبَّتَه لا تتم إلا بمتابَعةِ الرُّسل، بيَّن علوَّ درجاتِ الرُّسل، وشرَفَ مناصبِهم(٤).

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٣٤٢).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٣٤١).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٣٤١).

(٤) مفاتيح الغيب (٨/ ١٩٨).

انتقالُ مِن تمهيداتِ سبب السُّورة إلىٰ واسطةٍ بَيْنَ التمهيدِ والمقصد، كطريقةِ التخلُّص؛ فهذا تخلُّصٌ لمُحاجَّةِ وفدِ نَجْرانَ، وقد ذكرناه في أولِ السُّورة، فابتُدئ هنا بذِكْرِ آدَمَ ونوحٍ، وهما أَبَوَا البشَرِ، أو أحدُهما، وذكَر إبراهيمَ، وهو أبو المقصودِين بالتفضيلِ وبالخطاب، فأمَّا آدَمُ فهو أبو البشَرِ باتفاق الأُمَم كلِّها، إلا شذوذًا مِن أصحابِ النَّزعاتِ الإلحادية الذين ظهَروا في أوروبا، واختَرعوا نظريةَ تسلسلِ أنواعِ الحيوان بعضِها مِن بعضٍ؛ وهي نظريةٌ فائلةٌ(١)(٢).

لمَّا قدَّم قبلُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، ووَلِيَهُ ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، وختَمها بأنَّه ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ ذكَر المصطفَيْنَ الذين يجبُ اتِّباعُهم، فبدأ أولًا بأوَّلِهم وجودًا وأصلِهم، وثنَّىٰ بنوحٍ عليه السلام؛ إذ هو آدَمُ الأصغرُ، ليس أحدٌ علىٰ وجهِ الأرض إلا مِن نَسْلِه، ثم أتىٰ ثالثًا بآلِ إبراهيمَ، فاندرَج فيهم رسولُ الله ﷺ المأمورُ باتِّباعه وطاعته، وموسىٰ عليه السلام، ثم أتىٰ رابعًا بآلِ عِمْران، فاندرَج في آلِه مريمُ وعيسىٰ عليهما السلام، ونصَّ علىٰ آلِ إبراهيمَ لخَصُوصيَّةِ اليهود بهم، وعلىٰ آلِ عِمْرانَ لخَصُوصيَّة النَّصارىٰ بهم، فذكَر تعالىٰ جَعْلَ هؤلاء صفوةً؛ أي: مختارين نَقَاوةً(٣).

لمَّا بيَّن اللهُ تعالىٰ أنَّ الدِّينَ المَرْضيَّ عنده هو الإسلامُ والتوحيد، وأنَّ اختلافَ أهلِ الكتابَيْنِ فيه إنَّما هو للبَغْيِ والحسَد، وأنَّ الفوزَ برضوانِه ومغفرته ورحمتِه منُوطٌ باتِّباعِ الرسول ﷺ وطاعتِه؛ شرَع في تحقيقِ رسالته، وكونِه مِن أهلِ بيت النبوَّة القديمة، فبدأ ببيانِ جلالة أقدار الرُّسلِ عليهم الصلاة والسلام كافَّةً، وأتبَعه ذِكْرَ مبدأِ

(١) أي: ضعيفة فاسدة.

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٢٢٩).

(٣) البحر المحيط (٣/ ١٠٩).

أمرِ عيسىٰ ﷺ وأمِّه، وكيفيَّة دَعْوتِه للناس إلىٰ التوحيدِ والإسلام؛ تحقيقًا للحق، وإبطالًا لِما عليه أهلُ الكتابَين في شأنهما مِن الإفراطِ والتفريط، ثم بيَّن بطلانَ مُحاجَّتِهم في إبراهيمَ ﷺ، وادعائهم الانتماءَ إلىٰ مِلَّتِه، ونزَّه ساحتَه العَلِيَّةَ عمَّا هم عليه مِن اليهوديةِ والنصرانية، ثم نصَّ علىٰ أنَّ جميعَ الرُّسل عليهم الصلاة والسلام دعاةٌ إلىٰ عبادةِ الله ﷻ وَحْدَه وطاعتِه، منزَّهون عن احتمالِ الدعوة إلىٰ عبادة أنفسِهم، أو غيرِهم مِن الملائكة والنبيِّين، وأنَّ أُمَمَهم قاطبةً مأمورون بالإيمان بمَن جاءهم مِن رسولٍ مصدِّق لِما معهم؛ تحقيقًا لوجوبِ الإيمان برسولِ الله ﷺ وكتابِه المصدِّق لِما بَيْنَ يديه مِن التَّوراةِ والإنجيل، وتحتُّم الطاعةِ له حسبما سيأتي تفصيلُه، وتخصيصُ آدمَ ﷺ بالذِّكْرِ؛ لأنَّه أبو البشَرِ، ومنشأُ النبوَّة، وكذا حالُ نوحٍ ﷺ؛ فإنَّه آدمُ الثاني، وأمَّا ذِكْرُ آلِ إبراهيمَ، فلترغيبِ المعترِفين باصطفائهم في الإيمانِ بنبوَّة النبيِّ ﷺ، واستمالتِهم نحوَ الاعتراف باصطفائه بواسطةِ كونِه مِن زُمْرتِهم، مع ما مرَّ مِن التنبيهِ علىٰ كونه ﷺ عريقًا في النبوَّةِ مِن زُمْرةِ المصطفَيْنَ الأخيارِ، وأمَّا ذِكْرُ آلِ عِمْرانَ مع اندراجِهم في آلِ إبراهيمَ، فلإظهارِ مَزيدِ الاعتناء بتحقيقِ أمر عيسىٰ ﷺ؛ لكمالِ رسوخِ الخلاف في شأنه؛ فإنَّ نسبةَ الاصطفاء إلىٰ الأبِ الأقرَبِ أدَلُّ علىٰ تحقُّقِه في الآلِ، وهو الداعي إلىٰ إضافةِ الآلِ إلىٰ إبراهيمَ دُونَ نوحٍ وآدمَ عليهم الصلاة والسلام(١).

﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ ﴾

ثم أفصَح بذلك إفصاحًا جليًّا؛ فهم كلُّهم مِن بني آدَمَ، لا مزيَّةَ لبعضِهم علىٰ بعضٍ في ذلك، فقال: ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٥).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٣٤٥).

ثم بيَّن أنَّ دِينَهم واحدٌ، وطريقتَهم واحدةٌ، فقال: ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(١).

﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ ﴾

ولمَّا كان جلُّ المقصودِ هنا بيانَ الكرامات في آلِ عِمْرانَ، لا سيَّما في الولادة، وكان آدمُ الممثَّلُ به عليه السلام قد تقدَّم بيانُ أمرِه في سورةِ «البقرة»، سورةِ الكتاب المثمِرِ للعلم، وكذا بيان كثيرٍ ممَّا اصطفىٰ به إبراهيمَ وآلَه عليهم الصلاة والسلام؛ إذ كان معظَمُ القصدِ بالكلام لذريته، وكان معظَمُ المقصود مِن ذِكْرِ نوحٍ عليه السلام كونَه في عمودِ النَّسَبِ، وليس في أمرِ ولادتِه ما هو خارجٌ عن العادة؛ قال طاويًا لِمَن قَبْلُ: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾(٢).

لمَّا كان مَن ذُكِر في الاصطفاء إنَّما ذُكِر توطئةً لأمرِ عيسىٰ عليه السلام، اختصَّ التَّفصيلَ بأمرِ عيسىٰ عليه السلام دُونَ سائرِ مَن ذُكِر معه(٣).

لمَّا ذكَر أنَّه تعالىٰ اصطفىٰ آلَ عِمْران، وكان معظَمُ صَدْرِ هذه السُّورةِ في أمرِ النَّصارىٰ وَفْدِ نَجْرانَ، ذكَر ابتداءَ حالِ آلِ عِمْران(٤).

هـذا متعلـقٌ بمـا قبلـه، والتَّقـدير: ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ ﴾ هذا القولَ(٥).

---

(١) جامع البيان (٥/ ٣٣٠).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٣٤٩).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٣٤٩).

(٤) البحر المحيط (٣/ ١١٣).

(٥) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٠٢).

ولمَّا ذكَر فضائلَ هذه البيوتِ الكريمة، ذكَر ما جرىٰ لمريمَ والدةِ عيسىٰ، وكيف لطَف اللهُ بها في تربيتِها ونشأتِها(١).

لمَّا ذكَر الاصطفاءَ في الآياتِ السابقة، ناسَب أن يأتيَ بهذه الآيةِ تقريرًا للاصطفاء، وبيانًا لكيفيَّتِه.

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٣٦) ﴾

ولمَّا أخبَر بما اقتضىٰ مُضِي عزمِها قبل الوضعِ، أخبَر هنا بتحقيقِه بعده، فقال: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾(٢).

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾

ولمَّا أخبَر بدعائها، أخبَر بإجابتِها فيه، فقال: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ ﴾(٣).

تفريعٌ علىٰ الدعاء مؤذِنٌ بسرعةِ الإجابة، وضمائرُ النصبِ لمريمَ؛ ومعنىٰ (تقبلها): تقبَّل تحريرَها لخدمةِ بيت المقدس؛ أي: أقام اللهُ مريمَ مُقامَ منقطِعٍ لله تعالىٰ، ولم يكُنْ ذلك مشروعًا مِن قبلُ(٤).

---

(١) تفسير السعدي (ص: ١٢٩).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٣٥١).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٣٥٦).

(٤) التحرير والتنوير (٣/ ٢٣٥).

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: فما قال زكريَّا حينئذٍ؟ قيل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾(١).

لمَّا رأىٰ زكريَّا عليه السلام خوارقَ العادةِ مع قول مريمَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، و«الحِكْمةُ ضالَّةُ المؤمنِ»(٢)، وأهلُ النُّفوس الزكيَّة يَعتبرون بما يرَوْنَ ويَسمعون؛ فلذلك عمَد إلىٰ الدُّعاءِ بطلب الولدِ في غيرِ إبَّانِه، وقد كان في حسرةٍ مِن عدمِ الولد؛ فناسَب أن يدعوَ حينئذٍ في مكانٍ شَهِد فيه فيضًا إلهيًّا، ولم يَزَلْ أهلُ الخير يَتوخَّوْنَ الأمكنةَ بما حدَث فيها مِن خيرٍ، والأزمنةَ الصالحة كذلك(٣).

أصلُ: ﴿هُنَالِكَ﴾ أن يكونَ إشارةً للمكان، وقد يُستعمل للزمان، وقيل بهما في هذه الآيةِ؛ أي: في ذلك المكانِ دعا زكريَّا، أو في ذلك الوقتِ لمَّا رأىٰ هذا الخارقَ العظيم لمريمَ، وأنَّها ممَّن اصطفاها اللهُ؛ ارتاح إلىٰ طلبِ الولد، واحتاج إليه لكِبَرِ سِنِّه، ولأن يَرِثَ منه ومِن آلِ يعقوبَ؛ كما قصَّه تعالىٰ في سورةِ «مريمَ»، ولم يَمنَعْهُ مِن الطلبِ كونُ امرأتِه عاقرًا؛ إذ رأىٰ مِن حالِ مريمَ أمرًا خارجًا عن العادةِ، فلا يبعُدُ أن يرزُقَه اللهُ ولدًا مع كونِ امرأته كانت عاقرًا؛ إذ كانت «حَنَّةُ» قد رُزِقتْ مريمَ بعدما أَيِسَتْ مِن الولدِ(٤).

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٣٦٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٨٧).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٢٣٨).

(٤) البحر المحيط (٣/ ١٢٥).

لمَّا رأىٰ زكريَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّ اللهَ تعالىٰ يرزُقُ مريمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ فاكهةَ الشتاء في الصيف، وفاكهةَ الصيفِ في الشتاء؛ طَمِع حينئذٍ في الولدِ، وإن كان شيخًا كبيرًا قد ضعُفَ، ووهَن منه العَظْمُ، واشتعَل رأسُه شَيْبًا، وإن كانت امرأتُه مع ذلك كبيرةً وعاقرًا، لكنَّه مع هذا كلِّه سأل ربَّه وناداه نداءً خفيًّا، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾(1).

كلامٌ مستأنَف، وقصَّةٌ مستقلة سِيقَتْ في تضاعيفِ حكاية مريمَ؛ لِما بينهما مِن قوةِ الارتباط، وشدةِ الاشتباك، مع ما في إيرادها مِن تقريرِ ما سِيقَتْ له حكايتُها مِن بيانِ اصطفاء آلِ عِمْران؛ فإنَّ فضائلَ بعضِ الأقرباء أدلَّةٌ علىٰ فضائلِ الآخرين(2).

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (39)﴾

ولمَّا كان اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند ظنِّ عبدِه به، سَمِع دعاءه، فتسبَّب عن دعائِه وحُسْنِ رجائه بربِّهِ قولُه: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾(3).

الفاءُ في قوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ للتعقيبِ؛ أي: استُجيبت دَعْوتُه للوقتِ(4).

لمَّا دعا ربَّه بأن يهَبَ له ولدًا صالحًا، أخبَر بأنَّه تعالىٰ مجيبُ الدُّعاءِ، فأجاب اللهُ دعاءه، ورزَقه علىٰ الكِبَرِ؛ كما رزَق إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ الكِبَر(5).

---

(1) تفسير ابن كثير (2/ 37).

(2) إرشاد العقل السليم (2/ 30-31).

(3) نظم الدرر (4/ 364).

(4) التحرير والتنوير (3/ 238).

(5) البحر المحيط (3/ 127).

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: فما قال حين أجابه ربُّه ﷻ؟ فقيل: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾[1].

قولُه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ استفهامٌ مرادٌ منه التعجُّبُ، قصَد منه تعرُّفَ إمكانَ الولدِ؛ لأنَّه لمَّا سأل الولدَ، فقد تهيأ لحصولِ ذلك، فلا يكونُ قولُه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ إلا تطلُّبًا لمعرفةِ كيفيَّة ذلك علىٰ وجهٍ يحقِّقُ له البِشارةَ، وليس مِن الشكِّ في صدقِ الوعد، وهو كقولِ إبراهيمَ: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، فأجيبَ بأنَّ الممكِناتِ داخلةٌ تحت قدرةِ الله تعالىٰ، وإن عَزَّ وقوعُها في العادة[2].

فلمَّا تحقَّق زكريَّا عليه السلام هذه البِشارةَ، أخَذ يتعجَّب مِن وجودِ الولد منه بعد الكِبَر[3].

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: قد قرَّتْ عينُه، فما قال؟ قيل: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٣٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٢٤١، ٢٤٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩).

(٤) نظم الدرر (٤/ ٣٧٠).

واعلَمْ أنَّ زكريَّا عليه السلام لفَرْطِ سرورِه بما بُشِّر به، وثقتِهِ بكرَمِ ربِّه وإنعامِه عليه، أحَبَّ أن يَجعَلَ له علامةً تدلُّ على حصولِ العُلُوقِ[1]؛ وذلك لأنَّ العُلُوقَ لا يظهرُ في أولِ الأمر، فقال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ﴾[2].

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢﴾

ولمَّا فرَغ ممَّا للكافلِ بعدما نوَّه بأمرِ المكفولة بيانًا لاستجابةِ الدُّعاء مِن أمِّها لها، أعاد الإشارةَ بذِكْرِها، والإعلامَ بعَلِيِّ قَدْرِها، فقال عاطفًا على ما تقديرُه: هذا ما للكافلِ، فاذكُرْهُ لهم؛ فإنَّهم لا يشُكُّون معه في نبوَّتك، واذكُرْ ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[3].

عطفٌ على جملةِ ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ﴾، انتقالٌ مِن ذِكْرِ أمِّ مريمَ إلى ذكرِ مريمَ[4].

لمَّا فرَغ مِن قصَّةِ زكريَّا، وكان قد استطرَد مِن قصَّةِ مريمَ إليها؛ رجَع إلى قصَّةِ مريمَ[5].

شروعٌ في شرحِ بقيةِ أحكام اصطفاءِ آلِ عِمْرانَ إثْرَ الإشارة إلى نُبَذٍ مِن فضائلِ بعضِ أقاربِهم - أعني زكريَّا ويحيى عليهما الصلاة والسلام- لاستدعاءِ المَقامِ إيَّاهما حسبما أشيرَ إليه[6].

---

(١) أي: الحمل.

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٢١٥).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٣٧١).

(٤) التحرير والتنوير (٣/ ٢٤٣).

(٥) البحر المحيط (٣/ ١٤٦).

(٦) إرشاد العقل السليم (٢/ ٣٤).

ينوِّهُ تعالىٰ بفضيلةِ مريمَ، وعُلُوِّ قَدْرِها، وأنَّ الملائكةَ خاطَبَتْها كما خاطَبَتْ زكريَّا في الآياتِ السابقة(١).

﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣ ﴾

ولمَّا أخبرَها ﷺ بما اختصَّها به، أمَرها بالشُّكرِ، فقال: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾(٢).

إعادةُ النداءِ في قول الملائكة: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي ﴾ لقصدِ الإعجابِ بحالها؛ لأنَّ النداءَ الأول كفىٰ في تحصيلِ المقصود مِن إقبالِها لسماعِ كلام الملائكة، فكان النداءُ الثاني مستعمَلًا في مجرَّدِ التنبيهِ الذي ينتقِلُ منه إلىٰ لازمِه؛ وهو التنويهُ بهذه الحالةِ، والإعجابُ بها(٣).

فلمَّا بيَّن تعالىٰ أنَّها مخصوصةٌ بمَزيدِ المواهب والعطايا مِن الله، أوجَب عليها مَزيدَ الطاعاتِ؛ شكرًا لتلك النِّعَم السَّنيَّة(٤).

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤ ﴾

ولمَّا أتىٰ نبيُّنا ﷺ بهذه الأخبارِ الغريبة، المحرَّرةِ العجيبة، التي لا يَعرِفُها علىٰ وجهِها إلا الحُذَّاقُ مِن علماءِ بني إسرائيلَ؛ كان مِن حقِّ سامعِها أن يَتنبَّهَ مِن غفلتِه، ويستيقظَ مِن رَقْدتِه؛ لأنَّها منبِّهةٌ بنفسِها للمنصِفِ الفَطِنِ علىٰ أنَّ الآتيَ بها صادقٌ،

(١) تفسير السعدي (ص: ١٣٠).
(٢) نظم الدرر (٤/ ٣٧٢).
(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٢٤٤).
(٤) مفاتيح الغيب (٨/ ٢١٨).

لا مِرْيةَ في صدقِهِ في كلِّ ما يدَّعيه عن اللهِ ﷻ، وكان مِن حقِّ مَن يَتنبَّهُ أن يبادِرَ إلىٰ الإذعان، فيصرِّحَ بالإيمان، فلمَّا لم يفعلوا، التفتَ إلىٰ تنبيهِ الغَبِيِّ، وتبكيتِ العَتِيِّ، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾(١).

ولمَّا أخبَر اللهُ نبيَّه ﷺ بما أخبَر به عن مريمَ، وكيف تنقَّلتْ بها الأحوالُ التي قيَّضها اللهُ لها، وكان هذا مِن الأمورِ الغَيْبيةِ التي لا تُعلَمُ إلا بالوحيِ؛ قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾(٢).

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

واستمَرَّ في إكمالِ المقالِ علىٰ ذلك الأسلوبِ الحكيم حتىٰ تمَّتِ الحُجَّةُ، واستقامت المَحجَّة، فقال تعالىٰ مُبدِلًا مِن ﴿إِذْ﴾ الأُولىٰ إيذانًا بأنَّ ما بينهما اعتراضٌ لِما نبَّه عليه مِن شريفِ الأغراض: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾(٣).

بدَلُ اشتمالٍ مِن جملةِ ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾، قُصِد منه التكريرُ لتكميلِ المقُولِ بعد الجُمَلِ المعترِضة، ولكونِه بدَلًا لم يُعطَفْ علىٰ ﴿إِذْ قَالَتِ﴾ الأولِ(٤).

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٣٩٣-٣٩٤).

(٢) تفسير السعدي (ص: ١٣٠).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٣٩٦).

(٤) التحرير والتنوير (٣/ ٢٤٥).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا شرَح حالَ مريمَ عليها السلام في أولِ أمرِها وفي آخرِ أمرِها، شرَح كيفيَّةَ ولادتِها لعيسىٰ عليه السلام، فقال: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[1].

شروعٌ في قصَّةِ عيسىٰ عليه السلام، وهو بدَلٌ مِن ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، منصوبٌ بناصبِه، وما بينهما اعتراضٌ جِيءَ به تقريرًا لِما سبق، وتنبيهًا علىٰ استقلاله، وكونِه حقيقًا بأن يُعَدَّ علىٰ حيالِه مِن شواهدِ النبوَّة، وترك العطف بينهما بِناءً علىٰ اتحادِ المخاطَب، وإيذانًا بتقارُنِ الخطابَينِ، أو تقارُبِهما في الزمان[2].

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

ولمَّا كان ما سبق قد لا يقتضي خرق العادات قال: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾[3].

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

وكأنَّها لمَّا سَمِعتْ ذلك، امتلأت تعجُّبًا، فاستخفَّها ذلك إلىٰ الاستعجالِ بالسُّؤال قبل إكمالِ المقالِ؛ بأنْ ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[4].

قولُه: ﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ جملةٌ معترضة مِن كلامِها بَيْنَ كلامِ الملائكة، والنداءُ للتحسُّر، وليس للخطابِ؛ لأنَّ الذي كلَّمها هو المَلَكُ، وهي قد توجَّهتْ إلىٰ اللهِ[5].

---

(١) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٢٠).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ٣٦).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٣٩٨).

(٤) نظم الدرر (٤/ ٤٠٠).

(٥) التحرير والتنوير (٣/ ٢٤٨).

لمَّا أخبرَتْها الملائكةُ أنَّ اللهَ بشَّرها بالمسيح، نادت ربَّها، وهو اللهُ، مستفهِمةً على طريقِ التَّعجُّب مِن حدوثِ الولد مِن غيرِ أبٍ؛ إذ ذاك مِن الأمورِ الموجِبة للتَّعجُّب[(١)].

استئنافٌ مبنيٌّ على السُّؤال، كأنَّه قيل: فماذا كان منها حين قالت لها الملائكةُ ذلك؟ فقيل: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾[(٢)].

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾

فلمَّا أجابها عمَّا شغَل قلبَها مِن العجَبِ، فتفرَّغ الفَهْمُ؛ أخذ في إكمالِ المقال بقولِه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾[(٣)].

جملةُ ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ بعد انتهاءِ الاعتراض[(٤)].

ثم أخبَر تعالى عن منَّتِه العظيمةِ على عبدِه ورسوله عيسى عليه السلام، فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾[(٥)].

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

ولمَّا ذكَر الكتابَ المنزَّلَ عليه، حسُنَ ذِكْرُ الرسالة، فقال: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[(٦)].

---

(١) البحر المحيط (٣/ ١٥٧).
(٢) روح المعاني (٢/ ١٥٧).
(٣) نظم الدرر (٤/ ٤٠١).
(٤) التحرير والتنوير (٣/ ٢٤٩).
(٥) تفسير السعدي (ص: ١٣١).
(٦) نظم الدرر (٤/ ٤٠٢).

لمَّا امتنَّ اللهُ علىٰ عيسىٰ عليه السلام بتعليمِه الكتابةَ والعلم والحِكْمة، ذكَر هنا له كمالًا آخرَ، وفضلًا زائدًا علىٰ ما أعطاه اللهُ مِن الفضائلِ(١).

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾

ولمَّا كان ترجمةُ ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ﴾ آتيًا إليكم بآيةٍ كذا، مصدِّقًا بها لِما أتَيْتُ به؛ عطَف علىٰ الحالِ المقدَّرِ منه -تأكيدًا لأنَّه عبدُ اللهِ- قولَه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(٢).

اعلَمْ أنَّه عليه السلام لمَّا بيَّن بهذه المعجِزاتِ الباهرة كونَه رسولًا مِن عندِ الله تعالىٰ، بيَّن بعد ذلك أنَّه بماذا أُرسِل(٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: ما تلك الآيةُ التي سمَّيْتَها (آية) بعد ما جئتَ به مِن الأشياءِ الباهرة؟! قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(٤).

قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ واقعة موقعَ التعليلِ للأمرِ بالتقوىٰ والطاعة(٥).

---

(١) تفسير السعدي (ص: ١٣١).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٤٠٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٣٠).

(٤) نظم الدرر (٤/ ٤٠٩).

(٥) التحرير والتنوير (٣/ ٢٥٤).

لمَّا أمَرهم بتقوىٰ الله تعالىٰ في الآيةِ السابقة، ذكَر هنا ما هو كالسَّببِ في ذلك؛ فاستدَلَّ هنا بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ علىٰ توحيد الإلهيَّة[١].

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢ ﴾

ولمَّا ختَم ﷻ هذه البِشارةَ بالآيةِ القاطعة القويمة الجامعة، وكان قولُه في أولِ السُّورة: ﴿يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ وقولُه هنا: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ مُغْنيًا عن ذِكْرِ حَمْلِها؛ طواه، وأرشَد السياقُ حتمًا إلىٰ أنَّ التقديرَ: فصدَق اللهُ فيما قال لها، فحمَلتْ به مِن غيرِ ذكَرٍ، فولَدتْهُ - علىٰ ما قال ﷻ - وجيهًا، وكلَّم الناسَ في المَهْدِ وبعدَه، وعلَّمه الكتابَ والحِكْمة، وأرسَله إلىٰ بني إسرائيلَ، فأتَمَّ لهم الدلائلَ، ونفىٰ الشُّبَهَ علىٰ ما أمَره به الذي أرسَله ﷻ، وعَلِموا أنَّه ناسخٌ، لا مقرِّرٌ، فتابَعه قومٌ، وخالَفه آخرون، فغَطَّوْا جميعَ الآيات، وأعرَضوا عن الهدىٰ والبينات، ونصَبوا له الأشراكَ والحبائل[٢]، وبغَوْهُ الدواهيَ والغوائل[٣]، فضَلُّوا علىٰ علمٍ، وظهَر منهم الكفرُ البيِّنُ، واعوَجُّوا عن الصراطِ المستقيم؛ عطَف عليه قولَه مسلِّيًا لهذا النبيِّ الكريم ﷺ: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[٤].

لمَّا شرَح لهم عيسىٰ عليه السلام تلك المعجِزاتِ، وأظهَرَ لهم تلك الدلائلَ؛ ناسَب أن يبيِّنَ هنا بماذا عامَلوه[٥].

---

(١) يُنظر: تفسير ابن عثيمين (سورة آل عمران) (١/ ٢٩٤).

(٢) جمع: حِبالة، وهي ما يُصاد به.

(٣) أي: الشرور.

(٤) نظم الدرر (٤/ ٤١٦).

(٥) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٣١).

شروعٌ في بيانِ مآلِ أحواله عَلَيْهِ السَّلَامُ إثرَ ما أشيرَ إلىٰ طرَفٍ منها بطريقِ النقل عن الملائكةِ، و«الفاءُ» فصيحةٌ، تُفصِحُ عن تحقُّقِ جميعِ ما قالته الملائكةُ، وخروجِه مِن القوَّةِ إلىٰ الفعل حسبما شرَحتْهُ، كأنَّه قيل: فحمَلتْهُ فولَدتْهُ، فكان كَيْتَ وكيت، وقال: ذَيْتَ وذيت[1]، وإنَّما لم يُذكَرِ اكتفاءً بحكايةِ الملائكة، وإيذانًا بعدمِ الخُلْفِ، وثقةً بما فُصِّل في المواضعِ الأُخَر، وأمَّا عدمُ نَظْمِ بقيةِ أحواله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في سِلْكِ النقل، فإمَّا للاعتناءِ بأمرِها، أو لعدمِ مناسبتِها لمَقامِ البِشارة؛ لِما فيها مِن ذِكْرِ مُقاساتِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للشدائدِ، ومُعاناته للمكايدِ[2].

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

ثم لمَّا خاطَبوا الرسولَ أدبًا، ترقَّوْا إلىٰ المرسِلِ في خطابهم؛ إعظامًا للأمر، وزيادةً في التَّأكيد، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[3].

قولُه: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ مِن كلامِ الحواريِّينَ، بقية قولهم، وفرَّعوا علىٰ ذلك الدعاءِ دعاءً بأن يَجعَلَهم اللهُ مع الشاهدين؛ أي: مع الذين شَهِدوا لرُسلِ الله بالتبليغ، وبالصدقِ؛ وهذا مؤذِنٌ بأنَّهم تلقَّوْا مِن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فيما علَّمهم إيَّاه - فضائلَ مَن يَشهَدُ للرُّسلِ بالصدق[4].

واعلَمْ أنَّهم لمَّا أشهَدوا عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ إيمانهم وعلىٰ إسلامِهم، تضرَّعوا إلىٰ الله تعالىٰ[5].

---

(١) بمعنىٰ: كيت وكيت.

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ٤٠-٤١).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٤١٨).

(٤) التحرير والتنوير (٣/ ٢٥٦).

(٥) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٣٤).

عرضٌ لحالِهم عليه تعالىٰ بعد عرضِها علىٰ رسوله؛ استمطارًا لسحائبِ إجابةِ دعائهم الآتي(١).

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤ ﴾

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾؛ فإنَّه أحَسَّ منهم الكفرَ، وأحَسَّ منهم بالغَدْرِ والمَكْرِ(٢).

الضَّمير في ﴿وَمَكَرُواْ﴾ عائدٌ علىٰ مَن عادَ عليه الضَّميرُ في: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾؛ وهم: بنو إسرائيلَ، ومَكْرُهم هو احتيالُهم في قتلِ عيسىٰ؛ بأنْ وكَّلُوا به مَن يقتُلُه غِيلَةً(٣).

ثم قال تعالىٰ مُخبِرًا عن ملأِ بني إسرائيلَ فيما هَمُّوا به مِن الفَتْكِ بعيسىٰ عليه السلام، وإرادتِه بالسُّوءِ والصَّلْبِ، حين تمالَؤوا عليه، ووشَوْا به إلىٰ مَلِكِ ذلك الزمانِ، وكان كافرًا، فأنهَوا إليه أنَّ هاهنا رجُلًا يُضِلُّ الناسَ، ويصُدُّهم عن طاعةِ المَلِكِ، ويُفسِد الرعايا، ويفرِّقُ بَيْنَ الأبِ وابنِه، إلىٰ غيرِ ذلك ممَّا تقلَّدوه في رقابهم، ورمَوْهُ به مِن الكذبِ، وأنَّه ولَدُ زانيةٍ، حتىٰ استثاروا غضَبَ المَلِكِ، فبعَث في طلبِه مَن يأخذه ويَصلِبُه وينكِّلُ به، فلمَّا أحاطوا بمنزلِه وظنُّوا أنَّهم قد ظَفِروا به، نجَّاه اللهُ مِن بينِهم، ورفَعه مِن رَوْزَنةِ(٤) ذلك البيتِ إلىٰ السماء، وألقىٰ اللهُ شَبَهَهُ علىٰ رجُلٍ ممَّن كان عنده في المنزلِ، فلمَّا دخَل أولئك، اعتقَدوه في ظُلْمةِ الليل عيسىٰ عليه السلام، فأخَذوه وأهانوه وصلَبوه، ووضَعوا علىٰ رأسِه الشَّوْكَ، وكان هذا مِن مكرِ الله بهم؛ فإنَّه نجَّىٰ نبيَّه، ورفَعه مِن بَيْنِ أظهُرِهم، وترَكهم في ضَلالِهم يَعمَهون، يعتقدون أنَّهم قد ظَفِروا

(١) روح المعاني (٢/ ١٧٠).
(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٢٥٦).
(٣) البحر المحيط (٣/ ١٧٥).
(٤) الروزنة: الكُوَّة النافذة.

بطَلِبَتِهم، وأسكَن اللهُ في قلوبهم قسوةً وعنادًا للحَقِّ ملازِمًا لهم، وأورَثهم ذِلَّةً لا تفارِقُهم إلىٰ يومِ التَّنادِ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[1].

فلمَّا قاموا مع عيسىٰ بنصرِ دِينِ الله، وإقامةِ شرعِه؛ آمَنتْ طائفةٌ مِن بني إسرائيلَ، وكفَرتْ طائفةٌ، فاقتتلت الطائفتانِ، فأيَّد اللهُ الذين آمَنوا بنصرِه علىٰ عدوِّهم فأصبَحوا ظاهرين؛ فلهذا قال تعالىٰ هنا: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[2].

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٥٥﴾

ثم بيَّن ما فعَله بهم مِن القضاءِ الذي هو علىٰ صورةِ المَكْرِ في كونِه أذًىٰ يَخفَىٰ علىٰ المقصودِ به بأنَّه رفَعه إليه، وشبَّه ذلك عليهم حتىٰ ظنُّوا أنَّهم صلَبوه، وإنَّما صلَبوا أحدَهم؛ وذلك أخفىٰ الكيدِ، فقال تعالىٰ مُخبِرًا عن ذلك علىٰ وجهٍ مُبشِّرٍ له بأنَّه عاصِمُه مِن أن يقتُلوه: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[3].

استئنافٌ، وهذا حكايةٌ لأمرِ رَفْعِ المسيحِ وإخفائه عن أنظارِ أعدائه. وقدَّم اللهُ في خطابِه إعلامَه بذلك؛ استئناسًا له؛ إذ لم يَتِمَّ ما يَرغَبُه مِن هدايةِ قومه، مع العلم بأنَّه يحبُّ لقاءَ الله، وتبشيرًا له بأنَّ اللهَ مُظهِرُ دِينِه؛ لأنَّ غايةَ هَمِّ الرسول هو الهدىٰ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٦).

(٢) تفسير السعدي (ص: ١٣٢).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٤١٩-٤٢٠).

وإبـلاغُ الشـريعةِ؛ فلـذلك قـال لـه: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾(١).

ثـم أخبَـر تعـالىٰ ببِشـارتِهِ بالعِصْـمةِ مِـن مكـرِهم بقولِـه: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾(٢).

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦﴾

ثم فصَّل له الحُكْمَ، فقال مرهِّبًا لمخالِفيه، مرغِّبًا لموافِقيه، وقدَّم المخالِفين؛ لأنَّ السياقَ لبيـانِ إذلالهـم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر: ﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾، بيَّن بعد ذلك مُفصَّلًا ما في ذلك الاختلافِ؛ أمَّا الاختلافُ: فهو أنْ كفَر قومٌ، وآمَن آخرون، وأمَّا الحُكْمُ فيمَن كفَر: فهو أن يُعذِّبَه عذابًا شديدًا في الدنيا والآخرةِ، وأمَّا الحُكْمُ فيمَن آمَن وعَمِل الصالحاتِ: فهو أن يُوفِّيَهم أجورَهم(٤).

تفسيرٌ للحُكْمِ الواقع بَيْنَ الفريقينِ، وتفصيلٌ لكيفيَّتِه، والبدايةُ ببيانِ حال الكفَرةِ؛ لِما أنَّ مساقَ الكلامِ لتهديدِهم وزجرِهم عمَّا هم عليه مِن الكفرِ والعناد(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٥٨).

(٢) محاسن التأويل (٢/ ٣٢٣).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٤٢٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٤٠).

(٥) إرشاد العقل السليم (٢/ ٤٤).

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

بدأ أولًا بقِسْمِ الكفارِ؛ لأنَّ ما قبله مِن ذِكْرِ حُكْمِه تعالىٰ بينهم هو علىٰ سبيلِ التَّهديد والوعيدِ للكفار، والإخبارِ بجزائهم؛ فناسبت البَداءةُ بهم، ولأنَّهم أقربُ في الذِّكر بقولِه: ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾، وبكونِ الكلام مع اليهود الذين كفروا بعيسىٰ وراموا قَتْلَه، ثم أتىٰ ثانيًا بذِكْرِ المؤمنين، وعلَّق هناك العذابَ علىٰ مجرَّدِ الكفر، وهنا علَّق توفيةَ الأجرِ علىٰ الإيمان وعملِ الصالحات؛ تنبيهًا علىٰ درجةِ الكمال في الإيمان، ودعاءً إليها(١).

ثم ذكَر حالَ القِسْمِ الثاني، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

لمَّا أتمَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما أراد مِن أمرِ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن ابتداءِ تكوينِه إلىٰ انتهاء رَفْعِه، وما كان بعده مِن أمرِ أتباعه، مشيرًا بذلك إلىٰ ما فيه مِن بدائعِ الحِكَمِ وخزائنِ العلوم واللَّطائف المتنزِّلةِ علىٰ مقاديرِ الهِمَم علىٰ أتقَنِ وجهٍ وأحكَمِه، وأتَمِّه وأخلَصِه وأسلَمِه، وختَمه بالتَّنفير مِن الظُّلم، وكان الظُّلْمُ وضعَ الشَّيءِ في غيرِ موضعه، وكان هذا القرآنُ العظيم قد حاز مِن حُسْنِ التَّرتيب ورصانةِ النَّظم -بوضعِ كلِّ شيءٍ منه لفظًا ومعنًىٰ في محلِّه الأليَقِ به- المحَلَّ الأعلىٰ، لا سيَّما هذه الآياتُ التي أتت بالتَّفصيلِ مِن أمر عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلم تَدَعْ فيه شكًّا، ولا أبقَتْ شُبْهةً ولا لَبْسًا؛ أتبَع ما تقدَّم مِن تفصيلِ الآيات البينات قولَه منبِّهًا علىٰ عظَمةِ هذه الآياتِ الشاهدات، الآتي

(١) نظم الدرر (٤/ ٤٢٢).

بها ﷺ، بأوضَحِ الصِّدق بإعجازِها في نَظْمِها، وفي العلمِ بمضامينها مِن غيرِ معلِّمٍ مِن البشَرِ: ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾(١).

تذييلٌ: فإنَّ الآياتِ والذِّكْرَ أعَمُّ مِن الذي تُلِيَ هنا، واسمُ الإشارة إلىٰ الكلام السابق مِن قوله تعالىٰ: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾، وتذكيرُ اسمِ الإشارة لتأويل المشارِ إليه بالكلام، أو بالمذكور(٢).

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾

ثم أكَّد ظُلْمَهم، وصوَّر حِكْمتَه بمثلِ هذا الفُرْقانِ في أمر عيسىٰ عليه السلام، الكاشفِ لِما في ذلك ممَّا أُلبِسَ عليهم، فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٣).

استئنافٌ بيانيٌّ، بُيِّن به ما نشأ مِن الأوهامِ عند النصارىٰ عن وصفِ عيسىٰ بأنَّه كلمةٌ مِن الله، فضَلُّوا بتوهُّمِهم أنَّه ليس خالصَ الناسوت، وهذا شروعٌ في إبطالِ عقيدة النصارىٰ مِن تأليهِ عيسىٰ، ورَدٌّ مطاعنِهم في الإسلام، وهو أقطَعُ دليلٍ بطريق الإلزام؛ لأنَّهم قالوا بإلهيَّةِ عيسىٰ مِن أجلِ أنَّه خُلِق بكلمةٍ مِن الله، وليس له أبٌ، فقالوا: هو ابنُ الله، فأراهم اللهُ أنَّ آدَمَ أَوْلىٰ بأن يُدَّعىٰ له ذلك، فإذا لم يكُنْ آدَمُ إلهًا مع أنَّه خُلِق بدُونِ أبوَينِ، فعيسىٰ أَوْلىٰ بالمخلوقيَّةِ مِن آدَمَ، ومحَلُّ التمثيلِ كونُ كليهما مِن دُونِ أبٍ، ويَزيدُ آدَمُ بكونِه مِن دُونِ أمٍّ أيضًا؛ ولذلك احتِيجَ إلىٰ ذِكْرِ وجهِ الشَّبَهِ بقولِه: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٤٢٤).
(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٢٦٢).
(٣) نظم الدرر (٤/ ٤٢٥).
(٤) التحرير والتنوير (٣/ ٢٦٣).

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

ولـمَّا ابتدأ القصَّةَ بالحقِّ في قوله: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾، ختَمها بذلك على وجهٍ آكَدَ وأضخَمَ، فقال: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾(١).

أخبَر تعالى أنَّ الحقَّ -وهو الشَّيءُ الثابت الذي لا شكَّ فيه- هو واردٌ إليك مِن ربِّك؛ فجميعُ ما أنبأك به حقٌّ، فيدخُلُ فيه قصَّةُ عيسى وآدَمَ، وجميعُ أنبائِه تعالى(٢).

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

ولـمَّا أتاهم سُبحانَه وتعالى مِن أمرِ عيسى عليه السلام بالفصلِ في البيانِ، الذي ليس بعده إلا العنادُ، فبيَّن أولًا ما تنقَّل فيه عيسى عليه السلام مِن أطوارِ الخَلْقِ الموجِبة للحاجةِ المنافية للإلهيَّة، ثم فضَح بتمثيلِه بآدَمَ عليه السلام شُبْهتَهم؛ ألزَمهم على تقديرِه بالفيصلِ الأعظم للمعانِد، الموجِبِ للعذاب المستأصِلِ أهلَ الفساد، فقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾(٣).

تفريعٌ على قوله: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾؛ لِما فيه مِن إيماءٍ إلى أنَّ وَفْدَ نَجْرانَ مُمْترون في هذا الذي بيَّن اللهُ لهم في هذه الآياتِ؛ أي: فإنِ استمَرُّوا على مُحاجَّتِهم إياك مكابرةً في هذا الحقِّ، أو في شأنِ عيسى عليه السلام؛ فادعُهم إلى المُباهَلةِ والمُلاعَنة؛ ذلك أنَّ تصميمَهم على معتقَدِهم بعد هذا البيانِ مكابَرةٌ مَحْضة بعد ما جاءك مِن العلمِ، وبيَّنْتَ لهم، فلم يَبقَ أوضَحُ ممَّا حاجَجْتَهم به، فعَلِمْتَ أنَّهم

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٤٢٨).

(٢) البحر المحيط (٣/ ١٨٧).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٤٤١-٤٤٢).

إنَّما يحاجُّونك عن مكابرةٍ، وقلةِ يقينٍ؛ فادعُهم إلى المُباهَلة بالمُلاعَنة الموصوفة هنا(١).

اعلَمْ أنَّ اللهَ تعالى بيَّن في أولِ هذه السُّورة وجوهًا مِن الدلائلِ القاطعة على فسادِ قول النصارى بالزوجةِ والولد، وأتبَعها بذِكْرِ الجواب عن جميعِ شُبَهِهم على سبيل الاستقصاءِ التام، وختَم الكلامَ بهذه النُّكْتةِ القاطعة لفسادِ كلامهم؛ وهو أنَّه لمَّا لم يَلزَمْ مِن عدمِ الأبِ والأمِّ البشَريَّينِ لآدَمَ عليه السلام أن يكونَ ابنًا للهِ تعالى، لم يَلزَمْ مِن عدمِ الأبِ البشري لعيسى عليه السلام أن يكونَ ابنًا للهِ تعالى عن ذلك، ولمَّا لم يبعُدِ انخلاقُ آدَمَ عليه السلام مِن الترابِ، لم يبعُدْ أيضًا انخلاقُ عيسى عليه السلام مِن الدَّمِ الذي كان يجتمِعُ في رَحِمِ أمِّ عيسى عليه السلام، ومَن أنصَف وطلَب الحقَّ، عَلِم أنَّ البيانَ قد بلغ إلى الغاية القصوى؛ فعند ذلك قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ بعد هذه الدلائلِ الواضحة، والجواباتِ اللائحة؛ فاقطَعِ الكلامَ معهم، وعامِلْهم بما يعامَلُ به المعانِدُ؛ وهو أن تدعوَهم إلى المُلاعَنةِ، فقال: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ إلى آخرِ الآية(٢).

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٢﴾

ولمَّا كان العلمُ الأزليُّ حاصلًا بأنَّ المجادِلين في أمر عيسى عليه السلام يكُفُّون عن المُباهَلةِ بعد المجادَلة؛ خوفًا مِن الاستئصالِ في العاجلة، مع الخِزْيِ الدائم في الآجلة، وكان كَفُّهم عن ذلك مُوجِبًا للقطعِ بإبطالهم في دعواهم لكلِّ مَن يشاهدهم أو يتَّصل به خبرُهم؛ حسُنَ كلَّ الحُسْنِ تعقيبُ ذلك بقولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٦٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٤٥).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٤٤٤).

جملةُ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ وما عُطِف عليها بالواوِ اعتراضٌ لبيانِ ما اقتضاه قولُه: ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؛ لأنَّهم نفَوْا أن يكونَ عيسىٰ عبدَ اللهِ، وزعَموا أنَّه غُلِب؛ فإثباتُ أنَّه عبدٌ هو الحقُّ(١).

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ هذا خبَرٌ مِن اللهِ جَزْمٌ مؤكَّد فصَل به بَيْنَ المختصِمَينِ، والإشارةُ إلىٰ القرآنِ علىٰ قول الجمهور، والظاهر أنَّه إشارةٌ إلىٰ ما تقدَّم مِن أخبار عيسىٰ عليه السلام، وكونِه مخلوقًا مِن غيرِ أبٍ؛ قاله ابنُ عباسٍ، وابن جُرَيج، وابن زيدٍ، وغيرُهم؛ أي: هذا هو الحقُّ، لا ما يدَّعيه النصارىٰ فيه مِن كونه إلهًا أو ابنَ الله، ولا ما تدَّعيه اليهودُ فيه(٢).

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

ولمَّا ثبَت ذلك كلُّه، سبَّب عنه تهديدَهم علىٰ الإعراضِ بقولِه منبِّهًا بالتعبيرِ بأداة الشك علىٰ أنَّه لا يُعرِضُ عن هذا المحَلِّ البيِّنِ إلا مَن كان عالِمًا بأنَّه مُبطِلٌ، ومثلُ ذلك لا يُظَنُّ بذي عقلٍ ولا مروءة، فمِن حقِّ ذِكْرِه أن يكونَ مِن قَبيلِ فرضِ المُحالاتِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾(٣).

جملةُ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ عطفٌ علىٰ قوله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾، وهذا تسجيلٌ عليهم إذ نكَصُوا عن المُباهَلة، وقد عُلِم بذلك أنَّهم قصَدوا المكابَرة، ولم يَتطلَّبوا الحقَّ(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٦٦).
(٢) البحر المحيط (٣/ ١٩٢).
(٣) نظم الدرر (٤/ ٤٤٦).
(٤) التحرير والتنوير (٣/ ٢٦٧).

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

ولمَّا نكَصوا عن المُباهَلة بعد أن أورَد عليهم أنواعَ الحُجَج فانقطعوا، فلم تَبقَ لهم شُبْهةٌ، وقَبِلوا الصَّغار والجِزْية، فعُلِم انحلالُهم عمَّا كانوا فيه مِن المُحاجَّة، ولم يَبقَ إلا إظهارُ النَّتيجة؛ اقتضىٰ ذلك عِظَمَ تشوُّفِه ﷺ؛ لعِظَمِ حرصِه ﷺ علىٰ هدايةِ الخَلْق، فأمره بأن يذكُرَها مكرِّرًا إرشادَهم بطريقٍ أخفَّ ممَّا مضىٰ؛ بأن يؤنِسَهم فيما يَدْعوهم إليه بالمؤاساة، فيدعوَ دعاءً يَشمَلُ المُحاجِّين مِن النَّصارىٰ وغيرِهم ممَّن له كتابٌ مِن اليهودِ وغيرهم إلىٰ الكلمةِ التي قامت البراهينُ علىٰ حَقِّيَّتها، ونهضتِ الدَّلائلُ علىٰ صدقِها، دعاءً لا أعدَلَ منه، علىٰ وجهٍ يَتضمَّن نَفْيَ ما قد يُتخيَّل مِن إرادةِ التَّفضُّل عليهم، والاختصاصِ بأمرٍ دونهم؛ وذلك أنَّه بدأ بمباشرةِ ما دعاهم إليه، ورَضِي لهم ما رَضِي لنفسه، وما اجتمَعتْ عليه الكتبُ، واتَّفقت عليه الرُّسلُ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(١).

رجوعٌ إلىٰ المجادَلة بعد انقطاعها بالدعاء إلىٰ المُباهَلة، بعَث عليه الحرصُ علىٰ إيمانهم، وإشارةٌ إلىٰ شيءٍ مِن زيغِ أهلِ الكتابينِ عن حقيقةِ إسلامِ الوجه لله؛ كما تقدَّم بيانُه، وقد جِيءَ في هذه المجادَلةِ بحُجَّةٍ لا يجدون عنها موئلًا؛ وهو دَعْوتُهم إلىٰ تخصيصِ الله بالعبادة، ونَبْذِ عقيدةِ إشراكِ غيرِه في الإلهيَّة؛ فجملةُ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بمنزلةِ التأكيد لجملة ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾؛ لأنَّ مدلولَ الأُولىٰ

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٤٤٦-٤٤٧).

احتجاجٌ عليهم بضَعْفِ ثِقَتِهم بأحَقِّيَّةِ اعتقادهم، ومدلولَ هذه احتجاجٌ عليهم بصحَّةِ عقيدة الإسلام؛ ولذلك لم تُعطَفْ هذه الجملةُ. والمرادُ بأهلِ الكتاب هنا: النصارىٰ؛ لأنَّهم هم الذين اتخذوا المخلوقَ ربًّا، وعبَدوه مع الله(١).

اعلَمْ أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا أورَد علىٰ نصارىٰ نَجْرانَ أنواعَ الدلائل وانقطَعوا، ثم دعاهم إلىٰ المُباهَلة فخافوا، وما شرَعوا فيها، وقَبِلوا الصَّغارَ بأداء الجِزْية، وقد كان ﷺ حريصًا علىٰ إيمانهم، فكأنَّه تعالىٰ قال: يا محمَّدُ، اترُكْ ذلك المنهجَ مِن الكلام، واعدِلْ إلىٰ منهجٍ آخرَ يَشهَدُ كلُّ عقلٍ سليم وطبعٍ مستقيم أنَّه كلامٌ مبنيٌّ علىٰ الإنصافِ وتركِ الجدال، و﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾؛ أي: هلُمُّوا إلىٰ كلمةٍ فيها إنصافٌ مِن بعضِنا لبعضٍ، ولا مَيْلَ فيه لأحدٍ علىٰ صاحبِه؛ وهي: ألا نعبُدَ إلا اللهَ، ولا نُشرِكَ به شيئًا(٢).

ولمَّا قطَعهم بالدَّلائلِ الواضحة فلم يُذعِنوا، ودعاهم إلىٰ المُباهَلة فامتنَعوا؛ عدَل إلىٰ نوعٍ مِن التَّلطُّفِ؛ وهو دعاؤهم إلىٰ كلمةٍ فيها إنصافٌ بينهم(٣).

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥﴾

ولمَّا علِم أهلُ الكتاب ما جُبِل عليه العربُ مِن محبَّةِ أبيهم إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّ محمَّدًا ﷺ أتىٰ بدينِه -كما تقدَّم في قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾-؛ اجتمَع ملأٌ مِن قرابتِهم بحضرةِ النبي ﷺ، وضلَّل كلٌّ منهم الآخَرَ،

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٦٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٥١).

(٣) البحر المحيط (٣/ ١٩٣).

وادَّعىٰ كلٌّ منهم -قصدًا لاجتذابِ المسلمين إلىٰ ضَلالِهم بكيدِهم ومِحالِهم[(١)]- اتِّباعَ إبراهيمَ ﷺ بأنَّه ﷺ كان علىٰ دِينِهم، ولم يكن لذلك ذِكْرٌ في كتابهم، مع أنَّ العقلَ يرُدُّه بأدنىٰ التفاتٍ؛ لأنَّ دِينَ كلٍّ منهم إنَّما قُرِّر بكتابهم، وكتابُهم إنَّما نزَل علىٰ نبيِّهم، ونبيُّهم إنَّما كان بعد إبراهيمَ ﷺ بدهورٍ متطاوِلة، واليهودُ يُنسَبون إلىٰ يَهُوذا بنِ يعقوب ﷺ؛ لأخذِه البُكوريَّةَ عن أخيه بنيامينَ لأمرٍ مذكور في كتابهم، والنصارىٰ يُنسَبون إلىٰ الناصرةِ مخرجِ عيسىٰ ﷺ في جبَلِ الجليلِ، ولا يُعقَل أن يكونَ المتقدِّمُ علىٰ دِينٍ ما حدَث إلا بعده، وعلىٰ نسبةٍ متأخرة عنه، وكان دِينُه ﷺ إنَّما هو الإسلام، وهو الحنيفيَّةُ السَّمْحةُ، فقال ﷻ مبكِّتًا لهم: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[(٢)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ للانتقالِ مِن دعائهم لكلمة الحقِّ الجامعة لحقِّ الدِّين إلىٰ الإنكارِ عليهم مُحاجَّتَهم الباطلة للمسلمين في دِينِ إبراهيمَ، وزعَم كلُّ فريقٍ منهم أنَّهم علىٰ دِينِه توصُّلًا إلىٰ أنَّ الذي خالَف دِينَهم لا يكون علىٰ دِينِ إبراهيمَ؛ كما يدَّعي النبيُّ محمَّدٌ ﷺ؛ فالمُحاجَّةُ فرعٌ عن المخالفةِ في الدعوىٰ، وهذه المُحاجَّةُ عن طريقِ قياس المساواة في النفيِ، أو في مُحاجَّتِهم النبيَّ في دَعْواه أنَّه علىٰ دِينِ إبراهيمَ مُحاجَّةٌ يَقصِدون منها إبطالَ مساواة دِينِه لدِينِ إبراهيمَ، بطريقةِ قياس المساواة في النفي أيضًا، فيجوز أن تكونَ هذه الجملةُ مِن مقُولِ القول المأمورِ به الرسولُ في قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ﴾؛ أي: قُلْ لهم: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ ﴾؟! ويجوز أن يكونَ الاستئنافُ مِن كلام الله تعالىٰ عَقِب أمرِه الرسولَ

---

(١) أي: المكر والاحتيال.

(٢) نظم الدرر (٤/ ٤٤٩).

بأن يقولَ: ﴿تَعَالَوْاْ﴾، فيكونَ توجيهَ خطابٍ إلىٰ أهلِ الكتاب مباشرةً، ويكون جعَل الجملةَ الأُولىٰ مِن مقُولِ الرسول دُونَ هذه؛ لأنَّ الأُولىٰ مِن شؤونِ الدعوة، وهذه مِن طُرقِ المُحاجَّة، وإبطالِ قولهم، وذلك في الدرجةِ الثانية مِن الدعوة، والكلُّ في النسبة إلىٰ الله سواءٌ، ومناسبةُ الانتقال مِن الكلام السابق إلىٰ هذا الكلامِ نشأت مِن قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾؛ لأنَّه قد شاع فيما نزَل مِن القرآن في مكَّةَ وبعدها أنَّ الإسلامَ الذي جاء به محمَّدٌ ﷺ يَرجِعُ إلىٰ الحنيفيَّةِ دِينِ إبراهيمَ؛ كما تقدَّم تقريرُه في سورةِ «البقرة»، وسيجيء أنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان حنيفًا مسلِمًا، وقد اشتهَر هذا وأُعلِنَ بَيْنَ المشركين في مكَّةَ، وبين اليهودِ في المدينة، وبين النصارىٰ في وَفْدِ نَجْرانَ، وقد عُلِم أنَّ المشركين بمكَّةَ كانوا يدَّعون أنَّهم ورثةُ شريعةِ إبراهيمَ، وسدَنةُ بيته، وكان أهلُ الكتاب قد ادَّعَوْا أنَّهم علىٰ دِينِ إبراهيمَ، ولم يتبيَّنْ لي أكان ذلك منهم ادعاءً قديمًا أم كانوا قد تفطَّنوا إليه مِن دعوة محمَّدٍ ﷺ فاستيقَظوا لتقليده في ذلك، أم كانوا قالوا ذلك علىٰ وجهِ الإفحام للرسولِ حين حاجَّهم بأنَّ دِينَه هو الحقُّ، وأنَّ الدِّينَ عند الله الإسلامُ؟! فألجؤوه إلىٰ أحدِ أمرينِ: إمَّا أن تكونَ الزيادةُ علىٰ دِينِ إبراهيمَ غيرُ مخرِجةٍ عن اتِّباعه؛ فهو مشترَكُ الإلزامِ في دِينِ اليهودية والنَّصرانية، وإمَّا أن تكونَ مخرِجةً عن دِينِ إبراهيمَ، فلا يكونَ الإسلامُ تابعًا لدِينِ إبراهيمَ(١).

لمَّا ادَّعَتْ كلُّ واحدةٍ مِن طائفتَي اليهودِ والنصارىٰ أنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان علىٰ دِينِهم، ردَّ اللهُ سبحانه ذلك عليهم، وأبان بأنَّ المِلَّةَ اليهوديةَ والملة النَّصْرانية إنَّما كانتا مِن بعدِه(٢).

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٧٠).

(٢) فتح القدير (١/ ٤٠٠).

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

ثم استأنف تبكيتًا آخرَ، فقال منبِّهًا لهم، مكرِّرًا التَّنبيهَ؛ إشارةً إلىٰ طُولِ رُقادِهم، أو شِدَّةِ عنادهم: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١).

هذا إنكارٌ علىٰ مَن يحاجُّ فيما لا عِلْمَ له به؛ فإنَّ اليهودَ والنصارىٰ تَحاجُّوا في إبراهيمَ بلا علمٍ، ولو تحاجُّوا فيما بأيديهم منه عِلْمٌ ممَّا يتعلقُ بأديانهم التي شُرِعتْ لهم إلىٰ حينِ بعثةِ محمَّدٍ ﷺ، لكان أَوْلىٰ بهم، وإنَّما تكلَّموا فيما لم يَعلَموا به؛ فأنكَر اللهُ عليهم ذلك، وأمَرهم بردِّ ما لا عِلْمَ لهم به إلىٰ عالِمِ الغيب والشَّهادة، الذي يعلمُ الأمورَ علىٰ حقائقها وجليَّاتِها(٢).

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ولمَّا وبَّخهم علىٰ ذلك مِن جهلِهم، نفىٰ ﷻ عن إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام ما ادَّعاه عليه كلٌّ منهم طِبْقَ ما برهَنتْ عليه الآيةُ الأُولىٰ، ونفىٰ عنه كلَّ شركٍ أيضًا، وأثبَتَ أنَّه كان مائلًا عن كلِّ باطلٍ، منقادًا مع الدَّليل إلىٰ كلِّ حقٍّ، بقولِه ﷻ: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٣).

نتيجةٌ للاستدلالِ إذ قد تحصحَصَ مِن الحُجَّةِ الماضية أنَّ اليهوديَّة والنَّصرانية غيرُ الحنيفيَّة، وأنَّ موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام لم يُخبِرَا بأنَّهما علىٰ الحنيفيَّةِ؛ فأنتج أنَّ إبراهيمَ

(١) نظم الدرر (٤/ ٤٥٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٤٥٢).

لم يكُنْ علىٰ حالِ اليهوديَّة أو النَّصرانية؛ إذ لم يُؤثَرْ ذلك عن موسىٰ ولا عيسىٰ عليهما السلام؛ فهذا سنَدُه خلوُّ كُتبِهم عن ادِّعاء ذلك[(١)].

ثم بيَّن تعالىٰ ذلك مفصَّلًا؛ حيث كذَّبهم فيما ادَّعَوْهُ مِن موافَقةٍ لهما، فقال: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[(٢)].

أعلَمَ تعالىٰ براءةَ إبراهيمَ مِن هذه الأديانِ، وبدأ بانتفاءِ اليهوديَّة؛ لأنَّ شريعةَ اليهود أقدَمُ مِن شريعة النَّصارىٰ، وكرَّر لا لتأكيدِ النَّفي عن كلِّ واحدٍ مِن الدِّينَينِ، ثم استدرَك ما كان عليه بقولِه: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[(٣)].

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ولمَّا نفىٰ عنه ﷺ كلَّ زيغٍ بعد أن نفىٰ عنه أن يكونَ علىٰ ملَّةٍ هو متقدِّمٌ عن حدوثها، شرَع في بيانِ ما يَتِمُّ به نتيجةُ ما مضىٰ ببيانِ مَن هو أقرَبُ إليه ممَّن جاء بعده؛ فقرَّر أنَّ الأَوْلىٰ به إنَّما هو مَن اتبعَه في أصلِ الدِّين؛ وهو التوحيدُ والتنزيه الذي لم يختلِفْ فيه نبيَّانِ أصلًا، وفي الانقيادِ للدليل، وتركِ المألوف مِن غير تلعثُمٍ، حتىٰ صاروا أحقَّاءَ بالإسلام الذي هو وصفُه بقولِه ﷻ مؤكِّدًا ردًّا عليهم وتكذيبًا لمُحاجَّتِهم: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٤٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٥٤).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٢٠١).

(٤) نظم الدرر (٤/ ٤٥٣-٤٥٤).

استئنافٌ ناشئ عن نفيِ اليهودية والنَّصرانية عن إبراهيمَ عليه السلام؛ فليس اليهودُ ولا النصارىٰ ولا المشركون بأَوْلىٰ الناس به؛ وهذا يدلُّ علىٰ أنَّهم كانوا يقولون: نحن أَوْلىٰ بدِينِكم[١].

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

ولمَّا كان قصدُ بعضِهم بدعواه أنَّ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام علىٰ دِينِه إنَّما هو إضلالُ أهل الإسلام، عقَّب ذلك بالإعرابِ عن مرادهم بقولِه تعالىٰ - جوابًا لِمَن كأنَّه قال: فما كان مرادُ أهل الكتابينِ بدعواهم فيه مع علمِهم أنَّ ذلك مخالِفٌ لصريح العقل؟-: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[٢].

استئنافٌ مناسبتُه قولـه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ إلىٰ قولـه: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ ﴾ الآيةَ، والمرادُ بأهل الكتاب هنا: اليهودُ خاصَّةً؛ ولذلك عبَّر عنهم بطائفةٍ مِن أهلِ الكتاب؛ لئلا يُتوهَّمَ أنَّهم أهلُ الكتاب الذين كانت المُحاجَّةُ معهم في الآيات السابقة[٣].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ مِن طريقةِ أهل الكتاب العدولَ عن الحقِّ، والإعراضَ عن قَبول الحُجَّة؛ بيَّن أنَّهم لا يقتصرون علىٰ هذا القَدْرِ، بل يجتهدون في إضلالِ مَن آمن بالرَّسول ﷺ بإلقاءِ الشُّبهات[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٧٦).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٤٥٤-٤٥٥).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٢٧٨).

(٤) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٥٥).

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ ﴾

ولمَّا ختَم الكلامَ فيهم بنفيِ شعورهم، بيَّن تعالىٰ في مَعرِضِ التَّبكيتِ أنَّ نفيَهم عنه إنَّما هو لأنَّهم معانِدون، لا يَعمَلون بعلمِهم، بل يعملون بخلافه، فقال مستأنِفًا بما يدُلُّ علىٰ غايةِ التَّبكيت المؤذِنةِ بشديد الغضب: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن حالَ الطائفةِ التي لا تشعُرُ بما في التَّوراةِ مِن دَلالة نبوَّة محمَّدٍ ﷺ، بيَّن أيضًا حالَ الطائفةِ العارفة بذلك مِن أحبارِهم(٢).

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١ ﴾

ثم أتبَع ذلك استئنافًا آخَرَ مثلَ ذلك، إلا أنَّ الأولَ قاصرٌ علىٰ ضَلالهم، وهذا متعدٍّ إلىٰ إضلالهم، فقال: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾(٣).

إعادةُ ندائهم بقولِه: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ ثانيةً لقصدِ التوبيخ، وتسجيلِ باطلِهم عليهم(٤).

اعلَمْ أنَّ علماءَ اليهود والنصارىٰ كانت لهم حرفتانِ: إحداهما: أنَّهم كانوا يكفُرون بمحمَّدٍ ﷺ مع أنَّهم كانوا يَعلَمون بقلوبهم أنَّه رسولُ حقٍّ مِن عندِ الله، والله تعالىٰ

(١) نظم الدرر (٤/ ٤٥٥-٤٥٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٥٥).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٤٥٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢/ ٢٧٩).

نهاهم عن هذه الحرفةِ في الآيةِ الأُولى. وثانيتهما: أنَّهم كانوا يَجتهدون في إلقاء الشُّبهات، وفي إخفاءِ الدلائل والبيِّنات، واللهُ تعالى نهاهم عن هذه الحرفةِ في هذه الآيةِ الثانية. فالمقامُ الأوَّلُ: مقامُ الغَوايةِ والضلالة، والمقامُ الثاني: مقامُ الإغواءِ والإضلال[(١)].

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر لَبْسَهم، دلَّ عليه بقولِه مبيِّنًا لنوعِ إضلالٍ آخرَ: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[(٢)].

عطفٌ على ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ ﴾؛ فالطائفةُ الأولى حاولت الإضلالَ بالمجاهَرة، وهذه الطائفةُ حاولته بالمخادَعة[(٣)].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا حكى عنهم أنَّهم يَلبِسون الحقَّ بالباطل، أردَف ذلك بأن حكى عنهم نوعًا واحدًا مِن أنواعِ تلبيساتهم، وهو المذكورُ في هذه الآية[(٤)].

ثم أخبَر تعالى عمَّا همَّتْ به هذه الطائفةُ الخبيثة، وإرادةِ المَكْرِ بالمؤمنين، فقال: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: نظم الدرر (٤/ ٤٥٧).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٢٧٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٥٧).

(٥) تفسير السعدي (ص: ١٣٥).

﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

قولُه: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ مِن كلامِ الطائفة مِن أهل الكتاب، قصَدوا به الاحتراسَ ألَّا يظُنُّوا مِن قولهم: ﴿ ءَامِنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ ﴾ أنَّه إيمانٌ حقٌّ؛ فالمعنىٰ: ولا تؤمنوا إيمانًا حقًّا إلا لِمَن تَبِع دِينكم، فأمَّا محمَّدٌ فلا تؤمِنوا به؛ لأنَّه لم يَتبَعْ دِينكم؛ فهذا تعليلٌ للنهيِ(١).

أنَّه ذكَر قبل هذه الآيةِ قولَه: ﴿ ءَامِنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ ﴾، ثم قال في هذه الآيةِ: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ ؛ أي: لا تأتوا بذلك الإيمانِ إلا لأجلِ مَن تَبِع دِينكم، كأنَّهم قالوا: ليس الغرضُ مِن الإتيان بذلك التلبيسِ إلا بقاءَ أتباعِكم علىٰ دِينِكم؛ فالمعنىٰ: ولا تأتوا بذلك الإيمانِ إلا لأجلِ مَن تَبِع دِينكم؛ فإنَّ مقصودَ كلِّ واحدٍ حفظُ أتباعِه وأشياعه علىٰ متابَعتِه(٢).

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا مِن الوضوحِ بحيث لا يَحتاجُ إلىٰ تأكيدٍ، انتقَل عنه إلىٰ تأكيدِ الردِّ عليهم في الأمرِ الأول بثمرةِ هذه الجملةِ ونتيجتها مِن أنَّه فاعلٌ بالاختيار، تامُّ الاقتدار، فقال: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(٣).

جملةُ ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ بدَلُ بعضٍ مِن كلٍّ لجملةِ ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾؛ فإنَّ رَحْمتَه بعضٌ ممَّا هو فضلُه(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٨٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٥٩).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٤٥٩-٤٦٠).

(٤) التحرير والتنوير (٣/ ٢٨٤).

هذا كالتأكيد لِما تقدَّم، والفرقُ بَيْنَ هذه الآيةِ وبين ما قبلها أنَّ الفضلَ عبارةٌ عن الزيادة، ثم إنَّ الزيادةَ مِن جنس المَزيدِ عليه، فبيَّن بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أنَّه قادرٌ علىٰ أن يؤتيَ بعضَ عبادِه مثلَ ما آتاهم مِن المناصبِ العالية، ويَزيدَ عليها مِن جنسها، فقال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[1].

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

فلمَّا تقرَّر أنَّ الأمرَ كلَّه له، ذكَر دليلَ ذلك فيهم بأنَّه فضَّل فريقًا منهم فأعلاه، وردَّل فريقًا منهم فأَرْدَاه، فلم يرُدَّهم الكتابُ وهم يتلونه إلىٰ الصوابِ، فقال عاطفًا علىٰ ما مضىٰ مِن مخازيهم، مقرِّرًا لكتمانِهم للحق -مع علمِهم بأنَّه الحقُّ- بأنَّ الخيانةَ دَيْدنُهم في الأعيانِ الدُّنيوية والمعاني الدِّينية، منبِّهًا علىٰ أنَّهم وإن شاركوا الناسَ في انقسامهم إلىٰ أمينٍ وخائن، فهم يفارِقونهم مِن حيث إنَّ خائنَهم يَتديَّنُ بخيانتِه ويُسنِدُها - مُروقًا مِن رِبقةِ الحياء - إلىٰ اللهِ، مادحًا للأمينِ منهم: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2].

عطفٌ علىٰ قوله: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أو علىٰ قوله: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ عَطْفَ القصَّةِ علىٰ القصَّة، والمناسبةُ بيانُ دخائلِ أحوال اليهود في معاملة المسلمين، الناشئةِ عن حسَدِهم، وفي انحرافِهم عن ملَّةِ إبراهيمَ مع

(١) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٦٢).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٤٦٠-٤٦١).

ادعائهم أنَّهم أَوْلىٰ الناس به؛ فقد حكىٰ في هذه الآيةِ خيانةَ فريقٍ منهم، وقد ذكَر اللهُ هنا في أهل الكتاب فريقينِ: فريقًا يؤدي الأمانةَ تعففًا عن الخيانة، وفريقًا لا يؤدي الأمانةَ متعلِّلينَ لإباحةِ الخيانة في دِينِهم. قيل: ومِن الفريقِ الأول: عبدُ الله بن سَلَامٍ، ومِن الفريق الثاني: فِنْحَاصُ بن عازُوراءَ، وكلاهما مِن يهودِ يثربَ. والمقصودُ مِن الآية: ذمُّ الفريقِ الثاني؛ إذ كان مِن دِينِهم -في زعمِهم- إباحةُ الخَوْنِ، قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾؛ فلذلك كان المقصودُ هو قولَه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ إلخ؛ ولذلك طوَّل الكلامَ فيه. وإنَّما قدَّم عليه قولَه: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ إنصافًا لِحَقِّ هذا الفريقِ؛ لأنَّ الإنصافَ ممَّا اشتهَر به الإسلامُ، وإن كان -في زعمِهم- أنَّ دِينَهم يبيحُ لهم خيانةَ غيرهم، فقد صار النَّعْيُ عليهم، والتعبيرُ بهذا القولِ لازمًا لجميعِهم، أمينِهم وخائنهم؛ لأنَّ الأمينَ حينئذ لا مزيَّةَ له إلا في أنَّه ترَك حقًّا يبيحُ له دِينُه أخْذَه، فترفَّع عن ذلك كما يَترفَّع المتغالي في المروءةِ عن بعضِ المباحات[١].

اعلَمْ أنَّ تعلُّقَ هذه الآيةِ بما قبلها مِن وجهين: الأول: أنَّه تعالىٰ حكىٰ عنهم في الآيةِ المتقدِّمة أنَّهم ادَّعَوْا أنَّهم أُوتُوا مِن المناصبِ الدِّينية ما لم يؤتَ أحدٌ غيرُهم مثلَه، ثم إنَّه تعالىٰ بيَّن أنَّ الخيانةَ مستقبَحةٌ عند جميع أرباب الأديان، وهم مُصِرُّون عليها؛ فدلَّ هذا علىٰ كذبِهم. والثاني: أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عنهم في الآيةِ المتقدِّمة قبائحَ أحوالهم فيما يتعلقُ بالأديان، وهو أنَّهم قالوا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾؛ حكىٰ في هذه الآيةِ بعضَ قبائحِ أحوالهم فيما يتعلق بمعاملةِ الناس؛ وهو إصرارُهم علىٰ الخيانةِ، والظُّلم، وأخذِ أموال الناس في القليل والكثير[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٨٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٦٢).

شروعٌ في بيانِ خيانتهم في المال بعد بيانِ خيانتهم في الدِّين[١].

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٧٦﴾

ولمَّا ادَّعَوْا نفيَ الجُناحِ عنهم فيهم، وبيَّن تعالىٰ أنَّهم لا يَتحاشَوْنَ عن الكذبِ؛ صرَّح بكـذبِهم في هـذا الأمـرِ بخصوصه بقولِه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

﴿بَلَىٰ﴾ حرفُ جوابٍ، وهو مختصٌّ بإبطالِ النَّفي؛ فهو هنا لإبطالِ قولهم السابق: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾[٣].

ثم رَدَّ اللهُ تعالىٰ علىٰ قولهم بقولِه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٧﴾

ولمَّا كانت النُّفوسُ نزَّاعةً إلىٰ الخيانة، روَّاغةً عند مَضائقِ الأمانة، وكانت الخيانةُ تجُرُّ إلىٰ الكذب؛ بسَط في الإنذار، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٤].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ٥٠).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٤٦٢).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٢٨٩).

(٤) نظم الدرر (٤/ ٤٦٢-٤٦٣).

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّ في خيانةِ الأمانة إبطالًا للعهدِ وللحِلف الذي بينهم وبين المسلمين وقُرَيشٍ، والكلامُ استئنافٌ قُصِد منه ذِكْرُ الخُلُقِ الجامع لشتات مساوئِ أهل الكتاب مِن اليهود، دعا إليه قولُه: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وما بعده[(١)].

اعلَمْ أنَّ في تعلُّق هذه الآيةِ بما قبلها وجوهًا: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا وصَف اليهودَ بالخيانة في أموالِ الناس، ثم مِن المعلوم أنَّ الخيانةَ في أموال الناس لا تتمشَّىٰ إلا بالأيمانِ الكاذبة؛ لا جرَمَ ذكَر عَقِيبَ تلك الآيةِ هذه الآيةَ المشتمِلة علىٰ وعيدِ مَن يُقدِم علىٰ الأيمان الكاذبة. الثاني: أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عنهم أنَّهم يَقُولُونَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، ولا شك أنَّ عهدَ اللهِ علىٰ كلِّ مكلَّف ألا يَكذِبَ علىٰ الله، ولا يخُونَ في دِينِه؛ لا جرَمَ ذكَر هذا الوعيدَ عَقِيبَ ذلك. الثالث: أنَّه تعالىٰ ذكَر في الآية السابقة خيانتَهم في أموالِ الناس، ثم ذكَر في هذه الآيةِ خيانتَهم في عهدِ الله، وخيانتَهم في تعظيم أسمائه حين يَحلِفون بها كذبًا[(٢)].

📖 ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ 📖

ولمَّا نسَبهم إلىٰ الكذب عمومًا، نبَّه علىٰ نوعٍ خاصٍّ منه هو أكذَبُ الكذبِ، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٨٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٦٥).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٤٦٤).

اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ تدلُّ علىٰ أنَّ الآيةَ المتقدِّمة نازلةٌ في اليهود بلا شك؛ لأنَّ هذه الآيةَ نازلةٌ في حق اليهود، وهي معطوفة علىٰ ما قبلها؛ فهذا يقتضي كَوْنَ تلك الآيةِ المتقدِّمة نازلةً في اليهود أيضًا[1].

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

ولمَّا فرَغ مِن بيانِ ما أراد مِن كتمانهم للحقِّ مع الإشارة إلىٰ بعضِ توابعه إلىٰ أن ختَم بأنَّهم لا يَتحاشَوْنَ مِن الكذب علىٰ الله، المقتضي للكذب علىٰ الأنبياءِ صلوات الله وسلامه عليهم؛ لأنَّهم لا عِلْمَ لهم بقولِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلا بواسطةِ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ومهما كان القولُ كذبًا علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، اقتضىٰ أن يكونَ تعبُّدًا للمنسوب إليه مِن دُونِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّه هو الذي شرَعه؛ وذلك موجِبٌ لأنْ يَدَّعِيَ أنَّ النبيَّ دعا إلىٰ عبادته مِن دُونِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذلك بعد أن أوضَحَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِن صفاتِ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ المقتضيةِ لنفيِ الإلهيَّةِ عنه ما لا يخفىٰ علىٰ ذي لُبٍّ؛ شرَع يبيِّنُ أنَّهم كاذبون فيما يدَّعُونه في عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فنفىٰ أن يكونَ قال لهم ذلك أو شيئًا منه علىٰ وجهٍ شامل له ولكلِّ مَن اتصَف بصفتِه، وبسياقٍ هو بمجرَّدِه كافٍ في إبطالِ قولهم، فقال: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[2].

اعتراضٌ واستطراد؛ فإنَّه لمَّا ذكَر لَيَّ اليهودِ ألسنتَهم بالتَّوراة، وهو ضربٌ مِن التَّحريف؛ استطرَد بذِكْرِ التَّحريف الذي عند النَّصارىٰ لمناسبةِ التشابُهِ في التَّحريف؛

(١) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٦٧).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٤٦٦-٤٦٧).

إذ تقول النَّصارىٰ علىٰ المسيح: إنَّه أمَرهم بعبادتِه؛ فالمرادُ بالبشَرِ: عيسىٰ عليه السلام، والمقصودُ: تنزيهُ عيسىٰ عن أن يكونَ قال ذلك؛ ردًّا علىٰ النصارىٰ(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ عادةَ علماءِ أهل الكتاب التَّحريفُ والتَّبديل، أتبَعه بما يدلُّ علىٰ أنَّ مِن جملة ما حرَّفوه ما زعَموا أنَّ عيسىٰ عليه السلام كان يدَّعي الإلهيَّةَ، وأنَّه كان يأمرُ قومَه بعبادته(٢).

بيانٌ لافترائهم علىٰ الأنبياءِ عليهم السلام؛ حيث قال نصارىٰ نَجْرانَ: إنَّ عيسىٰ عليه السلام أمَرنا أن نتَّخِذَه ربًّا - حاشاه عليه السلام! - وإبطالٌ له، إثْرَ بيانِ افترائهم علىٰ الله سبحانه وإبطالِه(٣).

﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ولمَّا نفىٰ أن يكونَ الحكيمُ مِن البشَرِ داعيًا إلىٰ نفسه، وأثبَتَ أنَّه يكون ولا بد داعيًا إلىٰ الله سبحانه وتعالى لتظهَر حِكْمتُه؛ أثبَتَ أنَّ ذلك لا بدَّ وأن يكونَ علىٰ وجهِ الإخلاص؛ لأنَّ بعضَ الشياطينِ يُحكِمُ مَكْرَه بإبعادِ التُّهمة عن نفسه بالدُّعاء إلىٰ غيرِه علىٰ وجهِ الشرك، لا سيَّما إن كان ذلك الغيرُ ربَّانيًّا كعيسىٰ عليه السلام، فقال: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(٤).

وهذا تعميمٌ بعد تخصيص؛ أي: لا يأمُركم بعبادةِ نفسه، ولا بعبادةِ أحدٍ مِن الخَلْقِ مِن الملائكة والنبيِّين وغيرِهم(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٩٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٦٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ٥٣).

(٤) نظم الدرر (٤/ ٤٦٨-٤٦٩).

(٥) تفسير السعدي (ص: ١٣٦).

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

ولمَّا بيَّن ﷻ فيما مضىٰ أنَّ التَّولِّي عن الرُّسلِ كفرٌ، وذكَر كثيرًا مِن الرُّسلِ، فخَصَّ في ذِكْرِهم وعمَّم؛ ذكَر قانونًا كليًّا لمعرفةِ الرسول عنه ﷻ، والتَّمييزِ بينه وبين الكاذب، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[(١)].

عُطِف ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ علىٰ ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾؛ أي: ما أمَركم الأنبياءُ بشيء ممَّا تقوَّلْتُم عليهم، وقد أمَروكم بغير ذلك فأضعتموه حين أخَذ اللهُ ميثاقَهم ليبلِّغوه إليكم؛ فالمعطوفُ هو ظرفُ (إذ) وما تعلَّق به[(٢)].

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن هذه الآياتِ تعديدُ تقريرِ الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب ممَّا يدلُّ علىٰ نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ؛ قطعًا لعُذْرِهم، وإظهارًا لعنادِهم، ومِن جملتِها ما ذكَره اللهُ تعالىٰ في هذه الآيةِ، وهو أنَّه تعالىٰ أخَذ الميثاقَ مِن الأنبياء الذين آتاهم الكتابَ والحِكْمةَ بأنَّهم كلَّما جاءهم رسولٌ مصدِّقٌ لِما معهم، آمَنوا به ونصَروه، وأخبَر أنَّهم قَبِلوا ذلك، وحكَم تعالىٰ بأنَّ مَن رجَع عن ذلك كان مِن الفاسقين؛ فهذا هو المقصودُ مِن الآية، فحاصل الكلام أنَّه تعالىٰ أوجَبَ علىٰ جميع الأنبياءِ الإيمانَ بكلِّ رسولٍ جاء مصدِّقًا لِما معهم[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٤٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٢٩٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٧٣).

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّه تعالىٰ لمَّا نعَىٰ علىٰ أهلِ الكتاب قبائحَ أقوالهم وأفعالهم، وكان ممَّا ذكَر أخيرًا اشتراؤُهم بآياتِ الله ثمنًا قليلًا، وما يؤُولُ أمرُهم إليه في الآخرةِ، وأنَّ منهم مَن بدَّل في كتابه وغيَّر وَصْفَ رسولِ الله ﷺ، ونزَّه رسولَه عن الأمر بأن يُعبَدَ هو أو غيرُه، بل يُفرِدُ اللهَ تعالىٰ بالعبادةِ؛ أخَذ تعالىٰ يُقِيمُ الحجَّةَ علىٰ أهلِ الكتاب وغيرِهم ممَّن أنكر نبوَّتَه ودِينَه، فذكَر أخْذَ الميثاقِ علىٰ أنبيائهم بالإيمانِ برسول الله ﷺ، والتصديقِ له، والقيامِ بنصرته، وإقرارَهم بذلك، وشَهادتَهم علىٰ أنفسهم، وشَهادتَه تعالىٰ عليهم بذلك؛ وهذا العهدُ مذكورٌ في كتبِهم، وشاهدٌ بذلك أنبياؤهم(١).

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٨٢﴾

فتسبَّب عن الشَّهادةِ قولُه: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾(٢).

ثم إنَّه تعالىٰ ضمَّ إليه تأكيدًا آخر، فقال: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾(٣).

﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٨٣﴾

ولمَّا كان المُدرِكُ لكلِّ نبيٍّ إنَّما هم أمَّةُ النبيِّ الذي قبله، وكانوا يكذِّبونه ويخالِفونه؛ قال: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾(٤).

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: نظم الدرر (٤/ ٤٧١).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٤٧١).

(٤) نظم الدرر (٤/ ٤٧١).

تفريعٌ عن التذكيرِ بما كان عليه الأنبياءُ، والاستفهامُ للتوبيخِ والتحذير[١].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن في الآيةِ الأولىٰ أنَّ الإيمانَ بمحمَّدٍ ﷺ شرعٌ شرَعه اللهُ وأوجَبه علىٰ جميع مَن مضىٰ مِن الأنبياء والأُمَم، لَزِم أنَّ كلَّ مَن كَرِهَ ذلك فإنَّه يكون طالبًا دِينًا غيرَ دِينِ الله؛ فلهذا قال بعده: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[٢].

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

ولمَّا تمَّ تنزيهُ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام عن الدُّعاء إلىٰ شيءٍ غيرِ الله، ثم هدَّد مَن تولَّىٰ، فكان السامعُ جديرًا بأن يقولَ: أنا مُقبِلٌ غيرُ متولٍّ؛ فما أقول؟ وما أفعل؟ قال مخاطِبًا لرأسِ السامعين ليكونَ أجدَرَ لامتثالهم: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[٣].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر في الآيةِ المتقدِّمة أنَّه إنَّما أخَذ الميثاقَ علىٰ الأنبياء في تصديقِ الرَّسول الذي يأتي مصدِّقًا لِما معهم، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ مِن صفةِ محمَّدٍ ﷺ كَوْنَه مصدِّقًا لِما معهم[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٣٠٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٧٩).

(٣) نظم الدرر (٤/ ٤٧٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٨١).

لمَّا أخذ اللهُ تعالىٰ الميثاقَ مِن النبيِّين أنفسِهم أن يؤمنوا بمحمَّدٍ ﷺ وينصُروه، أمَر محمَّدًا أيضًا ﷺ أن يؤمِنَ بالأنبياءِ المؤمنين به، وبكُتبِهم [1].

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

ولمَّا أمَر ﷻ بإظهارِ الإيمان بهذا القولِ، وكان ذلك هو الإذعانَ الذي هو الإسلامُ؛ قال محذِّرًا مِن الرِّدةِ عنه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [2].

عطفٌ على جملةِ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ﴾، وما بينهما اعتراضٌ، وهذا تأييسٌ لأهلِ الكتاب مِن النجاةِ في الآخرة، وردٌّ لقولهم: نحن علىٰ ملَّةِ إبراهيمَ، فنحن ناجُونَ علىٰ كلِّ حال [3].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا قال في آخرِ الآية المتقدِّمة: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾، أتبعه بأنْ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ الدِّينَ ليس إلا الإسلامَ، وأنَّ كلَّ دِينٍ سِوىٰ الإسلام فإنَّه غيرُ مقبولٍ عند اللهِ؛ لأنَّ القَبولَ للعمل هو أن يَرضَىٰ اللهُ ذلك العملَ، ويرضىٰ عن فاعلِه، ويُثيبُه عليه [4].

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر ﷻ بخَسارةِ مَن ارتدَّ عن الإسلام، شرَع يستدِلُّ علىٰ استحقاقِه لذلك

(١) روح المعاني (٢/ ١٧٠).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٤٧٥).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٣٠٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٨٢).

بقولـــه: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[(١)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ يناسِبُ ما سبَقه مِن التنويهِ بشرف الإسلام، و﴿ كَيْفَ ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ؛ والمقصود: إنكارُ أن تحصُلَ لهم هدايةٌ خاصة، وهي إمَّا الهدايةُ الناشئة عن عنايةِ الله بالعبد ولُطْفِه به، وإسنادُها إلىٰ الله ظاهرٌ، وإمَّا الهدايةُ الناشئة عن إعمالِ الأدلة والاستنتاج منها، وإسنادُها إلىٰ الله؛ لأنَّه موجِدُ الأسبابِ ومسبَّباتِها، ويجوز أن يكونَ الاستفهامُ مستعمَلًا في الاستبعادِ؛ فإنَّهم آمَنوا وعَلِموا ما في كُتبِ الله، ثم كفَروا بعد ذلك بأنبيائهم؛ إذ عبَدَ اليهودُ الأصنامَ غيرَ مرةٍ، وعبَد النصارىٰ المسيحَ، وقد شَهِدوا أنَّ محمَّدًا صادقٌ لقيامِ دلائلِ الصدق، ثم كابَروا، وشكَّكوا الناس، وجاءتهم الآياتُ فلم يَتَّعظوا؛ فلا مَطمَعَ في هَدْيِهم بعد هذه الأحوالِ، وإنَّما تَسرِي الهدايةُ لِمَن أنصَف وتهيَّأ لإدراكِ الآيات دُونَ القومِ الذين ظلموا أنفسَهم[(٢)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا عظَّم أمرَ الإسلام والإيمان بقولِه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، أكَّد ذلك التَّعظيمَ بأنْ بيَّن وعيدَ مَن ترَك الإسلام، فقال: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾[(٣)].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

ولمَّا عُلِمتْ بشاعةُ خيانتهم، تشوَّف السامعُ إلىٰ معرفة جزائهم، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٤٧٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٣٠٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٨٣).

(٤) نظم الدرر (٤/ ٤٧٧).

الإشارةُ للتنبيه علىٰ أنَّهم أَحْرِياءُ بما يَرِدُ بعد اسمِ الإشارة مِن الحُكْمِ عليهم[(١)].

ثم أخبَر عن عقوبةِ هؤلاء المعانِدين الظالمين الدُّنيويةِ والأخروية، فقال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[(٢)].

أنَّه تعالىٰ حكَم بأنَّ الذين كفروا بعد إيمانِهم يَمنَعُهم اللهُ تعالىٰ مِن هدايتِه، ثم بيَّن أنَّ الأمرَ غيرُ مقصورٍ عليه، بل كما لا يَهديهم في الدنيا، يَلعَنُهم اللَّعْنَ العظيم، ويعذِّبُهم في الآخرة علىٰ سبيلِ التأبيد والخلود[(٣)].

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾

ثم ذكَر مدةَ ذلك العذابِ، فقال: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[(٤)].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

ولمَّا انخلَعتِ القلوبُ بهذه الكروبِ، نفَّس عنها ﷻ مشيرًا إلىٰ أنَّ فيهم - وإن استُبعد رجوعُهم - موضعًا للرَّجاء بقولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٥)].

ثم لمَّا لم تكُنْ توبتُهم مستحيلةً، ولأنَّ الله تعالىٰ يحبُّ توبةَ عبادِه ويَقبَلُها منهم؛ قال تعالىٰ فاتحًا بابَ رحمتِه لعباده مهما كانت ذنوبُهم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٦)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٣٠٤).

(٢) تفسير السعدي (ص: ١٣٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٨٥).

(٤) نظم الدرر (٤/ ٤٧٧).

(٥) نظم الدرر (٤/ ٤٧٨).

(٦) أيسر التفاسير (١/ ٣٤٣).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝٩٠ ﴾

ولمَّا رغَّب في التوبةِ، رهَّب مِن التَّواني عنها، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾(١).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٩١ ﴾

ولمَّا أثبَت لهم الخَصوصيَّةَ بذلك، باللِّين فيه إلىٰ حدٍّ أُيِس معه مِن رجوعهم، تشوَّف السامعُ إلىٰ حالِهم في الآخرة، فقال مبيِّنًا لهم أنَّ السَّببَ في عدم قَبول توبتهم تفويتُ محلِّها بتماديهم علىٰ الكفر: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾(٢).

استئنافٌ لبيانِ حال الكافرين الذين ماتوا علىٰ كفرِهم، نشأ عن حُكْمِ فريقٍ مِن الكفار تكرَّر منهم الكفرُ حتىٰ رسَخ فيهم وصار لهم ديدنًا(٣).

اعلَمْ أنَّ الكافرَ علىٰ ثلاثةِ أقسام: أحدها: الذي يتوبُ عن الكفرِ توبةً صحيحة مقبولة؛ وهو الذي ذكَره اللهُ تعالىٰ في قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾. وثانيها: الذي يتوبُ عن ذلك الكفرِ توبةً فاسدة؛ وهو الذي ذكَره اللهُ في الآية المتقدِّمة، وقال: إنَّه لن تُقبَلَ توبتُه. وثالثها: الذي يموت علىٰ الكفر مِن غيرِ توبةٍ البتَّة؛ وهو المذكورُ في هذه الآية(٤).

(١) نظم الدرر (٤/ ٤٧٨).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٤٨٠).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٣٠٥).

(٤) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٨٧).

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

ولمَّا كان آخِرُ هذه القِصَصِ في الحقيقة إبطالَ كلِّ ما خالَف الإسلامَ، الذي هو معنىٰ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ - وما بعد ذلك إنَّما جرَّه -، ختَم الآيةَ بدعوىٰ أنَّ المخالِفين مِن الخاسرين، وختَم ذلك بأنَّ مَن مات علىٰ الكفر لا يُقبَلُ إنفاقُه للإنقاذ ممَّا يَلحَقُه مِن الشدائِد، لا بدفعٍ لقاهر، ولا بتقويةٍ لناصر، فتشوَّفتِ النفسُ إلىٰ الوقت الذي يُفيدُ فيه الإنفاقُ، وأيِّ وجوهِه أنفعُ، فأرشَد إلىٰ ذلك، وإلىٰ أنَّ الأحَبَّ منه أجدَرُ بالقَبول، رجوعًا إلىٰ ما قرَّره ﷻ قبل آية الشَّهادة بالوَحْدانيَّة مِن صفةِ عباده المُنفِقين والمستغفِرين بالأسحار علىٰ وجهٍ أبلَغَ بقوله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ (١).

استئنافٌ وقَع معترضًا بَيْنَ جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ الآيةَ، وبين جملة ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وافتتاحُ الكلام ببيانِ بعض وسائلِ البِرِّ إيذانٌ بأنَّ شرائعَ الإسلام تدورُ علىٰ محورِ البِرِّ، وأنَّ البِرَّ معنًىٰ نَفْسانيٌّ عظيم، لا يَخرِمُ حقيقتَه إلا ما يُفضِي إلىٰ نقضِ أصلٍ مِن أصولِ الاستقامة النفسانية؛ فالمقصود مِن هذه الآيةِ: أمران: أولهما: التحريضُ علىٰ الإنفاق، والتنويهُ بأنَّه مِن البِرِّ. وثانيهما: التنويهُ بالبِرِّ الذي الإنفاقُ خَصْلةٌ مِن خِصاله. ومناسبةُ موقعِ هذه الآية تِلْوَ سابقتِها: أنَّ الآيةَ السابقة لمَّا بيَّنتْ أنَّ الذين كفَروا لن يُقبَلَ مِن أحدِهم أعظَمُ ما يُنفِقُه، بيَّنتْ هذه الآيةُ ما ينفعُ أهلَ الإيمان مِن بَذْلِ المال، وأنَّه يبلُغُ بصاحبِه مرتبةَ البِرِّ؛ فبَيْنَ الطرَفَينِ مراتبُ كثيرة قد عَلِمها الفُطَناءُ مِن هذه المقابلةِ، والخطابُ للمؤمنين؛ لأنَّهم المقصودُ مِن كلِّ خطابٍ لم يَتقدَّم قبله ما يعيِّنُ المقصودَ منه (٢).

(١) نظم الدرر (٥/ ١).
(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٥).

لمَّـا بـيَّن أنَّ الإنفـاقَ لا ينفـعُ الكـافرَ البتَّـةَ، علَّـم المـؤمنين كيفيَّـةَ الإنفـاق الـذي ينتفعـون بـه في الآخـرة، فقـال: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾(١).

كلامٌ مستأنَف سِيقَ لبيانِ ما ينفعُ المؤمنين، ويُقبَلُ منهم، إثْرَ بيانِ ما لا ينفعُ الكفَرةَ، ولا يُقبَلُ منهم(٢).

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾

لمَّـا أخبَـر بـذلك، بـيَّن أنَّـه كـان دَيْـدنَ أهـلِ الكمـال علـىٰ وجـهٍ يقـرِّرُ بـه مـا مضـىٰ مِـن الإخبـار بعظيـم اجـتراءِ أهـل الكتـاب علـىٰ الكـذبِ بـأمرٍ حِسـيٍّ، فقـال تعـالىٰ: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

هذا يرتبطُ بالآيِ السابقة في قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾، وما بينهما اعتراضاتٌ وانتقالات في فنونِ الخطاب؛ وهـذه حُجَّـةٌ جزئيـة بعـد الحُجَجِ الأصلية علىٰ أنَّ دِينَ اليهوديةِ ليس مِن الحنيفيَّةِ في شيءٍ؛ فإنَّ الحنيفيَّـةَ لـم يكُـنْ مـا حُـرِّم مِـن الطعامِ بنصِّ التَّوراة محرَّمًا فيها؛ ولذلك كان بنو إسرائيلَ قبل التَّوراةِ علىٰ شريعةِ إبـراهيمَ؛ فلـم يكُـنْ محرَّمًـا عليهم مـا حُـرِّمَ مِـن الطعـام، إلا طعامًـا حرَّمـه يعقـوبُ علىٰ نفسِه(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٨٨).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ٥٧).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ٨).

اعلَمْ أنَّ الآياتِ المتقدِّمة إلىٰ هذه الآيةِ كانت في تقريرِ الدلائل الدالة علىٰ نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ، وفي توجيهِ الإلزامات الواردة علىٰ أهل الكتاب في هذا البابِ، وأمَّا هذه الآيةُ، فهي في بيانِ الجواب عن شُبهاتِ القوم؛ فإنَّ ظاهرَ الآية يدلُّ علىٰ أنَّه ﷺ كان يَدَّعي أنَّ كلَّ الطعام كان حِلًّا، ثم صار البعضُ حرامًا بعد أن كان حِلًّا، والقومُ نازَعوه في ذلك، وزعَموا أنَّ الذي هو الآن حرامٌ كان حرامًا أبدًا[(١)].

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها والجامعُ بينهما: أنَّه تعالىٰ أخبَر أنَّه لا ينالُ المرءُ البِرَّ إلا بالإنفاقِ ممَّا يحبُّ، ونبيُّ اللهِ إسرائيلُ عليه السلام رُوِيَ في الحديثِ: «أنَّه مَرِض مرضًا شديدًا، فطال سقمُه، فنذَر للهِ نَذْرًا إن عافاه الله مِن سقمِه أن يحرِّمَ -أو ليُحرِّمَنَّ- أَحَبَّ الطعامِ والشراب إليه، وكان أَحَبَّ الطعامِ إليه لحومُ الإبلِ، وأَحَبَّ الشرابِ ألبانُها، ففعَل ذلك تقرُّبًا إلىٰ الله». فقد اجتمَعتْ هذه الآيةُ وما قبلها في أنَّ كلًّا منهما فيها تَرْكُ ما يُحِبُّه الإنسان وما يؤثِرُه علىٰ سبيلِ التقرُّبِ به لله تعالىٰ[(٢)].

﴿ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩٤ ﴾

فلمَّا لم يأتوا بها، بانَ كذبُهم، وافتَضحوا فضيحةً لا مِثْلَ لها في الدنيا؛ فتسبَّب عن ذلك قولُه: ﴿ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[(٣)].

﴿ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٥ ﴾

لمَّا اتضَح كذبُهم وافتضَح تدليسُهم - لأنَّه لمَّا استدَلَّ عليهم بكتابهم فلم يأتوا به، صار ظاهرًا كالشمسِ، لا شَكَّ فيه ولا لَبْسَ، ولم يَزِدْهم ذلك إلا تماديًا

---

(١) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٩٠).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٣) يُنظر: نظم الدرر (٥/ ٣).

في الكذبِ -، أمَر ﷻ نبيَّه ﷺ بقولِه: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١).

ثـم أعلَن أنَّ المتعيِّنَ في جانبِه الصِّدق هو خبَرُ الله تعالىٰ للجزمِ بأنَّهم لا يأتون بالتَّوراة، وبعد أن فرَغ مِن إعلان كذبِهم بالحُجَّةِ القاطعة قال: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾، وهو تعريضٌ بكذبِهم؛ لأنَّ صِدْقَ أحدِ الخبَرينِ المتنافيَينِ يستلزِمُ كَذِبَ الآخَر(٢).

ثم أمَر اللهُ تعالىٰ نبيَّه أن يَصدَعَ بالخلافِ والجدال مع الأحبار بقولِه: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٣).

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

لمَّا ألزَمهم ﷻ بالدليلِ الذي دل علىٰ النَّسْخِ أنَّهم علىٰ غيرِ ملَّةِ إبراهيمَ عليه السلام، وأوجَب عليهم اتِّباعَها بعد بيانِ أنَّها هي ما عليه محمَّدٌ ﷺ وأتباعُه؛ أخبَر عن البيت الذي يخول إليه التوجُّه في الصلاة، فعابوه علىٰ أهلِ الإسلام أنَّه أعظَمُ شعائرِ إبراهيمَ عليه السلام التي كفَروا بترِكِها؛ ولذلك أبلَغَ في تأكيدِه، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(٤).

هذا الكلامُ واقعٌ موقعَ التعليل للأمر في قولِه: ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ لأنَّ هذا البيتَ المنوَّهَ بشأنِه كان مَقامًا لإبراهيمَ؛ ففضائلُ هذا البيتِ تحقِّقُ فضيلةَ شرعِ بانِيهِ في متعارَفِ الناس، فهذا الاستدلالُ خطابيٌّ، وهو أيضًا إخبارٌ بفضيلةِ الكعبة وحُرْمتِها فيما مضىٰ مِن الزمان(٥).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٤).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ١٠).

(٣) المحرر الوجيز (١/ ٤٧٤).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٥).

(٥) التحرير والتنوير (٤/ ١١).

في اتصال هذه الآيةِ بما قبلها وجوه: الأول: أنَّ المرادَ منه الجوابُ عن شبهةٍ أخرىٰ مِن شُبَهِ اليهود في إنكارِ نبوَّةِ محمَّد ﷺ؛ وذلك لأنَّه ﷺ لمَّا حوَّل القِبْلةَ إلىٰ الكعبةِ، طعَن اليهودُ في نبوَّتِه، وقالوا: إنَّ بيتَ المقدسِ أفضَلُ مِن الكعبة، وأحَقُّ بالاستقبال؛ وذلك لأنَّه وُضِع قَبْلَ الكعبة، وهو أرضُ المَحشَر، وقِبْلةُ جملةِ الأنبياء، وإذا كان كذلك، كان تحويلُ القِبْلة منه إلىٰ الكعبة باطلًا، فأجاب اللهُ تعالىٰ عنه بقولِه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾، فبيَّن تعالىٰ أنَّ الكعبةَ أفضَلُ مِن بيتِ المقدس وأشرَفُ، فكان جعلُها قِبْلةً أَوْلىٰ. والثاني: أنَّ المقصودَ مِن الآية المتقدِّمة بيانُ أنَّ النَّسْخَ هل يجوز أم لا؟ فإنَّ النبيَّ ﷺ استدل علىٰ جوازه بأنَّ الأطعمةَ كانت مباحةً لبني إسرائيلَ، ثم إنَّ اللهَ تعالىٰ حرَّم بعضها، والقومُ نازَعوا رسولَ الله ﷺ فيه، وأعظَمُ الأمور التي أظهَرَ رسولُ الله نَسْخَها هو القِبْلةُ؛ لا جرَمَ ذكَر تعالىٰ في هذه الآيةِ بيانَ ما لأجلِهِ حُوِّلتِ الكعبةُ؛ وهو كونُ الكعبةِ أفضَلَ مِن غيرها. الثالث: أنَّه تعالىٰ لمَّا قال في الآية المتقدِّمة: ﴿فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وكان مِن أعظَمِ شعارِ ملَّةِ إبراهيمَ الحجُّ، ذكَر في هذه الآيةِ فضيلةَ البيت؛ ليفرِّعَ عليه إيجابَ الحج. الرابع: أنَّ اليهودَ والنصارىٰ زعَم كلُّ فِرْقةٍ منهم أنَّه علىٰ ملَّةِ إبراهيمَ، وقد سبقَتْ هذه المناظرةُ في الآياتِ المتقدِّمة؛ فإنَّ الله تعالىٰ بيَّن كَذِبَهم، مِن حيث إنَّ حَجَّ الكعبةِ كان ملَّةَ إبراهيمَ، واليهودُ والنصارىٰ لا يحُجُّون؛ فيدلُّ هذا علىٰ كَذِبِهم في ذلك(١).

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها ظاهرة؛ وهو: أنَّه لمَّا أمَر تعالىٰ باتِّباع ملَّةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان حجُّ البيت مِن أعظَمِ شعائر ملَّةِ إبراهيمَ، ومِن خَصُوصياتِ دِينِه؛ أخَذ في ذِكْرِ البيت وفضائِله ليَبْنِيَ علىٰ ذلك ذِكْرَ الحجِّ ووجوبه. وأيضًا فإنَّ اليهودَ حين حُوِّلت

(١) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٩٤، ٢٩٥).

القِبْلةُ إلىٰ الكعبة طعَنوا في نبوَّةِ رسول الله ﷺ، وقالوا: بيتُ المقدس أفضَلُ وأحَقُّ بالاستقبال؛ لأنَّه وُضِع قبل الكعبة، وهو أرضُ المَحشَرِ، وقِبْلةُ جميعِ الأنبياء، فأكذَبهم اللهُ في ذلك بقولِه: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾(١).

شروعٌ في بيان كفرِهم ببعضٍ آخرَ مِن شعائرِ مِلَّته عليه السلام، إثرَ بيان كفرِهم بكونِ كلِّ المطعوماتِ حِلًّا له عليه السلام(٢).

📖 ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ 📖

ثم فسَّر الهُدَىٰ بقولِه: ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٣).

جملةُ ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ استئنافُ ثناءٍ علىٰ هذا البيتِ بما حُفَّ به مِن المناقبِ والمزايا، وجماعُ هذه الآياتِ هي ما يسَّره اللهُ لسُكَّانِ الحرَمِ وزائريه مِن طُرقِ الخير، وما دفَع عنهم مِن الأضرارِ، علىٰ حالةٍ اتفَق عليها سائرُ العرب، وقمَعوا بها أنفسَهم وشهواتِهم، مع تكالُبِهم علىٰ إرضاءِ نفوسِهم. وأعظَمُها الأمنُ، الذي وُطِّن عليه نفوسُ جميعِ العرب في الجاهلية مع عدمِ تديُّنِهم، فكان الرجُلُ يلاقي قاتِلَ أبيه في الحرَمِ، فلا يَنالُه بسُوءٍ، وتواضُعُ مثلِ هذا بَيْنَ مختلِفِ القبائلِ -ذاتِ اختلافِ الأنسابِ والعوائدِ والأديانِ- آيةٌ علىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ وقَّرَ(٤) ذلك في نفوسِهم.

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٢٦٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ٥٩-٦٠).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٧).

(٤) أي: ثبَّت ورسَّخ.

وكذلك تأمينُ وَحْشِه مع افتتانِ العرب بحُبِّ الصيد. ومنها ما شاع بَيْنَ العربِ مِن قَصْمِ كلِّ مَن رامَهُ بسُوءٍ، وما انصرافُ الأحباشِ عنه بعد امتلاكهم جميعَ اليمَنِ وتِهامةَ إلا آيةٌ مِن آياتِ الله فيه. ومنها انبثاقُ الماء فيه لإسماعيلَ حين إشرافِه علىٰ الهلاك، وافتداءُ الله تعالىٰ إيَّاه بذِبْحٍ عظيم حين أراد أبوه إبراهيمُ عليه السلام قُرْبانَه. ومنها ما شاع بَيْنَ العربِ وتوارَثوا خبرَه أبًا عن جَدٍّ مِن نزولِ الحَجَرِ الأسودِ مِن السماء علىٰ أبي قُبَيسٍ بمرأىٰ إبراهيمَ. ومنها تيسيرُ الرِّزقِ لساكنيه مع قُحُولةِ أرضِه، ومُلوحةِ مائه[1].

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

لمَّا أتم سبحانه وعَزَّ شأنُه البراهينَ، وأحكَمَ الدلائلَ عقلًا وسمعًا، ولم يَبقَ لمتعنِّتٍ شبهةٌ، ولم يبادِروا الإذعانَ، بل زادوا في الطغيانِ، وكادوا أن يُوقِعوا الضِّرابَ والطِّعانَ بَيْنَ أهلِ الإيمان؛ أعرَض سبحانه وتعالى عن خطابِهم إيذانًا بشديدِ الغضب، والانتقام، فقال سبحانه وتعالى مخاطِبًا لرسوله صلى الله عليه وسلم الذي يكونُ قتلُهم علىٰ يدِه: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾[2].

ابتداءُ كلامٍ رجَع به إلىٰ مجادَلةِ أهل الكتاب، وموعظتِهم؛ فهو مرتبِطٌ بقولِه: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ﴾ الآيةَ، أمَر الرسولَ عليه الصلاة والسلام بالصَّدْعِ بالإنكار علىٰ أهل الكتاب بعد أن مهَّد بَيْنَ يدَيْ ذلك دلائلَ صحَّةِ هذا الدِّين؛ ولذلك افتتَح بفعل ﴿ قُلْ ﴾ اهتمامًا بالمقُولِ، وافتتَح المقُولَ بنداءِ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ تسجيلًا عليهم[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٦).

(٢) نظم الدرر (٥/ ١٠).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ٢٥).

لمَّا أورَد الدلائلَ علىٰ نبوَّة محمَّدٍ ﷺ ممَّا ورَد في التَّوراة والإنجيل مِن البِشارة بمَقدَمِه، ثم ذكَر عَقِيبَ ذلك شُبهاتِ القوم ... فعند هذا تمَّت وظيفةُ الاستدلال، وكمَل الجوابُ عن شبهاتِ أرباب الضَّلال، فعند ذلك خاطبهم بالكلام الليِّن، وقال: لِمَ تكفُرون بآيات الله بعد ظهورِ البيِّنات وزوالِ الشُّبهات؟ وهذا هو الغايةُ القصوىٰ في ترتيبِ الكلام، وحُسْنِ نَظْمِه[(١)].

لمَّا بيَّن فضائلَ الكعبةِ ووجوبَ الحج، والقومُ كانوا عالِمين بأنَّ هذا هو الدِّينُ الحقُّ والملَّةُ الصحيحة؛ قال لهم: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بعد أن عَلِمتم كونَها حقَّةً صحيحة؟![(٢)].

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

ثم استأنَف، إيذانًا بالاستقلال، تقريعًا آخرَ لزيادتهم علىٰ الكفرِ التكفيرَ، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[(٣)].

وقولُه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ توبيخٌ ثانٍ، وإنكارٌ علىٰ مجادَلتِهم لإضلالِهم المؤمنين بعد أن أنكَر عليهم ضَلالَهم في نفوسهم، وفصَل بلا عطفٍ للدَّلالةِ علىٰ استقلالِه بالقصد[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٠٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٠٦).

(٣) نظم الدرر (٥/ ١١).

(٤) التحرير والتنوير (٤/ ٢٥).

لمَّا أنكَر عليهم كُفْرَهم في أنفسِهم وضَلالَهم، ولم يكتفُوا حتىٰ سعَوْا في إضلالِ مَن آمَن، فجمَعوا بَيْنَ الضَّلالِ والإضلال؛ أنكر عليهم تعالىٰ ذلك، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(١).

أمَر بتوبيخِهم بالإضلال إثرَ توبيخهم بالضَّلال، والتكريرُ للمبالَغةِ في حَمْلِه ﷺ علىٰ تقريعِهم، وتوبيخِهم، وتركُ عَطْفِه علىٰ الأمرِ السابق للإيذانِ باستقلالهم(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

لمَّا تمَّ إيذانُه بالسَّخطِ علىٰ أعدائه، وأبلَغ في إنذارِهم عظيمَ انتقامه إن داموا علىٰ إضلالهم؛ أقبَلَ بالبِشْرِ علىٰ أحبَّائه، مواجِهًا لهم بلذيذِ خطابه، محذِّرًا لهم الاغترارَ بالمضلِّين، ومنبِّهًا ومرشِدًا ومذكِّرًا ودالًّا علىٰ ما ختَم به ما قبلها مِن إحاطةِ علمِه بدقيقِ مَكْرِ اليهود، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾(٣).

إقبالٌ علىٰ خطابِ المؤمنين لتحذيرِهم مِن كيدِ أهل الكتاب، وسُوءِ دعائهم المؤمنين، وقد تفضَّل اللهُ علىٰ المؤمنين بأن خاطَبهم بغيرِ واسطةٍ خلافَ خطابه أهلَ الكتابِ إذ قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ولم يقُلْ: قُلْ: يا أيُّها الذين آمَنوا(٤).

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٢٧٩-٢٨٠).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ٦٣).

(٣) نظم الدرر (٥/ ١٣).

(٤) التحرير والتنوير (٤/ ٢٧).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حذَّر الفريقَ مِن أهلِ الكتاب في الآية الأُولىٰ عن الإغواءِ والإضلال، حذَّر المؤمنين في هذه الآيةِ عن إغوائهم وإضلالهم، ومَنْعِهم عن الالتفاتِ إلىٰ قولهم(١).

لمَّا أنكَر تعالىٰ عليهم صَدَّهم عن الإسلامِ المؤمنين؛ حذَّر المؤمنين مِن إغواءِ الكفار وإضلالهم، وناداهم بوصفِ الإيمان؛ تنبيهًا علىٰ تبايُنِ ما بينهم وبين الكفارِ، ولم يأتِ بلفظِ ﴿قُلْ﴾؛ ليكونَ ذلك خطابًا منه تعالىٰ لهم، وتأنيسًا لهم(٢).

تلوينٌ للخطابِ وتوجيهٌ له إلىٰ المؤمنين تحذيرًا لهم عن طاعةِ أهل الكتاب، والافتتانِ بفتنتِهم، إثرَ توبيخِهم بالإغواء والإضلال ردعًا لهم عن ذلك، وتعليقُ الردِّ بطاعةِ فريقٍ منهم للمبالغة في التحذيرِ عن طاعتهم، وإيجابِ الاجتناب عن مصاحَبتِهم بالكلية(٣).

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾

لمَّا حذَّرهم منهم، عظَّم عليهم طاعتَهم بالإنكار والتعجيب مِن ذلك مع ما هم عليه بعد اتِّباع الرسولِ ﷺ مِن الأحوال الشريفة، فقال - عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فكيف تُطيعونهم وأنتم تعلمون عداوتَهم؟ -: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٠٨).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٢٨١).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ٦٤).

(٤) نظم الدرر (٥/ ١٤).

لمَّا حذَّر ﷻ في الآيةِ السابقة مِن الرِّدة والكفر بعد الإيمان، ذكَر هنا السببَ الأعظم والموجِبَ الأكبَرَ لثباتِ المؤمنين علىٰ إيمانهم، وعدمِ تزلزُلِهم عن دِينِهم، فقال: ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

لمَّا انقضىٰ هذا التحذيرُ مِن أهلِ الكتاب والتعجيبُ والترغيب، أمَر بما يُثمِرُ ذلك مِن رضاه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1].

انتقَل مِن تحذيرِ المخاطَبين مِن الانخداعِ لوساوسِ بعض أهل الكتاب، إلىٰ تحريضِهم علىٰ تمام التقوىٰ؛ لأنَّ في ذلك زيادةَ صلاحٍ لهم ورسوخًا لإيمانهم، وهو خطابٌ لأصحابِ محمَّدٍ ﷺ، ويَسري إلىٰ جميعِ مَن يكون بعدهم، وهذه الآيةُ أصلٌ عظيم مِن أصولِ الأخلاق الإسلامية[2].

لمَّا حذَّر المؤمنين مِن إضلالِ الكفار، ومِن تلبيساتِهم في الآيةِ الأُولىٰ؛ أمَر المؤمنين في هذه الآياتِ بمَجامعِ الطاعات، ومَعاقِدِ الخيرات، فأمَرهم بتقوىٰ الله، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[3].

لمَّا حذَّرهم تعالىٰ مِن إضلالِ مَن يريد إضلالَهم، أمَرهم بمَجامِعِ الطاعات، فرهَّبهم أولًا بقولِه: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ إذ التقوىٰ إشارةٌ إلىٰ التخويفِ مِن عذاب الله، ثم جعَلها سببًا للأمرِ بالاعتصام بدِينِ الله[4].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ١٥).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٣٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٤) البحر المحيط (٣/ ٢٨١).

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

لمَّا كان عزمُ الإنسانِ فاترًا، وعقلُه قاصرًا؛ دلَّهم - بعد أن أوقفتْهم التقوىٰ - علىٰ الأصلِ لجميع الخيرات، المتكفِّلِ بالحفظِ مِن جميع الزَّلَّات، فقال: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(1).

قولُه: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ ثنَّىٰ أمرَهم بما فيه صلاحُ أنفسهم لأُخراهم؛ بأمرِهم بما فيه صلاحُ حالهم في دنياهم؛ وذلك بالاجتماعِ علىٰ هذا الدِّين، وعدمِ التفرُّق؛ ليكتسبوا باتحادِهم قوَّةً ونماءً(2).

ثم أمَرهم تعالىٰ بما يُعِينُهم علىٰ التقوىٰ؛ وهو الاجتماعُ والاعتصام بدِينِ الله، وكون دعوىٰ المؤمنين واحدةً، مؤتلِفين غيرَ مختلِفين؛ فإنَّ في اجتماعِ المسلمين علىٰ دِينِهم وائتلافِ قلوبهم يصلُحُ دِينُهم، وتصلُحُ دنياهم، وبالاجتماعِ يَتمكنون مِن كلِّ أمرٍ مِن الأمور، ويحصُلُ لهم مِن المصالحِ التي تتوقف علىٰ الائتلافِ ما لا يمكن عَدُّها؛ مِن التعاونِ علىٰ البرِّ والتقوىٰ، كما أنَّ بالافتراقِ والتَّعادي يَختلُّ نظامُهم، وتنقطعُ روابطهم، ويَصِيرُ كلُّ واحدٍ يعمل ويسعىٰ في شهوةِ نفسه(3).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ١٥).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٣١).

(٣) تفسير السعدي (ص: ١٤٢).

لمَّا أمَرهم بالاتقاءِ عن المحظورات، أمَرهم بالتمسُّكِ بالاعتصام بما هو كالأصلِ لجميع الخيرات والطاعات؛ وهو الاعتصامُ بحَبْلِ الله(١).

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

ولمَّا عابَ ﷻ الكفَّارَ بالضَّلال، ثم بالإضلال؛ أمَر المؤمنين بالهُدَىٰ في أنفسهم، وأتبَعه الأمرَ بهدايةِ الغير بالاجتماع، وكان الأمرُ بالاجتماعِ المؤكَّد بالنَّهيِ عن التفرق ربما أفهَمَ الوجوبَ لتفرُّدِ الجميع في كلِّ جزئيةٍ مِن جزئيات العبادة في كلِّ وقتٍ علىٰ سبيلِ الاجتماع مع الإعراضِ عن كلِّ عائقٍ عن ذلك، سواءٌ كان وسيلةً أو لا بالنسبة إلىٰ كلِّ فردٍ فردٍ؛ أتبَعه بقولِه - منبِّهًا علىٰ الرِّضا بإيقاعِ ذلك في الجملة، سواءٌ كان بالبعضِ أو الكلِّ، كما هو شأنُ فروضِ الكفايات -: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٢).

هذا مفرَّعٌ عن الكلام السابق؛ لأنَّه لمَّا أظهَر لهم نعمةَ نقلِهم مِن حالتَي شقاءٍ وشناعةٍ إلىٰ حالتَي نعيمٍ وكمال، وكانوا قد ذاقوا بَيْنَ الحالتَينِ الأمَرَّينِ ثم الأحلَوَينِ، فحلَبوا الدهرَ أشطرَيهِ؛ كانوا أَحْرياءَ بأن يسعَوْا بكل عزمِهم إلىٰ انتشال غيرِهم مِن سُوءِ ما هو فيه إلىٰ حُسْنَىٰ ما هم عليه؛ حتىٰ يكونَ الناسُ أمَّةً واحدة خيِّرة، وفي غريزةِ البشَرِ حبُّ المشاركةِ في الخير؛ لذلك تجد الصبيَّ إذا رأىٰ شيئًا أعجَبه، نادىٰ مَن هو حوله ليراه معه؛ ولذلك كان هذا الكلامُ حريًّا بأن يُعطَفَ بالفاء، ولو عُطِف بها، لكان أسلوبًا عربيًّا، إلا أنَّه عدَل عن العطفِ بالفاء تنبيهًا علىٰ أنَّ مضمونَ هذا الكلامِ مقصودٌ لذاتِه، بحيث لو لم يَسبِقْهُ الكلامُ السابق، لكان هو حريًّا بأن يؤمَرَ به، فلا

---

(١) مفاتيح الغيب (٨/ ٣١١).

(٢) نظم الدرر (٥/ ١٨).

يكون مذكورًا لأجل التفرُّع عن غيرِه والتَّبع، وفيه مِن حُسْنِ المقابَلة في التقسيمِ ضربٌ مِن ضروبِ الخطابة؛ وذلك أنَّه أنكَر علىٰ أهل الكتاب كُفْرَهم وصَدَّهم الناسَ عن الإيمان، وقابَل ذلك بأن أمَر المؤمنين بالإيمانِ والدعاء إليه(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ في الآياتِ المتقدِّمة عابَ أهلَ الكتاب علىٰ شيئينِ: أحدهما: أنَّه عابَهم علىٰ الكفرِ، فقال: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ﴾، ثم بعد ذلك عابَهم علىٰ سعيِهم في إلقاء الغيرِ في الكفر، فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، فلمَّا انتقَل منه إلىٰ مخاطَبة المؤمنين، أمَرهم أولًا بالتقوىٰ والإيمان، فقال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا ﴾، ثم أمَرهم بالسعيِ في إلقاء الغيرِ في الإيمان والطاعة، فقال: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾؛ وهذا هو الترتيبُ الحسَنُ الموافِق للعقل(٢).

أمَرهم اللهُ سبحانه هنا بتكميلِ الغير وإرشادِه، إثرَ أمرِهم بتكميل النفس وتهذيبِها بما قبله مِن الأوامرِ والنواهي؛ تثبيتًا للكلِّ علىٰ مراعاةِ ما فيها مِن الأحكام؛ بأن يقومَ بعضُهم بمواجِبِها، ويحافِظَ علىٰ حقوقِها وحدودها، ويذكِّرَها الناسَ كافَّةً، ويردَعَهم عن الإخلالِ بها(٣).

ثم أشار إلىٰ أنَّه كما أنقَذكم مِن النار والضَّلال بإرسالِ الرُّسل وإنزال الآيات، فليكُنْ فيكم مَن يُنقِذُ إخوانَه، فقال: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٣٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٣١٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ٦٧).

(٤) محاسن التأويل (٢/ ٣٧٣).

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

لمَّا أمَر بذلك، أكَّده بالنَّهيِ عمَّا يضادُّه معرِّضًا بمَن نزلتْ هذه الآياتُ فيهم مِن أهلِ الكتاب، مبكِّتًا لهم بضَلالهم واختلافهم في دِينِهم على أنبيائهم، فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

قولُه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾، وهو يَرجِعُ إلى قوله قبلُ: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾؛ لِما فيه مِن تمثيلِ حال التفرُّقِ في أبشَعِ صُوَرِه المعروفةِ لديهم مِن مطالَعةِ أحوال اليهود، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ تَرْكَ الأمرِ بالمعروف والنَّهيِ عن المنكر يُفضِي إلى التفرُّقِ والاختلاف؛ إذ تكثُرُ النَّزعاتُ والنَّزغات، وتنشقُّ الأمَّةُ بذلك انشقاقًا شديدًا[2].

في النَّظمِ وجهان: الأول: أنَّه تعالى ذكَر في الآياتِ المتقدِّمة أنَّه بيَّن في التَّوراة والإنجيل ما يدلُّ على صحَّةِ دِينِ الإسلام، وصحَّة نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ، ثم ذكَر أنَّ أهلَ الكتاب حسَدوا محمَّدًا ﷺ، واحتالوا في إلقاءِ الشكوك والشُّبهات في تلك النصوصِ الظاهرة، ثم إنَّه تعالى أمَر المؤمنين بالإيمانِ بالله، والدعوةِ إلى الله، ثم ختَم ذلك بأن حذَّر المؤمنين مِن مثلِ فعلِ أهل الكتاب؛ وهو إلقاءُ الشُّبهاتِ في هذه النصوصِ، واستخراجُ التأويلاتِ الفاسدة الرافعة لدلالة هذه النصوصِ، فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ ﴾ أيُّها المؤمنون عند سماعِ هذه البيِّناتِ ﴿كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ مِن أهل الكتاب ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ﴾ في التَّوراةِ والإنجيل تلك النصوصُ الظاهرة؛ فعلى هذا الوجه،

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٤٢).

تكونُ الآيةُ مِن تتمة جملةِ الآيات المتقدِّمة. والثاني: وهو أنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر بالأمر بالمعروف والنَّهيِ عن المنكر، وذلك ممَّا لا يَتِمُّ إلا إذا كان الآمِرُ بالمعروف قادرًا علىٰ تنفيذِ هذا التكليفِ علىٰ الظَّلَمةِ والمتغالِينَ، ولا تحصُلُ هذه القدرةُ إلا إذا حصَلتِ الأُلْفةُ والمحبَّة بَيْنَ أهلِ الحق والدِّين؛ لا جرَمَ حذَّرهم تعالىٰ مِن الفُرْقةِ والاختلاف؛ لكيلا يَصِيرَ ذلك سببًا لعَجْزِهم عن القيام بهذا التكليفِ؛ وعلىٰ هذا الوجهِ، تكون هذه الآيةُ مِن تتمة الآيةِ السابقة فقط(١).

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

لمَّا قدَّم ما لأهلِ الكتاب المُقدِمين علىٰ الكفرِ علىٰ عِلْمٍ يومَ القيامة في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾، وختَم تلك الآيةَ بأنَّهم لهم عذابٌ أليم، واستمَرَّ حتىٰ ختَم الآيةَ السابقة بأنَّه مع ذلك عظيمٌ؛ بيَّن ذلك اليومَ بقولِه بادئًا بما هو أنكىٰ لهم مِن تنعيمِ أضدادهم: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾(٢).

يجوز أن يكونَ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ منصوبًا علىٰ الظَّرف، متعلقًا بما في قوله: ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ ﴾ مِن معنىٰ كائنٍ أو مستقِرٍّ؛ أي: يكونُ عذابٌ لهم ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ ؛ وهذا هو الجاري علىٰ أكثَرِ الاستعمال في إضافةِ أسماء الزمان إلىٰ الجُمَل، ويجوز أن يكونَ منصوبًا علىٰ المفعول به لفعلِ «اذكُرْ» محذوفا، وتكونَ جملةُ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ صفةً لـ﴿ يَوْمَ ﴾، علىٰ تقدير: تَبيضُّ فيه وجوه، وتَسودُّ فيه

(١) مفاتيح الغيب (٨/ ٣١٦).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٢١).

وجوه، وفي تعريفِ هذا اليومِ بحصولِ بياضِ وجوهٍ وسوادِ وجوهٍ فيه، تهويلٌ لأمره، وتشويق لِما يَرِدُ بعده مِن تفصيلِ أصحاب الوجوه المُبْيَضَّةِ، والوجوه المُسْوَدَّةِ؛ ترهيبًا لفريق، وترغيبًا لفريقٍ آخرَ[١].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر اليهودَ ببعضِ الأشياء ونهاهم عن بعضٍ، ثم أمَر المسلمين بالبعض ونهاهم عن البعض؛ أتبَع ذلك بذِكْرِ أحوالِ الآخرة تأكيدًا للأمر[٢].

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

الآياتُ المتقدِّمة ما كانت إلا في الترغيب في الإيمان بالتوحيد والنبوَّة، وفي الزَّجْرِ عن الكفر بهما، ثم إنَّه تعالىٰ أتبَع ذلك بهذه الآيةِ؛ فظاهرُها يقتضي أن يكونَ ابيضاضُ الوجه نصيبًا لِمَن آمَن بالتوحيدِ والنبوَّة، واسودادُ الوجه يكون نصيبًا لِمَن أنكَر ذلك، ثم دَلَّ ما بعد هذه الآيةِ علىٰ أنَّ صاحِبَ البياضِ مِن أهل الجنَّة، وصاحِبَ السواد مِن أهل النار[٣].

هذا تفصيلٌ لأحكامِ مَن تَبيضُّ وجوههم وتَسودُّ، وابتُدِئ في الآية السابقة بالذين اسودَّتْ للاهتمامِ بالتحذير مِن حالهم، ولمجاوَرةِ قوله: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾، وللابتداءِ بالمؤمنين والاختتام بحُكْمِهم، فيكونُ مَطلَعُ الكلامِ ومقطعُه شيئًا يسُرُّ الطَّبعَ، ويشرحُ الصدرَ[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٤٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٣١٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٨/ ٣١٨).

(٤) البحر المحيط (٣/ ٢٩٣).

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

لمَّا حازت هذه الآياتُ مِن التهذيب وإحكامِ الترتيب وحُسْنِ السياق قصَبَ السبقِ، أشار إليها مع قُرْبِها بأداة البُعْدِ، وأضافها إلىٰ أعظَمِ أسمائه، فقال: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(١).

تذييلاتٌ، والإشارةُ في قوله: ﴿ تِلْكَ ﴾ إلىٰ طائفةٍ مِن آيات القرآن السابقةِ مِن هذه السُّورة؛ كما اقتضاه قولُه: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾، وخُصَّتْ هذه الطائفةُ مِن القرآن بالإشارةِ؛ لِما فيها مِن الدلائلِ المثبِتة صحَّةَ عقيدةِ الإسلام، والمبطِلةِ لدعاوىٰ الفِرَقِ الثلاث؛ مِن اليهود، والنصارىٰ، والمشركين(٢).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾

لمَّا كان أمرُهم بالإقبال عليه ونَهْيُهم عن الإعراض عنه ربما أوقَعَ في وَهْمِ أنَّه غيرُ قادرٍ علىٰ ضبطِهم، أو محتاجٌ إلىٰ ربطِهم؛ أزال ذلك دالًّا علىٰ أنَّه غنيٌّ عن الظُّلم بقولِه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾(٣).

قولُه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ عطفٌ علىٰ التذييلِ؛ لأنَّه إذا كان له ما في السماوات وما في الأرض فهو يريدُ صلاحَ حالهم، ولا حاجةَ له بإضرارِهم إلا للجزاء علىٰ أفعالهم، فلا يريدُ ظُلْمَهم، وإليه تَرجِعُ الأشياءُ كلُّها، فلا يفُوتُه ثوابُ محسِنٍ، ولا جزاءُ مُسِيءٍ(٤).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٤٦).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٢٣).

(٤) التحرير والتنوير (٤/ ٤٧).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّه لا يريد الظُّلْمَ، ولا يفعل الظُّلْمَ؛ قال بعده: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، وإنَّما ذكَر هذه الآيةَ عَقِيبَ ما تقدَّم لوجهين: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر أنَّه لا يريد الظُّلْمَ والقبائح، استدل عليه بأنَّ فاعلَ القبيحِ إنَّما يفعل القبيحَ إمَّا للجهل، أو العَجْزِ، أو الحاجة؛ وكلُّ ذلك على الله مُحالٌ؛ لأنَّه مالكٌ لكل ما في السماوات وما في الأرض، وهذه المالكيَّةُ تُنافي الجهلَ والعَجْزَ والحاجة، وإذا امتنَع ثبوتُ هذه الصفاتِ في حقِّه تعالىٰ، امتنَع كونُه فاعلًا للقبيح. والثاني: أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر أنَّه لا يريد الظُّلْمَ بوجهٍ مِن الوجوه، كان لقائلٍ أن يقولَ: إنَّما نشاهِدُ وجودَ الظُّلم في العالم، فإذا لم يكُنْ وقوعُه بإرادته، كان علىٰ خلافِ إرادته، فيَلزمُ كونُه ضعيفًا عاجزًا مغلوبًا؛ وذلك مُحالٌ[١].

لمَّا ذكَر أحوالَ الكافرين والمؤمنين، وأنَّه يَختصُّ بعملِ مَن آمَن فيَرحَمُهم به، ويختص بعملِ مَن كفَر فيعذِّبُهم؛ نبَّه علىٰ أنَّ هذا التصرُّفَ هو فيما يَملِكُه؛ فلا اعتراضَ عليه تعالىٰ، ودلت الآيةُ علىٰ اتساع مُلْكِه، ومَرجِعُ الأمور كلِّها إليه؛ فهو غنيٌّ عن الظُّلم؛ لأنَّ الظُّلمَ إنَّما يكون فيما كان مختصًّا به عن الظالم[٢].

لمَّا ذكَر في الآيةِ السابقة أنَّ اللهَ ليس بظالمٍ لهم، بل هو الحَكَمُ العَدْلُ الذي لا يجُورُ؛ لأنَّه القادرُ علىٰ كلِّ شيء، العالِمُ بكل شيء، فلا يَحتاجُ مع ذلك إلىٰ أن يَظلِمَ أحدًا مِن خَلْقِه؛ ناسَب أن يقولَ هنا في هذه الآيةِ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: الجميعُ مِلْكٌ له، وعبيدٌ له[٣].

---

(١) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٢١، ٣٢٢).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٢٩٨، ٢٩٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٩٣).

لمَّا ذكَر أحوالَ المؤمنين والكافرين، وأنَّه لا يريدُ ظُلْمًا للعالَمِين؛ وصَله بذِكْرِ اتساع قُدْرتِه وغِناه عن الظُّلمِ؛ لكونِ ما في السماوات وما في الأرض في قَبْضتِه[١].

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾

لمَّا كان مِن رجوعِ الأمور إليه هدايتُه مَن يشاء، وإضلالُه مَن يشاء؛ قال مادحًا لهذه الأمَّةِ ليُمعِنوا في رضاه حمدًا وشكرًا، ومؤيِسًا لأهل الكتاب عن إضلالِهم ليزدادوا حَيْرةً وسُكْرًا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٢].

في النَّظمِ وجهان: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر المؤمنين ببعض الأشياء ونهاهم عن بعضِها، وحذَّرهم مِن أن يكونوا مثلَ أهل الكتاب في التمرُّدِ والعصيان، وذكَر عَقِيبَه ثوابَ المُطِيعين وعقابَ الكافرين؛ كان الغرضُ مِن كلِّ هذه الآياتِ حَمْلَ المؤمنين المكلَّفين علىٰ الانقيادِ والطاعة، ومَنْعَهم عن التمرُّدِ والمعصية، ثم إنَّه تعالىٰ أردَف ذلك بطريقٍ آخَرَ يقتضي حَمْلَ المؤمنين علىٰ الانقيادِ والطاعة، فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾؛ والمعنىٰ: أنَّكم كنتم في اللَّوْحِ المحفوظ خيرَ الأُمَم وأفضَلَهم؛ فاللائقُ بهذا ألا تُبطِلوا علىٰ أنفسِكم هذه الفضيلةَ، وألا تُزيلوا عن أنفسِكم هذه الخَصْلةَ المحمودة، وأن تكونوا منقادِينَ مُطِيعين في كلِّ ما يَتوجَّهُ عليكم مِن التكاليف.

---

(١) فتح القدير (١/ ٤٢٤).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٢٤).

الثاني: أنَّ الله تعالىٰ لمَّا ذكَر كمالَ حالِ الأشقياء؛ وهو قولُه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾، وكمالَ حالِ السُّعداء؛ وهو قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾؛ نبَّه علىٰ ما هو السببُ لوعيدِ الأشقياء بقولِه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمًا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ يعني: أنَّهم إنَّما استحَقُّوا ذلك بأفعالِهم القبيحة، ثم نبَّه في هذه الآيةِ علىٰ ما هو السببُ لوعدِ السُّعَداء بقولِه: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: تلك السعاداتُ والكمالات والكرامات إنَّما فازوا بها في الآخرةِ لأنَّهم كانوا في الدنيا ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾(١).

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾ كلامٌ مستأنَف سِيقَ لتثبيتِ المؤمنين علىٰ ما هم عليه مِن الاتفاق علىٰ الحقِّ، والدعوةِ إلىٰ الخير؛ كذا قيل، وقيل: هو مِن تتمةِ الخطاب الأول في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، وتوالَتْ بعد هذا خطاباتُ المؤمنين مِن أوامرَ ونواهي، واستطرَد بَيْنَ ذلك مَن يَبيضُّ وجهُه ومَن يَسودُّ، وشيءٌ مِن أحوالهم في الآخرة، ثم عاد إلىٰ الخطابِ الأول تحريضًا علىٰ الانقيادِ والطواعية(٢).

﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾

ولمَّا كانت مخالفةُ الأكثرِ قاصمةً، خفَّف عن أوليائه بقولِه: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٢٣).

(٢) روح المعاني (٢/ ٢٤٣).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٢٧).

استئنافٌ نشأ عن قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ لأنَّ الإخبارَ عن أكثرِهم بأنَّهم غيرُ مؤمنين يؤذِنُ بمعاداتهم للمؤمنين؛ وذلك مِن شأنِه أن يوقِعَ في نفوسِ المسلمين خشيةً مِن بأسهم، وهذا يَختصُّ باليهود؛ فإنَّهم كانوا منتشِرين حِيالَ المدينةِ في خَيْبَرَ، والنَّضيرِ، وقَيْنُقاعَ، وقُرَيظةَ، وكانوا أهلَ مَكْرٍ، وقوَّةٍ ومالٍ، وعُدَّةٍ وعَدَدٍ، والمسلمون يومئذٍ في قِلَّةٍ، فطَمْأنَ اللهُ المسلمين بأنَّهم لا يخشَوْنَ بأسَ أهل الكتاب، ولا يخشَوْنَ ضُرَّهم، لكنْ أذاهم، أمَّا النصارىٰ، فلا ملابَسةَ بينهم وبين المسلمين حتىٰ يخشَوْهم[(١)].

لمَّا رغَّب المؤمنين في التصلُّبِ في إيمانهم، وتركِ الالتفات إلىٰ أقوالِ الكفار وأفعالهم بقولِه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾؛ رغَّبهم فيه مِن وجهٍ آخرَ؛ وهو أنَّهم لا قدرةَ لهم علىٰ الإضرارِ بالمسلمين إلا بالقليل مِن القول الذي لا عِبْرةَ به، ولو أنَّهم قاتَلوا المسلمين، صاروا منهزِمين مخذولين، وإذا كان كذلك، لم يَجِبِ الالتفاتُ إلىٰ أقوالهم وأفعالهم، وكلُّ ذلك تقريرٌ لِما تقدَّم مِن قوله: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ فهذا وجهُ النَّظم[(٢)].

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

ولمَّا أخبَر عنهم ﷻ بهذا الذُّلِّ، أتبَعه الإخبارَ بأنَّه في كلِّ زمانٍ وكل مكان معامَلةً منه لهم بضدِّ ما أرادوا، فعوَّضهم عن الحرصِ علىٰ الرئاسة إلزامَهم الذِّلةَ، وعن الإخلادِ إلىٰ المال إسكانَهم المَسْكنةَ، وأخبر أنَّ ذلك لهم طَوْقُ الحمامة، غيرُ

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٥٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٢٧).

مُزائِلِهم إلىٰ آخرِ الدهر، باقٍ في أعقابهم بأفعالهم هذه التي لم ينابِذْهم فيها الأعقابُ، فقال ﷻ مستأنِفًا: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[1].

يعودُ ضميرُ ﴿عَلَيْهِمُ﴾ إلىٰ ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، وهو خاصٌّ باليهود لا محالةَ، وهو كالبيانِ لقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، والجملةُ بيانيَّةٌ لذِكْرِ حالٍ شديد مِن شقائهم في الدنيا[2].

لمَّا بيَّن أنَّهم إن قاتَلوا رجَعوا مخذولين غيرَ منصورين، ذكَر أنَّهم مع ذلك قد ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾[3].

﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾

لمَّا كان السياقُ ربما أفهَمَ أنَّهم كلَّهم كذلك، قال مستأنِفًا نافيًا لذلك: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[4].

استئنافٌ قُصِد به إنصافُ طائفةٍ مِن أهل الكتاب، بعد الحُكْمِ علىٰ معظمِهم بصيغةٍ تعُمُّهم؛ تأكيدًا لِما أفاده قولُه: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ فالضميرُ

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٥٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٢٨).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٣١).

في قوله: ﴿لَيْسُواْ﴾ لأهلِ الكتاب المتحدَّثِ عنهم آنفًا؛ وهم اليهودُ، وهذه الجملة تَتنزَّلُ مِن التي بعدها منزلةَ التمهيد(١).

قوله: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ كلامٌ تام، وقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ كلامٌ مستأنَف لبيانِ قوله: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾؛ والمعنىٰ: أنَّ أهلَ الكتاب الذين سبَق ذِكْرُهم ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾، وهو تقريرٌ لِما تقدَّم مِن قوله: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾، وعلىٰ هذا القولِ: احتمالان: أحدهما: أنَّه لمَّا قال: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾، كان تمامُ الكلام أن يقالَ: ومنهم أمَّةٌ مذمومة، إلا أنَّه أضمَر ذِكْرَ الأمَّةِ المذمومة علىٰ مذهبِ العرَبِ؛ مِن أنَّ ذِكْرَ أحدِ الضِّدَّينِ يُغنِي عن ذِكْرِ الضد الآخر، وتحقيقُه أنَّ الضِّدَّينِ يُعلَمانِ معًا؛ فذِكْرُ أحدِهما يستقلُّ بإفادة العلم بهما؛ فلا جرَمَ يحسُنُ إهمالُ الضدِّ الآخر(٢).

لمَّا بيَّن تعالىٰ الفِرْقةَ الفاسقة مِن أهل الكتاب، وبيَّن أفعالَهم وعقوباتِهم؛ بيَّن هاهنا الأمَّةَ المستقيمة، وبيَّن أفعالَها وثوابَها، فأخبَر أنَّهم لا يستوون عنده، بل بينهم مِن الفَرْقِ ما لا يمكِنُ وصفُه(٣).

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾

ثم ذكَر ما أثمَرَ لهم التهجُّدُ، فقال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٥٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٣١).

(٣) تفسير السعدي (ص: ١٤٣-١٤٤).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٣٢).

لمَّا مدَح المؤمنين بالتهجُّدِ وقراءة القرآن، أردَف ذلك بقولِه: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، وقد بيَّنَّا أنَّ الإيمانَ بالله يستلزِمُ الإيمانَ بجميع أنبيائه ورُسلِه، والإيمانَ باليوم الآخِرِ يستلزِمُ الحذَرَ مِن المعاصي، وهؤلاء اليهودُ يُنكِرون أنبياءَ الله، ولا يَحترزون عن معاصي الله؛ فلم يحصُلْ لهم الإيمانُ بالمبدأ والمَعاد[1].

لمَّا ذكَر تعالىٰ هذه الأمَّةَ، وصَفها بصفاتٍ سِتٍّ: إحداها: أنَّها قائمةٌ؛ أي: مستقيمةٌ علىٰ النَّهج القويم. ولمَّا كانت الاستقامةُ وصفًا ثابتًا لها لا يتغيرُ، جاء باسمِ الفاعل. الثانية: الصلاةُ بالليل المعبَّرُ عنها بالتلاوةِ والسجود، وهي العبادةُ التي يَظهَرُ بها الخُلُوُّ لمناجاةِ الله بالليل. الثالثة: الإيمانُ بالله واليوم الآخِر، وهو الحاملُ علىٰ عبادة الله، وذكَر اليومَ الآخِر؛ لأنَّ فيه ظهورَ آثارِ عبادة الله مِن الجزاء الجزيل. وتضمَّن الإيمانُ باليوم الآخِرِ الإيمانَ بالأنبياء؛ إذ هم الذين أخبَروا بكينونةِ هذا الجائزِ في العقل ووقوعِه؛ فصار الإيمانُ به واجبًا. الرابعة: الأمرُ بالمعروف. الخامسة: النَّهيُ عن المنكَرِ، لمَّا كَمُلُوا في أنفسِهم، سعَوْا في تكميلِ غيرِهم بهذين الوصفَينِ. السادسة: المسارَعةُ في الخيرات، وهي صفةٌ تشمل أفعالَهم المختصَّةَ بهم، والأفعالَ المتعديَة منهم إلىٰ غيرِهم. وهذه الصفاتُ الثلاثة ناشئةٌ أيضًا عن الإيمان؛ فانظُرْ إلىٰ حُسْنِ سياق هذه الصفاتِ؛ حيث توسَّط الإيمانُ، وتقدَّمتْ عليه الصفةُ المختصة بالإنسان في ذاتِه؛ وهي الصلاةُ بالليل، وتأخَّرتْ عنه الصفتانِ المتعديَتانِ والصفةُ المشتركة، وكلُّها نتائجُ عن الإيمان[2].

هذه صفاتٌ أُخَرُ لأمَّةٍ وصَفهم بخصائصَ ما كانت في اليهودِ؛ فإنَّهم منحرِفون عن

---

(١) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٣٣).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٣١٢).

الحقِّ، غيرُ متعبِّدين في الليل، مشركون بالله، ملحِدون في صفاتِه، واصفون اليومَ الآخِرَ بخلافِ صِفَتِه، مداهِنون في الاحتساب، متباطِئون عن الخيرات(١).

﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ١١٥ ﴾

لمَّا كان التقديرُ: فما فعَلوا مِن خيرٍ، فهو بعينِ الله سبحانه وتعالى، يشكُرُه لهم؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾(٢).

تذييلٌ للجُمَلِ المفتتَحة بقولِه تعالىٰ: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ إلىٰ قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وقرأ الجمهورُ: «تَفْعَلُوا» بالفوقية، فهو وعدٌ للحاضرين، ويُعلَم منه أنَّ الصالحين السابقين مثلُهم؛ بقرينةِ مَقامِ الامتنان، ووقوعِه عَقِب ذِكْرِهم، فكأنَّه قيل: وما تَفعَلوا مِن خيرٍ ويَفعَلوا، ويجوز أن يكونَ التفاتًا لخطابِ أهل الكتاب، وقرأه حمزةُ، والكِسائيُّ، وحفصٌ، وخلَفٌ- بياء الغَيْبةِ- عائدًا إلىٰ ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾(٣).

قرأ حمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ عن عاصمٍ: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾ بالياءِ علىٰ المُغايَبةِ(٤)؛ لأنَّ الكلامَ متصِلٌ بما قبله مِن ذِكْرِ مؤمني أهلِ الكتاب، يَتلُون ويسجُدون، ويؤمِنون ويأمرون، ويَنهَوْنَ ويسارِعون، ولن يَضِيعَ لهم ما يعملون، والمقصودُ أنَّ جهَّالَ اليهود لمَّا قالوا لعبدِ الله بن سَلَامٍ: إنَّكم خَسِرتم بسببِ هذا الإيمان، قال تعالىٰ: بل فازوا بالدرجاتِ العظمىٰ، فكان المقصودُ تعظيمَهم ليزُولَ عن قلبِهم أثرُ كلام أولئك الجهَّال، ثم هذا وإن كان بحسَبِ اللفظ يَرجِعُ إلىٰ كلِّ ما تقدَّم ذِكْرُه مِن مؤمني أهلِ الكتاب، فإنَّ سائرَ الخَلْقِ يدخلون فيه نظرًا إلىٰ العلَّةِ،

(١) أنوار التنزيل (٢/ ٣٤).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٣٣).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ٥٩).

(٤) أي: صيغة الغائب.

وأمَّا الباقون فإنَّهم قرؤوا بالتاءِ على سبيل المخاطَبة؛ فهو ابتداءُ خطابٍ لجميعِ المؤمنين، على معنى أنَّ أفعالَ مؤمني أهلِ الكتاب ذُكِرتْ، ثم قال: «وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ» معاشرَ المؤمنين الذين مِن جملتِكم هؤلاء، «فَلَنْ تُكْفَرُوهُ»، والفائدةُ أن يكونَ حُكْمُ هذه الآيةِ عامًّا بحسَبِ اللفظ في حقِّ جميع المكلَّفين(١).

لمَّا وصَفهم بأوصافٍ جليلة، أقبَل عليهم تأنيسًا لهم، واستعطافًا عليهم، فخاطَبهم بأنَّ ما تَفعَلون مِن الخيرِ فلا تُمنَعون ثوابَه(٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾

لمَّا رغَّبهم في الإنفاق بما يشملُ كلَّ خيرٍ، وأخبَرهم بأنَّه عالِمٌ بدِقِّه وجِلِّه، وأخبَر أنَّ ذلك كان دأبَ إسرائيلَ عليه السلام على وجهٍ أنتَج أنَّ بَنِيهِ كاذبون في ادعائهم أنَّهم على ملَّةِ جَدِّه إبراهيمَ عليه السلام، ثم حذَّر منهم، وختَم ما ختَمه بالمتَّقين بالترغيب في الخير بما اندرَج فيه الإنفاقُ الذي قدَّم أولَ السُّورةِ أنَّه مِن صفةِ المتَّقين المستغفِرين بالأسحارِ، التي هي أشرَفُ آناءِ الليل، وكان ممَّا يَمنَعُ منه خوفُ الفقرِ والنزولِ عن حالِ الموسِرين مِن الكفَّار المفاخِرين بالإكثار، المعيِّرين بالإقلال مِن المالِ والولد، وقوفًا مع الحالِ الدُّنيوي، وكان قد أخبَر أنَّه لا يُقبَلُ مِن أحدٍ منهم في الآخرة مِلْءُ الأرضِ ذهبًا؛ أعقَب هذا بمثلِ ذلك على وجهٍ أعَمَّ، فقال - واصفًا أضدادَ مَن تقدَّم، نافيًا ما يعتقدون مِن أنَّ أعمالَهم الصُّوريةَ تنفعُهم -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٣).

(١) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٣٤).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٣١٣).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٣٤).

استئنافٌ ابتدائيٌّ للانتقال إلىٰ ذِكْرِ وعيدِ المشركين بمناسبة ذِكْرِ وعدِ الذين آمنوا مِن أهل الكتاب، وإنَّما عطَف الأولادَ هنا؛ لأنَّ الغَناءَ في متعارَفِ الناسِ يكونُ بالمال والولد؛ فالمالُ يَدفَعُ به المرءُ عن نفسِه في فداءٍ أو نحوِه، والولدُ يدافعون عن أبيهم بالنَّصر[1].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ ذكَر في هذه الآياتِ مرَّةً أحوالَ الكافرين في كيفيَّة العقاب، وأخرىٰ أحوالَ المؤمنين في الثواب، جامعًا بَيْنَ الزَّجْرِ والترغيب، والوعدِ والوعيد، فلمَّا وصَف مَن آمَن مِن الكفار بما تقدَّم مِن الصفاتِ الحسنة، أتبَعه تعالىٰ بوعيدِ الكفار، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2].

لمَّا ذكَر شيئًا مِن أحوالِ المؤمنين، ذكَر شيئًا مِن أحوالِ الكافرين؛ ليتضحَ الفرقُ بَيْنَ القَبيلَينِ[3].

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

لمَّا كان ربما قيل: فما حالُ ما يبذُلونه في المكارم، ويواسون به في المغارم؟ ضرَب لذلك مثَلًا جعَله هباءً منثورًا، ضائعًا -وإن كثُرَ- بُورًا، كأن لم يكُنْ شيئًا مذكورًا، بقولِه ﷻ جوابًا لهذا السؤالِ: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٦٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٣٥).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٣١٤).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٣٥).

استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قوله: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ يُثِيرُ سؤالَ سائلٍ عن إنفاقِهم الأموالَ في الخير؛ مِن إغاثةِ الملهوف، وإعطاءِ الدِّيَاتِ في الصُّلح عن القتلىٰ. ضرَب لأعمالهم المتعلقةِ بالأموال مثَلًا؛ فشبَّه هيئةَ إنفاقِهم المُعجِبَ ظاهرُها، المخيِّبَ آخِرُها، حين يُحبِطُها الكفرُ، بهيئةِ زَرْعٍ أصابته رِيحٌ باردة فأهلَكتْهُ؛ تشبيهَ المعقولِ بالمحسوس(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ أموالَ الكفار لا تُغنِي عنهم شيئًا، ثم إنَّهم ربما أنفَقوا أموالهم في وجوهِ الخيرات، فيخطُرُ ببالِ الإنسان أنَّهم ينتفعون بذلك؛ فأزال اللهُ تعالىٰ بهذه الآيةِ تلك الشُّبْهةَ، وبيَّن أنَّهم لا ينتفعون بتلك الإنفاقاتِ، وإن كانوا قد قصَدوا بها وجهَ اللهِ(٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّ ما فعَله المؤمنون مِن الخيرِ فإنَّهم لا يُحرَمون ثوابَه، بل يَجنُون في الآخرةِ ثمرةَ ما غرَسوه في الدنيا؛ أخَذ في بيانِ نفقة الكافرين، فضرَب لها مثَلًا اقتضىٰ بطلانَها وذَهابَها مجَّانًا بغيرِ عِوَضٍ(٣).

هذا بيانٌ لكيفيَّةِ عدم إغناء أموالهم التي كانوا يعوِّلون عليها في جلبِ المنافع ودفعِ المَضارِّ، ويعلِّقون بها أطماعَهم الفارغةَ(٤).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

لمَّا كان الجَمالُ بالمال -لا سيَّما مع الإنفاقِ- مِن أعظَمِ المرغِّبات في الموالاة،

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٦١).
(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٣٦).
(٣) البحر المحيط (٣/ ٣١٤).
(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ٧٥).

وكانت هذه الآيةُ قد صيَّرتْ جميلَه قبيحًا، وبَذولَهُ[١] شحيحًا؛ قال ﷻ - مكرِّرًا التنبيهَ علىٰ مَكْرِ ذَوِي الأموالِ والجَمالِ، الذين يريدون إيقاعَ الفتنةِ بينهم مِن اليهود والمنافِقين؛ ليَضمحلَّ أمرُهم، وتزُولَ شوكتُهم-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢].

الآنَ إذ كشَف اللهُ دخائلَ مَن حَوْلَ المسلمين مِن أهلِ الكتاب أتَمَّ كشفٍ، جاء موقعُ التحذير مِن فريقٍ منهم، والتحذيرِ مِن الاغترار بهم، والنَّهيِ عن الإلقاءِ إليهم بالمودة، وهؤلاء هم المنافقون؛ للإخبارِ عنهم بقولِه: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، وأكثرُهم مِن اليهودِ، دُونَ الذين كانوا مشرِكين مِن الأوسِ والخَزْرجِ، وهذا موقعُ الاستنتاج في صناعة الخطابةِ بعد ذِكْرِ التمهيداتِ والإقناعات، وحَقُّه الاستئنافُ الابتدائي كما هنا[٣].

لمَّا شرَح أحوالَ المؤمنين والكافرين، شرَع في تحذيرِ المؤمنين عن مخالَطةِ الكافرين في هذه الآيةِ[٤].

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

ثم استأنَف الإخبارَ عن ملخَّصِ حالهم معهم، فقال منبِّهًا أو مبدِلًا الهاءَ مِن همزةِ الإنكار: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[٥].

---

(١) البَذُول: الكريم المعطاء.
(٢) نظم الدرر (٥/ ٣٧).
(٣) التحرير والتنوير (٤/ ٦٣).
(٤) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٣٩).
(٥) نظم الدرر (٥/ ٣٩، ٣٨).

استئنافٌ ابتدائيٌّ، قُصِد منه المقابلةُ بَيْنَ خُلُقِ الفريقَين؛ فالمؤمنون يُحِبُّون أهلَ الكتاب، وأهلُ الكتاب يُبغِضونهم، وكلُّ إناءٍ بما فيه يَرشَحُ، والشأنُ أنَّ المحبَّةَ تجلبُ المحبةَ، إلا إذا اختلَفتِ المقاصدُ والأخلاق[(١)].

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن تحذيرِ المؤمنين عن مخالَطةِ المنافِقين[(٢)].

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ١٢٠﴾

لمَّا كان ما أخبَرتْ به هذه الجُمَلُ مِن بُغْضِهم وشدةِ عداوتهم محتاجًا -ليصلَ إلى المشاهَدةِ- إلى بيانٍ، دَلَّ عليه بقولِه: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[(٣)].

زاد اللهُ كشفًا لِما في صدورِهم بقولِه: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾؛ أي: تُصِبْكم حسَنةٌ، والمَسُّ الإصابةُ، ولا يختص أحدُهما بالخيرِ والآخَرُ بالشرِّ؛ فالتعبيرُ بأحدهما في جانبِ الحسنة، وبالآخَرِ في جانبِ السيئةِ: تفنُّنٌ[(٤)].

اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ مِن تمام وصفِ المنافِقين، فبيَّن تعالىٰ أنَّهم مع ما لهم مِن الصفاتِ الذميمة والأفعالِ القبيحة مترقِّبون نزولَ نوعٍ مِن المِحْنةِ والبلاء بالمؤمنين[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٦٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٤١).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٤٠).

(٤) التحرير والتنوير (٤/ ٦٨).

(٥) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٤٣).

بيانٌ لتَناهي عداوتِهم إلىٰ حدٍّ حسَدوا ما نالهم مِن خيرٍ ومنفعة، وشمَتوا بما أصابهم مِن ضُرٍّ وشِدة، وذِكْرُ المَسِّ مع الحسنةِ والإصابةِ مع السيئةِ: إمَّا للإيذان بأنَّ مدارَ مَساءتِهم أدنىٰ مراتبِ إصابةِ الحسنة، ومناطَ فرَحِهم تمامُ إصابةِ السيئة، وإمَّا لأنَّ المَسَّ مستعارٌ لمعنىٰ الإصابة(١).

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾

ولمَّا كان ما تضمَّنته هذه الآيةُ مِن الإخبارِ ومِن الوعد ومِن الوعيد -منطوقًا ومفهومًا- محتاجًا إلىٰ الاجتلاءِ في صُوَرِ الجزئيات، ذكَّرهم ﷻ بالوقائعِ التي شوهدت فيها أحوالُهم مِن النَّصْرِ عند العمَلِ بمنطوقِ الوعدِ مِن الصبرِ والتقوىٰ وعدمِه عند العملِ بالمفهوم، وشوهدت فيها أحوالُ عدوِّهم مِن المَساءةِ عند السُّرور، والسُّرورِ عند المَساءة، وذلك غنيٌّ عن دليلٍ؛ لكونِه مِن المشاهَدات، مشيرًا إلىٰ ذلك بواوِ العطفِ علىٰ غيرِ مذكورٍ، مخاطِبًا لأعظَمِ عبادِه فِطْنةً، وأقربِهم إليه رُتْبةً؛ تهييجًا لغيرِه إلىٰ تدقيقِ النَّظر واتِّباعِ الدليل مِن غيرِ أدنىٰ وقوفٍ مع المألوف، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

مناسبةُ ذِكْرِ هذه الوَقْعةِ عَقِب ما تقدَّم: أنَّها مِن أوضَحِ مظاهرِ كيدِ المخالِفين في الدِّين؛ المنافِقين، ولمَّا كان شأنُ المنافِقين مِن اليهودِ وأهلِ يَثرِبَ واحدًا،

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ٧٧).
(٢) نظم الدرر (٥/ ٤١).

ودَخِيلتُهما سواءً، وكانوا يَعمَلون علىٰ ما تـدبِّره اليهـودُ؛ جمَع اللهُ مكايِدَ الفريقَينِ بذِكْرِ غزوةِ أُحُدٍ، وكان نزولُ هذه السُّورةِ عَقِب غزوةِ أُحُد[١].

لمَّا قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾، أتبَعه بما يـدُلُّهم علىٰ سُنَّةِ الله تعالىٰ فيهم في بابِ النُّصرة والمعونة ودفعِ مَضارِّ العدوِّ إذا هم صبَروا واتَّقَوْا، وخلافِ ذلك فيهم إذا لم يَصبِروا، فقال: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾؛ يعني: أنَّهم يومَ أُحُدٍ كانوا كثيرين للقتال، فلمَّا خالَفوا أمرَ الرسولِ، انهزَموا، ويومَ بَدْرٍ كانوا قليلين غيرَ مستعِدِّين للقتال، فلمَّا أطاعوا أمرَ الرسولِ، غلَبوا، واستولَوْا علىٰ خصومِهم، وذلك يؤكدُ قولَنا، وفيه وجهٌ آخَرُ؛ وهو: أنَّ الانكسارَ يومَ أُحُدٍ إنَّما حصَل بسبب تخلُّفِ عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلُولَ المنافقِ؛ وذلك يدلُّ علىٰ أنَّه لا يجوز اتخاذُ هؤلاء المنافِقين بِطانةً[٢].

لمَّا نهاهم عن اتخاذِ بِطانةٍ مِن الكفار، ووعَدهم أنَّهم إن صبَروا واتَّقَوْا، فلا يضُرُّكم كيدُهم؛ ذكَّرهم بحالةٍ اتفَق فيها بعضُ طواعيةٍ، واتِّباعٌ لبعضِ المنافِقين؛ وهو ما جرىٰ يومَ أُحُدٍ لعبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلُولَ حين انخزَل عن رسولِ الله ﷺ، واتبَعه في الانخزالِ ثلاثُمائةِ رجُلٍ مِن المنافِقين، وغيرُهم مِن المؤمنين[٣].

كلامٌ مستأنَف سِيقَ للاستشهاد بما فيه مِن استتباعِ عدم الصبرِ والتقوىٰ للضَّررِ علىٰ أنَّ وجودَهما مستتبِعٌ لِما وُعِد مِن النجاةِ مِن مَضرَّةِ كيدِ الأعداء[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٦٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٤٥).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٣٢٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ٧٧).

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

لمَّا كان رجوعُ عبدِ الله بن أُبيٍّ المنافقِ - كما يأتي في صريحِ الذِّكرِ آخرَ القصَّة - مِن الأدلةِ على أنَّ المنافِقين -فضلًا عن المصارِحين بالمصارَمة- متصِفون بما أخبرَ اللهُ تعالى عنهم مِن العداوةِ والبغضاء مع أنَّه كان سببًا في هَمِّ الطائفتَينِ مِن الأنصار بالفشلِ؛ كان إيلاءُ هذه القصَّةِ للنَّهيِ عن اتخاذِ بطانةِ السَّوءِ الذين لا يقصِّرون عن فسادٍ في غايةِ المناسبة؛ ولذلك افتتَحها ﷺ بقولِه - مبدِلًا مِن ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ دليلًا على ما قبله مِن أنَّ بطانةَ السَّوءِ لا تألوهم خبالًا، وغيرَ ذلك -: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(١).

لمَّا ختَم الآيةَ السابقة بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فاللهُ تعالى سميعٌ لكلِّ الأقوال التي دارت بينكم في شأنِ الخروج إلى العدوِّ، أو عدمِه، وقتالِه داخلَ المدينة، عليمٌ بنيَّاتِكم وأعمالِكم، ومِن ذلك ما ذكَر هنا مِن هَمِّ بني سَلِمةَ وبني حارثةَ بالرجوعِ مِن الطريق، لولا أنَّ اللهَ سلَّم فعصَمهما مِن الرجوعِ؛ لأنَّه وليُّهما؛ هذا معنى قولِه تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ...﴾(٢).

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

لمَّا كان ظاهرُ الحال فيما أصاب الكفَّارُ مِن المسلمين في هذه الغزوةِ ربما كان سببًا في شكِّ مَن لم يحقِّقْ بواطنَ الأمور، ولا له أهليَّةُ النفوذِ في الدقائق مِن عجائبِ المقدور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾؛ ذكَّرهم اللهُ تعالى نَصْرَه لهم في غزوةِ بَدْرٍ،

(١) نظم الدرر (٥/ ٤٨).

(٢) أيسر التفاسير (١/ ٣٧٠).

وهم في القِلَّةِ دُونَ ما هم الآن بكثيرٍ، مشيرًا لهم إلىٰ ما أثمَره توكُّلُهم مِن النَّصرِ، وحالُهم إذ ذاك حالُ الآيسِ منه؛ ولذلك كانوا في غايةِ الكراهةِ لِلِّقاءِ، بخلافِ ما كانوا عليه في هذه الكَرَّةِ؛ حثًّا علىٰ ملازمةِ التوكُّل، منبِّهًا علىٰ أنَّه لا يزالُ يُرِيهم مثلَ ذلك النَّصرِ، ويُذِيقُ الكفَّارَ أضعافَ ذلك الهوانِ؛ حتىٰ يُحِقَّ الحقَّ، ويُبطِلَ الباطلَ، ويُظهِرَ دِينَه الإسلامَ علىٰ الدِّين كلِّه، فقال - عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فمَن توكَّل عليه نصَره وكفَاه، وإن كان قليلًا؛ فلقد نصَركم اللهُ أولَ النهار في هذه الغزوةِ حيث صبَرْتم واتَّقَيْتم بطاعتِكم للرسول ﷺ في ملازمةِ التَّعَبِ والإقبالِ علىٰ الحرب وغيرِ ذلك بما أمَركم به ﷺ، ولم تضُرَّكم قِلَّتُكم ولا ضَعْفُكم بمَن رجَع عنكم شيئًا -: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١).

إذ قد كانت وَقْعةُ أُحُدٍ لم تنكشِفْ عن نصرِ المسلمين، عقَّب اللهُ ذِكْرَها بأنْ ذكَّرهم اللهُ تعالىٰ نَصْرَه إيَّاهم النَّصرَ الذي قدَّره لهم يومَ بَدْرٍ، وهو نصرٌ عظيم؛ إذ كان نَصْرَ فئةٍ قليلة علىٰ جيشٍ كثير، ذي عُدَدٍ وافرة، وكان قتلىٰ المشركين يومئذ سادةَ قُرَيش، وأئمَّةَ الشرك، وحسبُك بأبي جهلِ ابن هشامٍ؛ ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾؛ أي: ضعفاءُ، وهذا تعريضٌ بأنَّ انهزامَ يومِ أُحُدٍ لا يفُلُّ حِدَّةَ المسلمين؛ لأنَّهم صاروا أعزَّةً، والحربُ سِجال (٢).

في كيفيَّة النَّظمِ: وجهان: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر قصَّةَ أُحُدٍ، أتبَعها بذلك قصَّةَ بَدْرٍ؛ وذلك لأنَّ المسلمين يومَ بدرٍ كانوا في غايةِ الفقرِ والعَجْزِ، والكفَّارُ كانوا في غايةِ الشِّدة والقوَّة، ثم إنَّه تعالىٰ سلَّط المسلمين علىٰ المشركين، فصار ذلك مِن أقوىٰ الدلائلِ علىٰ أنَّ العاقلَ يجب ألا يَتوسَّلَ إلىٰ تحصيلِ غرضِه ومطلوبه إلا بالتوكُّلِ

(١) نظم الدرر (٥/ ٥١، ٥٠).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٧٢).

علىٰ الله، والاستعانةِ به، والمقصودُ مِن ذِكْرِ هذه القصَّةِ تأكيدُ قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾، وتأكيدُ قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. الثاني: أنَّه تعالىٰ حكىٰ عن الطائفتَينِ أنَّهما هَمَّتَا بالفشل، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ يعني: مَن كان اللهُ ناصرًا له ومُعِينًا له، فكيف يَلِيقُ به هذا الفشَلُ والجُبْنُ والضَّعْفُ؟! ثم أكَّد ذلك بقصَّةِ بدرٍ؛ فإنَّ المسلمين كانوا في غايةِ الضَّعْفِ، ولكن لمَّا كان اللهُ ناصرًا لهم، فازوا بمطلوبهم، وقهَروا خصومَهم، فكذا هاهنا؛ فهذا تقريرُ وجهِ النَّظم(١).

لمَّا أمَرهم بالتوكل عليه، ذكَّرهم بما يوجِبُ التوكُّلَ عليه؛ وهو ما سنَّىٰ لهم ويسَّر مِن الفتحِ والنَّصر يومَ بَدْرٍ وهم في حالِ قِلَّةٍ وذِلَّة؛ إذ كان ذلك النَّصْرُ ثمرةَ التوكُّلِ عليه، والثقةِ به(٢).

جملةٌ مستأنَفة سِيقت لإيجابِ الصَّبْرِ والتقوىٰ بتذكيرِ ما ترتَّب عليهما مِن النَّصر، إثرَ تذكيرِ ما ترتَّب علىٰ عدمِهما مِن الضَّرر(٣).

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

ولمَّا اشتمَلتْ هذه القصَّةُ علىٰ المصيبة التي سيقُصُّ اللهُ كثيرًا منها، وهي مستوفاةٌ في السِّيَر؛ كان أنسَبَ مِن قَصِّها وبيانِ ما اتفَق لها - لوعظِ مَن يأتي - البداءةُ بتذكير مَن باشَرها بما وعَدهم اللهُ به علىٰ لسانِ نبيِّه ﷺ قبل وقوع القتال؛ مِن النَّصْرِ المشروط

(١) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٤٨).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٣٣٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ٧٩).

بالصبرِ، والتقوىٰ؛ تنبيهًا لهم علىٰ أنَّ الخَلَلَ مِن جهتِهم أتىٰ، ثم وعَظهم بالنَّهيِ عمَّا منَعهم النَّصْرَ، والأمرِ بما يحصِّلُه لهم، كما سيحُثُّهم علىٰ ذلك بما يقُصُّ عليهم مِن نبأِ مَن قاتَل مع الأنبياءِ قَبْلَهم؛ بأنَّهم لمَّا أصابهم القتلُ لم يَهِنُوا، وعَلِموا أنَّ الخَلَلَ مِن أنفسِهم، فبادَروا إلىٰ إصلاحه بأفعالِ المتَّقين؛ مِن الصَّبْرِ، والتضرُّع، والإقرار بالذَّنب، فقال - مبدِلًا من: (إذ غدوت)، عَوْدًا علىٰ بَدْءٍ، تعظيمًا للأمر، حثًّا علىٰ النظرِ في مواردِه، ومصادرِه، والتدبُّرِ لأوائله وأواخرِه -: ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾(١).

وظرفُ ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ زمانيٌّ، وهو متعلِّقٌ بـ﴿نَصَرَكُمُ﴾؛ لأنَّ الوعدَ بنصرِه الملائكةَ والمؤمنين كان يومَ بَدْرٍ، لا يومَ أُحُدٍ؛ هذا قولُ جمهور المفسِّرين. وخَصَّ هذا الوقتَ بالذِّكر؛ لأنَّه كان وقتَ ظهور هذه المعجزةِ، وهذه النِّعْمةِ؛ فكان جديرًا بالتذكيرِ والامتنان(٢).

ظاهرُ هذه الآيةِ اتصالُها بما قبلها، وأنَّها مِن قصَّة بَدْرٍ، وهو قولُ الجمهور، فيكونُ ﴿إِذۡ﴾ معمولًا لـ﴿نَصَرَكُمُ﴾. وقيل: هذا مِن تمام قصَّةِ أُحُدٍ، فيكون قوله: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ﴾ معترِضًا بَيْنَ الكلامينِ؛ لِما فيه مِن التحريضِ علىٰ التوكُّل والثبات للقتال(٣).

تلوينٌ للخطابِ بتخصيصِه رسولَ الله ﷺ لتشريفِه، والإيذانِ بأنَّ وقوعَ النَّصْرِ كان ببِشارته ﷺ(٤).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٧٢).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٣٣١).

(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ٧٩).

﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ ﴾

ثم تولَّىٰ سُبْحَانَهُ هو الجوابَ عنهم؛ تحقيقًا للكفاية، فقال: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[1].

ووجهُ الجمعِ بَيْنَ الآيتينِ: أنَّ اللهَ وعَدهم بثلاثةِ آلافٍ، ثم صيَّرهم إلىٰ خمسةِ آلاف، ووجهُ الجمعِ بَيْنَ الآيتين: أنَّ اللهَ وعَدهم بألفٍ مِن الملائكة، وأطمَعَهم بالزيادةِ بقولِه: ﴿ مُرۡدِفِينَ ﴾؛ أي: مُردِفِينَ بعَدَدٍ آخرَ، ودلَّ كلامُه هنا علىٰ أنَّهم لم يَزالوا وَجِلِينَ مِن كثرةِ عَدَدِ العدوِّ، فقال لهم النبيُّ ﷺ: ﴿ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾، أراد اللهُ بذلك زيادةَ تثبيتِهم، ثم زادهم ألفَينِ إن صبَروا واتَّقَوْا، وبهذا الوجهِ فسَّر الجمهورُ، وهو الذي يقتضيه السياقُ[2].

﴿ بَلَىٰٓ ﴾ إيجابٌ لِما بعد (لن)؛ يعني: بل يَكفيكم الإمدادُ، فأوجَب الكفايةَ، ثم قال: ﴿ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا ﴾؛ يعني: والمشركون يأتوكم مِن فَوْرِهم هذا يُمدِدْكم ربُّكم بأكثرَ مِن ذلك العَدَدِ، وهو خمسةُ آلافٍ مِن الملائكة مشروطةٌ بثلاثةِ أشياءَ: الصَّبر، والتقوىٰ، ومجيءِ الكفار علىٰ الفورِ، فلمَّا لم توجَدْ هذه الشرائطُ، لا جرَمَ لم يوجَدِ المشروطُ[3].

﴿ بَلَىٰٓ ﴾ إمَّا مِن تتمَّةِ مقُولِه ﷺ للمؤمنين، أو ابتداءُ خطابٍ مِن الله تعالىٰ تأييدًا لقول نبيِّه ﷺ، وزيادةً علىٰ ما وعَدهم تكرُّمًا وفضلًا[4].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٥٧).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٧٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٥٣).

(٤) محاسن التأويل (٢/ ٤٠٥).

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: وليس الإمدادُ بهم موجِبًا للنصرِ، وكان قد قدَّم في أولِ السُّورة قولَه: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ قال هنا - قاصرًا للأمر عليه -: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

يجوز أن تكونَ جملةُ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ في موضعِ الحال مِن اسمِ الجلالة في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾؛ والمعنىٰ: لقد نصركم اللهُ ببَدْرٍ حين تقولُ للمؤمنين ما وعَدك اللهُ به في حالِ أنَّ اللهَ ما جعَل ذلك الوعدَ إلا بُشْرَىٰ لكم، وإلا فإنَّه وعَدكم النَّصْرَ؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ الآيةَ، ويجوز أن يكونَ الواوُ للعطفِ عَطْفَ الإخبارِ علىٰ التذكيرِ والامتنان، وإظهارُ اسمِ الجلالة في مقامِ الإضمار للتنويهِ بهذه العنايةِ مِن الله بهم، والخطابُ للنبيِّ ﷺ والمسلمين(١).

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ كلامٌ مبتدأ غيرُ داخلٍ في حيِّزِ القول، مسُوقٌ مِن جَنابِه تعالىٰ لبيانِ أنَّ الأسبابَ الظاهرة بمَعزِلٍ مِن التأثير، وأنَّ حقيقةَ النصرِ مختصٌّ به ﷻ؛ ليثقَ به المؤمنون، ولا يَقنَطوا منه عند فِقْدانِ أسبابه وأماراتِه، معطوفٌ علىٰ فعلٍ مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكلام، ويستدعيه النظام؛ فإنَّ الإخبارَ بوقوعِ النصر علىٰ الإطلاق، وتذكيرَ وقته، وحكايةَ الوعد بوقوعه علىٰ وجهٍ مخصوص: هو الإمدادُ بالملائكة مرَّةً بعد أخرىٰ، وتعيينُ وقتِه فيما مضىٰ يَقضِي بوقوعه حينئذٍ قضاءً قطعيًّا، لكن لم يصرِّحْ به تعويلًا علىٰ تعاضُدِ الدلائل، وتآخُذِ الأمارات والمخايل، وإيذانًا بكمالِ الغنىٰ عنه، بل احترازًا عن شائبةِ التكرير، أو عن إيهامِ احتمال الخُلْفِ في

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٧٧).

الوعدِ المحتوم، كأنَّه قيل عَقِيبَ قولِه تعالىٰ: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾: فأمَدَّكم بهم، ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾[(١)].

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

لمَّا قرَّر الوعدَ، ذكَر ثمرتَهُ، فقال معلِّقًا الجارَّ بـ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾[(٢)].

قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ متعلِّقٌ بالنصرِ، باعتبار أنَّه علَّةٌ لبعضِ أحوال النصرِ؛ أي: ليقطَعَ يومَ بَدْرٍ طرَفًا مِن المشركين[(٣)].

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ واللامُ في ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ متعلِّقٌ بقولِه: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾؛ والمعنىٰ: أنَّ المقصودَ مِن نَصْرِكم بواسطة إمدادِ الملائكة هو أن يَقطَعوا طرَفًا مِن الذين كفروا؛ أي: يُهلِكوا طائفةً منهم، ويقتُلوا قطعةً منهم، قيل: إنَّه راجعٌ إلىٰ قوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾؛ ليَقطَعَ طرَفًا، ولكنَّه ذُكِر بغيرِ حرف العطفِ؛ لأنَّه إذا كان البعضُ قريبًا مِن البعض، جاز حذفُ العاطف[(٤)].

﴿لِيَقْطَعَ﴾ متعلِّقٌ بقولِه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾، وما بينهما تحقيقٌ لحقيقته، وبيانٌ لكيفيَّة وقوعه[(٥)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ٨١).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٥٩).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ٧٨).

(٤) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٥٤).

(٥) إرشاد العقل السليم (٢/ ٨٢).

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

لمَّا كان ﷺ حريصًا على طلبِ الإدالة(١) عليهم ليمثِّلَ بهم كما مثَّلوا بعمِّهِ حَمْزَةَ وعِدَّةٍ مِن أصحابه رضي الله عنهم، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾(٢).

جملةُ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ معترضةٌ بَيْنَ المتعاطِفات، والخطابُ للنبي ﷺ، فيجوز أن تُحمَلَ على صريحِ لفظها، فيكون المعنى نَفْيَ أن يكونَ للنبيِّ ﷺ -أي: لقتالِه الكفارَ بجيشه مِن المسلمين- تأثيرٌ في حصولِ النصر يومَ بَدْرٍ؛ فإنَّ المسلمين كانوا في قِلَّةٍ مِن كلِّ جانبٍ مِن جوانبِ القتال؛ أي: فالنَّصْرُ حصَل بمحضِ فضلِ الله على المسلمين؛ وهذا مِن معنى ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾، ويجوز أن تُحمَلَ الجملةُ على أنَّها كنايةٌ عن صرفِ النبي عليه الصلاة والسلام عن الاشتغالِ بشأنِ ما صنَع اللهُ بالذين كفَروا؛ مِن قَطْعِ طرَفِهم، وكَبْتِهم أو توبةٍ عليهم، أو تعذيبٍ لهم؛ أي: فذلك موكولٌ إلينا نحقِّقُه متى أرَدْنا، ويتخلَّفُ متى أردنا، على حسَبِ ما تقتضيه حِكْمتُنا، وذلك كالاعتذارِ عن تخلُّفِ نصرِ المسلمين يومَ أُحُدٍ(٣).

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ اعتراضٌ وُسِّط بَيْنَ المعطوفِ عليه المتعلِّقِ بالعاجل والمعطوفِ المتعلقِ بالآجِلِ؛ لتحقيقِ أنْ لا تأثيرَ للمنصورين، إثرَ بيانِ أنْ لا تأثيرَ للناصرين، وتخصيصُ النفيِ برسولِ الله ﷺ على طريقِ تلوين الخطاب للدَّلالةِ على الانتفاء مِن غيرِه بالطريق الأولى، وإنَّما خُصَّ الاعتراضُ بموقعِه؛ لأنَّ ما قبله

---

(١) أي: الغلبة.

(٢) نظم الدرر (٥/ ٦٠).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ٧٩).

مِن القَطْعِ والكَبْتِ مِن مَظانٍّ أن يكونَ فيه لرسولِ الله ﷺ ولسائر مباشِري القتالِ مَدخَلٌ في الجملة[(١)].

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾

لمَّا كان التقديرُ: بلِ الأمرُ له سبحانه وَحْدَه، عطَفَ عليه قولَه - مبيِّنًا لقُدْرتِه علىٰ ما قدَّم مِن فعلِهِ بهم علىٰ وجهٍ أعَمَّ -: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(٢)].

تذييلٌ لقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، مشيرٌ إلىٰ أنَّ هذين الحالينِ علىٰ التوزيع بَيْنَ المشركين، ولمَّا كان مَظِنَّةَ التطلُّعِ لمعرفة تخصيصِ فريقٍ دُونَ فريق، أو تعميمِ العذاب؛ ذيَّله بالحَوالةِ علىٰ إجمالِ حضرةِ الإطلاق الإلهيَّة؛ لأنَّ أسرارَ تخصيص كلِّ أحدٍ بما يعيَّنٌ له، أسرارٌ خفيَّةٌ لا يعلمُها إلا اللهُ تعالىٰ، و«كلٌّ ميسَّرٌ لِما خُلِق له»[(٣)][(٤)].

المقصودُ مِن هذا تأكيدُ ما ذكَره أولًا مِن قوله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾؛ والمعنىٰ: أنَّ الأمرَ إنَّما يكون لِمَن له المُلْكُ، ومُلْكُ السماواتِ والأرض ليس إلا للهِ تعالىٰ؛ فالأمرُ في السماواتِ والأرض ليس إلا للهِ؛ وهذا برهانٌ قاطع[(٥)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ٨٢).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٦١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٤) التحرير والتنوير (٤/ ٨٤).

(٥) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٥٧).

لمَّا قدَّم ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ ﴾، بيَّن أنَّ الأمورَ إنَّما هي لِمَن له المُلْكُ والمِلْكُ، فجاء بهذه الجملةِ مؤكِّدةً للجملةِ السابقة[(١)].

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ كلامٌ مستأنَف سِيقَ لبيانِ اختصاص ملكوتِ كلِّ الكائنات به عَزَّ وَجَلَّ، إثْر بيانِ اختصاص طرَفٍ مِن ذلك به سبحانه؛ تقريرًا لِما سبق، وتكملةً له[(٢)].

ولمَّا نفىٰ عن رسولِه ﷺ أنَّه ليس له مِن الأمر شيءٌ، قرَّر مَن الأمرُ له، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[(٣)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ ﴾

لمَّا كان الختمُ بهاتين الصِّفتَين ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ ربما أطمَعَ في انتهاكِ الحُرُماتِ لاتِّباع الشهوات، فكان مُبعِدًا لمُتعاطِيهِ مِن الرحمة، مُدْنيًا مِن النِّقْمةِ، وكان أعظَمَ المقتضِيَات للخِذْلانِ تضييعُهم للثَّغْرِ الذي أمَرهم النبيُّ ﷺ بحفظِه بسببِ إقبالهم قبل إتمامِ هزيمة العدوِّ علىٰ الغنائم للزيادةِ في الأعراض الدُّنيوية التي هي معنىٰ الرِّبا في اللغة -إذ هو مطلَقُ الزيادة-: أقبَلَ تعالىٰ عليهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[(٤)].

لو لا أنَّ الكلامَ علىٰ يوم أُحُدٍ لم يكمُلْ؛ إذ هو سيُعادُ عند قوله تعالىٰ: ﴿ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ ﴾ الآية، لقُلْنا: إنَّ قوله:

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٣٣٩).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ٨٤).

(٣) تفسير السعدي (ص: ١٤٧).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٦٣).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ اقتضابُ تشريعٍ، ولكنه متعيِّنٌ لأن نعتبره استطرادًا في خلالِ الحديث عن يوم أُحُدٍ، ثم لم يَظهَرْ وجهُ المناسبة في وقوعِه في هذا الأثناء. قال ابنُ عطيَّةَ: ولا أحفَظُ سببًا في ذلك مرويًّا. وقال الفخرُ: مِن الناسِ مَن قال: لمَّا أرشَد اللهُ المؤمنين إلىٰ الأصلَحِ لهم في أمرِ الدِّين والجهاد، أتبَع ذلك بما يدخُلُ في الأمرِ والنَّهي، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾، فلا تعلُّقَ لها بما قبلها. وقال القفَّالُ: لمَّا أنفَق المشركون علىٰ جيوشهم أموالًا جمَعوها مِن الرِّبا، خِيفَ أن يدعوَ ذلك المسلمين إلىٰ الإقدامِ علىٰ الرِّبا؛ وهذه مناسبةٌ مستبعَدة. وقال ابنُ عرفةَ: لمَّا ذكَر اللهُ وعيدَ الكفار، عقَّبه ببيانِ أنَّ الوعيدَ لا يخُصُّهم، بل يَتناولُ العصاةَ، وذكَر أحدَ صُوَرِ العصيان؛ وهي أكلُ الرِّبا؛ وهو في ضَعْفِ ما قبله. وعندي باديَ ذي بَدْءٍ: أنْ لا حاجةَ إلىٰ اطِّرادِ المناسبة؛ فإنَّ مدةَ نزولِ السُّورة قابلةٌ لأن تحدُثَ في خلالِها حوادثُ يَنزِلُ فيها قرآنٌ، فيكونَ مِن جملةِ تلك السُّورةِ؛ كما بيَّنَّاه في المقدِّمةِ الثامنة، فتكونَ هاته الآيةُ نزَلتْ عَقِبَ ما نزَل قبلها، فكُتِبتْ هنا، ولا تكونُ بينهما مناسبةٌ؛ إذ هو مُلحَقٌ إلحاقًا بالكلام، ويتجه أن يَسأَلَ سائلٌ عن وجهِ إعادة النَّهْيِ عن الرِّبا في هذه السُّورةِ بعد ما سبَق مِن آيات سورةِ «البقرة» بما هو أوفىٰ ممَّا في هذه السُّورة، فالجواب: أنَّ الظاهرَ أنَّ هذه الآيةَ نزَلتْ قبل نزولِ آية سورة «البقرة»، فكانت هذه تمهيدًا لتلك، ولم يكُنِ النَّهْيُ فيها بالغًا ما في سورة «البقرة»[1].

اعلَمْ أنَّ مِن الناسِ مَن قال: إنَّه تعالىٰ لمَّا شرَح عظيمَ نِعَمِه علىٰ المؤمنين فيما يتعلقُ بإرشادِهم إلىٰ الأصلَحِ لهم في أمرِ الدِّين وفي أمرِ الجهاد، أتبَع ذلك بما يدخُلُ في الأمرِ والنَّهْيِ، والترغيبِ والتحذير، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾، وعلىٰ هذا التقديرِ، تكون هذه الآيةُ ابتداءَ كلامٍ، ولا تعلُّقَ لها بما قبلها. وقال

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٨٤، ٨٥).

القفَّالُ رحمه الله: يحتمِلُ أن يكونَ ذلك متصِلًا بما تقدَّم مِن جهةِ أنَّ المشركين إنَّما أنفَقوا علىٰ تلك العساكرِ أموالًا جمَعوها بسبب الرِّبا، فلعلَّ ذلك يَصِيرُ داعيًا للمسلمين إلىٰ الإقدام علىٰ الرِّبا حتىٰ يَجمَعوا المالَ ويُنفِقوه علىٰ العسكر، فيَتمكَّنون مِن الانتقامِ منهم؛ فلا جرَمَ نهاهم اللهُ عن ذلك(١).

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها ومجيئُها بَيْنَ أثناءِ القصَّة: أنَّه لمَّا نهىٰ المؤمنين عن اتخاذِ بطانةٍ مِن غيرِهم، واستطرَد لذِكْرِ قصَّة أُحُدٍ، وكان الكفارُ أكثَرُ معاملاتِهم بالرِّبا مع أمثالهم ومع المؤمنين، وهذه المعاملة مؤديةٌ إلىٰ مخالطةِ الكفار؛ نُهُوا عن هذه المعاملةِ -التي هي الرِّبا- قطعًا لمخالطةِ الكفارِ ومودَّتِهم، واتخاذِ أخِلَّاءَ منهم، لا سيَّما والمؤمنون في أولِ حالِ الإسلام ذَوُو إعسارٍ، والكفارُ مِن اليهودِ وغيرِهم ذَوُو يسارٍ. وكان أيضًا أكلُ الحرام له مَدخَلٌ عظيم في عدمِ قَبولِ الأعمالِ الصالحة والأدعية؛ كما جاء في الحديثِ: «أنَّ اللهَ تعالىٰ لا يستجيب لِمَن مَطعَمُه حرامٌ ومَشرَبُه حرامٌ إذا دعا»، «وإنَّ آكِلَ الحرام يقول إذا حَجَّ: لبَّيْكَ وسَعْدَيْك، فيقول اللهُ له: لا لَبَّيْكَ ولا سَعْدَيْكَ، وحَجُّك مردودٌ عليك»(٢)؛ فناسَب ذِكْرُ هذه الآيةِ هنا(٣).

كلامٌ مبتدأ مشتمِلٌ علىٰ ما هو مِلاكُ الأمر في كلِّ بابٍ، لا سيَّما في بابِ الجهاد مِن التقوىٰ والطاعةِ، وما بعدهما مِن الأمورِ المذكورة علىٰ نهجِ الترغيب والترهيب، جِيءَ به في تضاعيفِ القصَّةِ مسارَعةً إلىٰ إرشادِ المخاطَبين إلىٰ ما فيه، وإيذانًا بكمالِ وجوب المحافظة عليه فيما هم فيه مِن الجهاد؛ فإنَّ الأمورَ المذكورة فيه مع كونِها مناطًا للفوزِ في الدارين علىٰ الإطلاق عمدةٌ في أمرِ الجهادِ، عليها يدورُ فَلَكُ النُّصْرةِ

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٣٦٣).

(٢) أخرجه الطبراني في "الأوسط" (٥٢٢٨).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٣٣٩، ٣٤٠).

والغلَبةِ، كيف لا؟! ولو حافَظوا علىٰ الصبرِ والتقوىٰ وطاعةِ الرسول ﷺ، لَمَا لَقُوا ما لَقُوا، ولعلَّ إيرادَ النهيِ عن الربا في أثنائها لِما أنَّ الترغيبَ في الإنفاق في السَّراءِ والضَّراءِ الذي عُمْدتُهُ الإنفاقُ في سبيل الجهاد متضمِّنٌ للترغيبِ في تحصيل المال، فكان مَظِنَّةَ مبادَرةِ الناس إلىٰ طُرُقِ الاكتساب، ومِن جملتِها الرِّبا؛ فنُهُوا عن ذلك[1].

ولعلَّ الحِكْمةَ -والله أعلم- في إدخالِ هذه الآياتِ أثناء قصَّةِ أُحُدٍ: أنَّه قد تقدَّم أنَّ اللهَ تعالىٰ وعَد عبادَه المؤمنين أنَّهم إذا صبَروا واتَّقَوْا، نصَرهم علىٰ أعدائهم، وخذَّل الأعداءَ عنهم، فكأنَّ النفوسَ اشتاقت إلىٰ معرفةِ خصالِ التقوىٰ، التي يحصُلُ بها النَّصرُ والفلاح والسعادة، فذكَر اللهُ في هذه الآياتِ أهَمَّ خصالِ التقوىٰ التي إذا قام العبدُ بها، فقيامُه بغيرِها مِن بابِ أَوْلىٰ وأحرىٰ[2].

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

لمَّا كان الفائزُ بالمطالبِ قد لا يُوقَّىٰ المَعاطِبَ، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾[3].

قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ تحذيرٌ وتنفير مِن النار وما يوقِعُ فيها؛ بأنَّها مُعَدَّةٌ للكافرين، وإعدادُها للكافرين عَدْلٌ مِن الله تعالىٰ وحِكْمة؛ لأنَّ ترتُّبَ الأشياءِ علىٰ أمثالها مِن أكبرِ مظاهرِ الحكمة، ومَن أشرَكوا بالله مخلوقاتِه، فقد استحَقُّوا الحِرْمانَ مِن رحَماتِه، والمسلمون لا يَرضَوْنَ بمشاركةِ الكافرين؛ لأنَّ الإسلامَ الحَقّ يوجِبُ كراهيَةَ ما ينشأ عن الكفرِ، وذاك تعريضٌ واضح في الوعيدِ علىٰ أخذِ الرِّبا[4].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ٨٤).

(٢) تفسير السعدي (ص: ١٤٨).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٧٠).

(٤) التحرير والتنوير (٤/ ٨٨).

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

ولمَّا كان الفائزُ السالم قد لا يكون مقرَّبًا، قال إتباعًا للوعيدِ بالوعد: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[1].

لمَّا ذكَر النارَ في الآية السابقة، ناسَب هنا ذِكْرُ السبيلِ في النجاةِ منها، المتمثِّلةِ في طاعةِ الله ورسولِه ﷺ.

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

ولمَّا نهىٰ عمَّا منَع النَّصْرَ بالنَّهْيِ عن الرِّبا المرادِ بالنهيِ عنه الصَّرْفُ عن مطلَقِ الإقبال علىٰ الدنيا المشارِ إلىٰ ذَمِّها في قوله تعالىٰ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ ﴾ الآيةَ، وأمَر بما تضمَّنَ الفوزَ والنجاةَ والقُرْبَ، وكان ذلك قد يكونُ مع التواني؛ أمَر بالمسارَعةِ فيه توصُّلًا إلىٰ ما أُعِدَّ للذين اتَّقَوْا، الموعودين بالنصرِ المشروطِ بتَقْواهم وصَبْرِهم في قوله: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ ﴾، ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا ﴾، الموصوفين بما تقدَّم في قوله تعالىٰ - في المقصدِ الثالث مِن دعائمِ هذه السُّورةِ -: ﴿ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ ﴾ الآياتِ، علىٰ وجهٍ أبلَغَ مِن ذلك، بالمسارَعةِ إلىٰ ما يوجِبُ المغفرةَ مِن الربِّ اللطيفِ بعباده، وإلىٰ ما يبيحُ الجنَّةَ الموصوفة بالاجتهادِ في الجهاد، علىٰ ما يجدُ رسولُ الله ﷺ مِن التقوىٰ؛ فإنَّ هذه الجنَّةَ أُعِدَّتْ للمتَّقين الذين تقدَّمت الإشارةُ إليهم في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾، الذين

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٧٠).

يَتخلَّوْنَ عن الأموالِ وجميعِ مصانعِ الدنيا، فلا تَمتدُّ أعيُنُهم إلىٰ الازديادِ مِن شيء منها، ويَتحلَّوْنَ بالزُّهدِ فيها، والإنفاقِ لها في سبيل الله، في مرضاةِ رسول الله ﷺ، مِن الجهاد وغيرِه، في السَّراءِ والضَّراء، لا بالإقبالِ علىٰ الدنيا مِن غنيمةٍ أو غيرِها إقبالًا يُخِلُّ ببعضِ الأوامر، وبالصبرِ بكَظْمِ الغيظِ عمَّن أصيبَ منهم بقتلٍ أو جِراحة، والعفوِ عمَّن يحسُنُ العفوُ عنه في التمثيلِ بالقتل في أُحُدٍ، أو غيرِ ذلك؛ إرشادًا إلىٰ ألا يكونَ جهادُهم إلا غضَبًا لله تعالىٰ، لا مَدخَلَ فيه لِحَظٍّ مِن حظوظِ النفس أصلًا، وبالصبرِ أيضًا علىٰ حَمْلِ النفس علىٰ الإحسان إلىٰ مَن أساء بذلك، أو غيرِه؛ كما فعَل ﷺ في فتحِ مكَّةَ، بعد أن كان حلَف لَيُمَثِّلَنَّ بسبعين منهم مكانَ تمثيلِهم بسيِّدِ الشهداءِ[1]، أسدِ الله وأسدِ رسوله، عَمِّهِ حَمْزَةَ، ابنِ ساقي الحَجِيجِ عبد المطَّلِبِ، فإنَّه وقَف ﷺ في ذلك اليومِ، الذي كان أعظَمَ أيامِ الدنيا، الذي أُثبِتَ فيه نور الإسلام علىٰ مشرقِ الأرض ومغربِها، فهزَم ظلامَ الكفرِ، وضرَب أوتادَه في كلِّ قُطْرٍ، علىٰ درجِ الكعبةِ، وهم في قبضتِه، فقال: «ما تظُنُّون أنِّي فاعلٌ بكم يا معشرَ قُرَيشٍ؟»، قالوا: خيرًا، أخٌ كريم، وابنُ أخٍ كريم، قال: «اذهَبوا فأنتم الطُّلَقاءُ»[2]. وبالاستغفار عن عمَلِ الفاحشة مِن خِذْلانِ المؤمنين، أو أكلِ الربا، أو التولِّي عن قتالِ الأعداء، وعن ظُلْمِ النفس مِن محبَّةِ الدنيا، الموجِبِ للإقبال علىٰ الغنائمِ التي كانت سببَ الانهزامِ، أو غير ذلك ممَّا أراد اللهُ تعالىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[3].

---

(١) أخرجه الطبراني في "الكبير" (٢٩٣٧).

(٢) أخرجه ابن هشام في "السير" (٢/ ٤١٢).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٧٢).

تتنزَّلُ جملةُ ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ منزلةَ البيانِ، أو بدَلِ الاشتمال، لجملةِ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾؛ لأنَّ طاعةَ اللهِ والرسول مسارَعةٌ إلىٰ المغفرةِ والجنَّةِ؛ فلذلك فُصِلتْ، ولكونِ الأمر بالمسارعة إلىٰ المغفرة والجنَّةِ يؤُولُ إلىٰ الأمر بالأعمالِ الصالحة، جاز عطفُ الجملةِ علىٰ جملةِ الأمر بالطاعة(١).

لمَّا نادىٰ اللهُ تعالىٰ المؤمنين ناهيًا لهم عن أكلِ الرِّبا، آمرًا لهم بتَقْواه ﷻ، وباتقاءِ النار؛ وذلك بتَرْكِ الرِّبا وتركِ سائر المعاصي الموجِبةِ لعذاب الله تعالىٰ، ودعاهم إلىٰ طاعتِه وطاعةِ رسوله كي يُرحَموا في دنياهم وأخراهم؛ ناسَب أن يندُبَهم هنا إلىٰ ما فيه رَحْمتُهم؛ بالمبادرةِ إلىٰ فعلِ الخيرات، والمسارعةِ إلىٰ نَيْلِ القُربات.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾

ثم وصَف المتَّقين بما تضمَّن تفصيلَ الطاعةِ المأمورِ بها قبلُ إجمالًا، علىٰ وجهٍ معرِّفٍ بأسبابِ النصر، إلىٰ آخرِ ما قَصَّ مِن خبَرِ الأنبياء الماضين، ومَن معهم مِن المؤمنين، بادئًا بما هو أشَقُّ الأشياء، ولا سيَّما في ذلك الزمانِ؛ مِن التِّبْرِ، ومِن المال، الذي هو عديلُ الرُّوحِ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(٢).

أعقَبَ وَصْفَ الجنَّة بذِكرِ أهلها؛ لأنَّ ذلك ممَّا يَزيدُ التنويهَ به(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٨٨).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٧٣).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ٩٠).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ الجنَّةَ مُعَدَّةٌ للمتَّقِين، ذكَر صفاتِ المتَّقين حتىٰ يَتمكَّنَ الإنسانُ مِن اكتسابِ الجنَّة بواسطةِ اكتسابِ تلك الصفات[1].

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ ﴾

ولمَّا أخبَر أنَّها للمحسِنين إلىٰ الغيرِ، ومَن قارَبهم؛ أخبَر أنَّها لِمَن دُونَهم في الرُّتبةِ، مِن التائبين المحسِنين إلىٰ أنفسِهم؛ استجلابًا لِمَن رجَع عن أُحُدٍ مِن المنافِقين، ولغيرِهم مِن العاصِين، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[2].

إن كان عَطْفَ فريقٍ آخَرَ، فهم غيرُ المتَّقِين الكاملين، بل هم فريقٌ مِن المتَّقين خلَطوا عملًا صالحًا وآخَرَ سيئًا، وإن كان عَطْفَ صفاتٍ، فهو تفضيلٌ آخَرُ لحالِ المتَّقين؛ بأن ذكَر أولًا حالَ كمالِهم، وذكَر بعده حالَ تدارُكِهم نقائصَهم[3].

اعلَمْ أنَّ وجهَ النَّظْمِ مِن وجهين: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا وصَف الجنَّةَ بأنَّها مُعَدَّةٌ للمتَّقِين، بيَّن أنَّ المتَّقين قسمان: أحدهما: الذين أقبَلوا علىٰ الطاعاتِ والعبادات، وهم الذين وصَفهم اللهُ بالإنفاق في السَّراء والضَّراء، وكَظْمِ الغيظِ، والعفوِ عن الناس. وثانيهما: الذين أذنَبوا ثم تابوا، وهو المرادُ بقولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً ﴾، وبيَّن تعالىٰ أنَّ هذه الفِرْقةَ كالفرقةِ الأُولىٰ في كونِها متَّقِيَةً؛ وذلك

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٣٦٦).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٧٤).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ٩٢).

لأنَّ المُذنِبَ إذا تاب عن الذَّنْبِ، صار حالُه كحالِ مَن لم يُذنِبْ قطُّ في استحقاقِ المنزلة والكرامة عند الله. والوجه الثاني: أنَّه تعالىٰ ندَب في الآيةِ الأُولىٰ إلىٰ الإحسانِ إلىٰ الغير، وندَب في هذه الآيةِ إلىٰ الإحسان إلىٰ النفس؛ فإنَّ المُذنِبَ العاصيَ إذا تاب، كانت تلك التوبةُ إحسانًا منه إلىٰ نفسِه[1].

ثم ذكَر اعتذارَهم لربِّهم مِن جناياتِهم وذُنوبِهم، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[2].

﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

لمَّا أتَمَّ وَصْفَ السابقين -وهم المتَّقون- واللاحِقين -وهم التائبون-؛ قال -مُعلِمًا بجزائهم الذي سارَعوا إليه مِن المغفرةِ والجنَّة، مشيرًا إليهم بأداة البُعْدِ؛ تعظيمًا لشأنهم، علىٰ وجهٍ مُعلِمٍ بأنَّ أحدًا لا يقدُرُ الله حقَّ قَدْرِه -: ﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾[3].

استئنافٌ للتنويهِ بسَدَادِ عملِهم؛ مِن الاستغفارِ، وقَبولِ الله منهم، وجِيءَ باسمِ الإشارة لإفادة أنَّ المشارَ إليهم صاروا أَحْرِياءَ بالحُكْمِ الوارد بعد اسمِ الإشارة؛ لأجلِ تلك الأوصافِ التي استوجَبوا الإشارةَ لأجلِها[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٣٦٨).

(٢) تفسير السعدي (ص: ١٤٩).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٧٥).

(٤) التحرير والتنوير (٤/ ٩٥).

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) ﴾

لمَّا فرَغ مِن بيانِ الزَّلَلِ الذي وقَع لهم به الخَلَلُ، والترهيبِ ممَّا يوقِعُ فيه، والترغيبِ فيما ينجي منه في تلك الأساليبِ، التي هي أحلىٰ مِن رائقِ الزُّلال، ولذيذِ الوِصال، بعد طُولِ المَطال؛ أخَذ يشجِّعُهم علىٰ الجهادِ لذَوِي الفساد؛ فبدأ بالسببِ الأقوىٰ؛ وهو الأمرُ بمشاهَدةِ مَصارِعِ مَن مضىٰ مِن المكذِّبين؛ برؤيةِ ديارهم، وتتبُّعِ آثارهم، مع أنَّهم كانوا أشَدَّ خَلْقًا، وأقوىٰ هِمَمًا، وأكثَرَ عَدَدًا، وأحكَمَ عُدَدًا، فقال تعالىٰ معلِّلًا للأمرِ بالمسارعة إلىٰ المغفرة: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾(١).

استئنافٌ ابتدائي، تمهيدٌ لإعادةِ الكلام علىٰ ما كان يومَ أُحُدٍ، وما بينهما استطرادٌ؛ كما عَلِمتَ آنفًا، وهذا مقدِّمةُ التسليةِ والبِشارة الآتيتَيْنِ، ابتُدئت هاته المقدِّمةُ بحقيقةٍ تاريخية؛ وهي: الاعتبارُ بأحوالِ الأُمَم الماضية، وجِيءَ بـ﴿ قَدْ ﴾ الدالَّةِ علىٰ تأكيدِ الخبر؛ تنزيلًا لهم منزلةَ مَن يُنكِرُ ذلك؛ لِما ظهَر عليهم مِن انكسار الخواطر مِن جرَّاءِ الهزيمة الحاصلة لهم مِن المشركين، مع أنَّهم يقاتِلون لنَصْرِ دِينِ الله، وبعد أن ذاقوا حلاوةَ النَّصْرِ يوم بَدْرٍ، فبيَّن اللهُ لهم أنَّ اللهَ جعَل سُنَّةَ هذا العالَمِ أن تكونَ الأحوالُ فيه سِجالًا ومُداوَلة، وذكَّرهم بأحوال الأُمَم الماضية، واللهُ قادرٌ علىٰ نصرِهم، ولكنِ الحِكْمةُ اقتضت ذلك؛ لئلا يَغتَرَّ مَن يأتي بعدهم مِن المسلمين، فيَحسَبَ أنَّ النَّصْرَ حليفُهم(٢).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٧٦).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٩٥).

لمَّا وعَد علىٰ الطاعةِ والتوبة مِن المعصيةِ الغفرانَ والجنَّاتِ، أتبَعه بذِكْرِ ما يَحمِلُهم علىٰ فعلِ الطاعة، وعلىٰ التوبةِ مِن المعصية؛ وهو تأمُّلُ أحوالِ القرون الخالية مِن المُطيعين والعاصين، فقال: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1].

ولمَّا ذكَر تعالىٰ الجُمَلَ المعترضة في قصَّةِ أُحُدٍ، عاد إلىٰ إكمالها، فخاطَبهم بأنَّه إن وقَعتْ إدالةُ الكفار، فالعاقبةُ للمؤمنين[2].

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

لمَّا تكفَّلتْ هذه الجُمَلُ بالهدايةِ إلىٰ سعادة الدارينِ، نبَّه علىٰ ذلك ﷻ بقولِه علىٰ طريقِ الاستفتاح: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3].

تذييلٌ يعُمُّ المخاطَبين الحاضرين، ومَن يجيءُ بعدهم مِن الأجيالِ، والإشارةُ إمَّا إلىٰ ما تقدَّم بتأويلِ المذكور، وإمَّا إلىٰ حاضرٍ في الذهنِ عند تلاوةِ الآية؛ وهو القرآنُ[4].

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

لمَّا أمَرهم بالمسارعة، وأتبَعها عِلَّتَها ونتيجتها؛ نهاهم عمَّا يعُوقُ عنها مِن قِبَلِ الوَهْنِ الذي عرَض لهم عند رؤيتِهم الموت، فقال - ويجوز أن يُعطَفَ علىٰ ما تقديره: فتبيَّنوا، واهتَدُوا، واتعِظُّوا إن كنتم متَّقِين، وانظُروا أخْذَنا لِمَن كان قبلكم مِن أهل

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٣٦٩).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٣٥١).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٧٧).

(٤) التحرير والتنوير (٤/ ٩٧).

الباطل، وإن كان لهم دُوَلٌ وصَوْلاتٌ، ومَكْرٌ وحِيَلٌ -: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

اعلَمْ أنَّ الذي قدَّمه مِن قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾، وقولِه: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ كالمقدِّمة لقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾؛ كأنَّه قال: إذا بحَثْتم عن أحوالِ القرون الماضية، عَلِمتم أنَّ أهلَ الباطل وإن اتفقتْ لهم الصَّوْلةُ، لكن كان مآلُ الأمر إلى الضَّعْفِ والفتور، وصارت دولةُ أهلِ الحقِّ عاليةً، وصولةُ أهلِ الباطل مندرِسةً؛ فلا ينبغي أن تَصِيرَ صَوْلةُ الكفارِ عليكم يومَ أُحُدٍ سببًا لضَعْفِ قلبِكم، ولجُبْنِكم، وعَجْزِكم؛ بل يجب أن يَقوىٰ قلبُكم؛ فإنَّ الاستعلاءَ سيحصُلُ لكم، والقوةَ والدولةَ راجعةٌ إليكم(٢).

ثم شجَّع قلوبَ المؤمنين وسلَّاهم عمَّا أصابهم بقولِه: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٣).

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

لمَّا نهاهم عمَّا تقدَّم وبشَّرهم، سلَّاهم وبصَّرهم بقولِه: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٧٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٣٧١).

(٣) محاسن التأويل (٢/ ٤١٦).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٧٨).

تسليةٌ عمَّا أصاب المسلمين يومَ أُحُدٍ مِن الهزيمة؛ بأنَّ ذلك غيرُ عجيبٍ في الحرب؛ إذ لا يخلو جيشٌ مِن أن يُغلَبَ في بعضِ مواقعِ الحرب، وقد سبَق أنَّ العدوَّ غُلِب، والمَسُّ هنا الإصابةُ[1].

اعلَمْ أنَّ هذا مِن تمام قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾، فبيَّن تعالىٰ أنَّ الذي يُصِيبُهم مِن القَرْحِ لا يجبُ أن يُزِيلَ جِدَّهم واجتهادهم في جهادِ العدوِّ؛ وذلك لأنَّه كما أصابهم ذلك، فقد أصاب عدوَّهم مثلُه قَبْلَ ذلك، فإذا كانوا مع باطِلِهم وسُوءِ عاقبتِهم لم يفترُوا لأجل ذلك في الحربِ، فبأن لا يَلحَقَكم الفتورُ مع حُسْنِ العاقبة والتمسُّكِ بالحقِّ أَوْلىٰ[2].

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾

لمَّا قدَّم التنفيرَ مِن الظُّلْم دلالةً علىٰ الاهتمام به، أكمَلَ ثمراتِ المداوَلة بقولِه: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3].

وبعد أن سلَّاهم بما حصَل لهم مِن الهزيمة، ناسَب أن يبيِّنَ لهم الحِكْمةَ مِن هذه الهزيمةِ.

أنَّ اللهَ تعالىٰ جعَل الأيامَ مُداوَلةً بَيْنَ المسلمين والكافرين؛ كما بيَّن في الآية السابقة، فإن حصَلتِ الغلَبةُ للكافرين علىٰ المؤمنين، كان المرادُ تمحيصَ ذُنوبِ المؤمنين، وإن كانت الغلَبةُ للمؤمنين علىٰ هؤلاء الكافرين، كان المرادُ مَحْقَ آثارِ الكافرين ومَحْوَهم؛ فقابَل تمحيصَ المؤمنين بمَحْقِ الكافرين؛ لأنَّ تمحيصَ هؤلاء بإهلاكِ ذُنوبِهم نظيرُ مَحْقِ أولئك بإهلاكِ أنفسهم، وهذه مقابَلةٌ لطيفة في المعنىٰ[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٩٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٣٧١).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٨٠).

(٤) مفاتيح الغيب (٩/ ٣٧٤-٣٧٥).

ثم ذكَر حِكْمةً أخرىٰ فيما أصابهم ذلك اليومَ بقولِه: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(١).

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾

ولمَّا كان السياقُ يرشِدُ إلىٰ أنَّ المعنىٰ: أحَسِبْتم أنَّه لا يَفعَلُ ذلك؟، عادَله بقولِه: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٢).

﴿أَمۡ﴾ هنا منقطِعةٌ؛ هي بمعنىٰ «بل» الانتقاليةِ؛ لأنَّ هذا الكلامَ انتقالٌ مِن غرضٍ إلىٰ آخَرَ، وهي إذا استُعملت منقطِعةً تؤذِنُ بأنَّ ما بعدها استفهامٌ؛ لملازَمتِها للاستفهام، حتىٰ قال الزَّمَخْشَريُّ والمحقِّقون: إنَّها لا تفارِقُ الدَّلالةَ علىٰ الاستفهام بعدها، وقال غيرُه: ذلك هو الغالبُ، وقد تفارِقُه، واستشهَدوا علىٰ مفارَقتِها للاستفهام بشواهدَ تَقبَلُ التأويلَ. فقولُه: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾ عَطْفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾؛ وذلك أنَّهم لمَّا مَسَّهم القَرْحُ فحَزِنوا واعتراهم الوَهْنُ حيث لم يشاهِدُوا مثلَ النَّصْرِ الذي شاهَدوه يومَ بَدْرٍ، بيَّن اللهُ أن لا وَجْهَ للوَهْنِ؛ للعِلَلِ التي تقدَّمت، ثم بيَّن لهم هنا: أنَّ دخولَ الجنَّة الذي هو مرغوبُهم لا يحصُلُ إذا لم يبذُلوا نفوسَهم في نصرِ الدِّين، فإذا حَسِبوا دخولَ الجنَّة يحصُلُ دُونَ ذلك، فقد أخطَؤوا(٣).

كلامٌ مستأنَف سِيقَ لبيانِ ما هي الغايةُ القصوىٰ مِن المُداوَلةِ والنتيجةِ لِما ذُكِر مِن تمييزِ المخلِصين، وتمحيصِهم، واتخاذِ الشهداء، وإظهارِ عِزَّةِ مَنالِها، والخطابُ

(١) محاسن التأويل (٢/ ٤١٩).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٨١).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ١٠٥).

للـذين انهزَمـوا يـومَ أُحُـدٍ، و﴿ أَمْ ﴾ منقطِعةٌ، ومـا فيهـا مِـن كلمـةِ «بـل» للإضـرابِ عـن التسـلية ببيـانِ العِلَـلِ فيمـا لَقُـوا مِـن الشِّـدةِ إلىٰ تحقيـق أنَّهـا مِـن مَبـادي الفـوزِ بالمطلبِ الأسنىٰ[١].

لمَّا بيَّن في الآيةِ الأُولىٰ الوجوهَ التي هي الموجِبات والمؤثِّرات في مداوَلـةِ الأيام، ذكَر في هذه الآيةِ ما هو السببُ الأصليُّ لذلك، فقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ بدُونِ تحمُّلِ المَشاقِّ؟[٢].

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

ولمَّا أرشَد السياقُ إلىٰ أنَّ التقديرَ: فلقد كنتم تقولون: لئن خرَجْتَ بنا، ليبتَلِيَنَّنا الله بلاءً حسَنًا؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[٣].

كلامٌ أُلقِيَ إليهم بإجمالٍ بالغٍ غايةَ الإيجاز؛ ليكونَ جامعًا بَيْنَ الموعظةِ والمعذرة والمَلام، والواوُ عاطفةٌ أو حاليَّة، والخطابُ للأحياءِ -لا محالةَ- الـذين لـم يـذُوقُوا المـوتَ، ولم يَنالوا الشَّهادة، والذين كان حَظُّهم في ذلك اليومِ هو الهزيمـةَ؛ فقولُـه: ﴿ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ ﴾ أريدَ به تَمنِّي لقاءِ العدوِّ يومَ أُحُدٍ، وعدمُ رضاهم بأن يَتحصَّنوا بالمدينـةِ، ويَقِفـوا موقـفَ الـدفاع؛ كمـا أشـار بـه الرسـولُ ﷺ[٤]، ولكنهم أظهَـروا الشجاعةَ وحُبَّ اللقاء، ولو كان فيه الموتُ، نظرًا لقوَّةِ العدوِّ وكثرتِه[٥].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ٩١).

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٣٧٥).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٨١).

(٤) أخرجه النسائي في "الكبرىٰ" (٧٦٠٠).

(٥) التحرير والتنوير (٤/ ١٠٧).

ثم وبَّخهم تعالىٰ علىٰ عدمِ صبرِهم بأمرٍ كانوا يَتمنَّوْنَه ويَوَدُّون حصولَه، فقال: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ ﴾؛ وذلك أنَّ كثيرًا مِن الصحابةِ رضي الله عنهم ممَّن فاتَهُ بَدْرٌ يَتمنَّوْنَ أن يُحضِرَهم اللهُ مشهدًا يبذُلون فيه جُهْدَهم؛ قال الله تعالىٰ لهم: ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ ﴾؛ أي: رأيتم ما تمنَّيْتم بأعيُنِكم ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾، فما بالُكم وتَرْكَ الصَّبْرِ؟!(١).

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

لمَّا كان التقديرُ: فانهزمتم عندما صرَخ الشيطانُ كذبًا: ألَا إنَّ محمَّدًا قد قُتِل! ولم يكُنْ لكم ذلك؛ فإنَّكم إنَّما تعبُدون رَبَّ محمَّدٍ الحيَّ القيُّوم، وتقاتِلون له، وأمَّا محمَّدٌ، فما هو بخالدٍ لكم في الدنيا؛ قال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾(٢).

عُطِف الإنكارُ علىٰ المَلامِ المتقدِّم في قوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾، وقولِه: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ ﴾، وكلُّ هاتِهِ الجُمَلِ تَرجِعُ إلىٰ العتابِ والتقريع علىٰ أحوالٍ كثيرة، كانت سببَ الهزيمة يومَ أُحُدٍ، فيأخذ كلُّ مَن حضَر الوَقْعةَ مِن هذا المَلامِ بنصيبِه المناسِب لِما يَعلَمُه مِن حاله، ظاهرًا كان أم باطنًا، والآيةُ تُشيرُ إلىٰ ما كان مِن المسلمين مِن الاضطراب حين أُرجِفَ بموتِ الرسول ﷺ، فقال المنافقون: لو كان نبيًّا ما قُتِل؛ فارجِعوا إلىٰ دِينِكم القديمِ، وإخوانِكم مِن أهل مكَّةَ، ونكلِّمُ عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ يأخذُ لنا أمانًا مِن أبي سفيانَ،

(١) تفسير السعدي (ص: ١٥٠).
(٢) نظم الدرر (٥/ ٨٢).

فهمُّوا بتَرْكِ القتال والانضمامِ للمشركين، وثبَت فريقٌ مِن المسلمين؛ منهم: أنَسُ بن النَّضْرِ الأنصاريُّ، فقال: «إن كان قُتِل محمَّدٌ، فإنَّ رَبَّ محمَّدٍ حيٌّ لا يموت، وما تصنعون بالحياةِ بعده؟! فقاتِلوا على ما قاتَل عليه»[(١)][(٢)].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥﴾

ولمَّا كان موتُ الرأسِ مِن أنصار الدِّين لا يصلُحُ أن يكونَ سببًا للفرار إلا إذا كان موتُهُ بغيرِ إذن صاحبِ الدِّين، وكان الفرارُ لا يصلُحُ إلا إذا كان يمكِنُ أن يكونَ سببًا للنجاة، وأمَّا إذا كان موتُه لا يكون إلا بإرادةِ رَبِّ الدِّين، والفرارُ لا يكون سببًا في زيادةِ الأجلِ ولا نَقْصِه؛ أشار إلى ذلك بقولِه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[(٣)].

جملةٌ معترِضة، والواوُ اعتراضيةٌ؛ فإن كانت مِن تتمَّةِ الإنكارِ على هَلَعِهم عند ظنِّ موتِ الرسول ﷺ، فالمقصودُ عمومُ الأنفس، لا خصوصُ نفسِ الرسول ﷺ، وتكونُ الآية لومًا للمسلمين على ذهولِهم عن حفظِ اللهِ رسولَه ﷺ مِن أن يُسلَّطَ عليه أعداؤه، ومِن أن يُخترَمَ عُمُرُه قبل تبليغِ الرسالة؛ فقد ضَمِن اللهُ له الحياةَ حتى يبلِّغَ شَرْعَه، ويُتِمَّ مرادَه، فكيف يظُنُّون قَتْلَه بيدِ أعدائه؟! وإن كان هذا إنكارًا مستأنَفًا على الذين فَزِعوا عند الهزيمةِ وخافوا الموتَ، فالعمومُ في النفس مقصودٌ؛ أي: ما كان ينبغي لكم الخوفُ وقد عَلِمتم أنَّ لكلِّ نفسٍ أجَلًا[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن جرير في "التفسير" (٦/ ٩٩).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ١٠٤، ١٠٥).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٨٤).

(٤) التحرير والتنوير (٤/ ١١٣، ١١٤).

في كيفيَّةِ تعلُّقِ هذه الآيةِ بما قبله وجوهٌ: الأول: أنَّ المنافِقين أرجَفوا أنَّ محمَّدًا ﷺ قد قُتِل؛ فاللهُ تعالىٰ يقول: إنَّه لا تموتُ نفسٌ إلا بإذنِ الله وقضائه وقَدَرِه، فكان قَتْلُه مثلَ موتِه في أنَّه لا يحصُلُ إلا في الوقتِ المقدَّر المعيَّن، فكما أنَّه لو مات في دارِه لم يدُلَّ ذلك علىٰ فسادِ دِينِه، فكذا إذا قُتِل؛ وجَب ألا يؤثِّرَ ذلك في فسادِ دِينِه، والمقصودُ منه إبطالُ قولِ المنافِقين لضَعَفةِ المسلمين: إنَّه لمَّا قُتِل محمَّدٌ، فارجِعوا إلىٰ ما كنتم عليه مِن الأديان. الثاني: أن يكونَ المرادُ تحريضَ المسلمين علىٰ الجهاد بإعلامِهم أنَّ الحذَرَ لا يَدفَعُ القَدَرَ، وأنَّ أحدًا لا يموتُ قبل الأجلِ، وإذا جاء الأجلُ، لا يندفعُ الموت بشيءٍ؛ فلا فائدةَ في الجُبْنِ والخوف. والثالث: أن يكونَ المرادُ حِفْظَ اللهِ للرسول ﷺ، وتخليصَه مِن تلك المعركةِ المَخُوفةِ؛ فإنَّ تلك الواقعةَ ما بَقِيَ سببٌ مِن أسباب الهلاك إلا وقد حصَل فيها، ولكن لمَّا كان اللهُ تعالىٰ حافظًا وناصرًا، ما ضَرَّه شيءٌ مِن ذلك، وفيه تنبيهٌ علىٰ أنَّ أصحابَه قصَّروا في الذبِّ عنه. والرابع: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ فليس في إرجافِ مَن أرجَف بموتِ النبي ﷺ ما يحقِّقُ ذلك فيه، أو يُعِينُ في تقويةِ الكفر، بل يُبقِيه اللهُ إلىٰ أن يَظهَرَ علىٰ الدِّين كلِّه. الخامس: أنَّ المقصودَ منه الجوابُ عمَّا قاله المنافقون؛ فإنَّ الصحابةَ لمَّا رجَعوا وقد قُتِل منهم مَن قُتِل، قالوا: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتِلوا؛ فأخبَر اللهُ تعالىٰ أنَّ الموتَ والقتل كلاهما لا يكونان إلا بإذنِ الله، وحضورِ الأجل، واللهُ أعلم بالصواب(١).

استئنافٌ سِيقَ للحضِّ علىٰ الجهاد، واللَّوْمِ علىٰ تَرْكِه خشيةَ القتل، مع قَطْعِ عُذْرِ المنهزِمين خشيةَ ذلك بالكليةِ، ويجوز أن يكونَ تسليةً عمَّا لَحِقَ الناسَ بموت

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٣٧٨).

النبي ﷺ، وإشارةً إلىٰ أنَّه ﷺ كغيرِه لا يموتُ إلا بإذنِ الله تعالىٰ؛ فلا عُذْرَ لأحدٍ بتَرْكِ دِينِه بعد موته[(١)].

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ١٤٦﴾

لمَّا ذكَر ﷻ هذه الجُمَلَ علىٰ هذا الوجهِ الذي بيَّن فيه العِلَل، وأوضَح بحال الزَّلَل، وكان التقديرُ بعد انقضائها: فكأيِّنْ مِن قومٍ أمرناهم بالجهاد، فكانوا علىٰ هذين القِسمَينِ؛ فأثَبْنا الطائعَ، وعذَّبْنا العاصيَ، ولم يضُرَّنا ذلك شيئًا، ولا جرىٰ شيءٌ منه علىٰ غيرِ مرادنا؛ عطَف عليه -يُؤَسِّيهم[(٢)] بطريق الصالحين مِن قَبْلِهم، ويسلِّيهم بأحوالهم- قولَه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[(٣)].

عطفٌ علىٰ قوله: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ الآيةَ، وما بينهما اعتراضٌ، وهو عطفُ العِبْرةِ علىٰ الموعظة؛ فإنَّ قوله: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ موعظةٌ لِمَن يهُمُّ بالانقلاب، وقولُه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ﴾ عِبْرةٌ بما سلَف مِن صَبْرِ أتباع الرُّسل والأنبياء عند إصابةِ أنبيائهم أو قَتْلِهم، في حربٍ أو غيرِه، لمماثَلةِ الحالَينِ؛ فالكلامُ تعريضٌ بتشبيهِ حالِ أصحابِ أُحُدٍ بحالِ أصحاب الأنبياء السالفين؛ لأنَّ محَلَّ المثَلِ ليس هو خصوصَ الانهزام في الحرب، بل ذلك هو الممثَّل. وأمَّا التشبيهُ، فهو بصَبْرِ الأتباع عند حلولِ المصائب، أو موتِ المتبوع[(٤)].

---

(١) روح المعاني (٢/ ٢٨٩).

(٢) من الأسوة، وهي القدوة.

(٣) نظم الدرر (٥/ ٨٥).

(٤) التحرير والتنوير (٤/ ١١٦).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ مِن تمامِ تأديبه قال للمنهزِمين يومَ أُحُدٍ: إنَّ لكم بالأنبياء المتقدِّمين وأتباعِهم أُسْوةً حسنة، فلمَّا كانت طريقةُ أتباعِ الأنبياء المتقدِّمين الصَّبْرَ علىٰ الجهادِ وتَرْكَ الفرار، فكيف يَلِيقُ بكم هذا الفرارُ والانهزام؟! [١].

لمَّا كان مِن المؤمنين ما كان يومَ أُحُدٍ، وعتَب عليهم اللهُ ما صدَر منهم في الآياتِ التي تقدَّمت؛ أخبَرهم بأنَّ الأُمَمَ السالفة قُتِلتْ أنبياءُ لهم كثيرون، أو قُتِل رِبِّيُّون كثيرٌ معهم؛ فلم يَلحَقْهم ما لَحِقَكم مِن الوَهْنِ والضَّعْفِ، ولا ثَنَاهم [٢] عن القتال فَجْعُهم بقَتْلِ أنبيائهم، أو قتلِ رِبِّيِّيهم، بل مضَوْا قُدُمًا في نُصْرةِ دِينِهم صابرين علىٰ ما حَلَّ بهم، وقتلُ نبيٍّ أو أتباعِه مِن أعظَمِ المصاب، فكذلك كان ينبغي لكم التأسِّي بمَن مضىٰ مِن صالحي الأُمَمِ السابقة؛ هذا وأنتم خيرُ الأُمَم، ونبيُّكم خيرُ الأنبياء [٣].

ثم نعَىٰ عليهم تقصيرَهم وسُوءَ صنيعِهم في صدودِهم عن سَنَنِ الرَّبانيِّين المجاهِدِين في سبيل الله مع الرُّسلِ الخاليةِ عليهم السلام بقولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [٤].

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

لمَّا أثنىٰ سبحانه وتعالى علىٰ فِعْلِهم، أتبعه بقولِهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [٥].

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٣٨٠).

(٢) أي: صدَّهم أو منعهم.

(٣) البحر المحيط (٣/ ٣٦٨).

(٤) محاسن التأويل (٢/ ٤٢٤).

(٥) نظم الدرر (٥/ ٨٧).

قولُه تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ الآيـةَ، عَطْفٌ علىٰ ﴿ فَمَا وَهَنُواْ ﴾؛ لأنَّه لمَّا وصَفهم برِباطةِ الجَأْشِ وثباتِ القلب، وصَفهم بعد ذلك بما يدلُّ علىٰ الثَّباتِ مِن أقوال اللسانِ التي تَجري عليه عند الاضطرابِ والجَزَعِ؛ أي إنَّ ما أصابهم لم يخالِجْهم بسببِه تردُّدٌ في صِدْقِ وعدِ الله، ولا بدَر منهم تذمُّرٌ؛ بل عَلِموا أنَّ ذلك لحِكْمةٍ يَعلَمُها سبحانه، أو لعلَّه كان جزاءً علىٰ تقصيرٍ منهم في القيام بواجبِ نَصْرِ دِينه، أو في الوفاء بأمانة التكليف؛ فلذلك ابتهَلوا إليه عند نزول المصيبة بقولِهم: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا ﴾؛ خشيةَ أن يكونَ ما أصابهم جزاءً علىٰ ما فرَطَ منهم، ثم سألوه النَّصْرَ وأسبابَه ثانيًا، فقالوا: ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، فلم يصُدَّهم ما لَحِقَهم مِن الهزيمةِ عن رجاء النصر [1].

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ ﴾ كلامٌ مبيِّنٌ لمحاسنِهم القوليَّةِ، معطوفٌ علىٰ ما قبله مِن الجُمَلِ المبيِّنةِ لمحاسنِهم الفعلية؛ فهو كالتتميم والمبالغة في صلابتِهم في الدِّين، وعدمِ تطرُّقِ الوهنِ والضَّعْفِ إليهم بالكلية [2].

لمَّا عَلِم القومُ أنَّ العدوَّ إنَّما يُدالُ [3] عليهم بذُنوبِهم، وأنَّ الشيطانَ إنَّما يَستزلُّهم ويَهزِمهم بها، وأنَّها نوعانِ: تقصيرٌ في حقٍّ، أو تجاوُزٌ لحدٍّ، وأنَّ النَّصْرَ منُوطٌ بالطاعة؛ قالوا: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا ﴾، ثم عَلِموا أنَّ ربَّهم ﷻ إن لم يثبِّتْ أقدامَهم وينصُرْهم لم يَقدِروا علىٰ تثبيتِ أقدام أنفسهم، ونَصْرِها علىٰ أعدائهم، فسألوه ما يَعلَمون أنَّه بيدِه دُونَهم، وأنَّه إن لم يثبِّتْ أقدامَهم وينصُرْهم، لم

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١١٩).

(٢) روح المعاني (٢/ ٢٩٧).

(٣) أي: يُنصَر.

يثبُتوا ولم ينتصروا، فوفَّوُا المَقامَين حقَّهما: مقامَ المقتضِي؛ وهو التوحيدُ، والالتجاء إليه سبحانه. ومَقامَ إزالةِ المانع مِن النُّصرة؛ وهو الذُّنوبُ والإسراف[١].

﴿فَآتَاهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

فلمَّا تمَّ الثناءُ على فِعْلِهم وقولهم، ذكَر ما سبَّبه لهم ذلك مِن الجزاء، فقال: ﴿فَآتَاهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

قولُه: ﴿فَآتَاهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾ إعلامٌ بتعجيلِ إجابة دَعْوتِهم لحصول خَيْرَيِ الدنيا والآخرة؛ فثوابُ الدنيا هو الفتحُ والغنيمة، وثوابُ الآخرة هو ما كتَب لهم حينئذٍ مِن حُسْنِ عاقبةِ الآخرة؛ ولذلك وصَفه بقولِه: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾؛ لأنَّه خيرٌ وأبقى[٣].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا شرَح طريقةَ الرِّبِّيِّينَ في الصَّبْرِ، وطريقتَهم في الدعاء؛ ذكَر أيضًا ما ضَمِن لهم في مقابَلةِ ذلك في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿فَآتَاهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾[٤].

ولمَّا تقدَّم في دعائهم ما يَتضمَّن الإجابة فيه الثوابَينِ، وهو قولُهم: ﴿ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾؛ فهذا يَتضمَّنُ ثوابَ الآخرة، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا﴾ يَتضمَّن ثوابَ الدنيا؛ أخبَر تعالى أنَّه منَحهم الثوابَينِ، وهناك بدؤوا في الطلبِ بالأهمِّ عندهم،

(١) محاسن التأويل (٢/ ٤٢٥).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٨٨).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ١٢١).

(٤) مفاتيح الغيب (٩/ ٣٨٢).

وهو ما ينشأ عنه ثوابُ الآخرة، وهنا أخبَر بما أعطاهم مقدَّمًا. ذكَر ثوابَ الدنيا ليكونَ ذلك إشعارًا لهم بقَبولِ دعائهم، وإجابتِهم إلىٰ طلَبِهم، ولأنَّ ذلك في الزمانِ متقدِّمٌ علىٰ ثوابِ الآخرة(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩﴾

لمَّا أمَر سبحانه وتعالى بطاعته الموجِبةِ للنصر والأجر وختَم بمحبَّتِه للمحسِنين، حذَّر مِن طاعةِ الكافرين المقتضِيَة للخِذْلانِ رغبةً في موالاتهم ومناصرتِهم، فقال تعالىٰ واصلًا بالنداءِ في آية الرِّبا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾(٢).

استئنافٌ ابتدائي للانتقال مِن التوبيخِ واللَّوم والعتابِ إلىٰ التحذير؛ ليَتوسَّلَ منه إلىٰ مُعاوَدةِ التسليةِ علىٰ ما حصَل مِن الهزيمة، وفي ضِمْنِ ذلك كلِّه مِن الحقائقِ الحُكْمية والمواعظِ الأخلاقية والعِبَرِ التاريخية ما لا يُحصِيه مريدُ إحصائه(٣).

اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ مِن تمامِ الكلام الأول؛ وذلك لأنَّ الكفارَ لمَّا أرجَفوا أنَّ النبيَّ ﷺ قد قُتِل، ودعا المنافقون بعضَ ضَعَفةِ المسلمين إلىٰ الكفرِ؛ منَع اللهُ المسلمين بهذه الآيةِ عن الالتفات إلىٰ كلامِ أولئك المنافِقين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾(٤).

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٣٧٤).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٩٠).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ١٢١).

(٤) مفاتيح الغيب (٩/ ٣٨٣).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ شروعٌ في زَجْرِهم عن متابَعةِ الكفار ببيانِ استتباعِها لخسرانِ الدنيا والآخرة، إثرَ ترغيبِهم في الاقتداء بأنصارِ الأنبياء عليهم السلام ببيانِ إفضائه إلىٰ فَوْزِهم بسعادة الدارينِ، وتصديرُ الخطابِ بالنداء والتنبيه لإظهارِ الاعتناء بما في حيِّزِه، ووصفُهم بالإيمانِ لتذكيرِ حالهم وتثبيتِهم عليها بإظهارِ مبايَنتِها لحالِ أعدائهم، كما أنَّ وَصْفَ المنافِقين بالكفر في قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لذلك قصدًا إلىٰ مَزيدِ التنفير عنهم، والتحذيرِ عن طاعتهم[(١)].

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾

لمَّا كان التقديرُ: فلا تُطيعوهم؛ إنَّهم ليسوا صالحين للوَلايةِ مطلقًا ما دُمْتم مؤمنين؛ عطَف عليه قولَه: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾[(٢)].

قولُه: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ إضرابٌ لإبطالِ ما تضمَّنه ما قبله؛ لأنَّ الطاعةَ هي مِن قبيلِ الموالاةِ والحِلْفِ؛ فناسَب إبطالُها بالتذكيرِ بأنَّ مَوْلىٰ المؤمنين هو اللهُ تعالىٰ[(٣)].

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ إضرابٌ عمَّا يُفهَم مِن مضمونِ الشَّرْطية، كأنَّه قيل: فليسوا أنصارَكم حتىٰ تُطِيعوهم؛ بل اللهُ ناصرُكم، لا غيرُه؛ فأطيعوه، واستَغنُوا به عن موالاتِهم[(٤)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ٩٧).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٩١).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ١٢٢).

(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ٩٨).

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١ ﴾

ثم قرَّر ذلك بقولِه - محقِّقًا للوعدِ -: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[(١)].

رجوعٌ إلىٰ تسليةِ المؤمنين، وتطمينِهم، ووعدِهم بالنصر علىٰ العدوِّ[(٢)].

اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ مِن تمامِ ما تقدَّم ذِكْرُه؛ فإنَّه تعالىٰ ذكَر وجوهًا كثيرةً في الترغيبِ في الجهاد، وعدمِ المبالاة بالكفار، ومِن جملتِها ما ذكَر في هذه الآيةِ: أنَّه تعالىٰ يُلقِي الخوفَ في قلوبِ الكفار، ولا شكَّ أنَّ ذلك ممَّا يوجِبُ استيلاءَ المسلمين عليهم[(٣)].

وفي ضِمْنِ ذلك الحثُّ لهم علىٰ اتخاذِه وَحْدَه وليًّا وناصرًا مِن دُونِ كلِّ أحدٍ؛ فمِن وَلايتِه ونَصْرِه لهم أنَّه وعَدهم أنَّه سيُلقِي في قلوبِ أعدائهم مِن الكافرين الرُّعْبَ؛ وهو الخوفُ العظيم الذي يَمنَعُهم مِن كثيرٍ مِن مقاصدِهم، وقد فعَل تعالىٰ[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٩١).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ١٢٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٩/ ٣٨٤).

(٤) تفسير السعدي (ص: ١٥١).

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ﴾

ولمَّا كانت السِّينُ في ﴿ سَنُلْقِى ﴾ مُفهِمةً للاستقبال، كان ذلك ربما أوهَم أنَّه لم يرغِّبْهم فيما مضىٰ؛ فنفىٰ هذا الوَهْمَ محققًا لهم ذلك بتذكيرِهم بما أنجز لهم مِن وعدِه في أولِ هذه الوَقْعةِ مدَّةَ تلبُّسِهم بما شرَط عليهم مِن الصبرِ والتقوىٰ بقولِه تعالىٰ - عطفًا علىٰ قولِه: ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ ﴾، مصرِّحًا بما لوَّح إليه تقديرًا قبلُ: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ كما مضىٰ -: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ﴾ عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾، وهذا عَوْدٌ إلىٰ التسليةِ علىٰ ما أصابهم، وإظهارٌ لاستمرارِ عنايةِ الله تعالىٰ بالمؤمنين، ورمزٌ إلىٰ الثقةِ بوعدِهم بإلقاءِ الرُّعْبِ في قلوب المشركين، وتبيينٌ لسبب هزيمةِ المسلمين؛ تطمينًا لهم بذِكْرِ نظيرِه ومماثِلِه السابق؛ فإنَّ لذلك مَوْقعًا عظيمًا في الكلام، علىٰ حدِّ قولهم: «التاريخُ يُعِيدُ نفسَه»، وليَتوسَّلَ بذلك إلىٰ إلقاءِ تَبِعةِ الهزيمة عليهم، وأنَّ اللهَ لم يُخلِفْهم وَعْدَه، ولكنَّ سُوءَ صنيعِهم أوقَعَهم في المصيبة[2].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ١٢٦).

اعلَمْ أنَّ اتصالَ هذه الآية بما قبلها مِن وجوه: الأول: أنَّه لمَّا رجَع رسولُ الله ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينةِ وقد أصابهم ما أصابهم بأُحُدٍ، قال ناسٌ مِن أصحابه: مِن أين أصابنا هذا وقد وعَدَنا اللهُ النَّصْرَ؟! فأنزَل اللهُ تعالىٰ هذه الآيةَ. الثاني: قال بعضُهم: كان النبيُّ ﷺ رأىٰ في المنام أنَّه يَذبَحُ كبشًا، فصدَّق اللهُ رؤياه بقَتْلِ طَلْحةَ بنِ عثمان صاحبِ لواءِ المشركين يومَ أُحُدٍ، وقتَل بعده تسعةَ نفَرٍ علىٰ اللواء؛ فذاك قولُه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾؛ يريدُ تصديقَ رؤيا الرسولِ ﷺ. الثالث: يجوز أن يكونَ هذا الوعدُ ما ذكَره في قوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾، إلا أنَّ هذا كان مشروطًا بشرطِ الصبرِ والتقوىٰ. الرابع: لمَّا وعَدهم اللهُ في الآيةِ المتقدِّمة إلقاءَ الرعبِ في قلوبهم، أكَّد ذلك بأن ذكَّرهم ما أنجَزهم مِن الوعدِ بالنصرِ في واقعة أُحُدٍ؛ فإنَّه لمَّا وعَدهم بالنُّصرةِ بشرطِ أن يتَّقُوا ويَصبِروا، فحين أتَوْا بذلك الشرطِ لا جرَمَ وفَّىٰ اللهُ تعالىٰ بالمشروط، وأعطاهم النُّصرةَ، فلمَّا ترَكوا الشرطَ، لا جرَمَ فاتَهُمُ المشروطُ(١).

ثم أخبَرهم أنَّه صدَقهم وعدَه في النَّصْرِ علىٰ عدوِّه، وهو الصادقُ الوعدِ، وأنَّهم لو استمَرُّوا علىٰ الطاعةِ، ولَزِموا أمرَ الرسول؛ لاستمَرَّتْ نُصْرتُهم، ولكن انخلَعوا عن الطاعة، وفارَقوا مركزَهم؛ ففارَقهم النَّصْرُ، فصرَفهم عن عدوِّهم عقوبةً وابتلاءً وتعريفًا لهم سُوءَ عواقبِ المعصية وحُسْنَ عاقبةِ الطاعة بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٣٨٦).

(٢) محاسن التأويل (٢/ ٤٢٨).

﴿ ۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣ ﴾

لمَّا ذكَر علَّةَ الصرفِ والعفوِ عنه، صوَّرَه، فقال: ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾(١).

﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾ متعلِّقٌ بقولِه: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: دفعكم عن المشركين حين أنتم مُصعِدون(٢).

ثم ذكَّرهم تعالىٰ بحالِهم وقتَ الفرارِ بقولِه: ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾(٣).

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾

لمَّا كان أمانُهم بعد انخلاعِ قلوبِهم بعيدًا، ولا سيَّما بكونِه بالنُّعاسِ الذي هو أبعَدُ شيءٍ عن ذلك المَقامِ الوَعْرِ، والمحَلِّ الضَّنْكِ؛ عطَف بأداة البُعْدِ في قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ

(١) نظم الدرر (٥/ ٩٥).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ١٣١).

(٣) محاسن التأويل (٢/ ٤٣١).

عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾(١).

في كيفيَّةِ النَّظْمِ وجهان: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا وعَد نَصْرَ المؤمنين علىٰ الكافرين، وهذا النصرُ لا بد وأن يكونَ مسبوقًا بإزالةِ الخوف عن المؤمنين؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه تعالىٰ أزال الخوفَ عنهم؛ ليَصِيرَ ذلك كالدَّلالة علىٰ أنَّه تعالىٰ يُنجِزُ وعدَه في نَصْرِ المؤمنين. الثاني: أنَّه تعالىٰ بيَّن أنَّه نصَر المؤمنين أولًا، فلمَّا عصىٰ بعضُهم، سلَّط الخوفَ عليهم، ثم ذكَر أنَّه أزال ذلك الخوفَ عن قلبِ مَن كان صادقًا في إيمانِه، مستقِرًّا علىٰ دِينِه، بحيث غلَب النُّعاسُ عليه(٢).

ثم إنَّه تدارَكَهم سبحانه برَحْمتِه، وخفَّف عنهم ذلك الغَمَّ، وغيَّبه عنهم بالنُّعاسِ الذي أنزَله عليهم أمنًا منه؛ كما قال: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾(٣).

ما زال السياقُ في الحديثِ عن غزوةِ أُحُدٍ، فأخبَر تعالىٰ في هذه الآيةِ عن أمورٍ عظامٍ: الأول: أنَّه تعالىٰ بعد الغَمِّ الذي أصاب به المؤمنين في الآيةِ السابقة، أنزَل علىٰ أهلِ اليقين خاصَّةً أمنًا كاملًا، فذهَب الخوفُ عنهم، حتىٰ إنَّ أحدَهم لَينامُ والسيفُ في يدِه، فيسقُطُ مِن يدِه، ثم يَتناولُه(٤).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٩٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٣٩٣).

(٣) محاسن التأويل (٢/ ٤٣٣).

(٤) أيسر التفاسير (١/ ٣٩٧).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾

لمَّا كان فيه مع ذلك معنىٰ التعليلِ والتنبيه علىٰ أنَّه غنيٌّ عن الاختبار، خبيرٌ بدقائقِ الأسرار؛ أتبعه قولَه مستأنِفًا لبيانِ ما هو مِن ثمرات العلم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[١].

استئنافٌ لبيانِ سببِ الهزيمة الخفيِّ؛ وهي استزلالُ الشيطانِ إيَّاهم[٢].

بعد أن امتنَّ اللهُ علىٰ عبادِه في الآيةِ السابقة فيما أنزَل عليهم مِن السَّكينةِ والأَمَنةِ، امتنَّ هنا علىٰ الذين انهزَموا يوم أُحُدٍ بالعفوِ عنهم؛ فلم يؤاخِذْهم بهذه الزَّلةِ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾

ولمَّا كان قولُهم: «إنَّا لو ثبَتْنا في المدينةِ الممثَّلةِ بالدِّرْعِ الحصينةِ»[٣] - كما كان رأيُ رسولِ الله ﷺ والأكابرِ مِن أصحابه - لسَلِمْنا، إلىٰ غيرِ ذلك ممَّا أشار ﷻ إليه، قولًا موجِبًا لِغَيْظِ رسولِ الله ﷺ؛ لِما فيه مِن الاتهامِ، وسُوءِ العقيدة، وكان مع ذلك مَظِنَّةً لأن يَخدَعَ كثيرًا مِن أهل الطاعة؛ لشِدَّةِ حُبِّهم لِمَن قُتِل منهم، وتعاظُمِ أسَفِهم عليهم؛ كان أنسَبَ الأشياءِ المبادرةُ إلىٰ الوعظِ بما يُزِيلُ هذا الأثر، ولمَّا كان

(١) نظم الدرر (٥/ ١٠١).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ١٣٩، ١٤٠).

(٣) أخرجه النسائي في "الكبرىٰ" (٧٦٠٠).

الرسولُ ﷺ مؤيَّدًا بأعظَمِ الثَّباتِ -لِما طُبِع عليه مِن الشِّيَم الطاهرة، والمحاسنِ الظاهرة- كان الأنسَبُ البداءةَ بغيرِه؛ فنهَىٰ الذين آمنوا عن الانخداعِ بأقوالهم، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[1].

اعلَمْ أنَّ المنافِقين كانوا يعيِّرون المؤمنين في الجهادِ مع الكفار بقولِهم: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾، ثم إنَّه لمَّا ظهَر عن بعضِ المؤمنين فُتورٌ وفشَلٌ في الجهاد حتىٰ وقَع يومَ أُحُدٍ ما وقَع، وعفَا اللهُ بفضلِه عنهم؛ ذكَر في هذه الآيةِ ما يدلُّ علىٰ النهيِ عن أن يقولَ أحدٌ مِن المؤمنين مثلَ مقالتِهم، فقال: يا أيُّها الذين آمنوا، لا تقولوا لِمَن يريدُ الخروجَ إلىٰ الجهاد: «لو لم تخرُجوا، لَمَا مُتُّم وما قُتِلتم»؛ فإنَّ الله هو المُحيي والمميت، فمَن قُدِّر له البقاءُ لم يُقتَلْ في الجهاد، ومَن قُدِّر له الموتُ لم يَبقَ وإن لم يجاهِدْ، وهو المرادُ مِن قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، وأيضًا الذي قُتِل في الجهاد؛ لو أنَّه ما خرَج إلىٰ الجهاد لكان يموتُ لا محالةَ، فإذا كان لا بد مِن الموتِ، فلأَنْ يُقتَلَ في الجهادِ حتىٰ يستوجِبَ الثوابَ العظيم، كان ذلك خيرًا له مِن أن يموتَ مِن غيرِ فائدة[2].

تحذيرٌ مِن العَوْدِ إلىٰ مخالَجةِ عقائدِ المشركين، وبيانٌ لسُوءِ عاقبة تلك العقائدِ في الدنيا أيضًا، والكلامُ استئنافٌ، والإقبالُ علىٰ المؤمنين بالخطابِ تلطُّفٌ بهم جميعًا بعد تقريعِ فريقٍ منهم ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ١٠٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٣٩٩).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ١٤١).

لمَّا تقدَّم مِن قولِ المنافِقين: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾، وأخبر الله عنهم أنَّهم قالوا: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾، وكان قولًا باطلًا واعتقادًا فاسدًا؛ نهى تعالى المؤمنين أن يكونوا مِثلَهم في هذه المقالةِ الفاسدة، والاعتقادِ السيِّئ[1].

﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧﴾

لمَّا نهاهم عن قولِ المنافِقين الدائرِ على تَمنِّي المُحالِ مِن دوامِ البقاء وكراهةِ الموت، بيَّن لهم ثمرةَ فواتِ أنفسِهم في الجهاد بالموتِ أو القتل؛ ليكونَ ذلك مُبعِدًا لهم ممَّا قال المنافقون، موجِبًا لتسليم الأمرِ للخالق؛ بل محبِّبًا فيه، وداعيًا إليه، فقال: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾[2].

ذكَر ترغيبًا وترهيبًا؛ فجعَل الموتَ في سبيل الله والموتَ في غيرِ سبيل الله إذا أعقبَتْهما المغفرةُ خيرًا مِن الحياة وما يَجمَعون فيها، وجعَل الموتَ والقتل في سبيل الله وسيلةً للحشرِ والحساب؛ فليَعلَمْ أحدٌ بماذا يُلاقي ربَّه! والواوُ للعطفِ على قوله: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وعلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾[3].

اعلَمْ أنَّ هذا هو الجوابُ الثاني عن شُبْهةِ المنافِقين؛ وتقريرُه: أنَّ هذا الموتَ لا بدَّ واقعٌ، ولا محيصَ للإنسان مِن أن يُقتَلَ أو يموتَ، فإذا وقَع هذا الموتُ أو القتل في سبيلِ الله وفي طلَبِ رضوانه، فهو خيرٌ مِن أن يُجعَلَ ذلك في طلبِ الدنيا ولذَّاتِها التي لا ينتفعُ الإنسانُ بها بعد الموتِ البتَّةَ؛ وهذا جوابٌ في غايةِ الحُسْنِ والقوَّة؛ وذلك

(١) البحر المحيط (٣/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٢) نظم الدرر (٥/ ١٠٤).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ١٤٣).

لأنَّ الإنسانَ إذا توجَّه إلىٰ الجهاد، أعرَض قلبُه عن الدنيا، وأقبَلَ علىٰ الآخرة، فإذا مات فكأنَّه تخلَّص عن العدوِّ ووصَل إلىٰ المحبوب، وإذا جلَس في بيتِه خائفًا مِن الموت حريصًا علىٰ جمعِ الدنيا، فإذا مات فكأنَّه حُجِب عن المعشوق، وأُلقِيَ في دار الغربةِ، ولا شكَّ في كمالِ سعادةِ الأول، وكمالِ شقاوةِ الثاني[١].

شروعٌ في تحقيقِ أنَّ ما يَحذَرون ترتُّبَه علىٰ الغزوِ والسَّفَرِ مِن القتلِ والموت في سبيل الله تعالىٰ ليس ممَّا ينبغي أن يُحذَرَ؛ بل ممَّا يجبُ أن يَتنافسَ فيه المتنافِسون، إثْرَ إبطالِ ترتُّبِه عليهما[٢].

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ١٥٨﴾

لمَّا ذكَر أشرَفَ الموتِ بادئًا بأشرَفِه، ذكَر ما دُونَه بادئًا بأدناه، فقال: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾[٣].

اعلَمْ أنَّه ﷻ رغَّب المجاهِدين في الآيةِ الأُولىٰ بالحشرِ إلىٰ مغفرةِ الله، وفي هذه الآيةِ زادَ في إعلاءِ الدرجات؛ فرغَّبهم هاهنا بالحشرِ إلىٰ الله[٤].

وقُدِّم الموتُ هنا علىٰ القتل؛ لأنَّها آيةُ وعظٍ بالآخرة والحشر، وتزهيدٍ في الدنيا والحياة، والموتُ فيها مطلَقٌ لم يقيَّدْ بشيءٍ؛ فإمَّا أن يكونَ الخطاب مختصًّا بمَن خوطب قبلُ، أو عامًّا واندرَج أولئك فيه؛ فقُدِّم لعمومِه، ولأنَّه أغلَبُ في الناس مِن القتل؛ فهذه ثلاثةُ مواضع. ﴿مَا مَاتُواْ وَمَاقُتِلُواْ﴾: فقُدِّم الموتُ علىٰ القتل لمناسبةِ ما

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٠٣).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٠٤).

(٣) نظم الدرر (٥/ ١٠٥).

(٤) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٠٤).

قبله مِن قوله: ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾، وقُدِّم القتلُ على الموتِ قبلُ؛ لأنَّه محَلُّ تحريضٍ على الجهاد، فقُدِّم الأهمُّ والأشرفُ، وقُدِّم الموتُ هنا؛ لأنَّه الأغلبُ(١).

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

لمَّا فرَغ مِن وعظِ الصحابة رضي الله تعالى عنهم، أتبَعه تحبيبَ النبيِّ ﷺ فيما فعَل بهم مِن الرِّفْقِ واللِّينِ مع ما سبَّب الغضبَ الموجِبَ للعنف والسَّطوة؛ مِن اعتراض مَن اعترَض على ما أشار به، ثم مخالفتِهم لأمره في حفظِ المركز والصبر والتقوى، ثم خِذْلانِهم له وتقديمِ أنفسهم على نفسه الشريفة، ثم عدمِ العَطْفِ عليه وهو يدعوهم إليه، ويأمرُ بإقبالهم عليه، ثم اتهامِ مَن اتَّهمه، إلى غيرِ ذلك مِن الأمور التي توجِبُ لرؤساءِ الجيوش وقادةِ الجنود اتهامَ أتباعِهم، وسُوءَ الظنِّ بهم الموجِبَ للغضبِ والإيقاع ببعضِهم؛ ليكونَ ذلك زاجرًا لهم عن العَوْدِ إلى مثلِه، فقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٢).

الفاءُ للتفريع على ما اشتمَل عليه الكلامُ السابق الذي حُكِي فيه مخالفةُ طوائفَ لأمرِ الرسول ﷺ مِن مؤمنين ومنافِقين، وما حُكِي مِن عفوِ الله عنهم فيما صنَعوا، ولأنَّ في تلك الواقعةِ المَحْكيَّةِ بالآياتِ السابقة مظاهرَ كثيرةً مِن لِينِ النبي ﷺ للمسلمين؛ حيث استشارهم في الخروجِ، وحيث لم يثرِّبْهم على ما صنَعوا مِن مغادرةِ مراكزِهم،

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٤٠٦).

(٢) نظم الدرر (٥/ ١٠٦).

ولمَّا كان عفوُ الله عنهم يُعرَفُ في معاملةِ الرسول ﷺ إيَّاهم، ألانَ اللهُ لهم الرسولَ؛ تحقيقًا لرَحْمتِه وعفوِه[(١)].

اعلَمْ أنَّ القومَ لمَّا انهزَموا عن النبي ﷺ يومَ أُحُدٍ ثم عادُوا، لم يخاطِبْهم الرسولُ ﷺ بالتغليط والتشديد؛ وإنَّما خاطَبهم بالكلام الليِّن، ثم إنَّه سبحانه وتعالى لمَّا أرشَدهم في الآيات المتقدِّمة إلىٰ ما ينفعُهم في مَعاشِهم ومَعادهم، وكان مِن جملة ذلك أنْ عفَا عنهم؛ زادَ في الفضلِ والإحسان بأنْ مدَح الرسولَ ﷺ علىٰ عفوِه عنهم، وتركِه التغليظَ عليهم، فقال: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ ﴾، ومَن أنصَف، علِم أنَّ هذا ترتيبٌ حسَنٌ في الكلام[(٢)].

خطابٌ للنبيِّ ﷺ، والفاءُ لترتيبِ مضمون الكلام علىٰ ما يُنبِئُ عنه السياقُ مِن استحقاقِ الفارِّينَ المَلامةَ، والتعنيفَ منه ﷺ، بمقتضىٰ الجِبلَّةِ البشرية؛ حيث صدَروا عنه وحِياضُ الأهوالِ مُترَعةٌ[(٣)]، وشمَّروا للهزيمةِ والحربُ قائمةٌ علىٰ ساقٍ، أو مِن سَعةِ فضاءِ مغفرتِه ورحمتِه[(٤)].

﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠ ﴾

لمَّا كان التقديرُ: فإذا فعَلوا ما يحبُّه أعطاهم مُناهم ممَّا عزَموا عليه لأجلِه، استأنَف الإخبارَ بما يُقبِلُ بقلوبِهم إليه، ويقصُرُ هِمَمَهم عليه؛ بأنَّ مَن نصَره هو المنصورُ،

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٤٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٠٥).

(٣) أي: مملوءة.

(٤) روح المعاني (٢/ ٣١٨).

ومَن خذَله هو المخذولُ، فقال تعالىٰ: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ (١).

استئنافٌ نشأ عن قولِه: ﴿ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ ﴾، أو عن قوله: ﴿ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ ﴾ الآيةَ، ولو حُمِل هذا الخبرُ علىٰ ظاهر الإخبار، لكان إخبارًا بأمرٍ معلوم عند المخاطَبين إذ هم مؤمنون، ولا يَجهَلُ مؤمنٌ أنَّ اللهَ إذا قدَّر نَصْرَ أحدٍ، فلا رادَّ لنصرِه، وأنَّه إذا قدَّر خَذْلَهُ، فلا ملجأَ له مِن الهزيمة؛ فإنَّ مِثلَ هذا المعنىٰ محقَّقٌ في جانبِ الله، لا يَجهَلُه معترفٌ بإلهيَّتِه، مؤمنٌ بوَحْدانيَّتِه، وهل بعد اعتقادِ نفيِ الشريك عن اللهِ في مُلْكِه مجالٌ لاعتقادِ وجود ممانِعٌ له في إرادتِه؟! فيَتعيَّنُ أن يكونَ هذا الخبرُ مرادًا غيرَ ظاهرِ الإخبار، وأحسَنُ ما يُحمَلُ عليه أن يكونَ تقريرًا لتسلية المؤمنين علىٰ ما أصابهم مِن الهزيمةِ؛ حتىٰ لا يَحزَنوا علىٰ ما فاتَ؛ لأنَّ رَدَّ الأمورِ إلىٰ الله تعالىٰ عند العَجْزِ عن تدارُكِها مَسْلاةٌ للنفس، وعزاءٌ علىٰ المصيبة، وفي ضِمْنِ ذلك تنبيهٌ إلىٰ أنَّ نَصْرَ الله قومًا في بعضِ الأيام وخَذْلَه إيَّاهم في بعضِها لا يكونُ إلا لحِكَمٍ وأسباب؛ فعليهم السعيُ في أسباب الرضا الموجِبِ للنصر، وتجنُّبِ أسباب السَّخَطِ الموجِبِ للخَذْلِ، هذا وعليهم التطلُّبُ للأسبابِ التي قُدِّر لهم النَّصْرُ لأجلها في مثلِ يوم بَدْرٍ، وأضدادِها التي كان بها الخَذْلُ في يومِ أُحُدٍ، وفي التفكيرِ في ذلك مجالٌ واسع لمكاشَفات الحقائق والعِلَل والأسباب والحِكَمِ والمنافع والمَضارِّ علىٰ قَدْرِ سَعةِ التفكير الجائل في ذلك؛ ففي هذا الخبرِ العظيم إطلاقٌ للأفكارِ مِن عقالِها، وزَجٌّ بها في مَسارِحِ العِبَرِ، ومَراكضِ العِظاتِ، والسابقون الجِياد، فالخبرُ مستعمَلٌ في لازمِ معناه؛ وهو الحضُّ علىٰ تحصيلِ ذلك.

وعلىٰ هذا الوجهِ، تظهرُ مناسبةُ موقعِ هذا الاستئنافِ عَقِبَ ما تقدَّمه؛ لأنَّه بعد أن خاطَبهم بفنونِ المَلامِ والمعذرة والتسلية مِن قوله: (قد خلت سنن) إلىٰ هنا، جمَع

---

(١) نظم الدرر (٥/ ١٠٦).

لهم كلَّ ذلك في كلامٍ جامع نافع في تَلَقِّي الماضي، وصالحٍ للعملِ به في المستقبل، ويجوز أن يكونَ الإخبارُ مبنيًّا على تنزيلِ العالِمِ منزلةَ الجاهل؛ حيث أظهَروا مِن الحرصِ على الغنيمة ومِن التأوُّلِ في أمرِ الرسول لهم في الثَّباتِ ومِن التلهُّفِ على ما أصابهم مِن الهزيمةِ والقتل والجَرْحِ ما جعَل حالَهم كحالِ مَن يَجهَلُ أنَّ النَّصْرَ والخَذْلَ بيدِ الله تعالى؛ فالخبَرُ مستعمَلٌ في معناه على خلافِ مقتضى الظاهر[1].

جملةٌ مستأنَفة سِيقت بطريق تلوين الخطاب؛ تشريفًا للمؤمنين لإيجابِ توكُّلهم عليه تعالى، وحثِّهم على اللُّجْأِ إليه، وتحذيرِهم عمَّا يُفضِي إلى خِذْلانه[2].

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)﴾

لمَّا كان الغُلُولُ مِن أعظَمِ موجِبات الخِذْلان أو أعظَمَها، والنزاهةُ عنه مِن أعظَمِ موجِبات النصر؛ كان أنسَبَ الأشياءِ تعقيبُ هذه الآيةِ بآية الغُلول بيانًا لأنَّه كان سببَ هزيمتِهم في هذه الغزوة؛ فإنَّه لا يُخذَلُ إلا بالذُّنوب، ومِن أعظَمِ الذُّنوب الموجِبة للخِذْلان الغُلول، فيكونُ المرادُ بتنزيهه ﷺ عنه - والله أعلم - أنَّ إقبالَهم على نَهْبِ الغنائم قبل وقته إمَّا أن يكونَ لقصدِ أن يغلوَ بإخفاءِ ما انتهَبوه أو بعضِه، وإمَّا أن يكونَ للخوفِ مِن أن يغُلَّ رئيسُهم وحاشاه! وإمَّا أن يكونَ للخوف مِن مطلَقِ الخيانةِ؛ بألا يَقسِمَه ﷺ بينهم على السَّواءِ، وحاشاه مِن كلٍّ مِن ذلك! وأمَّا المبادرةُ إلى النَّهْبِ لغيرِ هذا القصدِ، فخِفَّةٌ وطيشٌ وعبَثٌ، لا يَصُوبُ[3] عاقلٌ إليه؛ إذا تقرَّر هذا، فيمكن أن يكونَ التقديرُ: فليتوكَّلوا في كَبْتِ العدوِّ وتحصيل ما معه مِن الغنائم، فلا يُقبِلوا على ذلك إقبالًا يَتطرَّقُ منه احتمالٌ لظنِّ السَّوْءِ بهاديهم في أن يغُلَّ، وهو

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٥٢).
(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٠٥).
(٣) أي: يقصد.

الذي أخبَرهم بتحريم الغُلُول، وبأنَّه سببٌ للخِذْلانِ، وما نهىٰ ﷺ قطُّ عن شيءٍ إلا كان أولَ تاركٍ له وبعيدٍ منه، وما كان ينبغي لهم أن يَفتَحوا طريقًا إلىٰ هذا الاحتمالِ، فعبَّر عن ذلك بقولِه عطفًا علىٰ ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(١).

الأظهر أنَّه عطفٌ علىٰ مجموعِ الكلام، عَطْفَ الغرضِ علىٰ الغرض، وموقعُه عَقِبَ جملةِ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ الآيَةَ؛ لأنَّها أفادت أنَّ النَّصْرَ بيدِ الله، والخَذْلَ بيده، وذلك يستلزم التحريضَ علىٰ طلبِ مرضاتِه؛ ليكونَ لطيفًا بمَن يرضَوْنه. وإذ قد كانت هذه النصائحُ والمواعظ موجَّهةً إليهم ليَعمَلوا بها فيما يُستقبل مِن غَزَواتهم، نُبِّهوا إلىٰ شيءٍ يستخِفُّ به الجيشُ في الغزوات؛ وهو الغُلُول؛ ليَعلَموا أنَّ ذلك لا يُرضي اللهَ تعالىٰ، فيَحذَروه، ويكونوا ممَّا هو أدعىٰ لغضبِ الله أشَدَّ حذرًا؛ فهذه مناسبةُ التحذيرِ مِن الغُلول، ويعضُدُ ذلك أنَّ سببَ هزيمتِهم يومَ أُحُدٍ هو تعجُّلُهم إلىٰ أخذِ الغنائم(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بالَغ في الحث علىٰ الجهاد، أتبَعه بذِكْرِ أحكام الجهاد؛ ومِن جملتها: المنعُ مِن الغُلول، فذكَر هذه الآيةَ في هذا المعنىٰ(٣).

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها مِن حيث إنَّها تضمَّنت حُكْمًا مِن أحكام الغنائم في الجهاد، وهي مِن المعاصي المتوعَّدِ عليها بالنار؛ كما جاء في قصَّةِ مِدْعَمٍ(٤)، فحذَّرهم مِن ذلك(٥).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ١٠٩، ١١٠).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ١٥٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٩/ ٤١١).

(٤) أخرجه البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم (١١٥).

(٥) البحر المحيط (٣/ ٤١٢).

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٦٢ ﴾

لمَّا أخبَر تعالىٰ أنَّه لا يقعُ في ذلك اليومِ ظُلْمٌ أصلًا، تسبَّب عنه الإنكارُ علىٰ مَن حدَّثَه نفسُه بالأمانيِّ الكاذبة، فظَنَّ غيرَ ذلك مِن استواءِ حال المحسِنِ وغيرِه، أو فعَل فعلًا وقال قولًا يؤدي إلىٰ ذلك؛ كالمنافِقين، وكالمقبِلين علىٰ الغنيمةِ، فقال تعالىٰ: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (١).

تفريعٌ علىٰ قوله: ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٖ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾؛ فهو كالبيانِ لتوفية كلِّ نفسٍ بما كسَبتْ، والاستفهامُ إنكارٌ للمماثَلة المستفادة مِن كافِ التشبيه؛ فهو بمعنىٰ: لا يستوون، والاتِّباع هنا بمعنىٰ التطلُّبِ؛ شبَّه حالَ المتوخِّي بأفعاله رضا اللهِ بحالِ المتطلِّب لطَلِبَةٍ؛ فهو يتبعُها حيث حَلَّ ليقتنصَها، وفي هذا التشبيهِ حُسْنُ التنبيهِ علىٰ أنَّ التحصيلَ علىٰ رضوانِ الله تعالىٰ محتاجٌ إلىٰ فَرْطِ اهتمامٍ (٢).

اعلَـمْ أنَّـه تعـالىٰ لمَّـا قـال: ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٖ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾، أتبعَه بتفصيلِ هذه الجملة، وبيَّن أنَّ جزاءَ المُطِيعِين ما هو، وجزاءَ المسِيئِين ما هو (٣).

﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ١٦٣ ﴾

لمَّا أفهَم الإنكارُ علىٰ مَن سوَّىٰ بَيْنَ الناس أنَّهم متمايِزون، صرَّح بذلك في قوله: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ١١٣، ١١٤).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ١٥٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٩/ ٤١٥).

(٤) نظم الدرر (٥/ ١١٤).

قوله: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ عادَ الضميرُ لقوله: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾؛ لأنَّهم المقصودُ مِن الكلام، ولقرينةِ قوله: ﴿دَرَجَٰتٌ ﴾؛ لأنَّ الدرجاتِ منازلُ رفعةٍ(١).

ثم أوضَحَ ما بَيْنَ الطائفتينِ مِن التفاوتِ، فقال: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾(٢).

﴿ هُمْ ﴾؛ أي: الذين اتبَعوا رضوانَ الله والذين باؤوا بسَخَطٍ مِن الله، متفاوِتون في درجاتِهم ومنازلهم بحسَبِ تفاوُتِهم في أعمالهم؛ فالمتَّبِعون لرضوانِ الله يسعَوْنَ في نيلِ الدرجات العاليات، والمنازلِ والغُرُفاتِ، فيُعطيهم اللهُ مِن فضلِه وجُودِه علىٰ قَدْرِ أعمالهم، والمتَّبِعون لمَساخِطِ الله يسعَوْنَ في النزولِ في الدَّرَكاتِ إلىٰ أسفَلِ سافلِينَ، كلٌّ علىٰ حسَبِ عملِه(٣).

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

لمَّا أرشَدهم إلىٰ هذه المراشدِ، وبيَّن لهم بعضَ ما اشتمَلتْ عليه مِن الفوائدِ، وبانَ بهذه القصَّةِ قَدْرُ مَن أسدىٰ إليهم ذلك علىٰ لسانِه ﷺ بما له مِن الفضائلِ التي مِن أعظَمِها كونُه مِن جنسِهم، يَمِيلُ إليهم ويَرحَمُهم ويَعطِفُ عليهم، فيَألفونه، فيعلِّمُهم؛ نبَّه علىٰ ذلك سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليَستمسكوا بغَرْزِه، ولا يَلتفتوا لحظةً عن لزومِ هَدْيِه، فقال سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - مؤكِّدًا لِما اقتضاه الحالُ مِن فعلٍ يَلزمُ منه النسبةُ إلىٰ الغُلولِ -:

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٥٧).

(٢) فتح القدير (١/ ٤٥٢).

(٣) تفسير السعدي (ص: ١٥٥).

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾[1].

استئنافٌ لتذكيرِ رجالِ يومِ أُحُدٍ وغيرِهم مِن المؤمنين بنِعْمةِ الله عليهم. ومناسبةُ ذِكْرِه هنا: أنَّ فيه مِن التسليةِ علىٰ مصيبة الهزيمة حظًّا عظيمًا؛ إذ قد شاع تصبيرُ المحزون وتعزيتُه بتذكيرِه ما هو فيه مِن النِّعَمِ، وله مَزيدُ ارتباطٍ بقولِه: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ﴾، وكذلك جاءت آيُ هذا الغرضِ في قصَّةِ أُحُدٍ ناشئًا بعضُها عن بعضٍ، متفنِّنةً في مواقعِها بحسَبِ ما سمَحتْ به فُرَصُ الفراغ مِن غرضٍ، والشروعِ في غيره، فما تجدُ طِرادَ[2] الكلام يغدو طَلْقًا في حَلْبَةِ الاستطراد إلا وتجدُ له رَوَاحًا إلىٰ منبعَثِه[3].

اعلَمْ أنَّ في وجه النَّظم وجوهًا: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن خطأَ مَن نسَبه إلىٰ الغُلُول والخيانة، أكَّد ذلك بهذه الآيةِ؛ وذلك لأنَّ هذا الرسولَ وُلِد في بلَدِهم، ونشأ فيما بينهم، ولم يَظهَرْ منه طُولَ عُمُرِه إلا الصدقُ، والأمانة، والدعوةُ إلىٰ الله، والإعراض عن الدنيا، فكيف يَلِيقُ بمَن هذا حالُه الخيانةُ؟! الوجه الثاني: أنَّه لمَّا بيَّن خطأَهم في نسبتِه إلىٰ الخيانة والغُلُول، قال: لا أقنَعُ بذلك ولا أكتفي في حقِّه بأن أبيِّنَ براءتَه عن الخيانةِ والغُلُول، ولكني أقول: إنَّ وجودَه فيكم مِن أعظَمِ نعمتي عليكم؛ فإنَّه يزكِّيكم عن الطريقِ الباطلة، ويعلِّمُكم العلومَ النافعة لكم، في دنياكم وفي دِينِكم؛ فأيُّ عاقلٍ يخطُرُ بباله أن ينسُبَ مثلَ هذا الإنسانِ إلىٰ الخيانة؟![4].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ١١٥).

(٢) أي: تتابعه واستقامته.

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ١٥٨).

(٤) مفاتيح الغيب (٩/ ٤١٧).

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر الفريقينِ: فريقَ الرِّضوان، وفريقَ السَّخَطِ، وأنَّهم درجاتٌ عند الله، مجملًا مِن غير تفصيل؛ فصَّل أحوالَهم، وبدأ بالمؤمنين، وذكَر ما امتَنَّ عليهم به مِن بَعْثِ الرسول ﷺ إليهم تاليًا لآيات الله، ومبيِّنًا لهم طريقَ الهدىٰ، ومطهِّرًا لهم مِن أرجاسِ الشرك، ومُنقِذًا لهم مِن غَمْرةِ الضَّلالة بعد أن كانوا فيها، وسلَّاهم عمَّا أصابهم يومَ أُحُدٍ مِن الخِذْلانِ والقتل والجَرْحِ بما أنالهم يومَ بَدْرٍ مِن الظَّفَرِ والغنيمة، ثم فصَّل حالَ المنافِقين الذين هم أهلُ السَّخَطِ بما نصَّ عليه تعالىٰ(١).

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾

لمَّا أزال شُبْهةَ النسبةِ إلىٰ الغُلُول بحذافيرها، وأثبَتَ ما له مِن أضدادِها مِن مَعالي الشِّيَم وشمائلِ الكرم، صوَّب إلىٰ شُبْهةِ قولهم: لو كان رسولًا ما انهزَم أصحابُه عنه، فقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾(٢).

عُطِف الاستفهامُ الإنكاريُّ التعجيبي علىٰ ما تقدَّم؛ فإنَّ قولهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ ممَّا يُنكَر، ويَتعجَّب السامعُ مِن صدورِه منهم بعد ما عَلِموا ما أَتَوْا مِن أسبابِ المصيبة؛ إذ لا ينبغي أن يَخفَىٰ علىٰ ذي فِطْنةٍ، وقد جاء موقعُ هذا الاستفهامِ بعد ما تكرَّر مِن تسجيل تَبِعةِ الهزيمة عليهم بما ارتكَبوا مِن عصيان أمرِ الرسول ﷺ، ومِن العجَلةِ إلىٰ الغنيمة، وبعد أن أمَرهم بالرضا بما وقَع، وذكَّرهم النَّصْرَ الواقع يومَ بَدْرٍ؛ عُطِف علىٰ ذلك هنا إنكارُ تعجُّبهم مِن إصابةِ الهزيمة إيَّاهم(٣).

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٤١٥).

(٢) نظم الدرر (٥/ ١١٦، ١١٧).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ١٦٠).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا أخبرَ عن المنافِقين أنَّهم طعَنوا في الرسول ﷺ بأن نسَبوه إلىٰ الغُلُول والخيانة، حكىٰ عنهم شُبْهةً أخرىٰ في هذه الآيةِ؛ وهي قولهم: لو كان رسولًا مِن عندِ الله لَما انهزَم عسكرُه مِن الكفار في يومِ أُحُدٍ؛ وهو المرادُ مِن قولهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾، وأجاب اللهُ عنه بقولِه: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: هذا الانهزامُ إنَّما حصَل بشُؤْمِ عصيانِكم؛ فهذا بيانُ وجهِ النَّظم(١).

كلامٌ مبتدأ مسُوقٌ لإبطالِ بعض ما صدَر عنهم مِن الظنونِ الفاسدة، والأقاويلِ الباطلة الناشئة منها، إثرَ إبطالِ بعضٍ آخرَ منها(٢).

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٦٦﴾

لمَّا كانت نسبةُ المصيبة إليهم ربما أوهَمتْ مَن لم ترسَخْ قدَمُه في المعارِفِ الإلهيَّة أنَّ بعضَ الأفعال خارجٌ عمَّا أراده تعالىٰ، ناسَب أن يقولَ هنا: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

عطفٌ علىٰ قوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾، وهو كلامٌ وارد علىٰ معنىٰ التسليمِ؛ أي: هَبَوا أنَّ هذه مصيبةٌ، ولم يكُنْ عنها عِوَضٌ؛ فهي بقَدَرِ الله؛ فالواجبُ التسليم، ثم رجَع إلىٰ ذِكْرِ بعضِ ما في ذلك مِن الحِكْمة(٤).

اعلَمْ أنَّ هذا متعلِّقٌ بما تقدَّم مِن قولِه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، فذكَر في هذه الآيةِ الأُولىٰ أنَّها أصابتهم بذَنْبِهم، ومِن

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٢٠).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٠٨).

(٣) نظم الدرر (٥/ ١١٨).

(٤) التحرير والتنوير (٤/ ١٦٢).

عندِ أنفسهم، وذكَر في هذه الآيةِ أنَّها أصابتهم لوجهٍ آخرَ؛ وهو أن يَتميَّزَ المؤمنُ عن المنافق[(١)].

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ رجوعٌ إلىٰ خطابِ المؤمنين إثرَ خطابِه ﷺ بسِرٍّ يقتضيه، وإرشادٌ لهم إلىٰ طريقِ الحق فيما سألوا عنه، وبيانٌ لبعضِ ما فيه مِن الحِكَمِ والمصالح، ودفعٌ لِما عسىٰ أن يُتوهَّمَ مِن قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ مِن استقلالِهم في وقوعِ الحادثة، والعدولُ عن الإضمارِ إلىٰ ما ذُكِر للتهويلِ، وزيادةِ التقرير ببيانِ وقته بقولِه تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾[(٢)].

ورفعًا لِما عسىٰ أن يُتوهَّمَ مِن الجواب مِن استقلالهم في وقوعِ الحادثة، رجَع إلىٰ خطابهم برفعِ الواسطة، وجوابِ سؤالهم بأبسَطِ عبارةٍ، فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[(٣)].

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾

لمَّا كان تعليقُ العلم بالشيء علىٰ حِدَتِه أتَمَّ وآكَدَ مِن تعليقه به مع غيرِه، أعاد العاملَ لذلك، وإشعارًا بأنَّ أهلَ النفاق أسفَلُ رُتْبةً مِن أن يَجتمعوا مع المؤمنين في شيءٍ، فقال: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٢١).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٠٩).

(٣) روح المعاني (٢/ ٣٢٩).

(٤) نظم الدرر (٥/ ١١٨).

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ عطفٌ علىٰ ما قبله مِن مثله، وإعادةُ الفعل لتشريفِ المؤمنين، وتنزيهِهم عن الانتظامِ في قرنِ المنافِقين، وللإيذان باختلاف حالِ العلم بحسَبِ التعلق بالفريقينِ؛ فإنَّه متعلِّقٌ بالمؤمنين علىٰ نهجِ تعلُّقِه السابق، وبالمنافِقين علىٰ وجهٍ جديد، وهو السرُّ في إيرادِ الأوَّلِين بصيغةِ اسم الفاعل المنبِئة عن الاستمرار، والآخِرين بموصولٍ صِلتُه فعلٌ دالٌّ علىٰ الحدوث(١).

وبعد أن عُلِم الذين آمَنوا، ناسَب أن يُعلَم الذين نافَقوا فأظهَروا الإيمانَ والوَلاء لله ولرسوله والمؤمنين وأبطَنوا الكفرَ والعداءَ لله ورسوله والمؤمنين، فقال عنهم: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

لمَّا حكىٰ عنهم ما لا يقوله ذو إيمانٍ، أتبعه ما لا يتخيَّلُه ذو مُرُوَّةٍ ولا عرفان، فقال مبيِّنًا لِلَّذين نافقوا: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٢).

اعلَمْ أنَّ الذين حكىٰ اللهُ عنهم أنَّهم قالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ وصَفهم الله تعالىٰ بأنَّهم كما قعَدوا واحتَجُّوا لقعودهم، فكذلك ثبَّطوا غيرَهم واحتجوا لذلك؛

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٠٩).

(٢) نظم الدرر (٥/ ١٢٠).

فحكىٰ اللهُ تعالىٰ عنهم أنَّهم قالوا لإخوانهم: إنَّ الخارجين ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾، فخوَّفوا مَن مرادُه موافَقةُ الرسول ﷺ في محارَبةِ الكفار بالقتلِ لمَّا عرَفوا ما جرىٰ يومَ أُحُدٍ مِن الكفارِ علىٰ المسلمين مِن القتلِ؛ لأنَّ المعلومَ مِن الطِّباعِ محبَّةُ الحياة، فكان وقوعُ هذه الشُّبْهةِ في القلوب يَجري مَجرىٰ ما يورِدُه الشيطانُ مِن الوَسْواس[(١)].

لمَّا ختَم الآيةَ السابقة بقولِه: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾، ناسَب أن يبيِّنَ هنا ما كانوا يكتُمونه ويَتحدَّثون به فيما بينهم في مجالِسِهم الخاصةِ.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾

لمَّا أزاح ﷻ العِلَل، وشفَىٰ الغُلَل[(٢)]، وختَم بأنَّه لا مَفرَّ مِن القَدَر، فلم يَبقَ عند أهل الإيمانِ إلا ما طُبِع عليه الإنسانُ مِن الأسَفِ علىٰ فَقْدِ الإخوان، وكان سرورُ المفقودِ يبرِّدُ غُلَّةَ الموجود؛ بشَّرهم بحياتِهم، وما نالوه مِن لذَّاتِهم، ولمَّا كان العرَبُ بعيدِين قبلَ الإسلام مِن اعتقاد الحياةِ بعد الموت، خاطَب الذي لا ريبَ في علمِه بذلك؛ إشارةً إلىٰ أنَّه لا يَفهَمُه حقَّ فهمِه سِواه؛ كما أشار إليه قولُه في سورةِ «البقرة»: ﴿وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾، فقال تعالىٰ -عاطفًا علىٰ ﴿قُلْ﴾ محبِّبًا في الجهاد، إزالةً لِما بغَّضه به المنافقون مِن أنَّه سببُ الموت-: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٢٤).

(٢) جمع: غُلَّة، وهي العطش.

(٣) نظم الدرر (٥/ ١٢٠، ١٢١).

قولُه: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ عطفٌ علىٰ ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ ﴾، فلمَّا أمَر اللهُ نبيَّه ﷺ أن يجيبَهم بما فيه تبكيتُهم علىٰ طريقةِ إرخاء العِنان لهم في ظنِّهم أنَّ الذين قُتِلوا مِن إخوانِهم قد ذهَبوا سُدًىٰ، فقيل لهم: إنَّ الموتَ لا مَفرَّ منه علىٰ كلِّ حالٍ؛ أعرَض بعد ذلك عن خطابِهم؛ لقِلَّةِ أهليَّتِهم، وأقبَل علىٰ خطابِ مَن يستأهِلُ المعرفةَ، فقال: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﴾؛ وهو إبطالٌ لِما تلهَّف منه المنافقون علىٰ إضاعةِ قَتْلاهم(١).

اعلَمْ أنَّ القومَ لمَّا ثبَّطوا الراغبين في الجهاد بأن قالوا: «الجهادُ يُفضِي إلىٰ القتلِ»؛ كما قالوا في حقِّ مَن خرَج إلىٰ الجهاد يومَ أُحُدٍ، والقتلُ شيءٌ مكروه؛ فوجَب الحذَرُ عن الجهاد، ثم إنَّ اللهَ تعالىٰ بيَّن أنَّ قولَهم: «الجهادُ يُفضِي إلىٰ القتلِ» باطلٌ؛ بأنَّ القتل إنَّما يحصُلُ بقضاء الله وقَدَرِه، كما أنَّ الموتَ يحصل بقضاء الله وقَدَرِه؛ فمَن قدَّر اللهُ له القتلَ لا يمكِنُه الاحترازُ عنه، ومَن لم يقدِّرْ له القتلَ لا خوفَ عليه مِن القتل. ثم أجاب عن تلك الشُّبْهةِ في هذه الآيةِ بجوابٍ آخرَ؛ وهو: أنَّا لا نسلِّمُ أنَّ القتلَ في سبيل الله شيءٌ مكروه، وكيف يقال ذلك والمقتولُ في سبيلِ الله أحياه اللهُ بعد القتل، وخَصَّه بدرجاتِ القُرْبةِ والكرامة، وأعطاه أفضَلَ أنواعِ الرزق، وأوصَله إلىٰ أجَلِّ مراتبِ الفرَحِ والسُّرور؟! فأيُّ عاقلٍ يقول: إنَّ مثلَ هذا القتل يكونُ مكروهًا؟ فهذا وجهُ النَّظم(٢).

لمَّا بيَّن اللهُ تعالىٰ أنَّ ما جرىٰ يومَ أُحُدٍ كان امتحانًا يميِّزُ المنافقَ مِن الصادقِ، بيَّن أنَّ مَن لم ينهزِمْ فقُتِلَ له الكرامةُ والحياة عنده(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٦٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٢٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٦٨).

كلامٌ مستأنَف مسُوقٌ لبيانِ أنَّ القتل الذي يَحذَرونه ويحذِّرون الناسَ منه ليس ممَّا يُحذَرُ؛ بل هو مِن أجَلِّ المَطالبِ التي يَتنافس فيها المتنافِسون، إثرَ بيانِ أنَّ الحذَرَ لا يُجدِي ولا يُغنِي[1].

﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

لمَّا ذكَر نعيمَ البدَنِ بالرِّزقِ، ذكَر نعيمَ القلبِ والرُّوح بالفرَحِ والسرور، فقال: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾.

﴿ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سرورَهم بما نالوه، ذكَر سرورَهم بما عَلِموه لِمَن هو علىٰ دِينِهم، فقال: ﴿ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[2].

ضميرُ ﴿ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ يجوز أن يعُودَ إلىٰ الذين لم يَلحَقوا بهم، فتكونَ الجملةُ حالًا مِن الذين لم يَلحَقوا بهم؛ أي: لا خوفٌ عليهم ولا حُزْنٌ؛ فهم مستبشِرون بنِعْمةٍ مِن الله، ويحتمِلُ أن يكونَ تكريرًا لقوله: ﴿ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم ﴾، والضميرُ لِلَّذين قُتِلوا في سبيل الله، وفائدةُ التكرير تحقيقُ معنىٰ البِشارة[3].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ١١١).

(٢) نظم الدرر (٥/ ١٢٢).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ١٦٧).

أنَّه تعالىٰ بيَّن أنَّهم كما يَستبشرون بالذين لم يَلحَقوا بهم علىٰ ما ذكَر، فهم يَستبشرون لأنفسِهم بما رُزِقوا مِن النعيم؛ وإنَّما أعاد لفظَ ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾؛ لأنَّ الاستبشارَ الأول كان بأحوالِ الذين لم يَلحَقوا بهم مِن خَلْفِهم، والاستبشارَ الثانيَ كان بأحوالِ أنفسِهم خاصةً[(١)].

﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ كرَّر الفعلَ علىٰ سبيلِ التوكيد، إن كانت النِّعْمةُ والفضل بيانًا لمتعلِّقِ الاستبشارِ الأول؛ قاله الزَّمَخشَريُّ[(٢)].

﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ مكرَّرٌ للتأكيد، وليتعلَّقَ به قولُه تعالىٰ: ﴿بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ فحينئذٍ يكون بيانًا وتفسيرًا لقوله سبحانه: ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؛ لأنَّ الخوفَ غَمٌّ يَلحَق الإنسانَ ممَّا يَتوقَّعه مِن السوء، والحُزْنَ غَمٌّ يَلحَقه مِن فواتِ نافعٍ، أو حصولِ ضارٍّ؛ فمَن كان متقلِّبًا في نعمةٍ مِن الله تعالىٰ وفضلٍ منه سبحانه فلا يَحزَنُ أبدًا، ومَن جُعِلتْ أعمالُه مشكورةً غيرَ مضيَّعةٍ فلا يخافُ العاقبةَ[(٣)].

📖 ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢﴾ 📖

لمَّا ذَمَّ المنافِقين برجوعِهم مِن غيرِ أن يُصِيبَهم قَرْحٌ، ومدَح أحوالَ الشهداء ترغيبًا في الشَّهادةِ، وأحوالَ مَن كان علىٰ مثلِ حالهم ترغيبًا في النَّسْجِ علىٰ منوالِهم، وختَم بتعليقِ السعادة بوصفِ الإيمان؛ أخَذ يذكُرُ ما أثمَر لهم إيمانُهم مِن المبادرةِ إلىٰ

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٣٠).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٤٣٣).

(٣) روح المعاني (٢/ ٣٣٥).

الإجابة إلىٰ ما يَهدِيهم إليه ﷺ؛ إشارةً إلىٰ أنَّه لم يَحمِلْ علىٰ التخلُّفِ عن أمره مِن غيرِ عُذْرٍ إلا صريحُ النفاقِ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾[1].

جملةُ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ صفةٌ للمؤمنين، أو مبتدأٌ، خبرُه ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾، وهذه الاستجابةُ تشير إلىٰ ما وقَع إثرَ أُحُدٍ مِن الإرجاف بأن المشركين بعد أن بلَغوا الرَّوْحاءَ خطَر لهم أنْ لو لَحِقوا المسلمين فاستأصَلوهم[2].

اعلَمْ أنَّ اللهَ تعالىٰ مدَح المؤمنين علىٰ غزوتَينِ، تُعرَف إحداهما بغزوةِ حَمْراءِ الأسَدِ، والثانيةُ بغزوةِ بَدْرٍ الصغرىٰ، وكلاهما متصِلةٌ بغزوةِ أُحُدٍ، أمَّا غزوةُ حَمْراءِ الأسَدِ، فهي المرادُ مِن هذه الآيةِ[3].

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾

لمَّا كان قولُ نُعَيمِ بن مسعودٍ أو رَكْبِ عبدِ القيسِ عند الصحابة ﷺ صِدْقًا لا شكَّ فيه؛ لِما قام عندهم مِن القرائن، فكان بمنزلةِ المتواترِ الذي تمالأ عليه الخلائقُ، وكانت قُرَيشٌ أعلىٰ الناسِ شجاعةً، وأوفاهم قوةً، وأعرَقهم أصالةً، فكانوا كأنَّهم جميعُ الناسِ؛ كان التعبيرُ بصيغةِ العمومِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ١٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ١٦٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٣١).

(٤) نظم الدرر (٥/ ١٢٩).

يجوز أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ إلىٰ آخره بدلًا من ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، أو صفةً له، أو صفةً ثانية للمؤمنين في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ علىٰ طريقةِ تَرْكِ العطفِ في الأخبار، وإنَّما جِيءَ بإعادةِ الموصول دُونَ أن تُعطَفَ الصلةُ علىٰ الصلة اهتمامًا بشأن هذه الصلةِ الثانية؛ حتىٰ لا تكونَ كجزءِ صلةٍ، وهذا تخلُّصٌ بذِكْرِ شأنٍ مِن شؤون المسلمين، كفَاهم اللهُ به بأسَ عدوِّهم بعد يومِ أُحُدٍ بعامٍ؛ إنجازًا لوعدِهم مع أبي سفيانَ إذ قال: «موعدُكم بَدْرٌ في العامِ القابلِ»[1]، وكان أبو سفيانَ قد كَرِه الخروجَ إلىٰ لقاءِ المسلمين في ذلك الأجلِ، وكادَ للمسلمين ليُظهِرَ إخلافَ الوعدِ منهم؛ ليَجعَلَ ذلك ذريعةً إلىٰ الإرجاف بَيْنَ العربِ بضَعْفِ المسلمين، فجاعَلَ[2] رَكْبًا مِن عبدِ القيس مارِّين بمَرِّ الظَّهْرانِ قُرْبَ مكَّةَ قاصِدين المدينةَ للمِيرةِ[3] أن يُخبِروا المسلمين بأنَّ قُرَيشًا جمَعوا لهم جيشًا عظيمًا، وكان مع الرَّكْبِ نُعَيمُ بن مسعودٍ الأشجَعيُّ، فأخبَر نُعَيمٌ ومَن معه المسلمين بذلك، فزاد ذلك المسلمين استعدادًا وحَمِيَّةً للدِّينِ، وخرَجوا إلىٰ الموعدِ، وهو بَدْرٌ، فلم يَجِدوا المشركين، وانتظَروهم هناك، وكانت هنالك سوقٌ، فاتَّجَروا ورجَعوا سالِمين غيرَ مذمومين[4].

﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾

لمَّا كان اعتمادُهم علىٰ الله سببًا لفلاحِهم، قال: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[5].

---

(١) أخرجه ابن جرير في "التفسير" (٦/ ٢٥٠).
(٢) أي: أعطاهم جُعْلًا.
(٣) أخرجه ابن جرير في "التفسير" (٦/ ٢٥٠).
(٤) التحرير والتنوير (٤/ ١٦٨).
(٥) نظم الدرر (٥/ ١٣٠).

قولُه: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تعقيبٌ للإخبار عن ثباتِ إيمانِهم، وقولِهم: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾، وهو تعقيبٌ لمحذوف، يدلُّ عليه فعلُ ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾؛ لأنَّ الانقلابَ يقتضي أنَّهم خرَجوا لِلِقاءِ العدوِّ الذي بلَغ عنهم أنَّهم جمَعوا لهم، ولم يَعبؤوا بتخويفِ الشيطان؛ والتقدير: فخرَجوا فانقلَبوا بنِعْمةٍ مِن الله(١).

لمَّا توكَّلوا علىٰ الله، كفاهم ما أهَمَّهم، ورَدَّ عنهم بأسَ مَن أراد كيدَهم؛ فرجَعوا إلىٰ بلدِهم ﴿بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ ممَّا أضمَرَ لهم عدوُّهم، ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾(٢).

لمَّا فوَّضوا أمورَهم إليه، واعتمَدوا بقلوبهم عليه؛ أعطاهم مِن الجزاء أربعةَ مَعانٍ: النِّعْمةُ، والفضلُ، وصَرْفُ السُّوء، واتِّباعُ الرضا(٣).

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾

لمَّا جزاهم سبحانه علىٰ أمثالِ ذلك بما وقَع لهم مِن فوزِهم بالسلامة والغنيمة بفضلِ مَن حازَ أوصافَ الكمال، وتنزَّه عن كلِّ نقصٍ بما له مِن رداءِ الكبرياء والجلال، ورغَّبهم فيما لديه لتَولِّيهم إيَّاه؛ أتبَع ذلك بما يَزيدُهم بصيرةً مِن أنَّ المَخُوفَ لهم مَن كيدُه ضعيفٌ، وأمرُه هيِّنٌ خفيف، واهٍ سخيف؛ وهو الشيطانُ، وساقَ ذلك مساقَ التعليل لِما قبله مِن حيازتِهم للفضل وبُعْدِهم عن السُّوءِ بأنَّ وليَّهم اللهُ، وعدوَّهم الشيطانُ، فقال التفاتًا إليهم بزيادةٍ في تنشيطِهم أو تشجيعهم وتثبيتهم: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾(٤).

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٧١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٧١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٨٢).

(٤) نظم الدرر (٥/ ١٣٠، ١٣١).

جملةُ ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾: إمَّا استئنافٌ بيانيٌّ إن جعلتَ قولَه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ بدلًا أو صفةً كما تقدَّم، وإمَّا خبرٌ عن ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ إن جعلتَ قولَه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ مبتدأً؛ والتقدير: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ إلىٰ آخرِه، إنَّما مَقالُهم يخوِّفُ الشيطانُ به(١).

قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ يعني: ذلك الذي قال لكم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ مِن فعلِ الشيطان، ألقىٰ في أفواهِهم؛ ليَرهَبوهم، ويَجبُنوا عنهم(٢).

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦﴾

ولمَّا مدَح - سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ - المسارِعين في طاعته، وطاعةِ رسوله ﷺ، وختَم ذلك بالنَّهْيِ عن الخوفِ مِن أولياء الشيطان؛ أعقَبه بذَمِّ المسارِعين في الكفر، والنَّهْيِ عن الحزنِ مِن أجلهم. ولمَّا كان أكثَرُ الناس - كالمنافِقين الراجعين عن أُحُدٍ، ثم المقاتِلين القائلين: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖ﴾ - أرجَفوا إلىٰ أبي عامرٍ وعبدِ الله بن أُبَيٍّ لأخذِ الأمان مِن أبي سفيانَ، ثم رَكْب عبدِ القَيْسِ أو نعيم بن مسعودٍ، ثم مَن استجاب مِن أهلِ المدينة وأرجَف بما قالوا في تَبْطِ(٣) المؤمنين، وكان ذلك ممَّا يُخطِرُ بالبال تمادِيَ أيام الكفر وأهله غالبين، ويَقدَحُ في رجاءِ قِصَرِ مدَّتِه، ويوجِبُ الحُزْنَ علىٰ ذلك؛ قال تعالىٰ قاصرًا الخطابَ علىٰ أعظَمِ الخَلْقِ وأشفَقِهم وأحَبِّهم في صلاحهم: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٧١).

(٢) تفسير البغوي (١/ ٥٤٢).

(٣) بمعنىٰ التثبيط.

(٤) نظم الدرر (٥/ ١٣٣).

لمَّا نهىٰ المؤمنين عن خوفِ أولياءِ الشيطان، وأمَرهم بخوفِهِ وحده تعالىٰ؛ نهىٰ رسولَه ﷺ عن الحُزْنِ لمسارعةِ مَن سارَع في الكفر[(١)].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾

لمَّا كان قَبولُ نُعَيمٍ ورَكْبِ عبدِ القَيْسِ لذلك الجُعْلِ الذي هو مِن أسبابِ الكفر شِرَىٰ الكفرِ بالإيمان، عقَّب بقولِه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[(٢)].

تكريرٌ لجملةِ ﴿ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾، قُصِد به، مع التأكيدِ، إفادةُ هذا الخبَرِ استقلالًا للاهتمام به بعد أن ذُكِر علىٰ وجهِ التعليل لتسليةِ الرسول ﷺ، وفي اختلافِ الصِّلتينِ إيماءٌ إلىٰ أنَّ مضمونَ كلِّ صلةٍ منهما هو سببُ الخبَرِ الثابت لموصولها، وتأكيدٌ لقوله: ﴿ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ المتقدِّم[(٣)].

اعلَمْ أنَّا لو حمَلْنا الآيةَ الأُولىٰ علىٰ المنافِقين واليهود، وحمَلْنا هذه الآيةَ علىٰ المرتدِّين؛ لا يبعُدُ أيضًا حَمْلُ الآيةِ الأُولىٰ علىٰ المرتدِّين، وحملُ هذه الآيةِ علىٰ اليهود، ومعنىٰ اشتراءِ الكفرِ بالإيمان منهم: أنَّهم كانوا يَعرِفون النبيَّ ﷺ ويؤمنون به قبل مَبعَثِه، ويَستنصرون به علىٰ أعدائهم، فلمَّا بُعِث، كفَروا به، وترَكوا ما كانوا عليه، فكأنَّهم أعطَوُا الإيمانَ وأخَذوا الكفرَ بدلًا عنه؛ كما يفعلُ المشتري مِن إعطاءِ شيءٍ وأخذِ غيرِه بدلًا عنه، ولا يبعُدُ أيضًا حملُ هذه الآيةِ علىٰ المنافِقين؛ وذلك

(١) البحر المحيط (٣/ ٤٤١).

(٢) نظم الدرر (٥/ ١٣٤).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ١٧٤).

لأنَّهم متىٰ كانوا مع المؤمنين أظهروا الإيمان، فإذا خَلَوْا إلىٰ شياطينِهم كفروا وتركوا الإيمانَ؛ فكان ذلك كأنَّهم اشترَوُا الكفرَ بالإيمان[(١)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذا عامٌّ في الكفارِ كلِّهم، وقولُه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إن كان عامًّا فكُرِّر هذا علىٰ سبيلِ التوكيد، وإن كان خاصًّا بالمنافِقين أو المرتدِّين أو كفارِ قُريشٍ فيكونُ ليس تكريرًا علىٰ سبيلِ التأكيد، بل حكمٌ علىٰ العامِّ بأنَّهم لن يضُرُّوا اللهَ شيئًا، ويندرجُ فيه ذلك الخاصُّ أيضًا، فيكون الحُكْمُ في حقِّهم علىٰ سبيل التأكيد، ويكونُ قد جمَع للخاصِّ العذابَ بنوعيه مِن العِظَمِ والألم، وهو أبلَغُ في حقِّهم في العذاب، وجعَل ذلك اشتراءً مِن حيث تمكُّنُهم مِن قَبولِ الخير والشر، فآثَروا الكفرَ علىٰ الإيمان[(٢)].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨)﴾

لمَّا كان ممَّا اشتُرِي به الكفرُ رجوعُ المنافِقين عن أُحُدٍ الذي كان سببًا للإملاءِ لهم، قال ﷻ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[(٣)].

عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾، والمقصودُ مقابلةُ الإعلامِ بخلافِ الحِسْبانِ في حالتينِ: إحداهما: تلُوحُ للناظر حالةَ ضُرٍّ، والأخرىٰ: تلُوحُ حالةَ خيرٍ؛ فأعلَمَ اللهُ أنَّ كلتا الحالتينِ علىٰ خلافِ ما يَتراءىٰ للناظرين، ويجوز

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٣٧).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٤٤٣).

(٣) نظم الدرر (٥/ ١٣٤).

كونُه معطوفًا علىٰ قوله: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾؛ إذ نهاه عن أن يكونَ ذلك موجِبًا لحُزْنِه؛ لأنَّهم لا يضُرُّون اللهَ شيئًا، ثم ألقىٰ إليه خبَرًا لقصدِ إبلاغِه إلىٰ المشركين وإخوانِهم المنافِقين: ألا يَحسَبوا أنَّ بقاءَهم نفعٌ لهم، بل هو إملاءٌ لهم، يزدادون به آثامًا؛ ليكونَ أخذُهم بعد ذلك أشَدَّ[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ حكىٰ عن الذين ذهَبوا إلىٰ المدينة لتثبيطِ أصحاب النبيِّ ﷺ أنَّهم إنَّما ثبَّطوهم لأنَّهم خوَّفوهم بأن يُقتَلوا كما قُتِل المسلمون يومَ أُحُدٍ، واللهُ تعالىٰ بيَّن أنَّ أقوالَ هؤلاء الشياطينِ لا يَقبلُها المؤمنُ ولا يلتفتُ إليها، وإنَّما الواجبُ علىٰ المؤمنِ أن يعتمِدَ علىٰ فضلِ الله، ثم بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ بقاءَ هؤلاء المتخلِّفين ليس خيرًا مِن قَتْلِ أولئك الذين قُتِلوا بأُحُدٍ؛ لأنَّ هذا البقاءَ صار وسيلةً إلىٰ الخِزْيِ في الدنيا، والعقابِ الدائم في القيامة، وقَتْلَ أولئك الذين قُتِلوا يومَ أُحُدٍ صار وسيلةً إلىٰ الثناءِ الجميل في الدنيا، والثوابِ الجزيل في الآخرة؛ فترغيبُ أولئك المثبِّطِين في مثلِ هذه الحياةِ وتنفيرُهم عن مثلِ ذلك القتلِ لا يَقبلُه إلا جاهلٌ؛ فهذا بيانُ وجهِ النَّظم[(٢)].

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩﴾

لمَّا كان مطلَقُ المسارَعةِ أعَمَّ ممَّا بالعِوَضِ، وهو أعَمُّ ممَّا بالرجوع؛ جاء نَظْمُ الآياتِ علىٰ ذاك، ولمَّا كشَفتْ هذه الوَقْعةُ جملةً مِن المغيَّباتِ -مِن أعظَمِها تمييزُ المخلِصِ فعلًا أو قولًا مِن غيرِه-، أخبَر تعالىٰ أنَّ ذلك مِن أسرارِها علىٰ وجهٍ يشيرُ إلىٰ النَّعْيِ علىٰ المنافِقين بتأخيرِهم أنفسَهم بالرجوع وغيرِه، فقال مشيرًا بخطابِ الأتباع إلىٰ

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٧٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٣٨).

مَزيدِ علمِهِ ﷺ، وعلوِّ درجتِه لديه، وعظيمِ قُرْبِهِ منه سبحانه وتعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(١).

استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو رجوعٌ إلىٰ بيانِ ما في مصيبةِ المسلمين مِن الهزيمةِ يومَ أُحُدٍ مِن الحِكَم النافعةِ دُنْيَا وأخرىٰ؛ فهو عَوْدٌ إلىٰ الغرضِ المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٦٦﴾، بيَّن هنا أنَّ اللهَ لم يُرِدْ دوامَ اللَّبْسِ في حالِ المؤمنين والمنافِقين واختلاطِهم، فقدَّر ذلك زمانًا كانت الحِكْمةُ في مثلِهِ تقتضي بقاءَه، وذلك أيَّامَ ضَعْفِ المؤمنين عَقِبَ هِجْرتِهم وشِدَّةِ حاجتهم إلىٰ الاقتناعِ مِن الناس بحُسْنِ الظاهر حتىٰ لا يَبدأَ الانشقاقُ مِن أولِ أيام الهجرة، فلمَّا استقرَّ الإيمانُ في النفوس، وقَرَّ للمؤمنين الخالِصين المُقامُ في أمنٍ؛ أراد اللهُ تعالىٰ تَنْهيَةَ الاختلاط، وأن يَميزَ الخبيثَ مِن الطيِّبِ، وكان المنافقون يكتُمون نفاقَهم لمَّا رأَوْا أمرَ المؤمنين في إقبالٍ، ورأَوُا انتصارَهم يومَ بَدْرٍ، فأراد اللهُ أن يَفضَحَهم ويُظهِرَ نفاقَهم؛ بأن أصاب المؤمنين بقَرْحِ الهزيمةِ حتىٰ أظهَر المنافقون فرَحَهم بنُصْرةِ المشركين، وسجَّل اللهُ عليهم نفاقَهم باديًا للعِيان(٢).

اعلَمْ أنَّ هذه الآيَةَ مِن بقيَّةِ الكلام في قصَّة أُحُدٍ، فأخبَر تعالىٰ أنَّ الأحوالَ التي وقَعتْ في تلك الحادثةِ مِن القتل والهزيمة، ثم دعاءِ النبيِّ ﷺ إيَّاهم مع ما كان بهم مِن الجِراحات إلىٰ الخروج لطلبِ العدوِّ، ثم دعائه إيَّاهم مرَّةً أخرىٰ إلىٰ بَدْرٍ الصغرىٰ لموعدِ أبي سفيانَ، فأخبَر تعالىٰ أنَّ كلَّ هذه الأحوالِ صار دليلًا علىٰ امتيازِ المؤمنِ مِن المنافق؛ لأنَّ المنافِقين خافوا ورجَعوا وشمَتوا بكثرةِ القتلىٰ منكم، ثم ثبَّطوا

(١) نظم الدرر (٥/ ١٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ١٧٧).

وزهَّدوا المؤمنين عن العَوْدِ إلىٰ الجهاد، فأخبرَ ﷻ أنَّه لا يجوزُ في حِكْمتِه أن يَذَرَكم علىٰ ما أنتم عليه مِن اختلاطِ المنافِقين بكم وإظهارِهم أنَّهم منكم ومِن أهلِ الإيمان، بل كان يجبُ في حِكْمتِه إلقاءُ هذه الحوادثِ والوقائع حتىٰ يحصُلَ هذا الامتيازُ؛ فهذا وجهُ النَّظم[1].

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ كلامٌ مستأنَف مسُوقٌ لوعدِه المؤمنين، ووعيدِه المنافِقين بالعقوبةِ الدنيوية، التي هي الفضيحةُ والخِزْيُ، إثرَ بيانِ عقوبتِهم الأخروية[2].

ثم أشار ﷻ إلىٰ بعضِ الحِكَمِ والغايات المحمودة التي كانت في وَقْعةِ أُحُدٍ؛ وهو أن يَتميَّزَ المؤمنُ الصادق مِن المنافِقِ الكاذب؛ فإنَّ المسلمين لمَّا أظهَرَهم اللهُ علىٰ أعدائهم يومَ بَدْرٍ، وطارَ لهم الصِّيتُ؛ دخَل معهم في الإسلامِ ظاهرًا مَن ليس معهم فيه باطنًا، فاقتضت حِكْمةُ الله ﷻ أنْ سبَّبَ لعباده مِحْنةً ميَّزت بَيْنَ المؤمنِ والمنافِقِ؛ فأطلَعَ المنافقون رؤوسَهم في هذه الغزوةِ، وتكلَّموا بما كانوا يكتُمونه، وظهَر مخبَّآتُهم، وعاد تلويحُهم صريحًا، وانقسَم الناسُ إلىٰ كافرٍ ومؤمن ومنافق انقسامًا ظاهرًا، وعرَف المؤمنون أنَّ لهم عدوًّا في نفسِ دُورِهم، وهم معهم لا يفارِقونهم، فاستعدُّوا لهم، وتحرَّزوا منهم، فقال تعالىٰ: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[3].

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٤١).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ١١٨).

(٣) محاسن التأويل (٢/ ٤٦٤).

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾

لمَّا كان مِن جملةِ مَباني السُّورةِ الإنفاقُ، وتقدَّم في غيرِ آيةٍ مدحُ المتَّقين به وحَثُّهم عليه، وتقدَّم أنَّ الكفارَ سارَعوا في الكفرِ: أبو سفيانَ بالإنفاقِ في سبيل الشيطان علىٰ مَن يخذِّلُ الصحابةَ، ونُعَيمٌ أو عبدُ القَيْسِ بالسعيِ في ذلك، وكان المبادِرون إلىٰ الجهاد قد تضمَّن فِعْلُهم السماحَ بما آتاهم اللهُ مِن الأنفسِ والأموال، وكان اللهُ ﷻ قد أخبرَ بما لهم عنده مِن الحياةِ التي هي خيرٌ مِن حياتِهم التي أذهَبوها في حُبِّه، والرِّزْقِ الذي هو أفضَلُ ممَّا أنفقوا في سبيلِه؛ ذَمَّ اللهُ ﷻ الباخِلينَ بالأنفُسِ والأموال في سبيل الله، فقال: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(١).

عطفٌ علىٰ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ لأنَّ الظاهرَ أنَّ هذا أُنزِلَ في شأنِ أحوال المنافِقين؛ فإنَّهم كانوا يَبخَلون ويأمرون الناس بالبُخْلِ؛ كما حكىٰ اللهُ عنهم في سورةِ «النساء» بقولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾، وكانوا يقولون: ﴿ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ﴾، وغير ذلك، ولا يجوزُ بحالٍ أن يكونَ نازلًا في شأنِ بعض المسلمين؛ لأنَّ المسلمين يومئذ مُبرَّؤون مِن هذا الفعلِ، ومِن هذا الحِسْبانِ؛ ولذلك قال معظَمُ المفسِّرين: إنَّ الآيةَ نزلَتْ في مَنْعِ الزكاةِ؛ أي: فيمَن منَعوا الزكاةَ، وهل يَمنعُها يومئذٍ إلا

(١) نظم الدرر (٥/ ١٣٧).

منافِقٌ؟! ولعل مناسبةَ ذِكْرِ نزولِ هذه الآيةِ هنا: أنَّ بعضَهم منَع النفقةَ في سبيلِ الله في غزوةِ أُحُدٍ(١).

مناسبتُها لِما قبلها: أنَّه تعالىٰ لمَّا بالَغ في التحريضِ علىٰ بَذْلِ الأرواحِ في الجهاد في الآياتِ السابقة، شرَع في التحريضِ هنا علىٰ بَذْلِ الأموال في الجهادِ وغيرِه، وبيَّن الوعيدَ الشديد لِمَن يَبخَلُ، والبُخْلُ الشرعيُّ: عبارةٌ عن منعِ بذلِ الواجب(٢).

بيانٌ لحالِ البُخْلِ ووخَامةِ عاقبتِه، وتخطئةٌ لأهله في توهُّمِ خيريَّتِه حسَبَ بيانِ حالِ الإملاء، وإيرادُ ما بَخِلوا به بعنوانِ إيتاءِ الله تعالىٰ إيَّاه مِن فضلِهِ للمبالغةِ في بيانِ سُوءِ صنيعِهم؛ فإنَّ ذلك مِن موجِباتِ بَذْلِه في سبيله(٣).

﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١﴾

لمَّا كان العملُ شاملًا لتصرُّفاتِ الجوارح كلِّها مِن القلبِ واللسان وسائرِ الأركان، قال - دالًّا علىٰ خبَرِه بسماعِ ما قالوه متجاوِزين وَهْدةَ(٤) البخلِ إلىٰ حضيضِ القُبْحِ، مريدِين التشكيكَ لأهل الإسلام بما يورِدونه مِن الشُّبَهِ قياسًا علىٰ ما يَعرِفونه مِن أنفسِهم مِن أنَّه، كما تقدَّم، لا يطلُبُ إلا محتاجٌ -: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٤٥١).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٢٠).

(٤) أي: منخفض من الأرض.

(٥) نظم الدرر (٥/ ١٣٩).

استئنافُ جملةِ ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ لمناسبةِ ذِكْرِ البخلِ؛ لأنَّهم قالوه في مَعرِضِ دفعِ الترغيبِ في الصدقات، والذين قالوا ذلك هم اليهودُ؛ كما هو صريح آخِر الآيةِ في قوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وقائلُ ذلك: قيل: هو حُيَيُّ بن أخطَبَ اليهوديُّ، حَبْرُ اليهودِ، لمَّا سَمِع قولَه تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، فقال حُيَيٌّ: إنَّما يستقرِضُ الفقيرُ الغنيَّ(١)(٢).

اعلَمْ أنَّ في كيفيَّةِ النَّظْمِ وجهين: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر المكلَّفِين في هذه الآياتِ ببَذْلِ النفسِ وبذلِ المال في سبيل الله، وبالَغ في تقريرِ ذلك؛ شرَع بعد ذلك في حكايةِ شُبُهاتِ القوم في الطَّعْنِ في نبوَّتِه. فالشبهةُ الأُولىٰ: أنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر بإنفاقِ الأموال في سبيله، قالت الكفارُ: إنَّه تعالىٰ لو طلَب الإنفاقَ في تحصيلِ مطلوبه، لكان فقيرًا عاجزًا؛ لأنَّ الذي يطلُبُ المالَ مِن غيرِه يكون فقيرًا، ولمَّا كان الفقرُ علىٰ الله تعالىٰ مُحالًا، كان كونُهُ طالبًا للمال مِن عبيدِهِ مُحالًا؛ وذلك يدُلُّ علىٰ أنَّ محمَّدًا كاذبٌ في إسنادِ هذا الطلَبِ إلىٰ الله تعالىٰ. الوجهُ الثاني في طريقِ النَّظم: أنَّ أمَّةَ موسىٰ ﵇ كانوا إذا أرادوا التقرُّبَ بأموالهم إلىٰ اللهِ تعالىٰ، فكانت تَجيءُ نارٌ مِن السماء فتُحرِقُها، فالنبيُّ ﷺ لمَّا طلَب منهم بَذْلَ الأموالِ في سبيل الله، قالوا له: لو كنتَ نبيًّا، لَمَا طلَبتَ الأموالَ لهذا الغرضِ؛ فإنَّه تعالىٰ ليس بفقيرٍ حتىٰ يَحتاجَ في إصلاح دِينِه إلىٰ أموالنا، بل لو كنتَ نبيًّا، لكنتَ تطلُبُ أموالَنا لأجلِ أن تَجِيئَها نارٌ مِن السماء فتُحرِقَها، فلمَّا لم تَفعَلْ ذلك، عرَفْنا أنَّك لستَ بنبيٍّ؛ فهذا هو وجهُ النَّظم(٣).

---

(١) أخرجه ابن جرير في "التفسير" (٦/ ٢٨٠).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ١٨٠، ١٨١).

(٣) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٤٦).

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

والإشارةُ في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ للعذابِ المُشاهَدِ يومئذٍ، وفيه تهويلٌ للعذاب(١).

لمَّا ذكَر الوعيدَ الشديد، ذكَر سببَه، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾؛ أي: هذا العذابُ المُحرِقُ جزاءُ فعلِكم؛ حيث وصَفْتم اللهَ، وأقدَمْتم على قَتْلِ الأنبياء، فيكونُ هذا العقابُ عَدْلًا، لا جَوْرًا(٢).

الإشارةُ إلى ما تقدَّم مِن عقابِهم، ونسَبَ ما قدَّموه مِن المعاصي القوليَّةِ والفعليَّة والاعتقاديَّة إلى الأيدي على سبيلِ التغليبِ؛ لأنَّ الأيديَ تُزاوِلُ أكثرَ الأعمالِ، فكأنَّ كلَّ عمَلٍ واقعٌ بها، وهذه الجملةُ داخلةٌ في المقُولِ، وُبِّخُوا بذلك، وذُكِر لهم السبَبُ الذي أوجَبَ لهم العقابَ(٣).

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾

لمَّا كان القُرْبانُ مِن جنسِ النفقات، وممَّا يتبيَّنُ به سماحُ النفوس وشُحُّها؛ حسُنَ نَظْمُ آيةِ القُرْبانِ هنا بقولِه - رادًّا شُبْهةً لهم أخرى، ومبيِّنًا قَتْلَهم الأنبياءَ-: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٨٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٤٨).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٤٥٦).

(٤) نظم الدرر (٥/ ١٤١).

أُبدِلَ ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ ﴾ مِن ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾؛ لذِكْرِ قَوْلَةٍ أخرىٰ شنيعةٍ منهم؛ وهي كَذِبُهم علىٰ الله في أنَّه عَهِد إليهم علىٰ ألسنةِ أنبيائهم أن لا يؤمِنوا لرسولٍ حتىٰ يأتيَهم بقُرْبانٍ؛ أي: حتىٰ يَذبَحَ قُرْبانًا فتأكلَه نارٌ تَنزِلُ مِن السماء؛ فتلك علامةُ القَبول، وقد كان هذا حصَل في زمَنِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ذبَح أولَ قُرْبانٍ علىٰ النحوِ الذي شرَعه اللهُ لبني إسرائيلَ، فخرَجتْ نارٌ مِن عندِ الربِّ فأحرَقتْهُ؛ كما في سِفْرِ «اللاويين»، إلا أنَّه معجِزةٌ لا تطَّرِدُ لسائرِ الأنبياء؛ كما زعَمه اليهودُ؛ لأنَّ معجِزاتِ الرُّسل تَجيءُ علىٰ ما يناسِبُ تصديقَ الأمَّةِ، وفي الحديثِ: «ما مِن الأنبياءِ نَبِيءٌ إلا أُوتيَ مِن الآياتِ ما مِثلُه آمَنَ عليه البشَرُ، وإنَّما كان الذي أُوتيتُ وحيًا أوحىٰ اللهُ إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثَرَهم تابعًا يومَ القيامةِ»(١)(٢).

اعلَمْ أنَّ هذه هي الشُّبْهةُ الثانية للكفارِ في الطَّعْنِ في نبوَّته ﷺ، وتقريرُها أنَّهم قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾، وأنت يا محمَّدُ ما فعَلتَ ذلك؛ فوجَب ألا تكونَ مِن الأنبياءِ؛ فهذا بيانُ وجهِ النَّظم(٣).

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤﴾

لمَّا كانت هذه السُّورةُ متضمِّنةً لكثيرٍ مِن الدقائقِ التي أخفَوْها مِن كتابِهم الذي جعَلوه قراطيسَ يُبدُونها ويُخفُون كثيرًا، وفي هذه الآيةِ بخصوصها مِن ذلك ما يقتضي تصديقَه ﷺ، وكان سبحانه عالِمًا بأنَّ أكثَرَهم يعانِدون؛ سبَّب عن ذلك أنْ

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ١٨٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٤٩).

سَلَّاه في تكذيبِ المكذِّبين منهم بقولِه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾[١].

ثم سلَّىٰ نبيَّه ﷺ بقولِه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾، «الفاء» دليلُ الجوابِ؛ لأنَّه عِلَّتُه؛ والتقديرُ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾، فلا عجَبَ، أو فلا تَحزَنْ؛ لأنَّ هذه سُنَّةٌ قديمة في الأُمَمِ مع الرُّسلِ مِثلِك، وليس ذلك لنقصٍ فيما جئتَ به[٢].

شروعٌ في تسليةِ رسول الله ﷺ إثرَ ما أُوحِيَ إليه ما يحزُنُه عليه الصلاة والسلام مِن مقالاتِ الكفرةِ مِن المشرِكين واليهودِ[٣].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

لمَّا تقدَّم في قصَّةِ أُحُدٍ رجوعُ المنافِقين وهزيمةُ بعضِ المؤمنين ممَّا كان سبَبَ ظَفَرِ الكافرين، وعابَ سبحانه ذلك عليهم بأنَّهم هرَبوا مِن موجِباتِ السعادةِ والحياة الأبدية إلىٰ ما لا بدَّ منه، وإلىٰ ذلك أشار بقولِه: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾، ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾، وغيرِ ذلك ممَّا بكَّتهم به في رجوعِهم حذَرَ الموتِ وطلَبَ امتدادِ العُمُرِ، مع ما افتتَح به مِن أنَّ موتَ هذا النبيِّ الكريم وقَتْلَهُ ممكِنٌ، كما كان مَن قَبْلَه مِن إخوانِه مِن الرُّسلِ علىٰ جميعِهم أفضَلُ الصلاة والسلام والتحية والإكرام!

---

(١) نظم الدرر (٥/ ١٤٣).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ١٨٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٢٢).

وختَم بالإخبار بأنَّه وقَع قتلُ كثير مِن الرُّسلِ، فكان ذلك محقَّقًا لأنَّه لا يصانُ مِن الموتِ خاصٌّ ولا عامٌّ، مضمومًا إلىٰ ما نشاهِدُ مِن ذلك في كلِّ لحظةٍ؛ صوَّر ذلك الموتَ بعد أن صار مستحضَرًا للعِيانِ تصويرًا أوجَبَ التصريح به إشارةً إلىٰ أنَّ حالَهم في هرَبِهم ورجوعِهم وما تَبِع ذلك مِن قولِهم حالُ مَن هو في شكٍّ منه، فقال تعالىٰ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[(١)].

هذه الآيةُ مرتبِطةٌ بأصلِ الغرضِ المسُوقِ له الكلامُ؛ وهو تسليةُ المؤمنين علىٰ ما أصابهم يومَ أُحُدٍ، وتفنيدُ المنافِقين في مزاعمِهم أنَّ الناسَ لو استشاروهم في القتالِ، لأشاروا بما فيه سلامتُهم فلا يَهلِكوا؛ فبَعْدَ أن بيَّن لهم ما يَدفَعُ توهُّمَهم أنَّ الانهزامَ كان خِذْلانًا مِن الله، وتعجُّبَهم منه كيف يَلحَقُ قومًا خرَجوا لنَصْرِ الدِّينِ وأن لا سببَ للهزيمة بقولِه: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾، ثم بيَّن لهم أنَّ في تلك الرَّزيَّةِ فوائدَ بقولِ الله تعالىٰ: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾، وقولِه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم أمَرهم بالتسليم للهِ في كلِّ حالٍ، فقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ﴾ الآيةَ، وبيَّن لهم أنَّ قتلىٰ المؤمنين الذين حَزِنوا لهم إنَّما هم أحياءٌ، وأنَّ المؤمنين الذين لم يَلحَقوا بهم لا يُضِيعُ اللهُ أجرَهم، ولا فَضلَ ثَباتِهم، وبيَّن لهم أنَّ سلامةَ الكفار لا ينبغي أن تحزُنَ المؤمنين، ولا أن تسُرَّ الكافرين، وأبطَلَ في خلالِ ذلك مَقالَ المنافِقين بقولِه: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾، وبقولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾؛

---

(١) نظم الدرر (٥/ ١٤٤، ١٤٥).

ختمَ ذلك كلَّه بما هو جامعٌ للغرَضَينِ في قوله تعالىٰ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾؛ لأنَّ المصيبةَ والحُزْنَ إنَّما نشَأا علىٰ موتِ مَن استُشهِد مِن خِيرةِ المؤمنين؛ يعني أنَّ الموتَ لمَّا كان غايةَ كلِّ حيٍّ، فلو لم يمُوتُوا اليومَ، لماتوا بعد ذلك؛ فلا تأسَفوا علىٰ موتِ قَتْلاكم في سبيلِ الله، ولا يَفتِنْكم المنافِقون بذلك، ويكونُ قولُه بعده: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ قَصْرَ قلبٍ لتنزيلِ المؤمنين - فيما أصابهم مِن الحُزْنِ علىٰ قَتْلاهم، وعلىٰ هزيمتِهم - منزلةَ مَن لا يَترقَّبُ مِن عمَلِه إلا منافعَ الدنيا، وهو النَّصْرُ والغنيمة، مع أنَّ نهايةَ الأجرِ في نعيمِ الآخرة؛ ولذلك قال: ﴿تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ ﴾؛ أي: تُكمَّلُ لكم، وفيه تعريضٌ بأنَّهم قد حصَلتْ لهم أجورٌ عظيمة في الدنيا علىٰ تأييدِهم للدِّين: منها النَّصْرُ يومَ بَدْرٍ، ومنها كَفُّ أيدي المشركين عنهم في أيامِ مقامِهم بمكَّةَ إلىٰ أن تمكَّنوا مِن الهجرة(١).

لمَّا تقدَّم ذِكْرُ المكذِّبين الكاذبين علىٰ اللهِ مِن اليهود والمنافِقين، وذِكْرُهم المؤمنين؛ نُبِّهوا كلُّهم علىٰ أنَّهم ميِّتون، ومآلُهم إلىٰ الآخرةِ؛ ففيها يَظهَرُ الناجي والهالكُ، وأن ما تعلَّقوا به في الدنيا مِن مالٍ وأهل وعشيرة إنَّما هو علىٰ سبيلِ التمتُّع المغرور به، كلُّها تضمحِلُّ وتزُولُ، ولا يَبقَىٰ إلا ما عَمِله الإنسانُ، وهو يُوفَّاه في الآخرةِ؛ يُوفَّىٰ علىٰ طاعتِه ومعصيته(٢).

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن هذه الآيةِ تأكيدُ تسليةِ الرسول ﷺ، والمبالغةُ في إزالةِ الحُزْنِ مِن قلبِه؛ وذلك مِن وجهينِ: أحدهما: أنَّ عاقبةَ الكلِّ الموتُ، وهذه الغمومُ والأحزان تَذهَبُ وتزُولُ، ولا يَبقَىٰ شيءٌ منها، والحُزْنُ متىٰ كان كذلك، لم يلتفِتِ العاقلُ إليه. والثاني: أنَّ بَعْدَ هذه الدارِ دارًا يَتميَّزُ فيها المُحسِنُ عن المُسِيء، ويَتوفَّر

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٨٧).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٤٦٠).

علىٰ عمَلِ كلِّ واحدٍ ما يَليقُ به مِن الجزاءِ. وكلُّ واحدٍ مِن هذين الوجهين في غايةِ القوَّةِ في إزالةِ الحُزْنِ والغمِّ عن قلوبِ العقلاءِ(١).

﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾

لمَّا سلَّىٰ اللهُ سبحانه وتعالى نبيَّه ﷺ عن تكذيبِهم له بما لَقِي إخوانُه مِن الرُّسل، وبأنَّه لا بد مِن الانقلابِ إليه، فيفوزُ مَن كان مِن أهلِ حِزْبِه، ويَشقَىٰ مَن والىٰ أعداءَه وذَوِي حَرْبه؛ أعاد التسليةَ علىٰ وجهٍ يشملُ المؤمنين، وساقها مساقَ الإخبارِ بحلولِ المصائب الكبار التي هي مِن شعائرِ الأخيار، في دارِ الأكدار، المُعْلِيَةِ لهم في دارِ القرار، فقال - مؤكِّدًا لأنَّ الواقفَ في الخدمة يُنكِرُ أن يُصِيبَه معبودُه بسُوءٍ؛ هذا طبعُ البشرِ، وإن تطبَّعَ بخلافه، وأفاد ذِكْرُه قبل وقوعِه تهوينَهُ بتوطينِ النفسِ عليه، وأفاد بناؤه للمفعول أنَّ المكنىٰ البلاءُ، لا كونُه مِن جهةٍ معيَّنة -: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(٢).

استئنافٌ لإيقاظِ المؤمنين إلىٰ ما يعترِضُ أهلَ الحقِّ وأنصارَ الرُّسل مِن البلوىٰ، وتنبيهٌ لهم علىٰ أنَّهم إن كانوا ممَّن تُوهِنُهم الهزيمةُ، فليسوا أَحْرياءَ بنَصْرِ الحقِّ، وأكَّد الفعلَ بلامِ القَسَمِ وبنونِ التوكيد الشديدةِ لإفادةِ تحقيقِ الابتلاء؛ إذ نونُ التوكيدِ الشديدةُ أقوىٰ في الدلالةِ علىٰ التوكيد مِن الخفيفة(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٥١).

(٢) نظم الدرر (٥/ ١٤٨).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ١٨٩).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا سلَّىٰ الرسولَ ﷺ بقولِه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾، زادَ في تسليتِه بهذه الآيةِ؛ فبيَّن أنَّ الكفارَ بعد أن آذَوُا الرسولَ والمسلمين يومَ أُحُدٍ، فسيؤذونهم أيضًا في المستقبَلِ بكلِّ طريقٍ يمكِنُهم؛ مِن الإيذاء بالنفس، والإيذاء بالمال؛ والغرضُ مِن هذا الإعلامِ: أن يوطِّنوا أنفسَهم علىٰ الصبرِ وتَرْكِ الجزعِ؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ إذا لم يَعلَمْ نزولَ البلاء عليه، فإذا أُنزِلَ البلاءُ عليه شَقَّ ذلك عليه، أمَّا إذا كان عالِمًا بأنَّه سينزِل، فإذا نزَل لم يعظُمْ وَقْعُه عليه[1].

والآيةُ مسُوقةٌ في ذمِّ أهلِ الكتاب وغيرِهم مِن المشركين؛ فناسَبتْ ما قبلها مِن الآيات التي جاءت في ذمِّ أهلِ الكتاب وغيرِهم مِن المشركين[2].

شروعٌ في تسليةِ رسول الله ﷺ ومَن معه مِن المؤمنين عمَّا سيلقَوْنَه مِن جهةِ الكفَرةِ مِن المكارِهِ، إثرَ تسليتِهم عمَّا قد وقَع منهم؛ ليوطِّنوا أنفسَهم علىٰ احتمالِه عند وقوعِه، ويَستعدوا لِلِقائه، ويقابِلوه بحُسْنِ الصبرِ والثَّبات؛ فإنَّ هجومَ الأَوْجال[3] ممَّا يزلزِلُ أقدامَ الرِّجال، والاستعدادَ للكُرُوب ممَّا يهوِّنُ الخُطُوب[4].

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) ﴾

ولمَّا قدَّم ﷻ في أوائلِ قصصِ اليهود أنَّه أخَذ علىٰ النبيِّين الميثاقَ بما أخَذ، وأخبرَهم أنَّه مَن تولَّىٰ بعد ذلك فهو الفاسقُ، ثم أخبَر أنَّ النبيِّين وفَّوْا بالعهدِ، وأنَّ كثيرًا مِن أتباعهم خانَ؛ ثنَّىٰ هنا بالتذكيرِ بذلك العهدِ، علىٰ وجهٍ يَشمَلُ العلماءَ، بعد

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٥٣).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٤٦٣).

(٣) أي: المخاوف.

(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٢٣).

الإخبارِ بسماع الأذىٰ المتضمِّنِ لنَقْضِهم للعهدِ؛ فكان التذكيرُ بهذا الميثاقِ كالدليل علىٰ مضمونِ الآيةِ التي قبلها، وكأنَّه قيل: فاذكُروا قولي لكم: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾، واجعَلوه نُصْبَ أعيُنِكم؛ لتوطِّنوا أنفسَكم عليه، فلا يَشتدَّ جزَعُكم بحلولِ ما يحُلُّ منه، واذكُروا إذ ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [1].

لمَّا انقضَتْ قصَّةُ أُحُدٍ وما تَبِعها إلىٰ أن خُتِمتْ بعد الوعظِ بتحتُّمِ الموت الذي فَرَّ مَن فَرَّ منهم منه، وخوَّف الباقِينَ أمره بمثلِ ما تقدَّم أنَّه جعَلها دليلًا عليه مِن بُغْضِ أهلِ الكتاب وما تَبِعَه؛ عطَف علىٰ «إذ» المقدَّرةِ لعطفِ ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ عليها قولَهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [2].

معطوفٌ علىٰ قوله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ فإنَّ تكذيبَ الرسولِ ﷺ مِن أكبرِ الأذىٰ للمسلمين، وإنَّ الطَّعْنَ في كلامِه وأحكامِ شريعته مِن ذلك [3].

اعلَمْ أنَّ في كيفيَّة النَّظْمِ وجهين: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عن اليهودِ شُبَهًا طاعنةً في نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ، وأجاب عنه؛ أتبعه بهذه الآيةِ؛ وذلك لأنَّه تعالىٰ أوجَبَ عليهم في التَّوراةِ والإنجيل علىٰ أمَّةِ موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام أن يَشرَحوا ما في هذين الكتابينِ مِن الدلائل الدالَّةِ علىٰ صحَّةِ دِينِه، وصِدْقِ نبوَّتِه ورسالته، والمرادُ منه التعجُّبُ مِن حالهم، كأنَّه قيل: كيف يَلِيقُ بكم إيرادُ الطَّعْنِ في نبوَّتِه ودِينِه مع أنَّ كُتُبَكم ناطقةٌ

---

(١) نظم الدرر (٥/ ١٥١).

(٢) نظم الدرر (٥/ ١٥١، ١٥٢).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ١٩١).

ودالَّة علىٰ أنَّه يجب عليكم ذِكْرُ الدلائلِ الدالة علىٰ صِدْقِ نبوَّتِه ودِينِه؟! الثاني: أنَّه تعالىٰ لمَّا أوجَبَ في الآيةِ المتقدِّمة علىٰ محمَّدٍ ﷺ احتمالَ الأذىٰ مِن أهلِ الكتاب، وكان مِن جملةِ إيذائهم للرسول ﷺ أنَّهم كانوا يكتُمون ما في التَّوراةِ والإنجيل مِن الدلائلِ الدالة علىٰ نبوَّتِه، فكانوا يحرِّفونها ويذكُرون لها تأويلاتٍ فاسدةً؛ فبيَّن أنَّ هذا مِن تلك الجملةِ التي يجب فيها الصبر»(١).

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كلامٌ مستأنَف سِيقَ لبيانِ بعضِ أذيَّاتِهم؛ وهو كتمانُهم ما في كتابِهم مِن شواهدِ نبوَّتِه ﷺ، وغيرِها(٢).

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾

لمَّا أخبرَ ﷻ بأنَّهم احتوَوْا علىٰ المالِ والجاه بما كتَموا مِن العلمِ، وأظهَروا مِن خلافِه المتضمِّنِ لمحبَّةِ أهلِ دِينِهم فيهم وثنائِهم عليهم بأنَّهم علىٰ الدِّينِ الصحيح وأنَّهم أهلُ العلم، فهُمْ أهلُ الاقتداءِ بهم؛ قال ﷻ مخبرًا عن مآلِهم -تحذيرًا مِن مثلِ حالهم علىٰ وجهٍ يعُمُّ كلَّ امرئٍ-: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٣).

تكملةٌ لأحوالِ أهلِ الكتاب المتحدَّثِ عنهم ببيانِ حالةِ خُلُقِهم بعد أن بيَّن اختلالَ أماناتِهم في تبليغِ الدِّين، وهذا ضربٌ آخَرُ جاء به فريقٌ آخَرُ مِن أهلِ الكتاب؛ فلذلك عبَّر عنهم بالموصولِ للتوصُّلِ إلىٰ ذِكْرِ صلتِهِ العجيبةِ مِن حالِ مَن يفعلُ الشرَّ

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٥٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٢٤).

(٣) نظم الدرر (٥/ ١٥٣).

والخِسَّةَ ثم لا يقفُ عند حدِّ الانكسارِ لِما فعَل، أو تطلُّبِ السَّتْرِ علىٰ شُنْعتِه، بل يرتقي فيَترقَّبُ ثناءَ الناس علىٰ سُوءِ صُنْعِه، ويَتطلَّبُ المَحمَدةَ عليه[1].

اعلَمْ أنَّ هذا مِن جملةِ ما دخَل تحت قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗا﴾؛ فبيَّن تعالىٰ أنَّ مِن جملةِ أنواع هذا الأذىٰ أنَّهم ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ به مِن أنواعِ الخُبْثِ والتلبيس علىٰ ضَعَفةِ المسلمين، ويُحِبُّون أن يُحمَدوا بأنَّهم أهلُ البِرِّ والتقوىٰ والصِّدق والدِّيانة، ولا شك أنَّ الإنسانَ يَتأذىٰ بمشاهَدةِ مثلِ هذه الأحوالِ؛ فأمَر النبيَّ ﷺ بالمصابَرةِ عليها، وبيَّن ما لهم مِن الوعيدِ الشديد[2].

ثم أشار تعالىٰ أنَّهم لا يرَوْنَ قُبْحَ ذلك، بل يَفرَحون به، فقال: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[3].

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٨٩﴾

لمَّا أخبرَ بهلاكِهم، دلَّ عليه بحالٍ مِن فاعلِ «تَحسَب»، فقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[4].

تذييلٌ بوعيدٍ يدلُّ علىٰ أنَّ اللهَ لا يَخفَىٰ عليه ما يكتُمون مِن خلائقِهم[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٩٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٥٦).

(٣) محاسن التأويل (٢/ ٤٧٧).

(٤) نظم الدرر (٥/ ١٥٤).

(٥) التحرير والتنوير (٤/ ١٩٥).

ذكَر تعالىٰ هنا أنَّهم مِن جملةِ ما ملَكَ، وأنَّه قادرٌ عليهم؛ فهم مملوكون مقهورون مقدورٌ عليهم؛ فليسوا بناجِينَ مِن العذابِ(١).

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾

لمَّا ذكَر هذا المُلْكَ العظيم، وختَم بشمولِ القدرة؛ دلَّ علىٰ ذلك بالتنبيهِ علىٰ التفكُّرِ فيه الموجِبِ للتوحيدِ الذي هو المقصدُ الأعظم مِن هذه السُّورةِ، الداعي إلىٰ الإيمانِ الموجِبِ للمَفازةِ مِن العذابِ؛ لأنَّ المقصودَ الأعظم مِن إنزالِ القرآن تنويرُ القلوبِ بالمعرفة، وذلك لا يكون إلا بغايةِ التسليم، وذلك هو اتِّباعُ الملَّةِ الحنيفيَّةِ، وهو متوقِّفٌ علىٰ صِدْقِ النبيِّ ﷺ؛ فبدأ سبحانه وتعالى السُّورةَ بدلائلِ صِدْقِه بإعجازِ القرآن بكشفِه - مع الإعجازِ بنَظْمِه علىٰ لسانِ النبيِّ الأمِّيِّ - للشُّبهات، وبيانِه للخفيَّات، وأظهَرَ مكابَرةَ أهلِ الكتاب، وفضَحهم أتَمَّ فضيحةٍ، فلمَّا تمَّ ذلك علىٰ أحسَنِ وجهٍ منظَّمًا ببدائعِ الحِكَمِ مِن الترغيب والترهيب، شرَع في بثِّ أنوارِ المعرفة بنَصْبِ دلائلِها القريبة، وكَشْفِ أستارِها العجيبة، فقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(٢).

هذا غرَضٌ أُنُفٌ(٣) بالنسبة لِما تتابَع مِن أغراضِ السُّورة؛ انتُقِل به مِن المقدِّماتِ والمقصدِ والمتخلِّلاتِ بالمناسبات إلىٰ غرضٍ جديد؛ هو الاعتبارُ بخَلْقِ العوالِمِ

(١) البحر المحيط (٣/ ٤٦٨).

(٢) نظم الدرر (٥/ ١٥٤، ١٥٥).

(٣) أي: مستأنف.

وأعراضِها، والتنويهُ بالذين يَعتبرون بما فيها مِن آياتٍ، ومثلُ هذا الانتقالِ يكون إيذانًا بانتهاءِ الكلام على أغراض السُّورة على تفنُّنِها؛ فقد كان التنقُّلُ فيها مِن الغرضِ إلى مُشاكِلِه، وقد وقَع الانتقالُ الآن إلى غرَضٍ عام؛ وهو: الاعتبارُ بخَلْقِ السماوات والأرض، وحالُ المؤمنين في الاتعاظِ بذلك، وهذا النحوُ في الانتقالِ يَعرِضُ للخطيبِ ونحوِه مِن أغراضِه عَقِب إيفائها حقَّها إلى غرَضٍ آخَرَ؛ إيذانًا بأنَّه أشرَفَ على الانتهاء، وشأنُ القرآن أن يَختِمَ بالموعظة؛ لأنَّها أهَمُّ أغراضِ الرسالة؛ كما وقَع في ختامِ سورة «البقرة»[١].

اعلَمْ أنَّ المقصودَ مِن هذا الكتابِ الكريم جَذْبُ القلوبِ والأرواح عن الاشتغالِ بالخَلْقِ إلى الاستغراقِ في معرفة الحق، فلمَّا طال الكلامُ في تقرير الأحكام والجوابِ عن شُبُهاتِ المُبطِلِين، عاد إلى إنارةِ القلوب بذِكْرِ ما يدلُّ على التوحيدِ، والإلهيَّة، والكِبْرياء، والجلال؛ فذكَر هذه الآيةَ[٢].

مناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها واضحةٌ؛ لأنَّه تعالى لمَّا ذكَر أنَّه مالكُ السماواتِ والأرض، وذكَر قُدْرتَه؛ ذكَر أنَّ في خَلْقِهما دلالاتٍ واضحةً لذوي العقولِ[٣].

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جملةٌ مستأنَفة سِيقت لتقريرِ ما سبَق مِن اختصاصه تعالى بالسلطان القاهر، والقدرةِ التامة، صُدِّرتْ بكلمةِ التأكيد اعتناءً بتحقيق مضمونها[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٩٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٥٨).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٤٦٨).

(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٢٧).

﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ ﴾

لمَّا كان كلُّ مميَّزٍ يدَّعي أنَّه في الذِّرْوةِ مِن الرَّشاد، نعَتهم بما بيَّن مَن يعتدُّ بعقلِه، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [١].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر دلائلَ الإلهيَّةِ والقدرة والحِكْمة، وهو ما يتصلُ بتقرير الرُّبوبيَّة؛ ذكَر بعدها ما يتصلُ بالعبودية، وأصنافُ العبودية: ثلاثةُ أقسامٍ: التصديقُ بالقلب، والإقرارُ باللسان، والعملُ بالجوارحِ؛ فقولُه تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ ﴾ إشارةٌ إلىٰ عبوديةِ اللسان، وقولُه: ﴿قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ إشارةٌ إلىٰ عبوديةِ الجوارح والأعضاء، وقولُه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارةٌ إلىٰ عبوديةِ القلب والفِكْرِ والرُّوح، والإنسانُ ليس إلا هذا المجموعَ، فإذا كان اللسانُ مستغرِقًا في الذِّكْرِ، والأركانُ في الشكرِ، والجَنانُ في الفِكْرِ؛ كان هذا العبدُ مستغرِقًا بجميعِ أجزائه في العبوديةِ؛ فالآيةُ الأُولىٰ دالَّةٌ علىٰ كمال الرُّبوبيَّة، وهذه الآيةُ دالَّةٌ علىٰ كمال العبودية، فما أحسَنَ هذا الترتيبَ في جَذْبِ الأرواح مِن الخَلْقِ إلىٰ الحقِّ، وفي نقلِ الأسرار مِن جانبِ عالَمِ الغُرورِ إلىٰ جَنابِ الملِكِ الغفور! [٢].

هذه أوصافٌ لأُولي الألبابِ المذكورين في خاتمةِ الآية السابقة.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ ﴾

ثم تعقيبها بقولِهم - معظِّمين ما سألوا دَفْعَه مِن العذاب؛ ليكونَ موضعُ السؤال أعظَمَ، فيدُلَّ علىٰ أنَّ الداعيةَ في ذلك الدعاءِ أكمَلُ، وإخلاصَه أتَمُّ، مكرِّرين الوصفَ

(١) نظم الدرر (٥/ ١٥٦).
(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٥٩).

المقتضي للإحسان، مبالغةً في إظهارِ الرغبة، استمطارًا للإجابة -: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[1].

وقولُهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ مسُوقٌ مساقَ التعليلِ لسؤال الوقايةِ مِن النار؛ كما تؤذِنُ به «إنَّ» المستعمَلةُ لإرادةِ الاهتمام؛ إذ لا مقامَ للتأكيد هنا[2].

وهذا السؤالُ في هذه الآيةِ هو نتيجةُ الذِّكر والفِكْرِ والإقرار والتنزيه المذكور في الآياتِ السابقة.

مبالَغةٌ في استدعاءِ الوقاية، وبيانٌ لسببِه، وتصديرُ الجملةِ بالنداء للمبالغةِ في التضرُّعِ والجُؤَارِ[3]، وتأكيدُها لإظهار كمالِ اليقين بمضمونِها، والإيذانِ بشِدَّةِ الخوف، وإظهارُ النار في موضعِ الإضمار لتهويلِ أمرها، وذِكْرُ الإدخالِ في موردِ العذاب لتعيينِ كيفيَّتِه، وتبيينِ غايةِ فظاعتِه[4].

واعلَمْ أنَّه لمَّا حكىٰ تعالىٰ عن هؤلاء العبادِ المخلِصين أنَّ ألسنتَهم مستغرِقةٌ بذِكْرِ الله تعالىٰ، وأبدانَهم في طاعةِ الله، وقلوبَهم في التفكُّرِ في دلائلِ عظمة الله؛ ذكَر أنَّهم مع هذه الطاعاتِ يطلُبون مِن اللهِ أن يَقِيَهم عذابَ النار، ثم أتبَعوا ذلك بما يدلُّ علىٰ عِظَمِ ذلك العقابِ وشِدَّتِه -وهو الخِزْيُ- بقولِهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ١٥٨).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ١٩٨).

(٣) أي: رفع الصوت بالدعاء.

(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٣١).

(٥) محاسن التأويل (٢/ ٤٨٢).

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ ﴾

لمَّا ابتهَلوا بالآيتينِ السابقتين في الإنجاء مِن النار، توسَّلوا بذِكْرِ مسارَعتِهم إلىٰ إجابةِ الداعي بقولِهم: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾[1].

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ ﴾ حكايةٌ لدعاءٍ آخَرَ لهم مبنيٍّ علىٰ تأمُّلِهم في الدليلِ السَّمْعيِّ بعد حكايةِ دعائهم السابقِ المبنيِّ علىٰ التفكُّرِ في الأدلةِ العقليةِ، وتصديرُ مقدِّمةِ الدعاء بالنداء لإظهارِ كمال الضَّراعةِ والابتهال، والتأكيدُ للإيذانِ بصدورِ المقالِ عنهم بوُفورِ الرغبة، وكمالِ النشاط[2].

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤ ﴾

لمَّا كان اللهُ ﷻ هو المالِكَ التامَّ المُلْكِ، فهو ذو التصرُّفِ المطلَقِ الذي لا يجب عليه شيءٌ، ولا يقبُحُ منه شيء؛ أشار إلىٰ ذلك بقولِه -ملقِّنًا لهم، مكرِّرًا صفةَ الإحسان؛ تنبيهًا علىٰ مَزيدِ الابتهالِ والتضرُّع، والتخضُّع والتخشُّع-: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾[3].

لمَّا سألوا أسبابَ المثُوبةِ في الدنيا والآخرة، ترقَّوْا في السؤالِ إلىٰ طلبِ تحقيقِ المثوبة، فقالوا: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ١٥٩).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٣١).

(٣) نظم الدرر (٥/ ١٥٩، ١٦٠).

(٤) التحرير والتنوير (٤/ ٢٠٠).

انظُرْ إلىٰ حُسْنِ محاوَرةِ هؤلاء الذاكرين المتفكِّرين؛ فإنَّهم خاطَبوا اللهَ تعالىٰ بلفظةِ ﴿رَبَّنَا﴾، وهي إشارةٌ إلىٰ أنَّه ربُّهم، أصلَحهم وهيَّأهم للعبادة، فأخبَروا أولًا بنتيجةِ الفِكْرِ؛ وهو قولُهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾، ثم سألوه أن يَقِيَهم النارَ بعد تنزيهِه عن النقائصِ، وأخبَروا عن حالِ مَن يدخُلُ النارَ؛ وهم الظالمون الذين لا يذكُرون اللهَ، ولا يَتفكَّرون في مخلوقاتِه، ثم ذكَروا أيضًا ما أنتَج لهم الفِكْرُ مِن إجابةِ الداعي إلىٰ الإيمانِ؛ إذ ذاك مترتِّبٌ علىٰ أنَّه تعالىٰ ما خلَق هذا الخَلْقَ العجيبَ باطلًا، ثم سألوا غُفْرانَ ذنوبِهم ووفاتَهم علىٰ الإيمانِ الذي أخبَروا به في قولهم: ﴿فَـَٔامَنَّا﴾، ثم سألوا اللهَ الجنَّةَ، وألا يَفضَحَهم يومَ القيامة؛ وذلك هو غايةُ ما سألوه(١).

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ حكايةٌ لدعاءٍ آخرَ لهم، مسبوقٍ بما قبله، معطوفٍ عليه؛ لتأخُّر التحليةِ عن التخلية(٢).

ولمَّا ذكَروا توفيقَ الله إيَّاهم للإيمان، وتوسُّلَهم به إلىٰ تمام النِّعْمة؛ سألوه الثوابَ علىٰ ذلك، وأن يُنجِزَ لهم ما وعَدهم به علىٰ ألسنةِ رُسلِه مِن النَّصْرِ، والظهورِ في الدنيا، ومِن الفوزِ برضوان الله وجنَّتِه في الآخرةِ؛ فإنَّه تعالىٰ لا يُخلِفُ الميعادَ(٣).

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

لمَّا تسبَّب عن هذا الدعاءِ الإجابةُ لتكمُّلِ شروطِه -وهي استحضارُ عظَمتِه تعالىٰ بعد معرفتِه بالدليل، وإدامةُ ذِكْرِه، والتفكُّرُ في بدائعِ صُنْعِه، وافتتاحُه بالثناءِ

(١) البحر المحيط (٣/ ٤٧٥، ٤٥٦).
(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٣٢).
(٣) تفسير السعدي (ص: ١٦١-١٦٢).

عليه سبحانه، وتنزيهُه، والإخلاصُ في سؤاله-، قال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾(١).

دلَّتِ الفاءُ علىٰ سرعةِ الإجابة بحصولِ المطلوب، ودلت علىٰ أنَّ مناجاةَ العبدِ ربَّه بقلبِه ضَرْبٌ مِن ضروبِ الدعاء، قابلٌ للإجابة(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عنهم أنَّهم عرَفوا اللهَ بالدليل، وهو قولُه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، ثم حكىٰ عنهم مواظَبتَهم علىٰ الذِّكْرِ، وهو قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا﴾، وعلىٰ التفكُّرِ، وهو قولُه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ثم حكىٰ عنهم أنَّهم أثنَوْا علىٰ الله تعالىٰ، وهو قولُهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾، ثم حكىٰ عنهم أنَّهم بعد الثناء اشتغَلوا بالدعاء، وهو مِن قولهم: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ الآياتِ، إلىٰ قولِه: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه استجاب دعاءَهم، فقال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾(٣).

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾

لمَّا كانت هذه المواعَدةُ آجلةً، وكان نظَرُهم إلىٰ ما فيه الكفارُ مِن عاجلِ السَّعةِ ربما أثَّر في بعضِ النفوس أثرًا يَقدَحُ في الإيمان بالغيب الذي هو شرطُ قَبولِ الإيمان؛ داوَاه سبحانه بأنْ تلا تبشيرَ المجاهِدين بإنذارِ الكفار المنافِقين والمصارِحين الذين

(١) نظم الدرر (٥/ ١٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٠٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٦٩).

أملىٰ لهم بخِذْلانهم المؤمنين بالرجوعِ عن قتالِ أُحُدٍ وغيرِه مِن أسبابِ الإملاء، علىٰ وجهٍ يصدِّقُ ما تقدَّم أولَ السُّورة مِن الوعدِ بأنَّهم سيُغلَبون، وأنَّ أموالَهم إنَّما هي صورةٌ لا حقائقَ لها، عطفًا لآخِرِها علىٰ أولِها، وتأكيدًا لاستجابةِ دعاء أوليائه آخِرَ التي قبلها بقولِه -مخاطِبًا لأشرَفِ عباده، والمرادُ مَن يمكِنُ ذلك عادةً فيه؛ لأنَّ خطابَ الرئيسِ أمكَنُ في خطابِ الأتباع -: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾[1].

اعتراضٌ في أثناءِ هذه الخاتمة، نشأ عن قولِه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾، باعتبارِ ما يَتضمَّنُه عدمُ إضاعةِ العمل مِن الجزاء عليه جزاءً كاملًا في الدنيا والآخرة، وما يستلزِمُه ذلك مِن حرمانِ الذين لم يستجيبوا لداعي الإيمانِ، وهم المشركون[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا وعَد المؤمنين بالثوابِ العظيم، وكانوا في الدنيا في نهايةِ الفقر والشِّدَّةِ، والكفارُ كانوا في النِّعَم؛ ذكَر اللهُ تعالىٰ في هذه الآيةِ ما يسلِّيهم ويصبِّرُهم علىٰ تلك الشِّدَّةِ، فقال: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾[3].

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ بيانٌ لقُبْحِ ما أوتيَ الكفرةُ مِن حظوظِ الدنيا، وكشفٌ عن حقارةِ شأنها وسُوءِ مَغبَّتِها، إثرَ بيانِ حُسْنِ ما أوتي المؤمنون مِن الثواب[4].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ١٦٤، ١٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٠٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٧١).

(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٣٥).

﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ ﴾

جملةُ ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ﴾ إلىٰ آخرِها بيانٌ لجملة ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ ﴾[(١)].

ثم ذكَر مدةَ ذلك التقلُّبِ، فقال: ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾.

﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨ ﴾

لمَّا بيَّن بآيةِ المهاجِرين أنَّ النافعَ مِن الإيمان هو الموجِبُ للثباتِ عند الامتحان، وكانت تلك الشروطُ قد لا توجَدُ؛ ذكَر وَصْفَ التقوىٰ العامَّ للأفراد، الموجِبَ للإسعاد، فعقَّب تهديدَ الكافرين بما لأضدادِهم المتَّقين الفائزين بما تقدَّم الدعاءُ إليه بقولِه تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡ ﴾، فقال تعالىٰ: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾[(٢)].

جملةُ ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ ﴾ إلىٰ آخرِها، افتُتِحت بحرفِ الاستدراكِ؛ لأنَّ مضمونَها ضدُّ الكلامِ الذي قبلها؛ لأنَّ معنىٰ ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ وصفُ ما هم فيه بأنَّه ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ﴾؛ أي: غيرُ دائمٍ، وأنَّ المؤمنين المتَّقين لهم منافعُ دائمةٌ[(٣)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر الوعيدَ، أتبَعه بالوعدِ[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٢٠٦).

(٢) نظم الدرر (٥/ ١٦٤).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ٢٠٦).

(٤) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٧٢).

لَمَّا تضمَّن ما تقدَّم أنَّ ذلك التقلُّبَ والتصرف في البلادِ هو متاعٌ قليل، وأنَّهم يأوون بَعْدُ إلىٰ جهنَّمَ، فدَلَّ علىٰ قلَّةِ ما مُتِّعوا به؛ لأنَّ ذلك مُنقضٍ بانقضاءِ حياتهم، ودَلَّ علىٰ استقرارِهم في النار؛ استدرَكَ بـ﴿ لَٰكِنِ ﴾ الإخبارَ عن المتَّقين بمقابِلِ ما أخبَرَ به عن الكافرين[(١)].

بيانٌ لكمالِ حُسْنِ حالِ المؤمنين غِبَّ بيانٍ، وتكريرٌ له إثْرَ تقريرٍ، مع زيادةِ خلودهم في الجنَّاتِ؛ ليَتِمَّ بذلك سرورُهم، ويزدادَ تبجُّحُهم، ويَتكاملَ به سُوءُ حالِ الكفرة، وإيرادُ التقوىٰ في حيِّزِ الصلة للإشعارِ بكونِ الخصالِ المذكورة مِن بابِ التقوىٰ[(٢)].

لمَّا ذكَر حالَ الكفارِ في الدنيا، وذكَر مآلَهم إلىٰ النار؛ قال بعده: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾[(٣)].

﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾

لمَّا كان للمؤمنين مِن أهلِ الكتابينِ - مع التشرُّفِ بما كانوا عليه مِن الدِّينِ الذي أصلُه حقٌّ - حظٌّ مِن الهجرة، فكانوا قِسْمًا ثانيًا مِن المهاجرين، وكان إنزالُ كثيرٍ مِن هذه السُّورةِ في مقاوَلةِ[(٤)] أهلِ الكتاب ومجادَلتِهم، والتحذيرِ مِن مُخاتَلتِهم[(٥)]

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٤٨٢، ٤٨٣).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٣٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ١٩٢).

(٤) أي: تناوب القول.

(٥) أي: غدرهم.

ومخادَعتِهم، والإخبارِ بأنَّهم يُبغِضون المؤمنين مع محبَّتِهم لهم، وأنَّهم لا يؤمِنون بكتابهم، وأنَّهم سيَسمَعون منهم أذًىٰ كثيرًا، إلىٰ أن وقَع الخَتْمُ في أوصافِهم بأنَّهم اشترَوْا بآياتِ الله ثمنًا قليلًا؛ ربما أيأسَ مِن إيمانهم؛ أتبَع ذلك مَدْحَ مؤمنيهم، وغيَّر الأسلوبَ عن أن يقالَ مثلًا: والذين آمَنوا مِن أهلِ الكتاب -إطماعًا في مُوالاتِهم بعد التدريب بالتحذير منهم علىٰ مُناواتِهم ومُلاوَاتِهم[1]-، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[2].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾؛ استكمالًا لذِكْرِ الفَرْقِ في تَلقِّي الإسلام؛ فهؤلاء فريقُ الذين آمَنوا مِن أهل الكتاب، ولم يُظهِروا إيمانَهم؛ لخوفِ قومِهم؛ مثلُ النَّجاشيِّ أَصْحَمةَ، وأثنىٰ اللهُ عليهم بأنَّهم لا يحرِّفون الدِّينَ، والآيةُ مؤذِنةٌ بأنَّهم لم يكونوا معروفين بذلك؛ لأنَّهم لو عُرِفوا بالإيمان، لَمَا كان مِن فائدةٍ في وصفِهم بأنَّهم مِن أهلِ الكتاب، وهذا الصِّنْفُ بعكسِ حالِ المنافِقين، وأُكِّد الخبَرُ بـ«إنَّ» وبلامِ الابتداء؛ للردِّ علىٰ المنافِقين الذين قالوا لرسولِ الله لمَّا صلَّىٰ علىٰ النَّجَاشيِّ: انظُروا إليه يصلِّي علىٰ نَصْرانيٍّ ليس علىٰ دِينِه، ولم يَرَهُ قطُّ[3]؛ علىٰ ما رُوِي عن ابنِ عبَّاسٍ وبعضِ أصحابه: أنَّ ذلك سببُ نزولِ هذه الآيةِ، ولعلَّ وفاةَ النَّجَاشيِّ حصَلتْ قبل غزوةِ أُحُدٍ[4].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر حالَ المؤمنين، وكان قد ذكَر حالَ الكفار مِن قبلُ بأنَّ مصيرَهم إلىٰ النار؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ مَن آمَن منهم كان داخلًا في صفةِ الذين اتَّقَوْا،

---

(١) مفاعلة من الالتواء.

(٢) نظم الدرر (٥/ ١٦٦).

(٣) أخرجه الطبراني في "الأوسط" (٤٦٤٥).

(٤) التحرير والتنوير (٤/ ٢٠٧).

فقال: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[1].

والجملةُ مستأنَفةٌ سِيقتْ لبيانِ أنَّ أهلَ الكتاب ليس كلُّهم كمَنْ حُكِيتْ صفاتُهم؛ مِن نبذِ الميثاق، وتحريفِ الكتاب، وغيرِ ذلك؛ بل منهم مَن له مناقبُ جليلةٌ، وفيها أيضًا تعريضٌ بالمنافِقين الذين هم أقبَحُ أصنافِ الكفار؛ وبهذا يحصُلُ ربطٌ بَيْنَ الآيةِ وما قبلها مِن الآيات، وإذا لاحَظتَ اشتراكَ هؤلاء مع أولئك المؤمنين فيما عند اللهِ تعالىٰ مِن الثوابِ، قَوِيَتِ المناسبةُ، وإذا لاحَظ أنَّ فيما تقدَّم مَدْحَ المهاجِرين، وفي هذا مدحًا للمهاجِرِ إليهم مِن حيث إنَّ الهجرةَ الأُولىٰ كانت إليهم؛ كان أمرُ المناسبةِ أقوىٰ[2].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾

لمَّا كثُرَ في هذه الآياتِ الأمرُ بمقاساةِ الشدائد، وتجرُّعِ مراراتِ الأذىٰ، واقتحامِ الحروب، واستهانةِ عظائمِ الكروب، والحثُّ علىٰ المعارفِ الإلهيَّة، والآدابِ الشرعية مِن الأصولِ والفروع، انخلاعًا مِن المألوفاتِ إلىٰ ما يأمر به سبحانه مِن الطاعات، وخُتِم بتجرُّعِ فِرْقةٍ مِن أهلِ الكتاب لتلك المراراتِ؛ كانت نتيجةُ ذلك لا محالةَ قولَهُ تعالىٰ -منبِّهًا علىٰ عظمةِ ما يدعو إليه؛ لأنَّه شاملٌ لجميعِ الآداب-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3].

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٧٢).

(٢) روح المعاني (٢/ ٣٨٣).

(٣) نظم الدرر (٥/ ١٦٧، ١٦٨).

خُتِمتِ السُّورةُ بوصايةٍ جامعة للمؤمنين، تجدِّدُ عزيمتَهم، وتَبعَثُ الهِمَمَ إلىٰ دوامِ الاستعداد للعدوِّ؛ كي لا يثبِّطَهم ما حصَل مِن الهزيمة، فأمَرهم بالصبرِ الذي هو جماعُ الفضائل، وخصالُ الكمال، ثم بالمصابَرةِ، وهي الصبرُ في وجهِ الصابرِ، وهذا أشَدُّ الصبرِ ثَباتًا في النفسِ، وأقرَبُه إلىٰ التزلزُلِ؛ ذلك أنَّ الصبرَ في وجهِ صابرٍ آخَرَ شديدٌ علىٰ نفسِ الصابر؛ لِما يُلاقيه مِن مقاومةِ قِرْنٍ له في الصبرِ قد يساويه أو يفُوقُه، ثم إنَّ هذا المصابِرَ إن لم يثبُتْ علىٰ صبرِه حتىٰ يمَلَّ قِرْنُه، فإنَّه لا يَجتني مِن صبرِه شيئًا؛ لأنَّ نتيجةَ الصبرِ تكون لأطوَلِ الصابرين صبرًا(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر في هذه السُّورةِ أنواعًا كثيرةً مِن علومِ الأصول والفروع، أمَّا الأصولُ ففيما يَتعلَّقُ بتقريرِ التوحيد والعَدْلِ والنبوَّة والمَعاد، وأمَّا الفروعُ ففيما يتعلق بالتكاليفِ والأحكام؛ نحوُ الحجِّ والجهاد وغيرِهما؛ ختَم هذه السُّورةَ بهذه الآيةِ المشتمِلة علىٰ جميع الآدابِ؛ وذلك لأنَّ أحوالَ الإنسان قسمان: منها ما يَتعلَّقُ به وَحْدَه، ومنها ما يكون مشتركًا بينه وبين غيرِه، أمَّا القسمُ الأول فلا بد فيه مِن الصبرِ، وأمَّا القسمُ الثاني فلا بد فيه مِن المُصابَرة(٢).

ختَم اللهُ تعالىٰ هذه السُّورةَ بهذه الوصايةِ التي جمَعتِ الظهورَ في الدنيا علىٰ العدوِّ، والفوزَ بنعيمِ الآخرة؛ فأمَر تعالىٰ بالصبرِ، والمُصابَرةِ، والرِّباط(٣).

إثرَ ما بيَّن مِن الحِكَمِ والأحكام، وشرحِ أحوالِ المؤمنين والكافرين، وما قاساه المؤمنون الكرامُ مِن أولئك اللئامِ مِن الآلام؛ ختَم السُّورةَ بما يضُوعُ(٤) منه مِسْكُ

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٢٠٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٧٣).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٢٨٥).

(٤) أي: يهيج وينتشر.

التمسُّك بما مضىٰ، ويَضِيعُ بامتثالِ ما فيه مكايدُ الأعداء، ولو ضاقَ لها الفضاءُ، فقال عزَّ مِن قائلٍ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾(1).

(1) روح المعاني (٢/ ٣٨٤).

سُورَةُ النِّسَاءِ

﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ ﴾

ولمَّا بانَ مِن هـذا تعظيمُـه لصلـةِ الرَّحِـمِ، بجَعْلِهـا في سياقِ ذِكْـرِه ﷻ - المعبَّـرِ عنـه باسمِه الأعظَمِ - كما فعَل نحوَ ذلك في غيرِ آيةٍ، وكـان قـد تقـدَّم في السُّـورةِ الماضيـة ذِكْرُ قصَّة أُحُدٍ، التـي انكشَـفتْ عـن أيتـامٍ، ثـم ذكَـر في قولـه تعـالىٰ: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ أنَّ الموتَ مَشرَعٌ[1]، لا بد لكلِّ نفسٍ مِن وُرودِه؛ عُلِم أنَّـه لا بـد مِـن وجـودِ الأيتام في كلِّ وقتٍ، فدعا إلىٰ العِفَّةِ، والعدلِ فيهم؛ لأنَّهـم بعـدَ الأرحـامِ أَوْلـىٰ مَـن يُتَّقىٰ اللهُ فيه، ويُخشَىٰ مراقبتُه بسببِه، فقال: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴾[2].

مناسبةُ عطفِ الأمر علىٰ ما قبله أنَّه مِن فروعِ تقوىٰ الله في حقوقِ الأرحـام؛ لأنَّ المتصـرِّفين في أمـوالِ اليتـامىٰ في غالـبِ الأحـوال هـم أهـلُ قـرابتِهم، أو مِـن فـروعِ تقوىٰ الله الذي يَتساءلون بـه وبالأرحـامِ، فيَجعَلـون للأرحـام مِـن الحـظِّ مـا جعَلهـم

(١) أي: موضع الشرب، والمقصود مورد.

(٢) نظم الدرر (٥/ ١٧٧).

يُقسِمون بها كما يُقسِمون باللهِ، وشيءٌ هذا شأنُه حقيقٌ بأن تُراعىٰ أواصِرُه ووشائجُه، وهُمْ لم يرقُبوا ذلك(١).

ومناسبتُها لِما قبلها: أنَّه لمَّا وصَل الأرحامَ، أتبَع بالأيتام؛ لأنَّهم صاروا بحيث لا كافلَ لهم؛ ففارَقَ حالُهم حالَ مَن له رَحِمٌ ماسَّةٌ، وظاهرُه الأمرُ بإعطاءِ اليتامىٰ أموالَهم(٢).

لمَّا افتتَح السُّورةَ بذِكْرِ ما يدلُّ علىٰ أنَّه يجبُ علىٰ العبد أن يكونَ منقادًا لتكاليفِ الله سبحانه، محترِزًا عن مَساخطِه؛ شرَع بعد ذلك في شرحِ أقسام التكاليف(٣).

شروعٌ في تفصيلِ مواردِ الاتقاء ومظانِّه بتكليفِ ما يقابِلُها أمرًا ونهيًا عَقِيبَ الأمرِ بنفسه مرَّةً بعد أخرىٰ، وتقديمُ ما يَتعلَّقُ باليتامىٰ لإظهارِ كمال العناية بأمرِهم، ولملابَستِهم بالأرحام؛ إذ الخطابُ للأولياءِ والأوصياء، وقلَّما تُفوَّضُ الوصايةُ إلىٰ الأجانب(٤).

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ ﴾

لمَّا كان تعالىٰ قد أجرىٰ سُنَّةَ الإلهيَّةِ في أنَّه لا بد في التناسُلِ مِن توسُّطِ النكاح إلا ما كان مِن آدَمَ وحوَّاءَ وعيسىٰ عليهم الصلاة والسلام، وكانوا قد أُمِروا بالعَدْلِ في أموال اليتامىٰ، وكانوا يَلُون أمورَ يَتَامَاهم، وكانوا ربما نكَحوا مَن في حُجورِهم منهنَّ، فكان ربما أوقَفهم هذا التحذيرُ مِن أموالهم عن النكاح خوفًا مِن التقصير

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٢١٨).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٥٠٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٨٢).

(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٣٩).

في حقٍّ مِن حقوقِهنَّ؛ أتبَعه تعالىٰ -عطفًا علىٰ ما تقديرُه: فإن وَثِقْتم مِن أنفسِكم بالعَدْلِ، فخالِطوهم بالنكاح وغيرِه-: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾[(١)].

اشتمالُ هذه الآيةِ علىٰ كلمة اليتامىٰ يؤذِنُ بمناسبتِها للآية السابقة، بَيْدَ أنَّ الأمرَ بنكاح النساءِ وعَدَدِهنَّ في جوابِ شرطِ الخوف مِن عدمِ العَدْلِ في اليتامىٰ ممَّا خَفِيَ وجهُه علىٰ كثيرٍ مِن علماءِ سَلَفِ الأمَّة؛ إذ لا تَظهَرُ مناسبةٌ -أيْ ملازَمةٌ- بَيْنَ الشرطِ وجوابه، واعلَمْ أنَّ في الآيةِ إيجازًا بديعًا؛ إذ أُطلِق فيها لفظُ اليتامىٰ في الشرطِ، وقُوبِل بلفظِ النساء في الجزاء؛ فعَلِم السامعُ أنَّ اليتامىٰ هنا جمعُ يتيمةٍ، وهي صِنْفٌ مِن اليتامىٰ في قولِه السابق: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، واعلَمْ أنَّ بَيْنَ عدمِ القِسْطِ في يتامىٰ النساءِ وبين الأمرِ بنكاح النساء ارتباطًا لا محالةَ، وإلا لكان الشَّرْطُ عبثًا[(٢)].

لمَّا نزَلتِ الآيةُ المتقدِّمة في اليتامىٰ وما في أكلِ أموالهم مِن الحُوبِ الكبير، خافَ الأولياءُ أن يَلحَقَهم الحُوبُ بتركِ الإقساطِ في حقوق اليتامىٰ، فتحرَّجوا مِن وَلايتِهم، وكان الرجُلُ منهم ربما كان تحته العَشْرُ مِن الأزواجِ وأكثَرُ، فلا يقومُ بحقوقِهنَّ، ولا يَعدِلُ بينهنَّ، فقيل لهم: إن خِفْتُم تَرْكَ العدلِ في حقوقِ اليتامىٰ فتحرَّجْتم منها، فكونوا خائفين مِن تَرْكِ العدلِ مِن النساء، فقَلِّلوا عَدَدَ المنكوحاتِ؛ لأنَّ مَن تحرَّجَ مِن ذَنْبٍ أو تاب عنه وهو مرتكِبٌ لمثلِه، فكأنَّه غيرُ متحرِّجٍ[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ١٧٨، ١٧٩).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٢٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٨٥).

شروعٌ في النَّهْيِ عن منكرٍ آخرَ كانوا يباشِرونه، متعلِّقٍ بأنفُسِ اليتامىٰ أصالةً، وبأموالِهم تبعًا، عَقِيبَ النهيِ عمَّا يتعلقُ بأموالهم خاصةً، وتأخيرُه عنه لقلَّةِ وقوعِ المَنْهيِّ عنه بالنسبةِ إلىٰ الأموال، ونزولِه منه منزلةَ المركَّبِ مِن المفرَدِ، مع كونِ المراد مِن اليتامىٰ هنا صِنفًا ممَّا أريدَ منه فيما تقدَّم؛ وذلك أنَّهم كانوا يَتزوَّجون مَن تَحِلُّ لهم مِن يتامىٰ النساءِ اللاتي يَلُونهم، لكن لا رغبةً فيهنَّ، بل في مالِهنَّ، ويُسِيئون صُحْبتَهنَّ، ويَتربَّصون بهنَّ أن يَمُتْنَ، فيَرِثُوهنَّ، فوُعِظوا في ذلك[1].

﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ ﴾

لمَّا حُذِّروا مِن القولِ الذي مِن مدلوله المُحاجَّةُ عن كثرةِ النساء، كان ربما تعلَّقَ به مَن يَبخَلُ عن بعضِ الحقوق، لا سيَّما ما يستكثِرُه مِن الصداق؛ فأتبَعه ما يَنفي ذلك، فقال - مخاطبًا للأزواج؛ لأنَّ السياقَ لهم، معبِّرًا بما يصلُحُ للدفعِ والالتزام المهيِّئِ له-: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴾[2].

جانبانِ مستضعَفان في الجاهليةِ: اليتيمُ، والمرأة. وحقَّانِ مغبونٌ فيهما أصحابُهما: مالُ الأيتام، ومالُ النساء؛ فلذلك حرَسهما القرآنُ أشَدَّ الحراسةِ، فابتدأ بالوصايةِ بحقِّ مال اليتيم، وثنَّىٰ بالوصايةِ بحق المرأة في مالٍ ينجرُّ إليها لا محالةَ، وكان توسُّطُ حُكْمِ النكاح بَيْنَ الوصايتينِ أحسَنَ مناسبةٍ تهيِّئُ لعطفِ هذا الكلامِ؛ فقولُه: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ ﴾ عطفٌ علىٰ قوله: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾، والقولُ في معنىٰ الإيتاءِ فيه سواءٌ، وزاده اتصالًا بالكلامِ السابق أنَّ ما قبله جرَىٰ علىٰ وجوبِ القِسْطِ في

---

(١) روح المعاني (٢/ ٣٩٩-٤٠٠).

(٢) نظم الدرر (٥/ ١٩٣).

يتامى النساء، فكان ذلك مناسبةَ الانتقال، والمخاطَبُ بالأمر في أمثالِ هذا كلُّ مَن له نصيبٌ في العمل بذلك؛ فهو خطابٌ لعمومِ الأمَّة على معنَى تناوُلِه لكلِّ مَن له فيه يدٌ مِن الأزواجِ والأولياء، ثم ولاةِ الأمور الذين إليهم المَرجِعُ في الضَّرْبِ على أيدي ظَلَمةِ الحقوقِ أربابَها، والمقصودُ بالخطابِ ابتداءً هم الأزواجُ؛ لكيلا يَتذرَّعوا بحياءِ النساء وضَعْفِهنَّ وطلبِهنَّ مرضاتَهم إلى غَمْصِ[1] حقوقِهنَّ في أكلِ مهورهنَّ، أو يَجعَلوا حاجتَهنَّ للتزوجِ لأجلِ إيجاد كافلٍ لهنَّ ذريعةً لإسقاطِ المهرِ في النكاح؛ فهذا ما يمكِنُ في أكلِ مهورِهنَّ، وإلا فلهنَّ أولياءُ يطالِبون الأزواجَ بتعيينِ المهور، ولكن دُونَ الوصول إلى ولاةِ الأمور متاعِبُ وكُلَفٌ قد يَمَلُّها صاحبُ الحقِّ فيترُكُ طلَبَه، وخاصَّةً النساءَ ذواتِ الأزواج[2].

ولمَّا كان كثيرٌ مِن الناس يَظلِمون النساءَ ويَهضِمونهنَّ حقوقَهنَّ، خصوصًا الصداقَ الذي يكون شيئًا كثيرًا ودَفْعةً واحدة، يشُقُّ دَفْعُه للزوجة؛ أمَرهم وحَثَّهم على إيتاءِ النساء مهورَهنَّ عن طِيبِ نفسٍ[3].

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥﴾

لمَّا أمَر بدفعِ أموال اليتامى والنساء إليهم، ونهى عن أكلِ شيءٍ منها تزهيدًا في المال واستهانةً به، وكان في النساءِ والمَحاجيرِ[4] مِن الأيتام وغيرِهم سُفَهاءُ، وأمَر بالاقتصاد في المعيشة حذَرًا مِن الظُّلمِ والحاجة؛ نهى عن التبذير، وقد حَثَّ سبحانه

(١) أي: احتقار وإنكار.
(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٢٩).
(٣) تفسير السعدي (ص: ١٦٣).
(٤) أي: المحجور عليهم.

علىٰ حُسْنِ رعاية المال في غيرِ آيةٍ مِن كتابه؛ لأنَّه «نِعْمَ المالُ الصالحُ للرجُلِ الصالح»(١)؛ لأنَّ الإنسانَ ما لم يكُنْ فارغَ البال لا يمكِنُه القيامُ بتحصيل ما يُهِمُّه مِن الدنيا، وما لم يَتمكَّنْ مِن تحصيلِ ما يُهِمُّه مِن الدنيا لا يمكِنُه أمرُ الآخرة، ولا يكون فارغَ البال إلا بواسطةِ ما يَكفِيه مِن المالِ؛ لأنَّه لا يَتمكَّنُ في هذه الدارِ التي مبناها علىٰ الأسباب مِن جَلْبِ المنافعِ ودَفْعِ المَضارِّ إلا به؛ فمَن أراده لهذا الغرضِ كان مِن أعظَمِ الأسبابِ المُعِينة له علىٰ اكتسابِ سعادة الآخِرة، ومِن أراده لنفسِه كان مِن أعظَمِ المعوِّقاتِ عن سعادةِ الآخرة، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾(٢).

عطفٌ علىٰ قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾؛ لدفعِ توهُّمِ إيجابِ أن يؤتىٰ كلُّ مالٍ لمالكه مِن أجلِ تقدُّمِ الأمر بإتيانِ الأموال مالكيها مرَّتينِ في قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾، أو عطفٌ علىٰ قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، وما بينهما اعتراضٌ، والمقصودُ بيانُ الحالِ التي يُمنَع فيها السَّفيهُ مِن مالِه، والحالِ التي يُؤتَىٰ فيها مالَه، وقد يقال: كان مقتضىٰ الظاهرِ علىٰ هذا الوجهِ أن يُقدَّم هنالك حُكْمُ منعِ تسليم مالِ اليتامىٰ؛ لأنَّه أسبَقُ في الحصول، فيتَّجِهُ لمخالَفةِ هذا المقتضىٰ أن نقولَ: قُدِّم حُكْمُ التسليم؛ لأنَّ الناسَ أحرَصُ علىٰ ضِدِّه، فلو ابتدأ بالنَّهْيِ عن تسليمِ الأموال للسفهاء، لاتَّخَذه الظالمون حُجَّةً لهم، وتظاهَروا بأنَّهم إنَّما يَمنَعون الأيتامَ أموالَهم خشيةً مِن استمرار السَّفَهِ فيهم؛ كما يفعلُه الآن كثيرٌ مِن الأوصياءِ، والمقدَّمين غيرِ الأتقياء؛ إذ يَتصدَّوْنَ للمعارَضةِ في بيناتِ ثبوت الرُّشْدِ لمجرَّدِ الشَّغْبِ، وإملالِ المَحاجيرِ مِن طلبِ حقوقهم(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في "الأدب" (٢٩٩).

(٢) نظم الدرر (٥/ ١٩٥).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ٢٣٤).

لمَّا أمَر اللهُ تعالىٰ أولًا بإيتاء اليتامىٰ بقولِه: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، وأمَر ثانيًا بإيتاء أموال النساء بقولِه: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾، وكان ذلك عامًّا مِن غيرِ تخصيصٍ؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ ذلك الإيتاءَ إنَّما هو لغيرِ السَّفِيه، وخَصَّ ذلك العمومَ، وقيَّد الإطلاقَ الذي في الأمرِ بالإيتاء[1].

اعلَمْ أنَّ تعلُّقَ هذه الآيةِ بما قبلها هو كأنَّه تعالىٰ يقولُ: إنِّي وإن كنتُ أمَرتُكم بإيتاء اليتامىٰ أموالَهم، وبدَفْعِ صَدُقاتِ النساء إليهنَّ؛ فإنَّما قلتُ ذلك إذا كانوا عاقلين بالغين متمكِّنين مِن حفظِ أموالهم، فأمَّا إذا كانوا غيرَ بالغين، أو غيرَ عُقَلاءَ، أو إن كانوا بالغين عُقَلاءَ إلا أنَّهم كانوا سُفَهاءَ مسرِفين؛ فلا تَدفَعوا إليهم أموالَهم، وأمسِكوها لأجلِهم، إلىٰ أن يزُولَ عنهم السَّفَهُ، والمقصودُ مِن كلِّ ذلك الاحتياطُ في حفظِ أموالِ الضعفاء والعاجزين[2].

رجوعٌ إلىٰ بيانِ بقيَّةِ الأحكامِ المتعلقة بأموال اليتامىٰ، وتفصيلِ ما أُجمِل فيما سبَق مِن شرطِ إيتائها، ووقتِه، وكيفيَّتِه، إثرَ بيانِ بعض الأحكام المتعلِّقة بأنفسِهنَّ - أعني نكاحَهنَّ -، وبيانِ بعضِ الحقوق المتعلقةِ بغيرِهنَّ مِن الأجنبيَّاتِ؛ مِن حيث النفسُ، ومِن حيث المالُ استطرادًا، والخطابُ للأولياء؛ نُهُوا أن يُؤتُوا المبذِّرين مِن اليتامىٰ أموالَهم مخافةَ أن يضيِّعوها، وإنَّما أضيفت إليهم -وهي لليتامىٰ- لا نظرًا إلىٰ كونِها تحت وَلايتِهم كما قيل؛ فإنَّه غيرُ مصحِّحٍ لاتصافِها بالوصفِ الآتي، بل تنزيلًا لاختصاصِها بأصحابها منزلةَ اختصاصِها بالأولياء، فكأنَّ أموالَهم عينُ أموالهم؛ لِما بَيْنَهم وبينهم مِن الاتحادِ الجِنْسيِّ والنَّسْبي؛ مبالَغةً في حَمْلِهم علىٰ المحافظة عليها[3].

(١) البحر المحيط (٣/ ٥١٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٩٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٤٤).

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦)﴾

لمَّا نهىٰ عن ذلك البَذْلِ للسفهاء أيتامًا كانوا أو غيرَهم، بيَّن أنَّه ليس دائمًا، بل ما دام السَّفَهُ قائمًا، فمَسَّتِ الحاجةُ إلىٰ التعريف بمَن يُعطَىٰ ومَن يُمنَعُ وكيف عند الدفعِ، ولمَّا كان السَّفَهُ أمرًا باطنًا لا يُعرَفُ إلا بالتصرف، ولا سيَّما في المال؛ بدأ سبحانه بتعليمِ ما يَتوصلون به إلىٰ معرفتِه، فقال مصرِّحًا بالأيتامِ اهتمامًا بأمرهم: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾[(١)].

يجوز أن يكونَ جملةُ ﴿وَابْتَلُوا﴾ معطوفةً علىٰ جملةِ ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾؛ لتنزيلِها منها منزلةَ الغايةِ للنَّهْيِ، فإن كان المرادُ مِن السفهاء هنالك خصوصَ اليتامىٰ، فيتَّجِهُ أن يقالَ: لماذا عدَل عن الضميرِ إلىٰ الاسم الظاهر، وعن الاسمِ الظاهر المساوي للأول إلىٰ التعبيرِ بآخَرَ أخَصَّ؛ وهو اليتامىٰ؟ ويجاب بأنَّ العدولَ عن الإضمار لزيادةِ الإيضاح، والاهتمامِ بالحُكْمِ، وأنَّ العدولَ عن إعادةِ لفظ السفهاء إيذانٌ بأنَّهم في حالةِ الابتلاء مَرْجوٌّ كمالُ عقولِهم، ومتفاءَلٌ بزوالِ السفاهةِ عنهم؛ لئلا يلُوحَ شِبْهُ تناقُضٍ بَيْنَ وصفِهم بالسَّفَهِ وإيناسِ الرُّشْدِ منهم، وإن كان المرادُ مِن السفهاء هنالك أعَمَّ مِن اليتامىٰ، وهو الأظهر؛ فيتَّجِه أن يقالَ: ما وجهُ تخصيصِ حُكْمِ الابتلاء والاستيناس باليتامىٰ دُونَ السفهاء؟ ويجاب بأنَّ الإخبارَ

(١) نظم الدرر (٥/ ١٩٦، ١٩٧).

لا يكون إلا عند الوقت الذي يُرجَىٰ فيه تغييرُ الحال، وهو مراهَقةُ البلوغ، حين يُرجَىٰ كمالُ العقل، والتنقُّلُ مِن حال الضَّعْفِ إلىٰ حالِ الرُّشْدِ، أمَّا مَن كان سَفَهُه في حينِ الكِبَرِ، فلا يُعرَفُ وقتٌ هو مَظِنَّةٌ لانتقالِ حالِه وابتلائه، ويجوز أن تكونَ جملةُ ﴿وَٱبۡتَلُواْ﴾ معطوفةً علىٰ جملةِ ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾؛ لبيانِ كيفيَّةِ الإيتاء ومقدِّماته، وعليه فالإظهارُ في قوله: ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ لبُعْدِ ما بَيْنَ المُعادِ والضمير، لو عبَّر بالضميرِ(١).

لمَّا أمَر مِن قبلُ بدَفْعِ مال اليتيم إليه بقولِه: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾، بيَّن بهذه الآيةِ متىٰ يؤتيهم أموالَهم، فذكَر هذه الآيةَ، وشرَط في دفعِ أموالهم(٢).

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ شروعٌ في تعيينِ وقت تسليم أموالِ اليتامىٰ إليهم، وبيانِ شرطِهِ بعد الأمر بإيتائها علىٰ الإطلاق، والنَّهْيِ عنه عند كونِ أصحابها سُفَهاءَ(٣).

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ٧﴾

لمَّا ذكَر أموالَ اليتامىٰ علىٰ حسَبِ ما دعَتْ إليه الحاجةُ واقتضاه التناسبُ إلىٰ أن ختَم بهذه الآيةِ، كان كأنَّ سائلًا سأل: مِن أين تكون أموالُهم؟ فبيَّن ذلك بطريقِ الإجمال بقولِه تعالىٰ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٢٣٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٩٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٤٥).

(٤) نظم الدرر (٥/ ١٩٩).

استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو جارٍ مَجرىٰ النتيجة لحُكْمِ إيتاءِ أموال اليتامىٰ، ومناسبةُ تعقيبِ الآيِ السابقة بها: أنَّهم كانوا قد اعتادُوا إيثارَ الأقوياءِ والأشدَّاء بالأموال، وحِرْمانَ الضعفاء، وإبقاءهم عالةً علىٰ أشِدَّائهم حتىٰ يكونوا في مَقادَتِهم(١)، فكان الأولياءُ يَمنَعون عن مَحاجيرِهم أموالَهم، وكان أكبَرُ العائلة يَحرِمُ إخوتَه مِن الميراث معه، فكان أولئك -لضَعْفِهم- يَصبِرون علىٰ الحرمان، ويَقنَعون بالعيشِ في ظلالِ أقاربهم؛ لأنَّهم إن نازَعوهم، أطرَدوهم وحرَموهم، فصاروا عالةً علىٰ الناس، وأخَصُّ الناسِ بذلك النساءُ؛ فإنَّهن يَجِدْنَ ضَعْفًا مِن أنفسِهنَّ، ويَخشَيْنَ عارَ الضَّيْعةِ، ويتَّقِينَ انحرافَ الأزواج، فيتَّخِذْنَ رِضَا أوليائهنَّ عُدَّةً لهنَّ مِن حوادثِ الدهر، فلمَّا أمَرهم اللهُ أن يؤتوا اليتامىٰ أموالَهم، أمَر عَقِبَه بأمرِهم بأن يَجعَلوا للرجال والنساء نصيبًا ممَّا ترَك الوالدانِ والأقربون؛ فإيتاءُ مالِ اليتيم تحقيقٌ لإيصال نصيبِه ممَّا ترَك له الوالدانِ والأقربون، وتوريثُ القرابةِ إثباتٌ لنصيبِهم ممَّا ترَك الوالدانِ والأقربون، وذُكِر النساءُ هناك تمهيدًا لشَرْعِ الميراث(٢).

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ الرابع مِن الأحكام المذكورة في هذه السُّورةِ؛ وهو ما يَتعلَّقُ بالمواريثِ والفرائض(٣).

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ شروعٌ في بيانِ أحكام المواريث بعد بيانِ أحكام أموالِ اليتامىٰ المنتقِلةِ إليهم بالإرث(٤).

---

(١) أي: تابعين لهم، منقادين.

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٤٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٩/ ٥٠٣).

(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٤٦).

لمَّا ذكَر سبحانه حُكْمَ أموالِ اليتامىٰ، وصَله بأحكامِ المواريث، وكيفيَّةِ قِسْمتِها بَيْنَ الورثةِ(١).

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾

ولمَّا بيَّن المفروضَ، أتبَعه ببيانِ المندوب، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾(٢).

لمَّا ذكَر في الآيةِ الأُولىٰ أنَّ النساءَ أُسْوةُ الرجالِ في أنَّ لهنَّ حظًّا مِن الميراث، وعَلِم تعالىٰ أنَّ في الأقاربِ مَن يَرِثُ ومَن لا يرث، وأنَّ الذين لا يَرِثون إذا حضَروا وقتَ القِسْمةِ، فإن تُرِكوا محرومين بالكُليةِ ثقُلَ ذلك عليهم؛ فلا جرَمَ أمَر الله تعالىٰ أن يُدفَعَ إليهم شيءٌ عند القسمةِ حتىٰ يحصُلَ الأدبُ الجميل، وحُسْنُ العِشْرة(٣).

جملةٌ معطوفة علىٰ جملةِ ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ إلىٰ آخرِها، وهذا أمرٌ بعطيَّةٍ تُعطَىٰ مِن الأموالِ الموروثة؛ أُمِر الورَثةُ أن يُسهِموا لِمَن يحضُرُ القِسْمةَ مِن ذَوِي قرابتِهم غيرِ الذين لهم حقٌّ في الإرثِ، ممَّن شأنُهم أن يحضُروا مجالسَ الفصلِ بين الأقرباء(٤).

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾

لمَّا أعاد الوصيةَ باليتامىٰ مرَّةً بعد أخرىٰ، وختَم بالأمر بالإنةِ القول، وكان للتصوير في التأثيرِ في النفس ما ليس لغيرِه؛ أعاد الوصيةَ بهم لضَعْفِهم، مصوِّرًا لحالهم، مبيِّنًا

(١) فتح القدير (١/ ٤٩٣).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٢٠٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٩/ ٥٠٣).

(٤) التحرير والتنوير (٤/ ٢٥٠).

أنَّ القولَ المعروف هو الصوابُ الذي لا خلَلَ فيه، فقال: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (١).

موعظةٌ لكل مَن أُمِر أو نُهِيَ أو حُذِّر أو رُغِّب في الآيِ السابقة، في شأنِ أموال اليتامىٰ وأموالِ الضِّعافِ مِن النساء والصبيان، فابتُدئت الموعظةُ بالأمر بخشيةِ الله تعالىٰ؛ أي: خشيةِ عذابِه، ثم أُعقِبَ بإثارةِ شفقةِ الآباء علىٰ ذُرِّيتِهم بأن يُنزِلوا أنفسَهم منزلةَ الموروثين، الذين اعتدَوْا هم علىٰ أموالِهم، ويُنزِلوا ذرياتِهم منزلةَ الذريةِ الذين أكَلوا هم حقوقَهم، وهذه الموعظةُ مبنيَّةٌ علىٰ قياسِ قولِ النبي ﷺ: «لا يؤمِنُ أحدُكم حتىٰ يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسِه». وزاد إثارةَ الشفقةِ التنبيهُ علىٰ أنَّ المعتدىٰ عليهم خَلْقٌ ضِعافٌ بقولِه: ﴿ضِعَٰفًا﴾ (٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

لمَّا طال التحذيرُ والزَّجْرُ والتهويل في شأنِ اليتامىٰ، وكان ذلك ربما أوجَب النُّفْرةَ مِن مخالَطتِهم رأسًا فتَضِيعُ مصالحُهم؛ وصَل بذلك ما بيَّن أنَّ ذلك خاصٌّ بالظالم، في سياقٍ موجِبٍ لزيادة التحذير، فقال مؤكِّدًا لِما كان قد رسَخ في نفوسهم مِن الاستهانةِ بأموالهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (٣).

جملةٌ معترِضة تُفيدُ تكريرَ التحذير مِن أكلِ مال اليتامىٰ، جرَّتْهُ مناسبةُ التعرُّضِ لِقِسْمةِ أموال الأموات؛ لأنَّ الورثةَ يكثُرُ أن يكونَ فيهم يتامىٰ؛ لكثرةِ تزوُّجِ الرجالِ

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٢٠١).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٥٢).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٢٠٢).

في مدَّةِ أعمارهم، فقلَّما يخلو ميِّتٌ عن ورَثةٍ صِغار، وهو مؤذِنٌ بشِدَّةِ عنايةِ الشارع بهذا الغرضِ؛ فلذلك عاد إليه بهذه المناسبة(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ أكَّد الوعيدَ في أكلِ مال اليتيم ظلمًا، وقد كثُرَ الوعيدُ في هذه الآياتِ مرَّةً بعد أخرىٰ علىٰ مَن يفعل ذلك، ثم ذكَر بعدها هذه الآيةَ مُفرَدةً في وعيدِ مَن يأكل أموالَهم؛ وذلك كلُّه رحمةٌ مِن الله تعالىٰ باليتامىٰ؛ لأنَّهم لكمالِ ضَعْفِهم وعَجْزِهم استحَقُّوا مِن الله مَزيدَ العنايةِ والكرامة، وما أشَدَّ دلالةَ هذا الوعيدِ علىٰ سَعةِ رحمتِه وكثرةِ عفوِه وفضله! لأنَّ اليتامىٰ لمَّا بلَغوا في الضَّعْفِ إلىٰ الغايةِ القصوىٰ، بلَغتْ عنايةُ الله بهم إلىٰ الغايةِ القصوىٰ(٢).

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

لمَّا تمَّ ذلك تشوَّفتِ النفوسُ إلىٰ بيانِ مقادير الاستحقاق بالإرثِ لكل واحد، وكان قد تقدَّم ذِكْرُ استحقاقِ الرجال والنساء مِن غيرِ تقييدِ يتيمٍ، فاقتضت البلاغةُ بيانَ أصولِ جميع المواريث، وشفاءَ العليلِ بإيضاح أمرها، فقال - مستأنِفًا في جواب مَن كأنَّه سأل عن ذلك، مؤكِّدًا لِما أمَر به منها غايةَ التأكيد، مشيرًا إلىٰ عظمةِ هذا العلمِ بالتقدُّم في الإيصاء في أولِ آياته، والتحذيرِ مِن الضَّلالِ في آخرها، ورغَّب فيه

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٢٥٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٥٠٦).

النبيُّ ﷺ بأنَّه نصفُ العلم، وحذَّر مِن إضاعته بأنَّه أولُ علمٍ يُنزَعُ مِن الأمَّة-: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ الآيةَ[1].

تتنزلُ آيةُ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ منزلةَ البيانِ والتفصيل لقوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾، وهذا المقصدُ الذي جعل قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ بمنزلةِ المقدِّمة له؛ فلذلك كانت جملةُ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ مفصولةً؛ لأنَّ كِلا الموقعَين مُقتضٍ للفصل[2].

في تعلُّقِ هذه الآيةِ بما قبلها وجهان: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن الحُكْمَ في مالِ الأيتام، وما علىٰ الأولياءِ فيه؛ بيَّن كيف يَملِكُ هذا اليتيمُ المالَ بالإرث، ولم يكُنْ ذلك إلا ببيانِ جملةِ أحكام الميراث. الثاني: أنَّه تعالىٰ أثبَتَ حُكْمَ الميراثِ بالإجمال في قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾، فذكر عَقِيبَ ذلك المُجمَلِ هذا المفصَّلَ، فقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾[3].

﴿۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ١٢﴾

لمَّا كان الإرثُ بالمصاهَرةِ أضعفَ مِن الإرثِ بالقرابة، ذكَره بعده، وقدَّمه علىٰ

(١) نظم الدرر (٥/ ٢٠٣).
(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٥٥).
(٣) مفاتيح الغيب (٩/ ٥٠٩).

الإرثِ بقرابةِ الأخوَّة تعريفًا بالاهتمام به، ولأنَّه بلا واسطةٍ، وقدَّم منه الرجُلَ لأنَّه أفضَلُ، فقال: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾[١].

هذه فريضةُ الميراثِ الذي سببُه العِصْمةُ، وقد أعطاها اللهُ حقَّها المهجورَ عند الجاهليةِ إذ كانوا لا يورِّثون الزوجينِ: أمَّا الرجُلُ فلا يرثُ امرأتَه؛ لأنَّها إن لم يكُنْ لها أولادٌ منه، فهو قد صار بموتِها بمنزلةِ الأجنبي عن قرابتِها مِن آباءٍ وإخوة وأعمام، وإن كان لها أولادٌ، كان أولادُها أحَقَّ بميراثها إن كانوا كبارًا، فإن كانوا صغارًا، قبَض أقرباؤهم مالَهم، وتصرَّفوا فيه، وأمَّا المرأة فلا ترثُ زوجَها، بل كانت تُعَدُّ موروثةً عنه، يَتصرَّف فيها ورَثَتُه، فنوَّه اللهُ في هذه الآياتِ بصلةِ العِصْمة؛ وهي التي وصَفها بالميثاقِ الغليظ[٢].

لمَّا ذكَر تعالىٰ ميراثَ الفروع مِن الأصول، وميراثَ الأصول مِن الفروع؛ أخَذ في ذِكْرِ ميراثِ المتصلين بالسبَبِ، لا بالنَّسَبِ؛ وهو للزَّوْجيةِ هنا، ولم يُذكَرْ في القرآنِ التوارثُ بسببِ الولاء، والتوارُثُ المستقِرُّ في الشرعِ هو بالنَّسَبِ، والسببُ الشامل للزوجيَّةِ والوَلاء[٣].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ أورَد أقسامَ الورَثةِ في هذه الآياتِ علىٰ أحسَنِ الترتيبات؛ وذلك لأنَّ الوارثَ إمَّا أن يكونَ متصِلًا بالميتِ بغير واسطةٍ أو بواسطة، فإنِ اتصَل به بغيرِ واسطة، فسببُ الاتصال إمَّا أن يكونَ هو النَّسَبَ أو الزوجية، فحصَل هاهنا أقسامٌ ثلاثة: أشرَفُها وأعلاها الاتصالُ الحاصل ابتداءً مِن جهةِ النَّسب؛ وذلك هو قرابةُ

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٢٠٨).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٦٣).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٥٤٤).

الوِلاد[١]، ويدخُلُ فيها الأولادُ والوالدانِ؛ فاللهُ تعالىٰ قدَّم حُكْمَ هذا القسم. وثانيها: الاتصالُ الحاصل ابتداءً مِن جهةِ الزَّوْجية، وهذا القسمُ متأخِّرٌ في الشرَفِ عن القسمِ الأول؛ لأنَّ الأولَ ذاتيٌّ، وهذا الثاني عرَضيٌّ، والذاتيُّ أشرَفُ مِن العرَضيِّ، وهذا القسمُ هو المراد مِن هذه الآيةِ التي نحن الآن في تفسيرِها. وثالثها: الاتصالُ الحاصل بواسطةِ الغير، وهو المسمَّىٰ بالكَلالةِ، وهذا القسمُ متأخِّرٌ عن القسمَينِ الأوَّلَينِ[٢].

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

لمَّا كان فَطْمُ أنفسِهم عن منعِ الأطفال والنساء شديدًا عليهم؛ لِمُرُونِهم[٣] عليه بمرورِ الدهور الطويلة علىٰ إطباقِهم علىٰ فعلِه، واستحسانِهم له؛ أتبَعه سبحانه الترغيبَ والترهيب لئلا يُغترَّ بوصفِ الحليمِ، فقال معظِّمًا للأمر بأداة البُعْدِ، ومشيرًا إلىٰ جميعِ ما تقدَّم مِن أمرِ المواريث والنساءِ واليتامىٰ وغيرِه: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[٤].

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ قيل: الإشارةُ بـ﴿ تِلْكَ ﴾ إلىٰ القِسْمةِ المتقدِّمة في المواريث. والأَوْلىٰ أن تكونَ إشارةً إلىٰ الأحكامِ السابقة في أحوالِ اليتامىٰ والزوجاتِ، والوصايا والمواريث، وجعل هذه الشرائع حدودًا؛ لأنَّها مضروبةٌ مؤقَّتةٌ للمكلَّفين، لا يجوز لهم أن يَتعدَّوْها إلىٰ غيرِها[٥].

---

(١) أي: من جهة الولادة.

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٥٢٠).

(٣) أي: استمرارهم ولينهم.

(٤) نظم الدرر (٥/ ٢١٣).

(٥) البحر المحيط (٣/ ٥٥٠).

أنَّه تعالىٰ بعد بيانِ سهامِ المواريث، ذكَر الوعدَ والوعيد ترغيبًا في الطاعةِ، وترهيبًا عن المعصية، فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

لمَّا أُشرِبَتِ القلوبُ الصافية ذواتُ الهِمَمِ العالية حُبَّ نيلِ هذا الفوز، أتبَعه الترهيبَ؛ فَطْمًا لها عن تلك الفوائدِ بالكلية، فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[2].

لمَّا ذكَر ثوابَ مُراعي الحدود، ذكَر عقابَ مَن يَتعداها، وغلَّظ في قسمِ المعاصي، ولم يكتفِ بالعصيان؛ بل أكَّدَ ذلك بقولِه: ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾، وناسَب الخَتْمُ بالعذابِ المُهين[3].

﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾

لمَّا تقدَّم سبحانه في الإيصاءِ بالنِّساء، وكان الإحسانُ في الدنيا تارةً يكونُ بالثواب، وتارةً يكون بالزَّجْرِ والعتاب، لأنَّ مدارَ الشرائعِ علىٰ العَدْلِ والإنصاف، والاحترازِ في كلِّ بابٍ عن طرَفَيِ الإفراطِ والتفريط، وختَم سبحانه بإهانةِ العاصي إحسانًا إليه

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٥٢٥).
(٢) نظم الدرر (٥/ ٢١٥).
(٣) البحر المحيط (٣/ ٥٥١).

بكَفِّه عن الفسادِ، لئلا يُلقِيَه ذلك إلىٰ الهلاكِ أبَدَ الآباد، وكان مِن أفحَشِ العصيانِ الزِّنا، وكان الفسادُ في النساء أكثَرَ، والفتنةُ بهنَّ أكبَرَ، والضَّرَرُ منهنَّ أخطَرَ، وقد يُدخِلْنَ علىٰ الرجالِ مَن يرثُ منهم مِن غيرِ أولادهم؛ قدَّمَهنَّ فيه اهتمامًا بزَجْرِهنَّ، فقال: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾(١).

موقعُ هذه الآيةِ في هذه السُّورةِ معضِلٌ، وافتتاحُها بواوِ العطف أعضَلُ؛ لاقتضائه اتصالَها بكلامٍ قبلها. وقد جاء حدُّ الزِّنا في سورةِ «النُّور»، وهي نازلةٌ في سنةِ سِتٍّ بعد غزوةِ بني المُصطَلِقِ علىٰ الصحيح، والحُكْمُ الثابت في سورةِ «النُّور» أشَدُّ مِن العقوبةِ المذكورة هنا، ولا جائزٌ أن يكونَ الحدُّ الذي في سورة «النُّور» قد نُسِخ بما هنا؛ لأنَّه لا قائلَ به. فإذا مضَيْنا علىٰ معتادِنا في اعتبار الآيِ نازلةً علىٰ ترتيبها في القراءة في سُوَرِها، قلنا: إنَّ هذه الآيةَ نزَلتْ في سورة «النساء» عَقِب أحكامِ المواريث وحراسةِ أموال اليتامىٰ، وجعَلْنا الواوَ عاطفةً هذا الحُكْمَ علىٰ ما تقدَّم مِن الآياتِ في أول السُّورةِ بما يتعلَّقُ بمعاشَرةِ النساء؛ كقوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾، وجزَمْنا بأنَّ أولَ هذه السُّورةِ نزَل قبل أولِ سورة «النُّور»، وأنَّ هذه العقوبةَ كانت مبدأَ شرعِ العقوبة علىٰ الزِّنا، فتكون هاتِهِ الآيةُ منسوخةً بآيةِ سورة «النُّور» لا محالةَ؛ كما يدلُّ عليه قولُه: ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾(٢).

لمَّا ذكَر حدودَه، وأشار بـ﴿تِلۡكَ﴾ إلىٰ جميعِ ما وقَع مِن أول السُّورة إلىٰ موضعِ الإشارة، فكان في مبدأِ السُّورةِ التحصُّنُ بالتزويج، وإباحةُ ما أباح مِن نكاحِ أربعٍ لِمَن

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٢١٦).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٦٩).

أباح ذلك؛ استطرَد بعد ذلك إلىٰ حُكْمِ مَن خالَف ما أمَر اللهُ به مِن النكاحِ مِن الزَّوَاني، وأفرَدَهنَّ بالذِّكرِ أولًا؛ لأنَّهنَّ علىٰ ما قيل أدخَلُ في بابِ الشهوة مِن الرجال، ثم ذكَرهنَّ ثانيًا مع الرجالِ الزَّانِينَ في قوله: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ ﴾، فصار ذِكْرُ النساءِ الزَّوَاني مرَّتينِ: مرَّةً بالإفراد، ومرَّةً بالشُّمول[(١)].

لمَّا ذكَر في الآياتِ المتقدِّمة الأمرَ بالإحسان إلىٰ النساء، ومعاشَرتِهنَّ بالجميلِ، وما يتصل بهذا البابِ؛ ضَمَّ إلىٰ ذلك التغليظَ عليهنَّ فيما يأتينه مِن الفاحشةِ؛ فإنَّ ذلك في الحقيقةِ إحسانٌ إليهنَّ، ونظَرٌ لهنَّ في أمرِ آخِرتِهنَّ[(٢)].

لمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ في هذه السُّورةِ الإحسانَ إلىٰ النساء، وإيصالَ صَدُقاتِهنَّ إليهنَّ، وانجَرَّ الأمرُ إلىٰ ذِكرِ ميراثِهنَّ مع مواريثِ الرجال؛ ذكَر أيضًا التغليظَ عليهنَّ فيما يأتِينَ به مِن الفاحشةِ؛ لئلا تَتوهَّمَ المرأةُ أنَّه يسُوغُ لها تركُ التعفُّفِ[(٣)].

شروعٌ في بيانِ بعضٍ آخَرَ مِن الأحكامِ المتعلقة بالنساء، إثْرَ بيانِ أحكام المواريث[(٤)].

لمَّا ذكَّر تعالىٰ بحدودِه، وذكَر جزاءَ متعدِّيها؛ ذكَر هنا معصيةً مِن معاصيه؛ وهي فاحشةُ الزِّنا، ووضَع لها حدًّا؛ وهي الحبسُ في البيوتِ حتىٰ الموتِ، أو إلىٰ أن يُنزِلَ حُكْمًا آخَرَ يُخرِجُهن مِن الحبسِ؛ وهذا بالنسبةِ إلىٰ المُحصَنات[(٥)].

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٥٥٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٥٢٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٨٢).

(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٥٤).

(٥) أيسر التفاسير (١/ ٤٤٩).

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦ ﴾

ولمَّا ذكَر أمرَ النساء، أتبَعه حُكْمَ الرجالِ علىٰ وجهٍ يعُمُّ النساءَ أيضًا، فقال: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴾(١).

أنَّ المرادَ مِن قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ ﴾ المراد منه الزَّواني، والمرادَ مِن قوله: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ ﴾ الزُّناةُ، ثم إنَّه تعالىٰ خَصَّ الحبسَ في البيتِ بالمرأة، وخَصَّ الإيذاءَ بالرجُلِ؛ والسببُ فيه أنَّ المرأةَ إنَّما تقع في الزِّنا عند الخروجِ والبُروز، فإذا حُبِستْ في البيت انقطَعتْ مادةُ هذه المعصية، وأمَّا الرجُلُ فإنَّه لا يمكِنُ حَبْسُه في البيت؛ لأنَّه يَحتاجُ إلىٰ الخروج في إصلاحِ مَعاشِه، وترتيبِ مهمَّاتِه، واكتسابِ قُوتِ عيالِه؛ فلا جرَمَ جُعِلتْ عقوبةُ المرأة الزانية الحبسَ في البيت، وجُعِلتْ عقوبةُ الرجُلِ الزاني أن يؤذىٰ، فإذا تابَ تُرِك إيذاؤه. ويحتمِلُ أيضًا أن يقالَ: إنَّ الإيذاءَ كان مشتركًا بَيْنَ الرجُلِ والمرأة، والحبسُ كان مِن خواصِّ المرأة، فإذا تابا أُزِيلَ الإيذاءُ عنهما، وبَقِيَ الحبسُ علىٰ المرأة؛ وهذا أحسَنُ الوجوهِ المذكورة(٢).

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ ﴾

لمَّا ختَم ذلك بذِكْرِ توبةِ الزُّناة، وكان الحاملُ علىٰ الزِّنا - علىٰ ما يقتضيه الطَّبْعُ البشَريُّ - شِدَّةَ الشَّبَقِ، وقلةَ النظَرِ في العواقبِ، وكان ذلك إنَّما هو في الشبابِ؛ وصَل

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٢١٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٩/ ٥٣١).

بذلك قولَه تعالىٰ معرِّفًا بوقتِ التوبة وشرطِها، مرغِّبًا في تعجيلها، مرهِّبًا مِن تأخيرها: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(١).

استطرادٌ جَرَّ إليه قولُه: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ﴾(٢).

لمَّا ذكَر في الآيةِ الأُولىٰ أنَّ المرتكِبين للفاحشةِ إذا تابا وأصلَحا زال الأذىٰ عنهما، وأخبَر علىٰ الإطلاقِ أيضًا أنَّه توَّابٌ رحيم؛ ذكَر وقتَ التوبةِ وشرطَها، ورغَّبهم في تعجيلِها؛ لئلا يأتيَهم الموتُ وهم مُصِرُّون؛ فلا تَنفَعَهم التوبةُ(٣).

ولمَّا وصَف سبحانه نفسَه بالتوَّابِ الرحيم، عقَّب ذلك ببيانِ شرطِ قَبول التوبة(٤).

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨﴾

لمَّا بيَّن سبحانه المقبولَ، أتبعَه المطرودَ، فقال: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٢١٩).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٧٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٠/ ٥).

(٤) روح المعاني (٢/ ٤٤٧).

(٥) نظم الدرر (٥/ ٢٢١).

قولُه: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ الآيةَ، تنبيهٌ علىٰ نفيِ القَبولِ عن نوعٍ مِن التوبة؛ وهي التي تكون عند اليأسِ مِن الحياة؛ لأنَّ المقصدَ مِن العزمِ ترتُّبُ آثارِه عليه، وصلاحُ الحالِ في هذه الدارِ بالاستقامة الشرعية، فإذا وقَع اليأسُ مِن الحياة، ذهَبتْ فائدةُ التوبةِ[١].

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ تصريحٌ بما فُهِم مِن قَصْرِ القَبول علىٰ توبةِ مَن تاب مِن قريبٍ، وزيادةُ تعيينٍ له ببيانِ أنَّ توبةَ مَن عدَاهم بمنزلةِ العدم، وجمعُ السيئاتِ باعتبار تكرُّرِ وقوعِها في الزمانِ المديد، لا لأنَّ المرادَ جميعُ أنواعها، وبما مَرَّ مِن السُّوءِ نوعٌ منها[٢].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر شرائطَ التوبة المقبولة، أردَفَها بشرحِ التوبة التي لا تكون مقبولةً[٣].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

لمَّا انقضىٰ ما تخلَّل ذِكْرَ النساءِ الوالداتِ للوراث، وختَمه بهذا التهديدِ الهائل لِمَن فعَل ما لا يَحِلُّ له؛ وصَل الكلامَ فيهنَّ بأمرِ مَن فعَله، فهو زانٍ مُصِرٌّ علىٰ الزِّنا إلىٰ الموت إنِ اعتقَد حُرْمتَه، أو كافرٌ إن اعتقَد حِلَّه، فقال مشيرًا بتخصيصِ المؤمنين عَقِب ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ إلىٰ أنَّه لا يَرِثُ كافرٌ مِن مسلمٍ، وإلا

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٢٨٠، ٢٨١).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٥٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٠/ ٨).

لقال: يا أيُّها الناسُ -مثلًا-، منفرًا مِن ذلك بالتقييدِ بما هو لأدنىٰ الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾ استئنافُ تشريعٍ في أحكامِ النساء التي كان سياقُ السُّورة لبيانها، وهي التي لم تَزَلْ آيُهَا مبيِّنَةً لأحكامِها تأسيسًا واستطرادًا، وبَدْءًا وعَوْدًا، وهذا حُكْمٌ تابع لإبطالِ ما كان عليه أهلُ الجاهلية مِن جَعْلِ زوجِ الميِّت موروثةً عنه، وافتُتِح بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ للتنويهِ بما خوطبوا به، وخُوطِب الذين آمَنوا ليعُمَّ الخطابُ جميعَ الأمَّة، فيأخذَ كلٌّ منهم بحظِّه منه؛ فمُريدُ الاختصاصِ بامرأة الميت يَعلَمُ ما يَختصُّ به منه، والوالي كذلك، وولاةُ الأمورِ كذلك(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بعد وصفِ التوبة عاد إلىٰ أحكامِ النساء، واعلَمْ أنَّ أهلَ الجاهلية كانوا يؤذون النساءَ بأنواعٍ كثيرة مِن الإيذاء، ويَظلِمونهنَّ بضروبٍ مِن الظُّلْمِ؛ فاللهُ تعالىٰ نهاهم عنها في هذه الآياتِ(٣).

لمَّا نهىٰ اللهُ سبحانه فيما تقدَّم عن عاداتِ أهل الجاهلية في أمرِ اليتامىٰ والأموال، عقَّبه بالنَّهْيِ عن الاستنانِ بنوعٍ مِن سننِهم في النساءِ؛ أنفُسِهنَّ أو أموالِهنَّ(٤).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٢٢٢، ٢٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٨٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٠/ ١١).

(٤) روح المعاني (٢/ ٤٤٩-٤٥٠).

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾

ولمَّا نهىٰ عن العَضْلِ تسبُّبًا إلىٰ إذهابِ بعضِ ما أُعطِيَتْهُ المرأةُ، أتبَعه التصريحَ بالنَّهْيِ عن أخذِ شيءٍ منه في غيرِ الحالة التي أَذِن فيها في المُضارَّة، فقال: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾(١).

لا جرَمَ أنَّ الكراهيَةَ تعقُبُها إرادةُ استبدالِ المكروه بضدِّه؛ فلذلك عطَف الشرطَ علىٰ الذي قبله استطرادًا واستيفاءً للأحكام؛ فالمرادُ بالاستبدال طلاقُ المرأةِ السابقة، وتزوُّجُ امرأةٍ أخرىٰ(٢).

سياقُ الآية يدلُّ علىٰ أنَّ المعنىٰ الحثُّ علىٰ إمساكِهنَّ، وعلىٰ صُحْبتِهنَّ، وإن كَرِه الإنسانُ منهنَّ شيئًا مِن أخلاقِهنَّ؛ ولذلك جاء بعده: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾(٣).

لمَّا أَذِن في مُضارَّةِ الزوجات إذا أتَيْنَ بفاحشةٍ، بيَّن في هذه الآيةِ تحريمَ المُضارَّةِ في غيرِ حالِ الفاحشة، فقال: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٢٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٨٨).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٥٧٠).

(٤) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٣).

لمَّا مضىٰ في الآيةِ المتقدِّمة حُكْمُ الفِراق الذي سببُه المرأةُ، وأنَّ للزوجِ أخْذَ المالِ منها؛ عقَّب ذلك بذِكْرِ الفِراق الذي سببُه الزوجُ؛ بيَّن أنَّه إذا أراد الطلاقَ مِن غيرِ نشوزٍ وسُوءِ عِشْرةٍ، فليس له أن يطلُبَ منها مالًا(١).

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

ثم غلَّظ ذلك باستفهامٍ آخَرَ كذلك، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ ذكَر في علَّةِ هذا المنعِ أمورًا: أحدُها: أنَّ هذا الأخذَ يتضمَّنُ نِسبتَها إلىٰ الفاحشةِ المبيِّنة، فكان ذلك بهتانًا، والبهتانُ مِن أمَّهاتِ الكبائر. وثانيها: أنَّه إثْمٌ مُبينٌ؛ لأنَّ هذا المالَ حَقُّها، فمَن ضيَّق الأمرَ عليها ليَتوسَّلَ بذلك التشديدِ والتضييق -وهو ظُلْمٌ- إلىٰ أخذِ المال -وهو ظُلْمٌ آخَرُ-؛ فلا شك أنَّ التوسُّلَ بظُلْمٍ إلىٰ ظلمٍ آخَرَ يكون إثمًا مبينًا. وثالثُها: أنَّه تعالىٰ ذكَر هذا في معرِض التعجُّب، فقال: وكيف تأخذونه وقد أفضىٰ بعضُكم إلىٰ بعض؟! والتعجُّبُ إنَّما يتمُّ إذا كان هذا الإفضاءُ سببًا قويًّا في حصول الأُلْفة والمحبَّة ... فكيف يليقُ بالعاقل أن يستردَّ منها شيئًا بذَلَه لها بطِيبةِ نفسِه؟ إنَّ هذا لا يليقُ البتَّةَ بمَن له طبعٌ سليم، وذوقٌ مستقيم(٣).

ثم وعَظ تعالىٰ عبادَه مذكِّرًا لهم بالمودَّةِ التي بَيْنَ الزَّوجين، الموجِبةِ لحِياطةِ مال المرأة؛ إذ قد أُخِذ منها العِوَضُ عمَّا أُعطِيَتْهُ، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾(٤).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٩٩).
(٢) نظم الدرر (٥/ ٢٢٧).
(٣) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٦).
(٤) المحرر الوجيز (٢/ ٣٠).

قولُه عَجَلَّ: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ ﴾ إنكارٌ لأخذِه إثرَ إنكارٍ، وتنفيرٌ عنه غِبَّ تنفيرٍ، وقد بُولِغَ فيه؛ حيث وُجِّه الإنكارُ إلىٰ كيفيَّة الأخذِ إيذانًا بأنَّه ممَّا لا سبيلَ له إلىٰ التحقُّقِ والوقوع أصلًا؛ لأنَّ ما يدخُلُ تحت الوجود لا بد أن يكونَ علىٰ حالٍ مِن الأحوال، فإذا لم يكُنْ لشيءٍ حالٌ أصلًا، لم يكُنْ له حظٌّ مِن الوجود قطعًا[1].

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾

لمَّا كرَّر ذِكْرَ الإذنِ في نكاحهنَّ وما تضمَّنه منطوقًا مفهومًا، وكان قد تقدَّم الإذنُ في نكاحِ ما طابَ مِن النساء، وكان الطيِّبُ شرعًا قد يَحمِلُ علىٰ الحِلِّ؛ مسَّتِ الحاجةُ إلىٰ ما يَحِلُّ منهنَّ لذلك وما يحرُمُ، فقال: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[2].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾، والمناسبةُ أنَّ مِن جملةِ أحوال إرثِهم النساءَ كَرْهًا أن يكونَ ابنُ الميِّتِ أَوْلىٰ بزوجةِ أبيه إذا لم تكُنْ أمَّه؛ فنُهُوا عن هذه الصورةِ نَهْيًا خاصًّا مغلَّظًا، وتخلَّص منه إلىٰ إحصاءِ المحرَّمات[3].

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ شروعٌ في بيانِ مَن يحرُمُ نكاحُها مِن النساء ومَن لا يحرُمُ بعد بيانِ كيفيَّة معاشرةِ الأزواج، وهو عند بعضٍ مرتبِطٌ بقولِه سبحانه: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾، وإنَّما خُصَّ هذا النكاحُ بالنَّهْيِ ولم يُنظَمْ في سِلْكِ نكاح المحرَّمات الآتيةِ؛ مبالَغةً في الزَّجْرِ عنه؛ حيث كان ذلك دَيْدنًا لهم في الجاهلية[4].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٥٩).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٢٢٧).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ٢٩٠، ٢٩١).

(٤) روح المعاني (٢/ ٤٥٤).

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) ﴾

لمَّا ابتدأ بتعظيمِ الآباء واحترامهم في أن يَنكِحَ الأبناءُ أزواجَهم علىٰ العمومِ، ثنَّىٰ بخصوصِ الأمِّ بقولِه: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾(١).

تخلُّصٌ إلىٰ ذِكرِ المحرَّماتِ بمناسبة ذِكْرِ تحريم نكاحِ ما نكَح الآباءُ، وغُيِّر أسلوبُ النَّهْيِ فيه؛ لأنَّ «لا تَفعَلْ» نَهْيٌ عن المضارعِ الدالِّ علىٰ زمنِ الحال، فيؤذِنُ بالتلبُّسِ بالمَنْهيِّ، أو إمكانِ التلبس به، بخلافِ ﴿ حُرِّمَتْ ﴾، فيدلُّ علىٰ أنَّ تحريمَه أمرٌ مقرَّر؛ ولذلك قال ابنُ عباس: «كان أهلُ الجاهليَّةِ يحرِّمون ما يحرِّمُ الإسلامُ، إلا امرأةَ الأبِ، والجَمْعَ بَيْنَ الأختَينِ»(٢)؛ فمِن أجلِ هذا أيضًا، نجد حُكْمَ الجمعِ بين الأختين عُبِّر فيه بلفظِ الفعل المضارعِ، فقيل: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ نصَّ علىٰ تحريمِ أربعةَ عشَرَ صِنْفًا مِن النِّسوانِ: سبعةٌ منهنَّ مِن جهة النَّسب؛ وهنَّ: الأمَّهات، والبنات، والأخوات، والعَمَّات، والخالات، وبنات الأخِ، وبنات الأخت. وسبعةٌ أخرىٰ لا مِن جهةِ النَّسب: الأمَّهات مِن الرَّضاعة،

(١) نظم الدرر (٥/ ٢٢٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في "التفسير" (٦/ ٥٤٩).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ٢٩٤).

والأخوات مِن الرَّضاعة، وأمَّهات النساء، وبناتُ النساء بشرطِ أن يكونَ قد دخل بالنِّساء، وأزواجُ الأبناءِ والآباء، إلا أنَّ أزواجَ الأبناءِ مذكورةٌ هاهنا، وأزواجَ الآباء مذكورةٌ في الآيةِ المتقدِّمة، والجمع بين الأختينِ(١).

﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) ﴾

لمَّا ذكَر مُضارَّةِ الجمعِ، أتبَعه مُضارَّةَ الإغارةِ على الحقِّ، والأولُ جمعٌ بَيْنَ المنكوحين، وهذا جمعٌ بَيْنَ الناكحين؛ فقال - عاطفًا على النائبِ عن فاعلِ ﴿ حُرِّمَتْ ﴾ -: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(٢).

عطفٌ على ﴿ وَأَن تَجْمَعُوا۟ ﴾؛ والتقديرُ: وحُرِّمتْ عليكم المحصَناتُ مِن النساء.. إلخ. فهذا الصِّنْفُ مِن المحرَّماتِ لعارضٍ نظيرُ الجمعِ بَيْنَ الأختينِ(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٠/ ٢٢).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٢٣٢، ٢٣٣).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٥).

﴿ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٢٥) ﴾

لمَّا مضىٰ ذلك علىٰ هذا الوجهِ الجليل، عُرِف أنَّه كلَّه في الحرائرِ؛ لأنَّه الوجهُ الأحكَمُ في النكاح، وأتبَعه تعليمَ الحِكْمةِ في نكاحِ الإماء، فقال -عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: هذا حُكْمُ مَن استطاع نكاحَ حُرَّةٍ-: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾(١).

عُطِف قولُه: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا ﴾ علىٰ قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ ﴾ تخصيصًا لعمومِه بغيرِ الإماء، وتقييدًا لإطلاقِه باستطاعةِ الطَّوْلِ(٢).

لمَّا بيَّن مَن يَحِلُّ ومَن لا يَحِلُّ، بيَّن فيمَن يَحِلُّ أنَّه متىٰ يَحِلُّ، وعلىٰ أيِّ وجهٍ يَحِلُّ، فقال: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٢٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٠/ ٤٦).

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

ولمَّا أتَمَّ سبحانه الحلالَ والحرام مِن هذه الحدودِ والأحكام، وختَمها بصفةِ الرحمة؛ بيَّن ما أراد بها مِن موجِباتِ الرحمة تذكيرًا بالنِّعْمةِ لتُشكَرَ، وتحذيرًا مِن أن تُنسىٰ فتُكفَرَ، فقال تعالىٰ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(1).

تذييلٌ يُقصَد منه استئناسُ المؤمنين، واستنزالُ نفوسِهم إلىٰ امتثالِ الأحكام المتقدِّمة مِن أولِ السُّورة إلىٰ هنا؛ فإنَّها أحكامٌ جمَّةٌ، وأوامرُ ونَواهٍ تُفضِي إلىٰ خَلْعِ عوائدَ أَلِفوها، وصَرْفِهم عن شهواتٍ استباحوها؛ كما أشار إليه قولُه بعد هذا: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾؛ أي: الاسترسالَ علىٰ ما كانوا عليه في الجاهليةِ، فأعقَب ذلك ببيانِ أنَّ في ذلك بيانًا وهُدًىٰ؛ حتىٰ لا تكونَ شريعةُ هذه الأمَّةِ دُونَ شرائعِ الأُمَم التي قبلها، بل تفُوقُها في انتظامِ أحوالها، فكان هذا كالاعتذارِ علىٰ ما ذُكِر مِن المحرَّماتِ؛ فقولُه: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ تعليلٌ لتفصيلِ الأحكام في مواقعِ الشُّبهات كي لا يَضِلُّوا كما ضلَّ مَن قبلهم؛ ففيه أنَّ هذه الشريعةَ أهدىٰ ممَّا قبلها، وقولُه: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ بيانٌ لقصدِ إلحاق هذه الأمَّةِ بمزايا الأُمَمِ التي قبلها(2).

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لتقرير ما سبَق مِن الأحكام، وبيانِ كونِها جاريةً علىٰ مناهجِ المهتدِينَ مِن الأنبياءِ والصالحين(3).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٢٤١، ٢٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٦٨).

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧﴾

لمَّا قرَّر ﷻ إرادتَه لصلاحهم، ورغَّب في اتِّباع الهدىٰ بعِلْمِه وحِكْمتِه؛ عطَف علىٰ ذلك قولَه: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾(١).

كرَّر قولَه: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ ليرتِّبَ عليه قولَه: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾؛ فليس بتأكيدٍ لفظيٍّ، وهذا كما يعاد اللفظُ في الجزاء والصفة ونحوِها، والمقصدُ مِن التعرُّضِ لإرادةِ الذين يتَّبِعون الشهواتِ تنبيهُ المسلمين إلىٰ دخائلِ أعدائهم؛ ليَعلَموا الفرقَ بَيْنَ مرادِ الله مِن الخَلْقِ، ومرادِ أعوان الشياطينِ؛ وهم الذين يتَّبِعون الشهواتِ(٢).

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ جعَله بعضُهم تكْرارًا لِما تقدَّم؛ للتأكيد والمبالغة، وهو ظاهرٌ إذا كان المرادُ مِن التوبة هناك وهنا شيئًا واحدًا، وأمَّا إذا فُسِّر ﴿يَتُوبَ﴾ أولًا بقَبولِ التوبة والإرشاد مثلًا، وثانيًا بأن يَفعَلوا ما يستوجِبون به القَبول؛ فلا يكون تكْرارًا، وأيضًا إنَّما يَتمشىٰ ذلك علىٰ كونِ ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ مفعولًا، وإلا فلا تكْرارَ أيضًا؛ لأنَّ تعلُّقَ الإرادةِ بالتوبة في الأول علىٰ جهةِ العِلِّيَّةِ، وفي الثاني علىٰ جهةِ المفعولية، وبذلك يحصُلُ الاختلافُ لا محالةَ(٣).

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ جملةٌ مبتدأة مسُوقةٌ لبيانِ كمال منفعةِ ما أراده الله تعالىٰ، وكمالِ مَضرَّةِ ما يريدُ الفجَرةُ، لا لبيانِ إرادته تعالىٰ لتوبتِهِ عليهم حتىٰ يكونَ

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٢٥٧).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢٠).

(٣) روح المعاني (٣/ ١٥).

مِن باب التكرير للتقرير؛ ولذلك غُيِّر الأسلوبُ إلىٰ الجملة الاسمية دَلالةً علىٰ دوامِ الإرادة، ولم يُفعَلْ ذلك في قولِه تعالىٰ: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾؛ للإشارة إلىٰ الحدوث، وللإيماءِ إلىٰ كمال المبايَنةِ بَيْنَ مضمونَي الجملتَين(١).

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾

لمَّا كان الميلُ مُتعِبًا لمرتكِبِه، أخبَرهم أنَّ علَّةَ بيانِه للهداية وإرادتِه التوبةَ الرِّفْقُ بهم، فقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾(٢).

أعقَب الاعتذارَ الذي تقدَّم بقولِه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ بالتذكيرِ بأنَّ اللهَ لا يَزالُ مراعيًا رِفْقَه بهذه الأمَّةِ، وإرادتَه بها اليُسْرَ دُونَ العُسْرِ؛ إشارةً إلىٰ أنَّ هذا الدِّينَ بيَّن حِفْظَ المصالحِ ودَرْءَ المفاسدِ في أيسَرِ كيفيَّةٍ وأرفَقِها، فربما ألغَتِ الشريعةُ بعضَ المفاسد إذا كان في الحَمْلِ علىٰ تَرْكِها مشقَّةٌ، أو تعطيلُ مصلحةٍ؛ كما ألغت مفاسدَ نكاحِ الإماء نظرًا للمشقَّةِ علىٰ غيرِ ذي الطَّوْلِ، والآياتُ الدالة علىٰ هذا المعنىٰ بلَغتَ مبلغَ القَطْعِ؛ كقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾، وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾، وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، وفي الحديثِ الصحيح: «إنَّ هذا الدِّينَ يُسْرٌ، ولن يشادَّ هذا الدِّينَ أحدٌ إلا غلَبه»(٣)، وكذلك كان يأمرُ أصحابَه الذين يُرسِلُهم إلىٰ بثِّ الدِّينِ، فقال لمُعاذٍ وأبي موسىٰ: «يَسِّرَا ولا تُعسِّرَا»(٤)، وقال: «إنَّما بُعِثتم مبشِّرين، لا منفِّرين»(٥)، وقال لمُعاذٍ لمَّا شكَا بعضُ المصلِّين خَلْفَه مِن

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٦٩).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٢٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣).

(٥) أخرجه البخاري (٧٠٢)، ومسلم (٤٦٦) بنحوه.

تطويلِه: «أفتَّانٌ أنتَ؟!»[(١)]، فكان التيسيرُ مِن أصول الشريعة الإسلامية، وعنه تفرَّعتِ الرُّخَصُ بنوعيها[(٢)].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

لمَّا كان غالبُ ما مضىٰ مبنيًّا علىٰ الأموالِ، تارةً بالإرث، وتارةً بالجُعْلِ في النكاحِ، حلالًا أو حرامًا؛ قال تعالىٰ -إنتاجًا ممَّا مضىٰ بعد أن بيَّن الحقَّ مِن الباطل، وبيَّن ضَعْفَ هذا النوعِ كلِّه؛ فبطَل تعليلُهم لمنعِ النساء والصِّغار مِن الإرث بالضَّعف، وبعد أن بيَّن كيفيَّةَ التصرُّفِ في أمرِ النكاح بالأموال وغيرِها حفظًا للأنساب، ذاكرًا كيفيَّةَ التصرُّفِ في الأموال تطهيرًا للإنسان، مخاطِبًا لأدنىٰ الأسنانِ في الإيمان، ترفيعًا لغيرِهم عن مثلِ هذا الشأن-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[(٣)].

استئنافٌ مِن التشريع المقصود مِن هذه السُّورةِ، وعلامةُ الاستئناف افتتاحُه بقولِه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، ومناسبتُه لِما قبله أنَّ أحكامَ المواريث والنكاح اشتمَلَتْ علىٰ أوامرَ بإيتاءِ ذي الحقِّ في المال حَقَّه؛ كقوله: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾، وقوله: ﴿ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾، وقوله: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾، فانتقَل مِن ذلك إلىٰ تشريعٍ عامٍّ في الأموال والأنفس[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥)، ومسلم (٤٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢٢).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٢٥٨).

(٤) التحرير والتنوير (٥/ ٢٣).

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن كيفيَّة التصرُّفِ في النفوس بالنكاح، بيَّن كيفيَّةَ التصرُّفِ في الأموال الموصلة إلىٰ النكاح، وإلىٰ مِلْكِ اليمين، وأنَّ المهورَ والأثمان المبذولة في ذلك لا تكونُ ممَّا مُلِكتْ بالباطل، والباطلُ هو كلُّ طريقٍ لم تُبِحْهُ الشريعةُ؛ فيدخُلُ فيه: السرقةُ، والخيانة، والغَصْبُ، والقِمار، وعقودُ الرِّبا، وأثمان البِيَاعَاتِ الفاسدة(١).

اعلَمْ أنَّ في كيفيَّةِ النَّظْمِ وجهين: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا شرَح كيفيَّةَ التصرف في النفوس بسببِ النكاح، ذكَر بعده كيفيَّةَ التصرف في الأموال. والثاني: قال القاضي: لمَّا ذكَر ابتغاءَ النكاح بالأموالِ، وأمَر بإيفاءِ المهور والنفقات؛ بيَّن مِن بعدُ كيف التصرُّفُ في الأموال، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾(٢).

شروعٌ في بيانِ بعض الحُرُماتِ المتعلِّقة بالأموال والأنفس، إثرَ بيانِ الحُرُمات المتعلقة بالأبضاع، وتصديرُ الخطابِ بالنداء والتنبيهِ لإظهارِ كمال العناية بمضمونه(٣).

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠ ﴾

ثم قال - ترهيبًا مِن مُواقَعةِ الضَّلال -: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾(٤).

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٦٠٩).

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ٥٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٧٠).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٢٦٠).

﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗا ﴾ الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلىٰ ما وقع النَّهْيُ عنه في هذه الجملةِ مِن أكلِ المال بالباطل، وقَتْلِ الأنفس؛ لأنَّ النَّهْيَ عنهما جاء متَّسِقًا مسرودًا، ثم ورَد الوعيدُ حسَبَ النَّهْيِ(١).

﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ﴾ إشارةٌ إلىٰ القتلِ خاصَّةً، أو لِما قبله مِن أكلِ الأموال، وما فيه مِن معنىٰ البُعْدِ للإيذانِ ببُعْدِ منزلتِهما في الفساد(٢).

﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١ ﴾

لمَّا بيَّن تعالىٰ ما لفاعلِ ذلك تحذيرًا، وكان قد تقدَّم جملةٌ مِن الكبائر؛ أتبَعه ما للمنتهي تبشيرًا؛ جوابًا لِمَن كأنَّه قال: هذا للفاعلِ، فما للمجتنِبِ؟ فقال علىٰ وجهٍ عامٍّ: ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾(٣).

اعتراضٌ ناسَب ذِكْرُه بعد ذِكْرِ ذَنْبَينِ كبيرَينِ؛ وهما: قتلُ النفس، وأكلُ المال بالباطل؛ علىٰ عادة القرآنِ في التفنُّنِ مِن أسلوبٍ إلىٰ أسلوب، وفي انتهازِ الفرص في إلقاء التشريعِ عَقِب المواعظِ، وعكسِه(٤).

﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾ مناسبةُ هذه الآيةِ ظاهرةٌ؛ لأنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر الوعيدَ علىٰ فعلِ بعض

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٦١٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٧٠).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٢٦١).

(٤) التحرير والتنوير (٥/ ٢٦).

الكبائر، ذكَر الوعدَ على اجتنابِ الكبائر، والظاهرُ أنَّ الذُّنوبَ تنقسم إلى كبائرَ وسيِّئاتٍ، وهي التي عبَّر عنها أكثرُ العلماءِ بالصغائر[(١)].

لمَّا قدَّم ذِكْرَ الوعيدِ، أتبَعه بتفصيلِ ما يتعلقُ به، فذكَر هذه الآيةَ[(٢)].

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾

لمَّا نهى عن القتلِ، وعن الأكلِ بالباطل بالفعل، وهما مِن أعمالِ الجوارح؛ ليَصِيرَ الظاهرُ طاهرًا عن المعاصي الوخيمةِ؛ نهى عن التمنِّي الذي هو مقدِّمةُ الأكل؛ ليكونَ نهيًا عن الأكل بطريقِ الأَوْلى؛ فإنَّ التمنِّيَ قد يكون حسَدًا، وهو المَنْهيُّ عنه هنا؛ كما هو ظاهرُ الآية، وهو حرامٌ، والرِّضا بالحرام والتمنِّي على هذا الوجهِ يجُرُّ إلى الأكل، والأكلُ يعودُ إلى القتلِ؛ فإنَّ «مَن يَرتَعْ حولَ الحِمَى، يوشِكْ أن يواقِعَهُ»[(٣)]، والنَّهْيُ هنا للتحريم عند أكثرِ العلماء، فقال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[(٤)].

عطفٌ على جملةِ ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، والمناسبةُ بَيْنَ الجملتينِ المتعاطِفتَين: أنَّ التمنِّيَ يحبِّبُ للمتمنِّي الشيءَ الذي تمنَّاه، فإذا أحَبَّه أتبَعه نفسَه، فرامَ تحصيلَه، وافتتَنَ به، فربما بعَثه ذلك الافتتانُ إلى تدبيرِ

(١) البحر المحيط (٣/ ٦١٣).
(٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ٥٩).
(٣) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).
(٤) نظم الدرر (٥/ ٢٦٣).

الحِيَلِ لتحصيله إن لم يكُنْ بيدِه، وإلىٰ الاستئثارِ به عن صاحبِ الحق، فيُغمِضُ عينَه عن ملاحظةِ الواجب مِن إعطاءِ الحقِّ صاحبَه، وعن مَناهي الشريعةِ التي تضمَّنتْها الجُمَلُ المعطوف عليها. وقد أصبَح هذا التمنِّي في زماننا هذا فتنةً لطوائفَ مِن المسلمين سرَتْ لهم مِن أخلاقِ الغلاة في طلبِ المساواة، ممَّا جَرَّ أممًا كثيرةً إلىٰ نِحْلةِ الشُّيوعية، فصاروا يَتخبطون لطلبِ التساوي في كلِّ شيء، ويعانون إرهاقًا لم يحصُلوا منه علىٰ طائلٍ، والنَّهْيُ عن التمنِّي وتطلُّعِ النفوس إلىٰ ما ليس لها جاء في هذه الآيةِ عامًّا، فكان كالتذييلِ للأحكام السابقة لسَدِّ ذرائعها، وذرائعِ غيرها، فكان مِن جوامعِ الكَلِمِ في دَرْءِ الشُّرور، وقد كان التمنِّي مِن أعظَمِ وسائلِ الجرائم؛ فإنَّه يُفضِي إلىٰ الحسَدِ، وقد كان أوَّلُ جُرْمٍ حصَل في الأرضِ نشَأ عن الحسَدِ، ولقد كثُرَ ما انتُهِبتْ أموالٌ، وقُتِلتْ نفوسٌ للرغبة في بَسْطِ رِزْقٍ، أو فتنةِ نساءٍ، أو نَوالِ مُلْكٍ، والتاريخُ طافحٌ بحوادثَ مِن هذا القبيلِ، والذي يبدو أنَّ هذا التمنِّيَ هو تَمنِّي أموالِ المُثْرِين(١)، وتَمنِّي أَنْصِباءِ الوارثين، وتَمنِّي الاستئثارِ بأموال اليتامىٰ؛ ذكورِهم وإناثِهم، وتَمنِّي حِرْمانِ النساء مِن الميراثِ ليناسِبَ ما سبَق مِن إيتاءِ اليتامىٰ أموالَهم، وإنصافِ النساء في مُهورِهنَّ، وتَرْكِ مُضارَّتِهنَّ إلجاءً إلىٰ إسقاطِها، ومِن إعطاء أنصباءِ الورثةِ كما قسَم اللهُ لهم، وكلُّ ذلك مِن تفضيلِ بعضِ الناس علىٰ بعضٍ في الرِّزق(٢).

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّه تعالىٰ لمَّا نهىٰ عن أكلِ المال بالباطل، وعن قتلِ الأنفس، وكان ما نهىٰ عنه مَدْعاةً إلىٰ التبسُّطِ في الدنيا، والعلوِّ فيها، وتحصيلِ حُطامِها؛ نهاهم عن تَمنِّي ما فضَّل اللهُ به بعضَهم علىٰ بعضٍ؛ إذ التمنِّي لذلك سببٌ

---

(١) أي: الأغنياء.

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢٨).

مؤثِّر في تحصيلِ الدنيا، وشوقِ النفس إليها بكلِّ طريقٍ، فلم يكتفِ بالنَّهْيِ عن تحصيلِ المال بالباطل وقتلِ الأنفس حتىٰ نهىٰ عن السببِ المحرِّضِ علىٰ ذلك، وكانت المبادرةُ إلىٰ النَّهْيِ عن المسبَّبِ آكَدَ؛ لفظاعتِه، ومشقَّتِه، فبُدِئ به، ثم أتبَع بالنَّهْيِ عن السببِ حَسْمًا لمادةِ المسبَّب، وليوافِقَ العملُ القلبيُّ العملَ الخارجيَّ، فيستويَ الباطنُ والظاهر في الامتناعِ عن الأفعال القبيحة(١).

لمَّا نهاهم في الآيةِ المتقدِّمة عن أكلِ الأموال بالباطل، وعن قتلِ النفس؛ أمَرهم في هذه الآيةِ بما سهَّل عليهم تَرْكَ هذه المنهيَّاتِ؛ وهو أن يَرضَىٰ كلُّ أحدٍ بما قسَم اللهُ له؛ فإنَّه إذا لم يَرضَ بذلك، وقَع في الحسَدِ، وإذا وقَع في الحسَدِ، وقَع لا محالةَ في أخذِ الأموال بالباطل، وفي قتلِ النفوس، فأمَّا إذا رَضِيَ بما قدَّر اللهُ، أمكَنه الاحترازُ عن الظُّلْمِ في النفوس، وفي الأموالِ(٢).

لمَّا نهاهم اللهُ تعالىٰ عن أكلِ أموال الناس بالباطل وقتلِ الأنفس، عقَّبه بالنَّهْيِ عمَّا يؤدي إليه مِن الطَّمَعِ في أموالهم، وتَمنِّيها(٣).

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾

وعطَف علىٰ ذلك ما هو مِن جملةِ العلَّةِ، فقال: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾(٤).

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٦١٦).

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ٦٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٧١).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٢٦٧).

الجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ باعتبار كونِه جامعًا لمعنى النَّهْيِ عن الطمَعِ في مالِ صاحب المال، قُصِد منها استكمالُ تبيينِ مَن لهم حقٌّ في المال[١].

لمَّا نهى عن التمنِّي المذكور، وأمَر بسؤالِ الله مِن فضله؛ أخبَر تعالى بشيء مِن أحوال الميراث، وأنَّ في شَرْعِه ذلك مصلحةً عظيمة مِن تحصيلِ مالٍ للوارث لم يَسعَ فيه، ولم يَتعَنَّ بطلبِه؛ فرُبَّ ساعٍ لقاعدٍ[٢].

فإنَّ اللهَ تعالى يُخبِرُ هنا مقرِّرًا حُكْمًا شرعيًّا قد تقدَّم في السياق؛ وهو أنَّ لكلٍّ مِن الرجالِ والنساء ورَثةً يَرِثونه إذا مات[٣].

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ٣٤﴾

ثم بيَّن سبحانه وجهَ استحقاقِ بعض المفضَّلِينَ، فقال - جوابًا لسؤال مَن كأنَّه قال: ما للرجالِ فُضِّلوا؟ -: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٣٣).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٦١٩).

(٣) أيسر التفاسير (١/ ٤٧٠).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٢٩٦).

استئنافٌ ابتدائيٌّ لِذِكْرِ تشريعٍ في حقوقِ الرجال، وحقوقِ النساء، والمجتمَعِ العائلي، وقد ذُكِر عَقِب ما قبله لمناسبةِ الأحكام الراجعة إلىٰ نظام العائلة، لا سيَّما أحكامُ النساء؛ فقوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أصلٌ تشريعيٌّ كلي تَتفرَّعُ عنه الأحكامُ التي في الآياتِ بعده؛ فهو كالمقدِّمة(١).

لمَّا قال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، وقد ذكَرْنا أنَّ سببَ نزولِ هذه الآيةِ أنَّ النساءَ تكلَّمْنَ في تفضيلِ اللهِ الرجالَ عليهنَّ في الميراثِ، فذكَر تعالىٰ في هذه الآيةِ أنَّه إنَّما فضَّل الرجالَ علىٰ النساء في الميراث؛ لأنَّ الرجالَ قوَّامون علىٰ النساءِ؛ فإنَّهما وإن اشتركا في استمتاعِ كلٍّ واحدٍ منهما بالآخَرِ، أمَر اللهُ الرجالَ أن يَدفَعوا إليهنَّ المهرَ، ويُدِرُّوا عليهنَّ النفقةَ، فصارت الزيادةُ مِن أحدِ الجانبَينِ مقابَلةً بالزيادةِ مِن الجانب الآخر، فكأنَّه لا فَضْلَ البتَّةَ؛ فهذا هو بيانُ كيفيَّةِ النَّظم(٢).

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ كلامٌ مستأنَف مسُوقٌ لبيانِ سبب استحقاقِ الرجالِ الزيادةَ في الميراث تفصيلًا، إثرَ بيانِ تفاوتِ استحقاقهم إجمالًا(٣).

﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ٣٥﴾

لمَّا بيَّن حالَ الوِفاق وما خالَطه مِن شيءٍ مِن الأخلاق التي يقوم بإصلاحِها الزوجُ؛ أتبَعه حالَ المبايَنةِ والشِّقاقِ المُحوِجَ إلىٰ مَن يُنصِفُ أحدَهما مِن الآخَرِ، فقال: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٣٧).

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ٧٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٧٣).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٢٧٢).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾؛ وهذا حُكْمُ أحوالٍ أخرىٰ تَعرِضُ بَيْنَ الزَّوجَينِ؛ وهي أحوالُ الشِّقاق؛ مِن مخاصَمةٍ، ومغاضَبة، وعصيان، ونحوِ ذلك مِن أسباب الشقاق؛ أي: دُونَ نشوزٍ مِن المرأة[(١)].

لمَّا ذكَر عند نشوزِ المرأة أنَّ الزوجَ يعظُها، ثم يهجُرُها، ثم يَضرِبُها؛ بيَّن أنَّه لم يَبقَ بعد الضربِ إلا المحاكَمةُ إلىٰ مَن يُنصِفُ المظلومَ مِن الظالم، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ إلىٰ آخِرِ الآية[(٢)].

ولمَّا ذكَر تعالىٰ حُكْمَ النُّفورِ والنُّشوزِ مِن الزوجةِ، ذكَر ما إذا كان النفورُ مِن الزَّوجَينِ بقولِه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾[(٣)].

﴿۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾

لمَّا كثُرتْ في هذه السُّورةِ الوصايا مِن أولِها إلىٰ هنا بنتيجةِ التقوىٰ: العَدْلِ والفضل، والترغيبُ في نَوالِه، والترهيب مِن نكالِه، إلىٰ أن ختَم ذلك بإرشادِ الزَّوجينِ إلىٰ المعاملة بالحسنىٰ، وختَم الآيةَ بما هو في الذِّرْوةِ مِن حُسْنِ الختام مِن صفتَيِ العلمِ والخبرِ، وكان ذلك في معنَىٰ ما ختَم به الآيةَ الآمِرة بالتقوىٰ مِن الوصفِ بالرقيب؛ اقتضىٰ ذلك تكريرَ التذكيرِ بالتقوىٰ التي افتُتِحت السُّورةُ بالأمر بها، فكان التقديرُ حتمًا: فاتَّقُوه؛ عطَف عليه، أو علىٰ نحوِ ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾،

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٤٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ٧٣).

(٣) محاسن التأويل (٣/ ١٠٠).

أو علىٰ ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ الخُلُقَ المقصود مِن الخَلْقِ المبثوثِينَ علىٰ تلك الصفةِ؛ وهو العبادةُ الخالصة التي هي الإحسانُ في معاملةِ الخالق، وأتبعها الإحسانَ في معاملةِ الخلائق، فقال: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾[١].

عطفُ تشريعٍ يختص بالمعاملة مع ذَوِي القُرْبىٰ والضعفاء، وقدَّم له الأمرَ بعبادةِ الله تعالىٰ وعدمِ الإشراك علىٰ وجهِ الإدماج؛ للاهتمامِ بهذا الأمر، وأنَّه أحَقُّ ما يَتوخَّاه المسلم؛ تجديدًا لمعنىٰ التوحيدِ في نفوس المسلمين؛ كما قدَّم لذلك في طالعِ السُّورة بقولِه: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾، والمناسبةُ هي ما أريدَ جمعُه في هذه السُّورةِ مِن أحكام أواصرِ القَرابةِ في النَّسبِ والدِّينِ والمخالطة. والخطابُ للمؤمنين، قدَّم الأمرَ بالعبادة علىٰ النهيِ عن الإشراك؛ لأنَّهم قد تقرَّر نفيُ الشرك بينهم، وأريدَ منهم دوامُ العبادةِ لله، والاستزادةُ منها، ونُهُوا عن الشركِ تحذيرًا ممَّا كانوا عليه في الجاهليةِ[٢].

مناسبةُ هذه الآية لِما قبلها: أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر أنَّ الرجالَ قوَّامون علىٰ النساء بتفضيلِ الله إيَّاهم عليهنَّ، وبإنفاقِ أموالهم، ودلَّ بمفهومِ اللقَبِ أنَّه لا يكون قوَّامًا علىٰ غيرِهنَّ؛ أوضَحَ أنَّه مع كونه قوَّامًا علىٰ النساء هو أيضًا مأمورٌ بالإحسان إلىٰ الوالدَينِ، وإلىٰ مَن عطَفه علىٰ الوالدَينِ، فجاءت حثًّا علىٰ الإحسان، واستطرادًا لمكارمِ الأخلاق[٣].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٢٧٥).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٤٨).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٦٣١).

لمَّا أرشَد كلَّ واحدٍ مِن الزَّوجَين إلىٰ المعاملةِ الحسنة مع الآخَر، وإلىٰ إزالةِ الخصومة والخشونة؛ أرشَد في هذه الآيةِ إلىٰ سائرِ الأخلاق الحسنة، وذكَر منها عشَرةَ أنواعٍ(١).

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ كلامٌ مبتدأ مسُوقٌ لبيانِ الأحكام المتعلِّقةِ بحقوق الوالدَينِ والأقاربِ ونحوِهم، إثرَ بيانِ الأحكام المتعلقة بحقوقِ الأزواج؛ صُدِّر بما يَتعلَّقُ بحقوقِ الله ﷻ التي هي آكَدُ الحقوق وأعظَمُها؛ تنبيهًا علىٰ جلالةِ شأن حقوق الوالدَينِ بنَظْمِها في سِلْكِها كما في سائرِ المواقع(٢).

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧﴾

لمَّا كان الاختيالُ والفخر علىٰ الفرحِ بالأعراضِ الفانية والركون إليها والاعتماد عليها، فكانا حاملين علىٰ البخلِ خوفًا مِن زوالها؛ قال واصفًا لهم بجملةٍ مِن الأخلاق الرديئة الجليَّة، ذلك منشؤها: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾(٣).

يجوز أن يكونَ استئنافًا ابتدائيًّا، جِيءَ به عَقِب الأمرِ بالإحسان لِمَن جرىٰ ذِكْرُهم في الجملةِ السابقة، ومناسبةُ إردافِ التحريض علىٰ الإحسان بالتحذير مِن ضدِّه وما يُشبِهُ ضدَّه مِن كلِّ إحسانٍ غيرِ صالح، فقوبل الخَلْقُ الذي دعاهم اللهُ إليه بأخلاقِ

(١) مفاتيح الغيب (١٠/ ٧٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٧٥).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٢٧٨).

أهل الكفر وحزبِ الشيطان؛ كما دلَّ عليه ما في خلالِ هذه الجملةِ مِن ذِكْرِ الكافرين الذين لا يؤمنون باللهِ واليوم الآخِر(١).

📖 ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ 📖

لمَّا ذَمَّ المُقتِّرين، أتبَعه ذَمَّ المسرِفِين المبذِّرين، فقال - عطفًا على ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أو ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾، معرِّفًا أنَّ الذين لا يُحسِنون على الوجهِ المأمور به فيمَن تقدَّم الأمرُ بالإحسان إليهم فِرْقتانِ: فِرْقةٌ يَمنَعون النفقةَ أصلًا، وفرقة يمنعون وَصْفَها، ويفعلونها رياءً، فيعدمون بذلك رُوحَها -: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾(٢).

عُطِف ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ على ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾؛ لأنَّهم أنفَقوا إنفاقًا لا تحصُلُ به فائدةُ الإنفاق غالبًا؛ لأنَّ مَن يُنفِقُ مالَه رئاءً لا يَتوخَّى به مواقعَ الحاجة؛ فقد يُعطِي الغنيَّ ويَمنَع الفقيرَ، وأريدَ بهم هنا المُنفِقون مِن المنافِقين والمشركين؛ ولذلك وُصِفوا بأنَّهم لا يؤمنون باللهِ، ولا باليومِ الآخِر(٣).

إن شئتَ عطفتَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في هذه الآيةِ على ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في الآيةِ التي قبلها، وإن شئتَ جعلتَه في موضعِ خفضٍ عطفًا على قوله: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٥٢).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٢٧٩).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٥٢).

(٤) مفاتيح الغيب (١٠/ ٧٩).

ولمَّا أمَر تعالىٰ بالإحسانِ إلىٰ الوالدَينِ ومَن ذُكِر معهما مِن المحتاجين علىٰ سبيلِ ابتداعِ أمر الله، بيَّن أنَّ مَن لا يفعلُ ذلك قسمانِ: أحدهما: البخيلُ الذي لا يُقدِمُ علىٰ إنفاقِ المال البتَّةَ حتىٰ أفرَط في ذلك وأمَر بالبخلِ. والثاني: الذين يُنفِقون أموالَهم رئاءَ الناس، لا لغرَضِ أمرِ الله وامتثالِه، وطاعتِه. وذَمَّ تعالىٰ القسمَينِ بأن أعقَب القسمَ الأول: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾، وأعقَب الثانيَ بقولِه: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾[1].

قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ عطفٌ علىٰ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾؛ ووجهُ ذلك: أنَّ الأوَّلِينَ قد فرَّطوا بالبخلِ، وبأمرِ الناس به، وبكَتْمِ ما آتاهم اللهُ مِن فضله، وهؤلاء أفرَطوا ببَذْلِ أموالهم في غيرِ مواضعها لمجرَّدِ الرياءِ والسُّمعة؛ كما يفعلُه مَن يريد أن يَتسامَعَ الناسُ بأنَّه كريمٌ، ويتطاول علىٰ غيرِه بذلك، ويَشمَخ بأنفِه عليه، مع ما ضَمَّ إلىٰ هذا الإنفاقِ الذي يعُودُ عليه بالضرَرِ مِن عدمِ الإيمان باللهِ وباليومِ الآخِر[2].

﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ٣٩﴾

لمَّا كان التقديرُ: فماذا لهم في الكفرِ والإنفاق رياءً لِمَن لا ضُرَّ ولا نفعَ بيدِه؟ عطَف عليه قولَه -تعنيفًا لهم، وإنكارًا عليهم-: ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾[3].

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٦٣٥).

(٢) فتح القدير (١/ ٥٣٨).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٢٨٠، ٢٨١).

قولُه: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ عطفٌ علىٰ الجملتينِ، وضميرُ الجمعِ عائدٌ إلىٰ الفريقَينِ، والمقصودُ استنزالُ طائرهم، وإقامةُ الحجَّةِ عليهم[١].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

لمَّا فرَغ مِن توبيخهم، قال معلِّلًا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[٢].

استئنافٌ بعد أن وصَف حالَهم، وأقام الحجَّةَ عليهم، وأراهم تفريطَهم مع سهولةِ أخذِهم بالحِيطةِ لأنفسِهم لو شاؤوا؛ بيَّن أنَّ اللهَ منزَّهٌ عن الظُّلْمِ القليل، بَلْهَ الظلمِ الشديد؛ فالكلامُ تعريضٌ بوعيدٍ محذوف هو مِن جنسِ العقاب، وأنَّه في حقِّهم عَدْلٌ؛ لأنَّهم استحَقُّوه بكفرِهم، وقد دلَّتْ علىٰ ذلك المقدَّرِ أيضًا مقابلتُه بقولِه: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً ﴾، ولمَّا كان المنفيُّ الظُّلْمَ، علىٰ أنَّ ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ تقديرٌ لأقلِّ ظُلْمٍ؛ فدلَّ علىٰ أنَّ المرادَ أنَّ اللهَ لا يؤاخِذُ المسيءَ بأكثَرَ مِن جزاءِ سيِّئتِه[٣].

مناسبةُ هذه لِما قبلها واضحةٌ؛ لأنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر بعبادته تعالىٰ، وبالإحسانِ للوالدَينِ ومَن ذُكِر معهم، ثم أعقَب ذلك بذمِّ البخلِ والأوصافِ المذكورة معه، ثم وبَّخ مَن لم يؤمِنْ ولم يُنفِقْ في طاعةِ الله؛ فكان هذا كلُّه توطئةً لِذِكْرِ الجزاء علىٰ الحسناتِ والسيئات؛ فأخبَر تعالىٰ بصفةِ عَدْلِه، وأنَّه عَزَّ وَجَلَّ لا يَظلِمُ أدنىٰ شيءٍ، ثم أخبَر بصفة الإحسان، فقال: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾،

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٥٤).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٢٨١).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٥٥).

وضـرب مـثَلًا لأحقَـرِ الأشـياء وَزْن ذَرَّةٍ؛ وذلـك مبالَغـةٌ عظيمـة في الانتفـاءِ عـن الظُّلْمِ البتَّةَ(١).

اعلَمْ أنَّ تعلُّقَ هذه الآيةِ هو بقولِه تعالىٰ: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾، فكأنَّه قال: فإنَّ اللهَ لا يَظلِمُ مَن هذه حالُه مثقالَ ذرَّةٍ، وإن تكُ حسنةً يضاعِفْها؛ فرغَّب بذلك في الإيمانِ والطاعة(٢).

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا (٤١) ﴾

لمَّا تم تحذيرُه مِن اليومِ الآخِرِ وما ذكَره مِن إظهارِ العدل واستقصائه فيه، كان سببًا للسؤال عن حالِ المبكَّتِينَ في هذه الآياتِ إذ ذاك، فقال: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾(٣).

«الفاءُ» يجوز أن تكونَ فاءً فصيحة تدلُّ علىٰ شرطٍ مقدَّر نشأ عن الوعيد في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾، وقولِه: ﴿فَسَآءَ قَرِينًا ﴾، وعن التوبيخِ في قوله: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ ﴾، وعن الوعدِ في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ الآيةَ؛ والتقديرُ: إذا أيقَنتَ بذلك، فكيف حالُ كلِّ أولئك إذا جاء الشُّهَداءُ، وظهَر موجَبُ الشَّهادةِ علىٰ العملِ الصالح وعلىٰ العمل السيِّئِ؟ وعلىٰ هذا، فليس ضميرُ ﴿بِكَ﴾ إضمارًا في مقامِ الإظهار، ويجوز أن تكونَ «الفاء» للتفريعِ علىٰ قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾؛ أي: يَتفرَّع عن ذلك سؤالٌ عن حالِ الناس إذا جِئْنا

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٦٤٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ٨٠).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٢٨٢، ٢٨٣).

مِن كلِّ أمَّةٍ بشهيدٍ، فالناس بَيْنَ مستبشِرٍ ومتحسِّرٍ، وعلىٰ هذا، فضميرُ ﴿بِكَ﴾ واقعٌ موقعَ الاسمِ الظاهر؛ لأنَّ مقتضىٰ هذا أن يكونَ الكلامُ مسُوقًا لجميعِ الأمَّة، فيقتضي أن يقالَ: وجِئْنا بالرسول عليهم شهيدًا، فعدَل إلىٰ الخطابِ تشريفًا للرسول ﷺ بعِزِّ الحضورِ والإقبال عليه، والحالةُ التي دلَّ عليها الاستفهامُ المستعمَل في التعجيب تؤذِنُ بحالةٍ مَهُولةٍ للمشركين، وتنادي علىٰ حَيْرتِهم، ومحاوَلتِهم التملُّصَ مِن العقاب بسلوكِ طريقِ إنكارِ أن يكونوا أُنذِروا، ممَّا دلَّ عليه مجيءُ شهيدٍ عليهم؛ ولذلك حُذِف المبتدأُ المستفهَم عنه، ويُقدَّر بنحوِ: «كيف أولئك؟»، أو «كيف المشهد؟»، ولا يُقدَّرُ بـ «كيف حالُهم؟» خاصَّةً؛ إذ هي أحوالٌ كثيرة، ما منها إلا يَزيدُه حالُ ضدِّه وضوحًا؛ فالناجي يزداد سرورًا بمشاهدةِ حالِ ضدِّه، والمُوبَقُ[(١)] يزداد تحسُّرًا بمشاهدةِ حال ضده، والكلُّ يَقوَىٰ يقينُه بما حصَل له بشَهادة الصادقين له أو عليه؛ ولذلك لمَّا ذكَر الشهيدَ لم يذكُرْ معه متعلِّقَه بعلىٰ أو اللام؛ ليعُمَّ الأمرينِ، والاستفهامُ مستعمَل في لازمِ معناه مِن التعجيب[(٢)].

لمَّا أعلَمَ تعالىٰ بعَدْلِه وإيتاءِ فضله، أتبَع ذلك بأن نبَّه علىٰ الحالةِ التي يحضُرونها للجزاء، ويَشهَد عليهم فيها[(٣)].

وجهُ النَّظْمِ هو أنَّه تعالىٰ بيَّن أنَّ في الآخرةِ لا يَجري علىٰ أحدٍ ظُلْمٌ، وأنَّه تعالىٰ يجازي المحسِنَ علىٰ إحسانِه، ويَزيدُه علىٰ قَدْرِ حقِّه؛ فبيَّن تعالىٰ في هذه الآيةِ أنَّ ذلك يَجري بشَهادة الرُّسل الذين جعَلهم اللهُ الحجَّةَ علىٰ الخَلْقِ؛ لتكونَ الحجَّةُ علىٰ المسيءِ أبلَغَ، والتبكيتُ له أعظَمَ، وحَسْرتُه أشَدَّ، ويكونَ سرورُ مَن قَبِل ذلك

---

(١) أي: المُهْلَك.

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٥٦).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٦٤٤).

مِن الرسولِ وأظهَرَ الطاعةَ أعظَمَ، ويكونَ هذا وعيدًا للكفارِ الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾، ووعدًا للمُطيعِين الذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا﴾(١).

﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾

ثم استأنَف الجوابَ عن ذلك بقولِه: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾(٢).

قولُه: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآيةَ، استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ السامعَ يَتساءل عن الحالةِ المبهَمة المدلولة لقولِه: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾، ويَتطلَّب بيانَها؛ فجاءت هذه الجملةُ مبيِّنةً لبعضِ تلك الحالةِ العجيبة؛ وهو حالُ الذين كفروا حين يرَوْنَ بوارقَ(٣) الشرِّ؛ مِن شَهادةِ شُهَداءِ الأُمَمِ علىٰ مؤمِنهم وكافرهم، ويوقِنون بأنَّ المشهودَ عليهم بالكفر مأخوذون إلىٰ العذاب، فينالُهم مِن الخوفِ ما يَوَدُّون منه لو تُسوَّىٰ بهم الأرضُ(٤).

ثم إنَّه تعالىٰ وصَف ذلك اليومَ، فقال: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٠/ ٨٣).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٢٨٣).

(٣) أي: علامات.

(٤) التحرير والتنوير (٥/ ٥٨).

(٥) مفاتيح الغيب (١٠/ ٨٤).

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ استئنافٌ لبيانِ حالهم التي أشيرَ إلىٰ شِدَّتِها وفظاعتِها بقولِه تعالىٰ: ﴿ فَكَيْفَ ﴾، فإن أريدَ بهم المكذِّبون لرسول الله ﷺ، فالتعبيرُ عنهم بالموصول -لا سيَّما بعد الإشارةِ إليهم بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ - لذَمِّهم بما في حيِّز الصلة، والإشعارِ بعلَّةِ ما اعتراهم مِن الحالِ الفظيعة، والأمرِ الهائل، وإيرادُه ﷺ بعنوان الرسالة لتشريفِه، وزيادةِ تقبيحِ حال مكذِّبيه؛ فإنَّ حقَّ الرسولِ أن يؤمَنَ به ويطاعَ، لا أن يُكفَرَ به ويعصىٰ، وإن أريدَ بهم جنسُ الكفَرةِ، فهُمْ داخلون في زُمْرتِهم دخولًا أوليًّا، والمرادُ بالرسول حينئذٍ: الجنسُ المنتظِم للنبي ﷺ انتظامًا أوليًّا، وأيًّا ما كان، ففيه مِن تهويلِ الأمر وتفظيعِ الحال ما لا يقادَرُ قَدْرُه(١).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣) ﴾

لمَّا وصَف الوقوفَ بَيْنَ يديهِ في يومِ العَرْضِ والأهوال الذي أدت فيه سطوةُ الكِبْرياءِ والجلال إلىٰ تَمنِّي العدَمِ، ومنَعتْ قوةُ يدِ القهرِ والجَبْرِ أن يُكتَمَ حديثًا، وتضمَّن وصفُه أنَّه لا ينجو فيه إلا مَن كان طاهرَ القلبِ والجوارح بالإيمانِ به والطاعةِ لرسوله ﷺ؛ وصَف الوقوفَ بَيْنَ يديهِ في الدنيا في مَقامِ الأُنْسِ وحضرةِ القُدْسِ المنجي مِن هولِ الوقوفِ في ذلك اليومِ، والذي حظَرت معاني اللُّطْفِ والجمال فيه الالتفاتَ إلىٰ غيره، وأمَر بالطهارة في حالِ التزيُّنِ به عن الخبائثِ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٧٨).

حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾[1].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ هذه الآيةُ استئنافٌ لبيانِ حُكْمَينِ يتعلقانِ بالصلاة، دعا إلىٰ نزولِها عَقِب الآياتِ الماضية أنَّه آنَ الأوانُ لتشريعِ هذا الحُكْمِ في الخمرِ حينئذٍ، وإلىٰ قَرْنِه بحُكْمٍ مقرَّر يتعلقُ بالصلاة أيضًا، ويَظهَرُ أنَّ سببَ نزولِها طرأ في أثناءِ نزولِ الآيات التي قبلها والتي بعدها، فوقَعتْ في موقعِ وقتِ نزولِها، وجاءت كالمعترِضةِ بَيْنَ تلك الآياتِ[2].

لمَّا أمَر تعالىٰ بعبادةِ الله والإخلاصِ فيها، وأمَر ببرِّ الوالدَينِ ومكارمِ الأخلاق، وذَمَّ البُخْلَ، واستطرَد منه إلىٰ شيءٍ مِن أحوال القيامة، وكان قد وقَع مِن بعضِ المسلمين تخليطٌ في الصلاة التي هي رأسُ العبادة بسببِ شُرْبِ الخمرِ؛ ناسَب أن تخلُصَ الصلاةُ مِن شوائبِ الكَدَرِ التي يوقِعُها علىٰ غيرِ وجهِها، فأمَر تعالىٰ بإتيانها علىٰ وجهِها دُونَ ما يُفسِدها؛ ليَجمَعَ لهم بَيْنَ إخلاصِ عبادةِ الحقِّ ومكارمِ الأخلاق التي بينهم وبَيْنَ الخَلْقِ، بقولِه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾[3].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ إرشادٌ لإخلاصِ الصلاة التي هي رأسُ العبادة مِن شوائبِ الكَدَرِ؛ ليَجمَعوا بَيْنَ إخلاصِ عبادة الحقِّ ومكارمِ الأخلاق التي بينهم وبَيْنَ الخَلْقِ، المبيَّنةِ فيما تقدَّم، وبهذا

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٢٨٤).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٦٠).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٦٤٨).

يحصُلُ الربطُ، ويجوز أن يقالَ: لمَّا نُهُوا فيما سلَف عن الإشراكِ به تعالىٰ، نُهُوا ها هنا عمَّا يؤدي إليه مِن حيث لا يحتسبون[١].

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ٤٤ ﴾

لمَّا أفهَمَ ختامُ هذه الآيةِ أنَّ التشديدَ في الأحكام يكون سببًا للإجرام، فيكون سببًا في الانتقام؛ قرَّر ذلك بحالِ اليهود الذين أوجَبتْ لهم الآصارُ عذابَ النار، فقال - ليكونَ ذلك مرغِّبًا في تقبُّلِ ما مرَّ مِن التكاليف؛ ليُسْرِه ولرجاءِ الثواب، مرهِّبًا مِن تركِها؛ خوفًا مِن العقاب، وليَصِيرَ الكلامُ حُلْوًا رائقًا بَهِجًا بتفصيلِ نَظْمِه تارةً بأحكام، وتارةً بأقاصيصَ عِظام، فيَنشَطُ الخاطرُ، وتَقوىٰ القريحةُ -: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾، أو يقال: إنَّه لمَّا حذَّر ﷻ فيما مضىٰ مِن أهلِ الكتاب بقولِه ﷻ: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾، ومَرَّ إلىٰ أن أنزَل هذه فيمَن حرَّف في الصلاةِ لسانُه فقط -لا عن عَمْدٍ- الكَلِمَ عن مواضعِه؛ أتبَعها التصريحَ بالتعجيب مِن حالِ المحرِّفين بالقلبِ واللسان عمدًا وعدوانًا اجتراءً علىٰ اللهِ ﷻ، الملوَّحِ إليهم بالآيةِ السابقة أنَّهم يريدون لنا الضَّلالَ عمَّا هُدِينا إليه مِن سُنَنِهم، فقال: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾[٢].

استئنافُ كلامٍ راجعٌ إلىٰ مَهيَعِ الآياتِ التي سبقتْ مِن قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ ؛ فإنَّه بعد نِذارةِ المشركين، وجَّه الإنذارَ لأهلِ الكتاب، ووقَعتْ آياتُ

---

(١) روح المعاني (٣/ ٣٧).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٢٨٨، ٢٨٩).

تحريمِ الخمر وقتَ الصلاة، وآياتُ مشروعيةِ الطهارة لها فيما بينهما، وفيه مناسبةٌ للأمر بتَرْكِ الخمرِ في أوقات الصلوات والأمرِ بالطهارة؛ لأنَّ ذلك مِن الهُدَىٰ الذي لم يَسبِقْ لليهودِ نظيرُه، فهم يحسُدون المسلمين عليه؛ لأنَّهم حُرِموا مِن مثلِه، وفرَّطوا في هُدًى عظيمٍ، وأرادوا إضلالَ المسلمين عداءً منهم(١).

لمَّا ذكَر شيئًا مِن أحوالِ الآخرة، وأنَّ الكفارَ إذ ذاك يَوَدُّون لو تُسوَّىٰ بهم الأرضُ ولا يكتمون اللهَ حديثًا، وجاءت هذه الآيةُ بعد ذلك كالاعتراض بَيْنَ ذِكْرِ أحوالِ الكفار في الآخرة، وذِكْرِ أحوالِهم في الدنيا، وما هم عليه مِن معاداةِ المؤمنين، وكيف يعامِلون رسولَ الله ﷺ الذي يأتي شهيدًا عليهم وعلىٰ غيرهم، ولمَّا كان اليهودُ أشَدَّ إنكارًا للحق، وأبعَدَ مِن قَبول الخير، وكان قد تقدَّم أيضًا ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، وهم أشَدُّ الناسِ تحلِّيًا بهذين الوصفينِ؛ أخذ يذكُرُهم بخَصُوصيَّتِهم(٢).

لمَّا ذكَر مِن أولِ هذه السُّورة إلىٰ هذا الموضعِ أنواعًا كثيرةً مِن التكاليفِ والأحكام الشرعية، قطَع هاهنا ببيانِ الأحكام الشرعية، وذكَر أحوالَ أعداء الدِّين، وأقاصيصَ المتقدِّمين؛ لأنَّ البقاءَ في النوعِ الواحد مِن العلم ممَّا يُكِلُّ(٣) الطَّبْعَ، ويكدِّرُ الخاطرَ، فأمَّا الانتقالُ مِن نوعٍ مِن العلوم إلىٰ نوعٍ آخَرَ، فإنَّه ينشِّطُ الخاطرَ، ويقوِّي القريحةَ(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٧١).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٦٥٧).

(٣) أي: يجعله كليلًا، أي ضعيفًا.

(٤) مفاتيح الغيب (١٠/ ٩١).

كلامٌ مستأنَف مسُوقٌ لتعجيب المؤمنين مِن سُوءِ حالهم، والتحذيرِ عن موالاتهم، والخطابُ لكلِّ مَن يَتأتىٰ منه الرؤيةُ مِن المؤمنين، وتوجيهُه إليه ههنا مع توجيهِه فيما بعدُ إلىٰ الكلِّ معًا للإيذانِ بكمالِ شهرة شناعة حالهم، وأنَّها بلَغتْ مِن الظهور إلىٰ حيث يَتعجَّبُ منها كلُّ مَن يراها[1].

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ٤٥﴾

جملةُ ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾ معترِضةٌ، وهي تعريضٌ؛ فإنَّ إرادتَهم الضلالةَ للمؤمنين عن عداوةٍ وحسَدٍ، وجملةُ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ تذييلٌ؛ لتطمئنَّ نفوسُ المؤمنين بنصرِ الله؛ لأنَّ الإخبارَ عن اليهود بأنَّهم يريدون ضَلالَ المسلمين وأنَّهم أعداءٌ للمسلمين مِن شأنِه أن يُلقِيَ الرَّوْعَ في قلوبِ المسلمين؛ إذ كان اليهودُ المجاوِرون للمسلمين ذَوِي عَدَدٍ وعُدَدٍ، وبيدِهم الأموالُ، وهم مبثوثون في المدينةِ وما حولها؛ مِن قَيْنُقَاعَ، وقُرَيظةَ، والنَّضِير، وخَيْبَرَ؛ فعداوتُهم وسُوءُ نواياهم ليسا بالأمرِ الذي يستهان به[2].

أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن شِدَّةَ عداوتِهم للمسلمين، بيَّن أنَّ اللهَ تعالىٰ وليُّ المسلمين وناصرُهم، ومَن كان اللهُ وليًّا له وناصرًا له، لم تضُرَّه عداوةُ الخَلْقِ[3].

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾ الذين يَوَدُّون ضُرَّكم، ولا يَوَدُّون نفعَكم؛ ولذا أخبَركم بهم في الآيةِ السابقة؛ لتَعرِفوهم وتَجتنبوهم؛ فتَنجُوا مِن مكرِهم وتضليلِهم[4].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٨١).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٧٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٠/ ٩٢).

(٤) أيسر التفاسير (١/ ٤٨٦).

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾

لمَّا وفَّرتْ هذه الآياتُ الدواعيَ علىٰ تعيينِ هؤلاء الذين يريدون الإضلالَ، قال بعد الاعتراضِ بما بَيْنَ المبيِّن والمبيَّن مِن الجُمَلِ لمَزيدِ الاهتمام به: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١].

يجوز أن يكونَ هذا كلامًا مستأنفًا، ويجوز أن يكونَ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ صفةً للذين أُوتوا نصيبًا مِن الكتاب، وتكونَ ﴿مِّنَ﴾ بيانيَّةً؛ أي: هم الذين هادُوا، فتكونَ جملةُ ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ حالًا مِن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، وعلىٰ الوجهين، فقد أُثبِتتْ لهم أوصافُ التحريفِ، والضلالة، ومحبَّةِ ضَلالِ المسلمين[٢].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عنهم أنَّهم يشترون الضَّلالةَ، شرَح كيفيَّةَ تلك الضلالةِ[٣].

بيانٌ لـ «الذين أوتوا» المتناوِلِ -بحسَبِ المفهوم- لأهلِ الكتابينِ، وقد وُسِّط بينهما ما وُسِّط لمَزيدِ الاعتناء ببيانِ محَلِّ التشنيعِ والتعجيب، والمسارعةِ إلىٰ تنفيرِ المؤمنين عنهم، والاهتمامِ بحَثِّهم علىٰ الثقةِ بالله تعالىٰ، والاكتفاءِ بوَلايته ونُصْرته[٤].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٢٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٧٤).

(٣) مفاتيح الغيب (١٠/ ٩٢).

(٤) روح المعاني (٣/ ٤٥).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ٤٧ ﴾

لمَّا بكَّتهم علىٰ فعلِهم وقولهم، وصرَّح بلَعْنِهم؛ خوَّفهم إظهارَ ذلك في الصُّوَرِ المحسوسة، فقال -مقبِلًا عليهم إقبالَ الغضَبِ-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴾[1].

أقبَلَ علىٰ خطابِ أهلِ الكتاب الذين أريدَ بهم اليهودُ بعد أن ذكَر مِن عجائبِ ضَلالِهم وإقامةِ الحجَّةِ عليهم ما فيه وازعٌ لهم لو كان بهم وَزْعٌ، وكذلك شأنُ القرآن؛ ألا يُفلِتَ فرصةً تَعِنُّ مِن فُرَصِ الموعظةِ والهدىٰ إلا انتهَزها، وكذلك شأنُ الناصحين مِن الحُكَماءِ والخطباء؛ أن يَتوسَّموا أحوالَ تأثُّرِ نفوس المخاطَبين، ومَظانَّ ارعوائِها عن الباطل، وتبصُّرِها في الحق، فيُنجِدوها حينئذٍ بقوارعِ الموعظة والإرشاد؛ كما أشار إليه الحَرِيريُّ في المَقامةِ «١١» إذ قال: «فلمَّا أَلْحَدُوا المَيْت، وَفَاتَ قَوْلُ: لَيْت؛ أَشْرَفَ شَيْخٌ مِنْ رَبَاوَة، مُتَأَبِّطًا لِهَرَاوَة، فَقَالَ: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ٦١﴾» إلخ؛ لذلك جِيءَ بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم ﴾ الآيةَ، عَقِب ما تقدَّم، وهذا موجِبُ اختلافِ الصلة هنا عن الصلة في قوله: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾؛ لأنَّ ذلك جاء في مَقامِ التعجيبِ والتوبيخ، فناسَبتْهُ صلةٌ مؤذِنة بتهوين شأنِ علمِهم بما أُوتُوه مِن الكتاب، وما هنا جاء في مَقامِ الترغيب فناسَبتْهُ صلةٌ تؤذِن بأنَّهم شُرِّفوا بإيتاءِ التَّوراة؛ لتُثِيرَ

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٢٩٤).

هِمَمَهم للاتسام بمِيسَمِ الراسخين في جريانِ أعمالهم علىٰ وَفْقِ ما يناسِبُ ذلك، وليس بَيْنَ الصلتينِ اختلافٌ في الواقع؛ لأنَّهم أوتوا الكتابَ كلَّه حقيقةً باعتبار كونِه بَيْنَ أيديهم، وأوتوا نصيبًا منه باعتبار جريانِ أعمالهم علىٰ خلافِ ما جاء به كتابُهم؛ فالذي لم يَعمَلوا به منه كأنَّهم لم يُؤتَوْهُ[(١)].

لمَّا رجَّاهم بقولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ الآيةَ، خاطَب مَن يُرجَىٰ إيمانُه منهم بالأمرِ بالإيمان، وقُرِن بالوعيدِ البالغ علىٰ تَرْكِه؛ ليكونَ أدعىٰ لهم إلىٰ الإيمانِ، والتصديقِ به[(٢)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تلوينٌ للخطاب، وتوجيهٌ له إمَّا إلىٰ مَن حُكِيتْ أحوالُهم وأقوالهم خاصَّةً بطريقِ الالتفات، ووصفُهم تارةً بإيتاءِ الكتاب؛ أي: التَّوراةِ، وأخرىٰ بإيتاءِ نصيبٍ منها؛ لتوفيةِ كلٍّ مِن المَقامينِ حقَّه؛ فإنَّ المقصودَ فيما سبَق بيانُ أخذِهم الضَّلالةَ، وإزالةُ ما أُوتوه بمقابلتِها بالتحريفِ، وليس ما أزالوه بذلك كلَّها حتىٰ يوصَفوا بإيتائه، بل هو بعضُها؛ فوُصِفوا بإيتائه، وأمَّا ههنا فالمقصودُ تأكيدُ إيجابِ الامتثال بالأمر الذي يعقُبُه، والتحذيرُ عن مخالَفتِه مِن حيث إنَّ الإيمانَ بالمصدِّق موجِبٌ للإيمانِ بما يصدِّقُه، والكفرَ بالثاني مقتضٍ للكفرِ بالأول قطعًا، ولا ريبَ في أنَّ المحذورَ عندهم إنَّما هو لزومُ الكفرِ بالتَّوراة نفسِها، لا ببعضِها، وذلك إنَّما يَتحقَّق بجَعْلِ القرآنِ مصدِّقًا لكلِّها، وإن كان مناطُ التصديقِ بعضًا منها، ضرورةَ أنَّ مصدِّقَ البعضِ مصدِّقٌ للكلِّ المتضمِّن له حتمًا، وإمَّا إليهم وإلىٰ غيرهم قاطبةً، وهو الأظهرُ، وأيًّا ما كان، فتفصيلُ ما فُصِّل: لمَّا كان مِن مَظانِّ

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٧٨).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٦٦٧).

إقلاعِ كلٍّ مِن الفريقينِ عمَّا كانوا عليه مِن الضلالة، عقَّب ذلك بالأمرِ بالمبادرة إلىٰ سلوك مَحجَّةِ الهداية مشفوعًا بالوعيدِ الشديد علىٰ المخالفة(١).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨ ﴾

لمَّا كانوا مع ارتكابِهم العظائمَ يقولون: ﴿سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾، وكان امتثالُهم لتحريفِ أحبارهم ورهبانهم شِرْكًا بالله - كما قال ﷻ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾؛ قال - معلِّلًا لتحقيقِ وعيدهم، مُعلِمًا أنَّ ما أشيرَ إليه مِن تحريفِهم أدَّاهم إلىٰ الشركِ -: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾(٢).

يجوز أن تكونَ هذه الجملةُ متعلِّقةً بما قبلها مِن تهديدِ اليهود بعقابٍ في الدنيا؛ فالكلامُ مسُوقٌ لترغيبِ اليهود في الإسلام، وإعلامِهم بأنَّهم بحيث يَتجاوزُ اللهُ عنهم عند حصولِ إيمانهم، ولو كان عذابُ الطَّمْسِ نازلًا عليهم، فالمرادُ بالغفرانِ التجاوزُ في الدنيا عن المؤاخَذة لهم بعِظَمِ كفرِهم وذنوبِهم؛ أي: يُرفَع العذابُ عنهم. وتَتضمَّن الآيةُ تهديدًا للمشركين بعذابِ الدنيا يحُلُّ بهم، فلا ينفعُهم الإيمانُ بعد حلول العذاب، وعلىٰ هذا الوجهِ، يكون حرفُ ﴿إِنَّ﴾ في موقعِ التعليل والتسبُّب، ويجوز أن تكونَ الجملةُ مستأنَفةً، وقَعتِ اعتراضًا بَيْنَ قوارعِ أهلِ الكتاب ومواعظِهم، فيكونَ حرفُ ﴿إِنَّ﴾ لتوكيدِ الخبر؛ لقصدِ دفعِ احتمال المَجازِ أو المبالغةِ في الوعيد، وهو إمَّا تمهيدٌ لِما بعده لتشنيعِ جُرْمِ الشركِ بالله؛ ليكونَ تمهيدًا

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٨٥).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٢٩٧).

لتشنيعِ حالِ الذين فضَّلوا الشركَ علىٰ الإيمان، وإظهارًا لمقدارِ التعجيب مِن شأنِهم الآتي، وإمَّا أن يكونَ استئنافَ تعليمِ حُكْمٍ في مغفرةِ ذنوب العصاة(١).

لمَّا هدَّد اليهودَ علىٰ الكفر، وبيَّن أنَّ ذلك التهديدَ لا بد مِن وقوعه لا محالةَ؛ بيَّن أنَّ مثلَ هذا التهديدِ مِن خواصِّ الكفر، فأمَّا سائرُ الذُّنوبِ التي هي مغايرةٌ للكفر، فليست حالُها كذلك؛ بل هو سبحانه قد يعفو عنها؛ فلا جرَمَ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ كلامٌ مستأنَف مقرِّرٌ لِما قبله مِن الوعيد، ومؤكِّدٌ وجوبَ امتثالِ الأمر بالإيمان؛ حيث إنَّه لا مغفرةَ بدُونِه كما زعَم اليهود، وأشار إليه قولُه تعالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾، وفيه أيضًا إزالةُ خوفِهم مِن سُوءِ الكبائر السابقة إذا آمَنوا(٣).

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

لمَّا كان في ذلك إشارةٌ إلىٰ أنَّ المرادِينَ بهذه الآياتِ مِن أهلِ الكتاب أضَلُّ الناس، وكانوا يقولون: إنَّهم أهدىٰ الناسِ؛ عجَّب منهم منكِرًا عليهم بعد افترائِهم تزكيةَ أنفسِهم، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٨٠).

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ٩٨، ٩٩).

(٣) روح المعاني (٣/ ٥٠).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٢٩٨).

تعجيبٌ مِن حالِ اليهود إذ يقولون ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾، ونحوِ ذلك مِن إدلالهم الكاذبِ، وقولُه: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ إبطالٌ لمعتقَدِهم بإثباتِ ضدِّه؛ وهو أنَّ التزكيةَ شَهادةٌ مِن الله، ولا ينفعُ أحدًا أن يزكِّيَ نفسَه(١).

لمَّا هدَّد اليهودَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، فعند هذا قالوا: لَسْنا مِن المشركين؛ بل نحن خواصُّ اللهِ تعالىٰ؛ كما حكىٰ تعالىٰ عنهم أنَّهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وحكىٰ عنهم أنَّهم قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾، وحكىٰ أيضًا أنَّهم قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، وبعضُهم كانوا يقولون: إنَّ آباءَنا كانوا أنبياءَ فيَشفَعون لنا، وبالجملةِ فالقومُ كانوا قد بالَغوا في تزكيةِ أنفسهم؛ فذكَر تعالىٰ في هذه الآيةِ أنَّه لا عبرةَ بتزكيةِ الإنسانِ نفسَه؛ وإنَّما العبرةُ بتزكيةِ الله له(٢).

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠)﴾

لمَّا أخبَر تعالىٰ أنَّ التزكيةَ إنَّما هي إليه بما له مِن العظَمةِ والعلم الشامل، وكان ذلك أمرًا لا نزاعَ فيه، وشَهِد عليهم بالضَّلال؛ وثبَت أنَّ ذلك كلامُه بما له مِن الإعجازِ في حالتَيِ الإطنابِ والإيجاز؛ ثبَت كَذِبُهم، فزاد في توبيخِهم، فقال - معجِّبًا لرسوله ﷺ مِن وقاحتِهم، واجترائهم علىٰ مَن يَعلَم كَذِبَهم، ويَقدِرُ علىٰ معاجَلتِهم بالعذاب، مبيِّنًا أنَّه ﷺ في الحَضْرةِ بعد بيانِ بُعْدِهم -: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٨٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ٩٩، ١٠٠).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٢٩٩، ٣٠٠).

لمَّا خاطَبه أولًا بقولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ أي: ألا تَعجَبُ لهؤلاء الذين يزكُّون أنفسَهم؟ خاطَبه ثانيًا بالنظرِ في كيفيَّة افترائهم الكذبَ على الله، وأتى بصيغةِ ﴿يفترون﴾ الدالةِ على الملابَسة والديمومة، ولم يخُصَّ الكذبَ في تزكيتِهم أنفسَهم، بل عمَّم في ذلك وفي غيرِه، وأيُّ ذَنْبٍ أعظَمُ ممَّن يفتري على اللهِ الكذبَ؟ ومَن أظلَمُ ممَّن افترى على الله كذبًا؟ فمَن أظلَمُ ممَّن كذَب على الله؟!(١).

هذا تعجيبٌ للنبي ﷺ مِن فِرْيتِهم على الله؛ وهي تزكيتُهم أنفسَهم، وافتراؤهم على الله؛ وهو قولُهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، وقولُهم: ما عَمِلْناه بالنهار، يُكفَّر عنا بالليل(٢).

تعجيبٌ إثرَ تعجيب، وتنبيهٌ على أنَّ ما ارتكَبوه متضمِّنٌ لأمرينِ عظيمين موجِبينِ للتعجب: ادعاؤهم الاتصافَ بما هم متصِفون بنقيضِه، وافتراؤهم على الله سبحانه؛ فإنَّ ادعاءَهم الزَّكَاءَ(٣) عنده تعالى متضمِّنٌ لادعائهم قَبولَ اللهِ وارتضاءه إيَّاهم، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا! ولكونِ هذا أشنَعَ مِن الأول جُرْمًا، وأعظَمَ قُبْحًا -لِما فيه مِن نسبتِهِ ﷻ إلى ما يستحيلُ عليه بالكلية؛ مِن قَبولِ الكفر، وارتضائه لعباده، ومغفرةِ كفرِ الكافر، وسائرِ معاصيه-؛ وجَّه النظرَ إلى كيفيَّتِه؛ تشديدًا للتشنيع، وتأكيدًا للتعجيب، والتصريحُ بالكذبِ مع أنَّ الافتراءَ لا يكون إلا كَذِبًا للمبالغةِ في تقبيح حالهم(٤).

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٦٧٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٠٠).

(٣) أي: الصلاح.

(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٨٨).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾

لمَّا عجَّب مِن كَذِبهم، دلَّ عليه بقولِه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ (١).

أعيدَ التعجيبُ مِن اليهودِ الذين أوتوا نصيبًا مِن الكتاب بما هو أعجَبُ مِن حالهم التي مَرَّ ذِكْرُها في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ ﴾؛ فإنَّ إيمانَهم بالجِبْتِ والطاغوت وتصويبَهم للمشركين تباعُدٌ منهم عن أصولِ شرعِهم بمراحلَ شاسعةٍ (٢).

يحتمِلُ أن يكونَ استئنافَ أخبارٍ تبيِّنُ التعجُّبَ منهم؛ كأنَّه قال: ألا تَعجَبُ إلىٰ حالِ الذين أوتوا نصيبًا؟! فكأنَّه قيل: وما حالُهم وهم قد أوتوا نصيبًا مِن كتاب الله؟ فقال: يؤمنون بكذا، ويقولون كذا؛ أي: إنَّ أحوالَهم متنافيةٌ. فكونُهم أوتوا نصيبًا مِن الكتاب يقتضي لهم ألا يقعوا فيما وقَعوا فيه، ولكنِ الحاملُ لهم علىٰ ذلك هو الحسَدُ (٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ حكىٰ عن اليهود نوعًا آخَرَ مِن المكرِ؛ وهو أنَّهم كانوا يفضِّلون عبَدةَ الأصنامِ علىٰ المؤمنين، ولا شكَّ أنَّهم كانوا عالِمين بأنَّ ذلك باطلٌ، فكان إقدامُهم علىٰ هذا القولِ لمَحْضِ العنادِ والتعصب (٤).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٠٠).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٨٥).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٦٧٦).

(٤) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٠١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

ولمَّا أنتج ذلك خِزْيَهم، قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ (١).

عقَّب التعجيبَ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾، وموقعُ اسمِ الإشارة هنا في نهايةِ الرَّشاقةِ؛ لأنَّ مَن بلَغ مِن وصفِ حالِه هذا المبلغَ صار كالمُشاهِدِ؛ فناسَب بعد قولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أن يشارَ إلىٰ هذا الفريقِ المدَّعَىٰ أنَّه مرئيٌّ، فيقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وفي اسمِ الإشارة تنبيهٌ علىٰ أنَّ المشارَ إليهم جديرون بما سيُذكَر مِن الحُكْمِ؛ لأجلِ ما تقدَّم مِن أحوالهم (٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارةٌ إلىٰ مَن آمَن بالجِبْتِ والطاغوت، وقال تلك المقالةَ؛ أبعَدَهم اللهُ تعالىٰ ومقَتَهم (٣).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ القائلين، وما فيه مِن معنىٰ البُعْدِ مع قُرْبِهم في الذِّكر للإشعار ببُعْدِ منزلتِهم في الضَّلال، وهو مبتدأٌ، خبرُه قولُه تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أبعَدَهم عن رحمتِه وطرَدهم، والجملةُ مستأنَفة لبيانِ حالهم، وإظهارِ مصيرهم ومآلهم (٤).

﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾

لمَّا كان التقديرُ: كذلك كان مِن إلزامِهم الذُّلَّ والصَّغار، عطَف عليه قولَه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ (٥).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٠١).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٨٧).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٦٧٧).

(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٨٩).

(٥) نظم الدرر (٥/ ٣٠٢).

﴿أَمۡ﴾ للإضرابِ الانتقاليِّ، وهي تؤذِنُ بهمزةِ استفهامٍ محذوفة بعدها؛ أي: بل أَلَهُمْ نصيبٌ مِن المُلْكِ فلا يؤتُون الناسَ نقيرًا؟! والاستفهامُ إنكاريٌّ، حُكْمُه حكمُ النفيِ، والعطفُ بالفاء على جملةِ ﴿لَهُمۡ نَصِيبٌ﴾، وكذلك ﴿فَإِذَا﴾ هي جزاءٌ لجملةِ ﴿لَهُمۡ نَصِيبٌ﴾، واعتُبر الاستفهامُ داخلًا على مجموعِ الجملة وجزائها معًا؛ لأنَّهم ينتفي إعطاؤهم الناسَ نقيرًا على تقديرِ ثبوتِ المُلْكِ لهم، لا على انتفائه، وهذا الكلامُ تهكُّمٌ عليهم في انتظارِهم أن يَرجِعَ إليهم مُلْكُ إسرائيلَ، وتسجيلٌ عليهم بالبخلِ الذي لا يؤاتي مَن يرجُونَ المُلْكَ(١).

﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾: ﴿أَمۡ﴾ هنا منقطِعةُ التقديرِ: بل أَلَهُمْ نصيبٌ مِن المُلْكِ؟! انتقَل مِن الكلامِ إلى كلامٍ تامٍّ، واستفهَم على الإنكار أن يكونَ لهم نصيبٌ مِن المُلْكِ(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالى وصَف اليهودَ في الآية المتقدِّمة بالجهلِ الشديد؛ وهو اعتقادُهم أنَّ عبادةَ الأوثان أفضَلُ مِن عبادةِ الله تعالى، ووصَفهم في هذه الآيةِ بالبُخْلِ والحسَدِ؛ فالبخل هو ألا يَدفَعَ لأحدٍ شيئًا ممَّا آتاه اللهُ مِن النِّعْمة، والحسدُ هو أن يَتمنَّى ألا يُعطيَ اللهُ غيرَه شيئًا مِن النِّعم، فالبخلُ والحسدُ يشتركان في أنَّ صاحبَه يريد مَنْعَ النِّعْمةِ مِن الغير؛ فأمَّا البخيلُ فيَمنَعُ نعمةَ نفسه عن الغيرِ، وأمَّا الحاسدُ فيريد أن يَمنَعَ نعمةَ الله مِن عباده، وإنَّما قدَّم تلك الآيةَ على هذه الآيةِ؛ لأنَّ النفسَ الإنسانية لها قوَّتان: القوة العالِمة، والقوة العاملة؛ فكمالُ القوة العالِمة العلمُ، ونقصانُها الجهل،

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٨٨).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٦٧٧).

وكمالُ القوة العاملة الأخلاقُ الحميدة، ونقصانُها الأخلاقُ الذميمة، وأشَدُّ الأخلاق الذميمة نقصانًا البخلُ والحسَدُ؛ لأنَّهما مُنشَآنِ لعَوْدِ المَضارِّ إلىٰ عبادِ الله[(١)].

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ شروعٌ في تفصيلِ بعضٍ آخَرَ مِن قبائحِهم، و﴿أَمْ﴾ منقطِعةٌ، وما فيها مِن «بل» للإضرابِ والانتقال مِن ذمِّهم بتزكيتِهم أنفسَهم وغيرِها ممَّا حُكِيَ عنهم إلىٰ ذمِّهم بادعائهم نصيبًا مِن المُلْكِ، وبُخْلِهم المفرِط، وشُحِّهم البالغِ، والهمزةُ لإنكارِ أن يكونَ لهم ما يدَّعونه، وإبطالِ ما زعَموا أنَّ المُلْكَ سيَصِيرُ إليهم[(٢)].

لمَّا ذَمَّ سبحانه اليهودَ بتزكيتِهم أنفسَهم، وتفضيلِ المشركين علىٰ الموحِّدين؛ شرَع في تفصيلِ بعضٍ آخَرَ مِن مَثالبِهم؛ وهو وصفُهم بالبخلِ والحسَدِ اللذين هما شَرُّ خَصْلتَينِ[(٣)].

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ منقطِعةٌ أيضًا مفيدة للانتقال مِن توبيخِهم بما سبَق إلىٰ توبيخِهم بالحسَدِ الذي هو شرُّ الرذائلِ وأقبَحُها، لا سيما علىٰ ما هم بمَعزِلٍ مِن استحقاقِه، واللامُ في ﴿ٱلنَّاسَ﴾ للعهدِ والإشارةِ إلىٰ رسولِ الله ﷺ والمؤمنين، وحَمْلُه علىٰ الجنسِ -إيذانًا بحيازتِهم الكمالاتِ البشريةَ قاطبةً، فكأنَّهم هُمُ الناسُ لا غيرهم- لا يلائمُه ذكرُ حديث آلِ إبراهيمَ؛ فإنَّ ذلك لتذكيرِ ما بَيْنَ الفريقينِ مِن

(١) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٠٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٨٩).

(٣) محاسن التأويل (٣/ ١٧٣).

العلاقةِ الموجبة لاشتراكهما في استحقاقِ الفضل، والهَمْزةُ لإنكارِ الواقع واستقباحِه؛ فإنَّهم كانوا يَطمَعون أن يكونَ النبيُّ الموعود منهم، فلمَّا خَصَّ اللهُ تعالىٰ بتلك الكرامةِ غيرَهم، حسَدوهم (١).

نعَىٰ اللهُ تعالىٰ عليهم تحلِّيَهم بهاتين الخَصْلتَينِ الذميمتين، ولمَّا كان الحسَدُ شرَّ الخَصْلتين، ترقَّىٰ إلىٰ ذِكْرِه بعد ذِكْرِ البخلِ (٢).

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ حكايةٌ لِما صدَر عن أسلافهم عَقِيب وَقْعِ المحكيِّ مِن غيرِ أن يكونَ له دخلٌ في الإلزامِ الذي سِيقَ له الكلامُ؛ أي: فمِن جنسِ هؤلاء الحاسدين وآبائهم مَن آمَن بما أوتيَ آلُ إبراهيمَ، ومنهم مَن أعرَض عنه، وأمَّا جعلُ الضَّميرينِ لِما ذُكِر مِن حديثِ آلِ إبراهيمَ، فيستدعي تراخيَ الآيةِ الكريمة عمَّا قبلها نزولًا. كيف لا؟ وحكايةُ إيمانِهم بالحديث المذكور وإعراضِهم عنه بصيغة الماضي إنَّما يُتصوَّر بعد وقوعِ الإيمان والإعراضِ المتأخِّرَينِ عن سماعِ الحديث المتأخِّر عن نزولِه، وكذا جعلُهما رسولَ الله ﷺ؛ إذ الظاهرُ بيانُ حالهم بعد هذا الإلزامِ، وحملُه علىٰ حكايةِ حالِهم السابقة تساعِدُه الفاءُ المرتِّبة لِما بعدها علىٰ ما قبلها، ولا يبعُدُ كلَّ البُعْدِ أن تكونَ الهمزةُ لتقريرِ حسَدِهم، وتوبيخِهم بذلك، ويكونَ قولُه تعالىٰ: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ﴾ الآيةَ، تعليلًا له؛ بدلالتِه علىٰ إعراضِهم عمَّا أوتيَ آلُ إبراهيمَ، وإن لم يُذكَرْ كونُه بطريقِ الحسَدِ، كأنَّه قيل: بل أيحسُدون الناسَ علىٰ

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٩٠).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٦٧٨).

ما آتاهم اللهُ مِن فضلِه، ولا يؤمِنون به؟! وذلك دَيْدنُهم المستمرُّ؛ فإنَّا قد آتَيْنا آلَ إبراهيمَ ما آتَيْنا؛ فمنهم -أي: مِن جنسِهم- مَن آمَن بما آتيناهم، ومنهم مَن أعرَض عنه ولم يؤمِنْ به، واللهُ سبحانه أعلم، وفيه تسليةٌ لرسولِ الله ﷺ[(١)].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

لمَّا أثبَتَ لِمَن صَدَّ عنه النارَ، علَّله بقولِه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[(٢)].

تهديدٌ ووعيد لجميعِ الكافرين؛ فهي أعَمُّ ممَّا قبلها؛ فلها حُكْمُ التذييلِ؛ ولذلك فُصِلتْ[(٣)].

لمَّا ذكَر قولَه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾، أتبَع ذلك بما أعَدَّ اللهُ للكافرين بآياته، ثم بعدُ يُتبِعُ بما أعَدَّ للمؤمنين[(٤)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ بعدما ذكَر الوعيدَ بالطائفةِ الخاصة مِن أهلِ الكتاب، بيَّن ما يعُمُّ الكافرين مِن الوعيدِ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[(٥)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٩٠-١٩١).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٣٠٥).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٨٩).

(٤) البحر المحيط (٣/ ٦٧٩).

(٥) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٠٥).

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

لمَّا ذكَر الترهيبَ بعقابِ الكافرين، أتبَعه الترغيبَ بثوابِ المؤمنين، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾[1].

قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ ﴾ ذُكِر هنا للمقابَلةِ، وزيادةِ الغيظِ للكافرين، واقتصَر مِن نعيمِ الآخرة على لذَّةِ الجنَّاتِ والأزواجِ الصالحات؛ لأنَّهما أحَبُّ اللذَّاتِ المتعارَفةِ للسامعين؛ فالزوجةُ الصالحة آنَسُ شيءٍ للإنسان، والجنَّاتُ محَلُّ النعيمِ، وحُسْنُ النظَرِ[2].

لمَّا ذكَر تعالى وعيدَ الكفار، أعقَبَ بوعدِ المؤمنين، وجاءت جملةُ الكفار مؤكَّدةً بـ﴿إِنَّ﴾ على سبيلِ تحقيقِ الوعيد المؤكَّد، ولم يَحتَجْ إلى ذلك في جملةِ المؤمنين، وأتى فيها بالسِّينِ المُشعِرة بقِصَرِ مدةِ التنفيس على سبيلِ تقريبِ الخير مِن المؤمن، وتبشيرِه به[3].

اعلَمْ أنَّه قد جرَتْ عادةُ الله تعالى في هذا الكتابِ الكريم بأنَّ الوعدَ والوعيد يَتلازمانِ في الذِّكرِ على سبيل الأغلب[4].

عقَّب بيانَ سُوءِ حالِ الكفرة ببيانِ حُسْنِ حالِ المؤمنين؛ تكميلًا لِمَساءةِ الأوَّلِين، ومَسَرَّةِ الآخِرين[5].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٢٠٦).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٩٠).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٦٨١).

(٤) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٠٧).

(٥) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٩٢).

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ ﴾

ولمَّا تقدَّم في هذه السُّورةِ الأمرُ بالإحسانِ والعَدْلِ في النساء واليتامىٰ، في الإرثِ وغيرِه، وفي غيرِ ذلك مِن الدماء والأموال، والأقوالِ والأفعال، وذكَر خيانةَ أهلِ الكتاب، وما أحَلَّ بهم لذلك مِن العقابِ، وذكَر أنَّه آتىٰ هذه الأمَّةَ المُلْكَ المقتضيَ للحُكْمِ، وآتاهم الحِكْمةَ بعد جهلِهم وضَعْفِهم؛ أقبَلَ عليهم بلذيذِ خطابِه، بعدما وعَدهم علىٰ امتثالِ أمره مِن كريمِ ثوابه، بما ختَمه بالظِّلِّ الموعود علىٰ العدلِ في حديثِ «سبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّه»(١)، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾(٢).

استئنافٌ ابتدائيٌّ، قُصِد منه الإفاضةُ في بيانِ شرائعِ العدل والحُكْمِ، ونظامِ الطاعة؛ وذلك مِن الأغراضِ التشريعية الكبرىٰ التي تضمَّنتْها هذه السُّورةُ، ولا يَتعيَّنُ تطلُّبُ المناسبةِ بينه وبَيْنَ ما سبَقه؛ فالمناسبةُ هي الانتقال مِن أحكامٍ تشريعية إلىٰ أحكامٍ أخرىٰ في أغراضٍ أخرىٰ، وهنا مناسبةٌ؛ وهي أنَّ ما استطرَد مِن ذِكْرِ أحوالِ أهل الكتاب في تحريفِهم الكَلِمَ عن مواضعِه، ولَيِّهم ألسنتَهم بكلماتٍ فيها توجيهٌ مِن السَّبِّ، وافترائهم علىٰ اللهِ الكَذِبَ، وحسَدِهم بإنكارِ فضلِ الله إذ آتاه الرسولَ والمؤمنين؛ كلُّ ذلك يشتمِلُ علىٰ خيانةِ أمانةِ الدِّين، والعلمِ، والحقِّ، والنِّعْمة، وهي أماناتٌ معنوية؛ فناسَبَ أن يُعقَّبَ ذلك بالأمرِ بأداء الأمانةِ الحِسِّية إلىٰ أهلها، ويُتخلَّصَ إلىٰ هذا التشريعِ(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٣٠٨).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٩١).

لمَّا ذكَر وَعْدَ المؤمنين، وذكَر عمَلَ الصالحاتِ؛ نبَّه علىٰ هذين العمَلَينِ الشريفين اللذين مَنِ اتصَف بهما، كان أحرىٰ أن يتصِفَ بغيرهما مِن الأعمالِ الصالحة؛ فأحدهما: ما يَختصُّ به الإنسانُ فيما بينه وبين غيرِه؛ وهو أداءُ الأمانة التي عُرِضتْ علىٰ السماواتِ والأرض والجبال، فأَبَيْنَ أن يَحمِلْنَها. والثاني: ما يكونُ بَيْنَ اثنينِ مِن الفصلِ بينهما بالحُكْمِ العدل الخالي عن الهوىٰ؛ وهو مِن الأعمالِ العظيمة التي أمَر اللهُ بها رُسُلَه وأنبياءه والمؤمنين، ولمَّا كان الترتيبُ الصحيح أن يبدأَ الإنسانُ بنفسه في جَلْبِ المنافعِ ودَفْعِ المَضارِّ، ثم يشتغِلَ بحالِ غيره؛ أُمِر بأداءِ الأمانةِ أولًا، ثم بعده بالأمرِ بالحُكْمِ بالحقِّ (١).

لمَّا شرَح بعضَ أحوالِ الكفار، وشرَح وعيدَه؛ عاد إلىٰ ذِكْرِ التكاليف مرةً أخرىٰ، وأيضًا لمَّا حكىٰ عن أهلِ الكتاب أنَّهم كتَموا الحقَّ حيث قالوا للذين كفَروا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾، أمَر المؤمنين في هذه الآيةِ بأداءِ الأماناتِ في جميعِ الأمور، سواءٌ كانت تلك الأمورُ مِن بابِ المذاهب والديانات، أو مِن باب الدنيا والمعاملات، وأيضًا لمَّا ذكَر في الآيةِ السابقة الثوابَ العظيم للذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ، وكان مِن أجَلِّ الأعمالِ الصالحة الأمانةُ؛ لا جرَمَ أمَر بها في هذه الآيةِ (٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾

لمَّا أمَر سبحانه بالعَدْلِ ورغَّب فيه، ورهَّب مِن تركِه؛ أمَر بطاعة المتنصِّبين لذلك، الحاملةِ لهم علىٰ الرِّفْقِ بهم والشفقةِ عليهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٦٨٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٠٨).

ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[1].

لمَّا أمَر اللهُ الأمَّةَ بالحُكْمِ بالعَدْلِ، عقَّب ذلك بخطابِهم بالأمر بطاعة الحُكَّامِ ولاةِ أمورهم؛ لأنَّ الطاعةَ لهم هي مظهرُ نفوذِ العدل الذي يحكُمُ به حكَّامُهم؛ فطاعةُ الرسول ﷺ تشتمِلُ على احترامِ العدل المشرَّعِ لهم، وعلى تنفيذِه، وطاعةُ ولاة الأمور تنفيذٌ للعدل، وأشار بهذا التعقيبِ إلى أنَّ الطاعةَ المأمور بها هي الطاعةُ في المعروف؛ ولهذا قال عليٌّ: «حقٌّ على الإمامِ أن يحكُمَ بالعدلِ، ويؤدِّيَ الأمانةَ؛ فإذا فعَل ذلك، فحقٌّ على الرعيَّةِ أن يَسمَعوا ويُطِيعوا»[2][3].

لمَّا أمَر الرُّعاةَ والولاةَ بالعدلِ في الرعيَّةِ، أمَر الرعيَّةَ بطاعةِ الولاة، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾[4].

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠﴾

لمَّا كان التقديرُ -كما أفهَمَه آخِرُ الآية، وأشعَرَ به أولُها- بعد أن جمَع الخَلْقَ على طاعتِه بالطريقِ الذي ذكَره: فمَن أبى ذلك فليس بمؤمنٍ؛ دلَّ عليه بقولِه -معجِّبًا

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣١٠).

(٢) أورده البغوي في التفسير (٢/ ٢٤٠).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٩٦).

(٤) مفاتيح الغيب (١٠/ ١١٢).

مخاطِبًا لأكمَلِ الخَلْقِ الذي عرَّفه اللهُ المنافِقين في لَحْنِ القول-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[١].

استئنافٌ ابتدائيٌّ للتعجيب مِن حالِ هؤلاء، ناسَب الانتقالُ إليه مِن مضمونِ جملة ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، والموصولُ مرادٌ به قومٌ معروفون؛ وهم فريقٌ مِن المنافِقين الذين كانوا مِن اليهودِ وأظهَروا الإسلام؛ لقوله: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ﴾؛ ولذلك قال: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[٢].

لمَّا أمَر المؤمنين بطاعةِ الله ورسولِه وأُولي الأمر، ذكَر أنَّه يُعجَبُ بعد ورودِ هذا الأمر مِن حالِ مَن يدَّعي الإيمانَ ويريدُ أن يتحاكَمَ إلىٰ الطاغوت ويتركُ الرسولَ ﷺ. وظاهرُ الآيةِ يقتضي أن تكونَ نزَلتْ في المنافِقين؛ لأنَّه قال: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، فلو كانت في يهود، أو في مؤمنٍ ويهوديٍّ؛ كان ذلك بعيدًا مِن لفظِ الآية[٣].

لمَّا أوجَب في الآيةِ الأُولىٰ علىٰ جميعِ المكلَّفين أن يُطِيعوا اللهَ ويطيعوا الرسولَ ﷺ، ذكَر في هذه الآيةِ أنَّ المنافِقين والذين في قلوبهم مرَضٌ لا يطيعون الرسولَ ﷺ، ولا يَرضَوْنَ بحُكْمِه؛ وإنَّما يريدون حُكْمَ غيرِه[٤].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣١٢).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٠٢).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٦٨٨).

(٤) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٢٠).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾

لمَّا ذكَر ضلالَهم بالإرادةِ، ورَغْبتَهم في التحاكمِ إلىٰ الطاغوت؛ ذكَر فِعْلَهم فيه في نُفْرتِهم عن التحاكمِ إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾[1].

بيَّن في الآيةِ الأُولىٰ رغبةَ المنافِقين في التحاكم إلىٰ الطاغوتِ، وبيَّن بهذه الآيةِ نُفْرتَهم عن التحاكم إلىٰ الرسول ﷺ[2].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾ تكملةٌ لمادةِ التعجيب ببيانِ إعراضهم صريحًا عن التحاكم إلىٰ كتابِ الله تعالىٰ ورسولِه ﷺ، إثرَ بيانِ إعراضهم عن ذلك في ضمنِ التحاكم إلىٰ الطاغوت[3].

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾

لمَّا تسبَّب عن هذا تهديدُهم، قال - مهوِّلًا لوعيدِهم بالإبهام والتعجيبِ منه بالاستفهام، مُعلِمًا بأنَّهم سيَندَمون حين لا ينفعُهم الندمُ، ولا يُغني عنهم الاعتذارُ -: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣١٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٢٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٩٥).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٣١٤).

تفريعٌ على قولِه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾ الآيةَ؛ لأنَّ الصُّدودَ عن ذلك يوجِبُ غضَبَ اللهِ عليهم، فيوشِكُ أن يُصِيبَهم اللهُ بمصيبةٍ مِن غيرِ فعلِ أحدٍ؛ مثل انكشافِ حالهم للمؤمنين، فيُعرَفوا بالكفر، فيُصبِحوا مهدَّدِين، أو مصيبةٍ مِن أمرِ الله رسولَه والمؤمنين بأن يُظهِروا لهم العداوةَ، وأن يقتُلوهم لنفاقِهم، فيَجِيئوا يعتذرون بأنَّهم ما أرادوا بالتحاكمِ إلى أهل الطاغوتِ إلا قَصْدَ الإحسانِ إليهم، وتأليفِهم إلى الإيمانِ، والتوفيقِ بينهم وبين المؤمنين(١).

لمَّا حكى عنهم في الآيةِ المتقدِّمة أنَّهم يَتحاكمون إلى الطاغوتِ، ويَفِرُّون مِن الرسول ﷺ أشَدَّ الفرار؛ دلَّ ذلك على شِدَّةِ نُفْرتِهم مِن الحضورِ عند الرسول ﷺ والقُرْبِ منه، فلمَّا ذكَر ذلك، قال: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾؛ يعني: إذا كانت نُفْرتُهم مِن الحضورِ عند الرسول ﷺ في أوقاتِ السلامة هكذا، فكيف يكون حالُهم في شِدَّةِ الغَمِّ والحَسْرةِ إذا أتَوْا بجنايةٍ خافوا بسببِها منك، ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ شاؤوا أم أبَوْا، و﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ على سبيل الكذبِ: أنَّا ما أرَدْنا بتلك الجنايةِ إلا الخيرَ والمصلحة؟! والغرضُ مِن هذا الكلامِ: بيانُ أنَّ ما في قَلْبِهم مِن النُّفْرةِ عن الرسول ﷺ لا غايةَ له، سواءٌ غابوا أم حضَروا، وسواءٌ بَعُدوا أم قَرُبوا(٢).

متصِلٌ بما قبله، مبيِّنٌ غائلةَ جناياتِهم المَحْكية، ووخامةَ عاقبتِها(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٠٧).

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٢٢، ١٢٣).

(٣) محاسن التأويل (٣/ ١٩٦).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ ﴾

لمَّا ذكَر سُبحانه وتعالى بعضَ ما يصدُرُ منهم مِن التناقضاتِ وهم غيرُ محتشِمين ولا هائبين، قال -مُعلِمًا بشأنهم، مُعلِمًا لِما يَصنَعُ بهم-: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾[1].

قولُه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾ جاءَ باسمِ الإشارة لتمييزِهم للسامعين أكمَلَ تمييزٍ؛ لأنَّهم قد حصَل مِن ذِكْرِ صفاتِهم ما جعَلهم كالمُشاهَدِين، وأراد بـ﴿ما في قلوبهم﴾ الكفرَ الذي أبطَنوه، وأمَر رسولَه بالإعراض عنهم[2].

ثم لمَّا أعلَمَ اللهُ رسولَه عليه الصلاة والسلام شِدَّةَ بُغْضِهم، ونهايةَ عداوتِهم ونُفْرتِهم؛ أعلَمَه أنَّه كيف يعامِلُهم، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾[3].

ثم كذَّبهم اللهُ تعالى بقولِه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾[4].

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ ﴾

لمَّا أمَر بطاعةِ الرسول صلى الله عليه وسلم، وذَمَّ مَن حاكَمَ إلى غيرِه وهدَّده، وختَم تهديدَه بأمرِ النبي صلى الله عليه وسلم بالإعراضِ عنه والوعظِ له، فكان التقديرُ: فما أرسلناك وغيرَك مِن الرُّسلِ إلا للرِّفْقِ بالأمَّة، والصفحِ عنهم، والدعاءِ لهم، على غايةِ الجهدِ

(١) نظم الدرر (٥/ ٣١٤).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٠٨).

(٣) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٢٣).

(٤) فتح القدير (١/ ٥٥٨).

والنصيحة؛ عطف عليه قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[(١)].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ جملةٌ معترضة في خلالِ الخبرِ عن قضيَّةِ المنافِقِ الذي تحاكَمَ إلىٰ الطاغوت. وهو رجوعٌ إلىٰ الغرضِ الأول؛ وهو الإنحاءُ[(٢)] عليهم في إعراضِهم عن التحاكم إلىٰ الرسول ﷺ، وأنَّ إعراضَهم ذلك مؤذِنٌ بنفاقِهم؛ ببيانِ أنَّ معنىٰ الإيمانِ الرِّضا بحُكْمِ الرسول ﷺ؛ إذ ما جاء الرسولُ إلا ليطاعَ، فكيف يُعرَضُ عنه؟![(٣)].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ كلامٌ مبتدأ، جِيءَ به تمهيدًا لبيانِ خطَئِهم في الاشتغالِ بسَتْرِ جنايتِهم بالاعتذارِ بالأباطيل، وعدَمِ تَلافيها بالتوبةِ؛ أي: وما أرسَلْنا رسولًا مِن الرُّسل لشيءٍ مِن الأشياء إلا ليُطاعَ بسببِ إذنِهِ تعالىٰ في طاعتِه، وأمرِه المرسَلَ إليهم بأن يُطِيعوه ويتَّبِعوه؛ لأنَّه مؤدٍّ عنه تعالىٰ؛ فطاعتُه طاعةُ الله تعالىٰ، ومعصيتُه معصيتُه[(٤)].

لمَّا أمَر بطاعةِ الرسول في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، ثم حكىٰ أنَّ بعضَهم تحاكَمَ إلىٰ الطاغوتِ ولم يَتحاكَمْ إلىٰ الرسول ﷺ، وبيَّن قُبْحَ طريقِه، وفسادَ منهجِه؛ رغَّب في هذه الآيةِ مرةً أخرىٰ في طاعةِ الرسول ﷺ، فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣١٥).

(٢) أي: الإقبال باللوم.

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ١٠٩).

(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٩٦).

(٥) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٢٤).

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

لمَّا أفهَمَ ذلك أنَّ إباءهم لقَبولِ حُكْمِه والاعترافِ بالذَّنْبِ لديه سببٌ مانع لهم مِن الإيمانِ، قال - مؤكِّدًا للكلام غايةَ التأكيد بالقَسَمِ المؤكَّدِ لإثباتِ مضمونِه، و«لا» النافيةِ لنقيضِه-: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[1].

تفريعٌ عن قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ وما بعده؛ إذ تضمَّنَ ذلك أنَّهم فعَلوا ما فعَلوا وهم يزعُمون أنَّهم مؤمنون، فكان الزعمُ إشارةً إلى انتفاءِ إيمانهم، ثم أردَفَ بما هو أصرَحُ؛ وهو أنَّ أفعالهم تُنافي كونَهم مؤمنين بقولِه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وأكَّده بالقَسَمِ، وبالتوكيدِ اللفظي[2].

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ ﴾

لمَّا كان التقديرُ: فقد كتَبْنا عليهم طاعتَك والتسليمَ لك في هذه الحنيفيَّةِ السَّمْحةِ التي دعَوْتَهم إليها، وحمَلْتَهم عليها؛ عطَف عليه قولَه: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣١٧).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١١٠).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٣١٧).

اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ متصِلةٌ بما تقدَّم مِن أمرِ المنافِقين، وترغيبِهم في الإخلاصِ وتَرْكِ النفاق؛ والمعنى: أنَّا لو شدَدْنا التكليفَ على الناسِ -نحوُ أن نأمرَهم بالقتلِ، والخروجِ عن الأوطان-، لصعُبَ ذلك عليهم، ولَمَا فعَله إلا الأقلُّون، وحينئذ يَظهَرُ كفرُهم وعنادهم، فلمَّا لم نفعل ذلك رحمةً منَّا على عبادِنا، بل اكتفَيْنا بتكليفِهم في الأمور السهلة؛ فَلْيَقبَلوها بالإخلاص، وليتركوا التمرُّدَ والعناد؛ حتى يَنالوا خيرَ الدارينِ(١).

﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ ﴾

﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾، قال الزَّمَخْشَريُّ: «﴿ وَإِذًا ﴾: جوابٌ لسؤالٍ مقدَّر؛ كأنَّه قيل: وماذا يكون لهم أيضًا بعد التثبيتِ؟ فقيل: وإذًا لو ثبَتوا، لآتيناهم؛ لأنَّ «إذًا» جوابٌ وجزاء»(٢).

لمَّا بيَّن أنَّ هذا الإخلاصَ في الإيمان خيرٌ ممَّا يريدونه مِن النفاق وأكثَرُ ثَباتًا وبقاءً، بيَّن أنَّه كما أنَّه في نفسِه خيرٌ، فهو أيضًا مستعقِبٌ الخيراتِ العظيمةَ؛ وهو الأجرُ العظيم، والثوابُ العظيم(٣).

﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾

لمَّا بيَّن أجرَهم في الآخرة، ناسَب أن يبيِّنَ هنا السببَ الموصل لهم لهذا الأجرِ العظيم؛ وهو سلوكُ الصراطِ المستقيم الذي لا عِوَجَ فيه.

---

(١) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٢٩).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٦٩٨).

(٣) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٣١).

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾

لمَّا رغَّب في العملِ بمواعظِه، وكان الوعدُ قد يكون لغِلَظٍ في الموعوظ، وكان ما قدَّمه في وعظِه أمرًا مُجمَلًا؛ رغَّب بعدَ ترقيقِه بالوعظ في مطلَقِ الطاعةِ التي المَقامُ كلُّه لها، مفصِّلًا إجمالَ ما وعَد عليها، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[1].

تذييلٌ لجملة ﴿وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾، وإنَّما عُطِفتْ باعتبارِ إلحاقها بجملةِ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ على جملةِ ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾. وجيءَ باسم الإشارة في جملةِ جوابِ الشرط؛ للتنبيهِ على جدارتهم بمضمونِ الخبَرِ عن اسمِ الإشارة لأجلِ مضمونِ الكلام الذي قبْلَ اسمِ الإشارة[2].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ كلامٌ مستأنَف فيه فضلُ ترغيبٍ في الطاعة، ومَزيدُ تشويقٍ إليها؛ ببيانِ أنَّ نتيجتَها أقصى ما ينتهي إليه هِمَمُ الأُمَم، وأرفَعُ ما يَمتدُّ إليه أعناقُ عزائمهم مِن مجاورةِ أعظَمِ الخلائق مقدارًا، وأرفَعِهم منارًا، متضمِّنٌ لتفسيرِ ما أُبهِمَ في جوابِ الشَّرطيةِ السابقة، وتفصيلِ ما أُجمِلَ فيه[3].

لمَّا أمَر بطاعةِ الله وطاعة الرسول بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، ثم زيَّف طريقةَ الذين تحاكَموا إلى الطاغوتِ وصَدُّوا عن الرسول ﷺ، ثم أعاد الأمرَ بطاعةِ الرسول ﷺ مرةً أخرى، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، ثم رغَّب في تلك الطاعةِ بقولِه: ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦ وَإِذٗا

(١) نظم الدرر (٥/ ٣١٩-٣٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١١٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٩٨).

﴿لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٦٧ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٦٨﴾؛ **أكَّد الأمرَ بطاعةِ الله وطاعة الرسول ﷺ في هذه الآيةِ مرَّةً أخرىٰ، فقال:** ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ **إلىٰ آخِرِ الآية**(١).

ثم بيَّن تعالىٰ فَضْلَ الطاعةِ، وأنَّ ثمرتَها مرافقةُ أقرَبِ عبادِ الله إلىٰ الله، وأرفعِهم درجاتٍ عنده، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾(٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ الأمرَ الذي لو فعَله المنافقون حين وُعِظوا به وأنابوا إليه لأنعَمَ عليهم، ذكَر بعد ذلك ثوابَ مَن يفعلُه(٣).

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾

ثم أشار إلىٰ تعظيمِ ما منَحهم به، مرغِّبًا في العملِ بما يؤدي إليه بأداةِ البُعْدِ، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾(٤).

لمَّا بيَّن درجتَهم في الآيةِ السابقة، ناسَب أن يبيِّنَ هنا أنَّهم لم ينالوا الدرجةَ بطاعتهم، بل نالوها بفضلِ الله تعالىٰ وكرَمِه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾

لمَّا دَلَّ علىٰ درجةِ الشَّهادة بعد ما ذكَر مِن ثوابِ مَن قَبِلَ موعظتَه ولو في قتلِ نفسِه، وذَمَّ مَن أبىٰ ذلك بعد ما حذَّر مِن الأعداء مِن أهلِ الكتاب والمشركين والمنافِقين

---

(١) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٣٢).

(٢) محاسن التأويل (٣/ ٢١٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٧١).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٣٢٢).

المخادِعِين، فتوفَّرتْ دواعي الراغبين في المكارمِ علىٰ ارتقابها؛ التفَتَ إلىٰ المؤمنين ملذِّذًا لهم بحُسْنِ خطابه، نادبًا إلىٰ الجهادِ مع الإرشاد إلىٰ الاستعدادِ له ممَّا يروع الأضداد، فقال ﷻ - منبِّهًا بأداة البُعْدِ وصيغةِ المضيِّ إلىٰ أنَّ الراسخَ لا ينبغي له أن يَحتاجَ إلىٰ تنبيهٍ علىٰ مثلِ هذا -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾(١).

استئنافٌ وانتقال إلىٰ التحريضِ علىٰ الجهاد بمناسبةٍ لطيفة؛ فإنَّه انتقَل مِن طاعةِ الرسول ﷺ إلىٰ ذِكْرِ أشدِّ التكاليف، ثم ذكَر ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، وكان الحالُ أدعىٰ إلىٰ التنويهِ بشأن الشَّهادة دُونَ بقيَّةِ الخلالِ المذكورة معها، الممكِنةِ النَّوالِ(٢).

لمَّا ذكَر طاعتَه وطاعةَ رسوله ﷺ، وكان مِن أهمِّ الطاعات إحياءُ دِينِ الله؛ أمَر بالقيام بإحياءِ دِينِه، وإعلاءِ دَعْوتِه، وأمَرهم ألا يَقتحموا علىٰ عدوِّهم علىٰ جهالةٍ، فقال: ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾، فعلَّمهم مباشرةَ الحروب، ولمَّا تقدَّم ذِكْرُ المنافِقين، ذكَر في هذه الآيةِ تحذيرَ المؤمنين مِن قَبول مقالاتِهم، وتثبيطِهم عن الجهادِ(٣).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ عادَ بعد الترغيبِ في طاعةِ الله وطاعة رسوله ﷺ إلىٰ ذِكْرِ الجهادِ الذي تقدَّم؛ لأنَّه أشَقُّ الطاعات، ولأنَّه أعظَمُ الأمورِ التي بها يحصُلُ تقويةُ الدِّينِ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١١٧).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٧٠٣).

(٤) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٣٧).

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ﴾

لمَّا كان التقديرُ: فإنَّ منكم الخارجَ إلىٰ الجهادِ عن غيرِ حَزْمٍ ولا حَذَرٍ، عطَف عليه قولَه - مبيِّنًا لِما هو مِن أجلِّ مقاصدِ هذه الآيات؛ مِن تبكيتِ المنافِقين للتحذيرِ منهم، ووصفِهم ببعضِ ما يُخفُون، مؤكِّدًا لأنَّ كلَّ مَن ادَّعىٰ الإيمانَ يُنكِرُ أن يكونَ كذلك -: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾(١).

﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾

وفي الآيتينِ - هذه الآيةِ والآيةِ السابقة- تنبيهٌ علىٰ أنَّهم لا يعُدُّون مِن المِنَحِ إلا أغراضَ الدنيا(٢).

أنَّه تعالىٰ حكىٰ عن هذا المنافقِ أنَّه إذا وقَعتْ للمسلمين نَكْبةٌ أظهَر السُّرورَ الشديد بسبب أنَّه كان متخلِّفًا عنهم، ولو فازوا بغنيمةٍ ودَوْلةٍ أظهَر الغَمَّ الشديد بسبب فواتِ تلك الغنيمة، ومثلُ هذه المعاملةِ لا يُقدِم عليها الإنسانُ إلا في حقِّ الأجنبيِّ العدوِّ؛ لأنَّ مَن أحَبَّ إنسانًا، فَرِح عند فرَحِه، وحَزِن عند حُزْنِه، فأمَّا إذا قُلِبتْ هذه القضيةُ، فذاك إظهارٌ للعداوة(٣).

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٢٤).
(٢) البحر المحيط (٣/ ٧٠٨).
(٣) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٣٩).

ثم ذكَر حالَه عند النَّصْرِ والغنيمة بعد أن ذكَر حالَه عند القتلِ والهزيمة، فقال: ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

لمَّا بيَّن أنَّ محطَّ حالِ القاعد عن الجهادِ الدُّنيا، عُلِم أنَّ قَصْدَ المجاهدِ الآخرةُ؛ فسبَّب عن ذلك قولَه: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(١).

«الفاء» إمَّا للتفريع؛ تفريعِ الأمر على الآخرِ؛ أي: فُرِّع ﴿فَلْيُقَٰتِلْ﴾ على ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟﴾، أو هي فاءٌ فصيحة، أفصحتْ عمَّا دلَّ عليه ما تقدَّم مِن قوله: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾؛ لأنَّ جميعَ ذلك اقتضى الأمرَ بأخذِ الحذرِ، وهو مهيِّئٌ لطلبِ القتال، والأمرِ بالنَّفير، والإعلامِ بمَن حالُهم حالُ المتردِّد المتقاعِس؛ أي: فإذا عَلِمْتم جميعَ ذلك، فالذين يقاتِلون في سبيلِ الله هم الذين يَشْرُون الحياةَ الدنيا بالآخرة، لا كلُّ أحدٍ(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا ذمَّ المبطِّئينَ في الجهاد، عادَ إلى الترغيبِ فيه، فقال: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾(٣).

لمَّا ختَم الآيةَ السابقة بالفوزِ العظيم، بيَّن في هذه الآيةِ حقيقةَ الفوزِ العظيم؛ وهو الشَّهادةُ في سبيلِ الله تبارك وتعالى.

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٢٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٤٠).

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

لمَّا كان التقديرُ: فما لكم لا تقاتِلون في سبيلِ الله لهذا الأجرِ الكثير ممَّن لا يُخلِفُ الميعادَ؟! وكانوا يقولون: إنَّا لا نُعطِي الميراثَ إلا لِمَن يَحمِي الذِّمَار[١]، ويذُبُّ عن الجار، ويَمنَعُ الحَوْزَةَ[٢]؛ قال عاطفًا علىٰ هذا المقدَّرِ -ملهِّبًا لهم ومهيِّجًا، ومبكِّتًا للقاعدين وموبِّخًا-: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[٣].

اعلَمْ أنَّ المرادَ منه إنكارُه تعالىٰ لتَرْكِهم القتالَ؛ فصار ذلك توكيدًا لِما تقدَّم مِن الأمرِ بالجهاد[٤].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾

لمَّا أخبَر عن افتقارِهم إلىٰ الأنصار، وتظلُّمِهم مِن الكفار؛ استأنَف الإخبارَ عن الفريقينِ، فقال مؤكِّدًا للترغيبِ في الجهاد: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[٥].

---

(١) أي: الحرم والأهل، وكل ما يلزم حفظه.

(٢) أي: الناحية، والمقصود ما يحتاج إلىٰ حماية.

(٣) نظم الدرر (٥/ ٣٢٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٤٠).

(٥) نظم الدرر (٥/ ٣٢٩).

لمَّا أمَر تعالىٰ المؤمنين أولًا بالنَّفْرِ إلىٰ الجهادِ، ثـم ثانيًا بقولِـه: ﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ثم ثالثًا علىٰ طريقِ الحثِّ والحضِّ بقولِـه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أخبَرَ في هذه الآيةِ بالتقسيم أنَّ المؤمنَ هو الذي يقاتِـلُ في سبيلِ الله، وأنَّ الكـافرَ هـو الذي يقاتِلُ في سبيلِ الطاغوت؛ ليبيِّنَ للمؤمنين فَرْقَ ما بينهم وبين الكفارِ، ويقـوِّيَهم بذلك ويشجِّعَهم ويحرِّضَهم، وأنَّ مَن قاتَل في سبيلِ الله هو الذي يَغلِبُ؛ لأنَّ اللهَ هو وليُّه وناصره، ومَن قاتَل في سبيلِ الطاغوت فهو المخذولُ المغلوب[(١)].

لمَّا بيَّن وجوبَ الجهاد، بيَّن أنَّه لا عبرةَ بصورةِ الجهاد، بل العبرةُ بالقصدِ والـداعي؛ فـالمؤمنون يقـاتِلون لغـرضِ نُصْرةِ دِيـنِ الله وإعـلاءِ كلمتِـه، والكـافرون يقـاتِلون في سبيلِ الطـاغوتِ، وهـذه الآيـةُ كالدَّلالـةِ علىٰ أنَّ كـلَّ مَـن كـان غرضُـه في فعلِـه رضـا غيرِ الله فهو في سبيلِ الطاغوت؛ لأنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر هذه القِسْمةَ -وهي أنَّ القتالَ إمَّا أن يكونَ في سبيلِ الله، أو في سبيل الطاغوت-، وجَب أن يكونَ ما سِوىٰ الله طاغوتًا، ثم إنَّه تعالىٰ أمَر المقـاتِلين في سبيل الله بـأن يقـاتِلوا أوليـاءَ الشيطانِ، وبـيَّن أنَّ كيـدَ الشيطانِ كان ضعيفًا[(٢)].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كـلامٌ مبتـدأ سِـيقَ لترغيـبِ المـؤمنين في القتـال، وتشجيعِهم؛ ببيانِ كمال قوَّتِهم بإمدادِ الله تعالىٰ ونُصْرتِه، وغايةِ ضَعْفِ أعدائهم[(٣)].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

لمَّا عرَّفهم هذه المفاوِزَ الأُخْروية، والمفـاخِرَ الدُّنيويـة، وختَـم بمـا يُـنهِضُ الجبـان،

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٧١٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٤٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٠٢).

ويقوِّي الجَنَان[(١)]، ورغَّبهم بما شوَّق إليه مِن نعيمِ الجِنَان؛ عجَّب مِن حالِ مَن توانَىٰ[(٢)] بعد ذلك واستكان، فقال تعالىٰ مقبلًا بالخطاب علىٰ أعبَدِ خَلْقِه وأطوَعِهم لأمره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[(٣)].

تهيَّأ المَقامُ للتذكير بحالِ فريقٍ مِن المسلمين اختلَف أولُ حالِهِ وآخِرُه، فاستطرَد هنا التعجيبُ مِن شأنِهم علىٰ طريقةِ الاعتراض في أثناءِ الحثِّ علىٰ الجهاد؛ وهؤلاء فريقٌ يَوَدُّون أن يؤذَنَ لهم بالقتال، فلمَّا كُتِب عليهم القتالُ في إبَّانه[(٤)] جبُنوا[(٥)].

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ۗ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)﴾

لمَّا زهَّدهم في دارِ المتاعب والأكدار علىٰ تقديرِ طُولِ البقاء، وكانوا كأنَّهم يرجُونَ بتَرْكِ القتال الخلودَ، أو تأخيرَ موتٍ يسبِّبُه القتالُ؛ نبَّههم علىٰ ما يَتحقَّقون مِن أنَّ المنيَّةَ مَنهَلٌ لا بد مِن ورودِه في الوقتِ الذي قُدِّر له، وإن امتنَع الإنسانُ منه في الحصون، أو رمىٰ نفسَه في المَتالِفِ[(٦)]، فقال تعالىٰ - مبكِّتًا مَن قال ذلك، مؤكدًا بـ«ما» النافيةِ لنقيضِ ما تضمَّنه الكلامُ؛ لأنَّ حالَهم حالُ مَن يُنكِرُ الموتَ بغير

---

(١) أي: القلب.

(٢) أي: ضعُف وتهاون.

(٣) نظم الدرر (٣٢٩، ٣٣٠).

(٤) أي: وقته وحينه.

(٥) التحرير والتنوير (٥/ ١٢٤).

(٦) أي: مواضع التلف والهلاك.

القتال، مجيبًا بحاقِّ[(١)] الجواب بعدما أورَد الجوابَ الأول على سبيل التنزُّلِ -:
﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[(٢)].

وجملةُ ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ﴾ يجوز أن تكونَ مِن تمامِ القول المَحْكيِّ بقولِه: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، وإنَّما لم تُعطَفْ على جملةِ ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ لاختلافِ الغرَضينِ؛ لأنَّ جملةَ ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ وما عُطِف عليها تغليطٌ لهم في طلبِ التأخير إلى أجلٍ قريب، وجملة ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ مسُوقةٌ لإشعارهم بأنَّ الجُبْنَ هو الذي حمَلهم على طلبِ التأخير إلى أمدٍ قريب؛ لأنَّهم توهَّموا أنَّ مواقعَ القتال تُدنِي الموتَ مِن الناس. ويحتمِلُ أن يكونَ القولُ قد تمَّ، وأنَّ جملةَ ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ﴾ توجُّهٌ إليهم بالخطابِ مِن الله تعالى، أو توجُّهٌ لجميعِ الأمَّة بالخطاب، فتكونَ على كلا الأمرينِ معترِضةً بَيْنَ أجزاءِ الكلام[(٣)].

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ المقصودُ مِن هذا الكلام: تبكيتُ مَن حكى عنهم أنَّهم عند فرضِ القتال ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾، فقال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ﴾؛ فبيَّن تعالى أنَّه لا خلاصَ لهم مِن الموت، والجهادُ موتٌ مستعقِبٌ لسعادةِ الآخرة، فإذا كان لا بد مِن الموتِ، فبِأَنْ يقعَ على وجهٍ يكون مستعقِبًا للسعادةِ الأبدية، كان أَوْلى مِن ألا يكونَ كذلك[(٤)].

---

(١) أي: خالصه وصريحه.

(٢) نظم الدرر (٥/ ٣٣٤).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ١٢٨).

(٤) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٤٤).

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ كلامٌ مبتدأ مسُوقٌ مِن قِبَلِه تعالىٰ بطريقِ تلوين الخطاب، وصرفِه عن رسولِ الله ﷺ إلى المخاطَبين؛ اعتناءً بإلزامِهم، إثْرَ بيانِ حقارةِ الدنيا، وعلوِّ شأنِ الآخرة بواسطتِه ﷺ[1].

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾

لمَّا أجابهم بما هو الحقُّ إيجادًا، علَّمهم ما هو الأدبُ لملاحَظة السببِ، فقال مستأنِفًا: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[2].

بعد أن أمَر اللهُ رسولَه بما يجيبُ به هؤلاء الضالِّين، علَّمه حقيقةَ التفصيل في إصابةِ الحسنة والسيئة مِن جهةِ تمحُّضِ النسبةِ إلى الله تعالىٰ، أو اختلاطِها بالانتساب إلى العبدِ، فقال: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾، ووُجِّه الخطابُ للرسول ﷺ؛ لأنَّه المبلِّغُ عن الله، ولأنَّ هذا الجوابَ لإبطالِ ما نسَبه الضالُّون إليه مِن كونِه مصدرَ السيِّئاتِ التي تُصِيبُهم[3].

بيانٌ للجواب المُجمَلِ المأمورِ به، وإجراؤُه علىٰ لسانِ النبي ﷺ، ثم سَوْقُ البيانِ مِن جهتِه عَزَّ وَجَلَّ بطريقِ تلوينِ الخطاب وتوجيهِه إلىٰ كلِّ واحدٍ مِن الناس، والالتفاتُ لمَزيدِ الاعتناء به، والاهتمامِ بردِّ مقالتِهم الباطلة، والإيذانِ بأنَّ مضمونَه مبنيٌّ علىٰ حِكْمةٍ دقيقة، حقيقةٍ بأن يَتولَّىٰ بيانَها علَّامُ الغيوبِ[4].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٠٤).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٣٣٦).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ١٣١).

(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٠٥-٢٠٦).

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾

لمَّا نفَىٰ عِلَلَهم في التخلُّفِ عن طاعته إلىٰ أن ختَم بالشَّهادةِ برسالته، قال مرغِّبًا مرهِّبًا علىٰ وجهٍ عامٍّ يسكِّنُ قلبَه، ويخفِّفُ مِن دوامِ عصيانهم له، دالًّا علىٰ عِصْمتِه في جميعِ حركاتِه وسكَناتِه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾[1].

هذا كالتكملة لقوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾، باعتبارِ ما تضمَّنه مِن ردِّ اعتقادهم أنَّ الرسولَ ﷺ مصدرُ السيِّئات التي تُصِيبُهم، ثم مِن قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾، المؤذِنِ بأنَّ بَيْنَ الخالق وبين المخلوق فَرْقًا في التأثير، وأنَّ الرسالةَ معنًىٰ آخَرُ، فاحترَس بقولِه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ عن توهُّمِ السامعين التفرقةَ بَيْنَ اللهِ ورسوله في أمورِ التشريع، فأثبَتَ أنَّ الرسولَ ﷺ في تبليغِه إنَّما يبلِّغُ عن الله؛ فأمرُه أمرُ الله، ونهيُه نهيُ الله، وطاعتُه طاعةُ الله، وقد دلَّ علىٰ ذلك كلِّه قولُه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾؛ لاشتمالِها علىٰ إثباتِ كونه رسولًا، واستلزامِها أنَّه يأمر وينهَىٰ، وأنَّ ذلك تبليغٌ لمرادِ الله تعالىٰ؛ فمَن كان علىٰ بيِّنةٍ مِن ذلك، أو كان في غفلةٍ؛ فقد بيَّن اللهُ له اختلافَ مقاماتِ الرسول ﷺ[2].

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ بيانٌ لأحكامِ رسالته ﷺ، إثرَ بيانِ تحقُّقِها وثبوتِها، وإنَّما كان كذلك؛ لأنَّ الآمِرَ والناهيَ في الحقيقة هو اللهُ تعالىٰ، وإنَّما هو ﷺ مبلِّغٌ لأمرِه ونهيِه؛ فمرجعُ الطاعةِ وعدمِها هو اللهُ سبحانه[3].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٣٧).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٣٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٠٦).

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾

لمَّا كان مِن شأنِ الرسول ﷺ أن يَحفَظَ مَن أطاعه ومَن عصاه ليبلِّغَ ذلك مَن أرسَله، وكان ﷻ قد أشار له إلىٰ الإعراضِ عن ذلك؛ لكونِه لا يحيطُ بذلك علمًا وإن اجتهَد؛ شرَع يُخبِرُه ببعضِ ما يُخفُونه، فقال حاكيًا لبعضِ أقوالهم، مبيِّنًا لنفاقِهم فيه وخداعِهم: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾(١).

ثم بيَّن أنَّهم لضَعْفِ نفوسهم لا يُعرِضون جهرًا، بل يُظهِرون الطاعةَ، فإذا أمَرهم الرسولُ أو نهاهم، يقولون له: طاعةٌ؛ أي: أمرُنا طاعةٌ، وهي كلمةٌ يدُلُّون بها علىٰ الامتثال(٢).

ولمَّا بيَّن تعالىٰ وجوبَ طاعة الرسول ﷺ، تأثَّرَه(٣) بذِكْرِ معاملتِهم معه، فقال: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾(٤).

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

لمَّا كان سببُ إبطانِهم خلافَ ما يُظهِرونه اعتقادَ أنَّه ﷺ رئيسٌ لا يَعلَمُ إلا ما أظهَروه، لا رسولٌ مِن اللهِ الذي يعلمُ السرَّ وأخفىٰ؛ سبَّب عن ذلك -علىٰ وجهِ الإنكار- إرشادَهم إلىٰ الاستدلال علىٰ رسالتِه بما يزيحُ الشكَّ، ويوضِّحُ الأمرَ؛ وهو

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٣٨).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٣٥).

(٣) أي: أتبعه وعطف عليه.

(٤) محاسن التأويل (٣/ ٢٣١).

تدبُّرُ هذا القرآنِ المتناسِبِ المعاني، المُعجِزِ المَباني، الفائتِ لقُوىٰ المَخاليق، المُظهِرِ لخفاياهم علىٰ اجتهادِهم في إخفائها، فقال ﷻ دالًّا علىٰ وجوبِ النظرِ في القرآن، والاستخراجِ للمعاني منه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[١].

«الفاءُ» تفريعٌ علىٰ الكلامِ السابق المتعلِّق بهؤلاء المنافِقين أو الكفَرةِ الصُّرَحاء، وبتَوليِّهم، المعرَّضِ بهم في شأنِه بقولِه: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، وبقولِهم: ﴿طَاعَةٌ﴾، ثم تدبير العصيانِ فيما وُعِدوا بالطاعة في شأنه. ولمَّا كان ذلك كلُّه أثرًا مِن آثارِ استبطان الكفر، أو الشكِّ، أو اختيارِ ما هو في نظَرِهم أَوْلىٰ ممَّا أُمِروا به، وكان استمرارُهم علىٰ ذلك، مع ظهورِ دلائلِ الدِّين، مُنبِئًا بقلَّةِ تفهُّمِهم القرآنَ، وضَعْفِ استفادتهم؛ كان المَقامُ لتفريعِ الاستفهام عن قلَّةِ تفهُّمِهم؛ فالاستفهامُ إنكاريٌّ للتوبيخِ والتعجيب منهم في استمرارِ جهلِهم مع توفُّرِ أسباب التدبيرِ لديهم، تحدَّىٰ اللهُ تعالىٰ هؤلاء بمعاني القرآن كما تحدَّاهم بألفاظِه؛ لبلاغتِه؛ إذ كان المنافقون قد شَكُّوا في أنَّ القرآنَ مِن عندِ الله؛ فلذلك يُظهِرون الطاعةَ بما يأمرهم به، فإذا خرَجوا مِن مجلسِ النَّبيءِ ﷺ، خالَفوا ما أمَرهم به؛ لعدمِ ثقتِهم، ويشكِّكون ويشُكُّون إذا بَدَا لهم شيءٌ مِن التعارض، فأمَرهم اللهُ تعالىٰ بتدبُّرِ القرآن[٢].

لمَّا حكىٰ عن المنافِقين أنواعَ مكرِهم وكيدهم، وكان كلُّ ذلك لأجلِ أنَّهم ما كانوا يعتقدون كونَه محقًّا في ادعاءِ الرسالة، صادقًا فيه، بل كانوا يعتقدون أنَّه مُفْتَرٍ متخرِّصٍ؛ فلا جرَمَ أمَرهم اللهُ تعالىٰ بأن ينظُروا ويَتفكَّروا في الدلائلِ الدالة علىٰ

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٣٩، ٣٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٣٧).

صـحَّةِ نبوَّتِـه، فقـال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾، فاحتَجَّ تعالىٰ بالقرآنِ علىٰ صحَّة نبوَّته[1].

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ لعلَّه جوابُ سؤالٍ نشأ مِن جعلِ الله تعالىٰ شهيدًا؛ كأنَّه قيل: شَهادةُ اللهِ تعالىٰ لا شُبْهةَ فيها، ولكن مِن أين يُعلَمُ أنَّ ما ذكرَته شهادةُ اللهِ تعالىٰ مَحْكيَّةً عنه؟! فأجاب سبحانه بقولِه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾، وأصلُ التدبُّرِ التأمُّلُ في أدبارِ الأمور وعواقبِها، ثم استُعمل في كلِّ تأمُّلٍ، سواءٌ كان نظرًا في حقيقةِ الشيء وأجزائه، أو سوابقِه وأسبابه، أو لواحقِه وأعقابه، و«الفاء» للعطفِ علىٰ مقدَّرٍ؛ أي: أيشُكُّون في أنَّ ما ذُكِر شَهادةُ الله تعالىٰ؟ فلا يَتدبَّرون القرآنَ الذي جاء به هذا النبيُّ ﷺ المشهودُ له؛ ليَعلَموا كونَه مِن عندِ الله، فيكونَ حُجَّةً -وأيُّ حجَّةٍ؟- علىٰ المقصود[2].

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ إنكارٌ واستقباح لعدمِ تدبُّرِهم القرآن، وإعراضِهم عن التأمل فيما فيه مِن موجِباتِ الإيمان الصادقِ، المؤدي إلىٰ الطاعة الحَقَّةِ التي أُمِروا بها في الآيات السابقة.

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾

ولمَّا أمَر ﷻ بالنَّفرِ إلىٰ الجهادِ علىٰ الحزمِ والحذَرِ، وأَوْلاه الإخبارَ بأنَّ مِن الناسِ المغرِّرَ والمخذِّلَ، تصريحًا بالثاني، وتلويحًا إلىٰ الأول، وحذَّر منهما ومِن غيرِهما، إلىٰ أن ختَم بأمرِ الماكرين، وبأنَّ القرآنَ قيِّمٌ لا عِوَجَ فيه؛ ذكَر أيضًا المخذِّلِينَ

---

(١) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٥١).

(٢) روح المعاني (٣/ ٨٩).

والمغرِّرين علىٰ وجهٍ أصرَحَ مِن الأولِ، مبيِّنًا ما كان عليهم، فقال: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ حكىٰ عن المنافِقين في هذه الآيةِ نوعًا آخَرَ مِن الأعمالِ الفاسدة؛ وهو أنَّه إذا جاءهم الخبَرُ بأمرٍ مِن الأمور -سواءٌ كان ذلك الأمرُ مِن باب الأمنِ، أو مِن باب الخوف-، أذاعُوه وأفشَوْه[2].

بعد أن دعَا في الآيةِ السابقة إلىٰ التدبُّرِ والتفكر والنظر، أنكَر هنا علىٰ مَن يبادِرُ إلىٰ إشاعةِ الأخبار قبل أن يَتحقَّقَ منها، فيُخبِرُ بها ويُفشِيها وينشُرُها بَيْنَ الناس، وقد تكونُ غيرَ صحيحةٍ أو يترتبُ علىٰ نشرِها مفاسدُ كبرىٰ تضُرُّ المسلمين.

﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا (٨٤)﴾

لمَّا بيَّن ﷻ نفاقَهم المقتضيَ لتقاعُدِهم عن الجهاد بأنفسهم وتنشيطِهم لغيرهم، كان ذلك سببًا لأن يَمضِيَ ﷺ لأمرِه ﷻ مِن غيرِ التفاتٍ إليهم، وافقوا أو نافقوا، فقال ﷻ بعد الأمرِ بالنَّفْرِ ثُباتٍ وجميعًا، وبيانِ أنَّ منهم المبطِّئَ، مشيرًا إلىٰ أنَّ الأمر باقٍ وإن بطَّأ الكلُّ: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٤١).

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٥٣).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٣٤٤، ٣٥٤).

تفريعٌ علىٰ ما تقدَّم مِن الأمرِ بالقتال، ومِن وصفِ المثبِّطِينَ عنه، والمتذمِّرين منه، والذين يَفتِنون المؤمنين في شأنه؛ لأنَّ جميعَ ذلك قد أفاد الاهتمامَ بأمرِ القتال، والتحريضَ عليه، فتهيَّأ الكلامُ لتفريعِ الأمر به. ولك أن تجعلَ الفاءَ فصيحةً بعد تلك الجُمَلِ الكثيرة؛ أي: إذا كان كما عَلِمْتَ، ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ﴾، وهذا عَوْدٌ إلىٰ ما مضىٰ مِن التحريضِ علىٰ الجهاد، وما بينهما اعتراضٌ؛ فالآيةُ أوجَبتْ علىٰ الرسول ﷺ القتالَ، وأوجَبتْ عليه تبليغَ المؤمنين الأمرَ بالقتال، وتحريضَهم عليه[1].

لمَّا ذكَر في الآياتِ قبلها تثبيطَهم عن القتال، واستطرَد مِن ذلك إلىٰ أنَّ الموتَ يدرِكُ كلَّ أحدٍ، ولو اعتصَم بأعظَمِ معتصِمٍ؛ فلا فائدةَ في الهربِ مِن القتال، وأتبَع ذلك بما أتبَع مِن سُوءِ خطاب المنافِقين للرسول ﷺ، وفعلِهم معه مِن إظهارِ الطاعة بالقول وخلافِها بالفعل، وبكَّتَهم في عدمِ تأمُّلِهم ما جاء به الرسولُ ﷺ مِن القرآنِ الذي فيه كُتِب عليهم القتالُ؛ عاد إلىٰ أمرِ القتال، وهكذا عادةُ كلامِ العرب؛ تكونُ في شيءٍ، ثم تستطرِدُ مِن ذلك إلىٰ شيءٍ آخَرَ له به مناسبةٌ وتعلُّقٌ، ثم تعُودُ إلىٰ ذلك الأولِ[2].

لمَّا أمَر بالجهاد، ورغَّب فيه أشَدَّ الترغيبِ في الآيات المتقدِّمة، وذكَر في المنافِقين قلَّةَ رَغْبتِهم في الجهاد، بل ذكَر عنهم شِدَّةَ سعيِهم في تثبيطِ المسلمين عن الجهاد؛ عاد في هذه الآيةِ إلىٰ الأمر بالجهاد، فقال: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ﴾[3].

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ﴾ تلوينٌ للخطاب، وتوجيهٌ له إلىٰ رسولِ الله ﷺ بطريقِ الالتفاتِ، وهو جوابُ شرطٍ محذوفٍ ينساقُ إليه النَّظْمُ

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٤٢).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٧٣١).

(٣) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٥٧).

الكريم؛ أي: إذا كان الأمرُ كما حُكِي مِن عدمِ طاعة المنافِقين، وكيدِهم، وتقصيرِ الآخَرين في مراعاة أحكامِ الإسلام؛ فقاتِلْ أنتَ وَحْدَكَ غيرَ مكترثٍ بما فعَلوا[1].

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾

لمَّا كان ذلك موجِبًا للرغبة في طاعةِ النبي ﷺ، لا سيَّما في الجهادِ، وللرغبة فيمَن كان بصفةِ المؤمنين مِن الإقبالِ علىٰ الطاعة، والإعراضِ عن كلِّ مَن كان بصفةِ المنافِقين، والإدامةِ لطَرْدِهم وإبعادِهم والغِلْظةِ عليهم والحذَرِ مِن مجالَستِهم حتىٰ يَتبيَّنَ إخلاصُهم، وكان بَيْنَ كثيرٍ مِن خُلَّصِ الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم وبَيْنَهم قراباتٌ توجِبُ العطفَ المقتضيَ للشفقة عليهم، الحاملةِ للشفاعة فيهم؛ إمَّا بالإذنِ في التخلُّفِ عن الجهاد؛ لِما يُزَخْرِفون القولَ مِن الأعذارِ الكاذبة، أو في العفوِ عنهم عند العثور علىٰ نقائِصِهم، أو في إعانتِهم أو إعانةِ غيرِهم بالمال والنفس في أمرِ الجهاد عند ادعاءِ أنَّ المانعَ له عنه العجزُ، وفي غيرِ ذلك، وكانت التوبةُ معروضةً لهم ولغيرهم، وكان البِرُّ ما سكَن إليه القلبُ، والإثمُ ما حاكَ في الصَّدْرِ، والإنسانُ علىٰ نفسِه بصيرةٌ، وكانت البواطنُ لا يَعلَمُها إلا اللهُ سبحانه وتعالى، وكان الإنسان ربما أظهَرَ شرًّا في صورةِ خيرٍ؛ رغَّب سبحانه وتعالى في البِرِّ، وحذَّر مِن الإثم بقولِه - معمِّمًا مستأنِفًا في جوابِ مَن كأنَّه قال: أمَا تُقبَلُ فيهم شفاعةٌ؟! -: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾[2].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٠٩).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٣٤٧، ٣٤٨).

استئنافٌ فيه معنى التذييلِ والتعليل لقوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهو بشارةٌ للرسول ﷺ بأنَّ جهادَ المجاهِدِين بدَعْوتِه يَنالُه منه نصيبٌ عظيم مِن الأجر؛ فإنَّ تحريضَه إيَّاهم وساطةٌ بهم في خيراتٍ عظيمة، فجاءت هذه الآيةُ بهذا الحُكْمِ العامِّ على عادة القرآن في انتهازِ فُرَصِ الإرشاد، ويُعلَمُ مِن عمومها أنَّ التحريضَ على القتالِ في سبيل الله مِن الشفاعةِ الحسنة، وأنَّ سَعْيَ المثبِّطِين للناس مِن قَبيلِ الشفاعة السيئة؛ فجاءت هذه الآيةُ إيذانًا للفريقينِ بحالتهما، والمقصودُ مع ذلك الترغيبُ في التوسُّطِ في الخير، والترهيبُ مِن ضدِّه(١).

اعلَمْ أنَّ في تعلُّقِ هذه الآيةِ بما قبلها وجوهًا: الأول: أنَّ اللهَ تعالى أمَر الرسول ﷺ بأن يحرِّضَ الأمَّةَ على الجهاد، والجهادُ مِن الأعمالِ الحسنة، والطاعاتِ الشريفة، فكان تحريضُ النبي ﷺ للأمَّةِ على الجهاد تحريضًا منه لهم على الفعلِ الحسن، والطاعةِ الحسنة؛ فبيَّن تعالى في هذه الآيةِ أنَّ ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾، والغرضُ منه بيانُ أنَّه عليه الصلاة والسلام لمَّا حرَّضهم على الجهاد، فقد استحَقَّ بذلك التحريضِ أجرًا عظيمًا. الثاني: أنَّه تعالى لمَّا أمَره بتحريضِهم على الجهاد، ذكَر أنَّهم لو لم يَقبَلوا أمره، لم يَرجِعْ إليه مِن عصيانِهم وتمرُّدهم عيبٌ، ثم بيَّن في هذه الآيةِ أنَّهم لمَّا أطاعوا وقَبِلوا التكليفَ، رجَع إليهم مِن طاعتهم خيرٌ كثير، فكأنَّه تعالى قال للرسول ﷺ: حرِّضْهم على الجهاد، فإن لم يَقبَلوا قولَك، لم يكُنْ مِن عصيانهم عتابٌ لك، وإن أطاعوك، حصَل لك مِن طاعتِهم أعظَمُ الثواب؛ فكان هذا ترغيبًا مِن اللهِ لرسوله ﷺ في أن يجتهِدَ في تحريضِ الأمَّةِ على الجهاد، والسببُ في أنَّه عليه الصلاة والسلام كان يَرجِعُ إليه عند طاعتِهم أجرٌ عظيم، وما كان يَرجِعُ إليه مِن معصيتهم شيءٌ مِن

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٤٣).

الوِزْر: هو أنَّه ﷺ بذَل الجُهْدَ في ترغيبِهم في الطاعة، وما رغَّبهم البتَّةَ في المعصيةِ؛ فلا جرَمَ يَرجِعُ إليه مِن طاعتهم أجرٌ، ولا يَرجِع إليه مِن معصيتِهم وِزْرٌ. الثالث: يجوز أن يقالَ: إنَّه ﷺ لمَّا كان يرغِّبُهم في القتال، ويبالِغُ في تحريضهم عليه، فكان بعضُ المنافِقين يَشفَع إلىٰ النبي ﷺ في أن يأذَنَ لبعضِهم في التخلُّفِ عن الغزو، فنهىٰ اللهُ عن مثلِ هذه الشفاعةِ، وبيَّن أنَّ الشفاعةَ إنَّما تحسُنُ إذا كانت وسيلةً إلىٰ إقامةِ طاعة الله، فأمَّا إذا كانت وسيلةً إلىٰ معصيته، كانت محرَّمةً منكَرة. الرابع: يجوزُ أن يكونَ بعضُ المؤمنين راغبًا في الجهاد، إلا أنَّه لم يَجِدْ أُهْبةَ(١) الجهاد، فصار غيرُه مِن المؤمنين شفيعًا له إلىٰ مؤمنٍ آخَرَ ليُعِينَه علىٰ الجهاد، فكانت هذه الشفاعةُ سعيًا في إقامةِ الطاعة، فرغَّب اللهُ تعالىٰ في مثلِ هذه الشفاعةِ. وعلىٰ جميعِ الوجوه، فالآيةُ حسنةُ الاتصال بما قبلها(٢).

جملةٌ مستأنَفة سِيقت لبيانِ أنَّ له ﷺ فيما أمَر به مِن تحريض المؤمنين حظًّا موفورًا؛ فإنَّ الشفاعةَ هي التوسُّطُ بالقول في وصولِ شخصٍ إلىٰ منفعةٍ مِن المنافع الدُّنيوية أو الأُخْروية، أو خلاصِه مِن مضرَّةٍ ما كذلك، مِن الشَّفْعِ؛ كأنَّ المشفوعَ له كان فردًا فجعَله الشفيعُ شَفْعًا، والحسنةُ منها ما كانت في أمرٍ مشروع رُوعِيَ بها حقُّ مسلمٍ ابتغاءَ لوجهِ الله تعالىٰ مِن غيرِ أن يَتضمَّنَ غرضًا مِن الأغراضِ الدنيوية، وأيُّ منفعةٍ أجَلُّ ممَّا قد حصَل للمؤمنين بتحريضه ﷺ علىٰ الجهاد مِن المنافعِ الدنيوية والأخروية؟ وأيُّ مَضرَّةٍ أعظَمُ ممَّا تخلَّصوا منه بذلك مِن التثبُّطِ عنه؟ ويندرج فيها الدعاءُ للمسلم؛ فإنَّه شفاعةٌ إلىٰ الله سبحانه، وعليه مَساقُ آيةِ التحيَّةِ الآتية(٣).

---

(١) أي: عُدته.

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٥٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢١٠).

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ٨٦ ﴾

لمَّا كان ذلك موجِبًا للإعراض عنهم رأسًا، ومنابَذتِهم قولًا وفعلًا، وبيَّن ﷻ أنَّ التحيةَ ليست مِن وادي الشفاعة، وأنَّ الشفاعةَ تابعةٌ للعمل، والتحيَّةَ تابعةٌ للظاهر؛ فقال ﷻ عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فلا تَشفَعوا فيهم وأنتم تعلَمون سُوءَ مقاصدِهم، فقال - معبرًا بأداة التحقُّقِ بشارةً لهم بأنَّهم يَصِيرون بعد ما هم فيه الآن مِن النَّكَدِ ملوكًا، وفي حُكْمِ الملوك، يُحَيَّوْنَ ويُشفَعُ عندهم، وحثًّا علىٰ التواضع -: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾ باعتبار ما قُصِد مِن الجملة المعطوفة عليها، وهو الترغيبُ في الشفاعةِ الحسنة، والتحذيرُ مِن الشفاعة السيئة، وذلك يتضمَّنُ الترغيبَ في قَبولِ الشفاعة الحسنة، وردِّ الشفاعة السيئة. وإذ قد كان مِن شأنِ الشفيع أن يدخُلَ علىٰ المستشفَعِ إليه بالسلام استئناسًا له لقَبولِ الشفاعة، فالمناسبةُ في هذا العطفِ هي أنَّ الشفاعةَ تقتضي حضورَ الشفيع عند المشفوع إليه، وأنَّ صفةَ تَلَقِّي المشفوعِ إليه للشفيع تؤذِنُ بمقدارِ استعداده لقَبولِ الشفاعة، وأنَّ أولَ بوادرِ اللقاء هو السلامُ وردُّه؛ فعلَّم اللهُ المسلمين أدَبَ القَبولِ واللقاء في الشفاعةِ وغيرها، وقد كان للشفاعاتِ عندهم شأنٌ عظيم، وفي الحديثِ: «مَرَّ رجُلٌ، فقال رسولُ الله: ماذا تقولون فيه؟ قالوا: هذا جديرٌ إن شفَع أن يُشفَّعَ»[(٢)] الحديثَ، حتىٰ إذا قَبِل المستشفَعُ إليه الشفاعةَ، كان قد طيَّب خاطرَ الشفيع، وإذا لم يَقبَلْ، كان في حُسْنِ التحية مَرْضاةٌ له علىٰ الجملة؛ وهذا دأبُ القرآنِ في انتهاز فُرَصِ الإرشادِ والتأديب.

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٥٠، ٣٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٩١).

وبهذا البيانِ تنجلي عنك الحَيْرةُ التي عرَضتْ في توجيهِ انتظام هذه الآيةِ مع سابقتها، وتستغني عن الالتجاءِ إلىٰ المناسبات الضعيفة التي صاروا إليها[(١)].

في النَّظْمِ وجهان: الأول: أنَّه لمَّا أمَر المؤمنين بالجهاد، أمَرهم أيضًا بأنَّ الأعداءَ لو رَضُوا بالمسألة، فكونوا أنتم أيضًا راضِينَ بها؛ فقولُه: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾. الثاني: أنَّ الرجُلَ في الجهاد كان يَلْقاه الرجُلُ في دارِ الحربِ أو ما يقارِبُها فيسلِّمُ عليه، فقد لا يلتفِتُ إلىٰ سلامه عليه ويقتُلُه، وربما ظهَر أنَّه كان مسلِمًا؛ فمنَع اللهُ المؤمنين عنه، وأمَرهم أنَّ كلَّ مَن يسلِّمُ عليهم ويُكرِمُهم بنوعٍ مِن الإكرام يقابِلونه بمثلِ ذلك الإكرامِ أو أزيَدَ؛ فإنَّه إن كان كافرًا لا يضُرُّ المسلِمَ أن قابَلَ إكرامَ ذلك الكافرِ بنوعٍ مِن الإكرام، أمَّا إن كان مسلمًا وقتَله، ففيه أعظَمُ المَضارِّ والمفاسد[(٢)].

إنَّه لمَّا كان المرادُ بالسلام المسالَمةَ التي هي ضدُّ الحرب، وقد تقدَّم ذِكْرُ القتال؛ عقَّبه به؛ للإشارةِ إلىٰ الكفِّ عمَّن ألقىٰ إلىٰ المؤمنين السَّلَمَ، وحيَّاهم بتحيَّةِ الإسلام[(٣)].

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ ترغيبٌ في فردٍ شائع مِن أفرادِ الشفاعة الحسنة، إثْرَ ما رغَّب فيها علىٰ الإطلاق، وحذَّر عمَّا يقابِلُها مِن الشفاعةِ السيئة، وإرشادٌ إلىٰ توفيةِ حقِّ الشفيع، وكيفيَّةِ أدائه؛ فإنَّ تحيَّةَ الإسلامِ مِن المسلم شفاعةٌ منه لأخيه إلىٰ الله تعالىٰ[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٤٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٦١).

(٣) روح المعاني (٣/ ٩٥).

(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢١٠).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾

ثم علَّل ذلك بقولِه دالًّا على تلازُمِ التوحيدِ والعدل: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾(١).

استئنافٌ ابتدائيٌّ، جمَع تمجيدَ الله، وتهديدًا وتحذيرًا مِن مخالفةِ أمرِه، وتقريرًا للإيمانِ بيوم البعثِ، وردًّا لإشراكِ بعضِ المنافِقين وإنكارِهم البعثَ(٢).

في كيفيَّةِ النَّظْمِ وجهان: الأول: بيَّنَّا أنَّ المقصودَ مِن قوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾ ألا يَصِيرَ الرجُلُ المسلم مقتولًا، ثم إنَّه تعالى أكَّد ذلك بالوعيدِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾، ثم بالَغ في تأكيد ذلك الوعيدِ بهذه الآيةِ؛ فبيَّن في هذه الآيةِ أنَّ التوحيدَ والعدل متلازِمان؛ فقولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إشارةٌ إلى التوحيد، وقولُه: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إشارةٌ إلى العدل. الثاني: كأنَّه تعالى يقول: مَن سلَّم عليكم وحيَّاكم، فاقبَلوا سلامَه، وأكرِموه، وعامِلوه بِناءً على الظاهرِ؛ فإنَّ البواطنَ إنَّما يَعرِفُها اللهُ الذي لا إلهَ إلا هو، إنَّما تنكشِفُ بواطنُ الخَلْقِ للخَلْقِ في يومِ القيامة(٣).

لمَّا تقدَّم الإنذارُ والتحذير الذي تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾، تلاه مقوِّيًا له الإعلامُ بصفةِ الرُّبوبيَّة وحالِ الوَحْدانيَّة، والإعلامُ بالحشرِ والبعث مِن القبورِ للثواب والعقاب(٤).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٥٢).
(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٤٨).
(٣) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٦٧).
(٤) المحرر الوجيز (٢/ ٨٧).

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا (٨٨) ﴾

وإذ قد تحرَّر بما مضىٰ أنَّ المنافِقين كفرةٌ، لا لَبْسَ في أمرِهم، وكشَف ﷻ الحُكْمَ في باطنِ أمرهم بالشفاعة، وظاهرِه بالتحيَّةِ، وحذَّر مَن خالَف ذلك بما أوجَبْتهُ علىٰ نفسِه حِكْمتُه مِن الجمعِ ليومِ الفصل، للحُكْمِ بالعدل، وختَم بأنَّ الخبَرَ عنهم وعن جميعِ ذلك صِدْقٌ؛ كان ذلك سببًا لجزمِ القول بشَقاوتِهم، والإعراضِ عنهم، والبُعْدِ عن الشفاعة فيهم، والإجماع علىٰ ذلك مِن كلِّ مؤمنٍ، وإن كان مَبنَىٰ السُّورةِ علىٰ التواصل؛ لأنَّ ذلك إنَّما هو حيث لا يؤدي إلىٰ مقاطَعةِ أمرِ الله، فقال تعالىٰ - مبكِّتًا لِمَن توقَّف عن الجزمِ بإبعادهم -: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[1].

تفريعٌ عن أخبارِ المنافِقين التي تقدَّمتْ؛ لأنَّ ما وُصِف مِن أحوالهم لا يترُكُ شكًّا عند المؤمنين في خُبْثِ طويَّتِهم وكفرِهم، أو هو تفريعٌ عن قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾، وإذ قد حدَّث اللهُ عنهم بما وصَف مِن سابقِ الآيِ، فلا يَحِقُّ التردُّدُ في سُوءِ نواياهم وكفرِهم[2].

اعلَمْ أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن أحوالِ المنافِقين ذكَره اللهُ تعالىٰ[3].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٤٨).

(٣) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٦٨).

﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩ ﴾

ولمَّا أخبَر بضَلالِهم وثَباتِهم عليه، أعلَمَ بإعراقِهم[1] فيه، فقال: ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ ﴾[2].

الأظهَرُ أنَّ ضميرَ ﴿ وَدُّواْ ﴾ عائدٌ إلىٰ المنافِقين في قوله: ﴿ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ ﴾، فضَح اللهُ هذا الفريقَ، فأعلَمَ المسلمين بأنَّهم مُضمِرون الكفرَ، وأنَّهم يحاوِلون رَدَّ مَن يستطيعون رَدَّه مِن المسلمين إلىٰ الكفر[3].

لمَّا قال قبل هذه الآيةِ: ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾، وكان ذلك استفهامًا علىٰ سبيلِ الإنكار؛ قرَّر ذلك الاستبعادَ بأن قال: إنَّهم بلَغوا في الكفر إلىٰ أنَّهم يَتمنَّوْنَ أن تَصِيروا أيُّها المسلمون كفارًا، فلمَّا بلَغوا في تعصُّبِهم في الكفرِ إلىٰ هذا الحدِّ، فكيف تَطمَعون في إيمانهم؟![4].

﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ ﴾ كلامٌ مستأنَف مسُوقٌ لبيانِ غلوِّهم وتَماديهم في الكفرِ، وتَصدِّيهم لإضلالِ غيرهم، إثرَ بيانِ كفرِهم وضَلالهم في أنفسهم[5].

---

(١) أي: رسوخهم وتوغلهم.

(٢) نظم الدرر (٥/ ٣٥٥).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ١٥١).

(٤) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٧٠).

(٥) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢١٣).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠﴾

لمَّا كان ﷻ قد أمَر فيهم علىٰ تقديرِ تولِّيهم بما أمَر، استثنىٰ منه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾(١).

الاستثناءُ مِن الأمرِ في قولِه: ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾؛ أي: إلا الذين آمَنوا ولم يهاجِروا، أو إلا الذين ارتدُّوا علىٰ أدبارِهم إلىٰ مكَّةَ بعد أن هاجَروا، وهؤلاء يَصِلون إلىٰ قومٍ ممَّن عاهَدوكم؛ فلا تَتعرضوا لهم بالقتل؛ لئلا تنقُضوا عهودَكم المنعقِدة مع قومهم(٢).

ثم استثنىٰ عن أَسْرِ المرتدِّين وقَتْلِهم بقولِهم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾(٣).

ثم إنَّ اللهَ استثنىٰ مِن قتالِ هؤلاء المنافِقين ثلاثَ فِرَق: فِرْقتينِ أمَر بتركِهم، وحتَّم علىٰ ذلك؛ إحداهما: مَن يصلُ إلىٰ قومٍ بينهم وبين المسلمين عهدٌ وميثاق بتَرْكِ القتال فينضمُّ إليهم، فيكونُ له حُكْمُهم في حَقْنِ الدمِ والمال، والفِرقةُ الثانية: قومٌ ﴿حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾؛ أي: بقُوا، لا تَسمَحُ أنفسُهم

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٥٧).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٥٢).

(٣) محاسن التأويل (٣/ ٢٥٣).

بقتالكم، ولا بقتالِ قومهم، وأحَبُّوا تَرْكَ قتالِ الفريقينِ؛ فهؤلاء أيضًا أمَر بتركِهم، وذكَر الحِكْمةَ في ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾؛ فإنَّ الأمورَ الممكِنة ثلاثةُ أقسامٍ: إمَّا أن يكونوا معكم ويقاتِلوا أعداءكم؛ وهذا متعذِّرٌ مِن هؤلاء، فدارَ الأمرُ بَيْنَ قتالِكم مع قومهم وبَيْنَ تركِ قتال الفريقين؛ وهو أهونُ الأمرينِ عليكم، واللهُ قادرٌ علىٰ تسليطِهم عليكم؛ فاقبَلوا العافيةَ، واحمَدوا ربَّكم الذي كَفَّ أيديَهم عنكم مع التمكُّنِ مِن ذلك؛ فهؤلاء إن ﴿ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾[١].

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

لمَّا كان كأنَّه قيل: هل بَقِيَ مِن أقسامِ المنافِقين شيءٌ؟ قيل: نعم! ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾[٢].

هؤلاء فريقٌ آخَرُ لا سَعْيَ لهم إلا في خُوَيْصِّتِهم، ولا يَعبَؤون بغيرِهم؛ فهم يُظهِرون المودَّةَ للمسلمين ليأمَنوا غَزْوَهم، ويُظهِرون الوُدَّ لقومهم ليأمَنوا غائلتَهم، وما هم بمخلِصينَ الوُدَّ لأحدِ الفريقينِ؛ ولذلك وُصِفوا بإرادةِ أن يأمَنوا مِن المؤمنين ومِن

---

(١) تفسير السعدي (ص: ١٩٢).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٣٥٩).

قومِهم، فلا هَمَّ لهم إلا حظوظُ أنفسِهم، يَلتحقون بالمسلمين في قضاءِ لُبانَاتٍ(١) لهم فيُظهِرون الإيمان، ثم يَرجِعون إلىٰ قومِهم فيرتدُّون إلىٰ الكفر(٢).

لمَّا ذكَر صفةَ المُحِقِّينَ في المُتارَكةِ، المُجدِّين في إلقاء السَّلَم؛ نبَّه علىٰ طائفةٍ أخرىٰ مخادِعة، يريدون الإقامةَ في مواضعِهم مع أهليهم، يقولون لهم: نحن معكم وعلىٰ دِينكم، ويقولون للمسلمين كذلك إذا وفَدوا(٣).

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

لمَّا بيَّن أقسامَهم بيانًا ظهَر منه أنَّ أحوالَهم مُلبِسةٌ، وأمَر بقتالهم مع الاجتهاد في تعرُّفِ أحوالهم، وختَم بالتسلُّطِ عليهم، وكان ربما قُتِل مَن لا يستحِقُّ القتلَ بسبب الإلباس؛ أتبَع ذلك بقولِه المرادِ به التحريمُ -مخرجًا له في صورةِ النفيِ المؤكَّدِ بالكون لتغليظِ الزَّجْرِ عنه؛ لِما للنفوس عند الحظوظِ مِن الدواعي إلىٰ القتل-: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ

---

(١) أي: حاجات.

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٥٤، ١٥٥).

(٣) البحر المحيط (٤/ ١٦).

إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾(١).

انتقالُ الغرضِ يُعِيدُ نشاطَ السامع بتفنُّنِ الأغراض، فانتقَل مِن تحديدِ أعمال المسلمين مع العدوِّ إلىٰ أحكامِ معاملة المسلمين بعضِهم مع بعضٍ؛ مِن وجوبِ كفِّ عدوانِ بعضِهم علىٰ بعضٍ. والمناسبةُ بَيْنَ الغرضِ المنتقَلِ منه والمنتقَلِ إليه: أنَّه قد كان الكلامُ في قتالِ المتظاهِرين بالإسلام الذين ظهَر نفاقُهم؛ فلا جرَمَ أن تَتشوَّفَ النفسُ إلىٰ حُكْمِ قتلِ المؤمنين الخُلَّصِ(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا رغَّب في مقاتَلةِ الكفار، وحرَّض عليها؛ ذكَر بعد ذلك بعضَ ما يتعلقُ بهذه المحارَبةِ؛ فمنها أنَّه تعالىٰ لمَّا أَذِن في قتلِ الكفار، فلا شكَّ أنَّه قد يتفقُ أن يَرىٰ الرجُلُ رجُلًا يظُنُّه كافرًا حربيًّا فيقتُلَه، ثم يَتبيَّن أَنَّه كان مسلمًا، فذكَر اللهُ تعالىٰ حُكْمَ هذه الواقعةِ في هذه الآيةِ(٣).

شروعٌ في بيانِ حال المؤمنين بعد بيانِ حال الكافرين والمنافِقين، وقيل: لمَّا رغَّب سبحانه في قتالِ الكفار، ذكَر إثرَه ما يتعلقُ بالمحارَبةِ في الجملة(٤).

﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴿٩٣﴾ ﴾

لمَّا ساقَ تعالىٰ الخطأَ مساقَ ما هو للفاعل منفِّرًا عنه هذا التنفيرَ، ناسَب كلَّ المناسبة أن يذكُرَ ما ليس له مِن ذلك؛ إذ كان ضبطُ النفسِ بعد إرسالها شديدًا، فربما

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٥٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٧٤).

(٤) روح المعاني (٣/ ١٠٨).

سهَّلَتْ قَتْلَ مَن تحقَّقَ إسلامُه إِحْنَةٌ[١]، وجرَّتْ إليه ضغينةٌ، وقوَّتِ الشبهَ فيه شِدَّةُ شَكيمةٍ، ولعَمْري إنَّ الحَمْلَ على الكفِّ بعد الإرسال أصعَبُ مِن الحملِ على الإقدام! وإنَّما يَعرِفُ ذلك مَن جرَّب النفوسَ حالَ الإشراف على الظَّفَرِ، واللذاذةِ بالانتقام مع القُوى والقدرة، فقال: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[٢].

هذا هو المقصودُ مِن التشريعِ لأحكام القتل؛ لأنَّه هو المتوقَّعُ حصولُه مِن الناس، وإنَّما أُخِّر لتهويلِ أمره[٣].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا ذكَر حُكْمَ القتلِ الخطأ، ذكَر بعده بيانَ حُكْمِ القتل العمدِ، وله أحكامٌ؛ مثلُ: وجوبِ القِصاص، والدِّيَة، وقد ذكَر تعالى ذلك في سورةِ «البقرة»؛ فلا جرَمَ ها هنا اقتصَر على بيانِ ما فيه مِن الإثم والوعيد[٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾

لمَّا تبيَّنَ بهذا المنعُ الشديد مِن قتلِ العمد، وما في قتلِ الخطأ مِن المؤاخَذةِ الموجِبة للتثبُّت، وكان الأمرُ قد برَز بالقتالِ والقتل في الجهاد، ومؤكَّدًا بأنواع التأكيد، وكان ربما التبَس الحالُ؛ أتبَع ذلك التصريحَ بالأمر بالتثبُّت جوابًا لِمَن كأنَّه

---

(١) أي: حقد.

(٢) نظم الدرر (٥/ ٣٦٤).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ١٦٣).

(٤) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٨٢).

قال: ماذا نفعلُ بَيْنَ أمرَيِ الإقدامِ والإحجام؟ فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[١].

استئنافٌ ابتدائيٌّ، خوطب به المؤمنون استقصاءً للتحذير مِن قَتْلِ المؤمن بذِكْرِ أحوالٍ قد يُتساهل فيها، وتَعرِضُ فيها شُبَهٌ؛ والمناسبةُ: ما رواه البخاريُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: «كان رجُلٌ في غُنَيمةٍ له، فلَحِقه المسلمون، فقال: السلامُ عليكم، فقتَلوه وأخَذوا غُنيمتَه؛ فأنزَل اللهُ في ذلك هذه الآيةَ»[٢]، وفي روايةٍ: «وقال: لا إلهَ إلا اللهُ، محمَّدٌ رسولُ الله»[٣][٤].

أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر جزاءَ مَن قتَل مؤمنًا متعمِّدًا وأنَّ له جهنَّمَ، وذكَر غضَبَ اللهِ عليه ولَعْنَتَهُ وإعدادَ العذابِ العظيم له؛ أمَر المؤمنين بالتثبُّتِ والتبيُّن، وألا يُقدِمَ الإنسانُ علىٰ قتلِ مَن أظهَرَ الإيمانَ، وألا يَسفِكوا دمًا حرامًا بتأويلٍ ضعيف، وكرَّر ذلك آخِرَ الآية تأكيدًا ألا يُقدِمَ عند الشُّبَهِ والإشكال حتىٰ يتَّضِحَ له ما يُقدِمُ عليه[٥].

شروعٌ في التحذيرِ عمَّا يوجِبُ الندَمَ مِن قتلِ مَن لا ينبغي قتلُه[٦].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٩١)، ومسلم (٣٠٢٥).

(٣) أخرجه الطبراني في "الكبير" (١٢٣٧٩).

(٤) التحرير والتنوير (٥/ ١٦٦).

(٥) البحر المحيط (٤/ ٣١).

(٦) روح المعاني (٣/ ١١٤).

📖 ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ 📖

لمَّا ناسَبتْ هذه الآيةُ ما قبلها مِن آيةِ القتلِ العمد، والتفتتْ إلىٰ ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وإلىٰ آيةِ التحيَّةِ، فاشتَدَّ اعتناقُها لهما، وعُلِم بها أنَّ في الضَّرْبِ في سبيل الله هذا الخطَرَ، فكان ربما فُتِّر عنه؛ بيَّن فَضْلَه لِمَن كأنَّه قال: فحينئذٍ نقعُدُ عن الجهادِ لنسلَمَ! بقولِه: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١).

لمَّا لامَ اللهُ بعضَ المجاهِدين علىٰ ما صدَر منهم مِن التعمُّقِ في الغايةِ مِن الجهاد، عقَّب ذلك ببيانِ فضلِ المجاهِدين؛ كيلا يكونَ ذلك اللَّوْمُ موهِمًا انحطاطَ فضيلتهم في بعضِ أحوالهم؛ علىٰ عادةِ القرآن في تعقيبِ النِّذارةِ بالبشارة؛ دفعًا لليأسِ مِن الرحمة عن أنفُسِ المسلمين (٢).

أنَّه تعالىٰ لمَّا رغَّب المؤمنين في القتالِ في سبيل الله أعداءَ اللهِ الكفارَ، واستطرَد مِن ذلك إلىٰ قتلِ المؤمن خطأً وعمدًا بغيرِ تأويلٍ وبتأويل، فنهىٰ أن يُقدَمَ علىٰ قتلِه بتأويلٍ، بل أمَر بحَمْلِه علىٰ الإسلام إذا كان ظاهرُه يدلُّ علىٰ ذلك؛ ذكَر بيانَ فضلِ المجاهِدِ علىٰ القاعد، وبيانَ تفاوُتِهما، وأنَّ ذلك لا يَمنَعُ منه كونُ الجهادِ مَظِنَّةَ أن يُصِيبَ المجاهدُ مؤمنًا خطأً، أو مَن يُلقِي السَّلَمَ فيقتُلُه بتأويلٍ، فيتقاعَسُ عن الجهاد

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٦٨).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٦٩).

لهذه الشُّبْهةِ، فأتىٰ عَقِيبَ ذلك بفضلِ الجهاد وفوزِه بما ذُكِر في الآيةِ مِن الدرجاتِ والمغفرة، والرحمةِ والأجر العظيم؛ دفعًا لهذه الشُّبهة(١).

اعلَمْ أنَّ في كيفيَّةِ النَّظْمِ وجوهًا: الأول: ما ذكَرْناه أنَّه تعالىٰ لمَّا رغَّب في الجهاد، أتبَع ذلك ببيانِ أحكامِ الجهاد؛ فالنوعُ الأول مِن أحكام الجهاد: تحذيرُ المسلمين عن قتلِ المسلمين، وبيانُ الحالِ في قتلِهم علىٰ سبيلِ الخطأ كيف؟ وعلىٰ سبيلِ العمد كيف؟ وعلىٰ سبيلِ تأويل الخطأ كيف؟ فلمَّا ذكَر ذلك الحُكْمَ، أتبَعه بحُكْمٍ آخرَ؛ وهو بيانُ فضلِ المجاهِدِ علىٰ غيره؛ وهو هذه الآيةُ. الوجه الثاني: لمَّا عاتَبهم اللهُ تعالىٰ علىٰ ما صدَر منهم مِن قتلِ مَن تكلَّم بكلمةِ الشَّهادة، فلعلَّه يقعُ في قلبِهم أنَّ الأَوْلىٰ الاحترازُ عن الجهاد؛ لئلا يقعَ بسببِه في مثلِ هذا المحذورِ؛ فلا جرَمَ ذكَر اللهُ تعالىٰ في عَقِيبِه هذه الآيةَ، وبيَّن فيها فضلَ المجاهِدِ علىٰ غيره؛ إزالةً لهذه الشُّبهة. الوجه الثالث: أنَّه تعالىٰ لمَّا عاتَبهم علىٰ ما صدَر منهم مِن قتلِ مَن تكلَّم بالشَّهادة، ذكَر عَقِيبَه فضيلةَ الجهاد، كأنَّه قيل: مَن أتىٰ بالجهادِ، فقد فاز بهذه الدرجةِ العظيمة عند الله تعالىٰ؛ فليحترِزْ صاحبُها مِن تلك الهفوةِ؛ لئلا يُخِلَّ منصبَه العظيم في الدِّينِ بسببِ هذه الهفوةِ، والله أعلم(٢).

﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بيانٌ لتفاوتِ طبقات المؤمنين بحسَبِ تفاوتِ درجات مَساعيهم في الجهاد بعد ما مرَّ مِن الأمر به، وتحريضِ المؤمنين عليه؛ ليأنَفَ القاعدُ عنه، ويَترفَّعَ بنفسِه عن انحطاطِ رُتْبتِه؛ فيَهتزَّ له؛ رغبةً في ارتفاعِ طبقتِه(٣).

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٣٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ١٩٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٢٠).

﴿ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٩٦ ﴾

ثم بيَّنه بقولِه: ﴿ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴾(١).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧ ﴾

ثم علَّل ذلك بأبلَغِ حَثٍّ علىٰ الهجرةِ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾(٢).

فلمَّا جاء ذِكْرُ القاعدين عن الجهاد مِن المؤمنين -بعُذْرٍ وبدُونِه- في الآيةِ السالفة، كان حالُ القاعدين عن إظهارِ إسلامهم مِن الذين عزَموا عليه بمكَّةَ، أو اتَّبَعوه ثم صَدَّهم أهلُ مكَّةَ عنه وفتَنوهم حتىٰ أرجَعوهم إلىٰ عبادةِ الأصنام بعُذْرٍ وبدُونِه، بحيث يخطُرُ ببالِ السامع أن يَتساءَلَ عن مصيرِهم إن هم استمَرُّوا علىٰ ذلك حتىٰ ماتوا؛ فجاءت هذه الآيةُ مجيبةً عمَّا يَجِيشُ بنفوسِ السامعين مِن التساؤل عن مصيرِ أولئك، فكان موقعُها استئنافًا بيانيًّا لسائلٍ متردِّدٍ؛ ولذلك فُصِلتْ، ولذلك صُدِّرتْ بحرفِ التأكيد؛ فإنَّ حالَهم يوجِبُ شكًّا في أن يكونوا مُلحَقِين بالكفارِ، كيف وهم قد ظهَر ميلُهم إلىٰ الإسلامِ، ومنهم مَن دخَل فيه بالفعلِ، ثم صُدَّ عنه، أو فُتِن لأجلِه!(٣).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٧١).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٣٧٢).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ١٧٣).

لمَّا ذكَر ثوابَ مَن أقدَم علىٰ الجهاد، أتبَعه بعقابِ مَن قعَد عن الجهاد، وسكَن في بلادِ الكفر[١].

بيانٌ لحالِ القاعدين عن الهجرةِ إثرَ بيانِ القاعدين عن الجهادِ، أو بيانٌ لحالِ القاعدين عن نُصْرةِ رسولِ الله ﷺ والجهادِ معه مِن المنافِقين عَقِبَ بيانِ حالِ القاعدين مِن المؤمنين[٢].

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾

ولمَّا توعَّد علىٰ تركِ الهجرةِ، أتبَع ذلك بما زاد القاعدَ عنها تخويفًا بذِكْرِ مَن لم يدخُلْ في المحكومِ عليه بالقدرةِ علىٰ صورة الاستثناء؛ تنبيهًا علىٰ أنَّهم جديرون بالتسويةِ في الحُكْمِ لولا فضلُ الله عليهم، فقال بيانًا لأنَّ المستثنىٰ منهم كاذبون في ادعائِهم الاستضعافَ: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾[٣].

ثم استثنىٰ سبحانه مِن أهلِ الوعيد ما بيَّنه بقولِه تعالىٰ: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾[٤].

لمَّا اعتذَر القاعدون بالاستضعافِ في الأرض، ناسَب أن يبيِّنَ هنا حقيقةَ الاستضعافِ وأهله.

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٤٠).

(٢) روح المعاني (٣/ ١٢١).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٣٧٤).

(٤) محاسن التأويل (٣/ ٢٨٩).

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ٩٩﴾

لمَّا كانت الهجرةُ شديدةً، وكان ربما تركها بعضُ الأقوياء واعتَلَّ بالضَّعفِ، وربما ظَنَّ القادرُ مع المشقَّةِ أنَّه ليس بقادرٍ؛ نفَّر مِن ذلك بالإشارةِ إليهم بأداة البُعْدِ، فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا﴾ (١).

جملةُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡ﴾ «الفاء» فيها للفصيحةِ، والإتيانُ بالإشارة للتنبيهِ علىٰ أنَّهم جديرون بالحُكْمِ المذكور مِن المغفرةِ، وفعلُ ﴿عَسَى﴾ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡ﴾ يقتضي أنَّ اللهَ يرجو أن يعفوَ عنهم، وإذ كان اللهُ هو فاعلَ العفوِ، وهو عالِمٌ بأنَّه يعفو عنهم، أو عن بعضِهم بالتعيين؛ تعيَّنَ أن يكونَ معنىٰ الرجاءِ المستفاد مِن ﴿عَسَى﴾ هنا معنًىٰ مجازيًّا بأنَّ عفوَه عن ذَنْبِهم عفوٌ عزيزُ المنال، فمثَّل حالَ العفوِ عنهم بحالِ مَن لا يُقطَعُ بحصولِ العفوِ عنه؛ والمقصودُ مِن ذلك تضييقُ تحقُّقِ عُذْرِهم؛ لئلا يتساهلوا في شروطِه اعتمادًا علىٰ عفوِ الله؛ فإنَّ عُذْرَ اللهِ لهم باستضعافِهم رخصةٌ وتوسعة مِن الله تعالىٰ؛ لأنَّ البقاءَ علىٰ إظهارِ الشرك أمرٌ عظيم، وكان الواجبُ العزيمةُ أن يُكلَّفوا بإعلانِ الإيمان بَيْنَ ظَهْرانَيِ المشركين، ولو جلَب لهم التعذيبَ والهلاك؛ كما فعَلَتْ سُمَيَّةُ أمُّ عمَّارِ بن ياسر (٢).

أنَّ المستضعَفَ قد يكون قادرًا علىٰ ذلك الشيءِ مع ضربٍ مِن المشقَّةِ، وتمييزُ الضَّعْفِ الذي يحصُلُ عنده الرخصةُ عن الحدِّ الذي لا يحصُلُ عنده الرخصةُ شاقٌّ ومشتبِهٌ، فربما ظَنَّ الإنسانُ بنفسِه أنَّه عاجزٌ عن المهاجَرة، ولا يكونُ كذلك، ولا سيَّما في الهجرةِ عن الوطنِ؛ فإنَّها شاقَّةٌ علىٰ النفسِ، وبسببِ شِدَّةِ النُّفْرةِ قد يظُنُّ

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٤٧).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٧٧).

الإنسانُ كونَه عاجزًا مع أنَّه لا يكون كذلك؛ فلهذا المعنىٰ كانت الحاجةُ إلىٰ العفوِ شديدةً في هذا المَقام(١).

﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٠٠﴾

لمَّا رهَّب مِن تَرْكِ الهجرة، رغَّب فيها بما يسلِّي عمَّا قد يوسوس به الشيطانُ مِن أنَّه لو فارَق رفاهيَةَ الوطنِ، وقَع في شِدَّةِ الغُرْبة، وأنَّه ربما تجشَّمَ المشقَّةَ فاختُرِمَ(٢) قبل بلوغِ القصدِ، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٣).

لمَّا رغَّب تعالىٰ في الهجرةِ، ذكَر ما يَترتَّبُ عليها مِن وجودِ السَّعةِ والمذاهبِ الكثيرة؛ ليَذهَبَ عنه ما يَتوهَّم وجودَه في الغُرْبةِ ومفارَقةِ الوطن مِن الشِّدة؛ وهذا مقرِّرُ ما قالته الملائكةُ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾(٤).

هذا في بيانِ الحثِّ علىٰ الهجرةِ والترغيب، وبيانِ ما فيها مِن المصالحِ؛ فوعَدَ الصادقُ في وعدِهِ أنَّ مَن هاجَر في سبيله ابتغاءَ مرضاتِه، أنَّه يجدُ مُراغَمًا في الأرضِ وسَعةً؛ فالمُراغَمُ مشتمِلٌ علىٰ مصالحِ الدِّين، والسَّعةِ علىٰ مصالح الدنيا؛ وذلك أنَّ كثيرًا مِن الناس يَتوهَّمُ أنَّ في الهجرةِ شتاتًا بعد الأُلْفة، وفقرًا بعد الغنىٰ، وذُلًّا بعد العِزِّ، وشِدَّةً بعد الرخاء، والأمرُ ليس كذلك؛ فإنَّ المؤمنَ ما دام بَيْنَ أظهُرِ المشرِكين، فدِينُهُ في غايةِ النقصِ؛ لا في العباداتِ القاصرة عليه؛ كالصلاةِ ونحوِها،

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ١٩٧).

(٢) أي: أُخِذ وقُطِع.

(٣) نظم الدرر (٥/ ٣٧٥).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٤٣).

ولا في العباداتِ المتعديَةِ؛ كالجهادِ بالقول والفعل، وتوابعِ ذلك؛ لعدمِ تمكُّنِه مِن ذلك، وهو بصدَدِ أن يُفتَنَ عن دِينِه، خصوصًا إن كان مستضعَفًا. فإذا هاجَر في سبيلِ الله، تمكَّن مِن إقامةِ دِينِ الله، وجهادِ أعداء الله ومُراغَمتِهم؛ فإنَّ المُراغَمةَ اسمٌ جامع لكلِّ ما يحصُلُ به إغاظةٌ لأعداءِ الله مِن قولٍ وفعل، وكذلك يحصُلُ له سَعةٌ في رزقِه، وقد وقَع كما أخبرَ اللهُ تعالىٰ[(١)].

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

لمَّا أوجَب السَّفَرَ للجهادِ والهجرة، وكان مطلَقُ السفرِ مَظِنَّةَ المشقَّةِ، فكيف بسَفَرِهما مع ما ينضمُّ إلىٰ المشقة فيهما مِن خوفِ الأعداء؟ ذكَر تخفيفَ الصلاة بالقَصْرِ بقولِه ﷻ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[(٢)].

انتقالٌ إلىٰ تشريعٍ آخرَ بمناسبة ذِكْرِ السَّفَرِ للخروج مِن سلطةِ الكفر؛ علىٰ عادةِ القرآن في تفنينِ أغراضِه، والتماسِ مناسباتها، والجملةُ معطوفةٌ علىٰ الجملة التي قبلها[(٣)].

اعلَمْ أنَّ أحدَ الأمور التي يَحتاج المجاهِدُ إليها معرفةُ كيفيَّةِ أداء الصلاة في زمانِ الخوف، والاشتغالُ بمحارَبةِ العدو؛ فلهذا المعنىٰ ذكَره اللهُ تعالىٰ في هذه الآيةِ[(٤)].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ١٩٦).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٣٧٧).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ١٨٢).

(٤) مفاتيح الغيب (١١/ ١٩٩).

شروعٌ في بيانِ كيفيَّة الصلاة عند الضروراتِ مِن السَّفَرِ، ولقاء العدوِّ، والمرضِ، والمطرِ، وفيه تأكيدٌ لعزيمةِ المهاجِرِ على المهاجَرةِ، وترغيبٌ له فيها؛ لِما فيه مِن تخفيفِ المُؤْنة(١).

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢)﴾

لمَّا أتَمَّ ﷻ بيانَ القَصْرِ في الكَمِّيَّةِ مقرونًا بالخوف لِما ذكر، وكان حضورُ النبي ﷺ مَظِنَّةَ الأمنِ بالتأييد بالملائكة، ووعدِ العصمةِ مِن الناس، وما شُهِر به مِن الشجاعةِ، ونُصِر به مِن الرُّعْبِ، وغيرِ ذلك مِن الأمورِ القاضية بأنَّ له العاقبةَ؛ بيَّن ﷻ حالَ الصلاةِ في الكيفيَّةِ عند الخوف، وأنَّ صلاةَ الخوف تُفعَلُ عند الأُنْسِ بحضرتِه، كما تُفعَل عند الاستيحاشِ بغَيْبتِه ﷺ؛ فجوازُها لقومٍ ليس هو ﷺ فيهم مفهومُ موافقةٍ، فقال ﷻ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾(٢).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٢٤).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٣٨٠).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن في الآيةِ المتقدِّمة حالَ قَصْرِ الصلاة بحسَبِ الكمِّيَّةِ في العَدَدِ، بيَّن في هذه الآيةِ حالَها في الكيفيَّة(١).

قولُه تعالىٰ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ بيانٌ لِما قبله مِن النصِّ المُجمَل الوارد في مشروعيةِ القَصْرِ بطريقِ التفريع، وتصويرٌ لكيفيَّتِه عند الضرورةِ التامة، وتخصيصُ البيانِ بهذه الصورةِ مع الاكتفاء فيما عَدَاها بالبيانِ بطريقِ السُّنةِ لمَزيدِ حاجتِها إليه؛ لِما فيها مِن كثرةِ التغيير عن الهيئة الأصلية.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

لمَّا علَّمهم بما يفعلون في الصلاةِ حالَ الخوف، أتبَع ذلك ما يفعلون بعدها؛ لئلا يُظَنَّ أنَّها تُغني عن مجردِ الذِّكْرِ، فقال مشيرًا إلىٰ تعقيبِه به: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾(٢).

قولُه: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تفريعٌ عن قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾ إلىٰ آخِرِ الآية؛ فالاطمئنانُ مرادٌ به القُفُولُ مِن الغزوِ؛ لأنَّ في الرجوعِ إلىٰ الأوطان سكونًا مِن قَلاقِلِ السَّفَرِ، واضطرابِ البَدَنِ؛ فإطلاقُ الاطمئنان عليه يُشبِهُ أن يكونَ حقيقةً، وليس المرادُ الاطمئنانَ الذي هو عدمُ الخوف؛ لعدمِ مناسبتِه هنا(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٠٤).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٣٨٤).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ١٨٨).

يـأمرُ اللهُ تعـالىٰ بكثـرةِ الـذِّكْرِ عَقِيـبَ صـلاةِ الخـوف، وإن كـان مشـروعًا مرغَّبًا فيـه أيضًـا بعـد غيرِهـا، ولكـنْ هاهنـا آكَـدُ؛ لِمـا وقَـع فيهـا مِـن التخفيـفِ في أركانهـا، ومِن الرُّخصةِ في الذَّهاب فيها، والإيابِ، وغيرِ ذلك، ممَّا ليس يوجَدُ في غيرِها؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾؛ أي: في سائرِ أحوالكم[(١)].

لمَّا ذكَر الخوفَ في الآياتِ السابقة، ذكَر هنا ما يزُولُ به الخوفُ، ويطمئنُّ به القلبُ؛ وهو ذِكْرُ اللهِ تبارك وتعالى.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

لمَّا عُرِف مِن ذلك أنَّ آياتِ الجهادِ في هذه السُّورةِ معلِّمةٌ للحذَرِ خوفَ الضَّرَر، مرشِدةٌ إلىٰ إتقانِ المكايدِ للتخلُّصِ مِن الخطر، وكان ذلك مَظِنَّةً لمتابَعةِ النفسِ والمبالَغةِ فيه، وهو مَظِنَّةٌ للتَّواني في أمرِ الجهاد؛ أتبَع ذلك قولَه تعالىٰ منبِّهًا علىٰ الجِدِّ في أمره، وأنَّه لم يَدَعْ في الصلاة ولا غيرِها ما يَشغَلُ عنه، عاطفًا علىٰ نحوِ: فافعَلوا ما أمرتُكم به، أو علىٰ ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[(٢)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾؛ زيادةً في تشجيعِهم علىٰ قتالِ الأعداء، وفي تهوينِ الأعداء في قلوبِ المسلمين؛ لأنَّ المشركين كانوا أكثَرَ

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٠٣).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٣٨٦).

عَدَدًا مِن المسلمين، وأتَمَّ عُدَّةً، وما كان شَرْعُ قَصْرِ الصلاةِ وأحوالِ صلاة الخوف إلا تحقيقًا لنفيِ الوَهْنِ في الجهادِ[١].

لمَّا ذكَر بعضَ الأحكام التي يَحتاجُ المجاهِدُ إلىٰ معرفتها، عادَ مرةً أخرىٰ إلىٰ الحثِّ علىٰ الجهاد، فقال: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ﴾؛ أي: في طلبِ الكفار بالقتال[٢].

ولمَّا أمَر بالإكثار مِن الذِّكْرِ علىٰ كلِّ حالٍ في الآيةِ السابقة، نفَىٰ الوَهْنَ هنا؛ لأنَّ الإكثارَ مِن الذِّكْرِ مِن أعظَمِ الأسباب في دَفْعِ الوَهْنِ والضَّعف.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾

لمَّا كان أوَّلَ هذه القِصَصِ التعجيبُ مِن حالِ الذين أوتوا نصيبًا مِن الكتاب في ضَلالِهم وإضلالهم، ثم التعجيبُ مِن إيمانهم بالجِبْتِ والطاغوت، ثم التعجيبُ مِن حالِ مَن ادَّعىٰ الإيمانَ بهذا الكتابِ مع الكتبِ السالفة، ثم رَضِيَ بحُكْمِ غيرِه، وساقَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أصولَ ذلك وفروعَه، ونصَب الأدلةَ حتىٰ علَتْ علىٰ الفَرْقدَين، وانتشَر ضياؤها علىٰ جميعِ الخافِقَين، وختَم ذلك بمجاهَدةِ المُبطِلين بالحجَّةِ والسيف، وسوَّر ذلك بصفتَي العلمِ والحِكْمة؛ ناسَب أتَمَّ مناسبةٍ الإخبارُ بأنَّه أنزَل هذا الكتابَ بالحقِّ، وبيَّن فائدتَه التي عدَل عنها المنافقون في استحكامِ غيرِه، فقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٨٩).

(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ٢١٠).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٣٨٧).

اتصالُ هذه الآيةِ بما قبلها يَرجِعُ إلىٰ ما مضىٰ مِن وصفِ أحوال المنافِقين ومناصِريهم، وانتقَل مِن ذلك إلىٰ الاستعدادِ لقتال المُناوِينَ[١] للإسلام مِن قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ﴾ الآيةَ، وتخلَّل فيه مِن أحوالِ المنافِقين في تربُّصِهم بالمسلمين الدوائرَ، ومختلِفِ أحوال القبائلِ في علائقِهم مع المسلمين، واستطرَد لذِكْرِ قتلِ الخطأ والعمد، وانتقَل إلىٰ ذِكْرِ الهجرة، وعقَّب بذِكْرِ صلاةِ السَّفَرِ وصلاة الخوف؛ عادَ الكلامُ بعد ذلك إلىٰ أحوالِ أهل النفاق، والجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا[٢].

في كيفيَّةِ النَّظْمِ وجوهٌ: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا شرَح أحوالَ المنافِقين علىٰ سبيلِ الاستقصاء، ثم اتصَل بذلك أمرُ المحارَبةِ، واتصَل بذِكْرِ المحارَبةِ ما يتعلقُ بها مِن الأحكامِ الشرعية -مثلُ قتلِ المسلم خطأً علىٰ ظنِّ أنَّه كافرٌ، ومثلُ بيانِ صلاة السَّفرِ وصلاة الخوف-؛ رجَع الكلام بعد ذلك إلىٰ أحوالِ المنافِقين، وذكَر أنَّهم كانوا يحاوِلون أن يَحمِلوا الرسولَ ﷺ علىٰ أن يحكُمَ بالباطل، ويذَرَ الحُكْمَ الحقَّ، فأطلَعَ اللهُ رسولَه عليه، وأمَره بألا يلتفِتَ إليهم، ولا يَقبَلَ قولَهم في هذا البابِ. والوجهُ الثاني في بيانِ النَّظْمِ: أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن الأحكامَ الكثيرة في هذه السُّورةِ، بيَّن أنَّ كلَّ ما عُرِف بإنزالِ الله تعالىٰ، وأنَّه ليس للرسول أن يَحِيدَ عن شيءٍ منها طلبًا لرضَا قومه. الوجه الثالث: أنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر بالمجاهَدةِ مع الكفار، بيَّن أنَّ الأمرَ وإن كان كذلك، لكنَّه لا تجوزُ الخيانةُ معهم، ولا إلحاقُ ما لم يَفعَلوا بهم، وأنَّ كُفْرَ الكافرِ لا يبيحُ المسامحةَ بالنظرِ له، بل الواجبُ في الدِّينِ أن يُحكَمَ له وعليه بما أنزل علىٰ رسوله، وألا يَلحَقَ الكافرَ حَيْفٌ؛ لأجلِ أن يَرضَىٰ المنافقُ بذلك[٣].

---

(١) أي: المعادين.

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٩١).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٢١١).

﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦﴾

والأمرُ باستغفار الله جرىٰ علىٰ أسلوبِ توجيهِ الخطاب إلىٰ الرسول؛ فالمرادُ بالأمرِ غيرُه، أرشَدهم إلىٰ ما هو أنفَعُ لهم؛ وهو استغفارُ الله ممَّا اقترَفوه، أو أراد: واستغفِرِ اللهَ للخائنين ليُلهِمَهم إلىٰ التوبةِ ببركةِ استغفارك لهم؛ فذلك أجدَرُ مِن دفاعِ المدافعين عنهم(١).

ثم أمَره بالاستغفار مِن ذَنْبِه في خصامِه للخائنين، فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧﴾

لمَّا نهاه عن الخصامِ لمطلَقِ الخائن، وهو مَن وقَعتْ منه خيانةٌ ما؛ أتبعه النَّهْيَ عن المجادَلةِ عمَّن تعمَّد الخيانةَ، فقال ﷻ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا﴾(٢).

هذا عامٌّ يندرجُ فيه أصحابُ النازلةِ في الآياتِ السابقة، ويَتقرَّر به توبيخُهم(٣).

لمَّا نهاه في الآياتِ السابقة عن الخصامِ، نهاه هنا عمَّا هو أقَلُّ رُتْبةً منه؛ وهو الجدالُ، فقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٩٣).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٣٩٣).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٥٧).

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

ثم أتبعه بعيبِ هذا الخائنِ، وقلَّةِ تأمُّلِه، والإعلامِ بأنَّ المجادَلةَ عنه قليلةُ الجدوىٰ، فقال ﷻ - معجِّبًا منهم بما هو كالتعليل لِما قبله -: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾[1].

ثم ذكَر عن هؤلاء الخائنين أنَّ مِن ضَعْفِ إيمانهم ونقصانِ يقينهم أن تكونَ مخافةُ الخَلْقِ عندهم أعظمَ مِن مخافةِ الله، فقال: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾.

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

ولمَّا وبَّخهم ﷻ علىٰ جهلِهم، حذَّر مِن مناصَرتِهم، فقال - مبيِّنًا أنَّها لا تُجدِيهم شيئًا، مخوِّفًا لهم جدًّا بالمواجهةِ بمثلِ هذا التنبيهِ والخطاب، ثم الإشارةِ بعدُ -: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾[2].

قولُه: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ ﴾ استئنافٌ أثاره قولُه: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾، والمخاطَبُ كلُّ مَن يصلُحُ للمخاطَبةِ مِن المسلمين، والكلامُ

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٩٤).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٣٩٦).

جارٍ مَجرىٰ الفرضِ والتقدير، أو مجرىٰ التعريضِ ببعضِ بني ظَفَرٍ الذين جادَلوا عن بني أُبَيْرِقٍ (١).

تلوينٌ للخطابِ وتوجيهٌ له إليهم بطريقِ الالتفات؛ إيذانًا بأنَّ تعديدَ جنايتِهم يوجِبُ مشافهتَهم بالتوبيخ والتقريع (٢).

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾

لمَّا نهىٰ عن نُصْرةِ الخائن وحذَّر منها، ندَب إلىٰ التوبة مِن كلِّ سُوءٍ، فقال - عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فمَن يُصِرَّ علىٰ مثلِ هذه المجادلة، يَجِدِ اللهَ عليمًا حكيمًا -: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٣).

واعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر الوعيدَ في هذا البابِ، أتبَعه بالدعوةِ إلىٰ التوبة (٤).

ولمَّا تمكَّن هذا الوعيدُ، وقضَتِ العقولُ بأن لا مجادِلَ للهِ، ولا وكيلَ يقوم بأمورِ العصاة عنده؛ عقَّب ذلك هذا الرجاءَ العظيم والمَهَلَ (٥) المنفسِحَ بقولِه تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٦).

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٩٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٣٠).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٣٩٦).

(٤) مفاتيح الغيب (١١/ ٢١٥).

(٥) أي: المهلة والانتظار.

(٦) المحرر الوجيز (٢/ ١١١).

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ ﴾

لمَّا ندَب إلىٰ التوبةِ ورغَّب فيها، بيَّن أنَّ ضررَ إثمِه لا يَتعدىٰ نفسَه؛ حثًّا علىٰ التوبة، وتهييجًا إليها لِما جُبل عليه كلُّ أحدٍ مِن محبَّةِ نفعِ نفسِه، ودفعِ الضُّرِّ عنها، فقال: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(١).

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾

لمَّا ذكَر ما يخُصُّ الإنسانَ مِن إثمِه، أتبَعه ما يُعدِّيه إلىٰ غيرِه، فقال: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾(٢).

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

لمَّا وعَظ ﷻ في هذه النازلةِ، وحذَّر ونهىٰ وأمَر؛ بيَّن نِعْمتَه علىٰ نبيِّه ﷺ في عصمتِه عمَّا أرادوه مِن مجادَلتِه عن الخائنِ بقولِه تعالىٰ: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٣٩٧).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٣٩٨).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٣٩٨).

ثـم ذكـر مِنَّتَـه علـىٰ رسـولِه بحِفْظِـه وعصـمتِه ممَّـن أراد أن يُضِـلَّه، فقـال: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[1].

﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) ﴾

لمَّا كان قومُ طُعْمةَ قد ناجَوُا النبيَّ ﷺ في الدفعِ عنه، نبَّههم سبحانه وغيرَهم علىٰ ما ينبغي أن يقعَ به التناجي، ويحسُنُ فيه التفاؤلُ والتجاذب، علىٰ وجهٍ ناهٍ عن غيره أشَدَّ نَهْيٍ، بقولِه سبحانه وتعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2].

لم تَخْلُ الحوادثُ التي أشارت إليها الآيُ السابقة ولا الأحوالُ التي حذَّرتْ منها مِن تَناجٍ وتحاوُرٍ، سرًّا وجهرًا؛ لتدبيرِ الخيانات وإخفائها وتبييتِها؛ لذلك كان المَقامُ حقيقًا بتعقيبِ جميع ذلك بذِكْرِ النجوىٰ وما تشتمِلُ عليه؛ لأنَّ في ذلك تعليمًا وتربيةً وتشريعًا؛ إذ النجوىٰ مِن أشهَرِ الأحوالِ العارضةِ للناس في مجتمعاتهم، لا سيَّما في وقتِ ظهور المسلمين بالمدينة؛ فقد كان فيها المنافقون واليهودُ وضعفاءُ المؤمنين، وكان التناجي فاشيًا لمقاصدَ مختلِفةٍ، فربما كان يُثِيرُ في نفوسِ الرَّائِينَ لتلك المناجاةِ شكًّا؛ أي: خوفًا؛ إذ كان المؤمنون في حالِ مُناوَاةٍ مِن المشركين وأهلِ الكتاب؛

(١) تفسير السعدي (ص: ٢٠١).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٤٠٠).

فلذلك ذَمَّ اللهُ النجوىٰ هنا، فقال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾؛ فالجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا لإفادةِ حُكْمِ النجوىٰ، والمناسبةُ قد تبيَّنتْ [1].

لمَّا بيَّن في الآيةِ السابقة أنَّه علَّم رسولَه ﷺ ما لم يكُنْ يَعلَمُ، ناسَب أن يبيِّنَ هنا شيئًا مِن ذلك؛ وهي ما كان يتناجىٰ به القومُ فيما بينهم ممَّا لا خيرَ فيه.

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ ما كانوا يَتناجَوْنَ فيه حين ﴿يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ بقوله سبحانه: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [2].

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)﴾

لمَّا رتَّب ﷻ الثوابَ العظيم علىٰ الموافقةِ، رتَّب العقابَ الشديد علىٰ المخالَفةِ والمشاقَقة، ووكَلَ المخالِفَ إلىٰ نفسه بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [3].

عطفٌ علىٰ ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ بمناسبةِ تَضادِّ الحالَين [4].

اعلَمْ أنَّ تعلُّقَ هذه الآيةِ بما قبلها هو ما رُوِيَ: أنَّ طُعْمةَ بنَ أُبَيْرِقٍ لمَّا رأىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ هتَك سِتْرَه، وبرَّأ اليهوديَّ عن تهمةِ السرقة؛ ارتدَّ وذهَب إلىٰ مكَّةَ، ونقَب جدارَ إنسانٍ لأجلِ السرقة، فتهدَّم الجدارُ عليه، ومات، فنزَلتْ هذه الآيةُ [5][6].

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٩٨).

(٢) محاسن التأويل (٣/ ٣٢٧).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٤٠١).

(٤) التحرير والتنوير (٥/ ٢٠٠).

(٥) أخرجه ابن جرير في "التفسير" (٧/ ٤٦٩).

(٦) مفاتيح الغيب (١١/ ٢١٨).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦ ﴾

لمَّا كان فاعلُ ذلك بعد بيانِ الهدىٰ هم أهلَ الكتاب ومَن أضَلُّوه مِن المنافِقين بما ألقوْهُ إليهم مِن الشُّبَهِ، فرَدُّوهم إلىٰ ظلامِ الشرك والشكِّ بعد أن بهرتْ أبصارَهم أشعَّةُ التوحيدِ؛ حسُنَ إيلاؤه قولَه ﷻ - معلِّلًا؛ تعظيمًا لأهل الإسلام، وحثًّا علىٰ لزومِ هَدْيِهم، وذمًّا لِمَن نابَذهم وتوعُّدًا له؛ إشارةً إلىٰ أنَّ مَن خرَق إجماعَ المسلمين، صار حُكْمُه حُكْمَ المشركين، فكيف بمَن نابَذ المرسَلين؟! -: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[(١)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ، جُعِل تمهيدًا لِما بعده مِن وصفِ أحوال شِرْكِهم. وتعقيبُ الآيةِ السابقة بهذه مشيرٌ إلىٰ أنَّ المرادَ باتِّباع غيرِ سبيل المؤمنين اتِّباعُ سبيلِ الكفر؛ مِن شِرْكٍ وغيرِه، فعقَّبه بالتحذير مِن الشرك، وأكَّده بأنَّ للدَّلالةِ علىٰ رفعِ احتمالِ المبالغة أو المجاز[(٢)].

أنَّ الآياتِ المتقدِّمةَ إنَّما نزَلتْ في سارقِ الدِّرْعِ، وقولُه: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ ﴾ إلىٰ آخرِ الآياتِ، إنَّما نزَلتْ في ارتدادِه[(٣)]؛ فهذه الآيةُ إنَّما يحسُنُ اتصالُها بما قبلها لو كان المرادُ أنَّ ذلك السارقَ لو لم يَرتدَّ لم يَصِرْ محرومًا عن رحمتي، ولكنه لمَّا ارتَدَّ وأشرَك بالله، صار محرومًا قطعًا عن رحمةِ الله، ثم إنَّه أكَّد ذلك بأن شرَح أنَّ أمرَ الشركِ عظيمٌ عند الله، فقال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ

(١) نظم الدرر (٥/ ٤٠٣).
(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢٠٢).
(٣) أخرجه ابن جرير في "التفسير" (٧/ ٤٦٩).

ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴾؛ يعني: ومَن لم يُشرِكْ بالله، لـم يكُـنْ ضَـلالُه بعيـدًا؛ فـلا جـرَمَ لا يَصِيرُ محرومًا عن رحمتي[١].

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ ﴾

لمَّا كان المنافقون هم المقصودِين بالذات بهذه الآياتِ، وكان أكثرُهم أهلَ أوثانٍ؛ ناسَب كلَّ المناسبةِ قولُه معلِّلًا لأنَّ الشركَ ضَلالٌ: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾[٢].

قولُـه: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ بيـانٌ لقولـه: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾، وأيُّ ضـلالٍ أشَدُّ مِن أن يُشرِكَ أحدٌ بـاللهِ غيرَه، ثـم أن يـدَّعيَ أنَّ شـركاءَه إنـاثٌ؟! وقـد عَلِمـوا أنَّ الأنثىٰ أضعَفُ الصِّنفَينِ مِن كـلِّ نـوع. وأعجَـبُ مِـن ذلـك أن يكـونَ هـذا صـادرًا مِـن العـرب، وقـد عَلِـم النـاسُ حـالَ المـرأة بيـنهم، وقـد حرَموهـا مِـن حقـوقٍ كثيـرة، واستضـعَفوها؛ فالحصرُ في قولـه: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾ قَصْـرٌ ادعـائيٌّ؛ لأنَّـه أعجَـبُ أحـوالِ إشـراكهم، ولأنَّ أكبَـرَ آلهـتِهم يعتقـدونها أنثىٰ؛ وهـي: الـلَّاتُ، والعُزَّىٰ، ومَناةُ، وكانت العُزَّىٰ لقُرَيش، وكانت مَناةُ للأَوْسِ والخَزْرجِ، ولا يَخفَىٰ أنَّ معظمَ المعانِدِين للمسلمين يومئذ كانوا مِن هذين الحَيَّينِ: مشـركو قُـرَيشٍ هـم أشَـدُّ الناسِ عداءً للإسلام، ومنافقو المدينةِ ومشرِكوها أشَدُّ الناسِ فتنةً في الإسلام[٣].

﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ ﴾

ثم بيَّن ذلك بقولِه: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٢٠، ٢٢١).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٤٠٤).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٢٠٣).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٤٠٦).

جملةُ ﴿ لَعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ صفةٌ لشيطانٍ؛ أي: أبعَدَه، وتحتمِلُ الدعاءَ عليه، لكنَّ المقامَ ينبو عن الاعتراضِ بالدعاء في مثلِ هذا السياقِ(١).

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾

ثم بيَّن هنا فيما ذكَر عن الشيطانِ كيفيَّةَ اتخاذِه لهذا النصيبِ المفروض بقولِه: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾(٢).

وهذه خمسةُ أقسامٍ أقسَمَ إبليسُ عليها بعد أن حَلَّتْ عليه لعنةُ الله في الآيةِ السابقة.

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾

ثم علَّل ذلك بقولِه: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾(٣).

قولُه: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ﴾ استئنافٌ لبيانِ أنَّه أنجز عَزْمَه؛ فوعَد ومَنَّى، وهو لا يزالُ يَعِدُ ويُمنِّي؛ فلذلك جِيءَ بالمضارع(٤).

ثم ذكَر هنا الأساليبَ التي ينتهِجُها إبليسُ في إضلالِ الخَلْقِ لتحقيقِ أقسامه المذكورةِ في الآيةِ السابقة؛ وذلك بالوعودِ الباطلة، والأمانيِّ الكاذبة(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢٠٣).

(٢) أضواء البيان (١/ ٣٠٨).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٤٠٧).

(٤) التحرير والتنوير (٥/ ٢٠٦).

(٥) البحر المحيط (٤/ ٧٣).

ثـم قـال تعـالىٰ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾، واعلَـمْ أنَّـا بيَّنَّـا في الآيةِ المتقدِّمة أنَّ عُمْدةَ أمرِ الشيطان إنَّما هـو بإلقـاء الأمـانيِّ في القلـب، وأمَّـا تبتيـكُ الآذانِ وتغييرُ الخِلْقةِ، فذاك مِن نتائجِ إلقاء الأمانيِّ في القلـب، ومِـن آثـاره؛ فـلا جـرَمَ نبَّه اللهُ تعالىٰ علىٰ ما هو العمدةُ في دفعِ تلـك الأمـانيِّ؛ وهـو أنَّ تلـك الأمـانيَّ لا تُفِيـدُ إلا الغرورَ(١).

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ١٢١﴾

لمَّـا أثبَـتَ لهـم ذلـك، أنـتج بـلا شـكٍّ قولَـه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾(٢).

جِيءَ باسمِ الإشارة في قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ لتنبيهِ السامعين إلىٰ مـا يَـرِدُ بعـد اسـمِ الإشـارة مِـن الخبَـرِ، وأنَّ المشـارَ إلـيهم أَحْريـاءُ بـه، عَقِـب مـا تقـدَّم مِـن ذِكْرِ صفاتهم(٣).

ثـم قـال تعـالىٰ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، واعلَـمْ أنَّـا ذكَرْنـا أنَّ الغُـرورَ عبـارةٌ عـن الحالةِ التي تحصُلُ للإنسان عند وجدانِ ما يستحسِنُ ظاهرَه، إلا أنَّه يعظُمُ تأذِّيه عنـد انكشافِ الحالِ فيه، والاستغراقُ في طيِّباتِ الدنيا والانهماكُ في معاصي اللهِ سبحانه وإن كان في الحالِ لذيذًا إلا أنَّ عاقبتَه عذابُ جهنَّمَ، وسَخَطُ الله، والبُعْدُ عن رحمتِه؛ فكان هذا المعنىٰ ممَّا يقوِّي ما تقدَّم ذِكْرُه مِن أنَّه ليس إلا الغرور(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٢٤).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٤٠٨).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٢٠٦).

(٤) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٢٤).

ثم أخبَر تعالىٰ بمصيرِ المتَّخِذين الشيطانَ وليًّا، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾(١).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ١٢٢﴾

لمَّا ذكَر ما للكافرين ترهيبًا، أتبَعه ما لغيرِهم ترغيبًا، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾(٢).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ جريًا علىٰ عادةِ القرآن في تعقيبِ الإنذار بالبشارة، والوعيدِ بالوعد(٣).

لمَّا ذكَر مأوىٰ الكفارِ، ذكَر مأوىٰ المؤمنين؛ زيادةً لِمَسرَّةِ هؤلاء، ومَساءةِ أولئك، وأسنَد الفعلَ إلىٰ نونِ العظَمةِ؛ اعتناءً بأنَّه تعالىٰ هو الذي يَتولَّىٰ إدخالَهم الجنَّةَ، وتشريفًا لهم(٤).

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٢٣﴾

لمَّا أخبَر تعالىٰ عمَّا أُعِد لهم ولِمَن أضَلَّهم مِن العقاب، وعمَّا أُعِدَّ للمؤمنين مِن الثواب، وكانوا يُمَنُّون أنفسَهم الأمانيَّ الفارغة مِن أنَّه لا تَبِعةَ عليهم في التلاعبِ بالدِّين؛ لا في الدنيا ولا في الآخرةِ، ويشجِّعُهم علىٰ ذلك أهلُ الكتاب، ويدَّعُون أنَّهم

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ١١٥).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٤٠٨).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٢٠٧).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٧٤).

أبناءُ الله وأحِبَّاؤه، لا يؤاخِذُهم بشيءٍ، ولا يدخُلُ الجنَّةَ إلا مَن كان هودًا أو نصارىٰ أو مَن شفَعوا فيه، ونحو هذه التكاذيبِ ممَّا يُطمِّعون به مَن والاهم بأنَّهم يُنجونه، وكان المشركون يقولون: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، ونحو ذلك؛ كما قال العاصي بنُ وائلٍ لخبَّابِ بن الأرَتِّ -وقد تَقاضاه دَيْنًا كان له عليه-: «دَعْني إلىٰ تلك الدارِ فأقضيَك ممَّا لي فيها؛ فواللهِ، لا تكونُ أنتَ وصاحبُك فيها آثَرَ عند الله منِّي، ولا أعظَمَ حظًّا»؛ فأنزَل اللهُ في ذلك: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا﴾ الآياتِ مِن آخرِ سورةِ «مريمَ»[(١)]، ويقولُ لهم أهلُ الكتابِ: أنتم ﴿أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾؛ لمَّا كان ذلك، قال تعالىٰ رادًّا علىٰ الفريقينِ: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾[(٢)].

الأظهَرُ أنَّ قولَه: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ للتنويهِ بفضائلِ الأعمالِ، والتشويهِ بمَساويها[(٣)].

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾

لمَّا أبدىٰ جزاءَ المسيءِ تحذيرًا، أَوْلاه أجرَ المحسِنِ تبشيرًا، فقال: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٤١٠).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٢٠٨).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٤١١).

لمَّا ذكَر الجزاءَ على السيئاتِ، وأنَّه لا بد أن يأخذَ مستحَقَّها مِن العبدِ إمَّا في الدنيا -وهو الأجودُ له-، وإمَّا في الآخرةِ -والعِياذُ بالله مِن ذلك، ونسألُه العافيةَ في الدنيا والآخرةِ، والصَّفْحَ والعفوَ والمسامَحة-؛ شرَع في بيانِ إحسانِه وكرَمِه ورحمتِه في قَبولِ الأعمال الصالحة مِن عبادِه، ذُكرانِهم وإناثِهم؛ بشرطِ الإيمان، وأنَّه سيُدخِلُهم الجنَّةَ، ولا يَظلِمُهم مِن حسناتِهم ولا مقدارَ النَّقِيرِ؛ وهو: النُّقْرةُ التي في ظَهْرِ نواةِ التمرة[1].

لمَّا نزَل قولُه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، قال أهلُ الكتابِ للمسلمين: نحنُ وأنتم سواءٌ؛ فنزَلتْ هذه الآيةُ[2].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾

لمَّا كشَف سبحانه زُورَهم، وبيَّن فجورَهم؛ أنكَر أن يكونَ أحدٌ أحسَنَ دِينًا ممَّن اتبَع ملَّةَ إبراهيمَ الذي يزعُمون أنَّه كان على دِينِهم زعمًا تقدَّم كشفُ عَوارِه وهَتْكُ أستارِه في سورةِ «آلِ عِمْرانَ»، فقال -عاطفًا على ما تقديره: فمَن أحسَنُ دائنًا ومجازيًا وحاكمًا منه ﷻ؟-: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[3].

لمَّا ذكَر ثوابَ المؤمنين، أعقَبه بتفضيلِ دِينِهم[4].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢١).

(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٢٨).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٤١٢).

(٤) التحرير والتنوير (٥/ ٢١٠).

لمَّا شرَط حصولَ النجاةِ والفوز بالجنَّة بكونِ الإنسان مؤمنًا، شرَح الإيمانَ، وبيَّن فضلَه(١).

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾

لمَّا أخبرَ بمَن يُحِبُّه ومَن يُبغِضُه، وبما يُرضِيه وما يُغضِبُه، وكان ربما تُوُهِّمَ عدمُ القدرة على أخذِه لغيرِ ما أخَذ، وجَعْلِه لغيرِ ما جعَل، أو تعنَّت بذلك متعنِّتٌ فظنَّ أنَّ في الكلامِ دَخلًا بنوعِ احتياجٍ إلى المُخالَّةِ أو غيرِها؛ قال: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾(٢).

لمَّا تقدَّم ذِكْرُ عاملِ السُّوء وعامل الصالحات، أخبَر بعظيمِ مُلْكِه ومِلْكِه بجميعِ ما في السماوات وما في الأرض، والعالَمُ مملوكٌ له، وعلى المملوكِ طاعةُ مالكِه، ومناسبةُ هذه الآية لِما قبلها ظاهرةٌ؛ لِما ذكَرْناه، ولمَّا تقدَّم ذِكْرُ الخُلَّةِ، فذكَر أنَّه مع الخُلَّةِ عبدُ الله، وأنَّ الخُلَّةِ ليست لاحتياجٍ؛ وإنَّما هي خُلَّةُ تشريفٍ منه تعالى لإبراهيمَ عليه السلام مع بقائه على العبوديَّةِ(٣).

في تعلُّقِ هذه الآيةِ بما قبلها وجوهٌ: الأول: المعنى: أنَّه لم يتخِذِ اللهُ إبراهيمَ خليلًا لاحتياجِه إليه في أمرٍ مِن الأمور كما تكونُ خُلَّةُ الآدميِّين، وكيف يُعقَلُ ذلك وله مُلْكُ السماواتِ والأرض؟! وما كان كذلك، فكيف يُعقَلُ أن يكونَ محتاجًا إلى البشَرِ الضعيف؟! وإنَّما اتخَذه خليلًا بمحضِ الفضلِ والإحسان والكَرَم، ولأنَّه لمَّا كان مخلِصًا في العبودية، لا جرَمَ خصَّه اللهُ بهذا التشريفِ. والثاني: أنَّه تعالى ذكَر مِن أولِ

---

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٢٨).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٤١٤).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٧٨).

السُّورة إلىٰ هذا الموضعِ أنواعًا كثيرة مِن الأمرِ والنَّهْيِ، والوعدِ والوعيد؛ فبيَّن ههنا أنَّه إلهُ المحدَثات، وموجِدُ الكائنات والممكِنات، ومَن كان كذلك، كان مَلِكًا مطاعًا؛ فوجَب علىٰ كلِّ عاقلٍ أن يَخضَعَ لتكاليفه، وأن ينقادَ لأمره ونَهْيِه. الثالث: أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر الوعدَ والوعيد، ولا يمكِنُ الوفاءُ بهما إلا عند حصول أمرينِ: أحدهما: القدرةُ التامة المتعلِّقة بجميعِ الكائنات والممكِنات، والثاني: العلمُ التامُّ المتعلِّق بجميع الجزئيات والكليات؛ حتىٰ لا يشتبِهَ عليه المطيعُ والعاصي، والمحسِنُ والمسيءُ؛ فدَلَّ علىٰ كمالِ قُدْرتِه بقولِه: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، وعلىٰ كمالِ علمه بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾. الرابع: أنَّه سبحانه لمَّا وصَف إبراهيمَ عليه السلام بأنَّه خليلُه، بيَّن أنَّه مع هذه الخُلَّةِ عبدٌ له؛ وذلك لأنَّه له ما في السماواتِ وما في الأرض، ويَجري هذا مَجرىٰ قولِه: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾، ومَجرىٰ قولِه: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾؛ يعني: أنَّ الملائكةَ مع كمالهم في صفةِ القدرة والقوَّةِ في صفةِ العلم والحِكْمة لمَّا لم يَستنكفوا عن عبوديةِ الله، فكيف يمكِنُ أن يستنكِفَ المسيحُ -مع ضَعْفِ بشَريَّتِه- عن عبوديةِ الله؟! كذا ههنا؛ يعني: إذا كان كلُّ مَن في السماواتِ والأرض مُلْكَه -في تسخيرِه، ونفاذِ إلهيَّتِه- فكيف يُعقَل أن يقالَ: إنَّ اتخاذَ اللهِ إبراهيمَ عليه السلام خليلًا يُخرِجُه عن عبوديةِ الله؟! وهذه الوجوهُ كلُّها حسنةٌ متناسِبة(١).

ذكَر اللهُ عز وجل سَعةَ مُلْكِه وإحاطتَه بكلِّ شيءٍ عَقِبَ ذِكْرِ الدِّين، وتبيينِ الجادَّة منه؛ ترغيبًا في طاعةِ الله، والانقطاعِ إليه(٢).

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٣١).

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ١١٧).

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧ ﴾

لمَّا كان ﷻ قد رتَّب هذا الكتابَ علىٰ أنَّه يذكُرُ أحكامًا مِن الأصول والفروع، ثم يَفصِلُها بوعدٍ ووعيد، وترغيبٍ وترهيب، ويَنظِمُها بدلائلِ كبريائه وجلالِه، وعظيمِ بِرِّه وكمالِه، ثم يعُودُ إلىٰ بيانِ الأحكام علىٰ أبدَعِ نظام؛ لأنَّ إلقاءَ المراد في ذلك القالبِ أقرَبُ إلىٰ القَبول، والنَّظْمُ كذلك أجدَرُ بالتأثيرِ في القلوب؛ لأنَّ التكليفَ بالأعمال الشاقَّةِ لا تنقادُ له النفوسُ إلا إذا كان مقرونًا ببِشارةٍ ونِذارة، وذلك لا يؤثِّرُ إلا عند القَطْعِ بغايةِ الكمال لِمَن صدَر عنه ذلك المقالُ، ولا ينتقِلُ مع ذلك مِن أسلوبٍ إلىٰ آخَرَ إلا علىٰ غايةِ ما يكون مِن المناسبةِ بَيْنَ آخِرِ كلِّ نوعٍ وأولِ ما بعده بكمال التعلُّقِ لفظًا ومعنًىٰ، وفعل ﷻ في هذه السُّورةِ في أحكام العدل الذي بدأ السُّورةَ به في المواصلةِ التي مَبْناها النكاحُ والإرث وغيرُ ذلك ممَّا اتصَل به -كما بيَّن- إلىٰ أن ختَم هنا بالإسلام المثمِرِ لقَبول ذلك كلِّه، وعظَمةِ المُلْكِ الموجِبة لتمام الإسلام، وقامت البراهينُ، وسطَعتِ الحُجَجُ، وكان مِن أعظَمِ مقاصدِ السُّورة العدلُ في الضُّعفاءِ مِن الأيتام وغيرِهم في الميراثِ وغيرِه، وكان توريثُ النساءِ والأطفال -ذكورًا كانوا أو إناثًا- ممَّا أبَتْهُ نفوسُهم، وأُشرِبتْ بُغْضَه قلوبُهم، وكان التفريقُ في إثباتِ ما هذا سبيلُه أنجَعَ، وإلقاؤه شيئًا فشيئًا في قوالبِ البلاغةِ أنفَعَ؛ وصَل بذلك قولَه تعالىٰ: ﴿ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ

﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾(١).

عطفُ تشريعٍ علىٰ إيمانٍ وحِكْمة وعِظَة، ولعلَّ هذا الاستفتاءَ حدَث حينَ نزولِ الآيات السابقة، فذُكِر حُكْمُه عَقِبَها معطوفًا(٢).

مناسبتها علىٰ مهيع العرَبِ في كلامها؛ أنَّها تكون في أمرٍ، ثم تخرُجُ منه إلىٰ شيءٍ، ثم تعُودُ إلىٰ ما كانت فيه أولًا، وهكذا كتابُ اللهِ؛ يُبيِّنُ فيه أحكامَ تكليفه، ثم يُعقِبُ بالوعدِ والوعيد، والترغيبِ والترهيب، ثم يُعقِبُ ذلك بذِكْرِ المخالِفين المعانِدين الذين لا يتَّبِعون تلك الأحكامَ، ثم بما يدُلُّ علىٰ كبرياءِ الله تعالىٰ وجلاله، ثم قد يعادُ لتبيينِ ما تعلَّق بتلك الأحكامِ السابقة. وقد عرَض هنا في هذه السُّورةِ أن بدأ بأحكامِ النساء والمواريث، وذِكْرِ اليتامىٰ، ثم ثانيًا بذِكْرِ شيءٍ مِن ذلك في هذه الآيةِ، ثم أخيرًا بذِكْرِ شيءٍ مِن المواريث أيضًا. ولمَّا كانت النساءُ مطَّرَحًا أمرُهن عند العربِ في الميراثِ وغيرِه، وكذلك اليتامىٰ؛ أكَّد الحديثَ فيهنَّ مرارًا ليَرجِعوا عن أحكامِ الجاهلية(٣).

اعلَمْ أنَّ عادةَ الله في ترتيبِ هذا الكتابِ الكريم وقَع علىٰ أحسَنِ الوجوه؛ وهو أنَّه يذكُرُ شيئًا مِن الأحكام، ثم يذكُرُ عَقِيبَه آياتٍ كثيرةً في الوعدِ والوعيد، والترغيبِ والترهيب، ويَخلِطُ بها آياتٍ دالَّةً علىٰ كِبْرياءِ الله، وجلالِ قُدْرتِه، وعظمةِ إلهيَّتِه، ثم يعودُ مرةً أخرىٰ إلىٰ بيانِ الأحكام؛ وهذا أحسَنُ أنواعِ الترتيب، وأقربُها إلىٰ التأثيرِ

(١) نظم الدرر (٥/ ٤١٦).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢١٢).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٨١).

في القلوب؛ لأنَّ التكليفَ بالأعمالِ الشاقة لا يقعُ في موقعِ القَبولِ إلا إذا كان مقرونًا بالوعدِ والوعيد، والوعدُ والوعيد لا يؤثِّرُ في القلب إلا عند القطعِ بغايةِ كمالِ مَن صدَر عنه الوعدُ والوعيد؛ فظهَر أنَّ هذا الترتيبَ أحسَنُ الترتيباتِ اللائقة بالدعوة إلىٰ الدِّينِ الحقِّ. إذا عرَفْتَ هذا، فنقولُ: إنَّه سبحانه ذكَر في أولِ هذه السُّورةِ أنواعًا كثيرة مِن الشرائعِ والتكاليف، ثم أتبَعها بشرحِ أحوال الكافرين والمنافِقين، واستقصىٰ في ذلك، ثم ختَم تلك الآياتِ الدالةَ علىٰ عظمةِ جلال الله، وكمالِ كبريائه، ثم عاد بعد ذلك إلىٰ بيانِ الأحكام، فقال: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾(١).

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾

لمَّا صاروا يُعطُون اليتامىٰ أموالَهم، وصاروا يتزوَّجون ذواتِ الأموال منهنَّ، ويضاجِرون(٢) بعضَهنَّ؛ عقَّب ذلك تعالىٰ بالإفتاءِ في أحوال المشاقَقةِ بَيْنَ الأزواجِ، فقال: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(٣).

عطفٌ لبقيَّةِ إفتاءِ الله تعالىٰ؛ وهذا حُكْمُ اختلالِ المعاشَرة بَيْنَ الزَّوجينِ، وقد تقدَّم بعضُه في قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ الآيةَ، في هذه السُّورةِ؛ فذلك حُكْمُ فصلِ

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٣٣).
(٢) أي: يضايقون.
(٣) نظم الدرر (٥/ ٤٢١).

القضاء بينهما، وما هنا حُكْمُ الانفصال بالصُّلح بينهما، وذلك ذكَر فيه نشوزَ المرأةِ، وهنا ذكَر نشوزَ البَعْلِ(١).

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾، اعلَمْ أنَّ هذا مِن جملةِ ما أخبَر اللهُ تعالىٰ أنَّه يُفتِيهم به في النساءِ ممَّا لم يتقدَّم ذِكْرُه في هذه السُّورة(٢).

﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٢٩﴾

لمَّا ذكَر ﷻ أنَّ الوقوفَ علىٰ الحقِّ فضلًا عن الإحسان - وإن كانت المرأةُ واحدةً - متعسِّرٌ، أتبَعه أنَّ ذلك عند الجمعِ أعسَرُ، فقال تعالىٰ معبِّرًا بأداة التأكيد: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٣).

ثم عذَر الناسَ في شأنِ النساء، فقال: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡ﴾؛ لأنَّ أمرَ النساء يغالِبُ النفسَ؛ لأنَّ اللهَ جعَل حُسْنَ المرأةِ وخُلُقَها مؤثِّرًا أشَدَّ التأثيرِ؛ فرُبَّ امرأةٍ لبيبةٍ خفيفةِ الرُّوح، وأخرىٰ ثقيلةٍ حمقاءَ؛ فتفاوُتُهنَّ في ذلك وخُلُوُّ بعضِهن منه يؤثرُ لا محالةَ تفاوُتًا في محبَّةِ الزوجِ بعضَ أزواجه، ولو كان حريصًا علىٰ إظهارِ العدلِ بينهنَّ(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢١٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٣٥).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٤٢٤).

(٤) التحرير والتنوير (٥/ ٢١٨).

ثم نبَّه تعالىٰ علىٰ انتفاءِ استطاعة العدل بَيْنَ النساء والتسويةِ؛ حتىٰ لا يقعَ مَيْلُ البتَّةَ، ولا زيادةٌ ولا نقصان فيما يجبُ لهنَّ، وفي ذلك عُذْرٌ للرجال فيما يقعُ مِن التفاوتِ في الميل القَلْبي، والتعهُّد، والنظرِ، والتأنيس، والمفاكَهة؛ فإنَّ التسويةَ في ذلك مُحالٌ خارج عن حدِّ الاستطاعة، وعُلِّق انتفاءُ الاستطاعةِ في التسوية علىٰ تقديرِ وجود الحرصِ مِن الإنسان علىٰ ذلك(١).

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ١٣٠ ﴾

لمَّا كان مِن الإصلاحِ المعاشَرةُ بالمعروف، ذكَر قَسِيمَه، فقال: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾(٢).

ثم وسَّع اللهُ عليهما إن لم تَنجَحِ المصالحةُ بينهما، فأَذِن لهما في الفِراقِ بقولِه: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾(٣).

ثم قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾، واعلَمْ أنَّه تعالىٰ ذكَر جوازَ الصُّلحِ إن أرادا ذلك، فإن رَغِبَا في المفارَقةِ، فاللهُ سبحانه بيَّن جوازَه بهذه الآيةِ أيضًا، ووعَد لهما أن يُغنِيَ كلَّ واحدٍ منهما عن صاحبِه بعد الطلاقِ، أو يكونُ المعنىٰ: أنَّه يُغنِي كلَّ واحدٍ منهما بزوجٍ خيرٍ مِن زوجِه الأول، ويعيشُ أهنأَ مِن عيشِه الأول(٤).

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٨٨).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٤٢٥).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٢١٩).

(٤) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٣٨).

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾

لمَّا ذكَر تعالىٰ آيةَ التفرُّقِ، وختَمها بصفتَيِ السَّعة والحِكْمة؛ دَلَّ علىٰ الأولِ ترغيبًا في سؤاله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[(١)].

جملةُ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ معترِضةٌ بَيْنَ الجُمَلِ التي قبلها، المتضمِّنةِ التحريضَ علىٰ التقوىٰ والإحسانِ وإصلاح الأعمال مِن قوله: ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾، وقوله: ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾، وبَيْنَ جملةِ ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا﴾ الآيةَ. فهذه الجملةُ تضمَّنتْ تذييلاتٍ لتلك الجُمَلِ السابقة، وهي مع ذلك تمهيدٌ لِما سيُذكَرُ بعدها مِن قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ إلخ؛ لأنَّها دليلٌ لوجوبِ تقوىٰ الله. والمناسبةُ بَيْنَ هذه الجملةِ والتي سبَقتْها -وهي جملةُ ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾-: أنَّ الذي له ما في السماواتِ وما في الأرض قادرٌ علىٰ أن يُغنِيَ كلَّ أحدٍ مِن سَعتِه؛ وهذا تمجيدٌ لله تعالىٰ، وتذكيرٌ بأنَّه ربُّ العالَمين، وكنايةٌ عن عظيمِ سلطانه، واستحقاقِه للتقوىٰ[(٢)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ سَعةَ رِزْقِه وحِكْمته، ذكَر أنَّ له مُلْكَ ما في السماوات وما في الأرض؛ فلا يَعتاصُ[(٣)] عليه غِنَىٰ أحدٍ، ولا التوسعةُ عليه؛ لأنَّ مَن له ذلك هو الغنيُّ المطلَق[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٤٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢١٩).

(٣) أي: يصعب.

(٤) البحر المحيط (٤/ ٩٠).

وفي تعلُّقِ هذه الآيةِ بما قبلها وجهانِ: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر أنَّه ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾، وأنَّه واسعٌ؛ أشار إلىٰ ما هو كالتفسيرِ لكونِه واسعًا، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ يعني: مَن كان كذلك، فإنَّه لا بد وأن يكونَ واسعَ القدرةِ، والعلم، والجُودِ، والفضل، والرحمة. الثاني: أنَّه تعالىٰ لمَّا أمَر بالعدلِ والإحسان إلىٰ اليتامىٰ والمساكينِ، بيَّن أنَّه ما أمَر بهذه الأشياءِ لاحتياجِه إلىٰ أعمال العبادِ؛ لأنَّ مالكَ السماواتِ والأرض كيف يُعقَلُ أن يكونَ محتاجًا إلىٰ عمَلِ الإنسان مع ما هو عليه مِن الضَّعف والقصورِ؟! بل إنَّما أمَر بها رعايةً لِما هو الأحسَنُ لهم في دنياهم وأخراهم(١).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾

لمَّا كان المُلْكُ قد لا يَمنَعُ الاعتراضَ علىٰ المالك، بيَّن أنَّ ذلك إنَّما هو في المُلْكِ الناقص، وأنَّه مُلْكُه تامٌّ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾(٢).

أمَّا جملةُ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، فهي عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا﴾، أتىٰ بها تمهيدًا لقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾؛ فهي مرادٌ بها معناها الكِنائيُّ(٣)، الذي هو التمكُّنُ مِن التصرُّفِ بالإيجاد والإعدام(٤).

أعادَ قولَه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثلاثَ مرَّاتٍ بحسَبِ السياق، فقال ابنُ عطيَّةَ: الأول: تنبيهٌ علىٰ موضعِ الرجاء لهذينِ المتفرِّقين. والثاني: تنبيهٌ علىٰ

---

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٣٨).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٤٢٨).

(٣) من الكناية.

(٤) التحرير والتنوير (٥/ ٢٢١).

استغنائه عن العباد. والثالث: مقدِّمةٌ للوعيد. وقال الزَّمَخْشَرِيُّ: وتكريرُ قولِه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تقريرٌ لِما هو موجِبُ تَقْواه ليتَّقُوه، فيُطِيعوه ولا يَعصُوه؛ لأنَّ الخشيةَ والتقوىٰ أصلُ الخيرِ كلِّه(١).

قولُه سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ كلامًا مبتدأ مسُوقًا للمخاطَبين، توطئةً لِما بعده مِن الشَّرْطيةِ؛ أي: له سبحانه ما فيهما مِن الخلائقِ خَلْقًا ومِلْكًا، يَتصرَّف في ذلك كيفما يشاء؛ إيجادًا وإعدامًا، وإحياءً وإماتة. ويحتمِلُ أن يكونَ كالتكميلِ للتذييل ببيانِ الدليل؛ فإنَّ جميعَ المخلوقات تدُلُّ -لحاجتِها وفقرِها الذاتيِّ- علىٰ غِناه، وبما أفاضَ سبحانه عليها مِن الوجودِ والخصائص والكمالاتِ علىٰ كونِهِ ﴿حَمِيدًا﴾(٢).

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾

لمَّا تقرَّر بهذا شمولُ علمِ مَن هذا مِن شأنِه، وتمامُ قُدْرتِه؛ أنتَج قولَه مهدِّدًا مخوِّفًا مرهِّبًا: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾(٣).

جملةُ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ واقعةٌ موقعَ التفريع عن قوله: ﴿غَنِيًّا حَمِيدًا﴾، والخطابُ بقولِه: ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ للناسِ كلِّهم الذين يَسمَعون الخطابَ؛ تنبيهًا لهم بهذا النداءِ(٤).

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٩١).

(٢) روح المعاني (٣/ ١٥٨).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٤٢٩).

(٤) التحرير والتنوير (٥/ ٢٢١).

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾

لمَّا كان في هذا تهديدٌ بليغ، وتعريفٌ بسَعةِ المُلْكِ وكمالِ التصرف، وكان مدارُ أحوالِ المتشاحِحَينِ في الإرثِ وحقوقِ الأزواج وغيرِها الأمرَ الدُّنيوي، وكان ﷻ قد بيَّن فيما مضىٰ أنَّ مَبْنىٰ أحوالِ المنافِقين علىٰ طلبِ العرَضِ الفاني، خصوصًا قصَّةَ طُعْمةَ بنِ أُبَيرِقٍ الراضي لنفسِه بالفضيحةِ في نيلِ شيءٍ تافه؛ قال تعالىٰ -تَفْييلًا[1] لآرائهم، وتخسيسًا لهِمَمِهم؛ حيث نزَلوا إلىٰ الأدنىٰ مع القوَّةِ علىٰ طلبِ الأعلىٰ مع طلبِ الأدنىٰ أيضًا منه تعالىٰ، فلا يفُوتُهم شيءٌ مِن مُعوَّلهم[2] مع إحرازِ الأنفس-: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[3].

لمَّا كان شأنُ التقوىٰ عظيمًا علىٰ النفوس؛ لأنَّها يَصرِفُها عنها استعجالُ الناس لمنافعِ الدنيا علىٰ خيراتِ الآخرة؛ نبَّههم اللهُ إلىٰ أنَّ خيرَ الدنيا بيدِ الله، وخيرَ الآخرة أيضًا، فإن اتَّقَوْهُ، نالوا الخَيرَينِ. ويجوز أن تكونَ الآيةُ تعليمًا للمؤمنين ألا يصُدَّهم الإيمانُ عن طلبِ ثواب الدنيا؛ إذ الكلُّ مِن فضلِ الله. ويجوز أن تكونَ تذكيرًا للمؤمنين بألا يُلهِيَهم طلبُ خيرِ الدنيا عن طلبِ الآخرة؛ إذ الجمعُ بينهما أفضَلُ، وكلاهما مِن عندِ الله. أو هي تعليمٌ للمؤمنين ألا يطلُبوا خيرَ الدنيا مِن طُرُقِ الحرام؛ فإنَّ في الحلالِ سَعةً لهم ومندوحةً، وَلْيَتطلَّبوه مِن الحلالِ، يسهِّلْ لهم اللهُ حصولَه؛ إذ الخيرُ كلُّه بيدِ الله، فيوشِكُ أن يَحرِمَ مَن يَتطلَّبُه مِن وجهٍ لا يُرضِيه، أو لا يُبارِكَ له فيه[4].

---

(١) أي: تضعيفًا وتخطئة.

(٢) أي: ما يستعينون به.

(٣) نظم الدرر (٥/ ٤٣٠).

(٤) التحرير والتنوير (٥/ ٢٢٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا (١٣٥) ﴾

لمَّا كان ذلك مِن أحسَنِ المواعظِ لقومٍ طُعْمةَ الذين اعتصَبوا[(١)] له، التفتَ إليهم مستعطِفًا بصيغةِ الإيمان، جائيًا بصيغةِ الأمر على وجهٍ يعُمُّ غيرَهم، قائلًا ما هو كالنتيجةِ لِما مضى مِن الأمرِ بالقِسْطِ مِن أولِ السُّورة إلى هنا على وجهٍ أكَّده وحَثَّ عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾[(٢)].

انتقالٌ مِن الأمرِ بالعدل في أحوالٍ معيَّنة مِن معامَلاتِ اليتامى والنساءِ إلى الأمرِ بالعدل الذي يعُمُّ الأحوالَ كلَّها، وما يقارِنُه مِن الشَّهادة الصادقة؛ فإنَّ العدلَ في الحُكْمِ وأداءَ الشهادة بالحقِّ هو قِوَامُ صلاحِ المجتمع الإسلامي، والانحرافُ عن ذلك -ولو قِيدَ أنملةٍ- يجُرُّ إلى فسادٍ متسلسِلٍ[(٣)].

لمَّا ذكَر النساءَ والنُّشوز والمصالَحة، أعقبَه بالقيامِ بأداء حقوقِ الله تعالى، وفي الشَّهادة حقوقُ الله، أو لأنَّه لمَّا ذكَر تعالى طالِبَ الدنيا وأنَّه عنده ثوابُ الدنيا والآخرةِ، بيَّن أنَّ كمالَ السعادة أن يكونَ قولُ الإنسانِ وفعلُه للهِ تعالى، أو لأنَّه لمَّا ذكَر في هذه السُّورةِ: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، والإشهادَ عند دفع أموالِ اليتامى إليهم، وأمَر ببَذْلِ النفسِ والمال في سبيلِ الله، وذكَر قصَّةَ ابنِ أُبَيرِقٍ،

(١) أي: صاروا عصبة.

(٢) نظم الدرر (٥/ ٤٣١).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٢٢٤).

واجتماعَ قومِه على الكذبِ والشَّهادة بالباطل، وندَب للمصالَحة؛ أعقَب ذلك بأن أمَر عبادَه المؤمنين بالقيامِ بالعدل والشَّهادة لوجهِ الله ﷻ، وأتى بصيغةِ المبالغة في ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ حتى لا يكونَ منهم جَوْرٌ ما[1].

في اتصالِ الآية بما قبلها وجوهٌ: الأول: أنَّه لمَّا تقدَّم ذِكْرُ النساءِ والنُّشوز والمصالَحة بَيْنَهنَّ وبين الأزواجِ؛ عقَّبه بالأمرِ بالقيام بأداءِ حقوقِ الله تعالى وبالشَّهادة؛ لإحياءِ حقوق الله، وبالجملة فكأنَّه قيل: إن اشتغَلْتَ بتحصيلِ مُشتهَياتِك، كنتَ لنفسِك، لا للهِ، وإن اشتغلتَ بتحصيلِ مأموراتِ الله، كنتَ لله، لا لنفسِك، ولا شكَّ أنَّ هذا المَقامَ أعلى وأشرَفُ؛ فكانت هذه الآيةُ تأكيدًا لِما تقدَّم مِن التكاليفِ. الثاني: أنَّ اللهَ تعالى لمَّا منَع الناسَ عن أن يقصِّروا عن طلَبِ ثوابِ الدنيا، وأمَرهم بأن يكونوا طالبين لثوابِ الآخرة؛ ذكَر عَقِيبَه هذه الآيةَ، وبيَّن أنَّ كمالَ سعادةِ الإنسان في أن يكونَ قولُه لله، وفعلُه لله، وحركَتُه لله، وسكونُه لله؛ حتى يَصِيرَ مِن الذين يكونون في آخِرِ مراتبِ الإنسانية، وأولِ مراتبِ الملائكة، فأمَّا إذا عكَس هذه القضيَّةَ، كان مِثلَ البهيمةِ التي منتهى أمرِها وجدانُ عَلَفٍ، أو السَّبُعِ الذي غايةُ أمرِه إيذاءُ حيوانٍ. الثالث: أنَّه تقدَّم في هذه السُّورةِ أمرُ الناسِ بالقِسْطِ؛ كما قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، وأمرهم بالإشهادِ عند دفعِ أموال اليتامى إليهم، وأمرهم بعد ذلك ببَذْلِ النفسِ والمال في سبيلِ الله، وأجرى في هذه السُّورةِ قصَّةَ طُعْمةَ بنِ أُبَيرِقٍ، واجتماعَ قومِه على الذبِّ عنه بالكذِبِ والشَّهادةِ على اليهوديِّ بالباطل، ثم إنَّه تعالى أمَر في هذه الآياتِ بالمصالَحة مع الزوجة، ومعلومٌ أنَّ ذلك أمرٌ مِن اللهِ لعباده بأن يكونوا قائمين بالقِسْطِ، شاهدين للهِ على كلِّ أحدٍ، بل وعلى أنفسِهم؛ فكانت هذه الآيةُ كالمؤكِّد لكلِّ ما جرى ذِكْرُه في هذه السُّورةِ مِن أنواع التكاليف[2].

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٩٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٤٠).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

لمَّا أمَر بالعدلِ علىٰ هذا الوجهِ، أمَر بالحاملِ علىٰ ذلك؛ وهو الإيمانُ بالشارع، والمبلِّغ، والكتابِ الناهج لشرائعه، المبيِّن لسرائره، الذي افتتَح القصَّةَ بحَقِّيَّتِه وبيانِ فائدتِه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾(١).

تذييلٌ عقَّب به أمرَ المؤمنين بأن يكونوا ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، فأمَرهم اللهُ عَقِبَ ذلك بما هو جامعٌ لمعاني القيامِ بالقِسْطِ، والشَّهادة لله؛ بأن يؤمنوا باللهِ ورُسلِه وكُتبِه، ويدُومُوا علىٰ إيمانهم، ويَحذَروا مسارِبَ(٢) ما يُخِلُّ بذلك(٣).

لمَّا أمَر المؤمنين بالقيام بالقِسْطِ، والشَّهادةِ لله؛ بيَّن أنَّه لا يتصفُ بذلك إلا مَن كان راسخَ القَدَمِ في الإيمان بالأشياءِ المذكورة في هذه الآيةِ، فأمَر بها(٤).

أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن الأحكامَ الكثيرة في هذه السُّورةِ، ذكَر عَقِيبها آيةَ الأمرِ بالإيمان(٥).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٤٣٤).

(٢) أي: مداخل.

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٢٢٩).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٩٨).

(٥) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٤٢).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ ﴾

لمَّا كان المتمادي بعد نزول هذا الهَدْيِ موجِدًا للكفر، مجدِّدًا له؛ نبَّه علىٰ إغراقِه في البُعْدِ، بغضَبِه ﷻ لتماديه، مُعلِمًا أنَّ الثباتَ علىٰ الكفر عظيمٌ جدًّا، وصوَّره بأقبحِ صورةٍ، وفي ذلك ألطَفُ استعطافٍ إلىٰ النزوعِ عن الخلاف، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾[1].

استئنافٌ عن قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ ﴾ الآيةَ؛ لأنَّه إذا كان الكفرُ كما عَلِمتَ، فما ظنُّك بكفرٍ مضاعَفٍ يعاوِدُه صاحبُه بعد أن دخَل في الإيمان، وزالت عنه عوائقُ الاعترافِ بالصدقِ؟! فكفرُه بئس الكفرُ[2].

لمَّا أمَر بالأشياءِ التي تقدَّم ذِكْرُها، وذكَر أنَّ مَن كفَر بها أو بشيءٍ منها فهو ضالٌّ؛ أعقَب ذلك بفسادِ طريقةِ مَن كفَر بعد الإيمانِ، وأنَّه لا يُغفَرُ له؛ علىٰ ما بُيِّن[3].

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾

ولمَّا كانت جميعُ صُوَرِ الآية منطبِقةً علىٰ النفاق، بعضُها حقيقةً وبعضُها مجازًا؛ قال جوابًا لِمَن كأنَّه سأل عن جزائهم متهكِّمًا بهم: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٤٣٦).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢٣١).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٩٩).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٤٣٦، ٤٣٧).

استئنافٌ ابتدائيٌّ ناشئ عن وصفِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا﴾؛ فإنَّ أولئك كانوا مظهِرين الكفرَ بمحمَّدٍ ﷺ، وكان ثمَّةَ طائفةٌ تُبطِنُ الكفرَ؛ وهم أهلُ النفاق، ولمَّا كان التظاهرُ بالإيمان ثم تعقيبُه بالكفر ضربًا مِن التهكُّمِ بالإسلام وأهلِه، جِيءَ في جزاءِ عمَلِهم بوعيدٍ مناسب لتهكُّمِهم بالمسلمين، فجاء به علىٰ طريقةِ التهكُّمِ إذ قال: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾؛ فإنَّ البشارةَ هي الخبَرُ بما يَفرَحُ المُخبَرُ به، وليس العذابُ كذلك(١).

هذه الآيةُ دليلٌ علىٰ أنَّ التي قبلها إنَّما هي في المنافِقين(٢).

اعلَمْ أنَّ مَن حمَل الآيةَ المتقدِّمة علىٰ المنافِقين، قال: إنَّه تعالىٰ بيَّن أنَّه لا يَغفِرُ لهم كفرَهم، ولا يَهديهم إلىٰ الجنَّة، ثم قال: وكما لا يوصلُهم إلىٰ دارِ الثواب، فإنَّه مع ذلك يوصلُهم إلىٰ أعظَمِ أنواعِ العقاب؛ وهو المرادُ مِن قوله: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٣).

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ١٣٩﴾

ثم وصَفهم بما يدلُّ علىٰ أنَّهم المُساتِرون بالكفر بقولِه تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢٣٣).

(٢) البحر المحيط (٤/ ١٠١).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٤٦).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٤٣٧).

مجيءُ صفتِهم بطريقةِ الموصول لإفادةِ تعليل استحقاقِهم العذابَ الأليم؛ أي: لأنَّهم اتخَذوا الكافرين أولياءَ مِن دُونِ المؤمنين؛ أي: اتخذوهم أولياءَ لأجلِ مضادَّةِ المؤمنين(١).

ثم نصَّ تعالىٰ مِن صفةِ المنافِقين علىٰ أشَدِّها ضررًا علىٰ المؤمنين؛ وهي موالاتُهم الكفارَ، واطِّراحُهم المؤمنين، ونبَّه علىٰ فسادِ ذلك؛ ليَدَعَهُ مَن عسىٰ أن يقعَ في نوعٍ منه مِن المؤمنين غَفْلةً، أو جهالةً، أو مسامَحةً، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(٢).

📖 ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ 📖

جملةُ ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلخ، يجوز أن تكونَ معطوفةً علىٰ جملةِ ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ تذكيرًا للمسلمين بما كانوا أعلَموا به؛ ممَّا يؤكِّدُ التحذيرَ مِن مخالطتهم؛ فضميرُ الخطاب موجَّهٌ إلىٰ المؤمنين، وضمائرُ الغَيْبةِ إلىٰ المنافِقين، ويجوز أن تكونَ في موضعِ الحالِ مِن ضميرِ ﴿يَتَّخِذُونَ﴾، فيكونَ ضميرُ الخطاب في قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ خطابًا لأصحابِ الصلة مِن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ علىٰ طريقةِ الالتفات، كأنَّهم بعد أن أُجرِيتْ عليهم الصلةُ صاروا مُعيَّنِينَ معروفين، فالتفَت إليهم بالخطابِ؛ لأنَّهم يَعرِفون أنَّهم أصحابُ تلك الصلةِ، فلعلَّهم أن يُقلِعوا عن موالاةِ الكافرين(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢٣٤).

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ١٢٥).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٢٣٤).

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ خطابٌ للمنافِقين بطريقِ الالتفات، مفيدٌ لتشديدِ التوبيخ الذي يستدعيه تَعْدادُ جناياتهم، وقُرِئ مبنيًّا للمفعولِ مِن التنزيلِ والإنزال، و«نَزَلَ» أيضًا مخفَّفًا، والجملةُ حالٌ مِن ضميرِ ﴿يَتَّخِذُونَ﴾ أيضًا، مفيدةٌ لكمال قَباحةِ حالهم، ونهايةِ استعصائهم عليه سبحانه؛ ببيانِ أنَّهم فعَلوا ما فعَلوا مِن موالاةِ الكفرة مع تحقُّقِ ما يَمنَعُهم مِن ذلك؛ وهو ورودُ النَّهْيِ الصريح عن مجالَستِهم، المستلزِمِ للنهيِ عن موالاتهم على أبلَغِ وجهٍ وآكَدِه، إثْرَ بيانِ انتفاء ما يدعوهم إليه بالجملةِ المعترضة، كأنَّه قيل: تتَّخِذونهم أولياءَ والحالُ أنَّه تعالى قد نزَّل عليكم قبل هذا بمكَّةَ![1].

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾

ثم وصَفهم ﷻ بما يعرِّفُ بهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[2].

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ تلوينٌ للخطاب، وتوجيهٌ له إلى المؤمنين؛ بتعديدِ بعضٍ آخَرَ مِن جناياتِ المنافِقين وقبائحهم، وهو إمَّا بدَلٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ﴾، أو صفةٌ للمنافِقين فقط؛ إذ هُمُ المتربِّصون دُونَ الكافرين، أو مرفوعٌ، أو منصوبٌ على الذمِّ؛ أي: يَنتظِرون أمرَكم وما يحدُثُ لكم مِن ظَفَرٍ أو إخفاق[3].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٤٤).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٤٣٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٤٥).

ثم ذكر تحقيقَ موالاةِ المنافقين للكافرين، ومُعاداتِهم للمؤمنين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[1].

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾

استئنافٌ ابتدائيٌّ، فيه زيادةُ بيانٍ لمَساويهم، والمناسبةُ ظاهرةٌ، وتأكيدُ الجملة بحرفِ ﴿إِنَّ﴾ لتحقيقِ حالتهم العجيبةِ، وتحقيقِ ما عقبها مِن قوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[2].

ثم بيَّن أنَّ صورتَهم في ضَرْبِهم الشقةَ بالوجهينِ صورةُ المخادِع، وما أضَلَّهم حيث خادَعوا مَن لا يجوزُ عليه الخداعُ؛ لعلمِه بالخفايا، فقال - معلِّلًا لمنعِهم السبيلَ -: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3].

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ كلامٌ مبتدأ سِيق لبيانِ طرفٍ آخَرَ مِن قبائحِ أعمالِهم[4].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٢١٠).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢٣٩).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٤٤١).

(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٤٥-٢٤٦).

﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾

ثم جاء بحالٍ تعبِّرُ عن جامعِ نفاقِهم؛ وهي قوله: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾[1].

لمَّا ذكَر في الآيةِ السابقة أحوالَهم الظاهرة، ذكَر هنا أحوالَهم الباطنة، وما هم فيه مِن اضطرابٍ وتذبذُبِ حالٍ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ ﴾

لمَّا انقضى ما أراد مِن الإنكارِ على مَن ادعى الإيمانَ في اتخاذِ الكافرين أولياءَ، المستلزِمِ للنَّهْيِ عن ذلك الاتخاذِ؛ صرَّح به مخاطِبًا للمؤمنين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾[2].

أقبَل على المؤمنين بالتحذير مِن موالاةِ الكافرين بعد أن شرَح دخائلَهم واستصناعَهم[3] للمنافِقين لقصدِ أذى المسلمين، فعَلِم السامعُ أنَّه لولا عداوةُ الكافرين لهذا الدِّين، لَما كان النفاقُ، وما كانت تصاريفُ المنافِقين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ فهي استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لأنَّها توجيهُ خطابٍ بعد الانتهاء مِن الإخبار عن المنافِقين بطريقِ الغَيْبة، وهذه آيةٌ جامعة

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢٤٠).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٤٤٣).

(٣) أي: دعوتهم والاستعانة بهم.

للتحذير مِن موالاةِ الكافرين، ومِن الوقوعِ في النفاقِ؛ لأنَّ المنافِقين تَظاهروا بالإيمان، ووالَوُا الكافرين؛ فالتحذيرُ مِن موالاةِ الكافرين تحذيرٌ مِن الاستشعارِ بشِعارِ النفاق، وتحذيرٌ مِن موالاة المنافِقين الذين هم أولياءُ الكافرين، وتشهيرٌ بنفاق المنافِقين، وتسجيلٌ عليهم ألا يقولوا: كنَّا نجهلُ أنَّ اللهَ لا يحبُّ موالاةَ الكافرين(١).

لمَّا كان هذا الوصفُ مِن أوصافِ المنافِقين، وتقدَّم ذَمُّهم بذلك؛ نهى اللهُ تعالى المؤمنين عن هذا الوصفِ(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا ذَمَّ المنافِقين بأنَّهم مرةً إلى الكفَرةِ، ومرةً إلى المسلمين، مِن غيرِ أن يستقِرُّوا مع أحدِ الفريقين؛ نهى المسلمين في هذه الآيةِ أن يَفعَلوا مثلَ فِعْلِهم، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ووجهٌ آخرُ قاله القفَّالُ رحمه الله؛ وهو: أنَّ هذا نَهْيٌ للمؤمنين عن موالاة المنافِقين، يقول: قد بيَّنْتُ لكم أخلاقَ المنافِقين ومذاهبَهم؛ فلا تتَّخِذوا منهم أولياءَ(٣).

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾

لمَّا نهاهم عن فعلِ المنافِقين، استأنَف بيانَ جزائِهم عنده، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾(٤).

عقَّب التعريضَ بالمنافِقين مِن قوله: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ﴾ -كما تقدَّم- بالتصريحِ بأنَّ المنافِقين أشَدُّ أهلِ النار عذابًا؛ فإنَّ الانتقالَ مِن النَّهيِ عن اتخاذِ

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢٤٢).

(٢) البحر المحيط (٤/ ١١١).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٥٠).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٤٤٤).

الكافرين أولياءَ إلىٰ ذِكْرِ حالِ المنافِقين يؤذِنُ بأنَّ الذين اتخَذوا الكافرين أولياءَ معدودون مِن المنافِقين؛ فإنَّ لانتقالاتِ جُمَلِ الكلام معانيَ لا يُفيدُها الكلامُ؛ لِما تدلُّ عليه مِن ترتيبِ الخواطرِ في الفكر، وجملةُ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا ثانيًا؛ إذ هي عَوْدٌ إلىٰ أحوالِ المنافِقين، وتأكيدُ الخبر بـ﴿إِنَّ﴾ لإفادةِ أنَّه لا محيصَ لهم عنه(١).

لمَّا كان المنافقُ أشَدَّ عذابًا مِن الكافرِ؛ لأنَّه مثلُه في الكفرِ، وضُمَّ إليه نوعٌ آخَرُ مِن الكفرِ؛ وهو الاستهزاءُ بالإسلام وبأهله، وبسببِ أنَّهم لمَّا كانوا يُظهِرون الإسلامَ يمكِنُهم الاطلاعُ علىٰ أسرار المسلمين، ثم يُخبِرون الكفارَ بذلك، فكانت تَتضاعفُ المِحْنةُ مِن هؤلاء المنافِقين؛ فلهذه الأسبابِ جعَل اللهُ عذابَهم أزيَدَ مِن عذابِ الكفار(٢).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ١٤٦﴾

لمَّا كان فيما تقدَّم أنَّ الغفرانَ للكافر - أعم مِن أن يكونَ منافقًا أولًا - متعذِّرٌ، وأتبَعه ما لاءَمَهُ إلىٰ أن ختَم بما دَلَّ علىٰ أنَّ النفاقَ أغلَظُ أنواعِ الكفر؛ استثنىٰ منه؛ دلالةً علىٰ أنَّ غيرَه مِن الكفَرةِ في هذا الاستثناءِ أَوْلىٰ؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ ذلك النفيَ المبالَغَ فيه إنَّما هو لِمَن مات علىٰ ذلك، ولكنه سِيقَ علىٰ ذلك الوجهِ تهويلًا لِما ذكَره في حيِّزِه، وتنفيرًا منه، فقال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢٤٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٥١).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٤٤٤، ٤٤٥).

استثنىٰ مِن هذا الوعيدِ مَن آمَن مِن المنافِقين، وأصلَح حالَه، واعتصَم باللهِ دُونَ الاعتزازِ بالكافرين، وأخلَصَ دِينَه لله؛ فلم يَشُبْهُ بتردُّدٍ ولا تربُّصٍ بانتظارِ مَن ينتصِرُ مِن الفريقينِ: المؤمنين والكافرين، فأخبَرَ أنَّ مَن صارت حالُه إلىٰ هذا الخيرِ، فهو مع المؤمنين، وفي لفظِ ﴿مَعَ﴾ إيماءٌ إلىٰ فضيلةِ مَن آمَن مِن أولِ الأمر ولم يَصِمْ[1] نفسَه بالنفاق؛ لأنَّ ﴿مَعَ﴾ تدخُلُ علىٰ المتبوعِ، وهو الأفضل[2].

لمَّا كان المنافقُ متصِفًا بنقائصِ هذه الأوصافِ -مِن الكفرِ، وفساد الأعمال، والموالاةِ للكافرين والاعتزازِ بهم، والمراءاةِ للمؤمنين-، شرَط في توبتِهم ما يناقِضُ تلك الأوصافَ؛ وهي: التوبةُ مِن النفاق، وهي الوصفُ المحتوي علىٰ بقيَّةِ الأوصاف مِن حيث المعنىٰ، ثم فصَّل ما أجمَلَ فيها؛ وهو الإصلاحُ للعملِ المستأنَفِ المقابِلُ لفسادِ أعمالهم الماضية، ثم الاعتصامُ بالله في المستقبَل؛ وهو المقابِلُ لموالاةِ الكافرين والاعتمادِ عليهم في الماضي، ثم الإخلاصُ لدِينِ الله؛ وهو المقابِلُ للرِّياء الذي كان لهم في الماضي، ثم بعد تحصيلِ هذه الأوصاف جميعِها، أشارَ إليهم بأنَّهم مع المؤمنين، ولم يحكُمْ عليهم بأنَّهم المؤمنون، ولا مِن المؤمنين، وإن كانوا قد صاروا مؤمنين؛ تنفيرًا ممَّا كانوا عليه مِن عِظَمِ كفرِ النفاق، وتعظيمًا لحالِ مَن كان متلبِّسًا به[3].

اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ فيها تغليظاتٌ عظيمة علىٰ المنافِقين؛ وذلك لأنَّه تعالىٰ شرَط في إزالةِ العقاب عنهم أمورًا أربعةً: أولها: التوبةُ. وثانيها: إصلاحُ العمل؛ فالتوبةُ عن القبيحِ وإصلاحُ العمل عبارةٌ عن الإقدام علىٰ الحسَنِ. وثالثها: الاعتصامُ بالله؛ وهو

---

(١) أي: لم يَعِب.

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢٤٤).

(٣) البحر المحيط (٤/ ١١٣، ١١٤).

أن يكونَ غرضُه مِن التوبةِ وإصلاح العمل طلبُ مرضاةِ الله تعالىٰ، لا طلبُ مصلحةِ الوقت؛ لأنَّه لو كان مطلوبُه جلبَ المنافعِ ودفعَ المَضارِّ، لتغيَّر عن التوبةِ وإصلاح العمل سريعًا، أمَّا إذا كان مطلوبُه مرضاةَ الله تعالىٰ وسعادةَ الآخرة والاعتصامَ بدِينِ الله، بَقِيَ علىٰ هذه الطريقةِ، ولم يَتغيَّرْ عنها. ورابعها: الإخلاصُ [1].

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾

لمَّا كان معنىٰ الاستثناءِ أنَّه لا يعذِّبُهم، وأنَّهم يجدون الشفيعَ بإذنه؛ قال مؤكِّدًا لذلك علىٰ وجهِ الاستنتاج، منكِرًا علىٰ مَن ظَنَّ أنَّه لا يَقبلُهم بعد الإغراقِ في المهالكِ: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [2].

تذييلٌ لكلتا الجملتينِ: جملةِ ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ مع الجملةِ المتضمِّنة لاستثناءِ مَن يتوبُ منهم ويؤمن، وما تضمَّنته مِن التنويهِ بشأن المؤمنين مِن قوله: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾، والخطابُ يجوز أن يرادَ به جميعُ الأمَّة، ويجوز أن يوجَّهَ إلىٰ المنافِقين؛ علىٰ طريقةِ الالتفات مِن الغَيْبةِ إلىٰ الخطابِ ارتفاقًا بهم [3].

ثم قال مخبِرًا عن غِناه عمَّا سِواه، وأنَّه إنَّما يعذِّبُ العبادَ بذُنوبِهم، فقال: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [4].

---

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٥٢).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٤٤٦).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٢٤٥).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٢).

﴿مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ أنَّ مدارَ تعذيبِهم -وجودًا وعدمًا- إنَّما هو كفرُهم، لا شيءَ آخَرُ، فيكونُ مقرِّرًا لِما قبله مِن إثابتِهم عن توبتِهم، و﴿مَا﴾ استفهاميةٌ، مفيدةٌ للنفيِ علىٰ أبلَغِ وجهٍ وآكَدِه[1].

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨)﴾

لمَّا أتَمَّ ﷻ ما أراد مِن تقبيحِ حال المجالِسين الخائضين في آياتِه بما هي منزَّهةٌ عنه، وممَّا يتبعُه مِن وصفِهم وبيانِ قصدِهم بتلك المجالسةِ مِن النَّهْيِ عن مثلِ حالهم، ومِن جزاء مَن فعَل مثلَ فعلِهم، إلىٰ أن ختَم بأشَدِّ عذابِ المنافِقين، وحَثَّ علىٰ التوبةِ بما ختَمه بصفتَي الشكرِ والعلم؛ أخبَر أنَّه يُبغِض خوضَ الكافرين الذين قبَّح مجالَستَهم حالَ التلبُّس به، وكذا كلُّ جهرٍ بسُوءٍ، إلا ما استثناه؛ فمَن أقدَمَ علىٰ ما لا يُحِبُّه، لم يقُمْ بحقِّ عبوديتِه، فقال معلِّلًا ما مضىٰ قبل افتتاحِ أمرِ المنافِقين مِن الأمرِ بإحسانِ التحيَّةِ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾[2].

موقعُ هذه الآيةِ عَقِب الآيِ التي قبلها: أنَّ اللهَ لمَّا شوَّه حالَ المنافِقين، وشهَّر بفضائحهم تشهيرًا طويلًا؛ كان الكلامُ السابق بحيث يُثِيرُ في نفوسِ السامعين نفورًا مِن النفاقِ وأحواله، وبُغْضًا للملموزين به، وخاصةً بعد أن وصَفهم باتخاذِ الكافرين أولياءَ مِن دُونِ المؤمنين، وأنَّهم يَستهزئون بالقرآن، ونهىٰ المسلمين عن القعودِ معهم، فحذَّر اللهُ المسلمين مِن أن يَغِيظَهم ذلك علىٰ مَن يَتوسَّمون فيه النفاقَ، فيجاهِروهم بقولِ السُّوء، ورخَّص لِمَن ظُلِم مِن المسلمين أن يَجهَرَ لظالمِه بالسُّوءِ؛

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٤٧).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٤٤٦، ٤٤٧).

لأنَّ ذلك دفاعٌ عن نفسه، وأيضًا لمَّا كان مِن أخصِّ أوصافِ المنافِقين إظهارُ خلافِ ما يُبطِنون -فقد ذُكِرتْ نَجْواهم، وذُكِر رياؤُهم في هذه السُّورةِ، وذُكِرتْ أشياءُ كثيرةٌ؛ مِن إظهارِهم خلافَ ما يُبطِنون في سورةِ «البقرة»-؛ كان ذلك يُثِيرُ في النفوس خشيةَ أن يكونَ إظهارُ خلافِ ما في الباطن نفاقًا؛ فأراد اللهُ تبيُّنَ الفارقِ بَيْنَ الحالينِ(١).

أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر مِن أحوال المنافِقين وذَمِّهم وإظهارِ فضائحهم ما ذكَر، وبيَّن ظُلْمَهم واهتضامَهم(٢) جانبَ المؤمنين؛ سوَّغ هنا للمؤمنين أن يذكُروهم بما فيهم مِن الأوصافِ الذميمة(٣).

في كيفيَّةِ النَّظْمِ وجهان: الأول: لمَّا هتَك سِتْرَ المنافِقين وفضَحهم، وكان هَتْكُ السِّترِ غيرَ لائقٍ بالرحيم الكريم؛ ذكَر تعالىٰ ما يَجري مَجرىٰ العُذْرِ في ذلك، فقال: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾؛ يعني: أنَّه تعالىٰ لا يحبُّ إظهارَ الفضائح والقبائح إلا في حقِّ مَن عظُمَ ضرَرُه، وكثُرَ مكرُه وكيدُه؛ فعند ذلك يجوز إظهارُ فضائحِه؛ ولهذا قال ﷺ: «اذكُروا الفاسقَ بما فيه كي تَحذَرَهُ الناسُ»(٤). وهؤلاء المنافقون قد كان كثُرَ مكرُهم وكيدُهم وظُلْمُهم في حقِّ المسلمين، وعظُمَ ضرَرُهم؛ فلهذا المعنىٰ ذكَر اللهُ فضائحَهم، وكشَف أسرارَهم. الثاني: أنَّه تعالىٰ ذكَر في هذه الآيةِ المتقدِّمة أنَّ هؤلاء المنافِقين إذا تابوا وأخلَصوا، صاروا مِن المؤمنين، فيحتمِلُ أنَّه كان يتوبُ بعضُهم، ويُخلِصُ في توبتِه، ثم لا يَسلَمُ بعد ذلك مِن التعييرِ والذمِّ مِن بعضِ المسلمين بسببِ ما صدَر عنه في الماضي مِن النفاقِ؛ فبيَّن تعالىٰ في هذه الآيةِ

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٥).

(٢) أي: استنقاصهم.

(٣) البحر المحيط (٤/ ١١٥).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصمت" (٢٢٠).

أنَّه تعالىٰ لا يحبُّ هذه الطريقةَ، ولا يرضىٰ بالجهرِ بالسُّوءِ مِن القول، إلا مَن ظلَم نفسَه وأقام علىٰ نفاقِه؛ فإنَّه لا يُكرَهُ ذلك(١).

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾

لمَّا كانت معاقِدُ الخيراتِ -علىٰ كثرتِها- منحصِرةً في قسمينِ: إيصالِ النفعِ إبداءً وإخفاءً، ودفعِ الضرَرِ، فكان قد أشار ﷻ إلىٰ العفوِ، وختَم بصفتَيِ السمعِ والعلم؛ قال مصرِّحًا بالندبِ إلىٰ العفوِ والإحسان، فكان نادبًا إليه مرتينِ: الأُولىٰ: بطريقِ الإشارة لأُولي البَصارةِ، والثانية: بطريقِ العبارة للراغبين في التجارةِ؛ حثًّا علىٰ الأحَبِّ إليه سبحانه، والأفضلِ عنده، والأدخَلِ في بابِ الكَرَمِ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾(٢).

بعد أن نهىٰ ورخَّص، ندَب المرخَّصَ لهم إلىٰ العفوِ وقولِ الخير، فقال: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾؛ فإبداءُ الخيرِ إظهارُه، وعطَف عليه ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ لزيادةِ الترغيبِ؛ ألا يظُنُّوا أنَّ الثوابَ علىٰ إبداء الخيرِ خاصةً(٣).

لمَّا أباح الجهرَ بالسُّوءِ لِمَن كان مظلومًا، قال له ولجنسِه: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا﴾ بدَلًا مِن السُّوء، أو تُخفُوا السُّوءَ، ﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾؛ فالعفوُ أَوْلىٰ، وإن كان غيرُ المعفوِّ مباحًا(٤).

اعلَمْ أنَّ معاقدَ الخيراتِ -علىٰ كثرتِها- محصورةٌ في أمرينِ: صِدْقٍ مع الحقِّ، وخُلُقٍ مع الخَلْقِ، والذي يتعلقُ بالخَلْقِ محصورٌ في قسمين: إيصالِ نفعٍ إليهم، ودفعِ ضرَرٍ

---

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٥٣).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٤٤٨).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٧).

(٤) البحر المحيط (٤/ ١١٨).

عنهم؛ فقولُه: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ إشارةٌ إلىٰ إيصالِ النفع إليهم، وقولُه: ﴿أَوْ تَعْفُوا۟﴾ إشارةٌ إلىٰ دفعِ الضَّرَرِ عنهم؛ فدخَل في هاتين الكلمتَينِ جميعُ أنواعِ الخير وأعمالِ البِر[١].

ثم حَثَّ سبحانه علىٰ العفوِ بعدما جوَّز الجهرَ بالسُّوءِ، وجعَله محبوبًا؛ حثًّا علىٰ الأحَبِّ إليه، والأفضلِ عنده، وإلا دخَل في الكرَمِ والتخشُّع والعبودية، فقال سبحانه: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾

لمَّا انقضىٰ ذلك علىٰ أَتَمِّ وجهٍ وأحسَنِ سياقٍ ونحوٍ، وختَم بصفتَيِ العفوِ والقدرة؛ شرَع في بيانِ أحوالِ مَن لا يُعفَىٰ عنه مِن أهلِ الكتاب، وبيانِ أنَّهم هم الذين أضَلُّوا المنافِقين بما يُلقُون إليهم مِن الشُّبَهِ التي وسَّعَ عقولَهم لها ما أنعَمَ به عليهم ﷻ مِن العلم، فأبدَوُا الشرَّ، وكتَموا الخيرَ، فوضَعوا نِعْمتَه حيث يَكرَهُ، ثم كشَف ﷻ بعضَ شُبَهِهم، فقال مبيِّنًا لِما افتتَح به قِصَصَهم مِن أنَّهم اشترَوُا الضَّلالةَ بالهدىٰ، ويريدون ضَلالَ غيرِهم، بعد أن كان ختَم هناك ما قبْلَ قِصَصِهم بقولِه: ﴿عَفُوًّا قَدِيرًا﴾: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[٣].

---

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٥٤).

(٢) محاسن التأويل (٣/ ٣٨٦).

(٣) نظم الدرر (٥/ ٤٤٩، ٤٥٠).

عادةُ القرآن عند التعرُّضِ إلىٰ أحوالِ مَن أظهَروا النِّواءَ[(١)] للمسلمين أن ينتقِلَ مِن صفاتِ المنافِقين أو أهلِ الكتاب أو المشركين إلىٰ صفاتِ الآخَرين؛ فالمرادُ مِن ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ هنا هم اليهودُ والنصارىٰ؛ قاله أهلُ التفسير، والأظهَرُ أنَّ المرادَ به اليهودُ خاصةً؛ لأنَّهم المختلِطون بالمسلمين والمنافِقين، وكان كثيرٌ مِن المنافِقين يهودًا، وعبَّر عنهم بطريقِ الموصول دُونَ الاسمِ؛ لِما في الصلةِ مِن الإيماء إلىٰ وجهِ الخير، ومِن شناعةِ صنيعِهم؛ ليناسِبَ الإخبارَ عنهم باسمِ الإشارة بعد ذلك، وجمَع الرُّسلَ؛ لأنَّ اليهودَ كفَروا بعيسىٰ ومحمَّدٍ عليهما السلام، والنصارىٰ كفَروا بمحمَّدٍ ﷺ؛ فجمَع الرُّسلَ باعتبارِ مجموع الكفار، أو أراد بالجمعِ الاثنينِ، أو أراد بالإضافةِ معنىٰ الجنسِ؛ فاستوىٰ فيه صيغةُ الإفراد والجمع؛ لأنَّ المقصودَ ذَمُّ مَن هذه صِفتُهم بدُونِ تعيينِ فريقٍ، وطريقةُ العرَبِ في مثلِ هذا: أن يعبِّروا بصِيَغِ الجموع، وإن كان المعرَّضُ به واحدًا، وجِيءَ بالمضارع هنا؛ للدَّلالةِ علىٰ أنَّ هذا أمرٌ متجدِّد فيهم مستمِرٌّ؛ لأنَّهم لو كفَروا في الماضي ثم رجَعوا، لَمَا كانوا أَحْرِياءَ بالذمِّ[(٢)].

لمَّا بيَّن ما عليه المنافقون مِن سُوءِ الخليقةِ ومذمومِ الطريقة، أخَذ في الكلامِ علىٰ اليهود والنصارىٰ، فجعَل كفرَهم ببعضِ الرُّسل كفرًا بجميع الرُّسل، وكفرَهم بالرُّسل كفرًا بالله تعالىٰ[(٣)].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا تكلَّم علىٰ طريقةِ المنافِقين، عاد يَتكلَّمُ علىٰ مذاهبِ اليهودِ والنصارىٰ ومناقضاتِهم[(٤)].

---

(١) أي: المعاداة.

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٨).

(٣) البحر المحيط (٤/ ١١٩).

(٤) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٥٤).

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) ﴾

عطفُ الجُمَلِ بالواوِ - وإن كان بعضُها سببًا لبعضٍ - إشارةٌ إلىٰ أنَّهم جديرون بالوصفِ بكلٍّ منها علىٰ انفرادِه، وأنَّ كلَّ خَصْلةٍ كافيةٌ في نسبةِ الكفر إليهم، وقدَّم نتيجتَها وختَم بالحُكْمِ بها علىٰ وجهٍ أضخَمَ؛ تفظيعًا لحالِهم، وأصلُ الكلام: أرادوا سبيلًا بَيْنَ سبيلينِ، فقالوا: نكفُرُ ببعضٍ، فأرادوا التفرقةَ، فكفَروا كفرًا هو في غايةِ الشناعة علىٰ علمٍ منهم، فأنتَج ذلك: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾(١).

قولُه: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ الجملةُ خبرُ ﴿ إِنَّ ﴾، والإشارةُ إلىٰ أصحابِ تلك الصلةِ الماضية، وموقعُ الإشارة هنا لقصدِ التنبيه علىٰ أنَّ المشارَ إليهم لاستحضارِهم بتلك الأوصافِ أَحْرِياءُ بما سيُحكَمُ عليهم مِن الحُكْمِ المعاقِبِ لاسمِ الإشارة؛ ووجهُ هذه المبالغةِ: أنَّ كُفْرَهم قد اشتمَل علىٰ أحوالٍ عديدة مِن الكفر، وعلىٰ سَفالةٍ في الخُلُقِ، أو سفاهةٍ في الرأيِ بمجموعِ ما حُكِيَ عنهم مِن تلك الصلاتِ؛ فإنَّ كلَّ خَصْلةٍ منها إذا انفرَدتْ هي كفرٌ، فكيف بها إذا اجتمَعتْ؟!(٢).

إنَّما كانوا كافرين حقًّا لوجهينِ: الأول: أنَّ الدليلَ الذي يدلُّ علىٰ نبوَّةِ البعض ليس إلا المعجِزَ، وإذا كان دليلًا علىٰ النبوَّةِ، لَزِم القطعُ بأنَّه حيث حصَل حصَلتِ النبوَّةُ، فإن جوَّزْنا في بعضِ المواضعِ حصولَ المعجِزِ بدُونِ الصدقِ، تعذَّر الاستدلالُ به علىٰ الصدقِ، وحينئذٍ يَلزمُ الكفرُ بجميعِ الأنبياء؛ فثبَتَ أنَّ مَن لم يَقبَلْ نبوَّةَ أحدٍ منهم، لَزِمه الكفرُ بجميعهم(٣).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٤٥٠، ٤٥١).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١١).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٥٥).

قولُه تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ تأكيدٌ يزيلُ التوهُّمَ في إيمانهم حين وصَفهم بأنَّهم يقولون: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ ﴾، وأنَّ ذلك لا ينفعُهم إذا كفَروا برسوله، وإذا كفَروا برسوله، فقد كفَروا به ﷻ، وكفَروا بكلِّ رسولٍ مبشِّرٍ بذلك الرسولِ؛ فلذلك صاروا الكافرين حقًّا(١).

ثم ذكَر حُكْمَهم وجزاءَهم، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ ﴾

لمَّا بيَّن ﷻ ما أعَدَّ لهم، بيَّن ما أعَدَّ لأضدادهم مِن أهلِ طاعته بقولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾(٢).

جِيءَ بجملةِ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ إلىٰ آخِرِها؛ لمقابلةِ المُسيئين بالمحسِنين، والنِّذارةِ بالبشارة؛ علىٰ عادةِ القرآن، والمرادُ بـ«الذين آمنوا» المؤمنون كلُّهم، وخاصَّةً مَن آمَنوا مِن أهلِ الكتاب؛ كعبدِ الله بنِ سَلَامٍ، فهم مقصودون ابتداءً؛ لِما أشعَرَ به موقعُ هذه الجملة بعد ذِكْرِ ضَلالِهم، ولِما اقتضاه تذييلُ الجملة بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾؛ أي: غفورًا لهم ما سلَفَ مِن كفرِهم، رحيمًا بهم، والقولُ في الإتيانِ بالموصول وباسمِ الإشارة في هذه الجملةِ كالقولِ في مقابِلِه(٣).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٦).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٤٥٢).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ١٢).

لمَّا ذكَر الوعيدَ، أردَفه بالوعدِ، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[١].

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ السَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (١٥٣) ﴾

لمَّا أخبَر تعالىٰ بما علىٰ المفرِّقِينَ بَيْنَ اللهِ ورُسلِه، وما لأضدادِهم؛ أتبَعه بعضَ ما أرادوا به الفُرْقةَ؛ وذلك أنَّ كعبَ بن الأشرَفِ وفِنْحَاصَ بنَ عازُورا مِن اليهودِ قالا كذبًا: إن كنتَ نبيًّا، فَأْتِنا بكتابٍ جملةً مِن السماءِ، نعايِنُه حين يَنزِلُ؛ كما أتىٰ موسىٰ عليه السلام بكتابِه كذلك؛ فأنزَل اللهُ تعالىٰ -موبِّخًا لهم علىٰ هذا الكذبِ، مشيرًا إلىٰ كذبِهم فيه، موهِّيًا لسؤالهم، محذِّرًا مِن غوائلِه، مبيِّنًا لكفرِهم باللهِ ورُسلِه-: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ السَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾[٢].

لمَّا ذكَر معاذيرَ أهلِ الكتابينِ في إنكارهم رسالةَ محمَّدٍ ﷺ، أعقَبها بذِكْرِ شيءٍ مِن اقتراحِهم مجيءَ المعجزاتِ علىٰ وَفْقِ مَطالبِهم، والجملةُ استئنافٌ ابتدائي، ومجيءُ المضارعِ هنا: إمَّا لقصدِ استحضار حالتِهم العجيبة في هذا السؤالِ حتىٰ كأنَّ السامعَ يراهم، وإمَّا للدَّلالةِ علىٰ تكْرارِ السؤال وتجدُّدِه المرَّةَ بعد الأخرىٰ بأن يكونوا ألَحُّوا في هذا السؤالِ لقصدِ الإعنات، والمقصودُ علىٰ كلا الاحتمالينِ التعجيبُ مِن هذا السؤال[٣].

---

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٥٥).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٤٥٣).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ١٣).

اعلَمْ أنَّ هذا هو النوعُ الثاني مِن جهالاتِ اليهود؛ فإنَّهم قالوا: إن كنتَ رسولًا مِن عندِ الله، فَأْتِنا بكتابٍ مِن السماء جملةً؛ كما جاء موسىٰ بالألواحِ. وقيل: طلَبوا أن ينزِّلَ عليهم كتابًا مِن السماءِ إلىٰ فلانٍ، وكتابًا إلىٰ فلانٍ؛ بأنَّك رسولُ الله: وقيل: كتابًا نعاينُه حين ينزلُ، وإنَّما اقترَحوا ذلك علىٰ سبيلِ التعنُّتِ؛ لأنَّ معجزاتِ الرسول ﷺ كانت قد تقدَّمتْ وحصَلتْ، فكان طلبُ الزيادةِ مِن باب التعنُّت[1].

ثم بيَّن تعالىٰ ما جُبِل عليه اليهودُ مِن اللَّجَاجِ والعناد والبُعْدِ عن طريقِ الحق بقولِه: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾[2].

لمَّا نعىٰ الربُّ تعالىٰ عن أهلِ الكتاب قولَهم: نؤمنُ ببعضِ الرُّسل، ونكفُرُ ببعضٍ؛ حيث آمَن اليهودُ بموسىٰ وكفَروا بعيسىٰ، وآمَن النصارىٰ بعيسىٰ وكفَروا بمحمَّدٍ ﷺ كما كفَر به اليهودُ أيضًا؛ ذكَر تعالىٰ لرسوله ﷺ أنَّ اليهودَ إذا سألوك أن تنزِّلَ عليهم كتابًا مِن السماءِ، فلا تَعجَبْ مِن قولِهم، ولا تَحفِلْ به؛ إذ هذه سُنَّتُهم، وهذا دأبُهم؛ فإنَّهم قد سألوا موسىٰ قبلك أعظَمَ مِن هذا، ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾؛ فأغضَبوا اللهَ تعالىٰ؛ فأخَذتْهم الصاعقةُ وهم ينظُرون، واتخَذوا العِجْلَ إلهًا يعبُدونه في غيابِ موسىٰ عليهم، وكان ذلك منهم بعد مشاهَداتِهم البيِّناتِ؛ حيث فلَق اللهُ لهم البحرَ، وأنجاهم وأغرَقَ عدوَّهم[3].

---

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٥٦).

(٢) محاسن التأويل (٣/ ٣٨٨).

(٣) أيسر التفاسير (١/ ٥٦٨).

﴿ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤ ﴾

لمَّا بيَّن هذا مِن عظَمتِه، أتبَعه أمرًا آخَرَ أعظَمَ منه، فقال: ﴿ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴾(١).

ثم ذكَر آياتٍ أخرىٰ أظهَرها اللهُ لهم؛ وهي: رفعُ الطُّورِ، والأمرُ بقتالِ أهلِ أريحا، ودخولُهم بابَها سُجَّدًا(٢).

ثم حكىٰ تعالىٰ عنهم سائرَ جهالاتِهم، وإصرارَهم علىٰ أباطيلِهم: فأحدُها: أنَّه تعالىٰ رفَع فوقهم الطُّورَ بميثاقِهم؛ وفيه وجوهٌ: الأول: أنَّهم أعطَوُا الميثاقَ علىٰ ألا يَرجِعوا عن الدِّين، ثم رجَعوا عنه وهَمُّوا بالرجوعِ؛ فرفَع اللهُ فوقهم الطُّورَ حتىٰ يَخافوا فلا ينقُضوا الميثاقَ، الثاني: أنَّهم امتنَعوا عن قَبولِ شريعةِ التَّوراة؛ فرفَع اللهُ الجبلَ فوقهم حتىٰ قَبِلوا، وصار المعنىٰ: ﴿ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ ﴾؛ لأجلِ أن يُعطُوا الميثاقَ بقَبول الدِّين، الثالث: أنَّهم أعطَوُا الميثاقَ علىٰ أنَّهم إن هَمُّوا بالرجوعِ عن الدِّين، فاللهُ يعذِّبُهم بأيِّ نوعٍ مِن أنواع العذابِ أراد، فلمَّا هَمُّوا بتركِ الدِّينِ، أظَلَّ اللهُ الطُّورَ عليهم؛ وهو المرادُ مِن قولِه: ﴿ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ ﴾. وثانيها: قولُه: ﴿ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾، ومضىٰ بيانُه في سورةِ «البقرة». وثالثها: قولُه: ﴿ وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٤٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٥).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٥٧).

ثم أشار إلىٰ أنَّهم مع رؤيتِهم الآياتِ لم ينقادوا لأوامرِ موسىٰ عليه السلام؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾(١).

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾

فلمَّا بيَّن سبحانه أنَّه أكَّد عليهم الميثاقَ، وأكثَرَ مِن التقدُّمِ في حفظِ العهدِ؛ بيَّن أنَّهم نقَضوا، فأعقبَهم بسببِ ذلك ما هُدِّدوا به في التَّوراةِ مِن الخِزْيِ، وضَرْبِ الذِّلَّةِ، مع ما ادُّخِر لهم في الآخرةِ، فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٢).

التفريعُ علىٰ قوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، والباءُ للسَّببيَّةِ، جارَّةٌ لنَقْضِهم(٣).

هذا إخبارٌ عن أشياءَ واقَعوها، هي في الضدِّ ممَّا أُخِذوا به؛ نقَضوا الميثاقَ الذي رُفِع عليهم الطُّورُ بسببه، وجعَلوا بدَلَ الإيمانِ الذي تضمَّنه الأمرُ بدخولِ البابِ سُجَّدًا المتضمِّنِ التواضعَ الذي هو ثمرةُ الإيمانِ: كُفْرَهم بآياتِ الله، وبدَلَ الطاعةِ وامتثالِ موافقتِه في ألا يَعْدُوا في السَّبْتِ: انتهاكَ أعظَمِ الحُرَمِ؛ وهو قتلُ الأنبياءِ، وقابَلوا أخذَ الميثاقِ الغليظ بتجاهلِهم، ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾؛ أي: في حُجُبٍ وغُلُفٍ؛ فهي لا تَفهَمُ، وأضرَبَ اللهُ تعالىٰ عن قولِهم وكذبِهم، وأخبَر تعالىٰ أنَّه قد طبَع عليها بسببِ كفرِهم(٤).

---

(١) محاسن التأويل (٣/ ٣٨٩).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٤٦١).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ١٧).

(٤) البحر المحيط (٤/ ١٢٣).

ثم بيَّن تعالىٰ ما أوجَب لَعْنَهم وطَرْدَهم ومَسْخَهم مِن مخالفتِهم بقولِه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾

لمَّا بيَّن كفرانَهم بقتلِ الأنبياء، بيَّن كُفْرَهم بالبهتانِ الذي هو سببُ القتل، والفتنةُ أكبَرُ مِن القتلِ، فقال معظِّمًا له بإعادةِ العامل: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾[2].

عُطِف ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ مرةً ثانية علىٰ قولِه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾، ولم يُستغنَ عنه بقولِه: ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وأعيدَ مع ذلك حرفُ الجرِّ الذي يُغنِي عنه حرفُ العطف قصدًا للتأكيد، واعتُبِر العطفُ لأجلِ بُعْدِ ما بَيْنَ اللفظينِ، ولأنَّه في مقامِ التهويل لأمر الكفر، وفي «الكشَّاف»: تكرَّر الكفرُ منهم؛ لأنَّهم كفَروا بموسىٰ ثم بعيسىٰ ثم بمحمَّدٍ صلواتُ الله عليهم، فعُطِف بعضُ كفرِهم علىٰ بعضٍ[3].

﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ عطفٌ علىٰ ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ الذي قبله، ولا يُتوهَّمُ أنَّه مِن عطفِ الشيء علىٰ نفسِه، ولا فائدةَ فيه؛ لأنَّ المرادَ بالكفرِ المعطوفِ الكفرُ بعيسىٰ عليه السلام، والمراد بالكفرِ المعطوفِ عليه إمَّا الكفرُ المطلَق، أو الكفرُ بمحمَّدٍ ﷺ؛ لاقترانِه بقولِه تعالىٰ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، وقد حكىٰ اللهُ تعالىٰ عنهم هذه المقالةَ في مواجَهتِهم له عليه الصلاة والسلام في مواضعَ؛ ففي العطفِ إيذانٌ بصلاحيةِ كلٍّ مِن الكفرينِ للسَّببية[4].

(١) محاسن التأويل (٣/ ٣٩٠).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٤٦٤).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ١٨).

(٤) روح المعاني (٣/ ١٨٥).

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾

ثم علَّمهم بما لم يَنالوا مِن قتلِ أعظَمِ مَن جاء مِن أنبيائهم بأعظَمِ ما رأَوْا مِن الآياتِ مِن بعد موسىٰ؛ وهو عيسىٰ؛ عليهما الصلاة والسلام، ثم بادعائهم لقَتْلِه وصَلْبِه افتخارًا به، مع شَكِّهم فيه، فقال: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾(١).

أمَّا قولُهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، فمحَلُّ المؤاخَذة عليهم منه: هو أنَّهم قصَدوا أن يعُدُّوا هذا الإثمَ في مفاخرِ أسلافهم الراجعةِ إلىٰ الإخلاف بالعهدِ المبيَّنِ في سبيلِ نصرِ الدِّين، والمسيحُ كان لقبًا لعيسىٰ عليه السلام، لقَّبه به اليهودُ، وهو لقبٌ قصَدوا منه التهكُّمَ، فصار لقبًا له بيْنَهم، وقلَب اللهُ قَصْدَهم تحقيرَه، فجعَله تعظيمًا له(٢).

لمَّا ذكَر في الآياتِ السابقة قَتْلَهم للأنبياء، ذكَر هنا نموذجًا مِن الأنبياءِ الذين سعىٰ اليهودُ في قَتْلِهم، فعصَمهم اللهُ، ولم يُفلِحوا في قتلِهم.

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ نَظْمُ قولِهم هذا في سِلْكِ سائرِ جناياتهم التي نُعِيتْ عليهم ليس لمجرَّدِ كونِه كذبًا، بل لتضمُّنِه لابتهاجِهم بقتلِ النبيِّ عليه السلام، والاستهزاءِ به؛ فإنَّ وَصْفَهم له بعنوانِ الرسالة إنَّما هو بطريقِ التهكُّمِ به عليه السلام، ولإنبائه عن ذِكْرِهم له عليه السلام بالوجهِ القبيح علىٰ ما قيل مِن أنَّ ذلك وُضِع للذِّكْرِ الجميل مِن جهتِه تعالىٰ مكانَ ذِكْرِهم القبيح. وقيل: نعتٌ له عليه السلام مِن

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٤٦٤).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٩).

جهتِه تعالىٰ مدحًا له، ورفعًا لمحَلِّه عليه السلام، وإظهارًا لغايةِ جراءتِهم في تَصدِّيهم لقتلِه، ونهايةِ وقاحتِهم في افتخارِهم بذلك(١).

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨﴾

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ ردٌّ وإنكارٌ لقتلِه، وإثباتٌ لرَفْعِه(٢).

ثم أبطَل اللهُ ما ادَّعَوْهُ مِن قتلِه وصَلْبِه، فقال: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

أخبَر أنَّهم شاكُّون في أنَّه هل قتَلوه أم لا؟ ثم أخبَر محمَّدًا ﷺ بأنَّ اليقينَ حاصلٌ بأنَّهم ما قتَلوه(٣).

﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدًا ١٥٩﴾

لمَّا أنجَز الكلامَ إلىٰ أمرِ عيسىٰ عليه السلام علىٰ هذا المنهاجِ البديع بما ذكَر في نصائحِ اليهود وقبائحِ أفعالهم، وأنَّهم قصَدوا قَتْلَه عليه السلام، فخابَ قَصْدُهم، وأصلدَ زَنْدُهم(٤)، وفالَ رأيُهم(٥)، ورُدَّ عليهم بَغْيُهم، وحصَل له بذلك أعلىٰ المناصب، وأَوْلىٰ المراتب؛ قال محققًا لِما أثبَتَه في الآيةِ قبلها مِن القطعِ بكذبِهم، مثبتًا أنَّهم في مبالغتِهم في عداوته سيكونون مِن أتباعِه المصدِّقين بجميعِ أمره الذي منه التصديقُ

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٥١).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٥٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٦٢).

(٤) أي: صلُب.

(٥) أي: ضعف وأخطأ.

بمحمَّدٍ ﷺ، ومؤكِّدًا له أشَدَّ تأكيدٍ لِما عندهم مِن الإنكار له: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[1].

عطفٌ على جملةِ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾، وهذا الكلامُ إخبارٌ عنهم، وليس أمرًا لهم؛ لأنَّ وقوعَ لامِ الابتداء فيه ينادي على الخبَريَّةِ[2].

لمَّا ذكَر فضائحَ اليهود وقبائحَ أفعالهم، وشرَح أنَّهم قصَدوا قَتْلَ عيسى عليه السلام، وبيَّن أنَّه ما حصَل لهم ذلك المقصودُ، وأنَّه حصَل لعيسى عليه السلام أعظَمُ المناصب وأجَلُّ المراتب؛ بيَّن تعالى أنَّ هؤلاء اليهودَ الذين كانوا مبالِغين في عداوتِه لا يخرُجُ أحدٌ منهم مِن الدنيا إلا بعد أن يؤمِنَ به، فقال: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[3].

لمَّا أخبَر في الآيةِ السابقة برَفْعِه إليه، أشار هنا إلى أنَّه حيٌّ لم يمُتْ.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ١٦٠﴾

لمَّا آذَنَ حرفُ الاستعلاء في الشَّهادةِ بأنَّه لا خيرَ لهم في واحدٍ مِن الدارينِ، وبأنَّ التقديرَ: فبظُلْمِهم؛ سبَّب عنه قولَه -دَلالةً على أنَّ التَّوراةَ نزَلتْ منجَّمةً-: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٤٩٦، ٤٩٧).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢٤).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٦٣).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٤٩٩).

إن كان متعلَّقُ قولِه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ محذوفًا على أحدِ الوجهينِ المتقدِّمين، كان قولُه: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ مفرَّعًا على مجموعِ جرائمِهم السالفة، فيكون المرادُ بظُلْمِهم ظُلْمًا آخرَ غيرَ ما عُدِّد مِن قبلُ، وإن كان قولُه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ متعلِّقًا بقولِه: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾، فقولُه: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ إلخ، بدَلٌ مطابقٌ مِن جملةِ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ بإعادةِ العامل في البدل منه؛ لطُولِ الفصلِ، وفائدةُ الإتيانِ به أن يَظهَرَ تعلُّقُه بقولِه: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ﴾؛ إذ بعُدَ ما بَيْنَه وبين متعلِّقِه؛ وهو قولُه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ ليقوَىٰ ارتباطُ الكلام، وأُتِيَ في جملةِ البدل بلفظٍ جامع للمبدَلِ منه وما عُطِف عليه؛ لأنَّ نقضَ الميثاقِ، والكفرَ، وقَتْلَ الأنبياء، ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾، ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾: كلُّ ذلك ظُلْمٌ؛ فكانت الجملةُ الأخيرة بمنزلةِ الفَذْلكة لِما تقدَّم، كأنَّه قيل: فبذلك كلِّه حرَّمْنا عليهم، لكن عدَل إلىٰ لفظِ الظُّلْمِ؛ لأنَّه أحسَنُ تفنُّنًا، وأكثَرُ فائدةً مِن الإتيانِ باسمِ الإشارة(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا شرَح فضائحَ أعمالِ اليهود، وقبائحَ الكافرين وأفعالِهم؛ ذكَر عَقِيبَه تشديدَه تعالىٰ عليهم في الدنيا وفي الآخرةِ؛ أمَّا تشديدُه عليهم في الدنيا، فهو أنَّه تعالىٰ حرَّم عليهم طيِّباتٍ كانت محلَّلةً لهم قبل ذلك؛ كما قال تعالىٰ في موضعٍ آخَر: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، ثم إنَّه تعالىٰ بيَّن ما هو كالعلَّةِ الموجِبة لهذه التشديداتِ(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٦).

(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٦٤).

﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾

لمَّا ذكَر امتناعَهم ومَنْعَهم مِن المحاسنِ التي لا أطيَبَ منها ولا أشرَفَ، أتبَعه إقدامَهم علىٰ قبائحَ دنيَّةٍ فيها ظُلْمُهم للخَلْقِ، فقال: ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[1].

﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ ﴾ وهذه جملةٌ حاليَّةٌ تُفيدُ تأكيدَ قُبْحِ فعلِهم، وسُوءِ صنيعهم؛ إذ ما نهىٰ اللهُ عنه يجب أن يُبعَدَ عنه، قالوا: والرِّبا محرَّمٌ في جميعِ الشرائع[2].

اعلَمْ أنَّ أنواعَ الذُّنوبِ محصورةٌ في نوعينِ: الظُّلْمِ للخَلْقِ، والإعراضِ عن الدِّين الحقِّ؛ أمَّا ظُلْمُ الخَلْقِ، فإليه الإشارةُ بقولِه: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ثم إنَّهم مع ذلك في غايةِ الحرص في طلبِ المال؛ فتارةً يحصِّلونه بالرِّبا مع أنَّهم نُهُوا عنه، وتارةً بطريقِ الرِّشوة؛ وهو المرادُ بقولِه: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾؛ فهذه الأربعةُ هي الذُّنوب الموجِبة للتشديد عليهم في الدنيا وفي الآخرة، أمَّا التشديدُ في الدنيا، فهو الذي تقدَّم ذِكْرُه مِن تحريم الطيِّباتِ عليهم، وأمَّا التشديدُ في الآخرة فهو المرادُ مِن قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[3].

وأخذُ الرِّبا صورةٌ مِن صُوَرِ الظُّلْمِ المذكورة في الآية السابقة؛ فلهذا لمَّا تعاطَوُا الخبائثَ، حرَّم اللهُ عليهم الطيِّباتِ؛ فكان الجزاءُ مِن جنسِ العمل.

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٥٠٠).

(٢) البحر المحيط (٤/ ١٣٣).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٦٤).

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾

لمَّا بيَّن تعالىٰ ما للمطبوعِ علىٰ قلوبِهم الغريقِين في الكفرِ مِن العقابِ، بيَّن ما لنيِّري البصائرِ بالرسوخ في العلم والإيمان مِن الثواب، فقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾(١).

الاستدراكُ بقولِه: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ إلخ، ناشئٌ علىٰ ما يوهِمُه الكلامُ السابق ابتداءً مِن قوله: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مِن توغُّلِهم في الضَّلالةِ حتىٰ لا يُرجَىٰ لأحدٍ منهم خيرٌ وصلاح، فاستُدرِك بأنَّ الراسخين في العلمِ منهم ليسوا كما تُوُهِّمَ؛ فهم يؤمنون بالقرآنِ؛ مثلُ: عبدِ الله بنِ سَلَامٍ، ومُخَيْرِيق(٢).

لمَّا وصَف طريقةَ الكفار والجُهَّال مِن اليهودِ، وصَف طريقةَ المؤمنين منهم(٣).

لمَّا ذكَر معايبَ أهلِ الكتاب، ذكَر الممدوحِين منهم، فقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٥٠٢).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢٨).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٦٤).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٢١٤).

﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾﴾

لمَّا كانت هذه الأوصافُ منطبِقةً على الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام، وكان مِن أحوالِهم الوحيُ؛ قال تعالى إبطالًا لشُبْهتِهم القائلةِ: لو كان نبيًّا، أتى بكتابِه جملةً مِن السماءِ؛ كما أتى موسى عليه السلام بالتَّوراة كذلك، بإقرارِهم بنبوَّةِ هؤلاء الأنبياءِ عليهم السلام مع كونِهم ليس لهم تلك الصفةُ، ولم يكُنْ ذلك قادحًا في نبوَّةِ أحدٍ منهم ولا رسالتِه: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾[1].

استأنَفتْ هذه الآياتُ الردَّ على سؤال اليهودِ أن ينزِّلَ عليهم كتابًا مِن السماء، بعد أن حُمِّقُوا في ذلك بتحميقِ أسلافهم، بقولِه: ﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾، واستطَردتْ بينهما جُمَلٌ مِن مخالفةِ أسلافهم، وما نالهم مِن جرَّاءِ ذلك، فأقبَلَ الآنَ على بيانِ أنَّ إنزالَ القرآن على محمَّدٍ ﷺ لم يكُنْ بِدْعًا؛ فإنَّه شأنُ الوحي للرُّسلِ، فلم يَقدَحْ في رسالتهم أنَّهم لم يُنزَّلْ عليهم كتابٌ مِن السماء، والتأكيدُ بـ«إنَّ» للاهتمام بهذا الخبَرِ، أو لتنزيلِ المردود عليهم منزلةَ مَن يُنكِرُ كيفيَّةَ الوحيِ للرُّسلِ غيرِ موسى؛ إذ لم يَجْروا على موجَبِ علمِهم حتى أنكَروا رسالةَ رسولٍ لم يُنزَّلْ إليه كتابٌ مِن السماء[2].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٥٠٤، ٥٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٣١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ أنَّ اليهودَ سألوا الرسولَ ﷺ أن ينزِّلَ عليهم كتابًا مِن السماء، وذكَر تعالىٰ بعده أنَّهم لا يطلُبون ذلك لأجلِ الاسترشاد، ولكن لأجلِ العناد واللَّجاجِ، وحكىٰ أنواعًا كثيرةً مِن فضائحِهم وقبائحهم، وامتَدَّ الكلامُ إلىٰ هذا المَقامِ؛ شرَع الآنَ في الجوابِ عن تلك الشُّبْهةِ، فقال: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾(١).

لمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ العلماءَ الذين هم ورَثةُ الأنبياءِ في الآيةِ السابقة، ناسَب أن يذكُرَ الأنبياءَ هنا الذين هم سادةُ العلماء.

﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾

لمَّا تمَّ ما اقتضاه مَقامُ النبوَّةِ، وكان فيهم رُسُلٌ، وكان ربما قال متعنِّتٌ: إنَّ شأنَ الرُّسلِ غيرُ شأن الأنبياءِ في الوحيِ؛ قال عاطفًا -علىٰ ما تقديرُه مِن معنىٰ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾: أرسَلْنا مَن شِئْنا مِن هؤلاء الذين قصَصْناهم عليك هنا إلىٰ مَن شِئْنا مِن الناس-: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾(٢).

إنَّما ذكَر اللهُ تعالىٰ هنا الأنبياءَ الذين اشتَهَروا عند بني إسرائيلَ؛ لأنَّ المقصودَ مُحاجَّتُهم، وإنَّما ترَك اللهُ أن يقُصَّ علىٰ النبي ﷺ أسماءَ كثيرٍ مِن الرُّسل للاكتفاء بمَن قَصَّهم عليه؛ لأنَّ المذكورين هم أعظَمُ الرُّسل والأنبياء قِصَصًا ذاتَ عِبَرٍ(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٦٦).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٥٠٦).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٣٥).

لمَّا ذكَر أحوالَ بعضِ الأنبياء في القرآن، بيَّن أنَّ الأكثرِينَ منهم غيرُ مذكورين علىٰ سبيلِ التفصيل.

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾

ولمَّا كان معظَمُ رسالةِ نبيِّنا ﷺ بِشارةً ونِذارة، قال مبيِّنًا أنَّهم مثلُه في ذلك كما كانوا قبله في الوحيِ؛ لأنَّ المقصودَ مِن الإرسال لجميع الرُّسلِ جمعُ الخَلْقِ بالبِشارة والنِّذارة: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[١].

اعلَمْ أنَّ هذا الكلامَ أيضًا جوابٌ عن شُبْهةِ اليهودِ، وتقريرُه أنَّ المقصودَ مِن بعثةِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يبشِّروا الخَلْقَ علىٰ اشتغالِهم بعبودية الله، وأن يُنذِروهم علىٰ الإعراض عن العبودية؛ فهذا هو المقصودُ الأصليُّ مِن البعثةِ؛ فإذا حصَل هذا المقصودُ، فقد كمَل الغرضُ، وتمَّ المطلوبُ[٢].

لمَّا ذكَر الأنبياءَ والرُّسلَ في الآياتِ السابقة، ناسَب أن يبيِّنَ هنا الهدفَ الذي بُعِثوا مِن أجلِه.

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾

لمَّا لم يُبقِ سبحانه لهم شُبْهةً، واستمَرُّوا علىٰ عنادِهم؛ أشار تعالىٰ إلىٰ ما تقديرُه:

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٥١٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٦٧).

إنَّهم لا يَشهَدون لك عند اتضاحِ الأمر، فقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[1].

هذا استدراكٌ علىٰ معنًىٰ أثاره الكلامُ؛ لأنَّ ما تقدَّم مِن قولـه: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مسُوقٌ مساقَ بيانِ تعنُّتِهم ومكابرتهم عن أن يَشهَدوا بصدقِ الرسول ﷺ، وصحَّةِ نسبة القرآن إلىٰ الله تعالىٰ، فكان هذا المعنىٰ يستلزِمُ أنَّهم يأبَوْنَ مِن الشَّهادةِ بصِدْقِ الرسول، وأنَّ ذلك يحزُنُ الرسولَ ﷺ، فجاء الاستدراكُ بقولِه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾؛ فإنَّ الاستدراكَ تعقيبُ الكلام برفعِ ما يُتوهَّمُ ثبوتُه أو نفيُه. والمعنىٰ: لم يَشهَدْ أهلُ الكتاب، لكنِ اللهُ شَهِد، وشَهادةُ الله خيرٌ مِن شَهادتِهم[2].

لمَّا قال: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، قال القومُ: نحن لا نَشهَدُ لك بذلك؛ فنزَل: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾[3].

لمَّا ذكَر أنَّ اللهَ أوحىٰ إلىٰ رسولِه محمَّدٍ ﷺ كما أوحىٰ إلىٰ إخوانِه مِن المرسَلين، أخبَر هنا بشَهادتِه تعالىٰ علىٰ رسالتِه، وصحَّةِ ما جاء به، فقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[4].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧﴾

لمَّا بيَّن سبحانه أنَّه أقام الأدلةَ علىٰ صحَّتِه بالمعجِزات، فصار كأنَّه شَهِد بحقيقتِه؛ كان أنفَعَ الأشياءِ إتباعُ ذلك بوصفِ مَن جحَده في نفسِه، وصَدَّ عنه غيرَه؛ زجرًا عن

(١) نظم الدرر (٥/ ٥١٤).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٤٤).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٦٩).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٢١٥).

مثلِ حاله، وتقبيحًا لِما أبدىٰ مِن ضَلالِه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[(١)].

يجوز أن يكونَ المرادُ بالذين كفَروا هنا أهلَ الكتاب؛ أي: اليهودَ، فتكونَ الجملةُ بمنزلة الفَذْلكة للكلامِ السابق الرادِّ علىٰ اليهود مِن التحاوُرِ المتقدِّم؛ فقد كان اليهودُ يَتعرَّضون للمسلمين بالفتنةِ، ويُقوِّون أوهامَ المشركين بتكذيبِهم النبيَّ ﷺ، ويجوز أن يكونَ المرادُ بالذين كفَروا المشركين؛ كما هو الغالبُ في إطلاق هذا الوصفِ في القرآن، فتكونَ الجملةُ استئنافًا ابتدائيًّا، انتقَل إليه بمناسبةِ الخوض في مناواةِ أهل الكتاب للإسلام. وصَدُّهم عن سبيلِ الله؛ أي: صَدُّهم الناسَ عن الدخول في الإسلامِ مشهورٌ[(٢)].

اعلَمْ أنَّ هذا مِن صفاتِ اليهود الذين تقدَّم ذِكْرُهم؛ والمرادُ أنَّهم كفَروا بمحمَّدٍ ﷺ، وبالقرآنِ، وصَدُّوا غيرَهم عن سبيلِ الله؛ وذلك بإلقاءِ الشُّبهاتِ في قلوبهم؛ نحوُ قولِهم: لو كان رسولًا، لأتىٰ بكتابِهِ دَفْعةً واحدةً مِن السماء؛ كما نزَلتِ التَّوراةُ علىٰ موسىٰ، وقولِهم: إنَّ اللهَ تعالىٰ ذكَر في التَّوراة أنَّ شريعةَ موسىٰ لا تُبدَّلُ ولا تُنسَخ إلىٰ يومِ القيامة، وقولِهم: إنَّ الأنبياءَ لا يكونون إلا مِن ولَدِ هارونَ وداودَ، وقوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾؛ وذلك لأنَّ أشَدَّ الناس ضَلالًا مَن كان ضالًّا ويعتقِدُ في نفسه أنَّه مُحِقٌّ، ثم إنَّه يَتوسَّلُ بذلك الضَّلالِ إلىٰ اكتسابِ المال والجاه، ثم إنَّه يبذُلُ كُنْهَ جُهدِهِ في إلقاء غيرِه في مثلِ ذلك الضَّلالِ؛ فهذا الإنسانُ لا شك أنَّه قد بلَغ في الضَّلالِ إلىٰ أقصىٰ الغايات، وأعظَمِ النهايات؛ فلهذا قال تعالىٰ في حَقِّهم: ﴿قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٥١٥).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٤٦).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٦٩، ٢٧٠).

لمَّا أخبَر عن رسالةِ الرُّسلِ صلوات الله وسلامه عليهم، وأخبَر برسالةِ خاتَمِهم محمَّدٍ ﷺ، وشَهِد بها وشَهِدتْ ملائكتُه؛ لَزِم مِن ذلك ثبوتُ الأمرِ المقرَّرِ والمشهودِ به؛ فوجَب تصديقُهم، والإيمانُ بهم، واتِّباعُهم. ثم توعَّد مَن كفَر بهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨﴾

ثم علَّل إغراقَهم في الضَّلال بإضلاله لهم؛ لتَماديهم فيما تدعو إليه نقيصةُ النفس مِن الظُّلْمِ، بقولِه - وعيدًا لهم -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا﴾(٢).

الجملةُ بيانٌ لجملةِ ﴿قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾؛ لأنَّ السامعَ يَترقَّب معرفةَ جزاء هذا الضَّلالِ، فبيَّنَتْهُ هذه الجملةُ، وإعادةُ الموصولِ وصِلتِه دُونَ أن يُذكَرَ ضميرُهم؛ لتُبنَى عليه صلةُ ﴿وَظَلَمُواْ﴾، ولأنَّ في تكريرِ الصلة تنديدًا عليهم(٣).

لمَّا وصَف تعالىٰ كيفيَّةَ ضَلالِهم، ذكَر بعده وعيدَهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾ محمَّدًا ﷺ بكتمانِ ذِكْرِ بعثتِه، ﴿وَظَلَمُواْ﴾ عوامَّهم بإلقاء الشُّبهاتِ في قلوبهم؛ ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا﴾(٤).

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٦٩﴾

ثم تهكَّمَ بهم بقولِه: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾(٥).

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٢١٥).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٥١٦).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٤٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٧٠).

(٥) نظم الدرر (٥/ ٥١٦).

قولُـه: ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾ استثناءٌ متصِل إن كـان الطريـقُ الـذي نفـىٰ هَـدْيَهم إليـه الطريقَ الحقيقيَّ، ومنقطِعٌ إن أريدَ بـالطريقِ الأول الهـدىٰ، وفي هـذا الاستثناءِ تأكيـدُ الشيءِ بما يُشبِهُ ضدَّه؛ لأنَّ الكلامَ مسُوقٌ للإنذار، والاستثناءُ فيه رائحةُ إطماعٍ، ثم إذا سُمِع المستثنىٰ، تبيَّن أنَّه مِن قَبيلِ الإنـذار، وفيـه تهكُّمٌ لأنَّـه استثنىٰ مِن الطريـقِ المعمولِ ﴿لِيَهْدِيَهُمْ ﴾، وليس الإقحـامُ بهـم في طريـقِ جهنَّمَ بهَدْيٍ؛ لأنَّ الهَـدْيَ هـو إرشادُ الضالِّ إلىٰ المكانِ المحبوب(١).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾

لمَّـا وضَّـح بالحِجَـاجِ معهـم الحقَّ، واستبانَ بمحوِ شُبَهِهم كلِّهـا مِـن وجـوهٍ كثيـرة الرُّشْدُ، وأوضَـح فسـادَ طُـرقِهم، وأبلَـغ في وعيـدِهم؛ أنـتَج ذلـك صِـدْقَ الرسـولِ ﷺ وحقيقـةَ مـا يقـول؛ فأذعَنـتِ النفـوسُ، فكـان أنسَـبَ الأشـياء أن عمَّـم سـبحانه في الخطابِ لِما وجَب مِن اتِّباعِه علىٰ وجهِ العموم عند بيانِ السبيل، ونهـوضِ الـدليل، فقال مرغِّبًا مرهِّبًا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(٢).

بعد استفراغِ الحوار مع أهل الكتاب، ثم خطابِ أهل الكفر بما هو صالحٌ لأن يكونَ شاملًا لأهلِ الكتاب؛ وُجِّه الخطابَ إلىٰ النـاس جميعًـا؛ ليكـون تـذييلًا وتأكيـدًا لِمـا

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٤٨).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٥١٦، ٥١٧).

سبقه؛ إذ قد تهيَّأ مِن القوارعِ السالفة ما قامت به الحجَّةُ، واتسَعتِ المحجَّةُ، فكان المقامُ للأمرِ باتِّباع الرسول والإيمانِ، وكذلك شأنُ الخطيبِ إذا تهيَّأتِ الأسماعُ، ولانتِ الطباعُ، ويُسمَّىٰ هذا بالمقصدِ مِن الخطاب، وما يَتقدَّمه بالمقدمةِ(١).

لمَّا أجاب عن شُبْهةِ اليهود علىٰ الوجوهِ الكثيرة، وبيَّن فسادَ طريقتِهم؛ ذكَر خطابًا عامًّا، يعُمُّهم ويعُمُّ غيرَهم، في الدعوةِ إلىٰ دِينِ محمَّدٍ ﷺ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾(٢).

ولمَّا قرَّر أمرَ النبوَّةِ، وبيَّن الطريقَ الموصل إلىٰ العلمِ بها، ووعيدَ مَن أنكرها؛ خاطَب الناسَ عامَّةً بالدعوةِ، وإلزامِ الحجَّة، والوعيدِ علىٰ الردِّ، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾(٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ خطابٌ لجميعِ المكلَّفين، بعد أن حكىٰ سبحانه لرسولِه ﷺ تعلُّلَ اليهودِ بالأباطيل، واقتراحَهم الباطلَ تعنُّتًا، وردَّ جلَّ شأنُه عليهم بما ردَّ، وأكَّد ذلك بما أكَّد، وفي توجيهِ الخطاب إليهم وأمرِهم بالإيمان مشفوعًا بالوعدِ والوعيد بعد تنبيهٍ علىٰ أنَّ المحجَّةَ قد وضَحتْ والحجَّةَ قد لَزِمتْ؛ فلم يَبقَ لأحدٍ عُذْرٌ في القَبول(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٤٩).

(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٧٠).

(٣) محاسن التأويل (٣/ ٤٧٦).

(٤) روح المعاني (٣/ ١٩٨).

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾

لمَّا اقتضى السياقُ الأكمل فيما سبَق إتمامَ أمرِ عيسى عليه السلام؛ إذ كان الكلامُ في بيانِ عظيم جُرْأتِهم وجفاءَهم، وكان ما فعَلوا معه أدَلَّ دليلٍ على ذلك، وكان كلٌّ مِن أعدائه وأحبابِه قد ضَلَّ في أمرِه، وغلا في شأنِه اليهودُ بخَفْضِه، والنصارى برَفْعِه؛ اقتضى قانونُ العلمِ والحِكْمةِ المشارِ إليهما بختامِ الآية السالفة بيانَ ما هو الحقُّ مِن شأنِه، ودعاءَ الفريقينِ إليه، فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ (١).

استئنافٌ ابتدائيٌّ بخطابٍ موجَّه إلى النصارى خاصَّةً، وخوطِبوا بعنوانِ أهل الكتاب؛ تعريضًا بأنَّهم خالَفوا كتابَهم، وقرينةُ أنَّهم المرادُ هي قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ﴾؛ فإنَّه بيانٌ للمرادِ مِن إجمالِ قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾، وابتُدِئت موعظتُهم بالنَّهي عن الغُلُوِّ؛ لأنَّ النصارى غَلَوْا في تعظيمِ عيسى عليه السلام، فادَّعَوْا له بنوَّةَ اللهِ، وجعَلوه ثالثَ الآلهةِ (٢).

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٥١٨، ٥١٩).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٥٠).

لمَّا أجاب اللهُ تعالىٰ عن شُبَهِ اليهودِ الذين يبالِغون في الطَّعْنِ علىٰ المسيح عليه السلام، أخَذ في أمرِ النصارىٰ الذين يُفرِطون في تعظيمِ المسيح عليه السلام حتىٰ ادَّعَوْا فيه ما ادَّعَوْا[1].

لمَّا ذكَر الكفرَ في الآيةِ السابقة، ذكَر هنا الوسيلةَ المؤدِّية للكفر؛ وهو الغلوُّ في الأنبياءِ والصالحين.

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾

لمَّا كان الوكيلُ مَن يقومُ مقامَ الموكِّلِ، ويفعلُ ما يَعجِزُ عنه الموكِّلُ، وكان اللهُ تعالىٰ لا يُعجِزُه شيءٌ، ولا يَحتاج إلىٰ شيءٍ، وكان عيسىٰ عليه الصلاة السلام لا يدَّعي القدرةَ علىٰ شيءٍ إلا بالله، وكان يَحتاج إلىٰ النومِ، وإلىٰ الأكلِ والشُّرب، وإلىٰ ما يَستلزمانِه؛ صَحَّ أنَّه عبدُ الله، فقال سبحانه دالًّا علىٰ ذلك: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾[2].

استئنافٌ واقعٌ موقعَ تحقيقِ جملة ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، أو موقعَ الاستدلال علىٰ ما تضمَّنتْهُ جملةُ ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾[3].

إنَّه تعالىٰ لمَّا أقام الحجَّةَ القاطعة علىٰ أنَّ عيسىٰ عبدُ الله، ولا يجوز أن يكونَ ابنًا له؛ أشار بعده إلىٰ حكايةِ شُبْهتِهم، وأجاب عنها؛ وذلك لأنَّ الشُّبْهةَ التي عليها يعوِّلون في إثباتِ أنَّه ابنُ الله هو أنَّه كان يُخبِرُ عن المغيَّباتِ، وكان يأتي بخوارقِ العادات مِن

(١) البحر المحيط (٤/ ١٤٢).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٥٢٣).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٥٩).

الإحياءِ والإبراء، فكأنَّه تعالىٰ قال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ ﴾ بسببِ هذا القَدْرِ مِن العلم والقدرةِ عن عبادةِ الله تعالىٰ؛ فإنَّ الملائكةَ المقرَّبين أعلىٰ حالًا منه في العلمِ بالمغيَّبات؛ لأنَّهم مطَّلِعون علىٰ اللَّوْحِ المحفوظ، وأعلىٰ حالًا منه في القدرةِ؛ لأنَّ ثمانيةً منهم حمَلوا العرشَ علىٰ عظَمتِه، ثم إنَّ الملائكةَ -مع كمالِ حالهم في العلومِ والقدرة- لا يَستنكفوا عن عبودية الله، فكيف يستنكفُ المسيحُ عليه السلام عن عبوديَّتِه بسبب هذا القدرِ القليل الذي كان معه مِن العلمِ والقدرة؟!(١).

ثم برَّأ تعالىٰ جهةَ المسيحِ مِن أقوالهم، وخلَّصه للذي يَلِيقُ به، فقال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾(٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ غُلُوَّ النصارىٰ في عيسىٰ عليه السلام، وذكَر أنَّه عبدُه ورسوله؛ ذكَر هنا أنَّه لا يستنكِفُ عن عبادةِ ربِّه(٣).

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ ﴾ استئنافٌ مقرِّر لِما سبَق مِن التنزيه(٤).

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾

لمَّا عَمَّ بالحشرِ المستكبِرين وغيرَهم، جاء التفصيلُ إلىٰ القِسمَين، فقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ

---

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٧٣).

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ١٤٠).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٢١٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٦٠).

ﭐﺳۡﺘَﻨﻜَﻔُﻮاْ وَٱﺳۡﺘَﻜۡﺒَﺮُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾[1].

لمَّا ذكَر أنَّه يحشُرُ هؤلاء المستنكِفين المستكبِرين، لم يذكُرْ ما يفعلُ بهم، بل ذكَر أولًا ثوابَ المؤمنين المُطيعِين، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾، ثم ذكَر آخِرًا عقابَ المستنكِفين المستكبِرين، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾[2].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيانٌ لحالِ الفريق المَطْويِّ ذِكْرُه في الإجمال، قُدِّم على بيانِ حالِ ما يقابِلُه؛ إبانةً لفضله، ومسارعةً إلى بيانِ كونِ حَشْرِه أيضًا معتبَرًا في الإجمال، وإيرادُه بعنوانِ الإيمان والعملِ الصالح لا بوصفِ عدم الاستنكاف المناسِبِ لِما قبله وما بعده؛ للتنبيهِ على أنَّه المستتبعُ لِما يعقُبُه مِن الثمرات[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾

لمَّا أزاح شُبَهَ جميعِ المخالِفين مِن سائرِ الفِرَق: اليهودِ والنصارى والمنافِقين، وأقام الحجَّةَ عليهم، وأقام الأدلةَ القاطعة على حَشْرِ جميعِ المخلوقات، فثبَت أنَّهم كلَّهم عبيدُه؛ عَمَّ في الإرشادِ لُطْفًا منه بهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾[4].

(١) نظم الدرر (٥/ ٥٢٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٧٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٦٢).

(٤) نظم الدرر (٥/ ٥٢٦).

فَذْلكةٌ للكلامِ السابق بما هو جامعٌ للأخذِ بالهدىٰ، ونَبْذِ الضَّلال، بما اشتمَل عليه القرآنُ مِن دلائلِ الحقِّ، وكَبْحِ الباطل؛ فالجملةُ استئنافٌ وإقبال علىٰ خطابِ الناس كلِّهم بعد أن كان الخطابُ موجَّهًا إلىٰ أهلِ الكتاب خاصةً، والبرهانُ: الحجَّةُ، وقد يخصَّصُ بالحجَّةِ الواضحة الفاصلة، وهو غالبُ ما يُقصَدُ به في القرآنِ؛ ولهذا سمَّىٰ حكماءُ الإسلامِ أجَلَّ أنواعَ الدليلِ برهانًا(١).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلىٰ كافةِ المكلَّفين، إثرَ بيانِ بطلان ما عليه الكفَرةُ مِن فنونِ الكفر والضَّلال، وإلزامِهم بالبراهينِ القاطعة التي تَخِرُّ لها صُمُّ الجبال، وإزاحةِ شُبَهِهم الواهيةِ بالبيِّناتِ الواضحة، وتنبيهٌ لهم علىٰ أنَّ الحجَّةَ قد تمَّتْ؛ فلم يَبْقَ بعد ذلك علَّةٌ لمتعلِّلٍ، ولا عُذْرٌ لمعتذِرٍ(٢).

لمَّا أورَد الحجَّةَ علىٰ جميع الفِرَق مِن المنافِقين والكفار واليهودِ والنصارىٰ، وأجاب عن جميعِ شُبُهاتِهم؛ عمَّم الخطابَ، ودعا جميعَ الناس إلىٰ الاعتراف برسالةِ محمَّدٍ ﷺ، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، والبرهان هو محمَّد ﷺ(٣).

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾

ولمَّا أشارَ في هذه الآيةِ إلىٰ الرسولِ الأصفىٰ، والنبيِّ الأهدىٰ، المجبولِ علىٰ هذا العقلِ الأقوَمِ الأجلىٰ، والكتابِ الأتَمِّ الأوفىٰ، الجاري علىٰ هذا القانونِ الأعلىٰ،

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٦٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٦٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٧٤).

الوافي تعبيرُه الوجيزُ بأحكامِ الأُولىٰ والأخرىٰ، الكفيلِ سياقُه وترتيبُ آياتِه بوضوحِ الأدلة وظهورِ الحُجَجِ؛ أخذ يقسِّمُ المُنذَرِين، فقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾(١).

«أمَّا» في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ يجوز أن يكونَ للتفصيلِ؛ تفصيلًا لِما دلَّ عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مِن اختلافِ الفِرَقِ والنَّزعاتِ: بَيْنَ قابلٍ للبرهان والنور، ومكابِرٍ جاحد، ويكون معادِلُ هذا الشِّقِّ محذوفًا للتهويل؛ أي: وأمَّا الذين كفَروا، فلا تَسَلْ عنهم، ويجوز أن يكونَ «أمَّا» لمجرَّدِ الشَّرطِ دُونَ تفصيلٍ، وهو شرطٌ لعموم الأحوال؛ لأنَّ «أمَّا» في الشَّرطِ بمعنىٰ «مهما يكُنْ مِن شيءٍ»، وفي هذه الحالةِ لا تُفيدُ التفصيلَ، ولا تطلُبُ معادِلًا(٢).

لمَّا قرَّر علىٰ كلِّ العالَمِين كونَ محمَّدٍ ﷺ رسولًا، وكونَ القرآنِ كتابًا حقًّا؛ أمَرهم بعد ذلك أن يَتمسَّكوا بشريعةِ محمَّدٍ ﷺ، ووعَدهم عليه بالثوابِ، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾(٣).

انقسَم الناسُ -بحسَبِ الإيمانِ بالقرآن والانتفاعِ به- قِسمَينِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾، ومَن لم يؤمِنْ باللهِ ويعتصِمْ به ويَتمسَّكْ بكتابِه؛ منَعهم مِن رحمتِه، وحرَمهم مِن فضلِه، وخلَّىٰ بينهم وبين أنفسِهم، فلم يَهتدوا، بل ضَلُّوا ضلالًا مبينًا؛ عقوبةً لهم

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٥٢٧).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٦٣).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٧٤).

علىٰ تـركِهم الإيمـان؛ فحصَـلتْ لهـم الخَيْبـةُ والحِرمـان، نسـأله تعـالىٰ العفـوَ والعافية والمعافاة![1].

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

ولمَّا أتىٰ بأحدِ القِسمَينِ المذكورينِ في الآيةِ التي قبلها، ووصَفهم بالاعتصامِ بالله، في النُّصْرةِ، وقَبولِ جميعِ أحكامه، في الفرائضِ وغيرها، وافَقتْ أَهْواءَهم أو خالَفتْها؛ تعريضًا بالمنافِقين الذين والَوْا غيرَهم، وبالكافرين الذين آمَنوا ببعضٍ وكفَروا ببعضٍ، وترَكَ القسمَ الآخَرَ، وهو قسمُ المستنكِفين والمستكبِرين، ووضَع موضعَه حُكْمًا مِن أحكامِ الفرائض المفتتَحِ بها السُّورةُ، التي هي مِن أعظَمِ مقاصدِها، مِن غيرِ حرفِ عطفٍ، بل بكمالِ الاتصال، فقال - منكِرًا عليهم تكريرَ السؤال عن النساء والأطفال، بعد شافي المقال، مبيِّنًا أنَّه قد هدىٰ في ذلك كلِّه أقومَ طريقٍ -: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾[2].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٢١٧).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٥٢٩).

لا مناسبةَ بَيْنَ هذه الآيةِ وبين اللَّاتي قبلها؛ فوقوعُها عَقِبَها لا يكونُ إلا لأجلِ نزولها عَقِب نزولِ ما تقدَّمَها مِن هذه السُّورةِ مع مناسبتِها لآيةِ الكَلَالةِ السابقة في أثناءِ ذِكْرِ الفرائض؛ لأنَّ في هذه الآيةِ بيانًا لحقيقةِ الكلالة، أشار إليه قولُه تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، وقد تقدَّم في أولِ السُّورة أنَّه ألحَقَ بالكَلَالةِ المالكَ الذي ليس له والدٌ؛ وهو قولُ الجمهورِ، ومالكِ بن أنسٍ(١).

قد خُتِمتْ هذه السُّورةُ بهذه الآيةِ كما بُدِئتْ أولًا بأحكام الأموال في الإرثِ وغيرِه؛ ليَتشاكَلَ المبدأُ والمقطعُ، وكثيرًا ما وقَع ذلك في السُّوَرِ(٢).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ تكلَّم في أولِ السُّورة في أحكامِ الأموال، وختَم آخِرَها بذلك؛ ليكونَ الآخِرُ مشاكِلًا للأول، ووسَطُ السُّورةِ مشتمِلٌ علىٰ المناظَرةِ مع الفِرَقِ المخالِفين للدِّينِ(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٦٣).

(٢) البحر المحيط (٤/ ١٥٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٧٥).

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات